السودان
من التاريخ القديم
إلى رحلة البعثة المصرية
(الجزء الثاني)
عبد الله حسين

السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية (الجزء الثاني)

تأليف
عبد الله حسين

السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية (الجزء الثاني)

عبد الله حسين

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٧ ٠٥٢٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٣.

المحتويات

مُقدِّمة الجزء الثَّاني

بسم الله الرحمن الرحيم

وفَّقنا الله تعالى إلى إتمام الجزء الأوَّل من كتاب «السُّودان — من التَّاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية». وها نحن نبدأ الجزء الثَّاني، وقد جعلناه شاملًا لتاريخ إعادة السُّودان بقيادة اللُّورد كتشنر باشا واتِّفاقية السُّودان سنة ١٨٩٩ ونظام الحكم وحالة البلاد من وجوهها الإدارية والقضائية والزراعية والصِّناعيَّة والأدبيَّة والتَّعليمية والهندسيَّة وتطوُّرها في أثناء ذلك إلى بلوغها الوقت الحاضر، وأضفنا إلى ذلك بعض البيانات التي يحتاج إليها الباحث في شؤون السُّودان.

لقد وقف قارئ الجزء الأول على كيف اتَّجهت الحكومة الإنكليزيَّة إلى السُّودان فاهتمَّت بفتوح إسماعيل، وندبت غوردون ليكون من حُكَّامه، ثمَّ قرَّرت إخلاءه من الجيش المصري، ولكنْ أدَّى هذا الإخلاء إلى تفاقم الخطر على الحدود المصريَّة وإلى وقوع السُّودان تحت نِيرِ ثورة ومجاعة وفوضى، ورأت إنكلترا أن دولًا أخرى — ولا سيما فرنسا — اتجهت إلى استعمار السُّودان، منافِسة إنكلترا في استعمار أفريقيا واحتلال مصر، فقرَّرت إعادة فتح السُّودان بجيش مصري قائده إنكليزي هو اللُّورد كتشنر ومعه جنود إنكليزية.

وقد اطَّلعنا على ما كتبه عشرات المؤرِّخين والسِّياسيين الوطنيين المصريين في شأن إخلاء السُّودان ثمَّ تقرير استعادته، فكانوا يقولون: إنَّ إنكلترا أخلت السُّودان مقررة في الوقت ذاته أن تستعيده على الصورة التي أُعيد بها؛ أي باشتراك الجنود البريطانية مع الجيش المصري وللحكم طبقًا لنظام اتِّفاقيَّة ١٨٩٩ أو مثله.

والواقع أن إنكلترا لم تختطَّ خطة واحدة في هذا الصَّدد، وإن كانت وقفت موقف المُغتنم للفرص: وأحسب أنَّها حين قرَّرت إخلاء السُّودان، قد اتَّجهت إلى أن تُصبح مديريات السُّودان ممالك مستقلة، يسهل بسط الحماية البريطانية عليها؛ فيكون حكم السُّودان قليل النَّفقة. ولكن إخلاء السُّودان قد ترتَّب عليه اتِّحاده تحت لواء المهدي ثمَّ خليفته، ثم نشوب الفوضى فيه، وطمع فرنسا وغيرها في الاستيلاء عليه. فرأت إنكلترا أن السبيل اليسير — ويد احتلالها قوية في مصر وسلطانُها نافذ على الحكومة المصريَّة — أن تكون إعادة السُّودان باسم مصر مقرونًا باشتراك إنكلترا وبقيادة أحد ضباطها، وأن تدع للحوادث أن تُكمل الباقي. ويرى القارئ في الفصول الآتية كيف تطوَّرت الحوادث، وأن عوامل كثيرة اشتركت في هذا التطوُّر، منها ضعف الوزارات المصريَّة، وضعف الروح الوطنية المصريَّة بعد هزيمة عرابي وأسره والاتفاق الودِّي بين فرنسا وإنكلترا سنة ١٩٠٤، حيث أطلق لإنكلترا أن تبسط نفوذها على مصر بغير اعتراض، مقابل بسط فرنسا نفوذها ثمَّ حمايتها على مراكش، هذا إلى توزيع مناطق النفوذ في أفريقيا بين الدول الأوروبية الكبيرة.

إن نجاح الحكومة الإنكليزيَّة في سياستها وفي اغتنام الفُرص التي أظهرتها الحوادث يجب أن يُقدِّر فيه الكاتب مهارة إنكلترا في الحكم والنَّجاح في إدارة آلته، وفي روح السِّيادة التي يشعر بها البريطاني، وخاصة في بلاد أجنبية، ويجب أن يُقدر فيه ضعف الوزراء والحكام الوطنين واستخذاءهم، وأن قومًا في مصر لم يُحسنوا اغتنام الفرص، ولا توجيه الحكم لزيادة نفوذ مصر في السُّودان، بدلًا من الاستخذاء. وليس يطلب من إنكلترا أو من أي بلد أن تكفَّ عن الاستعمار والاحتلال وإنشاء الإمبراطوريات؛ فهذا شيء لم يعرفه التاريخ والطبائع البشرية، ولم يألفه الإنسان الطامح الطامع. فمن الطبيعي أن يكون للإنكليز سياستهم واستعمارهم واغتنام الفرص، وليس يطلب إليهم الكف عن ذلك، فهو في عُرفِهم خيانة وطنية. وإنما إذا وجَّهنا اللَّوم فإلى أنفسنا أو إلى المسئولين فينا عن تطوُّر الحوادث بسرعة ضدَّ مصلحة مصر، حتَّى إذا استيقظت، لقيت الأمة المصريَّة العقبات المتأصِّلة.

الفصل الأول

الإنكليز في أفريقيا

اهتمت إنكلترا منذ زمان بعيد باستعمار أفريقيا. وفي شهر سبتمبر سنة ١٨٧٧ كتب المستر غلادستون في مجلة القرن التاسع عشر يقول: «إذا توطَّدت أقدامنا في مصر تكون هذه المستعمرة الأولى بوجه التَّحقيق بمثابة ذريعة لتأسيس إمبراطورية شاسعة في أفريقيا الشمالية، تأخذ في النمو تدريجيًّا إلى أن تدخل في تخومها منابع النِّيل الأبيض. بل تنتهي بدون شكٍّ بأن تجتاز خطَّ الاستواء لتتَّصل بمستعمرتيْ الناتال ورأس العشم، وذلك بغضِّ النَّظر عن الترنسفال ونهر الأورنج، وكذلك يكون الحال في الحبشة وزنجبار.»

وقد احتلت إنكلترا مصر عام ١٨٨٣، واستولت على الأوغندا ونواحي خط الاستواء والأونيورو سنة ١٨٩٠، ووادلاي سنة ١٨٩٥.

وقد عقدت الاتِّفاقيات الآتية:

(١) الاتِّفاقيَّة الإنكليزيَّة الألمانية في أول نوفمبر سنة ١٨٨٦.
(٢) الاتِّفاقيَّة الإنكليزيَّة الإيطالية في أول يولية سنة ١٨٩٠.
(٣) الاتِّفاقيَّة الإنكليزيَّة مع الكونغو ١٢ مايو سنة ١٨٩٤.

والغرض من هذه الاتِّفاقيات الثلاث تحديد مناطق نفوذ إنكلترا في نواحي أعالي النِّيل والسُّودان الشرقي.

هذا إلى أن فرنسا كانت تُزاحم إنكلترا في القارة الأفريقية.

(١) الأوربيون وأفريقية قبل القرن التاسع عشر

لم يكن الأوربيون يعرفون من أفريقية في قديم الزمان إلَّا سواحلها الشمالية، ثمَّ بدأوا في القرن الخامس عشر يكشفون سواحلها الغربية، ثمَّ داروا حول الرأس وساروا وسواحلَها الشرقية حتَّى وُفِّق فاسكو دي جاما البرتغالي إلى بلوغ الهند، وقد ألهى الأوربيين كنوزُ الهند وبيرو والمكسيك عن ارتياد مجاهل أفريقية «أو القارة المظلمة كما كانوا يسمونها».

(٢) الأوربيون وأفريقية أول القرن التاسع عشر[١]

ولما وقفت رحى الحرب بين نابليون وأوربة عام ١٨١٥ كان شمالي أفريقية «مصر وطرابلس وتونس والجزائر» تابعًا لتركيا تبعية فعلية أو اسمية، وكان للبرتغاليين السِّيادة على أصقاع على الساحل الشَّرقي تجاه مدغشقر، وكان للإنكليز والفرنسيين وغيرهم على الساحل الغربي محاطٌّ أو مستعمرات، وكان كلّ ما للإنكليز في أفريقية هو غمبيا وسيراليون وساحل الذهب على الشاطئ الشرقي ومستعمرة الرأس في الجنوب وجزائر سنت هيلانه وأسنشن وموريشس وسيشل.

وقد نبَّه الدول الأوربيَّة إلى استعمار داخل أفريقية طلابُ كشفٍ أبطالٌ مغامرون رموا بأنفسهم في مجاهل القارة؛ ليُميطوا اللِّثام عنها، ومن أمثال هؤلاء سبيك وجرانت وبيكر ولفنجستون وستانلي، فضلًا عن مصريين أمثال: الضابط المصري البحري الميرالاي سليم مطر بك قائد معسكر خط الاستواء الذي كشف النِّيل الأبيض.

(٣) الإنكليز وأفريقية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

وقد أضاف الإنكليز خلال القرن التاسع عشر إلى مستعمراتهم السابقة ناتال والأورنج والترنسفال، «وتألف من المستعمرات الثلاث ومستعمرة الرأس اتحاد جنوبي أفريقية» وبتشوانالاند ونيسالاند وبسوتولاند وروديسيا وأفريقية الشرقية البريطانية وأوغندا ونيجيريا والصومال، ولما هُزمت ألمانيا في الحرب العُظمى «١٩١٤–١٩١٨» انتدبت إنكلترا لإدارة بلاد تنجانيقا «الألمانية» كما انتدبت حكومة اتحاد جنوبي أفريقية لإدارة أفريقية الجنوبية الغربية «الألمانية».

ولا يتمتع من كلّ هذه المستعمرات بالحكم الذاتي إلَّا اتِّحاد جنوبي أفريقية؛ لهذا نتكلم عنه ببعض التَّفصيل:

(٣-١) كيف استولى الإنكليز على مستعمرة الرأس؟

كان الهولنديون قد أنشأوا لهم مستعمرة عند رأس الرجاء الصالح لتكون محطًّا تتزوَّد منه سفنهم التي تتَّجر مع الشرق، ويُعرف المستعمرون الهولنديون بالبوير، وهي كلمة معناها الفلاحون، ولعلَّها أُطلقت عليهم لاشتغالهم بالزراعة وإيثارهم لها على أية مهنة أخرى. ولمَّا تدخَّلت فرنسا في شؤون هولندة في عهدي الثَّورة الفرنسية ونابليون وأخضعتها لحكمها، قامت إنكلترا عدوة نابليون وانتزعت مستعمرة الرأس من هولندة «١٨٠٦»؛ لأنَّها قدَّرت قيمة تلك المستعمرة في حفظ مواصلاتها مع الهند.

وأقرَّ مؤتمر فينا عام ١٨١٥ ضم الرأس إلى إنكلترا كفاء تعويض يُعطى لهولندة وقدره ستة ملايين من الجنيهات.

(٣-٢) النزاع بين الإنكليز والبوير

غيَّر الإنكليز النُّظم الحكومية التي اعتادها البوير، كما جعلوا اللغة الإنكليزيَّة اللغة الرَّسمية؛ فحنق البوير وأحسُّوا أنَّهم فقدوا حريتهم، واشتدَّ حنقهم لمَّا ألغت إنكلترا الرقَّ «١٨٣٤»، وكان البوير يستعينون بالأرقاء على فلح الأرض، ولم تمنح الحكومة الإنكليزيَّة البوير إلَّا ثلاثة ملايين من الجنيهات تعويضًا، وهذا المبلغ لا يكاد يساوي ثُلث خسارتهم بهذا الإلغاء، لكل هذا فكَّر غالب البوير في الارتحال عن مستعمرة الرأس إلى الشَّمال والشمال الشرقي، حيث يستطيعون أن يعيشوا أحرارًا لا يستلب حريتهم أحد، فبدأوا «الانسحاب العظيم The Great Trek» عام ١٨٣٦، فخرجوا طوائف تهيم في مجاهل البلاد ومعهم قطعانهم وثيرانهم وعجلاتهم السَّاذجة تجرُّ الواحدة منها سبعة أو ثمانية أزواج من الثيران وتحمل أمتعتهم وأثقالهم، وبلغ عدد المنسحبين نحو ١٠٠٠٠ من بينهم غلام نجيب يُسمَّى كروجر «كان له شأن فيما بعد»، ونزل بعض المنسحبين في ناتال، والبعض الآخر استوطن ما بين نهر الأورنج وفرعه المُسمَّى الفال، وقطن آخرون بإقليم شماليِّ نهر الفال.

وأنشأ البوير لهم في ناتال جمهورية «١٨٣٨»، ولكنَّ الإنكليز تعقبوهم هناك أيضًا وضايقوهم، وأعلنوا ضمَّ جمهوريتهم عام ١٨٤٣ بدعوى أنَّ البوير رعاياهم أنَّى رحلوا، وبحجة أنَّ مستعمرة الرأس يهددها نزاع متواصل بين البوير في الناتال وجيرانهم المتوحِّشين المعروفين «بالكافير»[٢] أو الكفرة.

لم تر كثرة بوير الناتال بُدًّا من أن ينسحبوا مرة أخرى من الناتال وينضموا إلى إخوانهم النازلين بين الأورنج والفال، فكان ذلك مبدأ تأسيس «ولاية الأورنج الحرة»، فأعلنت إنكلترا ضمَّها أيضًا ١٨٤٨، فخرج كثير من البوير مرة ثالثة لينضموا إلى إخوانهم الذين عبروا الفال في الهجرة الأولى، وكوَّنوا معهم جمهورية الترنسفال أو جمهورية جنوبي أفريقية «١٨٤٩»، فاعترفت إنكلترا باستقلالها «١٨٥٢» قانعة بضمان حرية التجارة فيها، والذي حدا بالإنكليز إلى الاعتراف باستقلال الترنسفال أنهم بدأوا يحسون ثقل التَّبعة المُلقاة على عواتقهم لكثرة مستعمراتهم، وفي عام ١٨٥٤ نزلت إنكلترا عن سيادتها عن ولاية الأورنج؛ لأنها رأت أنها تحمل عبء الدفاع ونفقاته عن هذه الولاية في وجه قبائل البسوتو المتوحشة المجاورة، وظلت ولاية الأورنج حتَّى سنة ١٨٩٦ صديقة لمستعمرة الرأس الإنكليزية.

إذن: صارت للبوير جمهوريتان مستقلتان هما الأورنج والترنسفال، وللإنكليز مستعمرتان هما الرأس والناتال.

(٣-٣) النزاع بين بوير الترنسفال والإنكليز

في عام ١٨٧٧ أعلن لورد بيكنز فيلد رئيس الوزارة الإنكليزيَّة وزعيم المحافظين ضمَّ الترنسفال إلى الأملاك الإنكليزيَّة بحجة أن فتنًا متواصلة تقوم بين البوير والوطنيين في الترنسفال فتُهدِّد أملاك إنكلترا.

ثم تولَّى غلادستون زعيم الأحرار الوزارة بعد بيكنز فيلد «١٨٨٠»، ولم يكن غلادستون قد اعتنق الآراء الاستعمارية بعد، فأراد أن يُرضي البوير، ولكنَّ هؤلاء ثاروا بزعامة ثلاثة من رجالهم أظهرهم كروجر وهزموا الجيش الإنكليزي في موقعة «تل ماجوبا» في فبراير سنة ١٨٨١، ولم تكن الواقعة من الوقائع الحربية المجيدة، إلَّا أن البوير اعتزُّوا بها واغترُّوا بأنفسهم غرورًا جنى عليهم فيما بعد، واعترف غلادستون باستقلال الترنسفال« ١٨٨١» تحت سيادة إنكلترا.

ولكنَّ البوير أنِفوا أن يكون لأحدٍ سيادة عليهم، فنازعوا الإنكليز حتَّى عقد الإنكليز معهم معاهدة لندن «١٨٨٤»، ونزلوا فيها عن هذه السِّيادة مقابل ترخيص البوير للأوربيين جميعًا في استيطان جمهوريتهم والاتِّجار فيها.

(٣-٤) عودة النزاع بين الترنسفال والإنكليز

في عام ١٨٥٥ كشف الذهب في الترنسفال، فلم يُقبِل البوير إقبالا كبيرًا على استخراجه؛ لأنَّه لا يروقهم إلَّا الاشتغال بالزراعة ورعي الماشية، واجتذب الذهب إلى بلادهم أفواجًا عظيمة من الأوربيين، لا سيما الإنكليز، حتَّى أربى عددهم على عدد البوير، ونشأت مدينة جوهانسبرج في بضع سنوات، ومُدَّت سكك الحديد.

كذلك كُشف الماس في ولاية الأورنج فنزح إليها الأوربيون أيضًا.

(٣-٥) سسل رودس

كان من بين من نزح إلى جنوبي أفريقية سسل رودس الإنكليزي، فإنَّه بعد أن أتمَّ دراسته في أكسفورد ذهب يبحث عن الماس، وكان مصدورًا فشُفي، وأثرى إثراءً عظيمًا، وصار رئيس وزراء مستعمرة الرأس، وأخذ ينشر فكرة الجامعة البريطانية التي تنطوي على إنشاء إمبراطورية أفريقية تمتد من الرأس إلى القاهرة، والسعي في تلوين معظم أفريقية باللون الأحمر الإنكليزي». وأنشأ عام ١٨٨٩ «شركة أفريقية الجنوبية» على مثال شركة الهند، وتمكَّنت الشركة عام ١٨٩٠ بمعاضدة الحكومة الإنكليزيَّة من إنشاء مستعمرة في حوض نهر الزمبيزي سميت روديسيا «نسبة إلى رودس مُنشِئِها».

(٣-٦) الإنكليز يضايقون بوير الترنسفال

إن استقلال البوير في جمهوريتهم ليتعارض ومشروع رودس، لذلك اعتزم رودس أن يقضى على ذلك الاستقلال، وشاركته الحكومة الإنكليزيَّة في عزمه؛ ولذا نرى الإنكليز يستولون على الساحل الشَّرقي من الناتال إلى أفريقية الشرقية البرتغالية فيقطعون على الترنسفال الطريق إلى البحر، كذلك نرى «شركة أفريقية الجنوبية» تنشئ إقليم روديسيا فتقطع على الترنسفال طريق التوغُّل إلى الزَّمبيزي شمالًا وتهددها كذلك.

أحاطت هذه المستعمرات الإنكليزيَّة بالترنسفال والأورنج، وأدرك البوير ما ينتويه الإنكليز لهم، فرأى كروجر رئيس جمهورية الترنسفال ضرورة اتِّباع سياسة حازمة فعارض في المهاجرة إلى جمهوريته، ولما طلب الأجانب "Outlanders" أن يسمح لهم بحق الانتخاب لينتخبوا من يرعى لهم مصالحهم أبى البوير عليهم ما أرادوا فاستنجد الأجانب بسسل رودس، وصادف هذا الاستنجاد هوًى في نفسه، فبعث إليهم بحملة يقودها

الدكتور جيمسن، فأسرها البوير في يناير سنة ١٨٩٦، وسلموها لإنكلترا تسامحًا وكرمًا كي تعاقبهم كما تشاء، فلم تعاقبهم، فاستيقن البوير أن إنكلترا تشارك رودس آراءه، ثمَّ انتدبت إنكلترا لورد ألفرد ملنر حاكم الرأس ليفاوض البوير في السماح للأجانب بحق الانتخاب، فاجتمع ملنر بكروجر رئيس جمهورية الترنسفال وحضر الاجتماع رئيس جمهورية الأورنج بصفة غير رسمية، وأبى كروجر إباءً شديدًا أن يسمح للأجانب بحق الانتخاب، مستمسكًا بأن «أفريقية للأفريقيين» أي للبوير. فنصح ملنر لحكومته بالحرب.

(٣-٧) حرب البوير ١٨٩٩–١٩٠٢

نشبت الحرب بين الإنكليز والترنسفال وانضمت جمهورية الأورنج إلى شقيقتها، وأظهر البوير وهم لا يزيدون على ٣٠٠٠٠٠ استبسالًا عجيبًا في وجه أقوى دولة أوربية، وأغاروا على الناتال والرأس وحاصروا أهم مدنهما. وكان أهم قوادهم بوثا Botha، وكانت إنكلترا تستخفُّ بادئ الأمر بالبوير، ولكنَّها لما رأت ظَفَرَهم، جمعت من بلادها ومستعمراتها جيشًا هائلًا وأمَّرت عليه لورد روبرتس أعظم قوادها، ثمَّ أمدَّته بلورد كتشنر، وبدأ الجيش الإنكليزي يكتسح بلاد البوير مخرِّبًا، وقام كتشنر يحتجز النساء والأطفال كرهائن في نقط عسكرية، ولسوء وسائل الصحة والتغذية كان يهلك منهم الألوف، فأُكره البوير على الصلح إشفاقًا على نسائهم وأطفالهم، وقد كانوا يستطيعون أن يداوموا القتال مدة أخرى.

وخسر الإنكليز في هذه الحرب نحو ٢٠٠ مليون من الجنيهات ونحو ربع جيشهم، ومات سسل رودس «أو نابليون الرأس كما يسميه قومه» قبل أن يعقد الصلح بثلاثة أشهر ودفن في رودسيا، وتم الصلح بمعاهدة فرينيجنج Vereeniging في مايو ١٩٠٢ على يد ملنر وزعماء البوير، وأهم شروطها:

(١) ضم الترنسفال والأورنج إلى المستعمرات الإنكليزية.
(٢) احترام لغة البوير كلما سمحت بذلك الأحوال.
(٣) تكفل إنكلترا بمنح المال اللازم لإصلاح ما خرَّبته الحرب.

وعهد إلى ملنر بإدارة ولايتي الترنسفال والأورنج، وفي عام ١٩٠٧ منحت إنكلترا كلًّا من الولايتين الحكم الذاتي «وكانت الكاب والناتال قد مُنحتا من قبل هذا النوع من الحكم».

وفي ١٩٠٩ وافق البرلمان الإنكليزي على إنشاء «اتحاد جنوبي أفريقية» المكوَّن من الرأس وناتال والترنسفال والأورنج، ويتولى أمر هذا الاتحاد حاكم عام تعينه إنكلترا، ووزارة مسئولة مقرُّها بريتوريا، وبرلمان ذو مجلسين أحدهما للشيوخ[٣] والآخر للنواب، ومقر البرلمان مدينة الرأس، وجعلت الهولندية والإنكليزية لغتين، وهذا النِّظام شبيه بنظام ولايات كندا المتحدة.

وبُدئ ذلك النِّظام عام ١٩١٠، وكان (بوثا) قائد البوير أول رئيس وزارة للنظام الجديد.[٤]

هوامش

(١) تاريخ مصر الحديث — عباس الخرادلي.

(٢) كلمة الكافير كلمة مشتقة من كلمة كافر العربية.

(٣) مجلس الشيوخ مؤلف من ٤٠ عضوًا؛ ثمانية عن كل مستعمرة، وثمانية يعينهم الحاكم.

(٤) كثر أعضاء السلطة التشريعية اليوم من البوير، وهم سائدون في مناصب الحكومة ويحاولون التخلص من كثير من الموظفين الإنكليز.

الفصل الثاني

الإنكليز كحكَّام ومستعمرين

للإنكليز إمبراطورية واسعة منتشرة في جميع القارات، ويسكنها شعوب مختلفو الألوان والأديان والمذاهب والعادات. وهذه الإمبراطُوريَّة معبود الإنكليز. والمحافظة عليها أهم ما يشغلهم، وسياستهم في مصر والسُّودان تتأثر بالسياسة الإمبراطُوريَّة قبل الاعتبارات الأخرى. ولو لم يكن للإنكليز من أخلاقهم وطبيعة بلادهم ما يدعوهم إلى الاستعمار وحكم بلاد نائية، ما كان ممكنًا أن تقوم هذه الإمبراطُوريَّة وأن تعيش حتَّى الآن، بالرَّغم من الحوادث الكثيرة.

والإنكليز يحتلُّون مصر والسُّودان ولهم أمر ونهي فيهما، وكلمتهم مسموعة أكثر من كلمة الوطنيين أنفسهم؛ ولذا أصبح لزامًا على كلّ مصري وسوداني أن يقرأ تاريخ الإنكليز وأن يعرف سرَّ نجاحهم، سواء بزيارته لإنكلترا أم بملاحظته لأساليب الحكم الإنكليزي وخُلُق الإنكليز في مجتمعاتهم ومع أصدقائهم أم بالاطلاع على المؤلفات التي كُتبت عنهم، وهي مؤلَّفات تُعدُّ بالمئات وبمختلف اللغات. وآخر ما ظهر من المؤلَّفات في العربية كتاب «الإنكليز في بلادهم» لسعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا، جمع فيه معلومات عن الحياة الداخلية الإنكليزية، من وجوهها الاجتماعيَّة والتَّعليميَّة والرياضيَّة والسِّياسية والاقتصاديَّة، ومن الخير أن تكثُر الكتب التي تُؤلَّف في تعريف الإنكليز وسياستهم وأحزابهم، وأن يدوِّن المصريون ما يعلمونه عنهم بالاستقراء والمشاهدة، وأن يُعنَى الكاتبون بعلاقة ذلك كله بمصر والسُّودان والاستعمار.

أمَّا نجاح الإنكليز في الاستعمار نجاحًا لا مثيل له، فيجب أن نُرجِعه بالضرورة إلى أسبابه ونأخذه من مظانِّه على النَّحو التَّالي:

(١) عُزلة إنكلترا عن القارَّة الأوروبية — قد مكَّنتها من أن تتَّخذ لنفسها سياسة خاصة، بينما استهدفت الممالك الأوروبية إلى المنافسات والحروب، التي اغتنمت إنكلترا فرصتها لمصلحة نفسها.

(٢) حاجتها إلى المواد الخام لصناعتها الناهضة — أدَّت بها إلى البحث عن هذه المواد في البلاد الأخرى وحمل المشاق.

(٣) بُعد الإنكليز عن الفلسفة والنَّظريات — لا يُتعِب الإنكليز أنفسهم في المناقشات والنَّظريَّات. بل ينظرون إلى المصلحة ويتحرَّونها ويتَّخذون مختلف الوسائل المؤدِّية إلى ذلك. ولذلك لا تعيش إنكلترا على الدستور المكتوب والقوانين المدوَّنة. وينهج قُضَاتها في أحكامهم منهج وزن الوقائع قبل وزن النَّظريات القانونية.

(٤) ديموقراطيَّة الإنكليز في بلادهم — هيَّأت لكلٍّ منهم أن يُبرِز كفايته.

(٥) وَلَعهم الطَّبيعي بالألعاب الرِّياضية — جعلهم ينظرون إلى السِّياسة كلُعبة من الألعاب.

(٦) الاعتماد على الزَّمن وانتهاز الفُرص — لا يُحدِّد الإنكليز أمانيهم بوقت بل يعملون لتحقيقها ويعتمدون على الزَّمن وعلى ظهور الفُرص واهتِبالِها.

(٧) روح السِّيادة التي يشعر الإنكليزي بها وإحساسه بأنَّه متفوق على غيره، فَلَكَم خَلَقَ الشعور بالسِّيادة والذَّاتية والاعتزاز بالنفس الزعماء والأبطال.

(٨) نظامهم التَّعليمي ومُطابقته للأخلاق الإنكليزيَّة وطبيعة البلاد وحاجتها.

(٩) جريهم في حكم المستعمرات ونحوها على الاستتار خلف حكومات وطنية.

هذا شيء من أسباب نجاحهم الاستعماري.

ونُورد فيما يلي آراء بعض الكتَّاب والمؤلِّفين في الإنكليز.

(١) كيف نفهم الرجل الإنكليزي؟

ألقى مستر جيلان بالإسكندرية محاضرة في هذا الموضوع قال فيها:

> الطريقة المثلى لِنَفْهم مزاج الإنكليزي وطبائعه إنَّما هو درس حالته في وطنه «إنكلترا»؛ ذلك لأنَّ ما يبدو من التَّفاوت بين الإنكليزي في الخارج من صفات الكبرياء والصَّلَف والغرور واحتقار كلّ ما ليس إنكليزيًّا وبين ما يظهر به في بلاده من الصِّفات والأحوال، إنَّما يرجع إلى أسباب يحسن الوقوف عليها؛ إذ الواقع أنَّه ليس به كبرياء وإنَّما هو شعور بالذَّاتية يرجع إلى ما يقدِّره في نفسه من اتِّجاه الأنظار إليه، وهذه حالة تبعثه على التَّحوط والحذر حتَّى لا يكون عُرضة لقلة التَّرحيب به من الغير؛ ممَّا يؤدِّي إلى الخطأ في تقدير أنَّ مظهره هذا ناشئ عن الصَّلف والغرور. يُضاف إلى ذلك أنَّ الإنكليزي في الخارج إنَّما يتمثَّل في غالب الأحوال في طبقة السُّيَّاح الذين هم من أهل الثَّراء، والذين تعوَّدوا فرض مشيئتهم على الغير في بلادهم والسِّيادة في المناطق الأجنبيَّة.

وقد تكلَّم المحاضر بعد ذلك عن الحياة البَيْتيَّة وحبِّ الإنكليزي للاجتماع العائلي، وضرب لذلك مثلًا ممَّا جاء في كتاب المستر «وينر» في وصف المنزل الإنكليزي، وقابل صفات الإنكليز بغيرهم من أهل أوربا من حيث سهولة الاتِّصال الشَّخصي أو صعوبته، فإنَّ الرجل الأوربِّي قد تتوثَّق الصَّداقة بينه وبين غيره من دون أن يترتَّب على ذلك تبادل الزيارة المنزلية، على عكس الرجل الإنكليزي في بلاده فإنَّه يدعوك إلى الغداء في بيته ولو لم تكن مُستعدًّا لردِّ هذا الجميل إليه — ثمَّ انتقل المحاضر إلى نظام الطَّعام في إنكلترا وبساطته وقال: إنَّ الإنكليز يُعنَوْن بكيفية أكل الطعام أكثر من اهتمامهم بصنوفه، ثمَّ وصف بيان الوجبات التي يأكلها الإنكليز في الصباح والظهر والمساء والليل، واستطرد إلى أسلوب المحادثة، ووصف الإنكليز بأنَّهم قومٌ يميلون إلى الصَّمت والإقلال من الكلام، وأنّ الحديث يبدأ عادة بحالة الطقس، وأنَّهم يستنكرون الإيماء بالأيدي في أثناء المحادثة، ولا يحبون الوقوف للكلام في أثناء السَّير في الطريق للإشارة بعلامات إلى موضوع الحديث أو مسِّ أحد جوانب صديقه بيده؛ فإنَّ هذه الأفعال جميعها غير لائقة في إنكلترا، والتَّعبير بعبارة غير لائقة هو القاعدة أو المبدأ الذي يراعى عند الإنكليز في كلّ ما له علاقة بآداب السُّلوك. واستشهد المحاضر بقول رئيس شرطة إنكلترا من أنَّ قول الرجل للمرأة بلا موجب في الطريق العام «مساء الخير» قد يكون سببًا كافيًا للقبض عليه. ويقول

المحاضر: إنَّ الإنكليز يستنكرون مخاطبة الرجل للرجل من دون سبق تعارف، وإنَّه إذا قَدِم أحدهم للآخر كان على الأخير أن يُبدي ابتسامة قائلًا: «كيف حالك؟» وأن يكون الردُّ على ذلك هو أيضًا «كيف حالك؟» وعندئذ تنتهي إجراءات التَّعارف ويسوّغ الشُّروع في المحادثة.

وانتقل المحاضر بعد ذلك إلى التَّعليم في المدارس العامَّة الإنكليزيَّة، وأنَّها تُعِدُّ مُتخرِّجيها لوظائف الحكومة لما هو مفروض فيهم من الاستعداد الخلقي والمقدرة على السَّير في معترك الحياة بأمانة واعتدال. وانتقل من ذلك إلى طبقة الأرستقراطيَّة التي كانت مقصورة على الأسر العريقة في الحسب والنَّسب، ثمَّ اندمج فيها رجال المال من أصحاب الصُّحف والشَّركات والأعمال، وذكر المحاضر أنَّ ممثلي إنكلترا في الخارج وكبار رجال موظفي الخارجيَّة والسِّفارات وحكَّام المستعمرات يُختارون من أفراد الطَّبقة العُليا الحائزين للدَّرجات العِلميَّة والكفايات الممتازة، ويُختار من هؤلاء أيضًا رجال القضاء والكنيسة وعظماء الضبَّاط في الجيش والبحرية، وهذه الطبقة هي التي يبني عليها الأجانب حكمهم عن أخلاق الإنكليز وعاداتهم.

وقد كان المحاضر يقتبس نُبذًا من أقوال الأجانب عن الإنكليز قائلًا: إنَّ كلامهم أوقع في إيضاح ما ينبغي في الموضوع، واستشهد بما يُنسب إلى الإنكليز من أنَّهم قد يضحكون في الأحوال التي لا تُثير الضَّحك عند غيرهم، وأشار المحاضر إلى عدم وجود المقاهي في إنكلترا، وأنَّ أمكنة الشَّراب ضيقة النِّطاق.

وأمَّا الألعاب التي يُعدُّ الإنكليز أصحاب القدح المعلَّى فيها، فقد قال المحاضر: إنَّ نسبة المشتغلين بها من الإنكليز قليلة، فإنَّ كرة القدم التي يلعبها اثنان وعشرون رجلًا في الحلبة يكون المتفرجون فيها عشرين ألفًا، وإنَّ حبَّ الإنكليز للألعاب ينحصر في دور الدِّراسة حيث يُخصَّص لها جزءٌ من برنامج التَّعليم، فإنها تُروِّض الأولاد على النَّظر إلى الحياة نظرة صالحة وأن يتلقَّوا الصَّدمات من دون تذمُّر.

والإنكليز يتمسَّكون بمظهر الانسجام: هم — على حريتهم — يحافظون على التَّقاليد ومصطلحات الحياة، وهم في مدارسهم العامَّة لا يتَّخذون رداءً مُعيَّنًا، ويعتبرون التَّقيد بذلك ماسًّا بحريتهم، ويتركون التلاميذ يرتدون ما يشاؤون، وهذا يُؤدِّي إلى ظهور التَّلاميذ بشكل واحد وليس عليهم مسيطر إلَّا الرأي العام، ولا شكَّ في أنَّ الإخلال والخروج عن المألوف يُعدُّ جريمةً، واللِّياقة عندهم هي ما يكون خاضعًا لِما يتطلَّبه الرأي العام، وكلُّ من يخرج عن هذا المبدأ يُعدُّ خارجًا.

وانتقل المحاضر بعد ذلك إلى المرأة الإنكليزيَّة قائلًا: إنَّ مكانتها عالية في الهيئة الاجتماعيَّة الإنكليزية؛ فإنها ذات نصيب وافر من الثَّقافة، وهي تُعامل بكلِّ احترام وتنتظر كلّ تقدير وتبجيل من ناحية الرجل. وإنَّ النساء أصبح لهنَّ حقُّ الاشتراك في الانتخابات وعضوية البرلمان ومزاولة صناعتي المحاماة والطِّب. وكنَّ السَّابقات إلى الإصلاحات الاجتماعيَّة، وهنَّ صاحبات الفضل في رفع الشَّكوى لإصلاح مساكن الطَّبقات الفقيرة والمحالِّ العُموميَّة، وإنَّ الأمَّ الإنكليزيَّة تحبُّ أطفالها، ولكنَّها لا تُفسد طباعهم ولا تُحجِم عن إرسالهم إلى المدارس الداخليَّة، وتُخفي دومًا شعورها إذا فارقتهم، كما أنَّ الولد من جانبه يرى من اللَّائق عدم إظهار التَّألم عند الفراق. وإنَّ أبناء الإنكليز يُتاح لهم نصيب وافر من الحرية لتكوين جماعات من الأصدقاء والعناية بما يهوون من الرَّغبات البريئة.

وقد استطرد المحاضر إلى نظام فِرَقِ الكشَّافة قائلًا: إنَّها ترجع إلى فكرة إنكليزية، ثمَّ انتشرت إلى البُلدان الأخرى، ولكنَّها تحوَّلت إلى غير معناها ومقصدها الأصلي؛ فإنَّه في البُلدان الأوربيَّة انقلبت نظامًا عسكريًّا، وهو ما ينبغي أن يتجنَّبه منظمو هذه الهيئات؛ إذ إنَّ المقصود من هذا النِّظام هو تكوين خلق النَّشء وتشجيع حبِّ الطَّبيعة والهوايات وحبِّ المطالعة وطرق الانتفاع بالأشياء. وقد وصف المحاضر حي الستي في مدينة لندن التي يرحل إليها كلّ مسافر إلى إنكلترا بأنَّ منطقة هذا الحي مجمع لكلِّ مظاهر النَّشاط والحياة والعمران، فهو مركز حركة الأعمال العالمية، وفيها البورصة الملكية وبنك إنكلترا.

وإنَّ خصائص الستي أنَّ كلّ شيء فيها يدلّ على السرعة، فليس فيها مقاهٍ للجلوس والتَّدخين ولعب الورق، وهناك ترى قاعدة «الوقت من ذهب» ظاهرةً أينما سِرتَ؛ فلا يقف النَّاس في الطَّريق لتبادل الحديث، ولا يسيرون لمجرد الرِّياضة؛ فإنَّ هذا النَّوع إنَّما يُقضى في البساتين، وليس الطريق إلَّا وسيلة الانتقال من مكان لآخر؛ إذ التَّسكع في الطريق جريمة، ورجال الشرطة لا يسمحون لرجل بالوقوف طويلًا إذا لحظوا ذلك.

ورجال البوليس مشهودٌ لهم بحُسن المعاملة وإرشاد الجمهور إلى ما يرغبون، وهم حُجَّة في تقدير الوقت ويراقبون مرور الأشخاص والمركبات بحِذْق ومهارة. والإنكليز مشهورون بحبِّهم للحيوانات، ويرجع ذلك إلى تربيتهم وعلمهم بأنَّ للحيوانات إحساسًا كما للإنسان. وليس من عادة الإنكليزي إذا التقى بآخر أن يرفع قُبَّعته للتَّسليم، وإنَّما يكتفي بإيماءة برأسه، وإذا وقفا فلا يُسلِّمان باليد، ويُلاحظ أنَّ الإنكليز إذا وُجِد اثنان أو ثلاثة منهم أمام باب، فلا يحاول أحدهم دعوة الآخرين للدُّخول بل المتَّبع في ذلك

لديهم أنَّ «الوقت من ذهب»، وأنَ أقربهم من الباب يدخل الباب أولًا — وأمَّا المُتنزَّهات فإنها مفتوحة لجميع النَّاس وليس بها إعلانات بمنع السَّير على العُشب.

ويزدحم النَّاس صباحًا أيام الآحاد في هذه المتنزَّهات فيجلسون على كراسي موزَّعة في أنحاء كلّ متنزَّه، ويدفع الزَّائر بِنسين عن تذكرةٍ لاستعمال كرسيٍّ، وهذه التَّذكرة تُخوِّل استعمال كراسي جميع المتنزهات طيلة اليوم، وتمتاز هذه المتنزهات بمن يجتمع فيها من خُطباء الجمهور في أماكن مختلفة من دون أن يعترض للخطيب أو السَّامعين أحدٌ ما داموا محافظين على النِّظام. أمَّا مواعيد المحال العامَّة فهي محددة حسب الأصناف التي تباع فيها. وقد قال المحاضر في نهاية شرحه بأن الديموقراطية تتمثل في بلاد الإنكليز وأنَّ الخدمة العسكرية ليست إلزامية.

وقد طلب إلى السَّامعين أن يحاولوا الوقوف على مزاج وطبيعة الإنكليزي بأن يتَّصلوا به وأن يعلموا أنَّه شخص يحب الصَّراحة في كلامه ويكره المراوغة والدَّوران في المعاملة، وأشار إلى وجوب إزالة أسباب سوء التَّفاهم كلها والعمل على إزالة التَّنافر؛ إذ المعلوم أنَّه ليس من أمَّة إلَّا وفيها أخطاء، وأنَّ أخطاء الإنكليز تعود إلى أنَّهم أمةٌ تعيش في جزائر بعيدة عن المؤثِّرات التي تقع على سُكَّان القارَّات الأخرى، وهم لذلك ليسوا مستعدِّين لسرعة الارتباط بأسباب الصَّداقة بالغير.

وقال المحاضر — وهو أستاذ إنكليزي: إنَّنا نُخلص لمن تتوثَّق الصَّداقة بيننا وبينه، واستشهد بأبياتٍ لشاعر الإنكليز شاكسبير تحضُّ على التَّعارف واجتناب الغِلظة بالأصدقاء، والحذر من كلّ قادم، واجتناب المشاكل، والإصغاء إلى كلّ ما يُقال، والإقلال من الكلام، والتَّحفظ في الحكم على الأشياء. وقال المحاضر: إن هذه الأبيات تدلُّ على كثير من نواحي الخُلق الإنكليزي، وقد شكر الحاضرين لحُسن إصغائهم لكلامه، وطلب منهم اعتبار صراحته في الكلام دليلًا على حُسن قدره لهم، وأعرب عن أمله في أن يكون اطِّراد حسن التَّفاهم مؤدِّيًا إلى تقوية عناصر المودَّة والصَّداقة.

وطلب منهم ألَّا يحكموا على الإنكليز بما قد يجدونه من كلّ إنكليزي يصادفونه، بل الواجب أن ينتقلوا إلى الدِّيار الإنكليزيَّة لدرس أحوال الإنكليز؛ لأنَّهم يجدون كلّ ترحيب ويكتسبون مودة وإخاءً؛ فإنَّ الإنكليزي في بيته يخاطب صديقه كما يُخاطب الرجل الرجل من دون أن يكون للجنسيَّة أيُّ أثرٍ كان.

(٢) رأي أديب في أخلاق الإنكليز

عقد واشنجتون إرفنج Washington Irving[١] القصصي الشهير وصاحب كتاب حياة محمد مقارنةً بين أخلاق الإنكليز والفرنسيين فقال:

مَثَل الأمَّتين الإنكليزيَّة والفرنسيَّة كمَثَل خيطين مختلفين في اللون قد تداخل كلّ منهما في الآخر دون أن يمتزج اللونان. وفي الحقيقة نجد أنَّ كلتا الأمَّتين تعتزُّ بتباينها واختلافها عن الأخرى، وذلك الاختلاف الذي لا يمنع قدر كلّ منهما لمحاسن الأخرى.

فالعقل الفرنسي سريع ونشيط وهو قادر على حلِّ المشكلات بسرعة البرق. وبقفزةٍ واحدة يصل إلى النَّتائج البعيدة التي غالبًا ما تُصدَّق بدون أن يُجهد نفسه في التَّحليل والتَّفكير المنتظمين. أمَّا العقل الإنكليزي فهو سريع ولكنَّه أكثر ثباتًا ومُثابرة، وهو أقلُّ فجأة ولكنَّه آكد وأضمن في استنباطه. وعلى ذلك فالسرعة والحركة في الفرنسيين تساعدهم على أن يجدوا السرور في ضروب إحساساتهم المتنوعة. حتَّى لنجدَ أنَّ قولهم وفعلهم يتبعان المؤثرات المباشرة والدوافع المتنوعة أكثر ممَّا يتبعان التَّعقل والتَّفكير. فهم لذلك أكثر حبًّا للاجتماع والمجتمع والأمكنة العامَّة ومواطن اللَّهو والسرور. أمَّا الإنكليزي فهو أكثر تفكيرًا في طباعه، فهو يعيش في دنيا قد حدَّدها ورسمها لنفسه، معتمدًا أكثر ما يكون على نفسه، وهو يحبُّ الهدوء في منزله، وعندما يتركه نجد أنَّه حريصٌ أيضًا على أن يخلق حول شخصه جوًّا من العُزلة والتَّحفظ، فنجده يسير خجولًا وحيدًا محتفِظًا بسرِّه لنفسه.

أيضًا بينما نجد الفرنسيين كثيرًا ما يميلون إلى التفاؤل منتهزين الفرص الحسنة وقت سُنوحِها والمسرَّات وقت مرورها، نجد الإنكليز يتغاضون عن خير عاجل في سبيل الاستعداد لشرٍّ محتمل.

هبْ أنَّ الشمس قد أشرقت لحظة من الزمن في يوم غائم قاتم فإنَّ الفرنسي ذا الطَّبع الزئبقي الذي لا يستقرُّ على حال تراه يلبس أحسن ثيابه ليمرح كالفراشة الجميلة كي يمتِّع نفسه بتلك اللحظة القصيرة من ضوء الشمس غير حاسب أيَّ حساب لما سيعقبها. كذلك هبْ أنَّ أشعتها قد ظهرت على أبهى ما يكون من الوضوح والجمال، فإنَّ الإنكليزي وهو الحذر الفطن يحمل مظلَّته في يده غير واثقٍ بتلك الأشعة المُغرية لو وجد سحابة صغيرة عند الأفق.

وللفرنسي قدرة عجيبة على الاستفادة من الأشياء مهما صَغُرت، فيمكنه أن يعيش سعيدًا ولو نقص دخله كثيرًا عن نظيره الإنكليزي. فالفرنسي مقتصد مدبِّر يخلق من

التُّراب تبرًا. أمَّا الإنكليزي فمن طبعه الإسراف والتَّبذير. وتقدير كلّ شيء ضروريًّا كان أو كماليًّا تبعًا لقيمته … كذلك ليس له غرام بحب الظهور فمهما حاول أن يتظاهر فمن المؤكَّد أنَّ غَوْرَ ظاهره كغور باطنه.

نلحظ كذلك أنَّ الفرنسي يتفوَّق في الفهم. أمَّا الإنكليزي ففي المزاج والطَّبع. والفرنسي ذو تصور مرح. أمَّا الإنكليزي فخياله أخصب وأثمر. والفرنسي إحساسه رقيق دقيق ليس أسهل من إثارته، وهو عُرضةٌ للتَّأثر والهياج الشَّديدين وإن كانَا غير ثابتين. أمَّا الإنكليزي فهو أكثر هدوءًا وبرودة، ليس من اليسير أن تستثيره وإن كان قادرًا على أن يصل إلى درجة عظيمة من الحماسة. وعلى هذا فالخطأ في الطَّبعين هو أن خفة الفرنسي عُرضة لأن تكون زَبَدًا وبذلك تذهب جُفاءً. ورزانة الإنكليزي عُرضة لأن تسكن وتهدأ وبذلك تصبح تبلُّدًا. ولو أمكننا — إذًا — أن نرقى بالطَّبعين وننهض بهما إلى حدِّ الاعتدال فإنَّنا نحفظ الفرنسي من أن ينتفخ وينفجر كالفُقاعة ونحفظ الإنكليزي من أن يركض وينتن كماء المستنقع.

كذلك ممَّا لا شك فيه أن التَّباين في الأخلاق يمتدُّ إلى كلّ ما يستهوي كلا الشَّعبين ويجذب انتباهه. فالفرنسي الحقيقي لا يمتزج بدمه أكثر من حبِّه للشُّهرة الحربية، فهو يقاتل ويعمل على الانتصار حبًّا في المجد والعظمة غير مبالٍ بما يدفعه ثمنًا لهذا المجد. وإنك لتعجب إذ تجد الفقير المعدم قد تهلَّل وجهه بالبشر وخفق قلبه بالفرح إذا ما قرأ نبأً رسميًّا حوى نصرًا حربيًّا. وما اللَّحم والكأس أحب إلى نفسه وأسد إلى رمقه من انتصار عظيم يُحرِزه جيش وطنه وانخذالٍ كبيرٍ يُصيب جيش عدوه. وإنَّ رؤية مليكه الباسل وهو يعود إلى أرض الوطن حاملًا غنائم الحرب وأسلابها ليهزَّ نفسه هزًّا حتَّى ليرمي بقبعته القديمة الرثَّة في الهواء ويقفز فوق حذائه الخشبي.

أمَّا «جون بول» فهو على العكس شخص يميل إلى التعقُّل والتفكير، فإذا ما أخطأ كان خطؤه معقولًا وإذا أقدم على حرب فللمصلحة العامة. وهو لا يتأخر عن قتل جاره في سبيل المحافظة على السلم والنظام، كما أنَّه — لحبه كسب المال — يدافع عن تجارته وصناعته ويحميها بقوته.

لهذا كله نجد أنَّ الأمَّتين شغلتهما الحروب من أزمان طويلة، وبينما كان غرض إحداهما المجد كان غرض الأخرى الخير. وفي سبيل المجد نجد أن فرنسا تفقد عاصمتها مرتين،[٢] وفي سبيل الخير نجد أن إنكلترا تغرق في بحر من الدَّين.

(٣) أخلاق الإنكليز

ويقول «الأستاذ محمد عطية الإبراشي في كتابه «نظام التَّعليم في إنكلترا»:

> يجب أن يعنى نظام التَّربية بالنَّظر في أخلاق الشعب وتقاليده وفي الصفات السائدة بين الأمة، وألا يكون ضد العادات القومية. كلّ هذه الأمور قد لوحظت في التَّعليم بإنكلترا فإنَّ الصفات والأخلاق التي تُعرف بها بين الأجناس البشرية معروفة منذ أجيال متأصِّلة فيها كلّ التَّأصيل. يقول «بيتر ساند يفرد»:
>
> > الرجل الإنكليزي مولعٌ بالمنافسة يحب من صميم فؤاده الرحلات والسياحات. ولا يستطيع أحدٌ الاستقرار في إنكلترا إلَّا من كان يميل إلى المنافسة. وإنَّ هذا الميل إلى حبِّ التَّنافس لا يظهر للناظر العادي؛ لأنَّه مغطًّى بطبقة كثيفة من الهدوء العقلي، والرجل الإنكليزي يمقت النظريات والتفكير في النظريات، ويحب أن يقبض على الأمور العملية في الحياة ويحلها وهو سائر في عمله.» ويقول «بيتر ساند يفر» أيضًا: «إنَّ الرجل الإنكليزي يُرى هادئًا وهو في حاجة إلى قوة الخيال، ومن صعب أن تؤثر فيه، فهو كالفحم الحجري الصّلب يتَّقد ببطء، ولكن حينما يتَّقد يحترق إلى النهاية.
>
> ولدى الرجل الإنكليزي قوَّة كبيرة على كتمان شعوره، ويمكنه أن يمتلك نفسه، وهو شديد المحافظة على القديم يحبُّ الحرية الشَّخصيَّة فوق كلّ شيء. ولقد قاتل في سبيل تلك الحرية أكثر من ألف سنة. ويقول «ساند يفرد» في موضع آخر:
>
> > الرجل الإنكليزي هادئ من الجهة العقلية، ولديه حبٌّ عميقٌ للحرية. ولقد كانت هاتان الصفتان سببًا في اتِّخاذه سياسة البطء لا في السِّياسة فحسب بل في التَّعليم كذلك». وهو منعزلٌ بطبيعته يحبُّ العُزلة والوِحْدة، لا يُحادِثك إلَّا إذا تعارف بك. وقد يكون هذا الانعزال ناشئًا عن الحياء والخجل. وإن حادثك فلا تخرج محادثته في الغالب عن الجو، والجو لحسن الحظِّ كثير التَّغير والتَّقلب بإنكلترا؛ فمن اعتدال في الطقس إلى ضباب أو مطر أو برودة، أو عاصفة أو

رعد وبرق. وإذا زالت الكُلفة وذهب الخجل تحادث معك في أي موضوع كالخيَّالة والتَّمثيل والألعاب الرياضية والموضوعات الأدبية والاجتماعية. يتجنَّب الأمور الشَّخصيَّة فلا يسألك عن مقدار ما يمنحك أبوك في الشهر ولا عن مقدار ما تنفقه أو تدفعه للسّكنى أسبوعيًّا — كما يسأل الفضوليون حيثما يرونك أو يعرفونك أول مرة. ويميل الإنكليزي دائمًا إلى التَّحفظ في الجواب فلا يجيب إجابة الجازم المتحقق، ولكنَّه يجعل للشك دخلًا في كلّ ما يقوله، ويجيب دائمًا بكلمة «أظن، أو ربما» بعكس الرجل الفرنسوي فإنَّه يميل كثيرًا إلى الجزم والتَّخمين.

والإنكليز معروفون بحبهم للمحافظة على القديم. وفي إنكلترا تندر العجلة في تنفيذ نظرية من النظريات أو مشروع من المشروعات في التَّربية والتعليم، فبينما تحاول الولايات المتحدة بأمريكا تجربة طائفة كبيرة من طرق التَّعليم والنظريات الحديثة — وقد لا توافق على شيء منها بعد التَّجربة وعدم الاستحسان — تجد إنكلترا في هذه الحال مثلًا في دور المناقشة والمناظرة في طريقة واحدة من هذه الطرق؛ لأنَّ إنكلترا تخاف الخسارة وضياع الوقت. أمَّا الولايات المتحدة فلا تبالي بما تفقده في سبيل البحث والتجربة، ولذا تجدها اليوم تقود العالم في العلم والاختراع والصناعة، وقد ساعدها غناها على هذا التَّقدُّم والإقدام. فالمحافظة على القديم في إنكلترا لها فوائد؛ ولكن يجب ألَّا ننسى أن لها أيضًا كثيرًا من المضار، فإنكلترا تميل إلى الوقوف عند حدٍّ ما وهي بطيئة في الإصلاح؛ لأنَّها لا تستفيد في الحال ممَّا يقدمه لها المفكرون وما يظهره المصلحون من أبنائها، ولا تشجع البحاثين والمخترعين تشجيعَ الولايات المتحدة لهم، وإنَّ ولع إنكلترا بالمحافظة على ما لديها يظهر جليًّا في القوانين المختلفة للتربية التي وافق عليها مجلس النواب الإنكليزي، فلا تجد مطلقًا حذف قانون من القوانين برُمَّته واستبداله بقانون آخر، بل تجد أنَّ كلّ قانون هو تعديل للقانون السَّابق للتَّوفيق بينه وبين الرأي الجديد الذي يُراد إدخاله. ولا يشك أحدٌ في أنَّ قوانينها في التَّربية ثابتة.

ومع ذلك حدث تغيير في التَّعليم بإنكلترا فمنذ سنة ١٩٠٠ ترى المحافظة على القديم أقلّ منها في الزمن السَّابق وفي الحق أنَّ التَّغيرات الحديثة بإنكلترا كثيرة وظاهرة لمن عرفها من قبل ورآها اليوم. ولا يشعر من الإنكليز بالفائدة الكبيرة من هذا التَّغيير إلَّا قليلٌ منهم، وكل ما تعرفه الأكثرية هو أنَّ هناك شيئًا يجري في عالم التَّربية، وأنَّ الأمور

تتغيَّر بسرعة، وهم يشعرون بالحيرة في الابتداء وهم سكوت لا يتكلَّمون. ولا نُنكر أنَّ النِّزاع بين المحافظين والمجدِّدين دائم لا ينقطع ولو أنَّه نزاعٌ صامت.

ويظهر الميل الفطري لحرية الفكر واستقلال الرأي في أحوال كثيرة في التَّعليم بإنكلترا، وإنَّ قوانين التَّربية مفتوحةٌ للتَّغيير البطيء، فحينما تُظهر التَّجارب صواب الفكرة الجديدة ويرى معظم الناس فائدتها، يتغلَّب الإنكليز على كراهتهم لها. فالحرية الشَّخصيَّة تخضع دائمًا للمجتمع حبًّا في المصلحة العامَّة، فمثلًا كان الذهاب إلى المدرسة اختياريًّا يذهب إليها من يشاء من التلاميذ. لكن لمَّا تبيَّن أنَّ من المُحال تعميم التَّعليم إذا ظلَّ اختياريًّا غُيِّر هذا النِّظام وجُعِل إجباريًّا، وكان التَّفتيش الطِّبي على المدارس والتلاميذ اختياريًّا ثمَّ غُيِّر وجُعل إلزاميًّا. وكان إعداد المدرسين اختياريًّا أيضًا ثمَّ ظهر أنَّ المدرس لا يستطيع أن يقوم بمهنته كما ينبغي إلَّا إذا نال قسطًا من التَّربية وعرف طرق تدريس المواد؛ فجُعِل إعداد المدرسين إجباريًّا وَعده من الواجبات لرُقي التَّعليم. وهناك عشرات الأمثلة لأمور كانت اختياريَّة بإنكلترا وأصبحت إجبارية يُطالِب بها القانون.

وإن إنكلترا — وإن كانت أمة عمليَّة لا تدين بالنظريات — لا تمتنع من أن تعمل بما يمكن تنفيذه منها. ولا ينكر أحدٌ أنَّ النَّظرية التي لا يمكن تنفيذها لا فائدة منها ولا خير في العلم إذا لم يصحبه العمل؛ لذا كانت طريقة التَّعليم في إنكلترا طريقة عمليَّة تتَّفق هي والأمور العملية التي تحتاج إليها وتتَّفق مع حاجات الشَّعب وحياته. ولا يمكن أن نفهم هذه الطريقة منفردة عن التَّاريخ القومي والحالة الشعبية. والمهم لدى الإنكليز الوصول إلى العمل بأيِّ طريقةٍ كانت من غير عناء كبير وبحث طويل في النظريات. وتاريخ التَّعليم الإنكليزي مملوءٌ بالأمثلة الدالة على حب العمل وعدم الاكتراث للنظريات. فمدارس إنكلترا إذن مدارس عملية ذات قوة كبيرة وتأثير عظيم في تهذيب الأخلاق وتقويمها وإعداد رجال مخلصين عمليين يثقون بأنفسهم ويشعرون بما وجب عليهم لغيرهم، ولا يفرون من تحمل مسؤولية أيِّ عمل يقومون به، وهي مدارس تُربِّي في كلّ طفل الثِّقة بالنفس، فيقول لك دائمًا: «سأحاول» إذا سألته هل يستطيع أن يقوم بعمل من الأعمال.

(٤) زيادة أعمار المعلِّمين الإنكليز بسبب سلوك الطلبة

قالت جريدة إنكليزية تحت هذا العنوان «تقول لك كلّ أمٍّ في إنكلترا»: إن الأولاد في هذا الزمان يفوقون الأولاد في كلّ جيل سابق في أربعة أشياء:

(١) أنَّهم أصحُّ أجسامًا.
(٢) أنَّهم أعظم سرورًا بالحياة.
(٣) أنَّهم أجمل طلعةً.
(٤) أنَّهم أشدُّ ذكاءً بكثير وأحسنُ سلوكًا.

وكانت نتيجة حسن سلوكهم أنَّ متوسط أعمار المعلمين الآن زاد خمس سنوات على ما كان منذ ٢٠ سنة.

فقد ظهر من آخر إحصاء أن ٣٠٠ مدرس يبلغون الآن كلّ سنة سن ٧٥، و٥٠٠ مدرس سن ٧٠، وألف مدرس يبلغون سن ٦٠، وهي السن التي يعين فيها معاش لهم.

وقال رجل من وزارة المعارف «الإنكليزية»: إنَّ الجهد العصبي الذي يستهدف له المعلمون الآن أقلُّ ممَّا كان قبل الحرب.

وإنَّ طرق التَّعليم أصلحُ ممَّا كانت والطلبة أكثر قبولًا للتَّعليم ممَّا كانوا.

وقد تحسَّنت المعرفة العموميَّة كثيرًا على يد الصُّحف والراديو والسينما، وهذه المعرفة العموميَّة هي من العوامل المهمَّة في التَّربية.

وأهم من هذا كله أنَّ المعلمين لا يُرهقون الآن بما كان المعلمون يرهقون به منذ ٣٠ سنة بإكراههم على حفظ النِّظام؛ لأنَّ المدارس تُعلِّم الطلبة الآن تنظيم أنفسهم وتُشجِّعهم عليه مع زيادة إطلاق الحرية لهم، وهذا يُنقذ المعلمين من ضرورة إبقاء أنفسهم على مقياسٍ عالٍ من الإشراف والجهد العصبي للمحافظة على النِّظام في المدارس.»

(٥) الإمبراطوريَّة الإنكليزيَّة ومميزاتها

ويقول الدكتور محمد عوض في بحث له عن «الإمبراطورية البريطانية»:

> إنَّ الإمبراطُوريَّة البريطانيَّة تشتمل على نحو ١٢ مليونًا من الأميال المربَّعة حسب تقدير المراجع البريطانية، التي تُدخِل في هذه المساحة السُّودان. وسكَّان

> هذه الإمبراطُوريَّة يبلغون اليوم زهاء ٤٥٠ مليونًا، «أي نحو خُمس سُكَّان الأرض في نحو خُمس مساحة اليابس من سطحها.

وهذه الإمبراطُوريَّة مترامية الأطراف، ومنها أراضٍ في جميع القارات والبحار. وعلى كثير من خطوط العرض. فمتى دارت الكرة الأرضية دورتها فلا بدَّ أن يكون جزء من تلك الكرة مغمورًا بأشعة الشمس، كما أنَّ جزءًا منها دائمًا في ظلام الليل البهيم. ولهذا قيل عنها: إنها لا تغرب عنها الشمس. ويمكن أن يُقال هذا أيضًا في ممتلكات روسيا وفرنسا وهولنده والولايات المتحدة. ولكن بدرجة أقلَّ.

ويقع أكثر من نصف الإمبراطُوريَّة في نصف الكرة الشَّمالي، وأقلُّ من النِّصف قليلًا في نصفها الجنوبي. والمعنى الجغرافي لهذا أنَّ أحد شِقَّي الإمبراطُوريَّة صيفٌ دائمًا أو شتاءٌ. بحيث تتمثَّل فيها جميع الفصول في آنٍ واحد تقريبًا.

بقي أن يُدرك القارئ حقيقةً هامَّة وهي أنَّ سُكَّان الإمبراطُوريَّة موزَّعون على الصورة الآتية:

- **الهند:** ٣٢٠ مليون نسمة.
- **الجزائر البريطانية:** ٤٥ مليون نسمة.
- **الدمنيون «الأراضي المستقلة»:** ٢٥ مليون نسمة.
- **باقي الإمبراطُوريَّة:** من ٥٠ إلى ٦٠ مليون نسمة.

وهكذا يرى القارئ المركز الهائل الذي تحتلُّه الهند في هذه المجموعة الفريدة، فإنَّه ليس بعد الهند والجزر البريطانية نفسها والأراضي المستقلة التي ليس لإنكلترا سلطان عليها، ليس لها بعد ذلك سوى أراضٍ يسكنها خمسون أو ستون مليونًا من الأنفس، أي ما لا يزيد عمَّا تملكه دولةٌ صغيرة مثل هولندة، التي تحكم شعوبًا في جزر الهند الشرقية وحدها يزيد عددها على الخمسين مليونًا. فالهند إذن هي ما تمتاز به بريطانيا. والهند هي الإمبراطُوريَّة الحقيقية.

والباقي إلى جانبها لا يكاد يُذكر. وهذه الحقيقة الهامة — أي المركز الفائق الذي للهند في الإمبراطُوريَّة البريطانية — من الحقائق التي لم نستطع أن نعثر عليها في كتاب «الإنكليز في بلادهم»، حيث أجمل الكلام عن الهند إجمالًا، وأفاض المؤلف في حديثه عن الأراضي المستقلة. ولا ندري لماذا اختصر الحديث عن الهند، وعلى كلّ حال ليس حديث الهند بالحديث الذي ترتاح له الآذان.

وبعد — فحرصًا على الوضوح — يجب أن نذكر هنا أنَّ الإمبراطُوريَّة البريطانية تتألَّف من أراضٍ مستقلة استقلالًا أصبح اليوم تامًّا، وهي التي يُطلق عليها اسم دومنيون، وأهمها كندا وأستراليا وزيلندة الجديدة وأفريقية الجنوبية ودولة أيرلندة الحرة، وهذه قد فصَّل الحديث عنها صاحب كتاب «الإنكليز في بلادهم» بأسلوب سهل واضح، وأرانا كيف حصلت هذه الأراضي على استقلالها بالتَّدريج حتَّى أصبحت في يومنا هذا ومركزها في الإمبراطُوريَّة معادل تمامًا لمركز إنكلترا نفسها، وإذا كان هذا الاستقلال مصدر قوة للإمبراطوريَّة في نظر المؤلف فمن الجائز على كلّ حال أن يرى القارئ في هذا رأيًا آخر. والمؤلف يضرب لنا مثلًا بما حدث عام ١٩٢٢ يوم كان هنالك احتمال قيام إنكلترا بحرب ضدَّ تركيا فاستغاث لويد جورج بالدومنيون فلبَّت نداءه أستراليا وزيلندة الجديدة، ولم تلبِّ نداءه كندا أو جنوب أفريقية.

والجزء الثَّاني الذي تتألَّف منه الإمبراطُوريَّة هي مستعمرات التَّاج وأراضٍ تحت الحماية كما هي الحال في أوغندة وفي المستعمرات الأفريقية المختلفة. وهي كلها تحت حكم وزارة المستعمرات.

والجزء الثالث هو الهند أهم أجزاء الإمبراطُوريَّة جميعًا. ويحكمه نائب عن الملك في الهند نفسها، تحت إشراف وزارة الهند الموجودة في لندن. ووزيرها من أهم وزراء الدولة.

والجزء الرابع من الإمبراطُوريَّة هو بالطبع الجزر البريطانية نفسها.

وأكبر ما تمتاز به الإمبراطُوريَّة البريطانية هو أنَّها مترامية الأطراف متباعدة الأجزاء؛ ولهذا كان لا بدَّ من خلق رابطة تربطها، وتصل بين أجزائها. وهذه الرابطة التي بقوتها بقوتها تقوى الإمبراطُوريَّة وبضعفها تضعف، هي قوة الأسطول؛ لأنَّه إذا استحال الاتِّصال البرِّي — كما هو الحال في إمبراطورية الروسيا — فمن الواجب الحرص على الاتِّصال البحري، والتَّفوق فيه أمرٌ حيويٌّ جدًّا للإمبراطورية البريطانية. وهذا التَّفوق أمر حسَّاس جدًّا في الدِّفاع البريطاني، وكانت الدولة البريطانية تحرص أشدَّ الحرص قبل الحرب علي أن يكون الأسطول الإنكليزي متفوقًا في القوة على أيِّ أسطولين لأي دولتين. وهذه هي السُّنة التي استنَّتها إنكلترا قبل الحرب، وحرصت جهدها على أن تحافظ عليها، وسلَّمت لها الدول بها. ولم تحاول أن تجابهها في ذلك سوى ألمانيا، ومن أجل هذا لم يكن مفرّ لإنكلترا من دخول الحرب ضدها لهذا السبب؛ لا لأي سبب آخر.

وهذا المبدأ الذي استنَّته إنكلترا مبدأ تفوق الأسطول الإنكليزي سُنَّة معقولة، بل هو مبدأ لا بدَّ منه لسلامة تلك الدولة المترامية الأطراف. خصوصًا إذا ذكرنا أنَّه ليس للهند ولا لكندا أو أستراليا أو أفريقية الجنوبية أسطول يستحقُّ الذكر. فالمعقول أن يكون لدى إنكلترا أسطولٌ فائقٌ لجميع الأساطيل، خشية أن تتألَّب عليها أساطيل دولتين أو أكثر فتُمزِّق الإمبراطُوريَّة شرَّ ممزَّق.

ولقد كان من أهم حوادث التَّاريخ الحديث أن تخلَّت إنكلترا، أو أُكرهت على التَّخلي عن مبدأ التَّفوق، وقبلت — أو أُرغمت على قبول — المساواة بالولايات المتحدة. حيث تكون نسبة السُّفن القوية بين بريطانيا وأمريكا واليابان وإيطاليا وفرنسا هي على التوالي بنسبة ٥:٥:٣:٢٫٥:٢٫٥.

(٦) سياسة الإنكليز في البلاد الخاضعة لنفوذهم

للاستعمار الإنكليزي طابعٌ خاصٌّ يجعله مختلفًا عن استعمار الممالك الأخرى: فلا يبدأ الإنكليز بتعبئة الجيوش وإرسال الأساطيل لاحتلال البلاد التي يريدون استعمارها. بل يبدأون بإرسال الرحَّالة المغامرين والعلماء الكاشفين والمستشرقين وكتابتهم التَّقارير عن أحوال البلاد ولغاتها وحكوماتها الوطنية وأخلاق أبنائها وعاداتهم ونقط الضعف عندهم، ثمَّ تُنشأ مراكز تجارية وشركات تجارية وقنصليات، وتعقد معاهدات تجارية، تتطوَّر إلى معاهدات سياسية، وتبث إنكلترا بعض رجالها كموظفين فنيين ومستشارين في الحكومات الوطنية.

ويعتمد الإنكليز على الفرص وعلى الزمن، ومن الفرص النزاع بين العصبيات والأديان والمذاهب، والثَّورات بين الأمراء، فيستطيع الإنكليزي ولو كان تاجرًا واحدًا — بخُلقه المتين وبما يشعر به من روح السِّيادة — أن ينال ثقة الحكومات الوطنية المتنازعة في وقت واحد، وأن يكون الحكم الذي يُطاع حكمه من غير إراقة نقطة دم. وقد استطاع الكولونيل لورنس أن يظفر بثقة الشريف «الملك حسين» ملك الحجاز سابقًا وأولاده وأن يُلقِّبه الكتاب بملك العرب غير المتوَّج، واستطاع مستر «عبد الله» فلبي أن يظفر بثقة الملك ابن السعود إلى اليوم.

ومن أغراض الاستعمار، ما هو اقتصادي وما هو إمبراطوري وما هو أدبي. أمَّا الاقتصادي فهو السَّيطرة على ينابيع المواد الخام. وأمَّا الإمبراطوري فهو ما كان لحفظ مواصلات

الإمبراطُوريَّة، وبإنشاء ثغور ونقط عسكرية برية أو بحرية، مثل السيطرة على البحر الأحمر وتفوُّق النُّفوذ البريطاني في بلاد العرب، بالحمايات والاتِّفاقات، فليس لإنكلترا منافع اقتصادية جوهرية في تلك المناطق.

أمَّا الاستعمار الذي يكون الغرض منه أدبيًّا فهو منافسة البلاد الأخرى وتعزيز مقام الإمبراطُوريَّة وإبرازها قوية. وهناك استعمار مصطبغ بصبغة الإنسانية، وهي دعوى إنقاذ الأمم الضعيفة من الجهل والظلم والفوضى والرِّق!

ويماشي الاستعمار الإنكليزي التَّطورات ويحسب حسابها، أو يحاول أن يحسب حسابها، فلقد أصبحت أستراليا ونيوزيلندة وكندا واتحاد جنوبي أفريقية، متمتعة بالحكم الذاتي وباستقلال داخلي تامٍّ، أو كما يصفها بعض رجال القانون الدولي أنَّها أصبحت ممالك مستقلة متحالفة في اتحاد بريطاني. محتفظة بالتَّاج البريطاني، حتَّى دُعيت إنكلترا بأنَّها «الأم».

لو أنَّ إنكلترا أرادت احتلال طرابلس الغرب، فإنَّني لا أعتقد أنها كانت تفعل ما فعلت إيطاليا من حشد الجيوش والأساطيل، وإضاعة ملايين الجنيهات، وإفناء ألوف الإيطاليين، واحتمال تبعة الفظائع، مع أن طرابلس — في الأغلب — صحراء جرداء كانت إنكلترا تبدأ بالاعتراف بالحكم الوطني ومماشاته والتأثير فيه تدريجيًّا.

ويزن الإنكليز التَّكاليف التي يحتملونها من أجل الاحتلال، فهم يريدون الاستعمار من أيسر السُّبل وبأقلِّ التَّكاليف. وإذا اضطروا للحرب، ففي الغالب حيث لا يكون هناك مناص منها لتعزيز النفوذ، وحيث لا يرون الشعوب تُذعن لغير القوة أو مظهرها، وحيث تكون الحرب مأمونة العاقبة، أي إنَّ النصر هو المصير الأرجح لها، كما حدث في جنوب أفريقيا وفي احتلال مصر والاشتراك في استعادة السُّودان.

وبعد أن تنتهي الحرب، يعمل الإنكليز على إزالة سوء التَّفاهم وتوطيد الحكم، بالعفو عن زعماء الثائرين شيئًا فشيئًا وبحسب الظروف، وبإكرامهم والاستعانة بنفوذهم لتوطيد الحكم. فبعد إعادة السُّودان، جنحت الحكومة السُّودانية إلى تعيين مرتبات لأبناء المهدي وخلفائه وزعماء المهدية، وتعليم الكثير منهم مجانًا وتعيينهم في الوظائف.

أي إنَّه بعد الانتصار في الحرب، يعرف الإنكليز أنَّ هناك مهمة أخرى هي توطيد الحكم الإنكليزي، بإزالة آثار الحرب من النفوس ومصافاة الثائرين، إلَّا إذا أصرُّوا على العداء، فعندئذٍ «يؤدَّبون» بالقوة، حتَّى يُذعنوا أو يموتوا.

ولا يتدخل الإنكليز بالقوة في العقائد الدينية والعادات وفرض لغتهم، فإذا انتشرت لغتهم فإنَّما ذلك يجيء من طريق المكاتبات الرَّسمية وبتفضيل العارفين للإنكليزية في الوظائف، وبتعيين المعلمين الإنكليز في المدارس، وهكذا تنتشر الإنكليزيَّة تدريجيًّا.

ويستعين الإنكليز في الحكم بالفئات الأهليَّة الموالية لهم، وهم يكثرون منها، ويداولون بينها، ويثيرون الخلاف بينها، أو يستغلُّون ما بينها من خلاف، وتُقدِّم الحكومة البريطانية الهدايا والأوسمة للزعماء وكبار القوم، وأحيانًا تُعيِّن مرتبات، كما هو حاصل في الهند والسُّودان والإمارات العربية المحميَّة.

وتعيين الطُّرق، وتسهيل المواصلات بأنواعها، والاهتمام بالسَّواحل والمعاقل، والسَّيطرة على الجيش والسلاح، ومنع تسليح الأهالي، هو أول ما يعني به الإنكليز في المحافظة على المستعمرات والبلاد الخاضعة لنوع من النفوذ البريطاني.

هوامش

(١) واشنجتون إرفنج (١٧٨٣–١٨٥٩) كاتب قصصي عظيم ملأت شهرته الدنيا القديمة والجديدة، ومن بين مؤلفاته العديدة كتابه عن حياة العظماء و«حياة محمد».

(٢) يشير الكاتب إلى دخول الحلفاء باريس يوم ٣١ مارس سنة ١٨١٤ أيام نابليون الأول. كذلك دخول الألمان باريس يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٧١ أيام نابليون الثالث.

الفصل الثالث

استعادة السُّودان بعد إخلائه

لم يكن ممكنًا أن يظلَّ السُّودان على حالته بعد قيام الثَّورة المهدية، ولذا تضافرت العوامل المختلفة على وجوب إعادة السُّودان، من ذلك عوامل خارجية وهو منافسة فرنسا وإيطاليا لإنكلترا في استعمار أفريقيا، وداخلية تذمر السُّودانيين أنفسهم بعد نجاح الثَّورة المَهديَّة والخلاف من أنصارها، وإعادة تنظيم الجيش المصري، وكون قيادته للضباط الإنكليز، وتفوق سلطة اللُّورد كرومر والمستشارين الإنكليز في الحكومة المصريَّة، وتثبيت أقدام الاحتلال الإنكليزي تدريجيًّا في مصر.

قال السير إيلياس أشميد بارتلت بصدد الإشاعة التي أُذيعت عن اعتزام فرنسا إرسال بعثة إلى أعالي النِّيل ما يأتي: «من الضروري القيام بعمل سريع، وبغير ذلك لا نضمن البتَّة أن لا يستبقنا الفرنسيون ويحتلوا قبلنا جهات أعالي النيل.».

وصرَّح اللُّورد سالسبوزي في مجلس النواب في ٨ فبراير سنة ١٨٩٥ بما يأتي:

> إنَّ مصلحة مصر تقضي بأن لا يُدنِّس تخومَها حادث من حوادث التَّعسف المجردة من كلّ نزاهة. بل هناك دواعٍ أخرى تستلزم الزحف على الخرطوم. وهذه الدواعي الأخرى لا داعي لذكرها، وهي تستدعي إيجاد قوة في وادي النيل. وهذه الدواعي التي لا داعي لذكرها إنْ هي إلَّا استباق الفرنسيين في احتلال أعالي النِّيل وطردهم منه إذا وضعوا أقدامهم على أراضيه.

وكانت نتيجة الاتِّفاقيَّة الإنكليزيَّة الإيطالية مواجهة الإيطاليين بمنليك ملك الحبشة؛ لأنَّ منليك كان قد أرسل منشورًا للدول مؤرَّخًا في إبريل سنة ١٨٩١ أخبرهم فيه عن عزمه على فتح السُّودان.

وفيما يلي وقائع إعادة السُّودان:

(١) استعادة طوكر

رأى هولد سميث باشا محافظ سواكن استعادة طوكر، فأذن السردار له وعاونه بقوة وصلت بحرًا إلى سواكن، وأعادت طوكر في ١٩ فبراير سنة ١٨٩١، وهزمت عثمان دقنة.

(٢) زيارة الخديوي الحدود

زار الخديوي عباس حلمي باشا الحدود سنة ١٨٩٤. وقد وقع في أثناء زيارته حادث نذكره فيما بعد.

(٣) استرداد السُّودان

في ١٢ مارس ١٨٩٦، أي بعد ١٢ يومًا من كارثة الطليان في عدوه بهزيمتهم المخجلة أمام الحبشة وَرَدَ للسير كتشنر سردار الجيش المصري في منتصف الليل أمر بتسيير حملة لإعادة فتح السُّودان. ووصل خبر قرار الوزارة الإنكليزيَّة إلى رئيس وزراء مصر بعد ظهر يوم ١٣ وللخديوي مساء ذلك اليوم.

ومن ذلك الوقت لم تكفَّ مصر عن أن تقدم للسُّودان السلفيات التي كانت تلزم لرواج منتوجاته ومحاصيله ولمدِّ شبكة من السكك الحديدية يبلغ طولها ٢٤٠٠ كيلومتر، وإنشاء عدد كبير من الطرق والمواصلات النِّيلية. ولعمل مجموعة متقنة للرَّي في بعض الجهات. ولقد مرَّ على الجيش المصري خمسة وعشرون عامًا طوالًا وهو بأسره تقريبًا في السُّودان يشتغل في تهدئته وتوطيد دعائم الأمن في ربوعه وإنشاء الأشغال العمومية كافَّة.

(٤) استعادة دنقلة

خرج النجومي من دنقلة سنة ١٨٨٩ وعليها يونس الدكيم عاملًا ومساعد قيدوم وكيلًا، وقد اختلفا فدعا التَّعايشي يونس الدكيم إلى أم درمان وعين زقل مكانه فاختلف مع مساعد قيدوم ووشى به لدى التَّعايشي الذي سجنه، وعند صلح التَّعايشي مع الأشراف أفرج عنه ونفي إلى خط الاستواء.

وافقت الحكومة المصريَّة في ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ على توجيه حملة بقيادة هنتر باشا قومندان الحدود لاستعادة دنقلة.

كانت الحملة المصريَّة على دنقلة مؤلَّفة من آلاي من السواري به ١٢٥٣ جنديًّا، وآلاي من الطوبجية به ٩٥٣ جنديًّا و١٨ مدفعًا، وآلاي من الهجَّانة المصريَّة والسُّودانية عدده ٦١٨ رجلًا و١٣ أورطة بيادة أي ٨ أورط مصرية، هي التي أُلِّفت بعد إلغاء الجيش المصري القديم سنة ١٨٨٣ وخمس أورط سودانية، وكان المجموع ١٦٦٨٠ جنديًّا نظاميًّا وغير نظامي بينهم ٧٠٠ ضابط.

وصدر الأمر بإنشاء الأورطة السُّودانية الرابعة عشرة، وأنشئت أورطتان من الاحتياطي: الخامسة عشرة في أسوان وكروسكو والسادسة عشرة إلى سواكن. وكان مع الجيش نفر من العبابدة والكبابيش والعليقات، وأضيف إلى ذلك أورطة إنكليزية من آلاي نورث ستفورد شير، بها ٨٧٠ جنديًّا معهم مهندسون وطوبجية وبحارة. وإلى سواكن آلاي هندي. وتطوع في الحملة ضباط من الإنكليز، كاللورد سسل بن اللُّورد سلسبوري واللورد أثلمي والكونت كليخن من الأسرة المالكة، والماجور ستيورت ورتلي من رجال الحملة النيلية، والماجور كتشنر شقيق كتشنر باشا. وكان مع الحملة ٣٠٤٨ رأسًا، من الخيل والبغال والحمير والإبل، و١٥ باخرة نيلية.

اجتمع الجيش في عكاشة. وتقدم فاستولي على فركة في ٧ يونية سنة ١٨٩٦، وهزم المهديين الذين كانوا بقيادة حسن أزرق وحسن النجومي. وقد انتشرت الكوليرا في مصر ووصلت إلى الجيش، كما نزلت به الحمى التيفودية، وتوفي بها أكثر من ألف، واشتد الحر والأعاصير والغبار.

وقد مُدَّت السكة الحديد إلى كوشة. ووصلت البواخر إلى تماي والمتمة وأبو طليح والتيب وهي مدرعة، وثلاثة غير مدرعة وهي: عكاشة ودال وحيبر.

وتقدم الجيش إلى أبي فاطمة جنوبي شلال حنك، وحدثت واقعة الحفير في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٦، فأخلى الثوار الحفير إلى الديم ورحَّب الأهالي بالجيش والنِّساء بالزغاريد.

(٥) تعيين كتشنر سردارا للجيش

عين كتشنر باشا سردارًا للجيش المصري في ١٢ إبريل سنة ١٨٩٢ عند استعفاء جرانفيل باشا.

(٦) منشور كتشنر إلى أهل السُّودان

وجه كتشنر باشا المنشور التَّالي إلى أهل السُّودان:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين. أمَّا بعد فغير خافٍ على الحكومة أنَّ الذي حملكم على شقِّ عصا طاعتها إنَّما هو تصديقكم دعوى محمد أحمد المتمهدي، وقد اتَّضح لكم الآن أن تلك الدعوى لم تكن من المَهديَّة بشيء، بل هي ثورة دموية أفضت إلى مُلك جائر يتولَّاه الآن عبد الله التَّعايشي الذي عزل كلّ أمير من غير أهله وولى أهله فاستبدُّوا بكم. ولما رأت الحكومة سوء مصيركم أرسلت الآن جنودها الجرَّارة لانتشالكم من وهدة الضلال التي أوقعكم فيها ذلك المتمهدي وإنقاذكم من الظلم الذي تقاسونه في عهد خليفته التعايشي.

وقد كان من مبتدعات المتمهدي وخليفته هذا منع الحج الشريف، مع أنَّه فرض واجب على كلّ من استطاع إليه سبيلًا. ثمَّ إنَّ كلًّا منهما فسَّر القرآن على رأيه وهواه، واستنبط أحكامًا شرعية كما أراد، ومنعكم قراءة كتب الحديث والتَّفسير، فضلًا عمَّا يأتيه التَّعايشي الآن من جمع المال، وتفريق كلمة الإسلام، وهتك الأعراض، وظلم الفقراء، وهدم بيوت الكبراء، وبعد أن كان رجلًا مسكينًا لا يملك شروى نقير استأثر بأموال الرَّعية كلها، وسكن القصور المشيَّدة، واتَّخذ نساء المؤمنين سراري له، واستحلَّ وطأهن بلا عقد ولا ملك يمين، وهو مع ذلك يدَّعي الزهد والمسكنة، ويتنعَّم سرًّا بكل ما تطيب له نفسه وتقرُّ عينه. وهو ظالمٌ غشوم ما تكلَّم أحد بالحق إلَّا قتله أو سجنه أو نفاه. وقد سجن الخليفة شريفًا وأهان الخليفة ود حلو وأولاد المهدى، وقتل إبراهيم عدلان وأقارب المهدي مثل عبد القادر ود ساتي علي ومحمد عبد الكريم وإخوانهم، وسجن الزَّاكي طمل والقاضي أحمد والحسين ود الزهرة، وأماتهم جوعًا، وخرب مساجد المسلمين كمساجد الحسن المرغني وأولاد نور

اللُّورد كتشنر الذي توفي سنة ١٩١٦ في خلال الحرب.

الدايم والشيخ العبيد والشيخ حمد النبيل العركي. ونفى أمراء الجعليين مثل بدوي ود العريق وغيره. وبذلك أسخط جميع العالم الإسلامي، وأصبحت مكة المشرفة وكرسي الخلافة العُظمى تنظر إلى عمله بعين المقت والكراهة. ولمَّا رأى ولي النِّعم خديوينا المعظَّم «عباس حلمي الثَّاني» أنَّ جرائم هذا الطَّاغية تزداد يومًا فيومًا، أخذته الشَّفقة على المسلمين المظلومين، وصمَّم على إنقاذهم من الظلم، فأرسل جيوشه المظفرة لكي تهدم أركان دولة التَّعايشي وتُقيم حكومة شرعية مؤسَّسة على العدل والاستقامة، وتبني المساجد، وتُعين على نشر الدين القويم. وقد أصدر سُموُّه عفوَه التَّام عن جميع ذنوبكم، وأمر برد أملاككم. وهو يدعوكم إلى استقبال جيوشه بالتَّرحيب، فإذا قبلتم الدعوة وعرفتم قيمة الإنعام كنتم أنتم الرابحين الناجحين، وإلَّا فالويل لمن رفض نعمة ربه وكرم

خديوينا المعظم. وباسمه لي الرجاء الوطيد أن أراكم قريبًا طائعين ومعضدين للحكومة الخديوية والسلام — يونية سنة ١٨٩٦.

الإمضاء: كتشنر قائد جيش حملة السُّودان وسردار الجيش المصري

(٧) عود إلى دنقلة

وقد تقدم الجيش في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٦، واحتلَّ دنقلة، وتقهقر المهديُّون بقيادة ود بشارة وسلم الأمير حسن النجومي، وفي ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ تمَّ احتلال الدبة، وفي ٢٦ سبتمبر احتلَّ مروى.

ونظم السردار المديرية، وتلقى تهنئة الخديوي والنيشان العثماني العالي من الطبقة الأولى. وانحلَّت حملة دنقلة في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٦، وعادت الأورطة الإنكليزيَّة إلى مصر، وكان في الحملة إبراهيم فتحي بك «باشا» قومندان الأورطة السابعة والملازم حسن بدر «باشا»، ومُدَّت السكة الحديد إلى الكرمة.

(٨) استعادة بربر

تمرد عبد الله ود سعد أمير الجعليين على التعايشي، فأرسل إليه الأمير محمود فقتل ود سعد ورجاله، وأُسر الجعليون والشايقية وسيقوا إلى أم درمان.

(٩) أهمية عطبرة وحالتها اليوم

تقع مدينة عطبرة الحالية على الشاطئ الأيمن للنيل بعد ملتقاه بنهير عطبرة بقليل، وتشبه في موقعها الخرطوم بحري «الحلفاية». وعلى بعد ٧٠ ميلًا تقريبًا على نهير عطبرة عند قرية النخيلة حصلت موقعة أتبرة[١] بين الجيش المصري بقيادة كتشنر باشا وأتباع التَّعايشي بقيادة الجنرال محمود، واشترك فيها عثمان دقنه وقتل فيها ضابطان إنكليزيان، ولا تزال مقبرتهما إلى الآن. وتوجد شمالي عطبرة بأربعين كيلومترًا مدينة «بربر»، وكانت لها عظمة وتاريخ تدل عليهما آثارها الحالية. أمَّا «الدَّامر» فإلى الجنوب بثمانية عشر كيلو مترًا، وهي عاصمة المديرية الشَّمالية التي أصبحت تتألَّف من مديريات بربر ودنقلة وحلفا بعد انضمامها معًا أخيرًا.

وعطبرة قسمان رئيسيان منعزلان يفصلهما الخط الحديدي الطوَّالي؛ أحدهما «السوق» ويشمل منازل البلد والمحال التِّجاريَّة والضبطية «المركز»، وعدد سكانه خمسة عشر ألف نسمة تقريبًا جلُّهم من الوطنيين، ومعهم قليل من المصريين والسوريين، وتُبنى المساكن كباقي مدن السُّودان من الطين، وتتألَّف من طابق واحد، وبها مصنعان لصنع «الزراير» من الدوم يملك أحدهما مصري، والآخر يوناني، وقد رأتهما البعثة في أثناء وجودها بعطبرة. أما القسم الثَّاني فهو أرض السكة الحديدية، وبه عموم إدارات المصلحة، ومنها الورش، وهي تضمُّ نحو ألف صانع منهم ستون مصريًّا. وهي تشبه «العنابر» بالسبتية وأقسام مختلفة للحدادة والنِّجارة والبرادة وغيرها، وأهمها ورشة العربات التي تُبنى بها الصالونات والعربات الجديدة على أحدث طراز من خشب «الستيك».

وعطبرة من أمهات المدن في السُّودان؛ لأنَّها مركز السكك الحديدية بأسرها، وهي ملتقى خطي الخرطوم. حلفا. الخرطوم. بورت سودان. وتخترق الطرق الحديدية شوارع المنطقة وتجتازها القطارات لتسهيل النَّقل بين مختلف أنحائها، ومنها قطار يتألف من ثلاث مركبات ينقل الموظفين من المكاتب إلى منازلهم مرتين يوميًّا إحداهما صباحًا لتناول الإفطار والثانية بعد الانصراف. والعمل يبدأ في المكاتب والورش الساعة السادسة والنصف صباحًا شتاءً والساعة السادسة والربع صيفًا. وتوجد بها «ثكنات» الجيش المصري التي كانت تعسكر بها أورطة السكة الحديدية. وكان عددها يتراوح بين ألف وثلاثة آلاف، وقد احتلَّها الآن بلك إنكليزي وعدد جنوده ١٤٢.

(٩-١) المصريون بعطبرة

تلي عطبرة الخرطوم مباشرة من حيث عدد المصريين بها، وغالبهم موظفون بمصلحة السكك الحديدية، ويبلغ عددهم ١٥٠، وكانوا قبل حوادث الاستغناء عنهم سنة ١٩٣١ بسبب الضائقة المالية، حوالى المائتين، ويشتغل بعض المصريين بالتجارة وقد نجح فيها، ويقيم غالب الموظفين في منازل صحية بنتها لهم المصلحة. أمَّا البريطانيون فلهم حيٌّ راقٍ قائم بذاته.

(٩-٢) النادي المصري

وممَّا يضم الشَّمل ويُزيل السَّأم وجود أندية مختلفة. ولكبار الإنكليز «درجة ثالثة فما فوق» نادٍ ولصغارهم نادٍ آخر، كما أنَّ للسُّودانيين ناديًا.

والنادي المصري أنيق يقع على ضفة النِّيل يتمتَّع بحديقة غنَّاء كانت ميدان الأُنس والانشراح. وهو أحد مخلفات ضباط الأورطة المصرية. وأثاثه ورياشه ثمينان. وبه أقيمت حفلة تكريم للبعثة المصرية. وعدد أعضائه المؤسسين ستون والفخريين خمسون. والمؤسسون الآن هم موظفو المصلحة الذين تزيد رواتبهم الشهرية على عشرة جنيهات. ويتصل بالنادي ملعب للتنس وآخر لكرة السلة. وتُخرج الفرقة التمثيلية من آن لآخر روايات كبيرة مساعدة للمنشآت الخيرية المحلية كالمساجد والكنائس والمدرسة. وتجمع هذه الحفلات بين التسلية والمنفعة. والرئيس الحالي للنادي هو حضرة يني بطرس أفندي باشكاتب القسم التِّجاري ورئيس جمعية التمثيل محمد درويش أفندي رئيس قلم المستخدمين، ومن الأعضاء البارزين عجايبي جرجس أفندي باشكاتب الهندسة ونائب رئيس النادي المصري، ومحمد أبو شادي أفندي رئيس الحسابات، وغيرهم.

(١٠) مدرسة الأقباط المصرية

عقب حوادث سنة ١٩٢٤ التي تلاها نزول الجيش من السُّودان، كان لا بدَّ للمصريين في عطبرة لتعليم أبنائهم من أحد أمرين: إمَّا إرسالهم إلى مصر أو إنشاء مدرسة تقيهم شرَّ تشتت فلذات الأكباد، فآثروا الثَّانية، واستأجروا لذلك دار مدرسة الأمريكان، ثمَّ استصدروا إذنًا ببناء دار خاصة على نمط صحي ملائم. وتآزر الموظفون جميعًا في نفقاتها التي بلغت ألف جنيه بنسبة معينة من رواتبهم، وافتتحت رسميًّا سنة ١٩٢٦، ولا زالت تؤدِّي خدمتها للآن. وقد وفَّق الله القائمين بأمرها فكان النجاح حليفها كأختها بالخرطوم؛ إذ نجح ١٥ من ١٦ تلميذًا في امتحان الشهادة الابتدائية سنة ١٩٣٣ بنسبة ٩٥ في المائة. وكادت تعصف بها حوادث الاستغناء عن الموظفين سنة ١٩٣١؛ ممَّا أدَّى إلى نقصان عدد تلاميذها إلى المائتين مع زيادة نسبة الإعفاء من المصروفات إلى ٢٥ في المائة. والأمل معقود على وزارة المعارف بمصر للأخذ بناصرها بل السير بها إلى الأمام.

ويتعلم أبناء الوطنيين في «كتاب» وفي مدرسة ابتدائية أميرية، وهي نصف مدرسة فقط. أعني أنَّ بها الفرقتين الأولى والثالثة أو الثَّانية والرابعة، وتُكمِل نصفها الثَّاني في مدينة بربر بالتبادل.

وعدا مدارس البنين توجد مدرستان للبنات إحداهما تابعة للإرسالية الكاثوليكية وتديرها راهبات الطالبات، وهذه مقصورة على بنات غير السُّودانيين، والأخرى مدرسة الإرسالية الإنكليزيَّة، وهي تقبل جميع الجنسيات عدا البريطانية.

(١١) بين قاضي قضاة تونس والتعايشي

حوالي سنة ١٨٩٢ توجَّه المرحوم الشيخ محمد المنور — قاضي قضاة تونس — إلى أم درمان ومعه أسرته من جهة الغرب، وقابل الخليفة عبد الله التَّعايشي إذ كان في إبان سطوته، ونصحه بأن يعدل عن ادِّعاء أنَّه خليفة المهدي المنتظر، وفنَّد الادعاء القائل بأنَّ محمد أحمد المهدي هو ذلك المهدي المنتظر الذي جاء ذكره في الأحاديث النبوية قائلًا بأنَّ المهدي المنتظر لم يظهر بعد، وبأنَّه من المخالفة للدين انتحال المهدي صفة المَهديَّة وانتحال خليفته أنَّه خليفة المهدي.

فغضب الخليفة التَّعايشي من هذه النصيحة الدينية التي حضر الشيخ المنور من تلقاء نفسه وطوعًا لضميره ليُزجيها إلى الخليفة التَّعايشي، وأمر باعتقاله وحبسه ومن معه. وقد حاول الشيخ المنور[٢] التَّخلص من السجن، فعرض على الخليفة أن يصنع له ألغامًا لنسف البواخر، وأجرى تجربة أمامه ونجحت. ثمَّ أرسله الخليفة إلى سنار للقيام بتجربة أخرى، وكان مكبَّلًا بالحديد في سفره بالمركب. فاستاء، وغضب من هذا التَّكبيل، وألقى على الباخرة لغمًا نسفها ومات معه الحراس المهديون عليه.

(١٢) استعادة الواحات الخارجة[٣]

في سنة ١٨٩٣ عندما كان السُّودان في نفوذ المهدي هاجمت فصيلة من الدراويش واحة الخارجة ونحن نُورد لك فيما يلي ملخَّص ما ورد عن هذا الحادث في كتاب مذكِّرات عن واحات مصر والصحراء الغربية لصاحب السعادة اللواء أحمد شفيق باشا ص٤١ و٤٢:

> سارت فصيلة من الدراويش من دنقلة قاصدةً واحة سليمة، فلمَّا وصلت إليها وجدت آثار قافلة من البدو المصريين كانت قد ذهبت إلى بئر النطرون كالمعتاد لجلب الملح والنطرون. فقسَّم الدراويش أنفسهم إلى قسمين تبع أحدهما أثر الحملة ووجدها عند بئر النطرون، فأسرها وعاد إلى حيث ابتدأ — وسار القسم الثَّاني — وكان مكونًا من ١٧٠ هجَّانًا ببنادق رمنجتن — بدرب

الأربعين، فوصلوا إلى ناحية «المقس»، وهي أقصى القرى جنوبًا — وتتصل بقرية باريس، وأسروا أحد الأهالي، بينما كان يصطاد الغزلان، ومنه حصلوا على التفصيلات التي كانوا في احتياج إليها. وقد أخبرهم لسوء الحظ عن موظفي الحكومة، وقال: إن مقرهم في «باريس».

وفي أول أغسطس سنة ١٨٩٣ ظهر الدراويش أمام «باريس»، وأرسلوا في طلب العمدة والمشايخ فأتوا في الحال، ولدى مثولهم بحضرة رئيسهم أمرهم بإحضار الموظفين وكانوا خمسة، فحضروا وألقي القبض عليهم وعلى العمدة والمشايخ «الدراويش»، وقد بقي الدراويش يومين بباريس جردوا أهلها في أثنائها من الأسلحة، واستولوا على ١١ جوادًا و٤ حمير و٥ رؤوس من الغنم أكلوها في أثناء إقامتهم، ولم يرتكبوا سوى ذلك عنفًا. وغادروها مع أسراهم بعد أن اعترف لهم الأهالي بأنَّهم رعية المهدي، وتعهدوا ألَّا يأتوا من الأعمال ما يُوجب التَّعنيف، وأنَّهم مستعدون لمعاونته في حربه الدينية المقدسة. وقد فعلوا كلّ هذا من تلقاء أنفسهم دون ضغط أو إجبار. وها هي صيغة البيعة التي أخذها الدراويش منهم إلى الخليفة التعايشي:

> بايعنا الله ورسوله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك بالله، شيئًا، ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ولا نعصيك في معروف. بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضاء بمراد الله ولا نفر من الجهاد.

ولما وصل الأسرى إلى أم درمان أحسن الخليفة معاملتهم واعتبرهم ضيوفه، ولم يُجبروا على عمل ما سوى تأدية الصلوات الخمس في أوقاتها. وقد تمكَّن اثنان منهم من الهرب ووصلا إلى سواكن، ولكنَّ المأذون مات في أسره.

وفي يناير سنة ١٨٩٦ أُرسل من بقي منهم على قيد الحياة إلى التُّخوم المصريَّة بأمر الخليفة، وسلموا للسلطات المصرية. ا.هـ.

(١٣) السردار

عاد السردار إلى مصر بعد واقعة دنقلة، ثمَّ وصل إلى مروى في ٨ يولية سنة ١٨٩٧.

وتقدم جيش بقيادة هنتر باشا فاحتلَّ أبو حمد في ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧ وهزم محمد الزين.

واحتل الجيش بربر في ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٧، وكان على بربر الأمير الزاكي عثمان البقاري.

وحدثت واقعة العطبرة «الأخيرة» في ٨ إبريل سنة ١٨٩٨، وهُزم الأمير محمود، وأُسر ودخل السردار (بربر) في ١٤ إبريل سنة ١٨٩٨ باحتفالٍ شائق.

(١٣-١) المواصلات

مُدَّت السِّكة الحديد من أبي حمد إلى العطبرة.

وقد أضيف إلى الجيش الذي حضر واقعة العطبرة آلاي إنكليزي آخر مؤلف من أربع أورط فأصبح الجيش مؤلفًا من:

أربع أورط سواري إنكليزية، وتسعة أورط سواري مصرية، و٨ بلوكات هجانة، وبطاريتين إنكليزيتين، و٥ بطاريات مصرية، وفرقة البيادة الإنكليزيَّة، وفيها آلابان بثماني أورط، وفرقة البيادة المصريَّة، وفيها أربع آلايات بست عشرة أورطة، وجملة الجيش ٢٥ ألفًا ضُمَّ إليه ألفا رجل من عرب العبابدة والجعليين والجميعاب والمسلمية والشكرية والشايقية والبطاحين وغيرهم. وكان مع الجنود الإنكليزيَّة ثلاث بواخر مدرَّعة فبلغت البواخر المدرعة عشرًا، وهي السُّلطان والملك والشيخ والفاتح والناصر والظافر وتماي والتيب وأبو طليح والمتمة، وفي ٢٩ أغسطس وصلت أبو حمد.

(١٤) احتلال القضارف وهزيمة أحمد فضيل

كان أحمد فضيل عاملًا على جيش الخليفة في القضارف، وكان معه ٣٠٠٠ مقاتل بقيادة سعد الله التَّعايشي والنور عنقرة. وقد استعان التَّعايشي بفضيل لإنقاذه في أم درمان. وقد سلم النور عنقرة القضارف في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ إلى الحملة المصريَّة بقيادة بارسونز باشا قائد جيش كسلا.

وقد احتلَّ هنتر باشا سنار والرصيرص في سبتمبر سنة ١٨٩٨.

وقد حاول أحمد فضيل استعادة القضارف. وفي الطريق حدثت واقعة الرصيرص في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨ عندما كان متجهًا إلى شلال الرصيرص.

واحتل بارسونز القضارف في ٧ ديسمبر سنة ١٨٩٨، ووضع عليها العلمين المصري والبريطاني. وكانت الحبشة قد احتلتها قبلًا ورفعت عليها العلم وسُوِّيت المسألة بجلاء الحبشة عن القلابات.

واحتل الميجر تالبوت واد مدني في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٨.

(١٥) تسليم الخليفة محمد شريف

وسلم الخليفة محمد شريف والفاضل والبشري من أولاد المهدي للبكباشي بليوت في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨.

واحتل الجيش فازوغلي في ٢٢ يناير سنة ١٨٩٩.

(١٦) بحر الغزال

واحتل الجيش بحر الغزال ووصل إلى مشرع الرق في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٠ وجعل «واو» عاصمة بحر الغزال.

(١٧) البلجيك

غزت بلجيكا خط الاستواء في فبراير سنة ١٨٩٧، وقد ألحق القسم الجنوبي من خط الاستواء بأوغندا مع اللادو لملك البلجيك مدة حياته وللإنكليز بعد وفاته.

(١٨) دارفور وعلي بن دينار

كان الأمير علي دينار من المشتركين مع التَّعايشي في واقعة أم درمان، وقد فرَّ إلى الفاشر، وكتب إلى السردار بالطاعة، وأنَّه يحكم دارفور على جزية يدفعها لحكومة السُّودان، وقد أسَّس حكومته على مثال سلطنة أجداده، وصنع خاتمًا نقش عليه:

> السُّلطان علي دينار بن السُّلطان زكريا بن السُّلطان محمد الفضل بن السُّلطان عبد الرحمن الرشيد.

(١٩) إدارة الجيش

كانت إدارة الجيش كما يأتي:

قومندان عموم القوة	الفريق السر هربرت كتشنر باشا — سردار وياورانه الكبتن اللُّورد إدوارد سسل والبكباشي وطسن
رئيس أركان حرب	اللواء رندل باشا
مدير قلم المخابرات	الميرالاي ونجت بك
مدير مساعد قلم المخابرات	اللواء سلاطين باشا
مدير مساعد قلم المخابرات	الميجر الشريف م. ج تلبوت
مساعد ادجوتانت جنرال للجيش الإنكليزي	الكبتن السر هـ. س. رولنصن والكبتن ي. ي. برنارد
حكيمباشي الجيش الإنكليزي	الجراح الجنرال و. تيلر
حكيمباشي الجيش المصري	الميرالاي جلوي بك
حكيمباشي بيطري الجيش الإنكليزي	الكبتن. ج. ل. بلنكنسوب
حكيمباشي بيطري الجيش المصري	القائمقام جريفث بك
إدارة التعيينات «للجيش الإنكليزي»	الكولونل ل. ا. هوب والماجور هـ. ج. مورغن
إدارة التعيينات «للجيش المصري»	الميرالاي روجرس بك والقائمقام دراج بك والبكباشي بلنت
مدير حملة النقل	الكولونل كتشنر
قومندان السواري الإنكليزي	الكولونل ر. هـ. مارتن
قومندان السواري المصري	القائمقام برودود بك
قومندان الهجانة	القائمقام تدوي بك
قومندان الطوبجية	الكولونل س. س ج. لونج
قومندان فرقة البيادة الإنكليزية	الماجور جنرال جاتيكر
قومندان الآلاي الأول	الجنرال ووشب
قومندان الآلاي الثَّاني	الجنرال لتلتون
قومندان فرقة البيادة المصرية	اللواء هنتر باشا

قومندان الآلاي الأول «وفيه الأورط ٢ و٩ و١٠ و١١	الميرالاي ماكدونلد بك
قومندان الآلاي الثَّاني «وفيه الأورط ٨ و١٢ و١٣ و١٤»	الميرالاي مكسول بك
قومندان الآلاي الثالث «وفيه الأورط ٣ و٤ و٧ و١٥»	الميرالاي لويس بك
قومندان الآلاى الرابع «وفيه الأورط ١ و٥ و١٧ و١٨»	الميرالاي كولنسن بك
قومندان العمارة البحرية	القومندان كولن كبل
قومندان العربان المتحابة	الماجور ستيوارت ورتلي

وفي ٢٤ أغسطس سنة ١٨٩٨ زحف الجيش من ود حامد إلى جبل الرويان جنوبي شلال السبلوقة. وكانت البواخر تتقدم في النِّيل والجمال في البر والعربان الموالية في حذائه في الشرق. وقد أرسل السردار إلى التَّعايشي الكتاب التَّالي:

> اعلم أن شرورك في السُّودان، ولا سيَّما قتلك الجم الغفير من نفوس المسلمين الأبرياء أوجبت تقدمي بجيوشي إلى هذه البلاد لدكِّ سلطتك وإراحة البلاد من شرِّك وبغيك. ولكنْ بين جيوشك كثير من الأهلين الكارهين لك ولحكومتك ومن العواجز والنساء والأولاد الذين لا نريد أن يلحقهم سوء. فاعزل هؤلاء من ديمك إلى مكان لا تصله القنابل والرصاص لئلا يقتلوا وتكون أنت المسئول عن دمائهم أمام الله، واثبت أنت وأشياعك فقط في ساحة القتال لتلاقوا النِّقمة التي أعدَّها الله لكم، وأمَّا إن كنتم تودُّون التَّسليم حقنًا للدماء فاعلموا أنَّنا نستقبل رسلكم استقبالًا حسنًا ونعاملكم بالعدل والسلام — في ١١ ربيع الآخر سنة ١٣١٦هـ.

علم التَّعايشي بتقدم الجيش فحشد جيوشه في أم درمان، وحصن ١٧ طابية منها طابية المقرن والسراي في الخرطوم، وكان عنده ٦٣ مدفعًا في يد الأسرى من الطبجية المصريين. ووضع الألغام في النيل.

وتجاوز الجيش في أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ جبل كرري عند الظهر، ووقف عند العجيجة على بعد ثمانية أميال من أم درمان، واستولى على بعض الطوابي ورميت أم درمان بالقنابل، وفتحت توتي والخرطوم.

وحدثت واقعة أم درمان في يوم الجمعة ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨، إذ خرج التَّعايشي ومعه ٥١٧٨٩ مسلحين، وتقدم لمقابلة الجيش المصري، وأقام الجيش الإنكليزي زريبة من شوك. وقد تقدم الخليفة التعايشي لمهاجمة الزريبة، وتوارى بجبل ضرغام، وكان معه عثمان دقنه ومساعد قيدوم، وهجمت جيوش التَّعايشي في هيئة هلال على بعد نحو ٢٥٠٠ ياردة من الجيش المصري، وهجم الثوار على الزريبة وأشعلوا النار بها، وكانت المدافع تحصدهم وكانوا لا يهابون الموت. وقد هجم السواري الإنكليز وتوالى الهجوم مرة ثانية، وتقدم السردار إلى أم درمان، وحصل هجوم ثالث، وفرَّ الخليفة عند انهزام جيش الراية الخضراء وموت أخيه يعقوب، وتوجَّه الجيش إلى احتلال أم درمان الساعة ١١ ونصف في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨.

وقد طارد السردار التعايشي. وفي يوم الأحد ٤ سبتمبر، أي بعد الموقعة بيومين عبر السردار النِّيل إلى الخرطوم، ورفع الرايتين المصريَّة والإنكليزية على خرائب سراي الحاكم العام.

واقعة فركة في ٧ يونية سنة ١٨٩٦.

وقد بلغ قتلى الثوار عشرة آلاف والجرحى والأسرى أكثر، وكانت خسارة الجيش ٤٩٠ قتيلًا وجريحًا، فمن الجيش المصري ضابطان و٢٧ عسكريًّا قتلى، ومن الجرحى ١٥ ضابطًا و٢٨٦ جنديًّا، ومن الجيش الإنكليزي من القتلى ٣ ضباط و٢٤ جنديًّا، ومن الجرحى ٨ ضباط و٢٥ جنديًّا. وقد دُفن القتلى باحتفال رسمي، وامتلأ مكان الواقعة بالجثث.

واقعة أم درمان الهجوم الثَّاني.

وقد عرفت الواقعة بواقعة الخرطوم وأم درمان وكرري، وهي أكبر واقعة رآها السُّودان، وقد أفرج عن الأسرى الذين اعتقلهم التعايشي.

(٢٠) السردار في القاهرة

استقل السردار وأركان حربه البواخر النيلية من أم درمان في ٣ أكتوبر سنة ١٨٩٨ إلى الأتبرة، ومنها بالسكة الحديدية إلى حلفا، ومن حلفا على باخرة نيلية إلى أصوان، ومنها بالسكة الحديدية إلى القاهرة، فوصل إليها في ٦ أكتوبر سنة ١٨٩٨، أي بعد سفر ثلاثة أيام، وهي أقصر مدة عُرفت إذ ذاك.

(٢١) حادث فاشودة

احتلت قوة من الجنود الفرنسيين بقيادة مارشان فاشودة في ١٠ يولية سنة ١٨٩٨، وعقد معاهدة مع ملكها عبد الفضيل الذي قبل أن يكون تحت رحمة فرنسا وانتصر على الدراويش، وكان مع مرشان تسعة ضباط فرنسيين منهم الكابتن جرمان و١٢٠ جنديًّا من عبيد النيجر.

علم السردار وهو في أم درمان أن الفرنسيين أو على الأصح «جيشًا من البيض» احتلَّ فاشودة. وكان الخبر قد وصل إليه بطريق الإشاعة قبل ذلك.

وسار السردار حتَّى التقى بزورق عليه العلم الفرنسي ومع جنوده السود كتاب من مرشان بتهنئة السردار على انتصاره وإبلاغه أنَّ الحكومة الفرنسية قد كلَّفت مرشان فاحتلَّ بحر الغزال إلى مشرع الرِّق واحتل فاشودة. واصل السردار سيره إلى أن وصل تجاه فاشودة حيث حضر مرشان والكابتن جرمان. وقال السردار إلى الميجر مرشان: إني مُكلَّف بأن أبلغك بأنَّ وجود الفرنسيين في فاشودة ووادي النِّيل يُعدُّ اعتداءً صريحًا على حقوق مصر، وأن فاشودة من أملاك الحضرة الفخيمة الخديوية ولا يجوز رفع العلم الفرنسي عليها. فقال مرشان: إنَّني جندي وليس لي إلَّا الطاعة، ولا أستطيع أن أفعل شيئًا حتَّى أتلقَّى أوامر جديدة من حكومتي.

فقال السردار: إنَّني مُكلَّف من قبل الحكومة المصريَّة بأن أرفع الراية المصريَّة في فاشودة، وأرجو أن لا تقاوم وأن تُخلي فاشودة، وأن تسافر على باخرة من بواخرنا إلى مصر عن طريق الخرطوم. فأبى مرشان وقال للسردار: لا أعارضك في رفع الراية المصريَّة على فاشودة بشرط بقاء الراية الفرنسية في مكانها. إنَّ قوَّتي أضعف من قوَّتك، ولكن إذا أحوجتني وحاولت إنزال الراية الفرنسية بالقوة فإنِّي أدافع عنها إلى أن أموت أنا ورفاقي تحتها؛ فرضي السردار بترك الراية الفرنسية في مكانها ورفع الراية المصريَّة على بعد ٥٠٠ ياردة منها، ثمَّ أطلق عشرين مدفعًا تحية لها، ووضع عندها أورطة سودانية وأربعة مدافع وباخرة حربية في الساعة الأولى بعد ظهر يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨.

وقد دارت المفاوضات بين بطرس غالي باشا ناظر الخارجية المصريَّة والحكومة الإنكليزيَّة التي طلبت من الحكومة الفرنسية الجلاء عن فاشودة قائلةً: إنَّه ليس لأية دولة أوربية حق في أي جهة من بلاد النيل. فوافقت الحكومة الفرنسية على الجلاء عن

واقعة أم درمان — هجوم الدراويش على الزريبة.

فاشودة.[٤] وتم ذلك الجلاء في ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨، وعاد مرشان إلى فرنسا عن طريق سبت والحبشة.

(٢٢) قتل الخليفة عبد الله التعايشي

بعد واقعة أم درمان هرب الخليفة عبد الله التَّعايشي إلى أبي ركبة فوصلت إليها حملة بقيادة الكولونيل كتشنر، فهرب التَّعايشي من أبي ركبة جنوبًا واستقرَّ في جبل قدير. فجرَّد السردار حملةً بقيادته فيها ٨٠٠٠ آلاف جندي، فهرب التَّعايشي شمالًا.

ووجِّهت ضدَّه حملة بقيادة السير رجينالد ونجت باشا — وكيل السردار — فقُتل التَّعايشي في (جديد) في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩.

الميجر جنرال الفريق السير فرانسيس ريجنلد ونجت باشا.

وكان مع التَّعايشي ألوف من النساء والرجال قتل الكثير منهم معه في واقعة جديد يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩. وكان مع التَّعايشي الخليفة علي ود حلو وأحمد فضيل والسنوسي أحمد وهرون محمد من إخوة التَّعايشي والصديق بن المهدي.

وقد استقبل التَّعايشي وصحبه الموت بجنان ثابت وقد نزع وطسون بك جُبَّة التَّعايشي وسيفه من جثته. ثمَّ دُفن في حفرة في المكان الذي قتل فيه. وكانت الجُبَّة مُلطَّخة بالدم ومخرَّقة بالرصاص.

ولَمَّا علم بعض أشياع التَّعايشي بموته سلموا.

وكان السردار قد وعد بجائزة عشرة آلاف جنيه لمن يُلقي القبض على التَّعايشي، وقد وزَّعها السردار على جنود الحملة.

وقد عين السير رجينلد ونجت باشا سردار الجيش المصري وحاكمًا عامًّا على السُّودان في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩ خلفًا للورد كتشنر الذي ندبته الحكومة الإنكليزيَّة في حرب الترنسفال، ومنح الخديوي ونجت رتبة فريق، ومنحته إنكلترا رتبة ميجر جنرال ولم يتجاوز عمره يومئذ ٤٣ سنة.

جثة الخليفة التَّعايشي ومن معه في واقعة جديد.

(٢٣) قتل الخليفة شريف وولدي المهدي

بعد أن أفرج السردار عن الخليفة شريف والفاضل والبشري ولدي المهدي وسكنوا شكابة على بعد ٤٠ ميلًا من سنار عاد شريف لجمع الأنصار للحاق بالتعايشي فقُبِض عليه وعلى ولدي المهدي وقُتلوا بالرصاص تنفيذًا لحكمٍ عسكري.

(٢٤) أسر عثمان دقنه[٥]

اختبأ عثمان دقنه عند الشيخ محمد علي عمر أور شيخ الجميلاب الذي أفشى لحاكم سواكن مخبأه؛ فتمكَّنت الحكومة من القبض عليه في ١٨ يناير سنة ١٩٠٠، وأُسر ونُقل إلى القاهرة، وأُرسل إلى سجن رشيد مع أسرى الدراويش الذين نقلوا فيما بعد وأُفرج عنه وعنهم بعد سنوات.

بيت الخليفة عبد الله التَّعايشي في أم درمان — وهو باقٍ للآن كمتحف. يشبه بيوت صغار الفلاحين ويرى بجانبه أحد الدراويش.

ثم نقل إلى السُّودان والتمس السَّماح له بالحج فحجَّ ثمَّ مرض بالشيخوخة، ومات بعد الحرب الكبرى، وكان بطلًا مغوارًا.

(٢٥) احتلال كردفان

احتل الكولونيل ماهون ومعه فرقة من الهجانة كردفان سنة ١٨٩٩.

(٢٦) إنقاذ سلاطين[٦]

ظلَّ «سلاطين» مأسورًا وأسلم وسُمِّي عبد القادر وأودع إخوته القنصلية النمسوية ألف جنيه. وكان «سلاطين» مع المهدي سنة ١٨٨٤، وكتب سلاطين إلى غوردون لإنقاذه، ووقع الكتاب في يد المهدي فسجنه ٨ شهور، ولمَّا مات المهدي جعله التَّعايشي ملازمًا لبابه لا يبرحه من الفجر إلى ما بعد العشاء، إلَّا إذا ركب معه وأعطاه منزلًا ينام فيه بالقرب منه، وكان يفخر بأنَّ مدير دارفور أسير عنده، وقد توسَّط ونجت بك «باشا» لدى تاجر جعلي اسمه العجيل، ودفعت القنصلية له ٢٠٠ جنيه مقدمًا وتعهَّدت بدفع ٨٠٠ بعد إنقاذ سلاطين. وقد وصل العجيل إلى أم درمان، وخرج مع سلاطين من أم درمان في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٩٥، وأرسله مع مخصوصين على هجين قوية فعبر النِّيل بين أبي حمد وبربر إلى أسوان، ووصل إلى القاهرة في ١٩ مارس سنة ١٨٩٥.

وعلم التَّعايشي بهربه ونفى العجيل ورفيقه الصادق عثمان إلى الرجاف حيث قتلا.

وألَّف سلاطين سنة ١٨٩٦ كتاب «السيف والنار في السُّودان» بالألمانية، وترجمه «ونجت» إلى الإنكليزيَّة، وتُرجم إلى جميع اللغات. وقد شرح سلاطين حكم المهدي والتعايشي. وعين سلاطين مساعدًا لونجت مدير المخابرات، ورافق الجيش المصري في استعادة السُّودان، ثمَّ عيِّن مفتشًا عامًّا.

ظل سلاطين باشا بعد فكِّ أسره حتَّى وفاته حاقدًا طول عمره على المهديين وأبناء المهدي والخليفة. وقد أصدر — عندما كان مفتشًا عامًّا للسُّودان — منشورًا إلى إدارات الحكومة بأن لا يذكر في المكاتبات الرَّسمية «السيد عبد الرحمن المهدي» إلَّا تلقيبه «بالشيخ عبد الرحمن محمد أحمد».

وكان صاحب الرأي في بقاء أولاد المهدي والخليفة شريف والخليفة ابن الحلو كأسرى في أم درمان. وكان ونجت باشا يثق به ثقة كبيرة.

(٢٧) الزبير رحمت باشا

هو الزبير بن رحمة بن منصور بن علي بن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر بن شاهين بن جميع بن جموع بن غانم العباسي ، من قبيلة الجميعاب. ولد في

الزبير رحمت باشا وقد أقام في حلوان في آخر أيامه.

١٧ محرم سنة ١٢٤٦هـ و٨ يولية سنة ١٨٣١. تعلم القرآن بمكتب الخرطوم وحفظ القرآن، وتفقَّه على مذهب مالك، واشتغل بالتجارة، ثمَّ سافر مع ابن عمه إلى بحر الغزال في خدمة أبي عموري التاجر الذي كانت له زريبة عند مشرع الرق، وأصبح وكيلًا له. وتزوج ابنة عمِّه ثمَّ تزوج ابنة سلطان النمانم «تكمة»، وعينته الحكومة المصريَّة مديرًا لبحر الغزال، ثمَّ وشي به فنقل إلى القاهرة ممنوعًا من السفر إلى السُّودان حتَّى استعادة السُّودان فسُمح له بالسفر ورُدَّت إليه أملاكه ومات.

هوامش

(١) تسمى عطبرة و«أتبرة»، والأخيرة اللفظ الرسمي في السُّودان.

(٢) تزوجت كريمة الشيخ المنور من سماحة بك المهندس الكبير بمصلحة المساحة سابقًا.

(٣) رحلة سمو الأمير عمر طوسون من الإسكندرية إلى الواحة الخارجة عن طريق صحراء لوبيا — ص١ جريدة «الأهرام» في ٢٦ يونية سنة ١٩٣٥.

(٤) وقد استاء مرشان من نزول حكومته عن فاشودة. وقال لضابط مصري: يظهر أنَّ وزراءنا كوزرائكم ضعفًا …

(٥) انظر صورته بالجزء الأول.

(٦) صورته بالجزء الأول.

الفصل الرابع

اتفاق ١٨٩٩ والحكم الثنائي

أعيدت مديريات السُّودان تقريبًا وأُبرم الاتِّفاق التالى بين مصر وإنكلترا.

(١) وفاق بين حكومة جلالة ملكة الإنكليز وحكومة الجناب العالي خديوي مصر بشأن إدارة السُّودان في المستقبل[١]

حيث إن بعض أقاليم السُّودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الإنكليز والجناب العالي الخديوي. وحيث قد أصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسنِّ القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التَّأخر وعدم الاستقرار على حال إلى الآن، وما تستلزمه حالة كلّ جهة من الاحتياطات المتنوِّعة. وحيث إنه من المقتضى التَّصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على ما لها من حق الفتح، وذلك بأن تشترك في وضع النِّظام الإداري والقانوني الآنف ذكره وفي إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه في المستقبل. وحيث إنَّه تراءى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادي حلفا وسواكن إداريًّا بالأقاليم المفتتحة المجاورة لهما؛ فلذلك قد صار الاتِّفاق والإقرار فيما بين الموقِّعين على هذا بما لها من التّفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتي وهو:

(المادة الأولى): تُطلق لفظة السُّودان في هذا الوفاق على جميع الأراضي الكائنة إلى جنوبي الدرجة الثَّانية والعشرين من خطوط العرض وهي:

أولًا: الأراضي التي لم تُخلِها قطّ الجنود المصريَّة منذ سنة ١٨٨٢.

اللُّورد كرومر — أو السير إفلن بارنج.

ثانيًا: الأراضي التي كانت تحت إدارة الحكومة المصريَّة قبل ثورة السُّودان الأخيرة، وفقدت منها وقتيًّا، ثمَّ افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصريَّة بالاتحاد.

ثالثًا: الأراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعدًا.

(المادة الثَّانية): يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معًا في البر والبحر بجميع أنحاء السُّودان ما عدا مدينة سواكن، فلا يستعمل فيها إلَّا العلم المصري فقط.

(المادة الثالثة): تُفوَّض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السُّودان إلى موظف واحد يلقَّب «حاكم عموم السُّودان»، ويكون تعيينه بأمر عالٍ خديوي بناءً على طلب حكومة

بطرس غالي باشا وزير الخارجية، ثمَّ رئيس النُّظَّار الذي اغتال حياته الشاب الصيدلي إبراهيم ناصف الورداني في ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ بسبب توقيع اتِّفاق ١٨٩٩ والميل لمد مشروع قناة السويس.

جلالة الملكة، ولا يفصل عن وظيفته إلَّا بأمر عالٍ خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

(المادة الرابعة): القوانين وكافة الأوامر واللوائح التي يكون لها قوة القانون المعمول به، والتي من شأنها تحسين إدارة حكومة السُّودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها، وكيفية أيلولتها والتَّصرف فيها، يجوز سنُّها أو تحويرها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام. وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسري مفعولها على جميع أنحاء السُّودان أو على جزء معلوم منه، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمنًا تحوير أو نسخ أي قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة.

وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي.

(المادة الخامسة): لا يسري على السُّودان أو على جزء منه شيء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصريَّة التي تصدر من الآن فصاعدًا إلَّا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السَّالف بيانها.

(المادة السادسة): المنشور الذي يصدر من حاكم عموم السُّودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرَّح للأوربيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السُّكنى بالسُّودان أو تملُّك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول.

(المادة السابعة): لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضي المصريَّة حين دخولها إلى السُّودان. ولكنَّه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضي المصريَّة، إلَّا أنَّه في حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السُّودان عن طريق سواكن أو أيَّة ميناء أخرى من مواني ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصريَّة من الخارج. ويجوز أن تقرّر عوائد على البضائع التي تخرج من السُّودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن.

(المادة الثامنة): فيما عدا مدينة سواكن لا تمتدُّ سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السُّودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه.

(المادة التاسعة): يُعتبر السُّودان بأجمعه ما عدا سواكن تحت الأحكام العرفية[٢] ويبقى كذلك إلى أن يتقرَّر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام.

(المادة العاشرة): لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصلانات بالسُّودان ولا يصرَّح لهم بالإقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية.

(المادة الحادية عشرة): ممنوع منعًا مطلقًا إدخال الرقيق إلى السُّودان أو تصديره منه، وسيصدر منشور بالإجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن.

(المادة الثَّانية عشرة): قد حصل الاتِّفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يولية سنة ١٨٩٠ فيما يتعلَّق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها.

تحريرًا بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الإمضاءات: «كرومر» «بطرس»

وفي يوم تاريخ هذا الوفاق عيِّن اللُّورد كتشنر أوف خرطوم — سردار الجيش المصري — حاكمًا عامًّا للسُّودان مع بقاء وظيفة السردارية في يده، وأعلن فتح السُّودان للتجارة في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٩، ولم يكن إلَّا أيام معدودة حتَّى نُدب لحرب الترنسفال.

هوامش

(١) الاتفاق وضع أصلًا بالإنكليزية وقد ترجمه سقراط سبيرو بك وهو حي للآن.

(٢) لا يزال السُّودان حتى الآن تحت الأحكام العرفية.

الفصل الخامس

الرأي المصري في اتِّفاق سنة ١٨٩٩

عند توقيع اتِّفاق ١٨٩٩ بين اللُّورد كرومر وبطرس غالي باشا — ناظر الخارجية المصرية — فحص رجال القانون المصريون هذا الاتِّفاق، وقالوا: إنَّه يعدُّ باطلًا للأسباب التَّالية:

(١) لأنَّ الحكومة المصريَّة أُكرهت على إخلاء السُّودان، ولأنَّ الخديوي بمقتضى الفرمانات الشاهانية لا يملك حق النزول عن أرض مصرية أو تابعة لمصر.

(٢) إنَّ الفرمانات التُّركيَّة تُحرِّم على الخديوي إبرام اتفاقات سياسية. وقد اعترفت إنكلترا بهذه الفرمانات.

(٣) لم يقترن الاتِّفاق بملكية السُّلطان العثماني للسُّودان، وهو ملك له كما أنَّ مصر كانت تابعة للسِّيادة التُّركية.

(١) تصريحات رجال السِّياسة الإنكليز عن اتِّفاقيَّة ١٨٩٩

(١) عبَّر اللُّورد غرانفيل في التَّعليمات التي أصدرها في ١٨ يناير سنة ١٨٨٤ إلى غوردون عن رأيه بالكيفية الآتية: «ينبغي فحص أحسن الوسائل التي يلزم اتخاذها لإخلاء داخلية السُّودان وتوطيد دعائم الأمن وإدارة المصالح والمواني القائمة على السواحل. وذلك تحت سيادة الحكومة المصريَّة وإفادتنا بما ترونه.»

(٢) والبند الثَّاني من الاتِّفاقيَّة الإنكليزيَّة الإيطالية المعقودة في سنة ١٨٩١ نصُّه كالآتي: «للحكومة الإيطالية الحق في احتلال (كسلا) وما جاورها من البلاد لغاية

العطبرة، وذلك فيما لو اضطرها مركزها الحربي لهذا الاحتلال. ومن المتَّفق عليه بين الدولتين المتعاقدتين أنَّ كلّ احتلال حربي وقتي للأرض الإضافية المبيَّنة في هذا البند لا ينسخ حقوق الحكومة المصريَّة في الأرض المذكورة. وهذه الحقوق تظلُّ فقط موقوفة إلى أن يصير في استطاعة الحكومة المصريَّة احتلال المركز البادي ذكره.»

(٣) وقال اللُّورد سالسبوري لسفير فرنسا في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩٦: «إنِّي متمسِّك على وجه العموم بهذا الرأي — ذلك أنَّ وادي النِّيل كان — وما زال، ولن يزال — ملكًا لمصر، وأنَّ كلّ مانعٍ أو انتقاص ألمَّ بحقوق هذه الملكية من جراء فتح واحتلال المهدي قد زال وتلاشى بحكم انتصار الجيش الإنكليزي المصري.»

وخطب اللُّورد روسبري في مدينة أبسون بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩٨ فقال:[١] «لكي نقرِّر حقوق مصر على فاشودة بطريقة حاسمة قد كفانا أن نذكِّر الحكومة الفرنسية بأقوالها في السنين الأخيرة، وذلك باستعارة أقوال المسيو دكريه وكوريسل وهانوتو: «نحن على وشك أن نردَّ لمصر ما هو من أرضها، وذلك حسب التَّصريحات التي فاهت بها كلّ الحكومات الفرنسيَّة.» وهذا أمر جليٌّ واضح، حتَّى إنَّه ليشق عليَّ أن أصدق أنَّه في الإمكان العثور على أي شيء يُنافيه.»

وأبدى السير غراي مثل هذا الرأي في خطبة ألقاها في مدينة يورك في ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٩٨[٢] بقوله: «ليس على فرنسا إلَّا أن تلاحظ أنَّ مسألة فاشودة مسألة متعلقة بالمبادئ والحقوق. فإذا كانت تريد أن تخرج من هذا المأزق فما عليها إلَّا أن ترجع إلى المبادئ التي بينها وبين المسيو هانوتو، وتعمل بمقتضاها، وبذلك ينحلُّ الإشكال بسهولة.»

وخطب اللُّورد كمبرلي في الوليمة التي أُقيمت تكريمًا لكتشنر في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٨ فقال:[٣] «إنَّ إخلاء فاشودة ليس فيه ما يحطُّ من قدر فرنسا ما دامت الحكومة الفرنسية هي نفسها صرَّحت أنَّ الأرض المتنازع عليها ملك مصر. وينبغي على فرنسا أن تصون سمعتها بأن لا تعمل نقيض ما صرَّحت به هي نفسها.»

وقال اللُّورد سالسبوري في كتاب أزرق نشره سنة ١٨٩٨: «إنَّ فاشودة من ممتلكات مصر بلا نزاع.»[٤]

وكتب اللُّورد كرومر في تقريره عن سنة ١٩٠١[٥] ما يأتي: «وليس الغرض من عقد اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩ حرمان مصر من حقوقها في السُّودان؛ بل تزويده بحكومة صالحة، والتَّخلص من العقبات التي تلقاها في طريقه مسألة الامتيازات.»

وكتب اللُّورد كمبرلي في ٤ إبريل سنة ١٨٩٥ إلى اللُّورد دوفرين:

> إذا كانت مصر تستردُّ السُّودان الذي كانت تحتلُّه في المدة السالفة، فمن الواجب علينا أن نعترف بحقها في امتلاكه.

واعترف اللُّورد كرومر في تقريره في سنة ١٩٠١ بمشروعية الملاحظات التي أبداها مجلس الشورى عند الاقتراح على الميزانية الخاصَّة بالسودان. فقد قرر فيها المجلس أنَّ: «السودان جزء متمِّمٌ لمصر.»

(٢) تصريحات الجانب المصري

وفي أواخر عام ١٨٨٣ ذكرت وزارة شريف باشا في كتاب الاستقالة[٦] أسبابها في خطاب أُذيع على الجمهورية، وإليك ما جاء به: «إنَّ الحكومة البريطانية تُحتِّم علينا إخلاء السُّودان مع أنَّ قبول هذا الإخلاء ليس من حقِّنا؛ لأنَّ هذا البلد هو من ممتلكات الباب العالي، وقد سلَّمنا حراسته. تقول حكومة الملكة: إنَّه من واجبات مصر الإذعان لمشورتها بدون مناقشة. وهذا تعدٍّ صارخ على فرمان ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ القاضي بأنَّ الخديوي يحكم مع وزرائه وبواسطتهم. وقد استقلْنا لأنَّه حجرٌ علينا أن ندير الأحكام بمقتضى هذا الدستور.»

وفي سنة ١٨٨٤ أرسل الخديوي توفيق باشا نداءً إلى أهالي السُّودان يقول فيه: إنَّه لاهتمامه بشؤونهم فوَّض إليهم أمر اختيار حكومتهم. «وهذا بلا جدال عمل من أعمال السِّيادة.»

وأرسل رياض باشا إلى السير إفلن بارنج بتاريخ ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٧ مذكرة يقول فيها:

> لا ينازع أي إنسان في أنَّ النِّيل هو حياة مصر، وهذا أمر واضح جلي لا يختلف فيه اثنان. إذن النِّيل هو السُّودان، ولا يرتاب أحد في أنَّ العلائق التي تربطهما لا انفكاك لها. وهي أشبه شيء بعلاقة الروح بالجسد. فإذا استولت دولة ما

على ضفاف النِّيل فعلى مصر العفاء. ويُعلم من ذلك أنَّ حكومة سمو الخديوي لا يمكن أن تقبل بمحض رضاها واختيارها وبدون أن تكره على ذلك تعديًا كهذا على وجودها وحياتها.[٧]

وأدمج اللُّورد سالسبوري في الكتاب الأزرق الذي أذاعه سنة ١٨٩٨[٨] بصدد فاشودة خطابًا من بطرس باشا غالي إلى اللُّورد كرومر يقول فيه: «تعلمون فخامتكم أنَّه لم يغب البتَّة عن أنظار حكومة الخديوي مسألة استرداد مديريات السُّودان التي هي عبارة عن ينبوع حياة مصر، والتي لم تنجل عنها إلَّا على أثر طروء ظروف قوة قاهرة. وقد تضيع الفائدة من إعادة فتح الخرطوم إذا لم تستردَّ وادي النِّيل الذي ضحَّت مصر في سبيله الشيء الكثير من الأموال والأرواح. ولمَّا كانت الحكومة المصريَّة تعلم أنَّ هنالك مفاوضات دائرة الآن بين بريطانيا العُظمى وفرنسا بصدد فاشودة، فقد كلَّفتني أن أرجو فخامتكم أن تمدونا بحسن معونتكم لدى اللُّورد سالسبوري ابتغاء الاعتراف بحقوق مصر الثابتة وردِّ جميع المديريات التي كانت تحتلُّها لغاية قيام ثورة محمد أحمد.»

وعندما كان مجلس شورى القوانين في مرَّات كثيرة يُدعى إلى إبداء رأيه في القروض التي تُقدَّم للسُّودان لا يألو أن يكرر: «نحن نصادق على هذه القروض؛ لأنَّ السُّودان جزء متمِّم لمصر.»[٩] استنادًا إلى أنَّ اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٨ ترمي إلى الوجهة الإدارية كما يتبيَّن ممَّا يلي:

«وحيث أصبح من الضروري تنظيم طرق الإدارة وسنُّ لوايح وقوانين للمديريات التي استردَّت ... إلخ». وهذا المفهوم من منطوقها أيدته الفقرة التَّالية منه وهي: «وحيث إنَّه لأسباب كثيرة يمكن حكم وادي حلفا وسواكن مع المديريات التي استردَّت بطريقة أنجح؛ نظرًا لمجاورتهما لأراضي السُّودان ... إلخ».

ومن سنة ١٨٨٤ لغاية سنة ١٨٩٦ لم تكفَّ مصر عن أن تُدرج في ميزانيتها حسابًا خصوصيًّا للسُّودان. ومذكور بإحصائيات الحكومة المبالغ السنوية التي دفعتها طول هذه المدة وقيمتها.

(٣) رأي سمو الأمير عمر طوسون

لحضرة صاحب السمو الأمير العظيم عمر طوسون آراء جلية في اتِّفاق ١٨٩٩. قال سموه عن «تأجيل المفاوضة في شأن السُّودان» في مشروع ملنر سنة ١٩٢٠ ما يلي: أرجئت مسألة السُّودان لسببين:

الأوَّل: اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩م.

الثَّاني: اعتراف تركيا بتلك الاتِّفاقيَّة.

أمَّا اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩ فهي باطلة بالبراهين الآتية:

أولًا: لأنَّها مبنيَّة على الفتح؛ وهذا أساس غير صحيح؛ لأنَّ الفتح لم يحصل إلَّا باسم مصر فقط. والدليل على ذلك أنَّ مارشان عندما احتلَّ فاشودة توجَّه كتشنر إليها واحتلَّ نقطة أمام النقطة المحتلَّة من الفرنسيين، ولم يرفع إلَّا العلم المصري فقط أمام العلم الفرنسي. وفي هذه الحالة كان لكتشنر صفتان: إحداهما أنَّه قائد مصري وثانيتهما أنَّه قائد إنكليزي؛ لأنَّ الحامية الإنكليزيَّة التي في السُّودان كانت تحت قيادته، وجزء من تلك الحامية كان من فاشودة. وقد أدَّى التَّعظيم الواجب عندما رفع العلم المصري وحده أمام العلم الفرنسي. وحيث إنَّ هذه الحادثة كانت خاتمة الأعمال الحربية في تلك البلاد، وتعتبر تتويجًا لها، فرفع العلم المصري وحده وتأدية الجنود الإنكليزيَّة له التَّحية العسكرية هو اعتراف صريح من إنكلترا أمام دولة أجنبية بأنَّ الفتح لم يحصل إلَّا باسم مصر فقط، وإلَّا فلو كان بالاشتراك لرفع العلم الإنكليزي بجانب العلم المصري.

وأمَّا مساعدة الحامية الإنكليزيَّة في فتح السُّودان فلا يُعتبر إلَّا من باب مساعدة الوصي لمحجوره في ردِّ جزء من أملاكه فُقد، بسوء تصرفاته. إذ لو اتَّبع رأي عبد القادر باشا ولم يرسل الجيش المصري في داخل كردفان كما رأى هكس باشا لما هلك الجيش ولما ضاع السُّودان.

ثانيًا: لأنَّها تشبه العقد الذي يعقد بين الوصي ومحجوره ويجرُّ منفعة لهذا الوصي.

قيمة اعتراف تركيا: وأمَّا هذا الاعتراف فإنَّه لا قيمة له بالمرة بالبراهين الآتية:

أولًا: أنَّ إعلان الحماية على مصر أزال السِّيادة التُّركيَّة عنها ابتداءً من ديسمبر سنة ١٩١٤م، وتُعتبر غير موجودة في وقت عمل التَّنازل.

ثانيًا: أنَّ الحكومة التُّركيَّة اعترفت باستقلال مصر استقلالًا تامًّا، وجعلت لها حرية تقرير مصيرها السِّياسي. وهذا القرار صُدِّق عليه من مجلس المبعوثين قبل إمضاء معاهدة سيفر.

ثالثًا: أنَّ معاهدة سيفر التي اعترفت فيها تركيا بحماية الإنكليز لمصر إنَّما وقعها ممثلو الحكومة التُّركيَّة مرغَمين، وفضلًا عن هذا فإنَّ الشعب العثماني معارض فيها أشد المعارضة، وهي مع هذا لم تَحُز تصديق مجلس المبعوثين، ولم تعترف بها بعض الدول إلى الآن. «وقد حلَّت محلها معاهدة لوزان مع عصمت باشا سنة ١٩٢٢.»

وحيث إنَّ السِّيادة لا وجود لها فإنَّ الاعتراف من تركيا لا قيمة له بالمرة؛ لأنَّها بذلك تُقرُّ حقًّا لغيرها في بلد لا تملكه، ولم نفهم معنى السكوت عن المسألة السُّودانية بمجرد إظهار إنكلترا لهذا الاعتراف من الحكومة التُّركية، لأنَّ تركيا اعترفت أيضًا بالحماية الإنكليزيَّة على مصر، وهذا لم يمنع المعارضة لها والمفاوضة في المسألة المصرية.

(٤) مذكرة عن مركز الإنكليز في السُّودان

وأرسل سموُّه إلى جريدة التيمس الرسالة التَّالية ولم تنشرها، فنُشرت في جرائد مصر في ٢ سبتمبر سنة ١٩٢٧.

لَمَّا رأينا صحف إنكلترا تتعمَّد تشويه الحقائق فيما تكتبه عن السُّودان وعن مركز الإنكليز في ذلك القطر من وادي النِّيل، كتبنا إلى جريدة التيمس رسالة نبسط فيها للرأي العام البريطاني حقائق المسألة السُّودانية كما يسجلها التَّاريخ الصحيح ويعرفها ذوو الاطِّلاع.

ولقد تلقَّينا من رئيس تحرير تلك الجريدة كتابًا يقول فيه: إنَّه سيحتفظ بمقالنا بقصد الرجوع إليه عند الكتابة في مسألة السُّودان. وهذا بالطبع معناه عدم الرغبة في نشر ذلك المقال.

وحيث إنَّ أحوال السُّودان لا تزال تشغل الأفكار في هذا القطر، فقد رأينا أن نرسل ترجمة المقال المذكور إلى الصحف المصريَّة، وهذا معربه بعد الديباجة.

(٤-١) المقال

لمناسبة الأحوال السياسية الحاضرة في وادي النِّيل وما تبديه صحف لندن من مختلف الآراء بشأن السُّودان أودُّ أن أُلفت الرأي العام البريطاني بواسطة جريدتكم — إذا أذنتم — إلى الوقائع الآتية:

لمَّا وقعت حادثة مارشان الشهيرة في السُّودان، كان الإنكليز يقولون: إنَّ السُّودان لمصر ومن مصر. ثمَّ ادَّعوا أنهم شركاء فيه بإرادة مصر. فلمَّا أعلنت مصر بطلان هذه الشركة قالوا: إنَّهم ساعدوا على استرجاعه ولولاهم لما تمَّ هذا الاسترجاع.

ولما كانت إعانتهم لمصر في استرجاع السُّودان قد حصلت فعلًا أردنا هنا أن نبين للقارئ أنَّهم هم الذين كانوا السَّبب في ضياعه، وأنَّهم وإن كانوا أعانوها على استرجاعه، فقد كانت في غير حاجة إلى هذه الإعانة، وإلى القارئ الأدلَّة:

(١) أنَّ مصر فتحت السُّودان وحدها سنة ١٨٢٠م، وبقيت سلطتها فيه قائمة لم يعترها ضعفٌ ولا وهنٌ إلى سنة ١٨٨١م والسُّودان يومئذ آهل بسكَّانه زاخر برؤسائه وملوكه. فمن قدر على فتحه في هذه الحال وعلى حفظ نفوذه وسلطانه عليه اثنتين وستين سنة. فلا شك أنَّه يكون قادرًا على استرجاعه بدون مساعد.

(٢) أنَّ الثَّورة العرابية ابتدأت في مصر في ٦ فبراير سنة ١٨٨١م، وابتدأت الثَّورة المَهديَّة في السُّودان في ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١م أيضًا، كأنَّما الثورتان كانتا على ميعاد. فلما اختلَّ الأصل — وهو مصر — اختل الفرع وهو السُّودان. ومن سوء الحظ أنَّ حكمدار السُّودان وقتئذ كان رؤوف باشا، وهو رجل خلو من الكفاءة والتدبير، إذ لو كان على شيء منهما لقضي على ثورة المهدي في السُّودان في إبانها. فقد أبلغه رئيس كبير موثوق به وهو السيد محمد الشريف أكبر مشايخ الطرق في السُّودان أمر هذا المدَّعي وحذَّره عاقبة الإهمال، فلم يأبه لقوله ولم يستيقظ من سُباته حتَّى أرسل إليه هذا المفتون كتابًا يدعوه فيه إلى الدخول في شيعته والإيمان به. وبدلًا من أن يُرسل إليه عقب ذلك من يقبض عليه في الحال أرسل ينصح له فردَّه خائبًا. ثمَّ بعد لأْيٍ وتردُّدٍ، أرسل إليه تجريدة صغيرة أوقع بها المهدي وهزمها شر هزيمة، فكان هذا أول وهنٍ أصاب هيبة الحكومة في السُّودان، فقد انتشر خبر هذه الواقعة في جميع أنحائه وتناقل الرواة حديثها بغلوٍّ كبير، وعدَّتها العامَّة من المعجزات التي تدلُّ على صدق محمد أحمد في

دعوى المهدية. ثمَّ جرد عليه تجريدات أخرى كان نصيبها نصيب الأولى. فانحطَّت كرامة الحكومة في عيون أهل السُّودان وصدَّقوا دعوى المهدي.

ولمَّا بلغت هذه الأخبار السيئة الحكومة عيَّنت عبد القادر حلمي باشا بدلًا من رؤوف باشا؛ وحسنًا فعلت فإنَّ هذا الحكمدار الجديد أظهر همَّةً عالية وكفاءة نادرة في قمع الثَّورة بعدما استطار شررها واستفحل أمرها، وكان قد طلب من الحكومة عشرة آلاف جندي. ولمَّا لم تُجبه إلى طلبه لارتباكها بالثورة العرابية جنَّد من أهالي السُّودان جيشًا صغيرًا، درَّبه بنفسه وضمَّ إليه ست أورط كانت في السُّودان الشَّرقي، وحمل بهذا الجيش الصغير على الثوار فأبادهم وشتَّت شملهم ورفع الحصار عن حامية سنار. فهدأت الحال وخمدت جذور الثَّورة، ولم يبق في يد المهدي سوى مديرية واحدة هي مديرية كردفان ولا من أتباعه العصاة في النَّواحي سوى نفر قليل في الجزيرة بقيادة زعيم لهم يُدعى أحمد الكاشف.

فأنت ترى أنَّ عبد القادر حلمي باشا بجيشه الصغير استرجع السُّودان أو كاد، ولو أرسل إليه الجيش الذي أرسل إلى هكس؛ لتمَّ على يديه استرجاع السُّودان بدون عناء. ولكن عندما وصلت هذه الأخبار السَّارة إلى مصر، وكان ذلك في أوائل سنة ١٨٨٣م وقد احتلتها الإنكليز وأصبح في يدهم تصريف أمورها صدرت الأوامر بعزل عبد القادر باشا لهذا السبب المقلوب في الوقت الذي قال في حقه المهدي في إحدى خطبه: «ليس بين رجال الحكومة التي أناوئها رجل كعبد القادر كثير الدهاء والحيل مع الشجاعة؛ ممَّا يجعلني أضرع إلى الله أن يكفيني وأصحابي شره. وإنَّني أحتِّم على كلّ المؤمنين الذين دخلوا في دعوتي أن يجتنبوا القيام في الجزيرة بأي مشاغبة تضطرهم إلى الوقوف في ساحات الحرب مع عبد القادر باشا. وأوصيهم بكتمان دعوتي وعدم الظهور بها في الجزيرة ما دام عبد القادر باشا متوليًا على السُّودان، وليواظب كلّ أصحابي على رفع أصواتهم بعد كلّ صلاة بهذه الدعوة: «اللهم يا قوي يا قادر، اكفنا شرَّ عبد القادر.»

وقد كتب عبد القادر باشا بعد عودته من الخرطوم تقريرًا وافيًا للحكومة بما يجب عليها عمله. وملخَّصه عدم تسيير حملة إلى المهدي في كردفان والاكتفاء بإقامة الحصون على حدودها وحصر المهدي فيها حتَّى تنضُب منها موارد اليسار القليلة التي لا يمكن أن تقوم بنفقات الملتفِّين حوله، فلا يمضي زمن حتَّى يشعروا بالضيق فيطلبوا الخلاص من جور المهدية. ولا سبيل لهم إلى نيل هذا الغرض إلَّا بمظاهرة الحكومة وموالاتها فيسهل عليها حينئذ قهر المهدي بقوة يسيرة.

هذا كان رأي عبد القادر باشا، ولكن حكومة ذلك الوقت التي عزلته بسبب ما أظهره من الكفاءة وأحرز من الانتصار، ليس من المعقول أن تعمل برأيه؛ فضربت بتقريره عرض الحائط، وعيَّنت بدلًا منه علاء الدين باشا. فتولى علاء الدين باشا منصب حكمدار السُّودان. ولكن حُصرت سلطته في الإدارة الملكية وجعل سليمان نيازي باشا قائدًا عامًّا وهكس باشا رئيسًا لأركان حربه، وأرسل إلى السُّودان بقيادته جيش وصل إلى الخرطوم في مارس سنة ١٨٨٣م، وهو مؤلف ممَّا يأتي:

آلاي رقم ١ مشاة تحت قيادة الميرالاي سليم عوني بك عدده	٢٤٠٠
آلاي رقم ٢ مشاة تحت قيادة الميرالاي السيد عبد القادر عدده	٢٥٠٠
آلاي رقم ٣ مشاة تحت قيادة الميرالاي إبرهيم حيدر بك عدده	٢٦٠٠
آلاي رقم ٤ مشاة تحت قيادة الميرالاي رجب صديق بك عدده	٣٠٠٠
الفرسان والمدفعية تحت قيادة الميرالاي عباس وهبي بك عدده	٢٤٠٠
	١٢٩٠٠

وفي إبريل سنة ١٨٨٣م خرج نيازي باشا وأركان حربه هكس باشا ومعهما ٥٦٠٠ جندي للإيقاع بمن بقي من العصاة مع أحمد الكاشف بالجزيرة، وكان عددهم قد تكاثف بعد عبد القادر باشا فلاقوهم في المرابيع وكسروهم شر كسرة، وقتلوا زعماءهم فانمحى بهذه الواقعة أثر الثَّورة من الجزيرة كما انمحى من عموم السُّودان، ولم يبق للمهدي شوكة خارج كردفان.

وقد ألحَّ عبد القادر باشا ثانيًا على الحكومة وهو في مصر عقب هذه الواقعة بترك المهدي وشأنه في كردفان إلى أن يظهر للناس كذبه أو تضيق به البلاد فيضمحلَّ من نفسه، فقوبل إلحاحه بالإعراض أيضًا، وأذن لهكس باشا بالزحف على المهدي في كردفان. فردَّ بأنَّه لا يتحمَّل مسئولية الحملة حتَّى تكون له القيادة العامَّة عليها، ولما تباطأت الحكومة المصريَّة في إجابته إلى طلبه هددها بالاستعفاء فأذعنت وجعلته القائد العام على الحملة ونقلت نيازي باشا محافظًا على السُّودان الشَّرقي فخلا لهكس باشا الجو، وتوغَّل بهذا الجيش الكبير في صحاري كردفان حتَّى ضلوا الطريق ووقعوا في مخالب المهدي؛ فأفناهم ذبحًا وقتلًا في ساعات معدودة.

وبهذا الانتصار الكبير رجع للمهدي شأنه الأول فانتفضت أطراف السُّودان وعاد شعلة نار. وعلى أثر ذلك قررت الحكومة الإنكليزيَّة إخلاءه، ولَمَّا لم تصادق وزارة شريف باشا على هذا الإخلاء حملتها على الاستعفاء، وجاءت وزارة نوبار باشا فصادقت عليه، وعيِّن غوردون باشا لإخلائه وإخراج الجيوش المصريَّة منه، وكان فيه نحو الثلاثين ألفًا، وحوصر غوردون باشا في الخرطوم إلى أن قتل وكان ما كان ممَّا هو معروف ومشهور. فمن هو المسئول عن هذه النتائج السيئة؟ ومن ذا الذي أضاع السُّودان؟ أمصر التي أضاعته، أم السِّياسة الإنكليزيَّة التي كانت مشرفة على مصر في هذا الحين؟

(٣) ثمَّ ترك السُّودان، تفتك بأهله الفوضى والجهل والظلم والأوباء والحروب، فحصدتهم هذه الأوباء حصدًا واصطلحت عليهم، وتركت البقية الباقية من أهله في جوع وعري.

وهذه العاقبة هي التي توقَّعها عبد القادر باشا حلمي لأهل كردفان لو بقي المهدي محصورًا فيه. وعند ذلك جاءت أوامر إنكلترا بتجهيز حملة لاسترجاع السُّودان، وصدر القرار الوزاري بذلك في ١٣ مارس سنة ١٨٩٦م. فاسترجع السُّودان بثلاث واقعات كبرى وبجيش يبلغ نيفًا وعشرين ألفًا تقريبًا ولم يقتل منه إلَّا القليل. وكانت الخسارة في الواقعة الفاصلة — وهي واقعة أم درمان — من القتلى ثلاثة ضباط إنكليز واثنين من المصريين وأربعة وعشرين عسكريًّا إنكليزيا وسبعة وعشرين عسكريًّا مصريًّا، ولم تبلغ النَّفقات التي صرفت في هذا الفتح مليونًا من الجنيهات، فهل كان ذلك يعجز مصر عن أن تقوم به وحدها؟

هذا هو مقال سمو الأمير.

(٥) كلمة لسموِّه عن مديرية خط الاستواء

نشرتها جريدة «الأهرام» في عدد يوم الاثنين ٢٩ مايو سنة ١٩٣٣:

مديرية خط الاستواء هي أهمُّ مديريات السُّودان المصري وألزمها وأنفعها لمصر؛ لأنَّ مخرج النِّيل من بحيرة ألبرت نيانزا المراد عمل السد فيه لجعل تلك البحيرة خزانًا هو جزء من هذه المديرية التي ظلت في حكم مصر حتَّى آخر عهد أمين باشا الذي هو آخر مدير لتلك المديرية السُّودانية المصريَّة إلى نهاية الحكم المصري الفعلي للسُّودان.

وقد شمل الحكم المصري أيضًا ثُلثي شواطئ هذه البحيرة وأقام فيه المعاقل العسكرية التي بقيت حتَّى شاهدها ستانلي في سياحته المشهورة عندما توجه إلى هذه الجهة لتخليص أمين باشا ظاهرًا، ولمحو الآثار الباقية لمصر بتلك المنطقة في الحقيقة. ثمَّ توجه الكابتن لوجارد إلى هناك، واستخدم الجنود المصريَّة المتروكة فيها باسم الشركة البريطانية الأفريقية الشرقية، واستولى على أوغندة وعلى القسم الجنوبي من مديرية خط الاستواء، وبسطت الحكومة البريطانية حمايتها على هذه البلاد، ثمَّ عقدت بعد ذلك مع مصر معاهدة سنة ١٨٩٩م.

ولو احترمت هذه المعاهدة — كما لا تزال تدَّعي ذلك — لكان أول واجب عليها إرجاع هذه البلاد إلى السُّودان المصري وجعلها تحت إدارة حكومته، حيث إنَّ هذه المعاهدة تشمل عموم الأراضي التي يتكوَّن منها السُّودان المصري القديم، كما كان عليه قبل الثَّورة المهدية. ولكنَّها لم تفعل هذا الواجب ولم تُراعِهِ في تطبيق هذه المعاهدة لأنَّها كانت منذ زمن بعيد تطمح إلى امتلاك مديرية خط الاستواء المصريَّة الواقعة في أرجائها ينابيع النَّهر العظيم الذي يفيض على مصر الحياة.

وهذا لا يجعلنا نعتبر عملها الذي استندت فيه إلى القوة عملًا شرعيًّا؛ لأنَّ إنكلترا التي أخرجت مارشان من فاشودة بحجَّة أنَّها جزء من السُّودان ماكان ينبغي لها بعد ذلك أن تسلخ جزءًا منه لنفسها. وهذه الحجة لا تزال قائمة عليها إلى الآن.

وكان قد تمَّ بامتلاكنا هذه المديرية وضع يدنا على وادي النِّيل برمَّته من منابعه في منطقة بحيرات خط الاستواء إلى مصابِّه في البحر الأبيض المتوسط. فاغتصابها هذه المديرية بعد ذلك لا يفسَّر إلَّا برغبتها الشديدة في القبض على عنق مصر، لكي تصيِّرها مطيعة لأوامرها خاضعة لإرادتها باستمرار.

وتاريخ مطامع إنكلترا هذه يرجع إلى ما قبل احتلالها لمصر بزمن بعيد. ويؤيد ذلك المعلومات التي تلقَّاها الخديوي إسماعيل باشا والتعليمات التي أمدَّ بها الكولونيل شايي لونج الذي كان قد تعيَّن رئيس أركان حرب للجنرال غوردون في ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤م عند تعيين هذا الجنرال مديرًا عامًّا لمديرية خط الاستواء في السنة عينها. وإلى القارئ ما رواه هذا الضابط في كتابه «حياتي في أربع قارَّات «ج١ ص٦٧٠» قال:

«لدى دخولي كان الخديوي إسماعيل يمشي بخطوات واسعة في قاعة الاستقبال وهو متوتِّر الأعصاب، وكان برفقتي تونينو بك التشريفاتي الثَّاني الذي أدخلني عنده فوجَّه إليَّ السؤال الآتي:

أرأيت الجنرال غوردون؟

فأجبت: نعم يا مولاي، ولقد قضيت معه أكثر الليل.

فأجاب الخديوي: حسنًا جدًّا. والآن أعرني أذنك — لقد وقع الاختيار عليك لتكون رئيس أركان حرب لعدَّة أسباب أهمها المحافظة على المصالح المصرية. فهناك في لندرة يوشك أن تنظم حملة بقيادة رجل يقال له استانلي أمريكي الجنسية على ما يزعمون. والغرض من هذه الحملة — حسب الظاهر — نجدة الدكتور ليفنجستون.

أمَّا الغرض الحقيقي منها فهو رفع العلم البريطاني على ربوع أوغندة. فتوجَّه أنت إلى غندكورو، وأسرع في الذهاب إلى أوغندة، ولا تضيِّع أوقاتك، واسبق حملة لندرة، وأبرم معاهدة مع ملك أوغندة، فتُمسي مصر مدينة لك سرمديًّا بواجب الشكران معترفة بالجميل. اذهب وليكلَّل مسعاك بالنجاح إن شاء الله.»

وسافر الكولونيل شايي لونج عملًا بهذه الأوامر إلى أوغندة، وأنجز مهمته بالكيفيَّة التي قصَّها في كتابه «مصر ومديرياتها المضيَّعة ص٢٤ و٢٥». وإلى القارئ معرب مقاله:

> لقد توصَّلت إلى إصابة الهدف السياسي الذي كانت ترمي إليه مأموريتي، ونجحت في ذلك إلى أبعد ممَّا كنت أرجو، وقدمت للحكومة المصريَّة في ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٤ تقريرًا ذكرت فيه إبرام معاهدة مع الملك أمتزا[١٠] اعترف فيها بوضع مملكته تحت حماية مصر. وهذه المعاهدة بلغت لسمو الخديوي واتخذت أساسًا للمذكرة الرَّسمية التي أصدرتها مصر وقررت بموجبها ضمَّ جميع الأراضي الواقعة حول بحيرات «فيكتوريا وألبرت الكبرى»، وهذه المذكرة قد اختفت من دار المحفوظات بمصر.

والمذكرة التي يومئ إليها الكولونيل شابي هي تلك المذكرة التي أرسلها شريف باشا ناظر الخارجية إلى قناصل الدول الجنرالية بمصر، ومن جملتهم بحكم الطبع قنصل إنكلترا، ولقد جاء بعد تعداد المواقع الحربية المختلفة التي خاضت غمارها العساكر المصريَّة واحتلال تلك الأراضي ما يأتي:

> وعلى ذلك قد تمَّ إلحاق جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت بمصر، وفتحت البحيرتان وروافدهما ونهر السومرست للملاحة، وصارت ممهدة للاستكشافات التي يقوم بها غوردون باشا.

وإنَّ في ذلك لأوضح دلالة على ما لمصر من حقوق في تلك الأقطار، وأقوى برهان على طموح أنظار الإنكليز إلى تملُّكها.

وفي عام ١٨٧٦ قال غوردون باشا: إنَّه لَّما كان مديرًا عامًّا لمديريات خط الاستواء — «راجع كتاب الكولونيل غوردون باشا في أفريقية الوسطى ص١٧٧» — أرسل نور أغا محمد — وهو الذي ترقَّى فيما بعد إلى رتبة أميرالاي وكان قائدًا لجيوش المديرية — ومعه ١٦٠ جنديًّا؛ ليبتني محطة عسكرية في «أورندجاني» من أعمال أوغندة. ولكنَّه إجابة لطلب أمتيزا ذهب وابتناها في عاصمته «روباجا» «كامبالا» الآن، وزاد غوردون باشا على ذلك فقال: إنَّه ما دامت هذه هي رغبة الملك فسيترك الـ ١٦٠ جنديًّا تعسكر في عاصمته. وفي استطاعته إذا حدَّثتْ الملك نفسه بإحداث قلاقل أن يأخذه أسيرًا. وكانت كتابة غوردون باشا لهذه الأسطر في ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦م.

وكان غوردون باشا قد نوى أن يسافر إلى «روباجا» قاعدة مملكة أمتيزا، ولكنَّه عدل عن هذا الرأي وقال «ص١٨١» بتاريخ ١٨ أغسطس إنَّه غيَّر هذه الفكرة، وأزمع على أن يرسل ٩٠جنديًّا إلى نور أغا لتعزيز الـ ١٦٠ جنديًّا السَّابق إرسالهم إلى «روباجا»، وأنَّه بضمِّ هاتين القوتين إلى بعضهما يصير في هذه الجهة قوة كافية.

وهذا يظهر بكيفية لا يتطرق إليها الشك أنَّ غوردون باشا كان يؤيِّد احتلال جنود مصر لعاصمة أوغندة تأييدًا تامًّا، ويقرِّر أنَّ ذلك الاحتلال أسمى في حكم الأمر الواقع.

وكان غوردون باشا قد بادر بإحاطة الخديوي إسماعيل بأنَّه احتلَّ «أورندجاني» و«روباجا» عاصمة أوغندة.

وقد عثرنا في جريدة الوقائع المصريَّة بالعدد رقم ٦٧٤ ص١ بتاريخ ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٦ على التلغراف الذي أرسله غوردون باشا إلى الخديوي إسماعيل في هذا الشأن، فقد جاء في العدد المذكور ما نصُّه:

> ورد تلغراف إلى المعيَّة السَّنيَّة من سعادتلو غوردون باشا في ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ يتضمَّن أنَّ «الملك أمتيسا» «ملك أوغندة» طلب منِّي عساكر لأجل إقامتها في بندر حكومته، فأرسلت إليه مائة وخمسين عسكريًّا، ورتَّبت ثلاثين عسكريًّا في بلدة «أورندكاني» ومثلها في بلدة «بكبتيسه»، فكانت تلك الجهات والحالة هذه في حيزة الحكومة المصريَّة، وقد وصلنا إلى «مكانكو» في ٢٧ جمادى الثَّانية سنة ١٢٩٣ «٢٠ يولية سنة ١٨٧٦» بعد سفر سبعة أيام من «دوفلي»، والبحر هناك جيد صالح لسير السفن فيه بسهولة. وشطوطه

معمورة بكثرة الناس فيه، وأراضيه صالحة للزراعة. وبعد ثلاثة أيام نتوجه إلى بلاد «مرولي» و«أرندكاني» و«أمتيسا». ويمكننا الوصول إلى سائر تلك الجهات بغاية الراحة التامة والسهولة. ا.هـ.

وبلدة «مكانكو» الآنفة واقعة في فم بحيرة ألبرت نيانزا ومحل الخزَّان المزمع عمله في المستقبل.

وبعد هذا الفتح لم يبقَ غوردون باشا الحاميات المصريَّة بتلك الجهات، بل أمر في أواخر نفس هذا العام «١٨٧٦م»، أي عند تركه خدمة الحكومة المصريَّة نظرًا لانتهاء أجل عقد خدمته بسحب كافة الحاميات المصريَّة المقيمة في «أونيورو» و«أوغندة». وعلى ذلك أخليت المحطات الآتية:

فويرة وكيرتو وماسندي ومرولي وفاكوفيا وأرندجاني وروباجا.

وكان في خلال هذه المدة قد تلقَّى الخديوي إسماعيل رسالة غوردون باشا المنبئة باحتلال قاعدة أوغندة، فبادر بالإنعام عليه بالوسام المجيدي الأول. ولم يصل خبر هذا الإنعام إلى غوردون باشا إلَّا عند إزماعه الرحيل، وبعد أن صدر أمره بإخلاء تلك المحطات، وقال «ص١٩٦»: إنَّه ارتبك في أمره وصار لا يدري كيف يفعل. وهذا أمر يفهم بالبداهة.

وعندما تعيَّن أمين باشا مديرًا لمديرية خط الاستواء أعاد احتلال قسم من هذه المحطات، ولكن لَمَّا تعيَّن غوردون باشا حكمدارًا عامًّا للسُّودان أمر بإخلائها ثانية، وفعلًا نفذ الأمر، ولَمَّا زايل مركزه وتعين بدلًا منه رؤوف باشا حكمدارًا عامًّا للسُّودان رجع أمين باشا مرة أخرى واحتلها ولم يتركها إلَّا لَمَّا شبَّت نار الثَّورة المَهديَّة، وذلك عندما أراد أن يلمَّ شعثه ويحصر قوته المسلحة في محطات معينة.

ومن العجب أنَّ غوردون باشا بعد أن احتلَّ قاعدة أوغندة وكل هذه المحطات الأخرى يرجع فيُخليها بعد بُرهة قصيرة جدًّا، لا سيَّما أنَّ هذا الاحتلال تمَّ بمحض موافقته وموافقة ملك هذه البلاد. ولم يكن هناك أيُّ داعٍ حربي يضطره إلى الإقدام على الإخلاء؛ لأنَّ قوته العسكرية كانت باعترافه هو نفسه قد زادت عند نهاية خدمته.

ويقول في مؤلفه السَّابق «ص١٩٦» إنَّه اضطرَّ أن يسحب جنوده من بلد أمتيزا بدون أن يذكر السبب في ذلك.

ومن رأيي أنَّ السبب يرجع حتمًا إلى أنَّ إنكلترا كانت تُعارض في اتِّساع أملاك مصر في الجنوب مع أنَّه لم يكن لها في ذلك الوقت بتلك النواحي أية مصلحة، ولكنَّها كانت

تنظر إلى المستقبل البعيد. وهذا ما يستخلص من شهادة رجل لا يمكن أن يعزى إليه الجنوح إلى أية محاباة لمصر.

وهذا الشاهد هو المحترم فلكن، وهو من المبشرين الإنكليز الذين أقاموا في أوغندة، وكان يكتب في ذلك العهد تقريبًا أي عام ١٨٧٩م. وهاك ما قاله في مؤلفه «أوغندة والسُّودان المصري ج١ ص٣٢٤»:

> وممَّا يُؤسف له أنَّه لم يوضع حدٌّ لتعسف كباريقا ملك أونيورو واستبداده على أنَّه قد كان في حيز الاستطاعة الحيلولة دون هذه التَّعسفات وهذا الاستبداد قبل ذلك بزمن إذا لم تكن قد بدت معارضات شديدة في إنكلترا من جانب أولئك الذين يرون بعين الحسد والغيرة توسع مصر في ممتلكاتها جنوبًا. ا.هـ.

وأرى أنَّ في هذا القول إيضاحًا وتبيانًا لكلِّ ما التبس علينا في هذا الأمر؛ ذلك أنَّه لا بدَّ أن يكون قد ورد إلى غوردون باشا بعد احتلاله تلك المناطق أمر بالتحذير من عواقب ما أقدم على عمله فبادر إلى إخلاء المحطات التي كان قد احتلها.

أمَّا فيما يتعلَّق بإدارتنا للسُّودان فأية سيئة لم يعزوها لها، وأي نقدٍ لم يوجهوه إليها، وأيَّ لسان لم يسلقوها به؟! إنِّي أربأُ بنفسي عن أن أقول إنِّها كانت قد بلغت ذروة الكمال؛ لكنَّها لم تكن بالتحقيق رديئة أيضًا إلى الدرجة التي صورتها بها بعض الدوائر التي لها مصلحة في أن تُظهرها بهذا المظهر.

وممَّا لا مراء فيه أنَّه لم تقع في أرض ممتلكاتنا أعمال قسوة — إن لم أقلْ أعمال وحشية — كالتي حدثت في أراضٍ أفريقية الخاضعة لنفوذ بعض الدول الأوربية.

ولا ينبغي أن يغيب عن أنظارنا أيضًا أنَّ أغلبية الموظفين الذين كانوا يُرسلون إلى السُّودان هم من المغضوب عليهم ومن الذين وقعت عليهم عقوبات يستوفونها هناك.

وإذا أضفنا إلى ذلك الشقات الشاسعة التي يتحتَّم قطعها، ووسائل النَّقل التي كانت في ذلك العهد والتي من شأنها أن تجعل من الصعوبة بمكان إيجاد مراقبة جديَّة على تلك الأرجاء القاصية البعيدة، كان لنا بحق أن ندهش لعدم حدوث مساوئ أكثر ممَّا حدث. على أنَّ هذه الحالة ما زالت تتحسن على مرور الأيام، فصارت تَقِلُّ المفاسد تدريجيًّا حتَّى تلاشت في النهاية أو كادت.

ولكي أبرهن من جهة أخرى على أن إدارتنا لم تبلغ هذه المنزلة من الانحطاط، وأنَّها كانت بالأحرى أفيد للأقطار التي احتللناها فليس أمامي أكثر من أن أذكر شهادة

شخصين لا يمكن أن يُعزى إليهما التَّحيز أو المحاباة بأي وجه من الوجوه، وهما: الدكتور جونكر الروسي الذي أمضى سنين عديدة في أواسط أفريقية، والمحترم فلكن الذي أقام سنين طويلة في أوغندة، وإلى القارئ ما رواه لنا الأول والثاني:

قال الدكتور جونكر في مؤلفه «رحلة في أفريقية ج١ ص٥٠٠» ما معربه:

> ويرجع الفضل إلى المسلمين الذين تُعزى إليهم المطاعن والمثالب في إلزام الزنوج بضرورة المعيشة في هدوء وسلام مع القبائل المجاورة لهم وبالإقامة على قدر الإمكان في دورهم وبزراعة حقولهم. وهذا العمل ينبغي أن نقدِّره حقَّ قدره بدون أن نبخسه شيئًا. وممَّا يشرِّف الحكومة المصريَّة وضع بلاد الزنوج تحت سيطرتها. وهذا الأمر مكَّنها من أن تفتح فيها بابًا لانتشار المدنية في مستقبل الأيام، ومهما بلغ من ثقل النير الأجنبي فهو في الواقع ونفس الأمر أفضل للزنوج من حكم نفس المستبدين منهم، إذ إنَّ حكم هؤلاء مصدر حروب لا نهاية لها يُضيِّع في خلالها بعضهم البعض. ا.هـ.

وقال المحترم فلكن في مؤلفه «أوغندة وسودان مصر ج١ ص٣٢٤» ما معربه:

> ويمكنني أن أقول — وأنا مطمئن الخاطر هادئ البال — عن تلك الأقطار الواقعة تحت الأحكام المصريَّة حيث يتولى السلطة أمين باشا — المدير الحالي لمديريات خط الاستواء — أنَّ الأهالي يعيشون فيها في حال أرقى من التي كانوا يعيشون فيها تحت رعاية ملوكهم الهمج المستبدين. ا.هـ.

وإن شهادة هذين الشاهدين كافية لدحض التُّهم التي وجهوها إلى إدارتنا.

وبعد فقد كانت النتيجة لاحتلالنا تلك الأقطار أنَّ مهَّدنا الطريق وأعددناها — كما قال الدكتور جونكر — لانتشار المدنيَّة في الزمن القادم، كأنَّما قد ألقيت على عاتقنا مهمَّة تمهيد طريق المدنية في ربوع أولئك القبائل المتبربرة غلاظ الأكباد وكسر صلابتهم.

فعرَّضنا أجسامنا لسهامهم المسمَّمة، ووقعنا في مكامنهم المخيفة، واحتملنا وقاسينا الأخطار والآلام التي يلاقيها ممهدو سبل المدنية الأول لأجل أن يأتي غيرنا ويحتل محلنا ظلمًا وبكيفيةٍ غير مشروعة.

وهنا أكرر ما قاله الماجور ستيجاند الذي حكم تلك النواحي في العهد الجديد في مؤلفه «خط الاستواء» ص٩٩ بصدد حكم الزنوج فيما بين الفترة الأولى والثانية، وهاك معربه:

> كانت الأهالي في عهد الحكومة المصريَّة القديمة — كما يستنتج من التدابير الوقتية التي اتُّخذت في ذلك العهد — أكثر عددًا وأحسن نظامًا وترتيبًا وأشد جنوحًا للعداوة عن العهد الحاضر. أمَّا الآن فمسألة الدفاع عن نقطة من النقط ضد السُّكان المقيمين تحت إدارتنا لا تقتضي تعبًا ولا نصبًا، حتَّى إنه يصعب أن يتصور الإنسان حالة كهذه. ا.هـ.

فالأمر الوحيد الذي يمتاز علينا به خصمنا الآن ينحصر في قوته وضعفنا، وهذا الموقف يخولِّه أن يُملي علينا إرادته ويعدُّها بمثابة شريعة يجب العمل بمقتضاها. غير أنَّ هذا لا ينبغي أن يحول دون ثبات المصريين وتمسكهم بحقوقهم، ولا يجعلهم يفرِّطون في شيء منها حتَّى ولو اغتصبت منهم اغتصابًا؛ لأنَّه لو سلك أحد منهم مسلكًا مناقضًا لذلك وفرَّط في تلك الحقوق يكون قد لوَّث سمعته وارتكب خيانة وطنه، واستحق السُّخط واللعنة من الأجيال الآتية.

وليس المطالب بذلك ولاة الأمور ومن بيدهم الحل والعقد فقط؛ بل الأمة جمعاء. نعم إنَّنا لم نجد في الأمة إلى الآن مفرطًا في حقوق مصر في السُّودان. ولكنَّنا وجدنا مع الأسف الشديد أن المفرِّطين هم أولئك الذين يتولَّون مناصب الحكم، ويظنون أنَّ بقاءهم بها متوقف على إرضاء الإنكليز، والسكوت عن حقوق مصر، والإغضاء عمَّا يُعمل في السُّودان وغير السُّودان، فيجرون البلاء على الأمة ويضيعون هذه الحقوق المقدسة العظيمة في مقابل منفعتهم الشَّخصيَّة وتمتعهم بالحكم أيامًا معدودة، وهذا خسران ليس بعده خسران، وبيع بالوكس طالما رجعنا منه بصفقة المغبون.

وقد حدث أخيرًا أن أقيمت حفلة في السُّودان بمناسبة انقضاء العام الحادي والعشرين على زيارة صاحبي الجلالة ملك وملكة الإنكليز له، فأرسل الحاكم العام برقية لجلالتيهما رفع بها فروض الإخلاص بالنيابة عن أهالي السُّودان، فجاء الرد من جلالة الملك جورج على هذه البرقية مبدوءًا بهذا النص:

> ليس من تحياتٍ أشهى إليَّ من التَّحيات التي رفعتموها إليَّ من شعبي في السُّودان … إلخ. إلخ.

وقد نشرت البرقيتين جريدة حضارة السُّودان بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٩٣٣، ومرَّت بين سمع الحكومة المصريَّة وبصرها دون أن تحرِّك ساكنًا أو تهتم بالأمر، مع أنَّ هذا

التَّصريح الخطير لم يحدث في سنة من السنين الماضية ولا في مناسبة من المناسبات الأخرى. وهي نغمة جديدة نخشى أن تجرَّ وراءها أخطارًا عظيمة.

وقد تنبَّهت إلى ذلك سيدة مصرية فوجدت الأمر جدَّ خطير، ولفتت إليه أنظار بعض النواب ليسألوا الحكومة رسميًّا عن رأيها في هذا التَّصريح الجديد، وانتظرت فلم تجد شيئًا من هذا، ومرَّت الأيام تتلوها الأيام دون أن يحتجَّ أحدٌ على ما جاء في هذه البرقية. وهكذا يسجل الإهمال علينا ما تستعصي معالجته، ويزداد به موقفنا في السُّودان غموضًا، ويلقي على حقوقنا فيه حُجُبًا كثيفة ما دمنا سائرين في هذا الإهمال.

فإذا تركنا هذه الأشياء تمرُّ دون أن نُظهر أيَّ معارضة لها أفهمنا الإنكليز بسكوتنا عنها أنَّنا راضون بها فيستغلون هذا الصمت على مرِّ الأيام ليطبقوا علينا ماهو أشد وأنكى. هذا هو مقال سموِّه.

(٦) معرب مقال آخر لسمو الأمير عمر طوسون

أرسله سموه إلى رئيس تحرير جريدة التيمس في ٣ يوليو سنة ١٩٣٠ ردًّا على ما كتبه «سير رنيل رد»، واعتذرت هذه الجريدة عن نشره فيها، وها هو بعد الديباجة:

استرعت نظري منذ أيام ترجمة نشرتها الجرائد المحلية لردِّ سير رنيل رد على رسالتي المنشورة في عدد التيمس بتاريخ ١٢ يونيو، ولقد رغبت في الردِّ عليه، ولكنِّي آثرت الاطِّلاع على الأصل الإنكليزي أولًا. وهذا ما توافر لي الآن:

إنِّني أشكر لسير رنيل رد كلماته الرقيقة الموجَّهة إلى شخصي، وأردُّ على بيانه بما يأتي:

إنِّي أعلم تمام العلم أنَّ سياسة اللُّورد جرانفيل جاءت بعد حملة هيكس باشا، ولكن هذا لا يعني أنَّها لم توجد في ذهن الحكومة الإنكليزيَّة في الوقت الذي احتلَّ فيه الجيش البريطاني مصر. فما دامت الحكومة المصريَّة قد أظهرت لين العريكة والطاعة للنصائح — أو بمعنى أدق — لأوامر الحكومة البريطانية غير الرَّسمية، فلم تكن هناك ضرورة لجعل هذه السِّياسة رسمية وعلنية؛ لأنَّ مسلكًا كهذا لا يكون لزامًا إلَّا في حالة المعارضة كالحالة التي أدَّت إلى استقالة شريف باشا عندما رفض الموافقة على ترك السُّودان.

حقيقة إنَّ الكولونيل ستيوارت كان يرى — كما يقول سير رنيل رد — عدم الزحف على كردفان، وكان هذا هو رأي عبد القادر باشا أيضًا. ومن المحزن أنَّ هذا الرأي لم يؤخذ به ولم يُتَّبع؛ إذ لو اتُّبع لما فقدت مصر السُّودان على الإطلاق.

وحقيقة — من الوجهة الرَّسمية — أيضًا إنَّ الحكومة البريطانية أعلنت أنَّه لم يكن لها شأن بالأعمال الحربية في السُّودان ولا بتعيين هيكس باشا. ولكن المظهر الرَّسمي للأشياء مضلِّل، ولا سيما في مصر لسوء الحظ. فمثلًا كان اللَّقب الرَّسمي للورد كرومر «معتمد حكومة صاحب الجلالة البريطانية وقنصلها العام في مصر». ولكن كان لقبه غير الرَّسمي. «الحاكم المطلق لمصر» ومن كلمته قانون.

ولقد قرأت في الصحف في فرص مختلفة أسئلة تلقى في مجلس العموم على وزير الخارجية خاصة بمصر كان الجواب عليها «هذه مسألة تخص الحكومة المصرية»، فأي شخص يخدعه هذا الجواب الرَّسمي في حين أنه يعلم علم اليقين أنَّ البلاد كانت — بصفة غير رسمية — تحت الحكم المطلق لقنصل إنكلترا.

فلماذا لا يكون هذا شاملًا لتصريح الحكومة البريطانية الخاص بالسُّودان وتعيين هيكس باشا. فهو إنكار رسمي لوجود يد لها فيهما بينما هو عمل للعكس بصفة غير رسمية.

ولو كانت الحكومة الإنكليزيَّة لا تريد شيئًا من السُّودان فلماذا أرسلت الكولونيل ستيوارت في بعثة خاصة إلى تلك البلاد ليقدم تقريرًا عن سير الأمور فيها. لم تكن هناك حاجة إلى مثل هذه البعثة لو أنَّ التَّصريح كان صادقًا.

أمَّا فيما يختص بتعيين هيكس باشا فإنَّ ما وقع هو كما يأتي:

بدأت الثَّورة المَهديَّة قبل احتلال القوات البريطانية مصر، وكان عبد القادر باشا معينًا حاكمًا عامًّا للسُّودان قبل هذا الاحتلال، وبوجود القوات المحلية تحت أمره استطاع أن يُهدِّئ البلاد تقريبًا، ولم يكن في أيدي المهدي من البلاد إلَّا كردفان. فلو أنَّه أُمدَّ بخمسة عشر ألف رجل من جيش هيكس باشا زيادة على القوات المحلية لأمكنه دون أدنى ريب أن ينتهي بحملته على الثَّورة على أتمِّ نجاح.

بعد ذلك جاء الاحتلال الإنكليزي لمصر، وعلى أثره اضطرَّت مصر إلى استدعاء قائدها المنتصر الذي هو أحد أبنائها، والذي كان على وشك إنقاذها من إحدى الأزمات البليغة التي حاقت بها بدون حاجة إلى معونة أي عنصر أجنبي.

وحلَّ محل القائد المصري قائد آخر إنكليزي وأركان حرب من الضبَّاط الإنكليز. فهل يمكن جديًّا قبول هذه الحقائق على أنَّها حدثت من غير تدخُّل الحكومة الإنكليزية.

وبفرض أنَّه كان من الضَّروري وجود قائد إنكليزي ومعه أركان حرب من الضبَّاط الإنكليز على رأس الجيش السُّوداني، فلماذا لم يفعل هذا قبل الاحتلال الإنكليزي لمصر.

والبرقيات التَّالية التي قرأتها في كتاب «خراب السُّودان» لمؤلفه هنري روسل في الصفحتين ٣٦ و٣٧ تؤيد وجهة نظري.

الصحيفة العاشرة في الملف رقم ١٩٧ — برقية من الجنرال هيكس إلى السير: أ. ماليت

الخرطوم في ٢٣ يوليو سنة ١٨٨٣

أرسلت اليوم إلى ديوان الجهادية استقالتي من مركزي في الجيش السُّوداني. ولقد فعلت ذلك وأنا متأسف، ولكنِّي لا أستطيع القيام بأعباء حملة أخرى تحت هذه الظروف التي تشبه الظروف السابقة. سليمان باشا يقول لي إنَّه لا يفهم من برقية رئيس المجلس المؤرَّخة في ١٤ يوليو أنَّه مُلزَم بتنفيذ آرائي فيما يختص بنظام أو كيفية زحف أو هجوم الجيش الذي يستعد للتقدُّم نحو كردفان ما لم يوافق هو عليها. وهو يقول إنَّه لو نفَّذ آرائي من غير أن يوافق عليها فسيكون بذلك قد عمل في الواقع عكس التَّعليمات «التي صدرت إليه». ولَمَّا كانت أفكاري وأفكاره قد تضاربت في الحملة الأخيرة، وستكون أكثر من ذلك في حملة كردفان فلست بمستطيع تجاه ذلك إلَّا أن أستقيل. وفي الأيام الأخيرة في مناسبتين هامتين أُهمِلت وجهات نظري.

أرجو أن يعرض الجنرال بيكر على سمو الخديوي أمر استقالتي، وأن يؤكِّد له أسفي لهذه الضرورة، وأبرقوا إليَّ بالردِّ.

الصحيفة الحادية عشرة في الملف رقم ١٩٧ من السير ماليت إلى الجنرال هيكس — برقية

القاهرة في ٢٣ يوليو سنة ١٨٨٣

سيستدعى سليمان باشا عند انتخاب حاكم جديد. نرجو عدم ذكر هذا إلى أن يتمَّ رسميًّا، وآمل أن تكون هذه التَّرضية سببًا في جعل واجبك أكثر سهولة عليك وأشد وضوحًا. وسيكون علاء الدين قائدًا اسميًّا.

الصحيفة الثَّانية عشرة في الملف رقم ٢٩٧ من السير أ. ماليت إلى الجنرال هيكس — برقية
القاهرة في ٢٧ مايو سنة ١٨٨٣

تسلَّمنا اليوم برقيتك المؤرَّخة ٢٣ الجاري، ولكنِّي أرى عدم التعجُّل في استقالتك بما أنَّ سليمان باشا سيُستدعى كما ذكرت لك في برقيتي المؤرَّخة ٢٣ الجاري.

فممَّا سبق يتَّضح كلّ الاتضاح أنَّ البرقية الثَّانية أرسلت قبل تسلُّم الأولى.

ويقول مؤلف هذا الكتاب الذي هو بعيدٌ كلّ البُعد عن التَّرفق بالحكومة المصريَّة: وعلى ذلك فإنَّه يتَّضح تمامًا ممَّا سبق أنَّ سير أ. ب. ماليت قد ألقى التَّبعة على كاهل الحكومة المصريَّة، وهذا كما يظهر يدلّ على أنَّ حكومة صاحبة الجلالة في هذا الوقت كانت مؤيدة للحملة المشئومة، وإلَّا لأشار بقبول استقالة الجنرال هيكس. ويبدو هذا المسلك مورِّطًا لحكومة جلالة الملكة في سياسة متناقضة. فهم ينكرون على طول الخط أي مسئولية عن الأعمال في السُّودان، ومع ذلك يشجعون بطريق غير مباشر حملة لإخضاعه، وأظنُّ أنَّ في هذا الكفاية لتوكيد بياني.

وفي الختام أردُّ على ملاحظة سير رينل رد وهي: «إذا كان في الإمكان توجيه أي لوم إلى الحكومة الإنكليزيَّة في ذلك الوقت، فهو من أجل أنَّها أصرَّت قبل الأوان على الانسحاب من السُّودان، فأقول: إنَّه لو تُركت الحكومة المصريَّة وحدها في ذلك الوقت لمعالجة هذا الموقف؛ لما فقد السُّودان قط، ولما كانت هناك حاجة إلى إعادة فتحه.

وإنِّي لآمل أن تجدوا متَّسعًا لنشر هذه الرسالة في جريدتكم الغراء، واقبلوا شكري سلفًا.

(٧) إنقاذ السُّودان — في كتاب القاضي بيير كرابيتس

ذكر القاضي الأمريكي كرابيتس أيضًا شؤون مصر والسُّودان في كتابه «غوردون ومكافحة الرقيق الأبيض». حيث انتهى فيه عند مصرع غوردون في الخرطوم، وهو مؤلف كتاب «إسماعيل الخديوي المفترى عليه». وقد ردَّ فيه على بعض ما عُزي إلى الخديوي إسماعيل ردًّا قائمًا على تحليل الوقائع والموازنة بين أقوال المؤرخين. وألَّف أخيرًا كتابه الثالث،[١١] يتتبع فيه المساعي التي بذلت لاسترداد السُّودان وسير أحواله من سنة ١٨٩٩ وما بعدها.

ويقول المؤلف: إنَّ كتشنر الذي كان أبرز شخصية في استرداد السُّودان بعد كرومر، إنَّما اتَّصل اتفاقًا بالقائمين من الإنكليز على شؤون مصر. فقد كان ضابطًا في القسم الهندسي في الجيش البريطاني وعهد إليه في الإشراف على مسح جزيرة قبرص، فلما نشبت ثورة عرابي، طلب إجازة مرضية وأتى إلى مصر، وكانت إجازته المرضية لا تتعدى أسبوعًا، ولكن يظهر أن الضابط المهندس عجز — اتفاقًا — عن اللحاق بالسفينة التي كان عليه أن يعود بها إلى قبرص. ويظهر أنَّه في خلال إقامته بالإسكندرية اتصل بأحد ضباط «الاستخبارات العسكرية» فلمَّا تأخر عن عودته إلى قبرص أبرق أميرال الأسطول البريطاني إلى حاكم قبرص يطلب تمديد إجازة كتشنر فرفض هذا طلب الأميرال مصرًّا على وجوب احترام النظام. فكتشنر عاد إلى قبرص، ثمَّ جاء إلى الحاكم طلب من الجنرال ولزلي من مصر يطلب فيه أن يسمح له بكتشنر وكذلك كان. ومن محاسن الصدف أن كتشنر كان مهندسًا. فإنَّ الحملة التي جُرِّدت لاسترداد السُّودان كانت تحتاج إلى عمل مهندس ينظم لها جميع وسائل التَّقدُّم ويكفل لها أسباب الشرب والغذاء والوقاية من الأمراض.

وقال في فصل عنوانه «تمويل الحملة»: لمَّا تقرَّر إيفاد الحملة لاسترداد السُّودان نشأت مسألة المال الذي ينتظر إنفاقه في هذا السبيل. فلندن ذهبت إلى أنَّ استرداد السُّودان مسألة مصرية بحتة، وأنَّه من العدل أن تنهض الخزانة المصريَّة بالنَّفقات المطلوبة، وأنَّ ذلك في وسعها. ولكن يظهر أن لندن لم تلتفت حينئذٍ إلى أن مفتاح الخزانة المصرية، كان في أيدي لجنة دولية هي لجنة صندوق الدَّين. هنا نشأ صراع بين لورد كرومر وطائفة من أعضاء صندوق الدين على مسألة استعمال جانب من مال الحكومة المصريَّة في تمويل حملة السُّودان؛ ذلك أنَّه بعدما قرَّ القرار على «حملة دنقلة» طلب من صندوق الدين أن يمنح ٥٠٠ ألف جنيه من الاحتياطي العام لهذا الغرض فأقرَّ الصندوق ذلك باتفاق أربعة أصوات على صوتين، وكان المعارضان مندوبيْ فرنسا وروسيا، فأقاما قضية في محكمة مصر المختلطة.

ثم ذكر المؤلف تفصيل الاتِّفاق على حكم السُّودان حكمًا ثنائيًّا باسم سمو خديوي مصر، ثمَّ بعد مصرع السردار سنة ١٩٢٤ والسعي لوضع اتِّفاق خاص بمياه النِّيل ومواد ذلك الاتِّفاق من ناحيتيها النَّظرية والعملية، ورأي الخبراء فيها باسطًا وجهة نظر مصر في مسألة السُّودان بسطًا شافيًا، وكذلك وجهة النَّظر البريطانية: وفي آخر الكتاب ثلاثة فصول في السُّودان وزراعة القطن فيها، قال: إنَّ هذه الزراعة غير ناجحة، وإنَّ

العامل الفاصل في مستقبل السُّودان، من ناحية بريطانيا، هو مستقبل مشروع الجزيرة. فهل يستأهل هذا المشروع كلّ هذا العناء؟ هل هو جدير بتأخير الاتِّفاق مع مصر على حسابه؟ يقول القاضي كرابيتس أخيرًا في كتابه كلمة وردت في رسالة غوردون إلى أخته أنَّ «السودان لن يكون من الوجهة العملية البريطانية عملًا رابحًا».

(٨) السودان: بقلم صاحب الدولة حسين باشا رشدي[١٢]

(٨-١) السُّودان حياة مصر

إنَّما السُّودان لهو الحياةُ بذاتها لمصر؛ لأنَّه منبع النيل. ومصر هي التي فتحت السُّودان في الأصل ولم تضنَّ في هذا السبيل بأية تضحية بالرجال أو بالمال. وهذا الفتح بدأ على عهد محمد علي، وتمَّ على عهد إسماعيل الذي ضمَّ مناطق البحيرات الكبرى حتَّى منابع النِّيل وبحر الغزال وخط الاستواء، ثمَّ سواحل البحر الأحمر حتَّى رأس غردفوي. وجعل الأوغندا تحت حماية مصر. ونال من الباب العالي إدارة سواكن وزيلع وملحقاتها، واتخذ لنفسه لقب خديوي مصر وصاحب نوبيا ودارفور وكردوفان وسنار. واعترفت الفرمانات السلطانية التُّركيَّة لمصر بامتلاك هذه الأقاليم السُّودانية، واعترفت الدول بهذه الفرمانات ذاتها.

وفي سنة ١٨٨٥، جلت الحكومة المصرية، تحت ضغط الحكومة الإنكليزية، عن أكثر هذه الأقاليم السُّودانية. ولكنَّها خرجت منها على نية العودة إليها ومع العزم الأكيد على احتلالها ثانية عند سنوح أول فرصة ملائمة. وهذا العزم واضح كلّ الوضوح من المستندات الرَّسمية المصريَّة، فوزارة شريف باشا فضَّلت الاستعفاء على قبول ترك السُّودان ولو تركًا موقوتًا.

وفي ٩ ديسمبر ١٨٩٤ أرسل رياض باشا إلى السير إيفلن بارنج مذكرة قال فيها:

> لا يستطيع أيُّ إنسان أن ينازع في أن النِّيل هو حياة مصر. وهذه حقيقة واضحة كلّ الوضوح لا تحتاج إلى مناقشة. وحيث إنَّ النِّيل هو السُّودان فلا جدال في أنَّ العلاقات والروابط التي تربط مصر بالسُّودان لا يمكن أن تقبل أي انفصال. وما مثلها في هذا التَّماسك إلَّا كمثل العلاقة التي تربط الروح بالجسد، وإذا تمكنت دولة من الاستيلاء على منابع النِّيل فإنَّ هذا الاستيلاء يكون بمثابة حكم الإعدام على مصر.

> فمن هذا كله يتبادر إذن إلى كلّ ذهن أنَّ حكومة سمو الخديوي لا ترضى قطُّ بحال من الأحوال باختيارها وبدون أن تكون مكرهة إكراهًا بمثل هذا التَّهجم على وجودها.[١٣]

وفي الكتاب الأزرق الذي أصدره اللُّورد سالسبوري سنة ١٨٩٨ عن مسألة فاشودة كتاب من بطرس باشا غالي وزير الخديوي قال فيه:

> إنَّ حكومة الخديوي — كما تعرف سيادتكم — لم يغب عن نظرها في حين من الأحيان العودة إلى استئناف احتلال الإقليم السُّودانية التي هي مصدر الحياة ذاتها لمصر. ومصر لم تنسحب من تلك الأقاليم إلَّا عقيب ظروف قوة قاهرة، وإن استعادة الخرطوم تفقد الغاية منها إذا لم يعد إلى مصر وادي النِّيل الذي ضحَّت مصر في سبيله الضحايا العظيمة.
>
> ولمعرفة الحكومة المصريَّة أنَّ مسألة فاشودة في هذا الأوان هي موضوع المكالمة بين بريطانيا العُظمى وفرنسا، فهي «الحكومة المصرية» تكل إليَّ أن أطلب من سيادتكم أن تتفضلوا بحسن الوساطة لدى اللُّورد سالسبوري ليتم الاعتراف لمصر بحقوقها التي لا تقبل نزاعًا، ولكي تعاد إليها الأقاليم التي كانت تحتلها حتَّى قيام ثورة محمد أحمد.[١٤]

هذا وفي نظر أوربا ذاتها لم تفتأ تلك الأقاليم السُّودانية — التي تركت تركًا موقوتًا — معتبرة مصرية.

وإنَّا لنورد دليلًا على صحة ذلك تصريحات عظماء الإنكليز ذاتهم بصدد حادثة فاشودة والمعاهد الإنكليزيَّة الطليانية ١٨٩١–١٨٩٤.

(١) في ١٢ أكتوبر ١٨٩٨ صرَّح اللُّورد سالسبوري لسفير فرنسا «أنَّ وادي النِّيل كان — ولا يزال — ملكًا لمصر. وأن جميع العوائق وكل الانتقاص الذي أحدثه فتح المهدي وإخلاله في صفة هذه الملكية، قد زال بفعل انتصار الجيش الإنكليزي المصري في أم درمان.[١٥]

(٢) قال اللُّورد روزبري في خطاب ألقاه في أبسون في ١٢ أكتوبر ١٨٩٨: «نحن نعمل الآن لنرجع إلى مصر ما يؤلف — حسب تصريحات جميع الوزارات الفرنساوية — أرضًا مصرية.[١٦]

(٣) وأثبت اللُّورد كمبرلي في مأدبة أقيمت إكرامًا للورد كتشنر ما يلي:

أنَّ الجلاء عن فاشودة لا يمكن أن يمسَّ كرامة فرنسا؛ لأنَّ الحكومة الفرنساوية ذاتها صرَّحت بأنَّ الأراضي المختلف عليها هي ملك مصر.[١٧]

ومن جهة أخرى أنَّ البند الثَّاني من الاتِّفاق الإنكليزي الطلياني المُبرم سنة ١٨٩١ و١٨٩٤ نص فيه:

يكون للحكومة الطليانية في حالة اضطرارها للعمل قيامًا بحاجة موقفها العسكري أن تقبل كسلة والإقليم الملاصق لها حتَّى الأتبرة. إلَّا أنَّه يكون معروفًا لدى الحكومتين أن كلّ احتلال عسكري مؤقت للأراضي الإضافية المعينة بهذا البند لا يلغي حقوق الحكومة المصريَّة على تلك الأراضي، فهذه الحقوق تظل موقوفة فقط إلى أن تتمكَّن الحكومة المصريَّة من استئناف احتلال المنطقة المشار إليها.

وعندما استعادت مصر الأقاليم السُّودانية التي كانت قد تركتها وقتيًّا عاونتها إنكلترا في ذلك ولكن:

أولًا: إنَّ استعادة تلك الأقاليم تمَّت على حساب مصر وباسمها، وكانت إنكلترا تعمل بمعاونتها بوصف أنَّها حليفة بالواقع لمصر. وهذا ما يُستنتج استنتاجًا مقطوعًا به من التَّصريحات المذكورة آنفًا، ثمَّ إنَّ اللُّورد كتشنر — قائد الجيش المصري — صرَّح للقومندان مارشان في فاشودة بقوله: «إنَّ التَّعليمات التي تلقَّاها تقضي بأن يُعيد بسط «السلطة المصرية» على مديرية فاشودة، وأنَّه يحتج على رفع العلم الفرنساوي على «أملاك سمو الخديوي».

ثم كتب إليه بعد ذلك:

يجب عليَّ أن أبلغك أنِّي وقد رفعت اليوم العلم المصري على فاشودة بأن حكم هذه البلاد قد استعادته مصر ليدها نهائيًّا «راجع تقرير اللُّورد كرومر السنة الثالثة ١٨٩٨.

الثاني: إنَّ القوات العسكرية التي استُخدمت للاستعادة قد كانت من جانب المصريين ٢٥ ألفًا. أمَّا التي كانت من جانب الإنكليز فقد كانت من بادئ الأمر ٨٠٠ جندي، ولم يتجاوز عددها ألفي جندي.

الثالث: إنَّ نفقات الاستعادة ٢٤٠٠٠٠٠ جنيه دفعت مصر ثُلثيها. وإذا كانت إنكلترا قد تحمَّلت الثلث فالخطأ ليس خطأ مصر ولكنَّه ناشئ من معارضة صندوق الدَّين التَّحكمية.

الرابع: أنَّ مصر وحدها دفعت منذ استعادة السُّودان نفقات الأعمال والمشروعات ما عدا خزَّان مكوار فبلغ ما أنفقته نحو ٥٦٠٠٠٠٠ جنيه، ومصر وحدها هي التي دفعت العجز المتوالي في ميزانية السُّودان، فبلغ ما دفعته في هذا السبيل ٥٣٥٠٠٠٠ جنيه.

الخامس: منذ استعادة السُّودان تنفق مصر على عشرة آلاف جندي مصري في السُّودان للدِّفاع في الخارج ولمنع كلّ ثورة في الداخل، فتحمَّلت مصر من وراء ذلك إنفاق ١٣ مليون جنيه، مع أن القوة الإنكليزيَّة في السُّودان نحو ألف رجل لم تزد النفقة عليهم على مليوني جنيه.

إنَّ مصر تحمَّلت في سبيل السُّودان نفقة مالية كبيرة جدًّا كما تدلُّ سجلات الحسابات، وقد تحمَّلت هذه الأعباء رغم الديون المتراكمة عليها، ورغم شدة حاجتها إلى الأموال لتقوم بالأعمال العمومية، لا سيما أعمال الرَّي التي يحوَّل بها ريّ الحياض إلى ريّ دائم، وقد كان بالإمكان إصلاح مليوني فدان لا تزرع الآن بنصف الأموال التي أنفقتها.

فالاستنتاج الطَّبيعي المعقول من كلّ ما تقدم هو أنَّه يجب اعتبار السُّودان جزءًا من مصر لا يقبل التجزئة، حتَّى إنَّ اتِّفاق ١٨٩٩ ذاته لا يعارض ذلك؛ فإنَّ ذلك الاتِّفاق يشرك إنكلترا مع مصر لا في السِّيادة على السُّودان، بل في الإدارة. وإذا كان العلم الإنكليزي قد ظل يخفق على السُّودان إلى جانب العلم المصري فمرجع ذلك إلى الاهتمام باتقاء العراقيل التي تنجم عن تنفيذ حكم الامتيازات هناك فتحول دون تقدم تلك البلاد.

وفي الواقع إن اتِّفاق ١٨٩٩ قد تضمَّن ما نصُّه «من حيث إنَّه صار لازمًا اختيار طريقة للإدارة وسنِّ قوانين للأقاليم المستعادة المذكورة»، وزاد على ما تقدم قوله: «ومن حيث إنَّه ظاهر ولأسباب عديدة يمكن أن تدار وادي حلفا وسواكن إدارة أفعل إذا ضُمَّتا

إلى الأقاليم المستعادة»، وبالفعل تمَّ ضمُّ حلفا وسواكن إلى الأقاليم المستعادة؛ حتَّى يكون الجميع خاضعًا لنظام الحكم الذي قرَّره الاتِّفاق.

وهذه وادي حلفا، وهذه سواكن لم تجل عنها الجنود المصريَّة قطُّ فضمهما إلى الأقاليم المستعادة يثبت أنَّ ذلك الاتِّفاق ما كان يرمي إلَّا إلى الوجهة الإدارية، ولم يكن الغرض منه أن يخرج السُّودان من السِّيادة المصرية.

وتأييدًا لهذا الإيضاح لاتِّفاق ١٨٩٩ نستعين بحكم اللُّورد كرومر الذي هو بلا شك أصدق مفسر له؛ لأنَّه هو الذي وضعه، فإليك ما يراه القارئ في تقريريه لعام ١٩٠١ و١٩٠٣.

ففي تقرير ١٩٠١ ما نصُّه:

ألاحظ في أعمال مجلس شورى القوانين الخاصَّة بالاعتمادات قوله: «إنَّ المجلس يصادق على المصروفات المقترحة للسُّودان لأنَّه يعد السُّودان جزءًا لا ينفصل عن مصر»، وهذا الرأي صحيح في الحقيقة؛ فإنَّ نظام الحكم السياسي في السُّودان مقيَّد على كلّ حال بالاتِّفاق المعقود بين بريطانيا العُظمى ومصر وموقَّع عليه في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩. ولما كان من المحتمل أنَّ بعض أعضاء مجلس الشورى غير مُلمِّين تمام الإلمام بفحوى ذلك الاتِّفاق فإنِّي أنتهز هذه الفرصة لأبين أنَّه لم تكن هنالك نية أو رغبة عند صوغه في انتقاص حقوق مصر الشرعية. فقد كانت الأغراض الأساسية التي رمى إليها واضعو ذلك الاتِّفاق هي أولًا ضمانة وجود حكومة صالحة للأمة السُّودانية، وثانيًا اتقاء الارتباكات الخصوصية التي أوجدها أسلوب الحكم الدولي بمصر في السُّودان.

وفي تقرير ١٩٠٣ قوله:

لقد سئلت أحيانًا: لماذا لا تتحمل الخزانة البريطانية قسمًا من نفقات الإدارة في السُّودان ما دامت الراية البريطانية تخفق إلى جانب الراية المصريَّة على ربوعه؟ وهو سؤال طبيعي، ولكن الإجابة عليه سهلة جدًّا على جميع الواقفين على تاريخ اتِّفاق ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ الذي بموجب نصوصه أوجدت للسُّودان حالة سياسية خاصة. وذلك أنَّ حكومته شُكلِّت لغرض صريح، وهو إنقاذ السُّودان — وبناءً على ذلك إنقاذ مصر — عند حكمها تلك المديريات من جميع تلك الأوضاع الدولية المعرقلة التي لها النصيب الأوفر في تعقيد الإدارة في مصر،

ولولا هذا الاعتبار لما كان لرفع الراية البريطانية على الخرطوم — من وجهة النَّظر البريطانية — من سبب أدعى إلى رفعها على أسوان أو طنطا.

وفوق كلّ ما تقدم كيف كان بالإمكان أن يشرك اتِّفاق ١٨٩٩ إنكلترا مع مصر في السِّيادة على السُّودان؟ فليس إرسال بعض الجنود الذين لم يتجاوز عددهم الألفين ولا إنفاق بعض المال القليل ممَّا يسوِّغ مثل هذه الشركة. فإذا كان العون الاختياري يخوِّل من ذاته حقًّا ما، فإنَّ الواجب أن يكون لمصر حق في سوريا وفلسطين؛ لأنَّه بفضل رجال مصر وسككها الحديدية وموانيها وإمدادها الجيش الإنكليزي بالأكل والماء والمعدات من كلّ نوع سهَّل فتح تلك البلاد، وأنفقت مصر أكثر من أربعة ملايين جنيه من المال فوق الفرق في أثمان ما جمعه الجيش الإنكليزي، حتَّى إنَّ هذا الفرق بلغ في القطن وحده الملايين دون حسبان الحبوب من كلّ صنف والمواشي التي نقصت الثلث مدة الحرب.

وقد اعترف المارشال اللنبي بقيمة المساعدة المصريَّة إبان حملة فلسطين وسوريا، وورد في تقرير اللُّورد ملنر قوله: «ليس من العدل إلَّا أن نذكر الخدمات التي أدَّاها فيلق المتطوعة المصريَّة، فإنَّ قيمتها كانت فوق التقدير، ولم تكن عنها مندوحة لفتح فلسطين.

إنَّه كان لمصر على إنكلترا دين أدبي لتساعدها على استعادة السُّودان. أو لم يكن إخلاء السُّودان بفعل ضغطها على مصر؟ ألم تكن إنكلترا بمثابة القيِّمة على مصر؟

فقد قال السير إدوارد غراي أمام مجلس النواب الإنكليزي في ٢٨ مارس ١٨٩٥: «إنَّ إنكلترا تشغل من وجهة الدفاع عن مصالح مصر المركز الخالص للقيم، فمطالب مصر لم نُسلِّم بها نحن وحدنا، بل سلمت بها أيضًا وأثبتتها كلّ الثبوت الحكومة الفرنساوية.»

وفضلًا عن أن النِّيل هو رباط الحياة بين القطرين، فإنَّ هناك اعتبارات اقتصادية تربط السُّودان بمصر.

فالسودان بلاد لا تزال بكرًا، وتجارته معدة للنمو، وحاصلاته للزيادة بسرعة؛ نظرًا لسعة أراضيه وخصبها. فإذا كان له منفذ إلى البحر في پور سودان؛ فإنَّ هذا الميناء لا يستطيع وحده تصريف تجارة هذه البلد عندما تنال بعض التقدم.

وفي مصر سيمر دائمًا شطر كبير من بضائع السُّودان، لا سيَّما إذا بدت المزاحمة في تجارة تلك البلاد، فإنَّه حينئذ تفضل الطريق الأخصر. وأكبر شطر من اتجار السُّودان

هو الآن مع مصر. وسيظل دائمًا كذلك، ومصر هي في العالم من البلاد التي يزدحم سكانها، وهؤلاء السُّكان يزيدون زيادة سريعة، وقد أخذت أرضها تعجز عن أن تكفي هؤلاء السُّكان، وبعد بضع سنين تصبح هذه المسألة من المسائل الاجتماعية المتحرجة التي يقضى على السلالة الآتية حلَّها، فليس في الأرض مكان معدٌّ بذاته لقبول زيادة السُّكان في مصر غير السُّودان، فهو بلاد متاخمة لمصر وبلاد زراعية بحتة ومتصلة بمصر بروابط من كلّ نوع.

ومن جهة أخرى إنَّ من المبدأ المسلم به من الجميع الآن، والذي كان مرشدًا وهاديًا لسياسة الإنسانية بعد الحرب الكبرى مبدأ الجنسية المنحصر في تأليف وحدات سياسية من الطوائف المتجمعة إذا كانت من عنصر واحد. وهذا المبدأ ينطبق على مصر والسُّودان؛ لأنَّ غالبية السُّودان من العنصر العربي يتكلَّم لغة المصريين وله دين غالبيتهم ومتخلق بأخلاقهم.

(٨-٢) بحث في حالة السُّودان السياسية: بقلم صاحب الدولة حسين رشدي باشا

إنَّ اتفاق١٨٩٩ — بين الحكومة المصريَّة والحكومة الإنكليزيَّة — هو اتِّفاق في نظر المصريين باطل وفي نظر الإنكليز صحيح ترتبط مصر بأحكامه.

وتستند حجة المصريين في بطلانه إلى أنَّ تركيا لم تقر ذلك الاتِّفاق. ثمَّ يزيدون على ما تقدم: أنَّ مصر ذاتها لم تقرَّه برضاها ولم تسلم به إلَّا مكرهة مقسورة بقوة إنكلترا.

ويردُّ الإنكليز على هذه الحجة بأنَّ اتِّفاق ١٨٩٩ يربط مصر لأنَّها وقَّعته وإن لم تكن تركيا قد سلَّمت به. أمَّا مسألة عدم تسليم تركيا فكل ما يقال فيه من الوجهة المصريَّة أنَّ مصر تعاقدت على ملك الغير وفي هذه الحالة لا يكون للمغتصب — أي مصر — حق إنكار عقد التَّعاهد، بل إنَّ هذا الحق لصاحب الحق المغتصب وهي تركيا. ويزيد في نقصان تمسك مصر ببطلان اتِّفاق ١٨٩٩ أنَّ عقد الاغتصاب الذي وقعته قد تأيَّد بعدول تركيا عن ادِّعاء أي حق لها على مصر.

وإذا كانت معاهدة سيفر لا تزال قيد التعديل فإنَّ من المأثور أنَّ التعديل المطلوب فيها يرمي إلى وجوه أُخرى غير ذلك العدول عن حقها في مصر، وهو العدول الذي صار نهائيًّا.

أمَّا الزعم بانفلات مصر من روابط اتِّفاق ١٨٩٩ بحجة أنَّ رضاها به كان مشوبًا ومشوَّهًا بقوة الإكراه من جانب إنكلترا إكراهًا لم يكن بالإمكان دفعه، فهو ملابسة بين

مبادئ الحق المدني ومبادئ الحق العام. وهذه معاهدات الصلح التي أكره المغلوبون على توقيعها بقوة الحديد والنار هل يجوز لهؤلاء ألَّا يحترموا أحكامها؟

والذي نعتقده نحن أنَّ اتِّفاق ١٨٩٩ لا يربط مصر للأسباب الآتية:

أنَّ السبب الذي دعا إلى إبرام هذا الاتِّفاق هو الاهتمام بمنع تنفيذ الامتيازات في السُّودان، ووقاية مصر ولو في هذا الشطر من الأراضي المصريَّة من مساس نظام الامتيازات بسيادتها.

فهذا الاتِّفاق إذن قد عقد لمصلحة مصر لا لمصلحة إنكلترا، وفي الواقع إن إنكلترا لم يكن لها في ذاك الحين أية مصلحة خاصة من وراء ذلك الاتِّفاق؛ لأنَّها كانت تحكم مصر ذاتها.

فأية حاجة كانت بها لأن تُبرم مع مصر اتِّفاقًا يخوِّلها إدارة السُّودان؟ فهل هي كانت تلقى من الحكومة المصريَّة مقاومة لا ترد وهي التي استطاعت أن تكره حكومة مصر على إخلاء السُّودان رغم إرادتها. لو أنَّها طلبت من الحكومة المصريَّة بقطع النَّظر عن كلّ اتِّفاق — وأمامنا السَّابقة في مسألة غوردون — أن تسلم حكم السُّودان إلى حاكم عام حتَّى ولو كان إنكليزيًّا تختاره إنكلترا وله السلطة المخولة الآن للحاكم العام؟ سؤال لا يجاب عليه بغير «لا».

إنَّ تلغراف غرانفيل المشهور جعل للمشورة الإنكليزيَّة صبغة الأمر، وجعل موقف الحكومة المصريَّة بين أمرين: إمَّا الخضوع وإمَّا الاستعفاء.

وكما أنه ليس ما يمنع أي شخص تعاقد مع آخر على مصلحة له من أن يتنازل عن تلك المصلحة، فكذلك مصر لا يمنعها مانع قانونًا عن أن تعدل عن اتِّفاق ١٨٩٩ إذا هي ارتضت أن تتحمَّل في السُّودان نظام الامتيازات أو أي نظام يقوم مقامه.

وهذا اللُّورد كرومر يعترف صريحًا بتقريره عن الاتِّفاق بأنَّ الغرض الوحيد منه هو إنقاذ مصر في السُّودان من عراقيل الامتيازات. نعم إنَّه أضاف إلى هذا الغرض غرضًا آخر جعله في المقام الأول، وهو ضمانة الإدارة الحسنة لأهالي السُّودان، ولكن هذا لا ينقض بوجه من الوجوه مذهبنا.

هل النِّظام الأساسي النافذ في السُّودان بمقتضى اتِّفاق سنة ١٨٩٩، أو بعبارة أخرى هل الحكم الإنكليزي المصري المزدوج هناك، يجعل لمصلحة السُّودان حقًّا مكتسبًا تجاه مصر؟! إنَّهم إذا قالوا ذلك كان جوابنا القاطع: ليس للسُّودان شخصية ممتازة عن مصر. وإذا كانت له شخصية ممتازة فمصر لم تتعاقد مع السُّودان، ولكن ما الفائدة

من الوقوف أمام هذه الافتراضات؟ فلْنُجابِهِ الحقيقة وجهًا لوجه. والحقيقة هي — كما قلنا — أنَّه ليست للسُّودان شخصية خارجة أو منفصلة عن شخصية مصر. ومن هنا تنجم الاستحالة القانونية على السُّودان بأن يكتسب حقوقًا تجاه مصر.

لقد قلنا ونكرر هنا القول: إنَّ اتِّفاق ١٨٩٩ لا يربط مصر من الوجهة القانونية، ولكن إذا وصلنا إلى العمل نجد أنَّ مفاوضينا سيصطدمون بمقاومة شديدة من جانب إنكلترا العاضَّة بكل نواجذها على ذلك الاتِّفاق. وهذه الأموال الإنكليزيَّة قد استخدمت — أو هي على وشك الاستخدام — في السُّودان، ومجال العمل الواسع في السُّودان — وهو بلاد خصبة لم تستثمر حتَّى الآن — ليتجلَّى أمام أصحاب الأعمال من الإنكليز، وخطأ الرأي العام الإنكليزي الذي يعتبر نصف السُّودان — إن لم نقل السُّودان كله — ملكًا إنكليزيًّا، واهتمام الإنكليز بإنجاز الخط الحديدي الممتد من رأس الرجاء الصالح.

هذه كلها عوامل تحمل الحكومة الإنكليزيَّة على أن تتفانى بالتَّمسك بذلك الاتِّفاق. فإذا فرضنا أنَّا توصَّلنا غدًا إلى الاتِّفاق المُرضي مع الإنكليز على التَّحفظات التي وردت في «التَّصريح لمصر» ولم يبق من وجه للخلاف إلَّا على السُّودان، فهل يقطع مفاوضونا المفاوضات من أجل ذلك؟

إنَّ الجواب على هذا السؤال الخطير في مثل هذه الحالة يكون من حق البلاد، وبعبارة أخرى إنَّه يكون من شأن نواب الأمة الذين تستشيرهم الحكومة. ولكن إذا هم عقدوا العزيمة على أن لا يقبلوا في المسألة هوادة فلا يجوز بحال من الأحوال أن يكون مآل الحل جعل مركز مصر أدنى من المركز الذي يكون لها حسب اقتراح خطر لنا وكان في العزم نشره لولا حب التَّفادي عن ذلك الآن ولولا تساؤلنا: أليس الأفضل سياسيًّا الاحتفاظ بتبليغ هذا الاقتراح إلى المصريين وحدهم، لا سيما ممثِّلي الأمة ونوابها، وللحكومة وللمفاوضين في المستقبل.

وبمناسبة ذكر التَّحفظات الإنكليزيَّة غير مسألة السُّودان نذكر عرضًا أنَّ لجنة الدستور الفرعية قد أزالت كلّ سبب كان يدعو إلى وجود واحد من تلك التَّحفظات، وهو تحفُّظ يمس مساسًا خطيرًا بالاستقلال؛ لأنَّ أقلَّ ما يرمي إليه تثبيت سيادة إنكلترا على مصر — ونعني بذلك: التَّحفظ الخاص بحماية الأقليات.

فإنَّ تلك اللَّجنة — إذا صحَّ ما لدينا من المعلومات — قد قرَّرت أن تدمج في الدستور المصري المبادئ المسمَّاة «بضمانات الأقليات»، وأعلنت عدم إمكان المساس بتلك المبادئ. فحماية الأقليات تكون مضمونة في نظام البلاد الأساسي والغرض الذي يرمي

إليه التَّحفظ المحكي عنه قد أصبح محقَّقًا. وسيكون المفوضون المصريون — والحالة هذه — في أحسن مركز لإبعاد هذا التَّحفظ الممقوت إبعادًا تامًّا، لا سيَّما وأنَّه يعدُّ مطلبًا جديدًا من جانب الإنكليز؛ لأنَّنا نعرف من مصدر موثوق به أنَّه لم يصدر مطلقًا من المفوِّضين الإنكليز في خلال مفاوضات الصَّيف الماضي ما يُؤخذ منه طلب اعتراف مصر لإنكلترا بحق حماية الأقليات بمصر. ا.هـ.

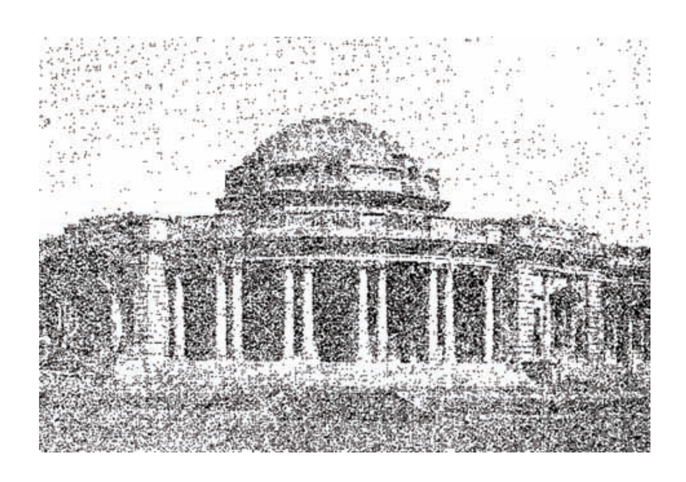

معمل أبحاث سير لي ستاك باشا، الذي أنشئ بالخرطوم تخليدًا لذكراه.

هوامش

(١) راجع عددي التيمس في ١٣ أكتوبر ١٨٩٨ و٢٤ أكتوبر ١٨٩٨.
(٢) راجع عدد التيمس المؤرخ ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٨.
(٣) التيمس ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨.
(٤) الكتاب الأزرق المؤرخ ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٨.
(٥) تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠١ ص٥٤.
(٦) راجع الجزء الأول.
(٧) راجع الجريدة الرسمية عام ١٨٩٤ ملحق عدد ٦٥٢ ص٥٥.

(٨) الكتاب الأزرق المؤرخ في ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٨.

(٩) راجع محاضر هذا المجلس بتاريخ ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٩ و١٩١٠.

(١٠) أمتزا هو بذاته الملك أمتيسا الذي ورد ذكره في الجزء الأول.

(١١) إنقاذ السُّودان The winning of the Sudan.

(١٢) نشر دولته هذين الفصلين في ١٧ مايو ١٩٢٢ عندما قضت لجنة الدستور في المشروع الذي كلف بوضعه بأن ملك مصر هو ملك مصر والسودان.

(١٣) راجع الوقائع المصرية ١٨٩٤ الملحق ٦٥٥ صفحة ٨٥٥.

(١٤) راجع الكتاب الأزرق ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٨.

(١٥) راجع الكتاب الأزرق ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٨.

(١٦) راجع التيمس ١٢ و٢٤ أكتوبر سنة ١٨٩٨.

(١٧) راجع التيمس ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨.

الفصل السادس

بعد استعادة السُّودان

(١) منشور الحاكم العام لخاصَّة السُّودان وعامَّتهم

«الحمد لله المحيط علمًا بكل شيء. وبعد فإنَّ سمو الأمير خديوي مصر «عباس باشا حلمي الثَّاني» — حرسه الله — قد اختارني لأن أكون سردارًا لجيشه وحاكمًا عامًّا للأقطار السُّودانية بعد اتِّفاقه مع دولة بريطانيا العُظمى على ذلك، فعهد إليَّ في رئاسة الجيش وإدارة شؤون السُّودان وساكنيه، فلبَّيت الدعوة الشريفة، وحمدت الله على حسن عنايته والأمير على حسن ظنه وجميل ثقته، وعاهدت الخالق الذي بيده نفسي ونفوسكم أن أراقبه فيكم، وأنصح في خدمة الأمير، ولا أترك بابًا يأتيكم منه الخير إلَّا فتحته، ولا منفذًا يأتيكم منه الشر إلَّا سددته، وأن أشيِّد بيدي أركان العدل بينكم، وأنشر لواء الإنصاف فوق رؤوسكم، وأسأل الله أن يُلهمني الصواب في أعمالي، ويعصمني من الخطأ والزَّلل، ويُرشدني إلى انتقاء الأمناء من العمال والحكام لتتمَّ رغائبي في الإصلاح ورغائبكم في النجاح.

ولَمَّا كان من الفروض الأولية أن أبلغكم إرادتي، وأنشر بينكم رغبتي، عمدت إلى إذاعة هذا المنشور فجعلته باكورة أعمالي؛ لتعلموا منه الغرض الذي أرمي إليه، والطريق التي أريد أن تسلكوا فيها.

اعلموا أنَّ أساس الملك هو العدل، ولهذا لم تقم للسُّودان قائمة؛ لأنَّ ملكه تأسَّس على الجور والاعتساف، واغتصاب الحقوق، وظلم الرعية، وانحراف الحكَّام عن جادة العدل، واتِّباعهم طرق الغواية والضلال، وعدم مراقبة الله، وترك الرِّفق بالعمل.

فأراد الله أن يسبغ عليكم رحمته بعد ذلك العذاب، فأزال أولئك الظُّلَّام، ومحا أثرهم، وقوَّض ملكهم؛ فأصبحوا لا تُرى إلَّا مساكنهم، وخلَّف بعدهم رجالًا ملأ قلوبهم

رفقًا وعدلًا وهم حكامكم الآن. فأخلصوا لهم الطاعة ليخلصوا لكم العمل، وتيقنوا أنَّكم كالجسد وهم كالرأس، فلا يصلح الجسد إلَّا بصلاح الرأس، ولا يصلح الرأس إلَّا بصلاح الجسد.

ولقد صرفت عنايتي إلى انتخاب الحكَّام الأكْفاء، وأمَرْتهم بالرفق وتنفيذ الأوامر العادلة التي أصدرها لخيركم وخير بلادكم، فعليكم بطاعتهم؛ لأنَّ طاعتهم هي طاعتي، ومن عصاهم فقد عصاني ومن عصاني فقد عصى أولي الأمر، ومن فعل ذلك فقد أغضب الله.

وإنِّي أشهد الله أنَّ من رأيت به اعوجاجًا من هؤلاء الحكَّام قوَّمته بسيف العدل. كما أنِّي أُشهد الله أنَّ من رأيته منكم مخالفًا أو مخاصمًا من غير حقٍّ رميت به إلى أقصى درجات العقاب ليصلح الرأس والجسد معًا.

وقد بدأت بتشييد مساجدكم وإقامة شعائر دينكم المقدسة، وتسهيل طريق الحج إلى بيت الله الحرام. بعد أن حال بينكم وبينه أولئك الطُّغاة العصاة الذين استأصل الله شأفتهم.

فإذا تمَّ ذلك عمدت إلى التجارة، فأوسعت لكم ميدانها، وأجريت لكم سيول خيراتها، وأرضعتكم لُبَانة ربحها، وفعلت كلّ ما تسمح به حالة الحكومة من تعديل ضرائبها وضرائب الأطيان، وأجر النَّقل في السكك الحديدية والمراسلات البريدية والتلغرافية، هذا مع السعي في توسيع نطاق ثروتكم لترتعوا في بحبوحة الراحة والأمن، وتذوقوا حلاوة العدل، وتنسوا مرارة الظلم السابق.

فإيَّاكم ومخالفتي ومخالفة حكَّامكم، واعلموا أنِّي بقدر ما أكون شفوقًا لينًا مع ذي الاستقامة منكم، أكون صارمًا شديدًا على من يُخالف أوامري ويعمل على إبطالها.

فطهِّروا قلوبكم وأخلصوا سرائركم، وضعوا ثقتكم بي والحكام الذين ولَّيتهم عليكم، وانزعوا من نفوسكم الغل والضَّغائن، وانبذوا كلّ من كان مفسدًا للعقائد عاملًا على خراب البلاد مثيرًا للفتن مسببًا للقلاقل، فلقد بيَّنت لكم طريق الهدى.

والله المسؤول أن يكون لي عونًا على تنفيذ إرادة سمو الخديوي المعظَّم، وأن يمتِّعكم بالراحة والأمن والسَّعادة في ظل سموِّه. هذا وقد صفحت الحكومتان المصريَّة والإنكليزية، وصفح سموه، وصفحت عن سالف أعمالكم. فلا نؤاخذكم بما فات. ولي الأمل أن لا يُفرِّط منكم بعد ما فرط من قبلُ، والسلام.»

تحريرًا في أم درمان في ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٠.

الموافق ٢٨ شوال سنة ١٣١٧

(ونجت)

سردار الجيش المصري

وحاكم السُّودان العام

(٢) الموظفون بعد استعادة السُّودان

جعل كبار الموظفين ورؤساء المصالح والقضاة المدنيون والمديرون والمفتشون من الإنكليز.

وعين نفر من السوريين والمصريين في وظائف الترجمة والحسابات والسكرتاريات ووظائف الكتَّاب والباشكتاب أمثال سعيد شقير بك «باشا» مدير حسابات السُّودان، وطنوس شحادة في إدارة المخابرات، ورفائيل خليل، وأمين حداد، وفرج شحادة، ودلين زلال، وسليم مشعلاني، وسليم شميل، وصموئيل عطية «بك»، ونجيب كاتبة، ونسيب فيليبيدس.

ومن الأقباط شاهين جرجس بك سكرتير عربي السردار، وروفائيل خليل، وواصف جرجس، وقديس عبد الملك.

ومن المسلمين؛ الشيخ محمد شاكر قاضي قضاة السُّودان، والشيخ محمد هارون مفتش المحاكم الشرعية، وأحمد هدايت سكرتير مدير المعارف بالخرطوم.

(٣) حادث الحدود بين الخديوي وكتشنر باشا

اشتهر حادث سياسي خطير باسم حادث الحدود، ونذكره فيما يلي:

كان الخديوي عباس حلمي الثَّاني يثق بالمرحوم محمد ماهر باشا — وكيل الحربية وقتئذٍ وهو والد معالي علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي والدكتور محمود ماهر بك والدكتور أحمد ماهر عضو الوفد المصري والدكتور أمين ماهر — ثقة كبرى لحبه للوطن حبًّا جمًّا. وكان هذا الحب يحمله على التألُّم من كلّ حادث يقع في الحربية يخالف مصلحة النِّظام العسكري. وكان كثير الاجتماع يومئذ بالخديوي. ثمَّ إنَّ الخديوي كان يجهر بانتقاداته في كلّ ما يراه مخالفًا لمصلحة البلاد، سواء في شؤون الحربية أم غيرها. وفي ذات ليلة قال الخديو على مائدة الطعام: «سيرى السردار منِّي درسًا قاسيًا

في الحدود.» فوشى به أحد الذين حضروا تناول الطعام على المائدة الخديوية عند كتشنر باشا سردار الجيش في ذاك الوقت.

فدبَّر الإنكليز أمرهم وانتظروا ما يأتي به الغد القريب، لا سيما وأن الخديوي كان عازمًا على زيارة الحدود وتفقُّد فرق الجيش المصري هناك.

وفي مساء يوم ٩ يناير سنة ١٨٩٤ سافر الخديوي عباس وفي معيته المرحوم ماهر باشا الذي كان الإنكليز يعدونه عدوًّا لهم. وهناك استعرض الجنود وأبدى ملاحظته على ما رآه بالأورطة الثَّانية على مسمع من الضبَّاط الإنكليز؛ مما جعل كتشنر باشا يبلغ الخديوي بأن الضبَّاط الإنكليز متذمرون من هذه الملاحظات العلنية على بعضهم، ويعدُّونها إهانة لهم جميعًا، وأنَّهم عازمون على الاستقالة، ولا يسعه إلَّا عرض الأمر على قائد جيش الاحتلال والمعتمد الإنكليزي في مصر. فأفهمه الخديوي أنَّ ما لاحظه على الجيش المصري هو حقٌّ له، وأن هؤلاء الضبَّاط ليسوا في خدمته غير ضباط مصريين، وأنَّه لم يرد إهانة ضباط إنكليز قط. فتظاهر كتشنر باشا أمام الخديوي بالاقتناع وبعدول الضبَّاط عن الاستقالة وبعدم إبلاغ هذه الحادثة إلى المعتمد الإنكليزي وقائد جيش الاحتلال. وعندئذ لم يهتم الخديوي بتبليغ حكومته ما جرى بينه وبين السردار. ولكن هذا كان قد أبلغها إلى المعتمد الإنكليزي الذي تحادث مع وزارة الخارجية. ولم يشعر المرحوم رياض باشا — رئيس الوزارة — الذي لم يُحط علمًا بالأمر إلَّا والمعتمد الإنكليزي قد جاء بمطالب ثلاثة:

(١) ترضية الجناب العالي الخديوي للضباط الإنكليز ترضية رسمية بثنائه على نظام الجيش وضباطه قبل وصوله إلى العاصمة.

(٢) عزل ماهر باشا من وكالة الحربية حالًا.

(٣) اعتبار الضبَّاط الإنكليز الذين في الجيش المصري تابعين لجيش الاحتلال، وأن تناط الملاحظات عليهم بالقائد العام لذلك الجيش.

بوغت رياض باشا بهذه المطالب التي أصرَّ يومئذ السير إفلن بارنج على إجابتها بلا تحوير وقبل وصول الخديوي إلى العاصمة. فما كان من المرحوم رياض باشا إلَّا أن أرسل تلغرافًا إلى الخديوي يستفسره عن الحادثة. فأخبره الخديوي بأنَّه لم يحدث حدث يُوجب السؤال والانشغال. ولكنَّه نظرًا لإصرار المعتمد الإنكليزي على إجابة مطالبه، وخشية تعقد المسألة ووصول الخديوي إلى العاصمة قبل حلها، لم يسع رياض باشا إلَّا

أن يبرح القاهرة ومعه حضرات النُّظَّار ما عدا تكران باشا — ناظر الخارجية — لمقابلة الخديوي في عودته فلقوه في بندر جرجا، فركبوا في معيَّته عائدين إلى العاصمة. وكانت المخابرات بين رئيس النُّظَّار وناظر الخارجية تلغرافيًّا بين كلّ محطة وأخرى. وفي ذاك الوقت كان ناظر الخارجية يراجع المعتمد الإنكليزي في تحوير تلك المطالب حتَّى وصل الركَّاب إلى مدينة الفيوم، وفي هذه المدينة أعلن الخديوي أنَّه راضٍ عن نظام الجيش بأمر عسكري هذا نصُّه:

خطاب من الجناب الخديوي إلى السردار بحلفا

مدينة الفيوم في ٢٦ يناير سنة ١٨٩٤

قبل أن أبارح الوجه القبلي عائدًا إلى مصر يهمُّني أن أكرِّر عظيم اهتمامي ووافر انعطافي نحو الجيش المصري الذي تفقدته في الحدود. ويهمني كذلك أن أثبت عظيم الامتنان الذي قد عبرت لك عنه من قبل بشأن حسن نظامه وترتيبه، ويروقني أن أهنئ الضبَّاط، سواء المصريين والإنكليز الذين يقودونه، وأن أشاهد الخدم التي أدَّاها الضبَّاط الإنكليز في جيشي، وأرجوك يا سردار أن تبلغ هذا للضباط والجنود.

عباس حلمي

وبهذا قد أجيب الطلب الأول من المطالب الثلاثة. أمَّا الطلب الثَّاني المتعلِّق بعزل المرحوم ماهر باشا فقد عُدِّل بنقله من وظيفته إلى محافظ عموم القنال مع حفظ مرتَّبه الذي كان يتقاضاه في وكالة الحربية. وقد رفض الطلب الثالث، وهو إمرة جيش الاحتلال على الجيش المصري، رفضًا باتًّا.

(٤) قضية التِّلغرافات

منذ زمان بعيد تشهد مصر قضايا سياسية هامَّة، يتتبَّعها الرأي العام في شوق واهتمام. من هذه القضايا قضية اشتهرت باسم «قضية التلغرافات»، والأصل فيها أنَّه كانت الحملة المصريَّة على السُّودان بقيادة السردار كتشنر باشا، وكان الاهتمام بأنباء الحملة عظيمًا. وكانت جريدة «المؤيد» معدودة يومئذ الجريدة الوطنية الحرَّة الجريئة، التي تُحارب الاحتلال الإنكليزي وتقود المعارضة، وكان صاحبها ورئيس تحريرها المغفور له

السيد علي يوسف — شابًّا أزهريًّا عصاميًّا طامحًا يلتهب وطنية وجرأة — يكتب مقالات، عبروا عنها بأنَّها «تفعل في النفوس فعل السحر وتسري فيها مسرى الكهرباء». ويجب أن نعرف حالة الرأي العام المصري يومئذ، فقد كان غير راضٍ عن سفر الحملة واشتراك الجنود الإنكليزيَّة فيها لاستعادة السُّودان على الصورة التي أعيد بها ووضعت خطتها يومئذ. وكان همُّ «المؤيد» أن ينشر أنباء الحملة على السُّودان، بينما كانت تعد أنباؤها من المسائل السرية التي لا يكاشَف بها الجمهور إلَّا بمقدار. وكان الجمهور متلهِّفًا على أخبارها، وكان بين الموظفين من تدفعه وطنيته إلى نقل الأخبار الرَّسمية إلى «المؤيد» مساعدة له على مهمته الصحفية الوطنية، وكان مخبرو «مندوبو» المؤيد ممنوعين من دخول وزارة الحربية ومن مرافقة الحملة، بينما سمح لجرائد أخرى بمرافقة مندوبيها للحملة.

وقد حدث في يوم ٢٦ يولية سنة ١٨٩٦ أن ورد من السردار كتشنر باشا تلغراف على مكتب تلغراف الأزبكية إلى ناظر «وزير» الحربية، وأن موظفًا بالمكتب اسمه «توفيق كيرلس أفندي»، اتُّهم بنقل نسخة من هذا التلغراف، وكان بالفرنسية، وكان عدد كلماته ٥٦٦. وقد وجه هذا الاتهام إليه بعد أن وصلت النسخة إلى جريدة المؤيد، وكان من محرريها يومئذ حضرة الأستاذ محمد مسعود الكاتب المعروف والصحفي القديم، وكان يتولى ترجمة التلغرافات. فسلَّم إليه صاحب المؤيد هذا التلغراف فترجمه ونشره في جريدة «المؤيد» بعددها الصَّادر بتاريخ ٢٨ يولية سنة ١٨٩٦. وفي يوم ٢٩ يولية سنة ١٨٩٦، اطلع وزير الحربية على التَّرجمة المنشورة في «المؤيد» للتلغراف المذكور. فدهش أيما دهشة، وكانت قراءته للجريدة عند تأهبه للخروج من منزله إلى مكتبه بالحربية، فلمَّا وصل إليه بحث عن التلغراف في الوزارة فأحضر إليه. فعلم أنَّ التلغراف لم يسرق، ثمَّ تأكد أنَّه لم تصل إليه يد إنسان آخر بعد وصوله إلى الحربية، ثمَّ عهد إلى ملحم شكور بك من موظفي الحربية بإماطة اللثام عن كيفية وصول هذا التلغراف إلى جريدة «المؤيد»، فتوجَّه شكور بك إلى مكتب تلغراف الأزبكية لمعرفة الحقيقة، ولكنَّه لم يصل إلى نتيجة. وحفظت القضية.

وكان بين «المؤيد» وجريدة «المقطم» حرب قلمية، وكان «المؤيد» يتَّهم «المقطم» بأنَّه مؤيد للاحتلال الإنكليزي وخادم له، وبعد أن حفظ التحقيق، كتب «المقطم» مقالات يدعو فيها الحكومة إلى محاكمة صاحب «المؤيد» متهمًا إيَّاه بأنَّه قد اشترك في إفشاء سرية التلغراف بنشره، ففتح باب التحقيق مرة ثانية.

السيد علي يوسف «باشا» مؤسِّس جريدة المؤيد وسيد السادات الوفاتية المتوفى في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٣.

واتهمت النيابة العمومية كيرلس أفندي والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد بأنَّ المتَّهم الأول قد أفشى تلغرافًا سريًّا ورد على مكتب تلغراف الأزبكية في يوم ٢٦ يولية سنة ١٨٩٦ من سردار الحملة المصريَّة بالسودان، إلى ناظر الحربية. وأنَّ المتَّهم الثَّاني قد اشترك في إفشاء سرية هذا التلغراف بأن نشره في العدد الصَّادر من جريدة المؤيد بتاريخ ٢٩ يولية سنة ١٨٩٦ في حين أنه لم يطَّلع عليه أحد غير عمال التلغراف وناظر الحربية.

وطلبت محاكمتهما بالمادة ١٤٥ من قانون العقوبات. وعدَّ صاحب المؤيد مشتركًا مع المتَّهم الأصلي بمقتضى الفقرة الثَّانية من مادة «٦٨» من القانون المذكور، وأحالتهم إلى جلسة الجنح بمحكمة عابدين الجزئية الأهليَّة التي انعقدت في يوم الأربعاء ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦.

وممَّا يذكر في صدد هذه القضية المشهورة أنَّ التلغراف كان يحتوي على ٥٦٦ كلمة، وأن شهودها بلغ عددهم ٢٧ شاهدًا بينهم ناظر الحربية وملحم شكور بك والمسيو ولد ملاحظ مكتب تلغراف الأزبكية وغيرهم من كبار الموظفين وصغارهم، وكان بينهم الصحفي الجريء المرحوم نجيب هاشم «مخبرًا» بجريدة المؤيد، والدكتور فارس نمر وإسكندر شنودة، وإسكندر تادرس ونجيب راضي.

وقد اهتمَّ الجمهور بهذه القضية أيما اهتمام في أثناء المحاكمة، فقد كانت المحكمة غاصَّة بجماهير غفيرة بينها نفرٌ من عظماء الأمة. ولما كانت الساعة الثامنة صباحًا من اليوم المحدد للمحاكمة انعقدت الجلسة برياسة حضرة القاضي محمود بك خيرت وعلي أفندي توفيق وكيل النيابة المنتدب. أمَّا الدفاع فكان مؤلفًا من الأستاذين إبراهيم الهلباوي بك محاميًا عن توفيق أفندي كيرلس، والسيد أحمد بك الحسيني محاميًا عن صاحب المؤيد.

ثم طلب الدفاع تأجيل القضية للاطلاع ونسخ الأوراق استعدادًا للمرافعة؛ لأنَّ أوراق القضية لم تحوَّل إلى المحكمة إلَّا قبل الجلسة بثلاثة أيام فقط؛ ممَّا جعل الدفاع لم يتمكَّن من الاستعداد للمرافعة؛ فأجلت القضية إلى يوم الأربعاء الموافق ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦. وفي هذه الجلسة سمعت المحكمة أقوال المتهمين، وشهادة الشهود، ومرافعة النيابة والدفاع وردَّ الدفاع على مرافعة النيابة. وفي الساعة السادسة من مساء يوم الخميس ١٩ نوفمبر سنة ١٨٩٦ أصدر حضرة القاضي حكمه في الجلسة بحبس توفيق أفندي كيرلس ثلاثة أشهر بناءً على إفشائه تلغراف السردار، وببراءة ذمته من تهمة إفشاء تلغراف للمقطم، وبتحمله ربع مصاريف الدعوى، وبراءة ساحة صاحب المؤيد من التُّهمتين لعدم وجود أدنى دليل على ثبوت إحداهما ضده.

ولقد علَّقت معظم جرائد الشَّرق والغرب على هذه القضية الغريبة، وتناولها البرلمان الإنكليزي بالمناقشة.

(٥) الكشاف والكشوفية في النوبة

جاء في الجزء الأول من هذا الكتاب أنَّه قد حكم بعض أقاليم السُّودان دولة من الكشاف. وبعد إعادة السُّودان ظل في النوبة أشخاص يُعرفون بهذا الاسم. وقد ذكر حضرة الأستاذ محمد رمزي بك أنَّ: لكلمة «الكاشف» جملة معانٍ. فقد كانت تطلق قديمًا على «حاكم» الإقليم، ويقابلها في وقتنا الحاضر «مدير»، فكان يقال للحاكم «كاشف»،

مدينة الخرطوم.

وللإقليم — كشوفية — كما يقال اليوم للحاكم الإداري في الأقاليم: مدير، وللإقليم الذي يديره مديرية.

وكانت مصر في عهد دولة المماليك مقسمة إلى أعمال — مديريات — وكان فيها كشوفيات، وهي كشوفية الإسكندرية، وكشوفية الوجه البحري ومقرها مدينة دمنهور، وكشوفية الوجه القبلي ومقرها مدينة أسيوط، ثمَّ جعلت هذه الكشوفيات في عهد دولة المماليك البرجية نيابات، مفردها نيابة.

ولما تولَّى العثمانيون حكم مصر قسموها إلى كشوفيات، وجعلوا على رأس كلّ كشوفية — مديرية — كاشفًا «مديرًا».

ولَّما كانت بلاد النوبة السفلى مركز الدرما بين الشَّلال الأول والثاني بعيدة عن البلاد المصريَّة وقريبة من الحدود السُّودانية، ويتعذَّر على كاشف قوص — مدير قنا — أن يلاحظ أعمال ذلك الإقليم علاوة على أعمال كشوفيته، فقد جُعلت بلاد النوبة السفلى كشوفية قائمة بذاتها يرأسها كاشف، وكان مقرها ناحية الدر والديوان. وفي سنة ١٥٢٠م عيِّن حسن قوصي الجركسي كاشفًا على بلاد النوبة. وتولى الكشوفة بعده ولده ثمَّ ولد ولده وذريتهم، فصاروا يتوارثون الوظيفة إلى أيام حكم الخديوي إسماعيل، حيث أصبحت بلاد النوبة قسمًا من أقسام مديرية إسنا. فعين لهذا القسم ناظرًا أسوةً بأقسام

المديريات. فالأشخاص الذين يحملون إلى اليوم لقب كاشف هم من ذرية حسن كاشف المذكور.

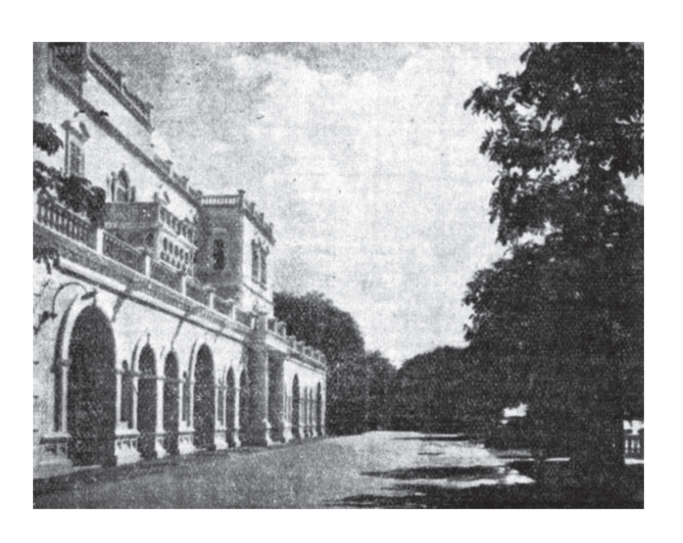

كازينو الخرطوم.

الفصل السابع

السُّودان بعد اتِّفاق ١٨٩٩

نُفِّذ اتِّفاق ١٨٩٩، فظل تعيين الحاكم العام للسُّودان وهو في الوقت نفسه سردار الجيش المصري بترشيح الحكومة البريطانية وباختيارها وبموافقة الحكومة المصريَّة واستصدارها أمرًا عاليًا أو مرسومًا ملكيًّا. ولو أنَّ الاتِّفاق لم يشترط أن يكون الحاكم العام بريطانيًّا إلَّا أنَّه كان بريطانيًّا دائمًا، وهذا ظاهر من كيفية إعادة السُّودان بقيادة إنكليزية ومن أن الحكومة البريطانية هي التي ترشِّح وتختار الحاكم العام. كذلك كان تعيين رؤساء المصالح والمديرين والمحافظين من البريطانيين. وكان الضبَّاط المصريون في الجيش المصري يُندبون في وظائف المأمورين وقليل منهم في وظائف المفتِّشين والوظائف المتوسطة كالقضاة ورؤساء الأقلام، والوظائف الكتابية موزَّعة بين الإنكليز والمصريين والسوريين والسُّودانيين وبعض الأجانب.

(١) مجلس الحاكم العام أو الدستور السُّوداني

بمقتضى اتِّفاق سنة ١٨٩٩ المُبرم بين الحكومتين المصريَّة والإنكليزية لنظام الحكم في السُّودان، للحاكم العام للسُّودان سلطة مطلقة تشريعية وإدارية.

ولكن قُيِّدت هذه السلطة منذ يناير سنة ١٩١٠ بإنشاء «مجلس الحاكم العام»[١] وهو يتألَّف برياسة الحاكم العام وعضوية: القائد العام لقوة الدفاع، والسكرتير القضائي، والسكرتير الإداري، والسكرتير المالي — وهؤلاء أعضاء بمقتضى قانون؛ أي بمقتضى وظائفهم.

وهناك أعضاء بمقتضى أوامر تصدر من الحاكم العام لأشخاص معيَّنين، والأعضاء الذين صدرت أوامر بتعيينهم هم: مدير المعارف، ومدير الأشغال، ومدير المصلحة الطبية، ومدير الأمور الاقتصادية.

اختصاص المجلس: هو الميزانية — التصديق على القوانين — المشروعات العمومية — التنقُّلات الكبيرة والصغيرة — السلطة التَّشريعيَّة والتنفيذية.

وكانت المسائل المتقدمة تصدر بتوقيع «الحاكم العام». ومنذ أُنشئ مجلس «الحاكم العام»، أصبحت تصدر بتوقيع «الحاكم العام نفسه».

وأعضاء هذا المجلس كما هو ظاهر — من الموظفين البريطانيين في حكومة السُّودان، ولم يجلس فيه من غير البريطانيين رودولف سلاتين باشا — المفتش العام لحكومة السُّودان سابقًا — وكان نمساويًّا برتبة اللواء في الجيش المصري، وقد أحيل إلى المعاش سنة ١٨٩٨ في عهد اللُّورد كتشنر باشا، وأعيد إلى خدمة حكومة السُّودان في عهد ونجت باشا. وكان هناك منصب يسمَّى «نائب الحاكم العام»، وقد شغله سلاطين باشا إلى سنة ١٩١٤. وقد ألغي هذا المنصب، وفي غياب الحاكم العام عن منصبه في السُّودان في الإجازة ونحوها يعين أقدم عضو في مجلس الحاكم العام نائبًا له، بقرار يصدر من الحاكم العام نفسه.[٢]

(٢) الخديوي عباس في الخرطوم

وصل الخديوي عباس حلمي باشا إلى الخرطوم في ٣ ديسمبر سنة ١٩٠١، وألقى السردار في اليوم التَّالي أمام سراي الخرطوم الخطاب التَّالي:

> **مولاي سمو الخديوي المعظَّم:**
>
> نحن سردار الجيش المصري وحاكم السُّودان العام وصفّ ضباط وعساكر جيش سموِّكم المعظَّم مع الموظفين الملكيين والعلماء والعمد والمشايخ والأعيان في السُّودان وعموم سُكَّان السُّودان، نُسرُّ بأن نقدِّم مع شعائر الولاء والإخلاص هذا الخطاب ترحيبًا بتشريف سموكم المرة الأولى للسُّودان.
>
> لقد نلنا أعظم الشرف بأن سموكم تجشَّمتم السفر الطويل الشَّاق من

الخديوي السَّابق عباس حلمي باشا سنة ١٩٠٥.

مصر لقضاء بضعة أيام في الخرطوم عاصمة السُّودان التي خرَّبها الأشقياء الذين شقُّوا عصا الطاعة لحكومة سموكم بعد أن كانت عامرة زاهرة. وهي الآن تتدرَّج في الحضارة والعُمران على مبادئ نؤمِّل أن ترقى بها رويدًا حتَّى تصير عاصمة فاخرة ومركزًا مهمًّا لتجارة السُّودان. قد مضى الآن ثلاث سنين على انتشالها من يد ذلك الطَّاغية عبد الله التَّعايشي ببسالة جيش سموكم وجنود المملكة البريطانية العُظمى.

أما وجود سموكم بيننا فقد ملأ قلوبنا مسرَّةً وابتهاجًا، فبالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الحاضرين هنا اليوم والغائبين عنَّا في جهات السُّودان البعيدة الذين تمنعهم واجباتهم الهامَّة عن الحضور لتقديم واجب التَّرحيب والتعظيم لسموكم نتمنَّى لسموكم حياة مديدة مقرونة بالسعادة

الخديوي السَّابق عباس حلمي باشا سنة ١٩٢٩.

والفخار، ونسأل الله تعالى أن يبثَّ في أنحاء بلاد سموكم طولًا وعرضًا روح الفلاح والسلام.

(٢-١) خطاب الخديوي

يا سعادة السِّردار وحاكم السُّودان العام، ويا حضرات الضبَّاط والعساكر والموظفين وعلماء ومشايخ وأعيان وأهالي السُّودان كافَّة:

إنِّي أشكر لكم الخطاب الذي حييتموني به، وأؤكِّد لكم بأنِّي أعدُّ من أعظم مسراتي رؤيتي إيَّاكم في هذه البلاد الشَّاسعة التي قرَّبتها منَّا سكة الحديد العجيبة التي ملأتني ارتياحًا وابتهاجًا.

الآن وقد رأيت هذه البلاد عرفت الصعوبات والمشقات التي لاقاها من كانت لهم يد في الحملات التي كانت نتيجتها محو سلطة عبد الله التَّعايشي وإعادة العدل والراحة والسكون في جميع أنحاء السُّودان.

العَلَمَان الإنكليزي والمصري اللذان يخفقان الواحد بجانب الآخر هما إشارة إلى الحكومة المشتركة التي أخذت على عاتقها حماية الأهالي من الوقوع في شَرَك أهل الظلم والفساد وابتداء عصر هدوء وسعادة في هذه الديار.

ولقد سرَّني أيضًا ما أشاهده من تقدُّم مدينة الخرطوم في العمران، وأعتقد أنِّي سأحفظ لكم أحسن ذكرى لاحتفائكم بي في هذه الزيارة الأولى، وإنَّه ليشملني السرور كلَّما سمعت بتحسين أحوالكم وتقدمكم في الرفاهية التي أرى شواهدها بدت في كلّ الأرجاء.

هذا وإنِّي أنعم الآن بكل ارتياح ببعض النَّياشين على بعض كبار علماء الدين، وسأنعم بها فيما بعد على الضبَّاط والموظَّفين والأهالي الذين يعرض لي عنهم سعادة السردار والحاكم العام بناءً على التَّقارير السنويَّة التي ترد له من المديريات.

ثم أكرِّر شكري لاحتفائكم بي احتفاءً صادرًا عن حسن نية وخلوص طوية.

وقد عاد سموُّه إلى مصر في ديسمبر سنة ١٩٠١.

(٣) زيارة اللُّورد كرومر

زار اللُّورد كرومر السُّودان لأول مرة سنة ١٨٩٩، وزاره سنة ١٩٠٢، وزاره سنة ١٩٠٣. وقد أصبحت زيارة السُّودان تقليدًا متوارثًا يُجريه كلّ ممثل للحكومة البريطانية في مصر.

تخطيط مدينة الخرطوم بعد إعادة السُّودان، وقد وضعها المهندس المصري محمد السعيد سماحة بك الذي كان مأمورًا لتنظيم الخرطوم يومئذٍ، ثمَّ مهندسًا كبيرًا في مصلحة المساحة أخيرًا. حيث أُحيل إلى المعاش وترى صورته هنا.

(٤) جريدة السُّودان

صدر العدد الأول من جريدة السُّودان في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٣، ومنحت الحكومة امتيازها إلى الدكتور فارس نمر وشريكيه أصحاب المقطم، وعُيِّن خليل ثابت أفندي «بك» من خريجي المدرسة الكلية السورية محررًا لها.

والأستاذ خليل ثابت هو حضرة صاحب العزة خليل ثابت بك رئيس تحرير جريدة المقطم الآن.

(٥) وكالة حكومة السُّودان

لحكومة السُّودان في مصر وكالة تسمَّى وكالة حكومة السُّودان، مركزها الآن شارع توفيق.

واختصاصات هذه الوكالة هي: تشجيع السياحة للسُّودان — صرف جوازات السفر إليه — مساعدة المهاجرين السُّودانيين للعودة إلى بلادهم — رعاية العلاقات التي بين الحكومة المصريَّة والحكومة السُّودانية من مالية وحقوقية، والحقوقية هي تنفيذ الأحكام — القيام بالحسابات الجارية مع الجمارك — إعطاء بيانات وإرشادات عن السُّودان.

كانت وكالة حكومة السُّودان في أول عهدها مندمجة مع إدارة المخابرات في الجيش المصري، وكان السير ونجت باشا مديرًا للمخابرات في أثناء الحملة المصريَّة بقيادة اللُّورد كتشنر باشا لاستعادة السُّودان — وكان ونجت باشا وكيلًا لحكومة السُّودان في أثناء الحملة، ولمَّا خلف سعادته اللُّورد كتشنر كسردار للجيش المصري وحاكم عام للسُّودان عين الكونت كليخن باشا — وكان لواءً في الجيش المصري وابن خالة الملك إدوارد السابع والد ملك الإنكليز الحالي «الملك جورج الخامس» — وكيلًا لحكومة السُّودان مع إدارة المخابرات بالجيش المصري من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩٠٣، وقد خلفه في منصبه اللُّورد إدوارد سيسيل، وكان لواءً بالجيش المصري من سنة ١٩٠٣ إلى سنة ١٩٠٦، حيث عُيِّن مستشارًا لوزارة المالية المصريَّة، وعين اللواء أوين باشا في منصب وكيل حكومة السُّودان ومدير المخابرات بالجيش المصري من سنة ١٩٠٥ إلى ١٩٠٨. وأوين باشا كان رئيسًا للجنة المصريَّة التي تألَّفت للنظر في مسألة العقبة، وكان معه الفريق إبراهيم فتحي باشا ونعوم شقير بك، وانتهت أعمال اللَّجنة بعقد معاهدة مع الدولة العلية التُّركيَّة التي اعترفت لمصر بملكية العقبة، ثمَّ عين سير لي ستاك باشا بعد أوين باشا من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٢، وستاك باشا هو الذي صار فيما بعد سردارًا للجيش المصري وحاكمًا عامًّا للسُّودان، وقتل في نوفمبر سنة ١٩٢٤، ثمَّ عُيِّن الجنرال كلايتون باشا خلفًا له من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٢٠، حيث عين مستشارًا لوزارة الداخلية المصرية، وكان يتولى منصب وكيل حكومة السُّودان عسكريون بريطانيون. ولكن منذ سنة ١٩٢٠، وبعد كلايتون باشا فُصلت الوكالة عن قلم المخابرات، الذي نُقل إلى الخرطوم، وأصبح تعيين العسكريين ليس أمرًا لازمًا، ثمَّ تعين مستر مور وكيلًا لحكومة السُّودان في مصر «وحضرته يعمل الآن مع سعادة محمد أحمد عبود باشا في شركة ثورنيكروفت وجياد السباق»، وبقي حتَّى سنة ١٩٣١. وفي سنة ١٩٣١ عين الكلونيل ريدار، وبقي إلى سنة

١٩٣٣، وعين مستر «هملتون» من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٣٥، وخلفه الوكيل الحالي حضرة مستر لاش في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٥.

وأكثر حضراتهم يجيدون اللغة العربية قراءة وكتابة.

وعلى ذكر مسألة العقبة نقول: إنَّ إدارة سينا كانت تتبع قلم المخابرات بالجيش المصري في أثناء عدم وجود وزارة للخارجية المصرية.

(٦) لا امتيازات في السُّودان

لا توجد لحسن الحظ امتيازات للأجانب في السُّودان، وذلك أن اللُّورد كرومر — المعتمد البريطاني الأول في مصر عقب الاحتلال — كان شديد السُّخط على الامتيازات الأجنبية في مصر، وطالما طفحت تقاريره بالإنحاء عليها وبسرد حوادث مآسيها ووقائع ويلاتها، وقد نص اتِّفاق ١٨٩٩ على عدم وجود امتيازات للأجانب.

ولذا يعد جميع نزلاء السُّودان من أية جنسية — متساوين أمام القضاء السُّوداني خاضعين لقوانينه وأحكامه.

(٧) لا قنصليات في السُّودان

وقد ترتَّب على عدم وجود امتيازات للأجانب، أنَّ البلاد الأجنبية التي لها رعايا في السُّودان لم تنشئ قنصلية؛ ولذا ليس بالسُّودان قنصليَّات أجنبية.

(٨) قوانين السُّودان

صدرت قوانين كثيرة منذ استعادة السُّودان حتَّى اليوم من الحاكم العام بمعونة السِّكرتير القضائي، وعُرضت القوانين على اللُّورد كرومر وعلى مجلس النُّظَّار المصري، ونُشرت تباعًا في الغازيتة السُّودانية.

(٨-١) الأمر الصَّادر بإنشاء مجلس الحاكم العام[٣]

ننشر فيما يلي نص الأمر الصَّادر بإنشاء مجلس الحاكم العام:

حيث إنَّ الوفاق المعقود في ١٩ يناير ١٨٩٩ بين حكومة جلالة المرحومة ملكة الإنكليز وحكومة سمو الجناب العالي الخديوي قد فوَّض إلى الحاكم العام الرياسة العليا العسكرية والملكية في السُّودان، ومنحه الاختصاصات المبيَّنة فيه. وحيث إنَّه بمصادقة الحكومتين المشار إليهما قد استصوب إيجاد مجلس يشترك مع الحاكم العام في إجراء ما له من السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية.

فقد صدر الأمر بما هو آت:

(١) يسمَّى هذا القانون قانون مجلس الحاكم العام سنة ١٩١٠.

(٢) يُنشأ مجلس يُعرف بمجلس الحاكم العام يؤلَّف من أعضاء قانونيين هم المفتش العام والسكرتير المالي والسكرتير القضائي والسكرتير الملكي، ومن أعضاء إضافيين لا ينقص عددهم عن اثنين ولا يزيد على أربعة يعينهم الحاكم العام.

يكون تعيين الأعضاء الإضافيين لمدة ثلاث سنين، وتجوز إعادة تعيينهم، وإذا غاب أحد الأعضاء القانونيين بالإجازة أو تعذَّر عليه الحضور للمرض ناب عنه في المجلس، الموظف الذي يقوم مقامه في وظيفته بحكم القانون أو من طريق التَّناوب.

وإذا غاب أحد الأعضاء الإضافيين أو تعذر عليه الحضور كذلك فللحاكم العام أن يعيِّن بدله مؤقَّتًا.

(٣) يرأس الحاكم العام جلسات المجلس، وفي حالة غيابه تكون الرياسة لأقدم عضو بين الحاضرين مع مراعاة أحكام المادة ١٣.

(٤) للمجلس جميع السلطة المخوَّلة له بمقتضى هذا القانون في نظر كافة المواد التي يجب إجراؤها بمعرفة الحاكم في المجلس بناءً على نصوص هذا القانون أو أي قانون آخر. أمَّا غير ذلك من المواد الأخرى التي قد تُعرض عليه، فإنَّه ينظر فيها بصفة مجلس استشاري للحاكم العام.

(٥) جميع القوانين واللَّوائح التي للحاكم العام إصدارها بمقتضى المادة الرابعة من وفاق ١٩ يناير ١٨٩٩ يصير إصدارها بمعرفة الحاكم العام في مجلسه، ولا يسري هذا النص على ما للحاكم العام وحده إصداره من اللوائح بمقتضى السلطة الممنوحة له بنص معمول به.

(٦) يقرر الحاكم العام في مجلسه الميزانية السنوية، ويمنح جميع الاعتمادات الإضافية، سواء كانت من الاحتياطي أو من الإيرادات العادية.

(٧) يُجري الحاكم العام في مجلسه جميع المواد التي يجب إجراؤها فيه بمقتضى أي قانون معمول به، أو على القواعد التي يقررها الحاكم العام في مجلسه.

(٨) تتقرر المسائل التي يجريها الحاكم العام في مجلسه بأغلبية أصوات الأعضاء الحاضرين، مع مراعاة ما هو مدون في المادتين ٩ و١٠. فإذا تساوت الأصوات كان التَّرجيح لجانب الرئيس، وتدوَّن قرارات المجلس في سجل محاضره، مع بيان رأي كلّ عضو على انفراده، ولكل عضو خالف الأغلبية أن يطلب إثبات أسباب مخالفته في المحضر.

(٩) للحاكم العام — سواء حضر الجلسة أو لم يحضرها — أن يخالف ما أقرَّته الأغلبية لأسباب تُدوَّن في محاضر المجلس، ويعتبر قراره هذا في هذه الحالة من جميع الوجوه كأنَّه قرار المجلس.

(١٠) للحاكم العام — سواء حضر الجلسة أو لم يحضرها — أن يوقف تنفيذ أي قرار من قرارات المجلس حتَّى يرفعه إلى السلطة المنصوص عليها في الفقرة الثَّانية من المادة الرابعة من وفاق ١٩ يناير ١٨٩٩.

(١١) للحاكم العام في مجلسه أن يسنَّ قواعد لا تخالف هذا القانون تختصُّ بضبط أعمال المجلس، وبيان محل اجتماعاته، وتعيين موظفيه، وتقرير واجباتهم.

(١٢) إذا غاب الحاكم العام بالإجازة أو تعذَّر عليه القيام بأداء وظيفته لمرض، وكذلك إذا خلت وظيفته تنتقل سلطته كلها إلى مجلس الحاكم العام إذا لم يكن هو قد عيَّن نائبًا عنه في وظيفته.

(١٣) للحاكم العام كلَّما كان بعيدًا عن مجلسه أن يعيِّن موظفًا ينوب عنه في رياسته وفي ما له من السلطة كلها أو بعضها المتعلقة بالمجلس بمقتضى المواد السابقة.

(١٤) للحاكم العام كلَّما كان بعيدًا عن مجلسه أن يُباشر وحده ما للحاكم العام في مجلسه من السلطة كلها أو بعضها إذا أجيز ذلك بقرار من المجلس.
(١٥) لا يجوز تفسير أي نص من نصوص هذا القانون بما يُفيد تخويل الحاكم في مجلسه سلطة لو كانت له وحده لجاءت مخالفة لنصوص اتِّفاق ١٩ يناير ١٨٩٩ أو لأي اتِّفاق معقود حتَّى الآن بين حكومتي مصر والسُّودان. ا.هـ.

ذلك هو نص القانون الصَّادر بإنشاء مجلس يساعد الحاكم العام.

اللُّورد كتشنر أوف خرطوم يفتتح كلية غوردون.

وهذه أسماء الأعضاء الأول في هذا المجلس عند بداية تأليفه: ونجت باشا رئيسًا، وسلاطين باشا المفتش العام، وإدجار بونهام كارتر السكرتير القضائي، والكولونيل سير رادجار برنارد السكرتير المالي، والكولونيل فيبس السكرتير الملكي — أعضاء قانونيون بمقتضى وظائفهم.

والكولونيل آسير الإدجوتانت جنرال وميجر ويلكنسون مدير الزراعة والغابات، وجيمس كيري مدير المعارف، وتوتنهام المفتش العام لري السُّودان. أعضاء إضافيون.

هوامش

(١) بناءً على اقتراح سير غورست المعتمد البريطاني في مصر في تقريره سنة ١٩٠٩.
(٢) راجع نص الأمر الصادر بتأليف مجلس الحاكم العام في آخر هذا الفصل.
(٣) راجع ما سبق من هذا الجزء.

الفصل الثامن

حوادث السُّودان بعد استعادته

بعد إتمام إعادة السُّودان، ظهرت في بعض جهاته فتنٌ محلية، قُمِعت وترتَّب على قمعها توطيد الحكم الحاضر في السُّودان. ونذكر من ذلك الحوادث التَّالية، مع العلم بأنَّ الحوادث على الحدود الحبشية تكاد لا تنقطع بسبب غارة بعض العصابات الحبشية على الحدود وخطف الأطفال والنساء وغيرهن والاتجار بهن كرقيق ولسلب الماشية:

- **في سنة ١٩٠٠:** نُفي علي عبد الكريم من أقارب المهدي مع أتباعه لادعائه انتهاء أعمال التَّكليف منذ واقعة أم درمان فلا صلاة ولا صوم … إلخ.
- **في سنة ١٩٠٣:** ظهر في برنو محمد الأمين، وادَّعى أنَّه المهدي، وظهر بالعصيان في مركز الجمع في شرقي الكردفان، وقد قبض عليه الكولونيل ماهول وقتله شنقًا بالأبيض.
- **في سنة ١٩٠٤:** ظهر شخص يُدعَى محمد ود آدم، وادَّعى في «سنجه» عاصمة مديرية الفونج أنَّه النبي عيسى، وقتل ضابط البوليس، ولكنَّه قتل في إبريل سنة ١٩٠٨.

ظهر عسر مالي ووقع حادث خطير — ذلك أنَّ عبد القادر محمد إمام ود حبوبة من قبيلة الحلويين ومن رجال المهدي السابقين قتل مستر إسكوت مونجريف المفتش الإنكليزي، وقتل أيضًا المأمور المصري في طوكر، وحرَّض الأهالي على الثورة. وقد أُرسلت إليه قوة فرَّقت رجاله وشُنِق في مايو سنة ١٩٠٨.

وقامت قبيلة من قبائل الدنكا «فرع جور في بلدة رومبيك» بمديرية بحر الغزال فقتل أفرادها مفتش المنطقة وبعص الجنود، فأرسلت إليهم الحكومة حملة بقيادة سير لي ستاك باشا فهزمتهم.

- **سنة ١٩٠٥ — نوبة جبل الداير:** هو تل جنوبي الأبيض، وقد انضمَّ سكانه إلى الدراويش، وقاوموا الحكومة المصريَّة القديمة. وبعد إعادة السُّودان رفضوا دفع الضرائب وأطلقوا النار على الجنود التي أرسلت إليهم لتحملهم على الدفع. وقد جرت سنة ١٩٠٥ معارك صغيرة بين العرب والنوبة.
- **سنة ١٩٠٦:** حدثت ثورة في تالودي، وقتل المأمور وضابط و٣٨ جنديًّا من الأورطة الثَّانية عشرة.

وكثُر غزو القرى السُّودانية على الحدود الحبشية، وقد دخلها الهليو مريام سنة ١٩٠٦ وقتل ١١٣ من الأهالي وخطف النساء والأطفال عند غزوته، وقُتل هيلو وأعيد الأسرى.

- **سنة ١٩٠٧ على حدود الكونجو البلجيكية:** انسحب حراس الكونجو البلجيكية من مواقعها في الجنوب الغربي لبحر الغزال.
- **سنة ١٩٠٨:** لم تكن نياما في غربي دلنج قد خضعت للحكومة؛ بل أبت أن تعترف بها وأن تسلِّم الأسرى. فأُرسلت إليها كتيبة في أكتوبر سنة ١٩٠٨، وأخضعت جبل نياما.

قام «عبد القادر ود حبوبة» من قبيلة الحلويين ومن أتباع المهدي — في مركز المسلمية على النِّيل الأزرق — وقتل مستر «سكوت مونجريف» المفتش الإنكليزي والمأمور محمد شريف أفندي، فأرسلت الحكومة قوة إلى الثوار، وعند وصولها هجموا على معسكرها، وحدثت موقعة قتل فيها ضابطان إنكليزيان وثلاثة ضباط مصريين و٣٥ جنديًّا مصريًّا، وقتل من الثوار ١٢٠، وفر قائدهم وأسر بعد أيام. وكان الفضل في كسب هذه الموقعة إلى المرحوم اللواء حسن توفيق بدر باشا كبير الياوران وإلى ضابط مصري اسمه زادة أفندي، انتحر بعد سنوات.

- **في سنة ١٩٠٩ احتلال واداي:** احتلَّ الفرنسيون مملكة وطنية كانت تحكم «واداي»، وتقع في غرب دارفور. وقد صححت الحدود بين «دارفور» و«واداي» بعد خلاف طويل، ولكنهم اعترفوا بأن دارفور جزء من السُّودان الإنكليزي المصري.
- **في سنة ١٩١٠:** استولت الحكومة السُّودانية بمقتضى اتِّفاقيَّة سنة ١٩٠٦ مع بلجيكا على ١٧ ألف ميل مربع من «اللادو».

وظهر في السنة نفسها النَّجم المذنَّب المسمَّى «هالي» في السماء. فأثار ظهوره الخرافات في جوارسنار. وأراد بعض التعايشة ونفر من القبائل الغربية الذين كانوا مقيمين حول رمش وفلاتة الشيخ طلحة، إثارة القلاقل. ولكن حركتهم قمعت في مهدها.

احتلَّ الفرنسيون دارسولا. وأما دار مساليت فقد احتفظت باستقلالها وهاجمت الفرنسيين سنة ١٩١٠، كما احتلَّ علي بن دينار دارتامه.

- **سنة ١٩١١:** قبض على الملك جديل الذي هرب إلى الداير.

  احتلت الجنود كربحوبحيت وحيبان.
- **سنة ١٩١٢:** ظهر في مركز تقلى من شرقي كردفان أحد دعاة المَهديَّة السابقين ومن أنصار ود حبوبة في فتنة سنة ١٩٠٨، وادعى أنه النبي عيسى. فأرسلت إليه قوة هزمته وقتلته.
- **النوير والدنكا والأنواك:** أرسلت في سني ١٩٠٢ و١٩٠٧و ١٩١١ و١٩١٢ و١٩١٣ كتائب لاحتلال بعض البلاد التي تسكنها قبائل الزنوج من النوير والدنكا والأنواك. وقد أخضعت البلاد وطرد المشاغبون، ومنهم السُّلطان يانبيو في أزند جنوبي بحر الغزال.
- **تجريدة البير:** جاء في تقرير اللُّورد كتشنر سنة ١٩١٢، أنه كان الغرض من هذه التجريدة تأديب قبيلة البير؛ لأنَّها أغارت على قبائل الدنكة، وتمكين الحكومة من إنشاء إدارة مدنيَّة فعَّالة في بلاد البير. فقاست التجريدة مشاق شديدة من قلَّة الماء والحبوب ومحاربتها للأعداء في بلاد مجهولة عندها. ولكنَّها فازت في قتالهم بقيادة الماجور دريك من الطوبجية الملكية، واضطرتهم إلى فتح باب المفاوضة في الصلح.
- **تجريدة الأنواك:** أرسلت هذه التجريدة للغرضين التَّاليين:

(١) توقيف تجارة السلاح والذخيرة، وتأديب الأنواك على غزوهم بلاد النوير أخيرًا.

(٢) الاستعلام عن أحوال تلك الجهات القبلية قصدَ تحديد حدودها في المستقبل، وكانت القوة التي اشتبكت بالقتال مؤلَّفة من ١١ ضابطًا إنكليزيًّا و٢١ ضابط مصريًّا و٤٠٧ من العساكر بقيادة الماجور لفيسون من أورطة الهوسار الثامنة عشرة.

ففي ٤ مارس زحفت من أكويو قاصدة أودنجو، وفي ١٥ منه التقت بقوة عظيمة شاكية السلاح من العدو، وقاتلتها قتالًا شديدًا في أجمة كثيفة، فهجم الأنواك عليها بجرأة عظيمة، ولكنهم انكسروا وولُّوا الأدبار بعد قتال شديد، واستحوذت القوة على أدنجو والقرى المحيطة بها. ومن الأسف أنَّ هذا الانتصار اقترن بخسارة غير قليلة؛ فقد قتل في المعركة ضابطان بريطانيان و٣ ضباط مصريون و٤٣ من صف الضبَّاط والأنفار. وجرح ضابط مصري و١١ من صف الضبَّاط والأنفار. ولكن القوة كلها أبدت ما لا مزيد عليه من البسالة وحسن النِّظام مع كثرة ما قاست من العطش الأليم والمشقَّات العظيمة والقتال الشديد.

هذا وإنه … إلخ.

الإمضاء: كتشنر

(١) احتلال دارفور

بعد واقعة أم درمان توجَّه علي دينار إلى الفاشر، وجلس على عرش أسلافه بصفته سلطانًا على دارفور، وكان يدفع جزية صغيرة، ويرسل هدايا مع بعثة خاصة يوفدها من قبله إلى الخرطوم سنويًّا، وكان يقبل هدايا من آلات الموسيقى والبنادق.

وفي السنين الخمس الأولى بعد إعادة السُّودان كان السُّلطان علي بن دينار يتبادل الكتب الودِّية مع سلاطين باشا المفتش العام للسُّودان يومئذ. على أنَّه لم يكن يُعير ملاحظات الحكومة التفاتًا. وقد تبيَّن أنَّه لا يسمح لأي موظف من قبل الحكومة بالدخول في بلاده، وأنَّ أي أوروبي يجرؤ على دخولها فإنَّ عودته لا تكون مؤكَّدة. وتبلغ مساحة دارفور ١٤٠ ألف ميل مربع، وقد دانت هذه المساحة لحكمه ما عدا البقارة في الجنوب الشرقي.

وقد أقام ابن دينار إدارة حكومية وفرض الضرائب، وكان له جيش من زنوج الفرتيت المنظمين والمسلمين، وكانت أكثر أسلحتهم فرنسية حصلوا عليها من طريق الصحراء الشمالية. وكل بندقية حفر عليها اسم السُّلطان ولقبه.

وكان يستخدم جواسيس كثيرين[١] أكفاء، وكان لا يثق بأحد، وكان يقمع كلّ حركة يشتبه فيها في الحال وبقسوة. وكان كبار موظفي حكومته من المماليك أو من الفور

أعضاء البيت الملكي، وكانوا مخلصين له وأكفاء وأمناء. ولم يكن السُّلطان متعصبًا دينيًّا، وهو مسلم طبعًا. ولم يقبل رغبة السنوسي في إنشاء زوايا في دارفور، وكانت سراريه كثيرات، وكانت إرادته كلّ شيء، وكان مهيبًا مطاعًا. وقد قتل في سنة ١٩١٦ الأمير عرابي دفع الله الذين سلم إليه وخضع له في سنة ١٩٠٢، وكان قتله بسبب الاشتباه في أنَّه حاول الاتِّصال بالحكومة السُّودانية. وكان حول دارفور في الحد الغربي دويلات المساليت وسولا وتامه يحكمها سلاطين، ولكنَّها كانت تخضع لدارفور ووداي إذا وجهت إليها قوات منهما.

في سنة ١٩٠٩ احتلَّ الفرنسيون واداي، ولكنهم اعترفوا بأن دارفور جزء من السُّودان الإنكليزي المصري. على أن الحدود كانت مبهمة بين واداي ودارفور.

احتلَّ الفرنسيون دارسولا. وأما دار مساليت فقد احتفظت باستقلالها، وهاجمت الفرنسيين سنة ١٩١٠.

كان علي بن دينار يحقد على الفرنسيين الذين أصبحوا مجاورين له في واداي.

ولما أُعلنت الحرب الكبرى وانضمَّ الإنكليز إلى الفرنسيين كحلفاء، أصبح الإنكليز في نظره خصومًا أكبر.

وقد اتَّصل كلٌّ من أنور باشا وأخيه نوري باشا في سنة ١٩١٥ بالسلطان علي بن دينار، وحرَّضه نوري باشا الذي كان يقود جيش السُّنوسي على الثَّورة على الإنكليز والحلفاء والانضمام إلى الخليفة في إستانبول. وطمع ابن دينار في أن يكون ملكًا على السُّودان، وأن يبدأ باحتلال كردفان.

وقد شعرت الحكومة السُّودانية باستعداد ابن دينار. ووجَّهت إليه حملة بقيادة الليفتنانت كولونيل كيلي، وعددها يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف مقاتل من الجنود السُّودانية المشاة والهجَّانة والعرب والسُّود والطوبجية المصريَّة وبعض رجال المدفعية الإنكليز ومعهم أربعة مدافع مكسيم. وسارت الحملة إلى الفاشر التي تبعد عن الأبيض بمقدار ٤٠٠ ميل. وقد ترك السُّلطان الحملة حتَّى دخلت حدود دارفور، وتمادت حتَّى بلغت حدود الفاشر. وقد تبيَّن أنَّ السُّلطان ومعه ألوف من المقاتلين فكروا في السير إلى جبل مرة. وفي ٦ نوفمبر سنة ١٩١٦ التقى الميجر هاردستون ببعض رجال علي بن دينار: وقد تبيَّن أنَّ أكثر رجاله قد هجروه فانضمَّ بعضهم إلى الحكومة السُّودانية والبعض الآخر دخل الكونجو الفرنسية. أمَّا فلول جيشه فقد هجمت عليهم كتيبة من الحملة بغتةً ليلًا، وأصابت علي بن دينار برصاصة قتلته في الجنوب الغربي لجبل مرة.

واستولت الحكومة على دارفور وأنشأت بها إدارة وبوليس.

وكانت الحدود بين دارفور ووادي محل مفاوضات في باريس. وعقد اتِّفاق في ٨ سبتمبر سنة ١٩١٩ بمقتضاه تُركت دار تامه ودارسولا للفرنسيين، ودار مساليت ودار قمر للإنكليز.

وفي سبتمبر سنة ١٩٢١: قامت ثورة في مركز نيالا جنوبي دارفور، حيث قام فقيه يدعى عبد الله السحيني ادعى أنَّه النبي عيسى، وأثار حربًا دينية، وكان معه الألوف المسلحة. وأرسلت إليه حملة من الفاشر، ومات المفتش ماك نيل وشاون ومعهما أربعة كتبة.

أسر الأمير محمود بن أحمد وهو بلباس المَهديَّة.

وقد تمكَّن الضابط السُّوداني بلال رزق ومن بقي معه من الجنود الخمسين من إعادة احتلال مكاتب الحكومة. وقد شُنق الفقيه الدَّعي في ٣ أكتوبر سنة ١٩٢١.

(٢) أعمال البناء

بُني كوبري على الأتبرة وفتح في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٩، ومدَّت السكة الحديدية إلى الخرطوم، وتمَّت في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٩. وكانت الفكرة يومئذ مدَّ السكة الحديدية بين حلفا وأصوان.

(٣) الرتب والنياشين

منحت الحكومة الإنكليزيَّة كتشنر باشا لقب لورد، ويُسمى اللُّورد كتشنر أوف خرطوم، ومنحت الكولونيل ونجت مدير المخابرات العام نيشان القديسين ميخائيل وجورج مع لقب سير. ومنحه الخديوي رتبة اللواء، وعين آدجو تانت جنرالًا في الجيش المصري في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٨.

هوامش

(١) راجع «السودان الإنكليزي المصري» (ماكميكل.)

الفصل التاسع

نظام الحكم في السُّودان والإدارة الوطنية

نظام الحكم في السُّودان يقوم على أساس اتِّفاق ١٨٩٩، وقد تطور بالحوادث التَّالية له، واطِّراد تفوق النفوذ الإنكليزي، وبإنشاء مجلس الحاكم العام سنة ١٩١٠ والقوانين والمنشورات الكثيرة التي صدرت منظمة لقضائه وماليته وإدارته وتعليمه وحفظ الأمن فيه، والحكم في السُّودان هو نوع من الحكم المطلق؛ لأنَّه لا يوجد برلمان أو مجالس شورية.

وقد قلنا إنَّ سياسة الإنكليز في حكم البلاد الخاضعة لهم ترمي إلى إقامة حكومات وطنية في صورة من الصور، على أن تكون خاضعة لهم. وقد رأينا أنَّ أهم ما يتَّجه إليه ولاة الأمور الإنكليز في السُّودان تحقيق فكرة الإدارة الوطنية، وهي تجربة حكم بعض بلاد السُّودان بنظَّار القبائل والأعيان، بأن يعطوا سلطة قضائية، وبذلك تقل نفقات الحكم ويخفُّ العبء عن الحكومة المركزية في الخرطوم.

وقد أسهب السير هارولد ماكمايكل السكرتير الإداري السَّابق لحكومة السُّودان في شرح «هذه الإدارة الوطنية» في كتابه «السودان الإنكليزي المصري».

ومجلس الحاكم العام يُشبه على نوع ما مجلس الوزراء، والحاكم العام مرءوس للمندوب السَّامي البريطاني في القاهرة، الذي يحمل لقب «المندوب السَّامي في مصر والسُّودان». وفي السُّودان محاكم مدنيَّة وجنائية وشرعية وأهلية.

(١) القضاء في السُّودان في الفتح المصري الأول

كان اختصاص القاضي الشرعي عند الفتح الأول للحكومة المصريَّة للسُّودان يشمل جميع القضايا من المعاملات وأحكام الدماء والدِّيات والأحوال الشَّخصيَّة، وكانت هذه الأحكام تستأنف إلى مجلس يسمَّى مجلس الأحكام بمصر ثمَّ قصر اختصاص القاضي الشرعي على النَّظر في الأحوال الشَّخصيَّة في مذهب الإمام أبي حنيفة، وأنشئ مجلس يسمَّى المجلس المحلي للنظر في الخصومات المتعلقة بالمعاملات، وكانت أحكام هذا المجلس تُستأنف لدى مجلس يسمَّى مجلس استئناف السُّودان، ويتألف من رئيس وأعضاء هم قاضي عموم السُّودان ومفتيان أحدهما مالكي والثاني حنفي، وأعضاء من الأعيان. وقد كان من أعضائه في عهد غوردون باشا أبو بكر الجركوك وإدريس بيك النور.

وقرارات هذا المجلس غالبًا تنتهي بها الخصومات غير أنه إذا لم يقبل أحد الخصمين حكمه فله أن يرفع تظلمه إلى مجلس الأحكام بمصر وحكمه أو قراره نهائي. وكانت أحكام الدماء لا تُقرَّر إلَّا بعد تصديق من سعادة حكمدار عموم السُّودان، ومثلها قضايا المنازعات التي يخشى أن تؤدي إلى فتنة تخلُّ بالأمن العام. وأنشئت محاكم شرعية عديدة في المراكز ومقار المديريات: في كلّ محكمة قاضٍ. وأكثر هؤلاء القضاة من أهالي السُّودان، وبعضهم كان يختار من مصر، وسواء أكان القاضي مصريًّا أم سودانيًّا، فقد كان يختاره قاضي عموم السُّودان ويعيِّنه سعادة حكمدار عموم السُّودان. كما كان لكل مديرية مُفتٍ. أمّا قاضي عموم السُّودان ومفتي مجلس استئناف السُّودان وشيخ العلماء فكانوا يعينون بأمر خديوي مصر.

وعند سقوط الخرطوم في قبضة محمد أحمد المهدي في ٩ ربيع الثَّاني سنة ١٣٠٢ و٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ كان قاضي عموم السُّودان هو الشيخ محمد خوجلي حتيك من أهالي بري ضاحية من ضواحي الخرطوم، تلقى علومه في الأزهر الشريف، وقتله الدراويش في واقعة فتح الخرطوم. وكان مفتي مجلس استئناف السُّودان الشيخ شاكر الغزي، وقد قتله الدراويش أيضًا في واقعة فتح الخرطوم. أما شيخ العلماء وقتئذ فكان الفكي الأمين الضرير من أهالي جزيرة توتي، وهي جزيرة مقابلة لمدينة الخرطوم، وقد مات في أوائل حكومة المَهديَّة، ولقِّب بالضرير لأنَّه ولد أكمه.

(٢) القضاء في حكومة المهدي أو الدراويش

كان القضاء في هذه الدولة لبداوتها بعيدًا عن النِّظام والضبط. فالدفتر الذي كانت تُسجَّل فيه القرارات والأحكام في حكم المصريين للسُّودان أصبح لا يوجد إلَّا في بعض المحاكم، وأصبح القضاة في خارج أم درمان ينظرون القضايا بغير ضبط لأقوال الخصوم ولا دفاتر تسجل فيها الأحكام، بل يفصلون فيها شفويًّا وأحيانًا يعطون للمحكوم لهم كتابًا يدوَّن به الحكم ليكون مستنده في الحق الذي حكم به، وكانت الأحكام تنفَّذ فور صدورها شفويًّا.

وقد اتسعت سلطة القاضي في هذه الدولة فأصبح يفصل في القضايا التي تعرض عليه أيًّا كان موضوعها، إلَّا أنَّ القضاء نفسه قد انحطَّ بعد وفاة المهدي ولم يراعَ في الأحكام الحق والعدل والمطابقة للحكم الشرعي بل أصبحت إشارة أو كلمة تصدر من خليفة المهدي في أم درمان أو من الأمراء المرافقين للقضاة في خارجها واجبة الاتِّباع لا يصدر الحكم على خلافها، وإلَّا فإنَّ القاضي لا يأمن على نفسه فضلًا عن البقاء في منصبه. وفيما عدا ذلك كانت الأحكام يُراعى فيها مذهب الإمام مالك أو ما نُصَّ عليه في منشور من منشورات المهدي.

ولقد غيَّر المهدي لقب أكبر قاضٍ في الدولة. فبعد أن كان يُسمَّى بقاضي عموم السُّودان لقَّبه بقاضي الإسلام، وأسند هذا المنصب إلى الشيخ أحمد ولد جبارة من علماء الأزهر، وكان قد صحبه من جزيرة أبا إلى قدير، وجعل المهدي دونه قضاةً ونوابًا كثيرين، وهو أول من سُمِّي بقاضي الإسلام. ولما قُتل في واقعة الأبيض تولَّى القضاء بعده ولد حلاب أحد فقهاء النِّيل الأبيض ومات في حصار الأبيض فخلفه القاضي أحمد علي من فقهاء بني هلبه، فلم يكن شأنه في زمن المهدي كبيرًا؛ لأنَّ المهدي أقام النواب للفصل في القضايا الشرعية والأمناء للفصل في القضايا السياسية. فلمَّا مات المهدي وخلفه في الحكم عبد الله التَّعايشي عزل الأمناء ثمَّ النواب وجعل المحكمة واحدة برئاسة القاضي أحمد، وكان من أعظم المقربين عنده لاتباعه هواه ثمَّ نكَّبه في آخر الأمر فجرَّده من جميع أمواله وزجَّه في السجن حتَّى مات جوعًا سنة ١٨٩٤، وبعده تولى قضاء الإسلام سليمان الحجاز من تجار بربر المتفقهين، فلم يمكث فيه إلَّا مدة قصيرة ثمَّ خلفه الشيخ الحسين ولد الزهراء، وهو من قرية تدعى أم عظام في ضواحي المسلمية ومن متخرجي الأزهر المتفوقين ومن الشعراء النابغين، وكان قبل أن يتولى القضاء من عداد العلماء الذين عهد إليهم الخليفة بتدريس علم الميراث في مسجد أم درمان، ولَمَّا تولى القضاء وقف عند

حدِّ الشرع وقضى بعدة مسائل على خلاف ما أراد التَّعايشي فاغتاظ منه وحبسه وكبَّله بالحديد، ومنع عنه الطعام والماء إلى أن مات صبرًا سنة ١٨٩٥، وخلفه في منصب قاضي الإسلام أم بدى البقاري ثمَّ الشيخ النذير خالد، فبقي إلى فتح أم درمان سنة ١٨٩٨، وكان مدرسًا في المعهد العلمي، وتوفي سنة ١٩٣٠. وكانت دار المحكمة الشرعية في أم درمان في هذه الدولة قريبًا من منزل الخليفة المجاور للمسجد الجامع في مكان يسمَّى الككر تجتمع فيها القضاة ورئيسهم قاضي الإسلام، وكل منهم ينظر فيما يقدم إليه من القضايا، ويستشير أصحابه فيما يحكم به إذا خفي عليه وجه الحكم، وكان لا يصدر الحكم في القضايا الكبرى إلَّا بعد أن يعرض على قاضي الإسلام ثمَّ على الخليفة. وكان القضاء يتبع الإمارات، فكل أمير لناحية من النواحي البعيدة عن أم درمان كان يعين معه قاضٍ لهذه الناحية يعتمد على الأمير في أحكامه، ولقد كثرت الرشوة في قضاة هذه الدولة إلَّا من عصمه الله. وأعظم قضاة هذه الدولة هو الشيخ محمد البدوي قاضي إمارة الجعليين الذي لم يطق تدخل الأمير الزاكي أبو فرار في أحكامه فخاصمه إلى الخليفة، وكان ذلك سببًا في اعتزاله القضاء، وكان الشيخ محمد البدري المذكور من أكابر العلماء علمًا ودينًا وورعًا، تلقى علومه في الأزهر الشريف، وهو أول من تولى مشيخة العلماء في الدولة الحالية إلى أن توفي سنة ١٩١١. ولنختم هذا الكلام بصورة حكم من أحكام ذلك العهد، وسببه أنَّ الخليفة محمد شريف حامد خليفة الكرار، أي الخليفة الرابع، غضب من الخليفة التَّعايشي، وامتنع عن صلاة الجمعة معه لقتله بعض أقاربه. فأمر الخليفة القضاة أن يقضوا فيه بما يكون زاجرًا له وعبرة لغيره، وقد وقع على هذا الحكم ستة وأربعون رجلًا من أكابر دولة التَّعايشي وأهل شوراه، منهم قاضي الإسلام أحمد علي، وهذا نص الحكم:

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لمن جعل الاستقامة طريقًا للسلامة، وشكرًا لمن وفَّق ذوي البصائر إلى الوقوف على قدم الصدق فصاروا من أهل الكرامة، وخص أهل عنايته بأنوار هدايته فاستسلموا لقضائه، واستراحوا من الوقوع في هاوية النَّدامة، وحضَّ على طاعة أولي الأمر بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ لانتظام الحال والسلامة في يوم القيامة، وصلاةً وسلامًا على قطب دائرة الأصل النوراني ومنبع النَّبض الرَّحماني وأشرف النّوع الإنساني ومعدن السرِّ الرباني؛ سيدنا محمد الذي قصم بسيف الحق ظهر

الخلاف، ومكَّن حسام الشرع من رقاب أهل الانحراف، وعلى آله وأصحابه الذين قوي في الله يقينهم فآمنوا بالغيب فانكشفت غياهب الشك عن بصائرهم فازدادوا إيمانًا وتمكَّن دينهم.

وبعد، فإنَّ الخليفة محمد شريف حامد قد بارز خليفة المهدي عليه السلام بالعداوة والعصيان والخلاف حتَّى تظاهر بالحرابة له، وشهر السلاح عليه، ولم يألُ بإدخال الخلل في الدين وشقِّ عصا المسلمين. فبعد هذا كله اجتمع جماعة المسلمين، وأحضروه بين أيديهم، وحلَّفوه على كتاب الله تعالى فحلَف وعاهد على ألَّا يعود إلى مثل ما صدر منه، ثمَّ جاء خليفة المهدي عليه السلام نادمًا على شنيع فعله فقبله مع ما ارتكبه من عظيم الذنب والخطيئة... وعفا عنه وقابله بالصَّفح والإكرام. ثمَّ نقض العهد وعاد إلى الخلاف وإضمار السوء والإصرار على عدم الامتثال، فضلًا عن كونه تاركًا الجمعة والجماعة. فعند ذلك اجتمع أصحاب المهدي عليه السلام من قضاة الشرع الشريف وأمراء وعُمد وأعيان وسألوه عن ذلك، فقابلهم بأقبح المقال، وتفوَّه بما يؤدي إلى سوء الحال، حتَّى قال: إنَّ الغوث معه وفي حزبه وإنّ نصرة المَهديَّة تحت قدمه، وإنَّ الصحابة اعترضوا على النبي ﷺ، وغير ذلك من سوء المقال. وما زالوا يراجعونه بالقول اللَّين الحسن، وتلوا عليه منشور المهدي عليه السلام في خليفته والمنشور الذي وجَّهه إليه خاصة أوامره فيه باتباع خليفته وعدم خروجه عن أوامره فعند ذلك أظهر التوبة والندم؛ فنظرًا لما حصل منه من نقض العهد وعدم استمراره على التوبة السَّابقة اقتضى نظر أصحاب المهدي عليه السلام طبق الوجه الشرعي وضعه بالسجن تأديبًا له، ولولا إظهاره التوبة عمَّا حصل منه لكان جزاؤه أعظم من السجن، وقد ثبت جميع ذلك لدى أصحاب المهدي عليه السلام الآتي ذكر أسمائهم وأختامهم فيه أدناه، وجميعهم شهدوا عليه شهادة حق يؤدونها بين يدي أحكم الحاكمين والسلام.

سنة ١٣٠٩هـ

(٣) القضاء الشرعي في الحكومة الحاضرة

يختلف القضاء في هذا العهد عن سابقيه بالنظام التَّام وبالدِّقة في تحرِّي الصَّواب في الأحكام وإزالة الخطأ، متى عُلم سواء طعن في الحكم أم لم يطعن فإن طعن فيه من أحد الخصوم وظهر خطؤه ألغي وأعيدت القضية لمحكمتها للفصل فيها بالطريق الشرعي، وإن كانت القضية صالحة للحكم حكم فيها بما يقتضيه المنهج الشرعي، وإن لم يطعن أحد الخصوم وتبيَّن الخطأ أُلغي الحكم إداريًّا. كما يختلف العنوان الذي يسمَّى به أكبر قاضٍ في هذه الدولة عمَّا كان من قبل إذ عهدنا فيما سبق أنَّه كان يسمى في المَهديَّة بقاضي الإسلام وفي الحكومة السَّابقة عليها بقاضي العموم. أمَّا في هذه الحكومة فيُسمى بقاضي القضاة، وأول قاضٍ للقضاة هو صاحب الفضيلة الشيخ محمد شاكر، وقد عيِّن في ٢٨ مارس سنة ١٩٠٠ فعمل جهده في وضع أسس القضاء، واعتمد على اللوائح المعمول بها في مصر في ذلك العهد، فوضع في سنة ١٩٠٣ ثلاث لوائح.

الأولى: لائحة تضمُّ ترتيب المحاكم الشرعية مؤلَّفة من خمسين مادة بها، شروط انتخاب الموظفين لهذه المحاكم، واختصاص لكل من المحكمة العليا وسلطة المحاكم المركزية ومحاكم المديريات والمحافظات، كما تتناول منصب قاضي القضاة، والتنازع في الاختصاص بين محكمة شرعية وأخرى مدنية والمراقبة القضائية.

والثانية: اللائحة النظامية للمحاكم، وهي مؤلَّفة من «١٢٤» مادة بيَّن بها طريق رفع الدعوى ونظام الجلسات والأدلة الخطِّية ومحاضر الجلسات والمعارضة والاستئناف والتَّمييز والوراثات والمستندات الرَّسمية وغيرها. والدفاتر المستعملة في المحاكم دفترًا دفترًا والتنفيذ.

الثالثة: لائحة الرسوم، وهي مؤلَّفة من عشرين مادة ومن جدول يوضِّح رسوم ٤٩ إشهادًا؛ ذُكِرَ في كلّ إشهاد المبلغ الذي يُؤخذ عليه الرسم، ومقدار الرسم النِّسبي، وأقل رسم يؤخذ، والمطلوب منه دفع الرسم كما وضح به رسوم الصور وغيرها ورسوم القضايا.

وقد أصدر كثيرًا من المنشورات والمذكرات القضائية لتوضيح سبل الحكم للقضاة. وعلى الجملة فقد حذا حذو القضاء المصري في ذلك العهد ولم يخالفه إلَّا في مسائل بسيطة قضت بها الحاجة أو الضرورة: منها أنَّ قاضي المديرية منفرد تستأنف لديه القضايا التي يفصل فيها قاضي المركز، والعمل في مصر في ذلك العهد على غير ذلك، فقد

فضيلة الشيخ محمد شاكر أول قاض للقضاة في السُّودان بعد استعادته وكان آخر منصب تولَّاه وكيل مشيخة الأزهر.

كانت أحكام قاضي المركز تستأنف لدى هيئة تتألَّف من قاضي المديرية والمفتي والنائب. والذي دعا لذلك — على ما أظن — الاقتصاد الذي قضى بعدم تعيين مفتٍ ونائبٍ في كلّ مديرية. ومنها جعل القضاء من ثلاث درجات: ابتدائي واستئنافي ودرجة تسمَّى التَّمييز. والقضاء في مصر من درجتين فقط. والسبب في ذلك على ما يظهر إشراف محكمة التمييز التي تتألَّف من قاضي القضاة ومفتي السُّودان وأحد المفتشين، حتَّى يمكنها وضع الحق في موضعه وتعليم القضاة فيما يخطئون فيه لقرب عهدهم بالقضاء، ولأنَّ الاستئناف ليس فيه الضمانات الكافية لِأَنْ ينظره قاضٍ واحدٍ كما قدَّمنا. ولمَّا نُقل الشيخ شاكر إلى مصر في ٢٦ إبريل سنة ١٩٠٤ خلفه في منصبه حضرة صاحب الفضيلة المرحوم

الشيخ محمد هارون، وبنقله لمصر أيضًا سنة ١٩٠٨م تولى هذا المنصب صاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي — وهو شيخ الجامع الأزهر حالًا — في أول أغسطس سنة ١٩٠٨م، وقد جاء في تقرير الفيكونت كتشنر عن السُّودان سنة ١٩١٢ تحت عنوان «المحاكم الشرعية» ما يلي:

> لا يزال الشيخ مصطفى المراغي قاضي قضاة السُّودان يتولى رئاسة المحاكم الشرعية بكمال الأهليَّة والمقدرة، وقد وضع حسب عادته تقريرًا سنويًّا مفيدًا، فالمحاكم الشرعية الآن تنتظم من محكمة عالية ومحكمة العموم و١١ محكمة مديرية و٣٤ محكمة مركز فيها ٤٨ قاضيًا و٨٢ كاتبًا ونحوه. وأكثر الذين

تمسّ الحاجة إلى استخدامهم يُؤتى بهم من مدرسة المعلِّمين في كلية غوردون، ويقول السكرتير القضائي في تقريره: إنَّ هؤلاء المستخدمين يبرهنون بسلوكهم وعملهم على أنَّ العناية التي بذلتها مصلحة المعارف في تعليمهم وتهذيبهم لم تذهب ضياعًا.

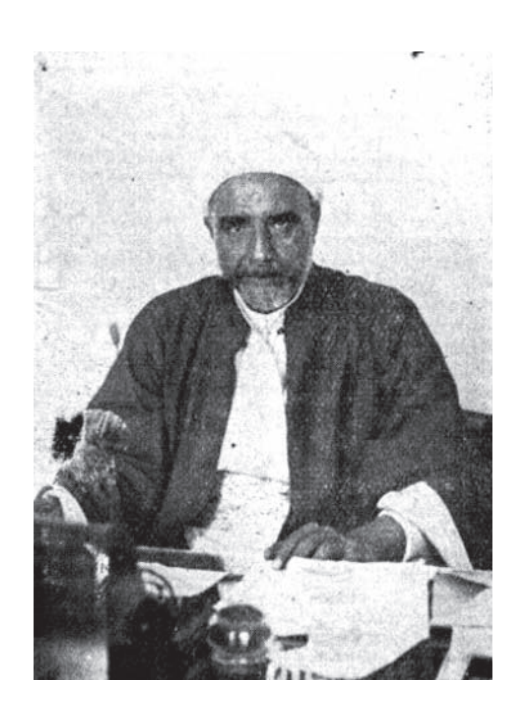

حضرة صاحب الفضيلة الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر حاليًّا وثالث قاضٍ لقضاة السُّودان.

كان فضيلة الشيخ المراغي قاضيًا لمديرية دنقلا في سنة ١٩٠٤. ثمَّ نُقل إلى مديرية الخرطوم في ديسمبر سنة ١٩٠٦. وفي سبتمبر سنة ١٩٠٧ وقع الاختيار على فضيلته ليكون رئيسًا لمفتشي الدروس الدينية بوزارة الأوقاف، ثمَّ عُيِّن قاضيًا للقضاة سنة ١٩٠٨، وظل يشغل منصب قاضي القضاة إلى شهر يوليو سنة ١٩١٩، حيث نُقل رئيسًا

للتفتيش القضائي الشرعي في وزارة الحقَّانية، ثمَّ عُيِّن رئيسًا لمحكمة مصر الابتدائية الشرعية، ثمَّ نائبًا في المحكمة العليا الشرعية، ثمَّ رئيسًا لهذه المحكمة، إلى أن ولي هذا المنصب الخطير مرتين.

وهو من عائلة عريقة في العلم والتقوى، وكان المرحوم والده من كبار علماء الصعيد.

وفي عهد فضيلة الشيخ المراغي أحدث كثيرًا من الإصلاح، فوضع في سنة ١٩١٢ لائحة جديدة للرسوم، ولائحة للمأذونين بيَّنت شروط تعيينهم وواجباتهم وتأديبهم على المخالفات التي تصدر منهم، كما استبدل في سنة ١٩١٥ لائحتي الترتيب والنظام السالف ذكرهما بلائحة واحدة أسماها لائحة ترتيب ونظام المحاكم أدخل فيها كثيرًا من الأنظمة، وما زال بها يصلح ما ظهر له وجه للإصلاح حتَّى نُقل لمصر في ٩ أكتوبر سنة ١٩١٩، فتولى بعده حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد أمين قراعة، وقد كان مفتشًا في السُّودان من نوفمبر سنة ١٩١٤، وفي عهده صدرت إصلاحات مفيدة ومنشورات وتعليمات اقتضاها الحال. ولمَّا نُقل في ٦ مايو سنة ١٩٣٢ تعيَّن بعده في هذا المنصب حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد نعمان الجارم، فأصدر كثيرًا من المنشورات القضائية والنظامية، وأدخل في عهده تعديلات على لائحة المأذونين ولائحة ترتيب ونظام المحاكم، واستبدلت لائحة الرسوم بلائحة أخرى وما زال به إلى الآن. على أنَّ الإصلاح في محاكم السُّودان من حيث اقتباس الأحكام المناسبة للعصر ممَّا لم يكن في مذهب أبي حنيفة سبقت فيه السُّودان مصر بزمن بعيد، إذ أساس القضاء فيه أن يكون الحكم بالأرجح من آراء فقهاء الحنفية، إلَّا في المسائل التي يصدر فيها قاضي القضاة منشورات أو مذكِّرات قضائية فإنَّه يعمل بما ينصُّ قاضي القضاة على العمل به من آراء فقهاء الحنفية أو غيرهم من أئمة المسلمين في التشريع. وعلى ذلك جرى العمل: فالطلاق لعسر النَّفقة أو للعيب، وطلاق زوجة المفقود إذا مضت مدة أربع سنين من حين رفع الأمر إلى القاضي ولم يعد الزوج ولم يظهر له خبر، والتفريق للشقاق والضرر بين الزوجين ممَّا لم يُؤخذ به في مصر إلَّا بالقانون نمرة ٢٥ سنة ١٩٢٠، والقانون ٢٥ سنة ١٩٢٩ قد شرع العمل بها والحكم على مقتضاها بمنشور أصدره قاضي القضاة سنة ١٩٠٢.

نعم إنَّ محاكم السُّودان لم تجرِ على القول بعدم وقوع طلاق السكران والمُكره، وعدم وقوع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه لا غير، وعلى القول بأنَّ الطلاق المقترن بعدد لفظًا أو إشارة لا يقع إلَّا واحدة، وعلى القول بأن كنايات الطلاق لا يقع بها الطلاق إلا بالنية، وأن كلّ طلاق يقع رجعيًّا إلَّا المكمل للثلاث، والطلاق

صاحب الفضيلة الشيخ محمد أمين قراعة.

قبل الدخول والطلاق على مال وغيره ممَّا جرى عليه العمل في مصر سنة ١٩٢٩ إلَّا في مارس سنة ١٩٣٥. وسبب تأخير هذا التَّشريع إلى هذا العهد الظن بأن الأفكار في السُّودان لم تكن مستعدة لهذا التَّشريع قبل هذا التاريخ.

ويجمل بنا أن نقول: إنَّ المحاكم الشرعية السُّودانية تتغذى الآن من خريجي القضاء الشرعي، وهو قسم من كلية غوردون يتخصص في العلوم الشرعية مدة خمس سنوات، ولا يُقبل في هذه المدرسة إلَّا بقدر حاجة المحاكم، ويخضعون في امتحانهم في العلوم الشرعية للجنة يعيِّنها قاضي القضاة أو من ينوب منابه. وعند تخرجهم يعيَّنون «عمالًا

فضيلة الشيخ محمد نعمان الجارم قاضي قضاة السُّودان حالًا.

قضائيين» في المحاكم يتمرَّنون على الأعمال القضائية مدة ثلاث سنوات، ومتى برهنوا في هذه المدة على كفاءة تامة أصدر قاضي القضاة أمرًا لقضاة المحاكم المعينين بها لندبهم للفصل في القضايا والوراثات التي هي من اختصاص قاضي المركز تمرينًا لهم على القضاء، حتَّى إذا ما أُسند إليهم القضاء في محكمة قاموا به على الوجه الأكمل، وأكبر رجال القضاء الشرعي الموجودين الآن ومن ثلاثة منهم تتكون المحكمة العليا الشرعية التي تستأنف لديها أحكام قضاة المديريات فيما هو من اختصاصهم، أو تتألَّف منهم محكمة التمييز التي تنظر في الأحكام التي تصدر من قضاة محاكم المديريات

بعد مدة الاستئناف أو الأحكام التي تصدر منهم، وهي من اختصاص قضاة المراكز في مدة الاستئناف إذا رغبوا عن الاستئناف لدى قضاة محاكم المديريات أو بعد مضي مدة الاستئناف هم أصحاب الفضيلة:

الشيخ محمد نعمان الجارم	قاضي قضاة السُّودان
الشيخ أحمد السيد الفيل	مفتي السُّودان ونائب قاضي القضاة*
الشيخ أبو شامه عبد المحمود	مفتش المحاكم الشرعية
الشيخ عمر عطية	مفتش المحاكم الشرعية

*كان مرشحا ليكون قاضي القضاة إذا وافقت الحكومة المصرية على عدم تعيين قاضٍ مصري فيها.

ونبيِّن فيما يلي صيغة المنشورات الشرعية:

منشور شرعي نمرة ٣٤

صادر في يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ١٣٥١ موافق ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٢

الحضانة

مادة ١: للقاضي أن يأذن بحضانة النساء للصغير بعد سبع سنين إلى البلوغ، وللصغيرة بعد تسع سنين إلى الدخول إذا تبيَّن أنَّ مصلحتها تقتضي ذلك. وللأب وسائر الأولياء تعهد المحضون عند الحاضنة وتأديبه وتعليمه.

مادة ٢: لا أجرة للحضانة بعد سبع سنين للصغير وبعد تسع للصغيرة.

مادة ٣: لو زوج الأب المحضونة قاصدًا بتزويجها إسقاط الحضانة فلا تسقط بالدخول حتَّى تطيق.

مادة ٤: على القضاة الحكم بما نص عليه في هذا المنشور من تاريخ صدوره.

قاضي قضاة السُّودان: محمد نعمان الجارم

حاشية

مذهب الإمام مالك في الحضانة أنَّ حضانة النساء للصغير تكون إلى البلوغ وللصغيرة تكون إلى الزفاف. وعادات السُّودان أنَّ البنت تكون مع أمها حتَّى إذا تزوجت يسكن الزوج معها في أول الزواج في بيتها ولا ينقلها منه. وقد روعي في المنشور مذهب الإمام مالك إذا كانت ثمَّت مصلحة للصغير في بقائه مع الحاضنة، كما رُوعي مذهب أبي حنيفة إذا كانت المصلحة في بقاء الصغير مع الأب أو غيره ممَّن لهم حق الحضانة.

منشور شرعي نمرة (٤١)

صدر من محكمة عموم السُّودان الشرعية في يوم الاثنين ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٥٣ الموافق ٢٥ مارس سنة ١٩٣٥م.

القواعد الآتية بعد موافقة جناب السكرتير القضائي لحكومة السُّودان للعمل بها في المحاكم الشرعية:

الطلاق

(١) لا يقع طلاق السَّكران والمُكره.

(٢) لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به العمل على فعل شيء أو تركه لا غير.

(٣) الطلاق المقترن بعدد لفظًا أو إشارةً لا يقع إلَّا واحدة رجعية.

(٤) كنايات الطلاق في مذهب الحنفية، وهي ما تحتمل الطلاق وغيره لا يقع بها الطلاق إلَّا بالنِّية.

(٥) كلّ طلاق يقع رجعيًّا إلَّا المكمِّل للثلاث، والطلاق قبل الدخول، والطلاق على مال، وما نصَّ على كونه بائنًا في منشور قبل ذلك. أمَّا التَّفريق بالطلاق بسبب اللعان أو العنة أو إباء الزوج عن الإسلام عند إسلام زوجته، فالحكم فيه على مذهب أبي حنيفة.

النَّفقة والعِدَّة

(٦) تُقدَّر نفقة الزوجة على زوجها بحسب حال الزوج يسرًا وعسرًا مهما كانت حالة الزوجة.

(٧) لا تُسمع عند الإنكار دعوى الإرث بسبب الزوجة المطلَّقة توفي زوجها بعد سنة من تاريخ الطلاق.

دعوى النسب

(٨) لا تُسمع عند الإنكار دعوى النَّسب لولد زوجة ثبت عدم التَّلاقي بينها وبين زوجها من حين العقد. ولا لولد زوجة أتت بعد سنة من غيبة الزوج عنها ولا لولد المطلقة والمتوفى عنها زوجها إذا أتت به لأكثر من سنة من وقت الطلاق والوفاة.

(٩) المراد بالسنة في المادتين ٧ و٨ هي السنة التي عدد أيامها «٣٦٥» يومًا.

المهر

(١٠) إذا اختلف الزوجان في مقدار المهر فالبيِّنة على الزوجة. فإن عجزت كان القول للزوج بيمينه إلَّا إذا ادَّعى ما لا يصحُّ أن يكون مهرًا لمثلها عُرفًا، فيحكم بمهر المثل، وكذلك الحكم عند الاختلاف بين أحد الزوجين وورثة الآخر أو بين ورثتيهما.

الهبة

(١١) لا يشترط أن يكون قبض الهبة بإذن الواهب فللموهوب له أن يحوز الموهوب من واهبه بإذنه أو بغير إذنه.

(١٢) تبطل الهبة إذا تأخَّر حوزها حتَّى أحاط الدَّين بمال الواهب، ولو كان الدَّين حادثًا بعد الهِبة.

(١٣) إذا جنَّ الواهب أو مرض قبل الحوز، فالهبة موقوفة؛ فإنَّ صحَّ من مرضه أو أفاق من جنونه إفاقةً بيِّنةً فلا تبطل الهبة وله للموهوب الحوز حال الصحة والإفاقة. أمَّا إذا اتَّصل المرض والجنون بالموت بطلت الهبة.

(١٤) هبة أحد الزوجين للآخر وهبة الأم لابنها الصغير متاعًا من متاع البيت أو الحيوان تصحُّ، إذا أشهد الواهب على الهبة ولو لم يرفع يده عن الموهوب لأنَّ هذه الهبة لا تحتاج لحيازة. فمتى أشهد الواهب على الهبة وحصل المانع وهي في حوزه فلا يضر.

(١٥) تزيين الأب أو الأم ولده ذكرًا أو أنثى صغيرًا أو كبيرًا بتعلية أو إلباس ثياب فاخرة أو باشتراء دابة له يركبها أو اشتراء كتب يحضر فيها أو سلاح يحترس أو يتزين به يكون هبة يختص بها دون الورثة إلَّا إذا أشهد أنَّه على وجه الإمتاع؛ لأنَّ التَّحلية قرينة على التَّمليك.

(١٦) يستعمل بهذه الأحكام من تاريخ صدورها وفي الحوادث السَّابقة عليه إلَّا إذا اتَّصل بها القضاء.

قاضي قضاة السُّودان: محمد نعمان الجارم

(٤) أوامر عالية ومراسيم بتعيين الحاكم العام

أمر عالي خديوي — نحن خديوي مصر:

بناءً على البند الثالث من الوفاق المعقود بين حكومة جلالة ملكة الإنكليز وحكومتنا.

أمرنا بما هو آتٍ

عيَّن الفريق لورد كتشنر أوف خرطوم وأسبال باشا سردار الجيش المصري حاكمًا عامًّا للسُّودان.

صدر بسراي القبة في ٧ رمضان سنة ١٣١٦ / ١٩ يناير ١٨٩٩.

نشر بالغازيتة السُّودانية الصادرة في ٧ مارس سنة ١٨٩٩.

عباس حلمي

أمر عالٍ خديوي

نحن خديوي مصر

بناءً على البند الثالث من الاتِّفاق الذي عقد بين حكومة جلالة ملكة بريطانية العُظمى وحكومتنا في تاريخه ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ بالقاهرة.

أمرنا بما هو آتٍ

قد تعين سعادتلو أفندم الفريق السير رجينلد ونجت باشا الحائز على نيشاني ميخائيل وجورج والحمام العلي الشأن ونيشان الامتياز وياور جلالة الملكة وسردار الجيش المصري حاكمًا عامًّا للسُّودان عوضًا عن سعادتلو أفندم الفريق اللُّورد كتشنر أوف خرطوم وأسبال باشا الحائز نيشاني الحمام وميخائيل وجورج العالي الشأن الذي استُعفي من هذه الوظيفة.

صدر في سراي عابدين العامرة بتاريخ ٢٠ شعبان سنة ١٣١٧ الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٩.

«نشر بالغازيتة السُّودانية رقم ٨ في ٢ يناير سنة ١٩٠٠.»

الإمضاء: عباس حلمي

تعيين

بناءً على المادة الثالثة من الاتِّفاق المعمول به بين حكومة بريطانيا العُظمى والحكومة المصريَّة بتاريخ ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ الخاص بإدارة السُّودان في المستقبل؛ قد تعيَّن بناءً على توصية حكومة صاحب الجلالة البريطانية السر جورج ستيوارت سايمز حاكمًا عامًّا للسُّودان خلفًا للسر جون لورد مفي، وذلك بمقتضى الدكريتو الصَّادر من جلالة الملك فؤاد الأول بتاريخ ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٣.

«غازيتة الحكومة السُّودانية في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٣»

تعيين شرعي[1]

تعطَّف صاحب المعالي الحاكم العام بتعيين صاحب الفضيلة الشيخ محمد نعمان الجارم قاضيًا لقضاة المحاكم الشرعية بالسودان.

الخرطوم في ٢١ إبريل سنة ١٩٣٢.

«غازيتة الحكومة السُّودانية عدد ٥٦١ في ١٥ مايو سنة ١٩٣٢».

(٥) الإدارة الأهليَّة

قال ألين إيرلندي في كتابه «مناطق الشَّرق الأقصى» طبعة ١٩٠٥ صفحة ٧١ بالإنكليزية:

> ممَّا يخطئ فيه الأوربيون في الشَّرق أنَّهم يعملون على نشر المدنية الغربية وإزالة الأساليب الوطنية، بدلًا من استغلالها: يوجد طريقان تستطيع الحكومة أن تسلكهما — الأول هو أن تبدأ بالأشياء التي تجدها، نابذة ما هو خطر وظالم منها، مؤازرة ما هو صالح من عادات أهلها، تاركةً النِّظام والتشريع للمناسبات. فإذا بدت حاجات جديدة كان لزامًا على الحكومة أن تفحصها، وأن تهيِّئ لها من الإجراءات ما يتَّفق مع حالتها ومكانتها، بدلًا من استيرادها من الخارج. ومن أجل أن لا تكون هذه الإجراءات مضادة للعادات الوطنية، يجب العمل على الفوز برضاء الأهالي قبل تنفيذها. حقيقة إن التَّقدُّم بهذه الوسيلة يكون بطيئًا، وإنَّ النِّظام المنشود لا يُعدُّ مقبولًا من وجهة نظرنا. ولكنَّه يكون في الواقع هادئًا وثابتًا، وتكون الثقة في ازدياد، ولا يكون هناك شعور بنير أجنبي موضوع على أكتافهم. والطريقة الثَّانية هي اكتساح القديم وإدخال نظام يُؤثِرُه الأوربيون؛ كأن يوضع قانون للعقوبات على آخر طراز أو نظام للضرائب والبوليس مأخوذ عن الغرب بما فيه من مزايا ومبادئ. ومن غير التَّفكير في كيف ينطبق هذا على الظروف المحلية.

ويرى لورد لوجارد في كتابه «الانتداب» وآخرون من رجال الإدارة الأوربيين في أفريقيا الأخذ بالطريقة الأولى «على أنَّه إذا كان من الحكمة حكم الوطنيين على مقتضى أساليبهم مع تعديلها بحيث لا يطبَّق منها ما يعد مناقضًا للإنسانية — فإنَّ طبيعة النظم الوطنية تكون مثار البحث والتشاور — أليست هذه الأساليب مؤسَّسة على عناصر

الوحشية والجهل، وإنَّه إذا أخرج منها العناصر المضادة للإنسانية فإنَّ الباقي منها لن تكون له قيمة ويفقد انسجامه، كما أنَّه يتسائل من ذا الذي يحكم بمقتضى هذه الأساليب الوطنية وما هي مؤهلاته؟»

لقد نهجت الحكومة السُّودانية في العهد الأخير خاصَّة منهج الحكم بواسطة مشايخ القبائل[٢] بإعطائهم سلطة قضائية وشيئًا من السلطة التنفيذية «البوليسية»، وتقوم هذه الفكرة على أساس تخفيض نفقات الإدارة، وتخفيف المسئولية عن الحكومة المركزية، وإنشاء وحدات من القبائل، وإبعاد الكراهة للحكام الإنكليز أو المباشرين. ويقول مستر هارولد ماكمايكل — السكرتير الإداري السَّابق للحكومة السُّودانية وحاكم تنجانيقا — في كتابه «السودان الإنكليزي المصري» ص٢٣٥: إنَّ السُّوداني — سواء أكان عربيًّا أم لا دينيًّا، فإنَّه يؤثر الإداري الذي يتولى حكمه. فهو يثق به أكثر من سواه. ولكنَّه لن يمنحه الاحترام والتبجيل الذي يبديه لشيخ قبيلته، فإنَّه بحسب عقيدته يمقت من كلِّ قلبه الأجنبي، ويعتقد فيه أنَّه لا يفهم دينه، وأنَّ عاداته لا يقبلها الذوق.»

ويقول بنتام: «إذا كنت تريد أن تكسب قومًا، فيجب عليك أن تجعلهم يعتقدون أنَّك تحبهم، وأنَّ الطريقة المثلى هي أن تحبهم حبًّا صادقًا.» ويقول ماكميكل: «إذا كان هذا القول حقًّا فإنَّه من جهة أخرى لا يمكن أن تؤسَّس المحبة على الجهل وسوء التَّفاهم. وعلى الإداري الذي يريد أن يكون ناجحًا في إدارته أن يتجمَّل بالصبر وسعة الحيلة، وأن يبحث عن العادات الحسنة التي تكون مختبئة في الأساليب الوطنية، وأن يحاول بصبر أن يفهم أماني الوطنيين وآمالهم، وأن يبحث عن حاجاتهم، وأن يعرف لماذا يشعرون بها ويريدونها، قبل أن يُشرِّع لهم. وقد وصل إلى هذا تمكّن الإداري من استغلال الأساليب المحلية والعادات لما هو مفيد وسامٍ.»

ويقول الأستاذ بولارد في الفصل السادس من الجزء الثَّاني من «تاريخ كامبردج الحديث»: «جميع الحكومات — سواء أكانت مدنيَّة أم دينية — تقوم على أساس واحد، فليست قوتها في أنَّها توافق العقل والصواب والقانون. ولكنَّها تستمد قوتها من العادة ولا يكون الحكم ممكنًا إذا أُغفلت العادات التي تسبق القانون، والتي عندما تثبت في النفوس تصاغ بصيغة القانون. والقتل والاعتداء وجرائم الخيانة والسرقة والغش جرائم محتقرة عند الأوربيين والسُّودانيين على السواء.»

كانت أساليب نظام القبائل هي المتَّبعة في السُّودان قبل فتح محمد علي ١٨٢١. ولم يشأ الحكم المصري في السُّودان أن يتدخل في نظام القبائل، وقد ترك لمشايخها أكثر ماكان لهم من السلطة على أن ينفذوا الأوامر التي تصدر إليهم، وأن يحصِّلوا الضرائب، وعلى أن لا يقوموا بأي عمل مضرٍّ بمصالح الحكومة.

عندما أعيد فتح السُّودان، كان إدارته وحفظ الأمن فيه عسكريًّا، وكان لا يزال ماثلًا لأذهان الحكام حوادث المهدية. وكان سلاطين باشا الذي عيِّن مفتشًا عامًّا للسُّودان محل ثقة الحاكم العام سير رجنالد ونجت باشا،[٣] وكانت آراؤه محترمة ونافذة. ولكونه احتمل ضروبًا من الأذى وصنوفًا من الإرهاق والذل والهوان وهو في الأسر، ظل ذهنه مطبوعًا بآثار ما عانى واحتمل، وظل يذكر الحوادث السابقة، وكان قد انتهى إلى عقيدة لم يتحول عنها، وهي أنَّه يجب أن لا يسمح لأحد من السُّودانيين أن يكون زعيمًا دينيًّا أو قبليًّا، وأن لا يسمح لأية شخصية في السُّودان أن تظهر وأن تنمو. وقد ظلت هذه الفكرة في أثناء وجود سلاطين باشا من سنة ١٨٩٩ إلى ١٩١٤، حيث عاد إلى بلاده النمسا وقامت الحرب وترك منصبه.

ويقول مستر ماكميكل: «إنَّه وإن كانت هذه الفكرة صحيحة إلَّا أنَّه يجب الاعتراف بأنَّ هناك حقيقة، وهي أنَّه ما دام للإنسان وجود على الأرض فسيوجد دائمًا رجال يبرزون، وإنَّ بروزهم لا يكون غير معقول أو شيئًا في غير محلِّه. وفضلًا عن ذلك فإنَّ الناس يفضلون أن يكون لهم زعماء ولا ينتظر منهم أن يقنعوا بغير ذلك.»

وقد أحدثت الحرب ونتائجها تغييرًا في الحكومات. وقد وجدت حكومة السُّودان أنَّ من الضروري إحداث تغيير في طريقة حكمه. وقد جاء في تقرير سير لي ستاك — الحاكم العام للسُّودان — عن ١٩٢١: «لقد اتخذت خطوات كثيرة منذ ابتداء سنة ١٩٢١ لانتهاج سياسة مقتضاها السماح للوطنيين «أهالي السُّودان» بنصيب في إدارة شؤونهم ومساعدتهم على احتمال المسئوليات. وقد نفذت هذه السِّياسة بوسائل مختلفة لتحقيق هذا الغرض: فقد انتُخب أهالي السُّودان وعُينوا في بعض وظائف معينة ونيطت بهم أعمال إدارية مباشرة. ومن جهة أخرى وضع تشريع خوَّل للمشايخ الوطنيين بعض السلطات على أفراد قبائلهم.» والتشريع المشار إليه قد وضع سنة ١٩٢١ ووُوفق عليه سنة ١٩٢٩، ورئي أن تكون سلطة المشايخ بارزة في الميدان القضائي أكثر من السلطة التنفيذية، وثانيًا أنَّ الأمر الصَّادر بهذا وُصف بأنَّه تنظيم لسلطة المشايخ، وذكر فيه أنه منذ زمن بعيد كان لمشايخ القبائل البجوية سلطة معاقبة رجال قبائلهم والفصل في

المنازعات التي تقوم بينهم، وأنه قد رئي تنظيم استعمال هذه السلطات. وجعل أقصى ما يمكن الحكم به من الغرامة في الجرائم الكبيرة التي يفصل فيها الشيخ مع أعضاء محكمته غرامة أقصاها ٢٥ جنيهًا إنكليزيًّا، والجرائم الصغرى رخص للشيخ أن يحكم فيها وحده بإذن من المدير، وأن يكون أقصى الغرامة عشرة جنيهات، ولم يرخص لهم بإصدار أحكام بالحبس، وقد نيط تنفيذ حكم الشيخ بواسطة الحكومة كما لو كان الحكم صادرًا من محكمة قضائية عادية.

وفي سنة ١٩٢٢ رُئي القيام بتجربة في دار مساليت التي كان يحكمها سلطان من أهلها، والتي ضُمَّت إلى السُّودان بمقتضى الاتِّفاق الإنكليزي الفرنساوي سنة ١٩١٩. ذلك بأن ترك لهذا السُّلطان أن يدير الشئون الداخلية لملكته الصغيرة تحت إشراف «مقيم بريطاني» ومن جهة أخرى خول رئيس الشلك «ريت» في النِّيل الأعلى شيء من السلطة. وأنشئت محاكم من المشايخ في المديريات الجنوبية للفصل في القضايا المحلية القليلة الأهمية.

وقد واصلت الحكومة السُّودانية هذه التَّجارب وقال الحاكم العام في تقريره: إنَّه قد أصبح لثلثمائة شيخ للقبائل البدوية وشبه البدوية سلطات تؤيدها سلطة الحكومة. وفي سنة ١٩٢٥ وضعت ميزانية خاصة للإدارة الأهليَّة بدار مساليت ومنح لريق الدنكة في بحر الغزال محكمة مشايخ. وصدر قانون المحاكم القروية عندما عين سير جوفري آرشر خلفًا للسير لي استاك في يناير سنة ١٩٢٥، وواصل تحقيق هذه السِّياسة، ولكنَّه استقال بسبب صحته، وعين في ١٨ أكتوبر ١٩٢٦ سير جون مافي حاكمًا عامًّا للسُّودان، وقد كان قبلًا حاكمًا للإقليم الشَّمالي الغربي بالهند. وقد قال سير جون في تقريره عن سنة ١٩٢٧ إنَّه مقتنع بتوسيع الإدارة الأهليَّة وبتطبيق توصيات لجنة ملنر ١٩١٩ و١٩٢١ قد خوَّل الأمر الصَّادر من مجلس الحاكم العام في سنة ١٩٢١ بأن يكون له تأليف «محاكم أهلية»، أي تؤلَّف من الأهالي في أي جهة، وأن يكون هناك نوعان من المحاكم: المحاكم العليا والمحاكم الصغرى، فالمحاكم العليا يعين رئيسها ونائب رئيسها وأعضاؤها التي تؤلف منها ويحدُّ اختصاصها في العقاب وتختلف هذه السلطة، فهي أحيانًا الحكم بالحبس لمدة سنتين والغرامة إلى مائة جنيه، وأحيانًا بالحكم بالحبس لمدة شهر وغرامة خمسة جنيهات. أمَّا في المحاكم الصغرى فتتراوح السلطة بالحكم بغرامة مبلغها جنيهان وعشرون جنيهًا مصريًّا. ولهذين النوعين من المحاكم اختصاص مدني واختصاص جنائي. وخول لمديري المديريات، بشرط موافقة الحكومة المركزية بأن

يضعوا قواعد لسير هذه المحاكم وبأن يكون للمديرين والمفتشين حق مراجعة أي حكم تصدره محكمة أهليَّة، أو أن ينقلوا أية قضية إلى المحاكم العادية إذا رأوا ضرورةً لذلك.

وفي سنة ١٩٢٨ تقرَّر فتح اعتماد بإعطاء مكافآت أو مرتبات لرؤساء المحاكم ومشايخ القبائل مقابل الأعمال المنوطة بهم والنفقات التي عليهم آداؤها، مثل مرتبات السُّعاة والخدم ونفقات بناء دور لهذه المحاكم. وقد عُدِّل قانون الإجراءات الجنائية؛ فقد أنشئت في المدن محاكم مثل هذه للفصل في الجرائم الصغيرة بمقتضى هذه العقوبات، وأعطي للمجالس الحكم بالحبس لمدة شهر والغرامة إلى خمسة جنيهات.

كذلك وسِّعت الإدارة الأهليَّة عن طريق السماح للمشايخ الأكفاء الموثوق بهم الرقابة على ميزانيات القبائل، وألفت جمعية تعاونية مَدَّتها الحكومة بالمال تحت إشراف محكمة أهليَّة في طوكر بإدارة المال المخصص للسُّلف الزراعية للزرَّاع في دلتا البركة، وقد جعلت قبائل البجة مع الهدندوة تحت مديرية كسلا بدلًا من محافظة بور سودان.

وفي نهاية ١٩٢٩ كان هناك ٧٢ محكمة أهليَّة في شمال السُّودان سمعت أكثر من عشرة آلاف قضية.

وفي سنة ١٩٣١ صدر قرار بشأن القبائل اللادينية في الجنوب. كما صدر قرار آخر في صدد المحاكم الأهليَّة في الشَّمال حلَّ محل التَّشريع السابق.

(٦) النظام القضائي في السُّودان

(٦-١) المحاكم الأهليَّة

أنشئت في السُّودان محاكم تُشبه «محاكم الأخطاط» في مصر، وأسميت المحاكم الأهليَّة، وصدر بشأنها القانون نمرة ٣ سنة ١٩٣٢.

قانون المحاكم الأهليَّة سنة ١٩٣٢ — نشر في غازيتة الحكومة السُّودانية عدد ٥٥٨ في ١٥ فبراير سنة ١٩٣٣.

وهو قانون لإلغاء سلطات المشايخ سنة ١٩١٨، وقانون المحاكم القروية سنة ١٩٢٥، وقانون «تعديل» المحاكم القروية سنة ١٩٣٠، وإعادة سنِّها معدَّلة.

قد سنَّ حاكم السُّودان العام في مجلسه ما يأتي:

اسم القانون وبدء نفاذه

(١) يسمى هذا القانون قانون المحاكم الأهليَّة سنة ١٩٣٢، ويُعمل به عند نشره في غازية حكومة السُّودان.

إلغاء

(٢-١) يلغي هذا القانون سلطات المشايخ سنة ١٩٢٨، وقانون المحاكم القروية سنة ١٩٢٥، وقانون «تعديل» المحاكم القروية سنة ١٩٣٠.

(٢-٢) جميع السلطات التي مُنحت، والأعمال التي عملت، والأحكام التي أصدرت، والأوامر أو التعيينات التي حصلت، واللوائح التي قرِّرت بمقتضى أي القوانين التي قرّر إلغاؤها بهذا القانون، والتي تكون نافذة المفعول مباشرة قبل اليوم الذي يعمل فيه بمقتضى هذا القانون تُعتبر كأنَّها مُنحت وعُملت وأُصدرت وحصلت وقرِّرت بمقتضى هذا القانون.

(٢-٣) عندما ينفَّذ هذا القانون تعتبر جميع القضايا المعلَّقة في أي محكمة مؤسسة بمقتضى أي القوانين التي ألغيت بهذا كأنَّها شُرع فيها بمقتضى هذا القانون، ويواصل السير فيها بمقتضاه.

(٢-٤) في كلّ تشريع صادر قبل نفاذ هذا القانون أشير فيه إلى أي قانون ملغى بهذا تعتبر تلك الإشارة بالقدر الممكن موجهة إلى هذا القانون.

سريان القانون

(٣) يسري هذا القانون على كلّ السُّودان ما عدا مديريات أعالي النِّيل وبحر الغزال ومنجلا.

تعريف الألفاظ

(٤) تدل الألفاظ والعبارات الآتية في هذا القانون على ما يلي من المعاني ما لم يُظهر لها الموضوع أو سياق الكلام معنى آخر.

يشتمل لفظ المفتش «مساعد المفتش». عبارة «موظف حكومة» تشتمل أي شخص مستخدم في الحكومة ما عدا:

(أ) صف ضباط وأنفار قوة دفاع السُّودان.
(ب) رجال البوليس من رتبة بتجاويش وأدنى.
(جـ) الفَعَلة والمراسلات والحمَّالين وأية طوائف من الخدَّامين في أية مديرية أو مركز أو منطقة يقرِّرها الحاكم العام بأمر ينشر في غازيتة حكومة السُّودان، ولكن تلك العبارة لا تشمل أي شخص في خدمة شيخ.

يشمل لفظ «شيخ» كلّ زعيم قبيلة أو إقليم منح سلطة على قبيلته أو جزء من مركز أو على قرية.

ويراد بلفظ «رئيس» كلّ شخص يرأس أية محكمة من المحاكم المؤسسة بمقتضى هذا القانون.

ويراد بعبارة «محكمة قانونية اعتيادية» أية محكمة مؤسسة بمقتضى قانون تحقيق الجنايات أو قانون القضاء المدني أو قانون محاكم السُّودان الشرعية سنة ١٩٠٢.

أنواع المحاكم الأهليَّة

(٥) تكون في السُّودان أنواع المحاكم الأهليَّة الآتية:

(أ) «محكمة شيخ» ويقصد بها محكمة يرأسها شيخ جالس مع أعضاء.
(ب) «محكمة شيخ جالس في مجلس» ويقصد بها محكمة الشيخ الجالس مع الكبار.
(جـ) محكمة قروية.
(د) محكمة شيخ جالس منفردًا.
(هـ) محكمة مخصوصة كالمنصوص في المادة ١٣.

إنشاء المحاكم الأهليَّة

(٦-١) يجوز للحاكم العام أن ينشئ محاكم أهليَّة في الأماكن التي يستنسبها.
(٦-٢) تنشأ محكمة مخصوصة بالطريقة المبيَّنة في المادة ١٣.
(٦-٣) تنشأ محكمة قروية بأمر كتابي موقَّع عليه من المدير بموافقة الحاكم العام.
(٦-٤) كلّ نوع آخر من المحاكم الأهليَّة ينشأ بأمر موقَّع عليه من الحاكم العام.

الأوامر القضائية بإنشاء المحاكم الأهليَّة

(٧-١) يعين في الأمر القاضي بإنشاء المحكمة الأهليَّة سلطاتها وحدود اختصاصها.

(٧-٢) يجب أن يبيِّن في الأمر اسم الرئيس، وإذا كانت محكمة شيخ فيبيِّن أسماء الأشخاص المؤهَّلين للجلوس كأعضاء، ويجوز أن يبيَّن بالنسبة إلى محكمة الشيخ الجالس في مجلس الكبار المؤهلون للجلوس مع الشيخ.

(٧-٣) في محكمة الشيخ يجب أن يبيَّن في الأمر الطريقة التي ينتخب بها الأعضاء المستعاضون والإضافيون وعدد الأعضاء الكافي لانعقاد المحكمة.

(٧-٤) يجوز أن ينص في الأمر أن الرئيس مأذون له أن يحوِّل سلطاته إلى الأشخاص المذكورين في الأمر، وما لم ينص على ذلك صراحةً فلا يجوز للرئيس أن يحوِّل سلطاته إلَّا بإذن كتابي من المدير، ولا يعطى ذلك الإذن إلَّا في ظروف استثنائية فقط.

(٧-٥) يجب أن يُصحب الأمر باللوائح الصادرة بمقتضى المادة ١٧. وإذا كانت محكمة قروية يجب أن يبيِّن بتلك اللَّوائح تشكيل المحكمة وتعيين الرئيس.

(٧-٦) يجوز أن يُلغى الأمر بواسطة الحاكم العام، وتُسحب السلطات الممنوحة بمقتضاه، إذا اقتنع أنَّ تلك السلطات قد أسيء استعمالها.

اختصاص المحاكم

(٨-١) لكلِّ محكمة أهليَّة الاختصاص الكامل والسُّلطة بالقدر المبيَّن في هذا القانون أو في الأمر القاضي بإنشاء المحكمة أو في اللوائح المصحوب بها ذلك الأمر، ويشترط أن لا تكون لمحكمة أهليَّة سلطة:

(أ) أن تُسمع أية دعوى مدنيَّة طرفاها غير داخلين تحت اختصاص المحكمة إلَّا برضاء الطرفين أو.

(ب) أن تسمع أية دعوى مدنيَّة يكون أحد طرفيها داخلًا تحت الاختصاص والطرف الآخر غير داخل إلَّا برضاء الطرف غير الداخل تحت الاختصاص أو.

(جـ) أن تسمع أية دعوى مختصَّة بملكية أرض ما عدا دعوى قسمة أرض مسجلة بمقتضى قانون تسوية وتسجيل الأراضي سنة ١٩٢٥ ومملوكة لشركاء إرث بحصص شائعة أو.

(د) أن تحكم في أية قضية جنائية يكون المتَّهم فيها موظفًا في الحكومة أو.

(هـ) أن تحكم في أية قضية جنائية يكون المتَّهم فيها رجل بوليس إلَّا برضاء المدير وإن كان المتَّهم صف ضابط أو عسكريًّا في قوة دفاع السُّودان فلا تحكم إلَّا برضاء قومندان القسم والمدير أو.

(و) أن تحكم في أية جريمة من الجرائم المبيَّنة في الجدول الأول الملحق بهذا القانون.

ويشترط أيضًا ألَّا تكون للمحكمة القروية سلطة:

(ز) أن تحكم في أية جريمة من الجرائم المبيَّنة في الجدول الثَّاني الملحق بهذا القانون أو.

(ح) أن تسمع أي دعوى مدنيَّة تزيد قيمة الشيء المتنازع فيه عن خمسة جنيهات مصرية ما عدا أمثال القضايا المذكورة في البند الشرطي (ج).

(٨-٢) لا يُؤَوَّل البند الشَّرطي (ج) من الفقرة (أ) بحيث يحرم المحكمة الأهليَّة من سماع قضية تتعلَّق بملكية النَّخيل.

(٨-٣) في دعوى قسمة عقار مسجَّل تحت قانون تسوية وتسجيل الأراضي سنة ١٩٢٥ ومملوك لشركاء في إرث بحصص شائعة للمحكمة الأهليَّة ذات الاختصاص على المنطقة التي يقع فيها العقار الحق أن تسمع وتفصل في تلك القضية بصرف النَّظر عن أن واحدًا أو أكثر من الشركاء في الملك لا يقيم أو لا يقيمون ضمن دائرة اختصاص المحكمة أو غير داخل أو غير داخلين تحت اختصاصها.

القانون الذي يُطبَّق

(٩-١) تطبق المحكمة الأهليَّة ما يأتي:

(أ) القانون الأهلي والعُرف السَّاري في المنطقة أو في القبيلة التي تباشر المحكمة اختصاصها عليها، بشرط أن لا يخالف ذلك القانون الأهلي والعُرف العدالة أو الفضيلة أو النِّظام.

(ب) نصوص أي قانون لا تكون جزءًا من القانون الأهلي والعرف إذا أذن صراحة للمحكمة بمقتضى أمرها أو لوائحها أن تطبق النصوص.

(٩-٢) يجوز للمحكمة الأهليَّة مع مراعاة الشروط المدوَّنة في أمرها ولوائحها أن تحكم في الجرائم بالحبس أو الغرامة أو بهما معًا. أو بالنسبة إلى الذكور فلها أن تحكم بما لا يزيد عن ٢٥ جلدة بالسوط أو المقرعة. على أنَّه يشترط ما يأتي:

(أ) أن لا تحكم محكمة الشيخ الجالس في مجلس بالحبس.

(ب) أن تحكم المحكمة القروية بالغرامة فقط، وأن لا تتجاوز مقدار تلك الغرامة العشرة جنيهات مصرية.

وجوب حفظ محضر

(١٠) يجب أن يحفظ محضر بالكتابة عن كلّ القضايا التي يحكم فيها بموجب هذا القانون.

ويجب أن يشتمل المحضر على ما يأتي:

(أ) اسم الرئيس. وإذا كانت محكمة شيخ أو محكمة قروية فيجب تدوين أسماء الأعضاء.

(ب) تاريخ ومكان سماع القضية.

(جـ) أسماء طرفي القضية.

(د) أسماء الشهود الذين استُجْوِبوا.

(هـ) بيان موجز عن الوقائع.

(و) حكم المحكمة الذي يجب أن يوقع عليه الرئيس، وإذا كانت محكمة شيخ أو محكمة قروية فيجب أن يوقع عليه الأعضاء.

وجوب صدور الأحكام بالإجماع أو وجوب الموافقة عليها

(١١) لا يعد صحيحًا حكم محكمة الشيخ أو حكم محكمة قروية لم يوافق عليه الأعضاء بالإجماع ما لم يصدق عليه المفتش، ولا يحصل هذا التصديق على حكم ما لم يكن أُصدر بأغلبية أصوات المحكمة.

الاستئناف

(١٢-١) يجوز أن تُعطَى المحكمة الأهليَّة — بموجب الأمر القاضي بإنشائها — سلطات استئنافية، وفي هذه الحالة يجب أن يبيَّن في الأمر المحاكم الأهليَّة التي يجوز استئناف أحكامها إلى تلك المحكمة.

(١٢-٢) إذا نصَّ على ذلك صراحة في اللوائح المرافقة للأمر القاضي بإنشاء المحكمة الأهليَّة فيكون هناك حق في استئناف قرار تلك المحكمة إلى المحكمة الأهليَّة الأخرى المبيَّنة في لوائح المحكمة الأولى المذكورة.

(١٢-٣) إذا لم تشتمل اللوائح المرافقة للأمر القاضي بإنشاء المحكمة الأهليَّة على نصٍّ صريح بخصوص حقِّ الاستئناف إلى محكمة أهليَّة أخرى، فلا يصح الاستئناف إلَّا برضاء المدير أو المفتش.

المحاكم المخصوصة

(١٣-١) في أيٍّ الأحوال الآتية يجوز للمدير بموافقة الحاكم العام أن يعقد محكمة إذا رأى ذلك من صالح العدالة:

(أ) إذا كان المتَّهم أو المدَّعى عليه تابعًا لاختصاص محكمة أهليَّة والمشتكي أو المدعي تابعًا لاختصاص محكمة أخرى.

(ب) إذا كان المتَّهم نفسه شيخًا.

(جـ) إذا كانت الجريمة المزعومة ذات جسامة بحيث يظهر أنَّ سلطات أية محكمة أهليَّة ذات اختصاص غير كافية للنظر والحكم فيها.

(١٣-٢) يسمي المدير الرئيس والأعضاء للمحكمة المخصوصة من الأشخاص المعينين بمقتضى البند ٧ للجلوس في محكمة شيخ.

(١٣-٣) في الأحوال المبيَّنة بالبندين (أ) و(ب) من الفقرة (١) يجوز أن تكون موافقة الحاكم العام المطلوبة بالفقرة «١» موافقة عمومية قابلة للإلغاء من قبله في أي وقت، ولكن في الحالة المبيَّنة بالبند (ج) من الفقرة «١» يجب أن تكون هناك موافقة مخصوصة تتعلق بكل حالة.

(١٣-٤) سلطات المحكمة المخصوصة بالحبس لا يجوز أن تزيد:

(١) في الحالة المبيَّنة بالبند (أ) من الفقرة (١) عن أقصى السلطات المقرَّرة في الأمر لأي عضو من أعضاء المحكمة المخصوصة بصفته رئيسًا لمحكمة أهلية.
(٢) في الحالة المبيَّنة بالبند (ب) من الفقرة (١) عن سبع سنوات.
(٣) في الحالة المبيَّنة في البند (ج) من الفقرة (١) عن عشر سنوات.
(٤) لا يعتبر القرار ولا الحكم نهائيًّا في أية قضية جنائية حكمت فيها محكمة مخصوصة إلَّا بعد أن يؤيده المدير.

سلطة إعادة النظر

(١٤-١) في أية قضية حكمت فيها محكمة أهليَّة غير المحكمة المخصوصة يجوز للمدير أو للمفتش بناءً على طلب أي شخص له علاقة بالقضية أو من تلقاء نفسه أن يفعل ما يأتي:

(أ) أن يوقف أو يخفض أو يعدِّل بغير ذلك أي حكم أو قرار أو.
(ب) أن يأمر بإعادة سماع القضية أمام نفس المحكمة أو أمام أية محكمة أهليَّة أخرى مختصة بالنظر فيها أو.
(جـ) أن ينقل إلى محكمته أية قضية إمَّا قبل المحاكمة أو في أية درجة من درجات الإجراءات، سواء كان قبل أو بعد إصدار الحكم أو إعطاء القرار.

(١٤-٢) للمدير مثل هذه السلطات في أية قضية حكمت فيها محكمة مخصوصة.

القضايا المعلقة أو التي حكم فيها أمام محاكم أخرى

(١٥) لا حق للمحاكم القانونية الاعتيادية بالنظر في أية مسألة — جنائية كانت أو مدنيَّة — سبق الحكم فيها بموجب نصوص هذا القانون ما دام ذلك الحكم قائمًا، ولا يجوز لأية محكمة منشأة بمقتضى هذا القانون أن تحكم في أية قضية تنظر فيها أو قد نظرتها أية محكمة قانونية اعتيادية إلَّا برضاء تلك المحكمة.

التنفيذ

(١٦-١) الحكم بالغرامة إذا أصدرته محكمة لها سلطة الحكم بالحبس يجوز تنفيذه بمقتضى حكم الحبس في حالة عدم دفع الغرامة بشرط أن لا يزيد مجموع مدة الحكم بالحبس في حالة عدم دفع الغرامة والحكم الأساسي بالحبس «إن وجد» كلاهما عن أقصى المدة التي للمحكمة الحكم بها.

(١٦-٢) تنفذ أحكام وقرارات المحاكم الأهليَّة بالطريقة المنصوص عليها في اللوائح المرفقة بالأمر القاضي بإنشاء المحكمة.

(١٦-٣) يجوز للمفتش أن يجري تنفيذ حكم أية محكمة أهليَّة بناءً على طلب تلك المحكمة أو طلب الطرف المتظلِّم بنفس الطريقة التي ينفذ بها لو كان حكم أو قرار محكمة قانونية اعتيادية.

اللوائح

(١٧-١) يصدر المدير لوائح ترافق الأمر القاضي بإنشاء المحكمة الأهليَّة لإرشاد المحكمة وتنفيذ نصوص هذا القانون.

لا يجوز أن تكون تلك اللوائح مخالفة لنصوص هذا القانون، ويجوز أن تنص على ما يأتي:

(أ) تحديد سلطات المحاكم الأهليَّة من حيث اختصاصها على الأشخاص والجرائم التي يجوز أن تحاكم فيها والعقوبات وأنواع أو قيمة القضايا التي يجوز أن تسمع وأية قيود أخرى يستنسبها المدير.

(ب) الإجراء بخصوص الاستئنافات.

(جـ) الرسوم التي تدفع في المحاكم الأهليَّة.

(د) التَّصرف بالغرامات والرسوم التي تحصلها المحاكم الأهليَّة واستعمال تلك الغرامات والرسوم.

(هـ) طرق السير في المحاكم الأهليَّة والإجراءات المتَّبعة فيها.

(و) تشكيل المحاكم القروية وتعيين أشخاص للرئاسة.

(ز) تعيين الكبار للجلوس مع الشيخ في المجلس.

(ح) الطريقة التي تنفذ بها قرارات المحاكم.

(ط) تنفيذ نصوص هذا القانون على العموم.

(١٧-٢) هذه اللوائح تكون خاضعة لموافقة السكرتير الإداري والسكرتير القضائي وبقدر ما لها من العلاقة بالتَّصرف بالرسوم أو إيراد آخر أو صرف أي مصاريف لم تقرَّر في الميزانية تكون خاضعة لموافقة السكرتير المالي.

الجدول الأول:

القتل، الجرائم ضد الحكومة أو التي تتعلق بالقوات العسكرية، الجرائم التي تتعلق بالاسترقاق، أي أنواع أخرى من الجرائم يجوز أن تستثنى على الخصوص في الأمر القاضي بإنشاء المحكمة.

الجدول الثَّاني:

التَّهجم. الأذى. الإساءة الناشئ منها خسارة أو تلف بمقدار لا يزيد عن خمسة جنيهات مصرية. التعدي الجنائي. السب. المشاجرة. تلويث ماء مورد عام أو صهريج عمدًا. السرقة أو الامتلاك الجنائي أو خيانة الأمانة لمال لا تزيد قيمته عن خمسة جنيهات مصرية.

الجرائم ضد أي قانون داخل صراحة في الأمر القاضي بإنشاء المحكمة بأنه قانون تدخل مخالفته ضمن اختصاص المحكمة.

أصدره حاكم السُّودان العام في مجلسه في اليوم الثَّاني والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٣٢.

«الإمضاء» ر. ح هلارد سكرتير المجلس

«الإمضاء» ج. ل. مفي الحاكم العام

تنفيذ الأحكام بين مصر والسُّودان

بمقتضى قانون تنفيذ الأحكام المصريَّة الصَّادر في ٢٣ مايو سنة ١٩٠١، يجب على صاحب أي حكم مصري مدني أن يتوجَّه إلى السُّودان أو أن يعيِّن وكيلًا له فيه لدى المحكمة المدنية للحصول على حكم سوداني استنادًا إلى الحكم المصري.

أمَّا الأحكام الشرعية المصريَّة فإنها تنفَّذ في السُّودان مباشرة بغير حاجة إلى استصدار حكم في السُّودان؛ ذلك لأنَّ القضاء الشرعي في السُّودان يسير طبقًا للقضاء الشرعي في مصر، ولأنَّ قاضي قضاة السُّودان هو قاضٍ شرعي مصري كما هو معروف، وتسلم حكومة السُّودان إلى الحكومة المصريَّة كلّ متهم أو محكوم عليه من المصريين بمجرد طلب وزارة الحقَّانية المصرية.

وتنفذ الأحكام السُّودانية الشرعية بطريق إرسالها إلى وزارة الحقانية المصريَّة لتتولَّى التنفيذ.

والحكومة المصريَّة تعد كلّ سوداني فيها كالرعايا المصريين من وجهة التقاضي والمحاكمات الجنائية.

(٧) المحاكم المدنية والجنائية

قبل المَهديَّة كان الحكم مباشرًا؛ أي أنَّ الذي يتولاه هم المأمورون والمديرون ورؤساء الأخطاط بغير تعيين أشخاص معينين إخصائيين يتولون القضاء.

في عهد المَهديَّة: كان يتولى القضاء قضاة شرعيون وموظفون يشبهون المديرين سلطة، قابلون للنقل والعزل. وكانت أحكامهم تستأنف أمام مجلس القضاة في أم درمان، ويؤلف من عشرة قضاة يرأسهم قاضي القضاة. على أن المرجع الأخير كان للمهدي ثمَّ لخليفته عبد الله التعايشي.

وكان هؤلاء القضاة يفصلون في جميع المنازعات ما عدا المسائل التِّجاريَّة فهي من اختصاص المجلس التِّجاري المؤلف من عشرة تجار. وكان «وهبي» وهو مصري، كان مأمورًا في بربر قبل الثَّورة المَهديَّة يفصل في الجرائم الصغيرة.

بعد استعادة السُّودان: كان الحكم مباشرًا، أي يتولى القضاء المديرون والمأمورون في المسائل المدنية والتجارية. والقضاة الشرعيون في مسائل الأحوال الشخصية.

وفي سنة ١٩١٩ أنشئت سلطة المشايخ «العمد»، فأصبحوا يحكمون في بعض القضايا، وتطور هذا النِّظام فأنشئت «محاكم أهلية»، ويرأس المحكمة الأهليَّة ناظر القبيلة أو الخطّ أو من يعينه الحاكم العام، ويكون معه أعضاء يختلف عددهم بحسب البلاد. كما هو مبين في القوانين السَّابقة في هذا الفصل.

المحاكم المدنية: توجد محاكم نظامية مدنيَّة كالمحاكم الأهليَّة بمصر. وترفع إليها الدعوى بعريضة تلصق بها ورقة تمغة قيمتها ثلاثة قروش. ويذكر بها ملخص الدعوى

والطلبات، وتقدم العريضة في اليوم التَّالي بالجلسة الساعة التاسعة صباحًا. وفي هذه الجلسة يصرِّح القاضي للمدعي بالسير في الدعوى، فيحصل رسم عليها بنسبة ٥٪ من قيمتها ابتدائيًّا واسمها «رسوم شكوى»، و٥٪ أخرى واسمها «رسوم سماع»، وتحدد جلسة لسماع الدعوى، ويكون تحديدها بعد أسبوع على الأقل من تاريخ دفع الرسوم.

وهناك محكمة جنائية تسمى «محكمة بوليس».

ولغة المحاكم النظامية هي: الإنكليزيَّة والعربية، غير أنَّ الغالب أن تكون الأحكام وإعداد المحاضر بالإنكليزية.

تنفيذ الأحكام النظامية والشرعية: يكون تنفيذها بطريق عريضة من جديد، ويؤخذ عليها رسم ٥٪ فيصدر القاضي أمره بالحجز. وينفذ الأوامر «المحضر»، وبعد ذلك ينفذ الحجز في سبعة أيام. والبيع يكون بناءً على طلب الدائن، وبعد إعلان تاريخ البيع في موعد ١٤ يومًا في حالة بيع منقولات وشهر في حالة العقارات. ولا يجوز بيع العقارات إلَّا بأمر من المدير.

وتنفذ المحاكم المدنية النظامية الأحكام الشرعية بالنفقات وتسليم الأولاد.

وتؤلف محكمة الاستئناف من ثلاثة قضاة. وأكثر القضايا الجنائية يفصل فيها رجال الإدارة ويقدم الاستئناف فيها للحاكم العام. وفي الجنايات في المحاكم الكبرى تستأنف الأحكام أمام المدير بواسطة السكرتير القضائي، الذي سلطته تماثل سلطة وزير الحقانية في مصر.

وتتألف محكمة عليا من جميع القضاة المدنيين الحاليين، ومحكمة الاستئناف من ثلاثة من أعضاء المحكمة العليا. أما في القضايا الصغرى فمحكمة الاستئناف تؤلف على الأرجح من قاضيين فقط.

وقد تمَّت مباني المحاكم في الخرطوم، وفتحها صاحب السمو الملكي دوق كبنوت في فبراير سنة ١٩٠٨.

وأعدت الحكومة منازل للقضاة والموظفين في البلاد البعيدة كالرصيرص.

ومن محاكم السُّودان:

محكمة النائب القضائي. والمحامي العام. ومحكمة الخرطوم المدنية، ومحكمة الإفلاس بالخرطوم، ومحكمة الأراضي والتسجيل بالخرطوم، ومحكمة مركز الخرطوم. ومحكمة مركز أم درمان والتسجيل، ومحكمة الخرطوم التَّالية، ومحكمة ضابط بوليس الخرطوم، ومحكمة مديرية البحر الأحمر ومفتشون قضائيون، ومكاتب لتسوية الأراضي، ومحكمة واد مدني.

وقد زاول مصريون مهنة القضاء المدني في السُّودان، نذكر منهم حضرات صدقي خليل أفندي «بك»، والسيد العشري بك، والسبع بك، ومحمد حسن العشماوي بك «وكيل المعارف الآن»، وأحمد فؤاد بك.

ومن القوانين: العقوبات تحقيق الجنايات، قانون القضاء المدني، قانون محاكم السُّودان الشرعية، وتأديب الوطنيين، والعوائد الجليلة، والضرائب وأراضي الحكومة والبوليس، والقطن والبوليس والصحة.

وجاء في تقرير كرومر عن سنة ١٩٠٦ ما يلي:

> عين منذ زمن ليس ببعيد صدقي أفندي خليل «بك» أحد متخرجي مدرسة الحقوق مع قاضٍ مصري آخر للفصل في القضايا الصغيرة في الخرطوم. وقال مستر بونهام كارتر: «قدَّم إليَّ صدقي أفندي خليل تقريرًا يذكر فيه قصر المدة التي تفصل فيها القضايا الصغيرة في السُّودان والتأخير العظيم في القضايا في القطر المصري، ففي سماع هذه القضايا لا يبالغ بالاهتمام بالإجراءات الاصطلاحية. وأؤمِّل أن يكون مثل ذلك جاريًا في قضايا السُّودان عمومًا. فإنَّنا قد وضعنا قول السر جورج جل نصب عيوننا «وهو أنَّ فائدة هذه الأمور الاصطلاحية التخلص من قبضة القضاة». وإنما أقول هذا القول لاعتقادي أنَّ إجراءات المحاكم المصريَّة بطيئة جدًّا على غير جدوى. وأصرح باعتقادي أنه لا بدَّ من مجيء يوم يظهر فيه للجمهور فضل النِّظام القضائي السُّوداني على المصري.

وكان القضاة المصريون يحملون شهادة مدرسة الحقوق الخديوية. ولا يوجد منهم أحد اليوم فقد نقلوا شيئًا فشيئًا في العهد الأخير إلى القضاء الأهلي.

على أنَّ شهادة الدراسة الحقوقية ليست شرطًا في التَّعيين في وظائف القضاة، فهناك مترجمون بالمحاكم أو موظفون عينوا قضاة مدنيين. وأكثر القضاة من الإنكليز، ويوجد نسيب البستاني أفندي قاضيًا مدنيًّا لمحكمة واد مدني، وهو لبناني الأصل.

المحاماة:

عدد المحامين في الخرطوم خمسة: أحدهم إنكليزي، واثنان يونانيان واثنان أحدهما مصري والثاني متمصِّر. ولا يجوز للمحامي الغريب أن يترافع في السُّودان إلَّا بعد تصديق من الحاكم العام، وتصدر المحاكم النظامية أحكامها بسرعة والإجراءات سهلة. والعدالة فيها مكفولة أكثر من المحاكم الأهليَّة والقروية السُّودانية.

وقد أصدرت الحكومة في هذا العام تشريعًا خاصًّا بمزاولة مهنة المحاماة بين خريجي الحقوق السُّودانيين. وأنشأت مدرسة حقوق الخرطوم لتخريج القضاة والمحامين. وقد نشر التَّشريع الخاص بها في الفصل الخاص بالتعليم في السُّودان.

(٨) مسألة قاضي قضاة السُّودان[٤]

منصب قاضي قضاة السُّودان هو أكبر منصب شغله ويشغله مصري في الحكومة السُّودانية. وقد عرضنا لرغبة الحكومة السُّودانية في الاحتفاظ به إلى أحد رجال القضاء الشرعي السُّودانيين «راجع الصفحات السابقة من هذا الجزء»، وذلك لمناسبة نقل فضيلة الشيخ محمد أمين قراعة من السُّودان إلى مصر.

وقد رأينا أن ننقل هنا ما جاء في «الوقائع المصرية» في عددها الصَّادر بتاريخ ٢١ إبريل سنة ١٩٣٢ المرسوم التَّالي بعنوان مرسوم بشأن قاضي قضاة السُّودان، وهذا نصه:

نحن فؤاد الأول ملك مصر

بناءً على طلب الحاكم العام للسُّودان، وبعد الاطلاع على قرار مجلس الوزراء في ٣٠ مارس سنة ١٩٣٢ وموافقة رأي ذلك المجلس، رسمنا بما هو آت:

المادة الأولى: يُخلَى الشيخ محمد نعمان الجارم نائب محكمة طنطا الابتدائية الشرعية من وظيفته ليتولَّى منصب قاضي قضاة السُّودان.

المادة الثانية: على رئيس مجلس الوزراء تنفيذ مرسومنا هذا.

بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك: رئيس مجلس الوزراء إسماعيل صدقي.

فؤاد

صدر بسراي عابدين في ٩ ذي الحجة سنة ١٣٥٠ الموافق ١٥ إبريل سنة ١٩٣٢.

وقد وافق مجلس الوزراء في جلسة ٣٠ مارس سنة ١٩٣٥ على تعيين فضيلة الشيخ محمد نعمان الجارم نائب محكمة طنطا الشرعية قاضيًا لقضاة السُّودان على أن يعطى مرتبًا سنويًّا مقداره ٩٠٠ جنيه في السنة، ويزاوله في كلّ سنة مائة جنيه بحسبان خدمة السنة الواحدة في السُّودان مقابل سنة ونصف في مصر، وأن تكون إحالته على المعاش على قاعدة ١٢٠٠ جنيه مصري.

وقد درست وزارة المالية طلبات فضيلة الشيخ الجارم لمعرفة الفرق بين راتبه في الخرطوم وراتبه في مصر لو بقي في المحاكم الشرعية وبين معاشه الذي يتناوله هنا بعد انتهاء مدة خدمته ومعاشه الذي يتناوله بعد انتهاء مدة الخدمة في السُّودان، وستحمل الحكومة المصريَّة الراتب مدة الخدمة والمعاش بعد الإحالة على المعاش.

هوامش

(١) كانت الحكومة السُّودانية عند رغبة فضيلة الشيخ قراعة في النقل إلى مصر، تريد انتهاز الفرصة لتعيين قاضٍ سوداني كبير قاضيًا للقضاة، وأن يمتنع تعيين قاضٍ مصري قاضيًا لقضاة السُّودان، فتنقطع آخر صلة للقضاة المصريين بالسودان. وقد أوشك تمسك الحكومة السُّودانية أن يؤدي إلى أزمة في عهد الوزارة الصدقية سنة ١٩٣٢. فحل الإشكال بأن تولت الحكومة السُّودانية نفسها تعيين فضيلة الشيخ الجارم؛ إذ كان نائبًا لمحكمة طنطا الكلية الشرعية، وأخلت الحكومة المصرية طرفه، فصار خلفًا للشيخ قراعة. وقيل: إنَّ معالي علي ماهر باشا — وزير الحقانية — هدد بالاستقالة إذا نُفذِّت رغبة الحكومة السُّودانية بحذافيرها.

(٢) هذا ما يسمى عند الإنجليز بالإدارة الأهلية Native Administration وهو تطبيق لما جاء في تقرير ملنر في سنة ١٩٢١. وكلما نجحت في جهة ألغي مركزها وبوليسها.

(٣) لم يكن الإنجليز الآخرون مرتاحين لهذه الثقة.

(٤) انظر جريدة الأهرام العدد الصادر بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٩٣٢.

الفصل العاشر

ديون مصر على السُّودان

لقد احتملت مصر تضحيات كثيرة في فتح السُّودان وإقامة المدنية ونشر الحضارة فيه، وضحَّت بالمال وبدماء أبنائها حتى نقلت السُّودان من حياة بدوية صحراوية إلى حياة مدنيَّة، فيها مدن وقصور ودواوين وجيش منظَّم وإدارة وبوليس.

وقد بلغت ديون مصر على السُّودان ملايين الجنيهات. وللأسف إنه لا يوجد إحصاء رسمي جامع لما دفعته مصر منذ فتح السُّودان في عهد محمد علي.

ويمكن أن يقال إجمالًا: إنَّ مصر كانت تسدُّ نفقات الإدارة منذ عهد محمد علي، وكانت تدفع نفقات جيشها، حتَّى سحبه سنة ١٩٢٤، وإنَّها أنشأت مباني كثيرة جدًّا تبلغ قيمتها ملايين الجنيهات، ومنذ سحب الجيش المصري في سنة ١٩٢٤، تدفع مصر مبلغ ٧٥٠ ألف جنيه لقوة دفاع السُّودان، فضلًا عمَّا تنفقه على مصلحة الرَّي المصري في السُّودان، وفضلًا عن مرتبات موظفي وزارة الأشغال والوزارات الأخرى حين كان لمصر موظفون مدنيون كثيرون.

وسنحاول فيما يلي أن ندوِّن بيانًا لبعض ديون مصر على السُّودان بعد استعادته. أمَّا قبل هذا التَّاريخ فقد كان السُّودان معدودًا جزءًا من مصر، ولم يتيسَّر لنا إحصاء نفقات مصر في تمدينه وإدارته، وقد نستطيع ذلك في الطبعة الثَّانية إن شاء الله.

جاء في تقرير اللُّورد كرومر سنة ١٨٩٩: «السودان هوة تبتلع الملايين كما يذوب الثَّلج في حرِّ الشمس. فهو سبب وهن المالية المصريَّة وضعفها، وقد أنفقت فيه إنكلترا مبالغ طائلة، أملت استعادتها عند تصفية الحساب. ففي ٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ قرر مجلس النواب «الإنكليزي» فتح اعتماد مبلغ ٣٠٠٠٠٠ جنيه لحملة ولسلي، لينقذ غوردون، فوصل هذا الاعتماد الضئيل إلى ١١ مليون جنيه. وفي سنة ١٨٩٦ وعدت الوزارة مجلس النواب بأنَّها لن ترتكب مثل هذه الهفوة مرة أخرى. فإذا ضمَّت السُّودان إلى أملاكها، فإنها تضاعف هذه الهفوة.»

وقد ورد في نص مشروع الاتِّفاق بين مصر وإنكلترا عن السُّودان سنة ١٩٢١ الفقرة الآتية وهي الفقرة (١٣):

> مع الحرية بعقد اتفاقات جديدة في المستقبل تعديلًا لاتِّفاق ١٨٩٩ يتَّفق الفريقان المتعاقدان على أن تكون حالة السُّودان هي الحالة المترتبة على الاتِّفاق المذكور، وعلى ذلك يواصل الحاكم العام استعمال السلطة المخولة له بموجب الاتِّفاق المذكور بالنيابة عن الفريقين المتعاقدين.

وجاء بالمذكرات التي شرحت بها المواد الأساسية لنص المذكرة البريطانية ما نصه: «لمَّا تباحثنا في الفقرة ١٣ من الاقتراحات اتَّفقنا على أن تفحص مسألة الديون التي على السُّودان في الوقت الحاضر بقصد تسويتها على أساس العدل والإنصاف، واتفقنا أيضًا على أن يبحث ممثل الخزانة البريطانية مع ممثل وزارة المالية المصريَّة في هذه المسألة حالما تنفذ المعاهدة التي تعقد على أساس الاقتراحات.»

وقد رأى بعض الصحف أن يتكلم في ديون مصر على السُّودان فقال: إنَّ هذه الديون تبلغ ١٥ مليون جنيه، فعقد حضرة صاحب السعادة محمد أبو الفتوح باشا فصلًا في ذلك أرسله إلى «الأهرام» قال:

> ذكرت جريدة المقطم في عددها الصَّادر يوم الأحد ١١ الجاري تحت عنوان «ديون السُّودان» أنَّ قيمة هذا الدين ١٥ مليون جنيه. ولمَّا كان هذا الرقم بعيدًا كلّ البعد عن حقيقة ما للحكومة المصريَّة من الديون على السُّودان،

رأينا أن نوضح الحقيقة. وفي قبول حكومة إنكلترا مراجعة ديون مصر على السُّودان ربح عظيم لنا وحسنة كبرى من حسنات هذا الاتِّفاق. والمعلومات التي سأذكرها جزء من أبحاثي التي قمت بها حينما كنت مستشارًا في الوفد الرَّسمي، وقد توصلت إليها من جداول الإحصاء السنوية التي تنشرها مصلحة الإحصاء المصرية.

إنَّ ديون مصر على السُّودان تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتكون من المبالغ الداخلة في الميزانية الاعتيادية للحكومة المصرية.

ثانيًا: المبالغ المأخوذة من الاحتياطي.

ثالثا: المبالغ التي ترتبت على وجود الجيش المصري في السُّودان.

وقد أضفنا إلى كلّ من مبالغ القسم الأول والثاني فائدة ثلاثة في المائة طبقًا لتصريح وزير المالية المصريَّة أمام مجلس شورى القوانين إجابة للرغبة التي أبداها المجلس بتاريخ ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٩ من وجوب أن يدفع السُّودان لمصر فوائد على دينها تعادل الفائدة التي تدفعها مصر لدائنيها.

وقد وضَّحنا هذه المبالغ الثلاثة في الجداول الآتية:

كشف رقم ١:

المبالغ التي أخذت من الميزانية المصريَّة المعتادة

سنة	أصل المبلغ	أرباح ٣٪
١٨٩٩	١٤٠٦١٣	٤٢١٨
١٩٠٠	١٣٤٣١٧	٨٣٧٤
١٩٠١	١٩٤٥٤٥	١٤٤٦٢
١٩٠٢	٢٦٧١٧٣	٢٢٩١١
١٩٠٣	١٩٦٠٦٣	٢٩٤٨٠
١٩٠٤	١٩٣٨٥٠	٣٦١٨٠

سنة	أصل المبلغ	أرباح ٣٪
١٩٠٥	١٩٣٠٠٦	٤٣٠٥٦
١٩٠٦	٢٥٣٠٠٦	٥١٩٣٨
١٩٠٧	٢٥٣٠٠٦	٦١٠٨٦
١٩٠٨	٢٥٣٠٠٦	٧٠٥٠٩
١٩٠٩	٢٠٨٠٠٠	٧٨٨٦٤
١٩١٠	١٩٨٠٠٠	٨٧١٣٠
١٩١١	١٨٨٠٠٠	٩٥٤٢٥
١٩١٢	١٦٣٠٠٠	١٠٣١٧٨
من ١٩١٢ إلى ١٩٢١	٠٠٠٠٠٠	١٠٧٦٥٧٩
	٢٨٣٥٥٨٥	١٧٨٣٢٩٠
المجموع	٤٦١٨٩٧٥	

وعلى ذلك يكون مجموع المبالغ التي أخذت من الميزانية العادية المصريَّة وفوائدها حتَّى سنة ١٩٢١ هو مبلغ ٤٦١٨٩٧٥.

كشف رقم ٢:

المبالغ التي أخذت من الاحتياطي

سنة	أصل المبلغ	أرباح ٣٪
١٨٩٦	٦٤٠٣٠٥	١٩٣٠٩
١٨٩٧	٦٥٤٨٢٨	٣٩٤٣٠
١٨٩٨	٥٥٠٣٧٨	٥٧١٢٤
١٨٩٩	٥٦٤٧٤٥	٧٣٩٨٠

سنة	أصل المبلغ	أرباح ٣٪
١٩٠٠–١٩٠١	٢٠٨٥٧١	٨٣٥٥٧
١٩٠٢	١٥٥٤١٧	٨٩٥٩٣
١٩٠٣	١٤٦٥٤٤	٩٣٦٧٧
١٩٠٤	٦٣٠٣٩٢	١١٥٣٩٩
١٩٠٥	٧٠٤٤٥٥	١٣٩٩٩٥
١٩٠٦	٦٧٢٢٤٢	١٦٤٣٦٢
١٩٠٧	٩٩١٥٩٨	١٩٦٣٤٢
١٩٠٨	٦٦٥٦٠٧	٢٢٢١٩٩
١٩٠٩	٦٤٥٢٠٠	٢٤٨٢٢١
١٩١٠	٥١٨٨٦٦	٢٨٠٢٣٤
١٩١١	١٣٢٥١٠	٢٩٢٢١٦
١٩١٢	٤٥٧٢٨	٣٠٢٧٦٦
١٩١٣	٤٣٨٥٦	٣١٤١٦٥
١٩١٤	٤٩٨٩	
١٩١٤ إلى ١٩٢١	٠٠٠٠٠٠	٢٣٤٩٥٧٨
	٧٩٨٦٢٣١	٥٠٨١١٤٦
المجموع	١٣٠٦٧٣٧٧	

كشف رقم ٣: نفقات الجيش:

في حساب هذا الكشف راعينا المبالغ التي كانت تنفق على الجيش المصري قبل فتح السُّودان وقبل الاستعدادات التي عملت لهذا الفتح فلم نحسبها. وأضفنا على السُّودان فقط الفرق بين مصروفات الجيش حال وجوده بالسُّودان ومصروفاته قبل الفتح حال وجود أكبر قوة عسكرية منه. وللوصول إلى هذه الغاية أخذنا متوسط ميزانية الجيش من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٨٩٢ فوجدنا

هذا المتوسط ٣٣٠٣٨٣ جنيهًا مصريًّا. فحذفنا هذا المبلغ من الميزانية السنوية للجيش المصري من سنة ١٨٩٩ سنة المعاهدة إلى سنة ١٩٢١، وأضفنا على السُّودان الباقي بعد خصم هذا المتوسط.

وتعمَّدنا عدم ذكر نفقات الجيش من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٨٩٩؛ لأنَّ هذه النفقات عملت لفتح السُّودان ولا يجوز إضافتها إلى هذه المبالغ.

وعلى الرغم من أنَّ الجيش كان بأجمعه في السُّودان، فإنَّ المصروفات التي أضيفت على السُّودان هي أقل من ثلث مجموع مصروفات الجيش المصري. ولو جرينا على تقسيم مصروفات الجيش المصري بين مصر والسُّودان بقياس عدد العساكر التي في كلٍّ منهما لكان على السُّودان أن يحتمل ميزانية الجيش كلها تقريبًا.

وها هو كشف نفقات الجيش من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٨٩٢ الذي جعلناه أساسًا لاستخراج المتوسط:

سنة	جملة
١٨٨٣	٢٤٦٩١٤
١٨٨٤	٢٧١٢٧٩
١٨٨٥	١٢٩٣١٠
١٨٨٦	١٤٠٩٣٦
١٨٨٧	٢٠٦٠٦٣
١٨٨٨	٣٨٦١٣٨
١٨٨٩	٤٩٤٥٥١
١٨٩٠	٤٦٠٩٧٧
١٨٩١	٤٩٤٣٠٠
١٨٩٢	٤٧٣٣٥٦
	٣٣٠٣٨٢٤

كشف رقم ٤:

المبالغ التي أخذت من الميزانية المعتادة	٤٦٠٨٩٧٥
المبالغ التي اخذت من الاحتياط	١٢٩٦٧٥٧٧
النفقات العسكرية	١٧٦١٩٥٢١
المجموع	٣٥١٩٦٠٧٣

ملحوظة: جميع هذه المبالغ والأرقام مأخوذة من إحصائيات سنوية للحكومة المصرية.

لندن في ٥ أغسطس سنة ١٩٢١

الإمضاء: محمد أبو الفتوح

وبين نفقات الجيش سنويًّا بعد رجوعه إلى السُّودان ولم نضف بحسابنا أيَّ مبلغ من المبالغ التي أنفقت من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٨٩٩، باعتبار أنَّ الجيش كان يعمل في هذه المدة لاسترداد السُّودان.

ولا يمكن أن يقال: إنَّ المبالغ المحوية على السُّودان في نفقات الجيش مبالغ فيها؛ لأنَّها لم تصل في سنة من السنين إلى ثلث مجموع نفقات الجيش مع أنَّ الجيش تقريبًا كله كان بالسُّودان، ويلاحظ أنَّنا هنا لم نضف فوائد مطلقًا إلى نفقات الجيش.

وقد أوقفنا هذا الحساب لغاية سنة ١٩٢١، فإذا أضفنا إلى ذلك الفائدة من سنة ١٩٢١ إلى الآن يكون مجموع الديون التي للحكومة المصريَّة على السُّودان ٤٠٠٠٥٣٦٠ج.م وذلك بخلاف المبالغ التي صرفت من سنة ١٩٢١ للآن.

وهذه المبالغ لا يستهان بها لأنها تقرب من قيمة ثلثي الدين الذي على مصر إذا نظرنا لقيمته الحقيقية لا لقيمة أسهمه الاسمية.

النفقات العسكرية

سنة	الجملة	الجملة بعد المتوسط	أرباح ٣٪
١٨٩٩	٧٤١٤٠٨	٤١١٠٢٥	١٢٣٣١
١٩٠٠	٧٢٣٦٠١	٣٩٢٢١٨	٢٤٤٦٧
١٩٠١	٦٦٠٠٤١	٣٢٩٦٥٧	٣٥٠٩٠
١٩٠٢	٥٥٧٣٧٨	٢٨٦٩٩٥	٤٢٩٥٤
١٩٠٣	٦١٠٨٥٧	٢٨٠٤٧٤	٥٢٦٥٦
١٩٠٤	٦٢٤٩٩٦	٢٩٤٦١٣	٦٣٠٧٤
١٩٠٥	٦٥٧٦١٦	٣٢٧٢٣٣	٧١٧٨٣
١٩٠٦	٧٢٤٤١٢	٣٩٤٠٢٩	٨٥٧٥٨
١٩٠٧	٧٤٨٤٠٩	٤١٨٠٠٧	١٠٠٨٧١
١٩٠٨	٨٠٥٠١٣	٤٧٤٦٣٠	١١٨١٣٦
١٩٠٩	٨٢٠٨٢٣	٤٩٠٤٤٠	١٣٦٣٩٤
١٩١٠	٨٦٣٢٢٣	٥٣٢٨٤٠	١٥٦٤٧١
١٩١١	٩١٠٢٤١	٥٧٩٨٥٨	١٧٨٥٦٠
١٩١٢	٩٥٠٦٩٣	٦٢٠٣١٠	٢٠٢٥٢٧
١٩١٣	٩٧٩٦٤٨	٦٤٩٢٦٥	٢٢٨٠٨٠
١٩١٤	٢٢١٨٨٩	٢٢١٨٨٩	٢٦٠٣٢٥
١٩١٤–١٩١٥	٩٥٥٣٤١	٦٢٤٨٥٨	
١٩١٥–١٩١٦	٨٦٦٠٩٥	٥٣٥٧١٢	٢٨٤٢٠٦
١٩١٦–١٩١٧	٩٢٩٤١١	٥٩٩٠٢٨	٢١٠٧٠٣
١٩١٧–١٩١٨	١٢٠٨٤٤٠	٨٧٨٠٥٧	٣٤٦٣٦٦
١٩١٨–١٩١٩	١٦١٥٠٥٥	١٤٢٣٠٧٢	٣٩٩٤٤٩
١٩١٩–١٩٢٠	١٧٥٣٤٥٥	١٢٨٤٦٧٢	٤٤٩٩٧٣

سنة	الجملة	الجملة بعد المتوسط	أرباح ٣٪
١٩٢٠–١٩٢١	١٨٩٠٥٦٠	١٥٦٠١٧٧	٥١٠٢٧٧
		١٣٥٤٩٠٧٠	٤٠٧٠٤٥١
المجموع		١٧٦١٩٥٢١	

(١) بيان محمد شفيق باشا في مجلس النواب

يوم الأربعاء ٢٤ محرم سنة ١٣٥٢ رد معالي محمد شفيق باشا وزير الأشغال ونائب رئيس مجلس الوزراء بسبب غياب رئيسه إسماعيل صدقي باشا على سؤال من النائب فهيم القيعي، بالبيان التَّالي:

> في سنة ١٩٠٩ وضعت وزارة المالية بيانًا بالأموال التي أُنفقت في سبيل السُّودان منذ سنة ١٨٩٩، ونشرته في الحساب الختامي. واستمر نشر هذا البيان سنويًّا إلى أن أصدر مجلس الوزراء بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٩٢٥ قرارًا بوقف هذا النشر إلى أن يتمَّ البحث في أساس طريقة وضع الحساب ومراجعة مشتملاته.
>
> وكانت هذه المسألة موضوع اهتمام الوزارات التي تعاقبت من سنة ١٩٢٤ إلى الآن توطئة لوضع اتِّفاق بشأنها مع سائر المسائل التي تتناولها المفاوضة مع الحكومة البريطانية.
>
> أمَّا مقدار الأموال التي يشتمل عليها البيان المشار إليه فقد بلغ في آخر السنة المالية ١٩٢٢–١٩٢٣: ١٤٢٥٨٠٠٠ج.م، منها ٥٥١٥٠٠٠ج.م للسلف التي منحت للأعمال المتعلقة بنمو السُّودان و٥٣٢٤٠٠٠ج.م للإعانات التي كانت تمنح سنويًّا لسد عجز إيراداته و٣ ملايين و٤١٩٠٠٠ جنيه للمصاريف العسكرية المختصة به.
>
> وإني أودع سكرتارية المجلس كشفًا ببيان هذه المبالغ سنة سنة.

هذا هو البيان الذي قدمه رئيس الوزراء بالنيابة. أمَّا الكشف الذي أشار إليه هنا فهذه صورته.

بيان السلف المعطاة للسُّودان لأجل الأعمال المتعلقة بنموه والإعانات الممنوحة سنويًّا لسد عجز إيراداته.

السنوات	السلف المعطاة لأجل الأعمال المتعلقة بنمو السُّودان	الإعانات الممنوحة سنويًّا لسد عجز إيرادات السُّودان	المصاريف العسكرية الخاصَّة بالسُّودان الداخلة في ميزانية وزارة الحربية
	جنيه	جنيه	جنيه
١٨٩٩	–	٤٤٤٨٨٧	–
١٩٠٠	–	٤٥٧٨٩٢	–
١٩٠١	١٢١٣٥٢	٤١٧١٧٩	–
١٩٠٢	١٤٢٨٣٢	٣٨٩٧٢١	–
١٩٠٣	١٢٩١١٠	٣٨٩٧٢١	–
١٩٠٤	٦٢١٨٦٣	٣٧٩٧٦٣	–
١٩٠٥	٧٥٠٢١٣	٣٧٩٧٦٣	–
١٩٠٦	٦٩٨٦٤٠	٣٧٩٧٦٣	–
١٩٠٧	٩٢١٥٩٨	٣٧٩٧٦٣	–
١٩٠٨	٦٣٧٧٦٨	٣٧٩٧٦٣	–
١٩٠٩	٦٤٥٢٠٠	٣٣٥٠٠٠	–
١٩١٠	٥١٨٨٦٦	٣٢٥٠٠٠	–
١٩١١	١٣٢٥١٠	٣٦٠٠٠٠	–
١٩١٢	٤٥٧٢٨	٣٣٥٠٠٠	–
١٩١٣	٤٣٨٥٦	–	١٧٩٤٨١
١٩١٤ (الثلاثة أشهر الأولى)	٤٩٨٩	–	٤٤٨٧٠
١٩١٤–١٩١٥	–	–	١٧٩٤٨١
١٩١٥–١٩١٦	–	–	١٧٩٤٨١

السنوات	السلف المعطاة لأجل الأعمال المتعلقة بنمو السُّودان	الإعانات الممنوحة سنويًّا لسد عجز إيرادات السُّودان	المصاريف العسكرية الخاصَّة بالسُّودان الداخلة في ميزانية وزارة الحربية
١٩١٦–١٩١٧	–	–	١٧٩٤٨١
١٩١٧–١٩١٨	–	–	٤٢٢٧٦٤
١٩١٨–١٩١٩	–	–	٤٤٥٦٩١
١٩١٩–١٩٢٠	١٧٠٠٠٠*	–	٣٢٩٤٨١
١٩٢٠–١٩٢١	–	–	٤٦٤٤٠٣
١٩٢١–١٩٢٢	–	–	٤٧٧٩٤٧
١٩٢٢–١٩٢٣	–	–	٥١٥٧٢٥
المجموع	٥٥٨٤٥٢٥	٥٣٥٣٢١٥†	٣٤١٨٨٠٥

* سدَّدت حكومة السُّودان من هذا المبلغ ٧٠٠٠٠ جنيه لغاية سنة ١٩٢٢.

† سدَّدت حكومة السُّودان من هذا المبلغ ٢٩٠٠٠ جنيه لغاية سنة ١٩٢٢.

(٢) بيان للدكتور محجوب ثابت

جدول يبين مجموع المصروفات التي أنفقتها مصر من عام ١٨٩٩–١٩١٢ على السُّودان

السنة	الإعانة المالية السنوية			مصروفات خصوصية وسلفيات من مال الاحتياطي
	الملكية	الحربية	المجموع	
١٨٩٩	١٥٦٠٠٠	٢٦٦٠٦٨	٤٢٢٠٦٨	
١٩٠٠	١٣٤٣١٦	٢٨٢٨٦٢	٤١٧١٧٩	
١٩٠١	١٩٤٥٤٥	٢٢٢٦٣٤	٤١٧١٧٩	١٢٣٣٥٢
١٩٠٢	٢٦٧١٧٣	١٢٢٥٤٨	٣٨٩٧٢١	١٤٢٨٣٢
١٩٠٣	١٩٦٠٦٣	١٩٣٦٥٨	٣٨٩٧٢١	١٢٩١١٠

السنة	الإعانة المالية السنوية			مصروفات خصوصية وسلفيات من مال الاحتياطي
١٩٠٤	١٩٣٨٥٠	١٨٥٩١٣	٣٧٩٧٦٣	٦٢١٨٦٣
١٩٠٥	١٩٣٠٠٦	١٨٦٧٥٧	٣٧٩٧٦٣	٧٥٠٢١٣
١٩٠٦	٢٥٣٠٠٦	١٢٦٧٥٧	٣٧٩٧٦٣	٦٨٩٦٤٠
١٩٠٧	٢٥٣٠٠٦	١٢٦٧٥٧	٣٧٩٧٦٣	٩٢١٥٩٨
١٩٠٨	٢٥٣٠٠٦	١٢٦٧٥٧	٣٧٩٧٦٣	٦٣٧٧٦٨
١٩٠٩	٢٠٨٠٠٠	١٢٧٠٠٠	٣٣٥٠٠٠	٦٤٥٢٠٠
١٩١٠	١٩٨٠٠٠	١٢٧٠٠٠	٣٢٥٠٠٠	٥١٨٨٦٦
١٩١١	١٨٨٠٠٠	١٧٢٠٠٠	٣٦٠٠٠٠	
١٩١٢	١٦٣٠٠٠	١٧٢٠٠٠	٣٣٥٠٠٠	
	٢٨٥٠٩٧١	٢٤٣٨٧١١	٥٢٨٩٦٨٣	٥١٨٠٤٤٢

ملاحظة: وقفت مصر هذه الإعانة المالية سنة ١٩١٣ مقابل استيلاء السُّودان الرسوم الجمركية على البضائع الواردة باسمه.

ولو حسبنا الفوائد المركَّبة لتلك المبالغ لهالنا الأمر، وزد على ذلك المبالغ الآتية:

٢٠٠٠٠٠٠ جنيه النفقات التي خصِّصت لإخلاء السُّودان ذلك الإخلاء الذي حتَّمته السِّياسة الإنكليزيَّة بالرَّغم من معارضة وزارة شريف باشا ممَّا تراه مفصلًا في كتاب ملنر «إنكلترا في مصر».

٢٥٠٠٠٠٠ نفقات إعادة السُّودان من سنة ١٨٩٦–١٨٩٩.

٦٤٠٠٠٠٠ سُلفة من سنة ١٩١٧ مقدمة لحكومة السُّودان لإقامة مضخَّات رافعة للمياه لري ١٩٠٠٠٠ فدان بمديريتي دنقلة وبربر.

(٣) مصلحة الأشغال العسكرية

تحدث سعادة اللواء محمد لبيب الشاهد باشا مع مجلة الدنيا المصورة الصادرة بتاريخ ٢٧ يوليو سنة ١٩٣٠ عن المنشآت التي أنشأتها مصلحة الأشغال العسكرية التابعة للجيش المصري، فإذا هي: سراي الحاكم العام. دواوين المالية. والحربية. والحقَّانية. والداخلية. والزراعة والبريد والتلغراف ومساكن لكبار الموظفين الإنكليز. ومكاتب تسجيل الأراضي. ومخازن مصلحة الصحة. المطبعة الأميرية. قشلاقات سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس بضواحي الخرطوم، وثلاث قشلاقات كبرى بالخرطوم بحري للطوبجية، خمسة قشلاقات للجيش الإنكليزي. مساكن لضباتهم. مخازن الأسلحة والمهمات والجبخانة والبارود. طابية الدفاع الكبرى. مخازن المهمات والورش. قشلاق قسم الأشغال العسكرية. ورش مخازن قسم الأشغال الملكية. السجن العمومي، وكلية غوردون، جامع الخرطوم، مساكن لصف الضبَّاط الإنكليز. مخازن تعيينات الجيش المصري. مخازن وورش مصلحة وابورات النِّيل والمراكب. رصيف أمام مدينة الخرطوم. مستشفى الجيش. مديرية الخرطوم. مساكن لكبار موظفيها. إدارة المصلحة البيطرية ومستشفاها. قشلاقات البيادة بأم درمان. قشلاق البيادة الراكبة.

هذا في الخرطوم وحدها، وهناك منشآت أخرى في حلفا وبربر وأبي حمد والعطبرة وشندى وخورشمبات وود مدني وكسلا والقضارف وسواكن وبورسودان والأبيض والنهود وبارة والدلنج وتالودي والدويم والتوفيقية والسوباط والبيبور وبلاد دارفور وبحر الغزال ومنجلا.

وكان جنود أورطة السكة الحديدية، وهي أكبر أورطة الجيش المصري، يسهرون على صيانة السكك الحديدية ويتعهدونها بالإصلاح كلَّما دمرتها السيول أو جرفتها الرياح أو غمرتها الرمال، متحمِّلين في ذلك حرارة القيظ وزمهرير البرد وعصف الزوابع وقصف الرعود وويلات الهبوب.

الفصل الحادي عشر

الطرق الصُّوفيَّة

انتشرت الطرق الصُّوفيَّة في السُّودان انتشارًا واسعًا وأكثرها انتشارًا الطريقة الميرغنية. وأنصارها يؤمنون بمشايخهم وخلفائهم، ويخلصون لهم، ويبذلون أموالهم وحياتهم في سبيلهم، ويجب أن يلاحظ أنَّه ليس في السُّودان زعامة سياسية وطنية بالمعنى المفهوم في مصر، وأنَّ النفوذ الظاهر هو النفوذ الديني؛ ولذا قامت الثَّورة المَهديَّة — كما رأينا — على أساس الدعوة الدينية.

وإنَّه وإنْ تكن قد انتشرت في السُّودان طرق كالطريقة الإدريسيَّة والقادريَّة والشَّاذلية وسواها، إلَّا أنَّ كلَّ هذه الطرق وافدة على السُّودان وليس في السُّودان قاطبة طريقة أُسِّست من عربي سوداني سوى الطريقة الإسماعيلية، أعني طريقة الشيخ إسماعيل بن عبد الله — الولي الكردفاني. وقد نشأت هذه الطريقة في عهد الحكم المصري الأول بالأبيض، وكان صاحبها متطرفًا بالطريقة الختمية في أول أمره، ثمَّ أسس طريقته بإذن صحيح بحضرة شيخه الشيخ محمد عثمان المرغي شيخ الطريقة الختمية، وقد انتشرت هذه الطريقة بسرعة البرق في جميع أنحاء السُّودان، وخاصة في كردفان وأم درمان ودنقلا، وهي الطريقة الوحيدة التي كانت قائمة أيام المَهديَّة لاحترام المهدي لها، وهي أمتن طريقة من حيث مؤلفات مؤسسها الذي جمع بين علمي الشريعة والحقيقة في عصر كان يعد مظلمًا: فقد نيَّفت مؤلفات الشيخ إسماعيل على الخمسين كتابًا في علمي الشريعة والحقيقة، ولم يطبع منها إلَّا القليل جدًّا، بل ما يعد غير مذكور بالنسبة لمؤلفاته. ومؤلفاته تمتاز بأنَّها محكمة فنية بليغة الأسلوب على خلاف ما يشاهد في أشعار المتصوفين بالسودان. ومن أشهرها كتاب مشارق الأنوار الذي لم يطبع إلى اليوم، فحرم الناس من علمه الغزير، وهو يتكلم عن السموات السبع والأرضين السبع، ثمَّ إنَّ أُسْرة صاحب هذه الطريقة أشهر الأسر في السُّودان علمًا وصلاحًا ولم يصبها من عسف

المَهديَّة وظلمها إلَّا الاحترام، وتجد حظوة السيد المكي الشيخ إسماعيل الولي عند الخليفة والمهدي مذكورة في تاريخ السُّودان. وقد عدَّ علماء هذه الأسرة وصلحاؤها فزادوا على الستين، ومن أشهر علمائها السيد أحمد الشيخ إسماعيل الولي، وهو أزهري وأول من درس بالأزهر من السُّودانيين. وقد وفد على السُّودان، وكان له أثر ظاهر في العلم الذي انتشر بعدُ على يد تلامذته. وقد أنكر على المهدي دعوته وحاربه مع جيوش الحكومة المصريَّة حتَّى قتل شهيدًا مع ابنه، ومنهم السيد الباقر ابن الشيخ إسماعيل المدرس بجامع الخرطوم في صدر هذه الحكومة إلى أن توفَّاه الله عام ١٩١٨، ومنهم السيد إسماعيل بن السيد أحمد المذكور مفتي السُّودان سابقًا «بهذه الحكومة» ومنهم الشيخ إسماعيل عبد القادر ابن بنت الشيخ إسماعيل الولي وهو أزهري، ومنهم السيد محمد السيد الباقر المدرس بجامع أم درمان اليوم، ومن هيئة كبار علمائه المبرزين وأقدرهم، وكثير غير هؤلاء، حتَّى إنَّهم عُرِفوا بالسَّادة، فهناك لا يُطلق هذا الاسم على أسرة بأكملها صغيرهم وكبيرهم سواهم.

وهنا أذكر أنَّ الشيخ عبد الله أبا المعالي تلميذ الأمير، وهو أزهري جليل جاء إلى السُّودان، واجتمع برؤساء أهل الطرق فيه، فأنكر عليهم كلهم حتَّى وصل إلى الشيخ إسماعيل المذكور، ففتح له على يده في خلال أسبوع أو أقل، ولذلك امتدحه بجميع أبحر الشعر حتَّى قال في بعض قصائده الكثيرة:

وإذا سطوت فلا معارض ينتمي — وإذا رحمت فأنت إسماعيلُ
أبديت ما لم يبده من قد مضى — يا من يزين بكفه التقبيلُ

والشيخ عبد الله أبو المعالي المذكور وقائل هذا الشعر هو الذي امتدحه الشيخ البولاقي عند مروره ببولاق فقال في شطر بيت له مشيرًا إليه:

شرفت به بولاق والبولاقي

فمن هنا يتَّضح لك مكانة مؤسِّس الطريقة الإسماعيلية. أمَّا كتبه التي لم تنشر فإنَّه لم يسبقه على مثلها إلَّا أمثال الشيخ محي الدين بن العربي، ولعل الناس يفاجأون بها في يوم من الأيام فيعلموا شيئًا عن عظم صاحبها. والشيخ إسماعيل المذكور عباسي نسبًا ونسبه محفوظ وذريته الآن نحو أربعة الآلاف نفس، وأمَّا أتباعه فهم فوق الحصر.

(١) الطريقة الميرغنية

الطريقة الختمية الميرغنية: أنشأها السيد محمد عثمان الميرغني العالم الصوفي الحنفي، ولد بمكة ونشأ بها واتصل بكثير من علماء مكة وفي مقدمتهم السيد أحمد بن إدريس الذي نشأ في المغرب. وكان اتصاله به عند زيارته لمكة لأداء فريضة الحج. ثمَّ أسَّس الطريقة الختمية الميرغنية على أصول طرق خمس، ورمز إليها بكلمة «نقش جم»، فالنون للنقشبندية، وهي طريقة شيخه سيدي أحمد بن إدريس، والقاف للقادرية التي مؤسسها سيدي عبد القادر الجيلاني، والشين للشاذلية ومؤسسها سيدي أبو الحسن الشاذلي، والجيم للجنيدية ومؤسسها السيد الجنيدي، والميم للميرغنية وهي طريقة جدِّه السيد عبد الله الميرغني المحجوب المدفون بالطائف.

ودعيت بالطريقة الختمية؛ لأنَّ شيخها وصل في سلوكه إلى رتبة الختم، وهي مرتبة عند الصُّوفيَّة لا يصل إليها إلَّا عارف «ولي» في كلّ قرن.

ثم أراد السيد محمد عثمان الكبير السفر إلى مصر، فنزل في ميناء القصير بمديرية قنا، ومنها نزل إلى قرية الزينية بمركز منفلوط، وبعد أن أقام بها سافر إلى السُّودان، وأقام في بلاد كثيرة، وكان يتردَّد بين بلاد السُّودان والحجاز، وتزوج من بنات بعض أمراء السُّودان، ومنهن والدة السيد محمد الحسن جد السير علي الميرغني الزعيم السُّوداني المشهور.

وقد ترك السيد محمد عثمان بالسُّودان ثمانية أولاد، وهم السيد محمد سر الختم والد السيد محمد سر الختم الميرغني الشهير بمصر المدفون بتكية باب الوزير، والسيد محمد الحسن جد السير السيد علي الميرغني، والسيد جعفر الميرغني الكبير، وهو جد السيد جعفر الزعيم الحالي في الأريتريا والصومال، والحبشة، والسيد هاشم الميرغني والد الشريفة علوية بالأريتريا والشريفة مريم بسنكات، والسيد إبراهيم تاج الختم، والسيد المحجوب الباب، والسيد التاج، والسيد خالص النور. ودفن أكثرهم بالسودان.

(١-١) انتشارها في السُّودان

وكان تأسيس الطريقة الميرغنية في آخر سلطنة الفونج. واشتهرت في التاكا «كسلا» بين الحلانقة وبني عامر والحباب، وفي دنقلة بين النوبيين والشايقية والكبابيش والبشارين والعبابدة. وقد ولد مؤسِّس الطريقة ودفن في مكة.

حضرة صاحب السماحة الحسيب النسيب السير السيد علي الميرغني.

(١-٢) انتشار الطريقة بمصر

أول من نقل الطريقة الميرغنية من الحجاز إلى مصر سيدي أبو حريبة المدفون بالدرب الأحمر، وقد اتصل بشيخ الطريقة عند زيارته بمكة لأداء فريضة الحج، ولازمه عامين، ثمَّ أجازه بنشر طريقته بمصر، واشتهر أتباعه ومريدوه بطريقة أبو حريبة. وشيخ سجادة الطريقة الميرغنية الآن هو السيد محمد أبو بكر الميرغني. والطريقة منتشرة بسائر مديريات الوجهين البحري والقبلي والمحافظات، وللطريقة تكية بالقاهرة بشارع باب الوزير، وبها ضريح السيد محمد سر الختم والسيد محمد عثمان الأقرب وكثير من أشراف المراغنة. وتكية بالإسكندرية. وبكل تكية مسجد. وللطريقة خلفاء.

والطريقة الميرغنية في السُّودان هي أوسع الطرق الصُّوفيَّة انتشارًا وأرفعها مقامًا، وتمتاز الطريقة الميرغنية في أذكارها وأورادها وسائر مظاهرها بخلوِّها من البدع كالطَّبل والزَّمر والتَّصفير وسائر ما طرأ على طرق الصُّوفيَّة من التحريف.

وجميع أذكارها وأورادها ترجع إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ بالأسانيد الصحيحة.

وللسيد محمد عثمان الكبير مؤلفات كثيرة، منها تفسير القرآن المسمى بتاج التفاسير. وقد تكرر طبعه، وفي الحديث وعلم المصطلح والتوحيد والتصوف والصلوات والأوراد ومن المدائح النبوية الشيء الكثير. وكان له في كلّ علم قدم، وله أوراد خاصة وراتب ينظم أذكار أتباعه صباح مساء، وله شرح يرجعه إلى أصول السنة، وهي متداولة.

وانتشرت الطريقة في بعض مقاطعات الهند الإسلامية بسبب زيارة السيد جعفر للهند.

وهي منتشرة باليمن بسبب زيارة السيد محمد سر الختم، وقد تزوج فيها، كما انتشرت في البلاد الإسلامية.

ورجال الطريقة الميرغنية في جميع أطوارهم بعيدون عن شهوة الحكم، مشهورون بالهدوء والسكينة والبعد عن المشاغبات. وقد ظلوا موالين للحكومة في أثناء الثَّورة المهدية.

(٢) طرق أخرى في السُّودان

القادرية. السمانية. الشاذلية. الإسماعيلية. التيجانية. الأحمدية. الرفاعية. البيومية. البراهمة، نسبت إلى سيدي إبراهيم الدسوقي.

(٢-١) الشريف يوسف الهندي

هو الزعيم الديني الثالث من زعماء السُّودان، وهو ابن الحسيب النسيب الشريف يوسف الهندي ابن الشريف محمد الأمين بن الشريف يوسف الهندي من سُكَّان رهد النِّيل الأزرق.

صاحب السِّيادة الحسيب النسيب الشريف يوسف الهندي.

الفصل الثاني عشر

حوادث مصر في السُّودان

واصلت حكومة السُّودان حكم البلاد على النهج الذي أسلفنا الكلام عليه، وظلَّ النفوذ الإنكليزي يتوطد في البلاد السُّودانية، بينما يضعف النفوذ المصري الرَّسمي، ببطء وتدريجيًّا.

على أنَّ حوادث مصر كانت تلقى صدًى في السُّودان. فلقد كان الجيش المصري وموظفون مدنيون مصريون كثيرون يعملون في السُّودان كموظفين منتدبين من الحكومة المصرية. أو عاملين في الحكومة السُّودانية، وكان مع رجال الجيش والموظفين أسرهم. وكانت حركة النَّقل بين مصر والسُّودان لا تنقطع، وكان الكثير من المصريين في السُّودان والسُّودانيين مشتركين في الصحف المصرية.

كما أنَّه كانت هناك علاقات تجارية بين مصر والسُّودان؛ ولذا كانت حوادث مصر تُسمع وتُقرأ ويُعلَّق عليها في السُّودان، هذا من الوجهتين الاجتماعية والتِّجاريَّة وشيء من الوجهة السياسية «الكلامية». على أن الحكومة السُّودانية كثيرًا ما منعت دخول الصحف العربية إلى السُّودان.

ومن الوجهة السياسية كان المصريون لا يفتأون ينادون في كلّ مناسبة ببطلان اتِّفاقيَّة سنة ١٨١٩، ولكن توطيد دعائم الاحتلال في مصر وزيادة النفوذ الإنكليزي فيها وطرده لكل نفوذ أجنبي، وخاصة النفوذ الفرنسي، قد ألهى المصريين في الواقع عمَّا كان يجري في السُّودان، فحوادث مصر الداخلية كانت كثيرة ومزدوجة، كسياسة كرومر، والخلاف بينه وبين الخديوي عباس، ونشوء أحزاب سياسية جديدة، الحزب الوطني بزعامة المغفور له مصطفى كامل، ولسان حاله جريدة اللواء وزميلتان لها إحداهما فرنسية والأخرى إنكليزية، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ومؤسسه ورئيسه المغفور له السيد علي يوسف «باشا»[١] صاحب جريدة «المؤيد» التي كان لها شأن عظيم

في مستهل الحركة الوطنية الأولى وفي العالم الإسلامي، وكان لصاحبها حوادث كثيرة تحدَّث بها الرأي العام. وكان لها في وقت من الأوقات مشتركون كثيرون في السُّودان. ثمَّ حزب الأمة ورئيسه المغفور له محمود سليمان باشا والد حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين. وكانت الجريدة لسان حال حزب الأمة ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد بك مدير الجامعة المصرية.

وقد لعب الخديوي «عباس حلمي الثَّاني» دورًا سياسيًّا كبيرًا،[٢] فكانت له بطانة وأنصار وجواسيس. وقد ولي الحكم في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٢ خلفًا لوالده، وكانت سنه قد بلغت ١٨ سنة هجرية، ولكنَّها لم تبلغ الثامنة عشرة ميلادية.

ومن حوادث مصر حادثة دنشواي، ومشروع مد أجل امتياز شركة قناة السويس.

وكانت مصر لا تني تطالب بالدستور، وكان طلبة الحقوق الخديوية وغيرهم يؤلفون المظاهرات تحت رعاية الحزب الوطني ونادي المدارس العليا، الذي كان من أركانه حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا، للمطالبة بالدستور، وكان في مصر مجالس شورية: الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ومجالس المديريات. ثمَّ ألغيت الجمعية العمومية ومجلس الشورى، وألفت الجمعية التَّشريعيَّة بديلًا منها. وقد أثار قانون تأليفها كثيرًا من التعليقات، وانتخب الزعيم الخالد المغفور له سعد زغلول باشا وكيلًا منتخبًا لها، وعيِّن المغفور له عدلي يكن باشا وكيلًا لها، إذ كان لها وكيلان أحدهما منتخب والثاني معين.

وكانت الصحف الوطنية تسمي «سعدًا» كبير الأحرار، وكانت مواقفه ومواقف أصدقائه في المجلس تثير تعليقات الصحف العربية والأفرنكية.

وقد تطيَّر اللُّورد كتشنر إذ كان معتمدًا لإنجلترا في مصر وقنصلها العام من «تطرف جماعة سعد».

هوامش

(١) صورته والكلام عنه في هذا الجزء.

(٢) صورته في هذا الجزء.

الفصل الثالث عشر

عهد الحماية والسلطنة في مصر

في سنة ١٩١٣ كان سمو الخديوي السَّابق عباس حلمي باشا كثير النشاط، وقد أثار هذا النَّشاط غضب اللُّورد كتشنر، الذي عيِّن في مصر خلفًا للسير جورست، والذي عدّ هذا النَّشاط موجهًا ضد الإمبراطُوريَّة البريطانية وتآمرًا مع أعدائها، ونصح بانتهاز الفرصة لخلعه.

وكان من عادة الخديوي أن يصطاف في الأستانة «استانبول»، وقبل سفره سنة ١٩١٤ زار كثيرًا من البلاد، واحتفل به الأعيان، وبعد وصوله إلى الأستانة بأيام، أطلق طالب مصري بالأستانة اسمه محمود مظهر النار على الخديوي في ٢٥ يولية سنة ١٩١٤ فجرحه في فكه الأيسر، وسافرت من مصر وفود لتهنئة سموه بنجاته. وفيما كانت الوفود تؤدي هذه المهمة، كانت أوروبا مشغولة بحادث اغتيال ولي عهد النمسا من شاب صربي، فاشتعال الحرب الكبرى، حيث دخلت إنكلترا فيها في ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ وأعلنت مصر حيادها. وفي ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ أعلنت إنكلترا الحرب على تركيا، وأعلن في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ سير جون ماكسويل قائد جيش الاحتلال الإنكليزي أن مصر تحت الأحكام العُرفية الإنكليزية.

(١) الانقلاب السياسي وإعلان الحماية

في صبيحة يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ نشر الإعلان الآتي في الجريدة الرَّسمية والجرائد السيارة، وعلق على الجدران في الأماكن الظاهرة للعيان في جميع بلدان القطر وعواصم مديرياته، وهذا نصه:

إعلان

يعلن ناظر الخارجية لدى حكومة ملك بريطانيا العُظمى أنه بالنظر إلى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا، قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته، وأصبحت من الآن فصاعدًا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية.

وبذلك قد زالت سيادة تركيا عن مصر، وستتخذ حكومة جلالته كلّ التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها.

وهكذا بهذا الإعلان — إذا قبلته الدول وأقرته — أصبح موقف مصر الدولي اليوم غيره بالأمس؛ إذ تكون بحكم القانون الدولي حرة طليقة من كلّ تبعة لأية دولة أخرى، إنَّما هي تحت حماية جلالة ملك بريطانيا العُظمى «حماية اقتضتها حالة الحرب التي سببها عمل تركيا.

بهذا الإعلان وقع انقلاب سياسي خطير، وحار الناس ماذا يفعلون، وأقدمت السلطة العسكرية على اعتقال الكثيرين من رجال الحزب الوطني والشبان، وعطلت كثيرًا من الصحف ووضعتها تحت الرقابة، ونفت بعضهم إلى ملطة.

ولما أُعلنت الحماية قال المصريون إنها باطلة؛ لأن الحماية هي عبارة عن عهد أو ميثاق يُبرم بين حكومتين إحداهما باعتبارها ذات شخصية ممتازة مستقلة، يكل للأخرى التَّصرف ببعض حقوقها الداخلية والخارجية مقابل قيامها بالدفاع عنها من الاعتداء الداخلي والخارجي الذي قد تتعرض له. وعلى الحامي مساعدة المحتمي به ومعاونته في تدبير شؤونه وإصلاح أحواله وإنماء ثروته وحماية مصالحه.

«فالحماية إذن يجب أن تكون مبنيَّة على رضى الحامي والمحتمي، ولا يمكن أن تكون مبنية على رغبة أحد الفريقين وإرادته فحسب. ومع ذلك فإنَّ الحكومة المصريَّة لم تعلن أنَّها راضية عن الحماية؛ لذا لم تتم أركانها قانونًا.»

وقد تحدث عطوفة حسين رشدي باشا قائم مقام الخديوي ورئيس مجلس النُّظَّار إلى مراسل جريدة «الديلي كرونكل» فقال:

إنَّ المنافع التي عادت على البلاد من حسن الإدارة البريطانية لا تحصى ولا تعدُّ. وكل مصري تهمُّه مصلحة بلاده وارتقاؤها يسلم بهذا ويرجو أن تدوم الرابطة بين الأُمَّتين إلى ما شاء الله. وما دام قنال السويس حلقة الاتِّصال بين أجزاء الإمبراطُوريَّة وطريقًا لازمًا للإنكليز فمن الطَّبيعي أن ترتبط بريطانيا

العُظمى ومصر بأشد روابط الصداقة والوداد. وزد على ذلك أنَّنا أمة ضعيفة نحتاج إلى صديق قوي يصون أملاكنا من كلّ اعتداء، ويكون على جانب من الارتقاء والحرية حتَّى يتيسَّر لنا أن نسير بإرشاده في معارج الحرية. فبذلك المقام الذي يليق بنا في مصاف الدول، وهذه الشروط متوفرة في إنكلترا. فإنَّ عندها من القوة ما يمكنها من الدفاع عن قطرنا، ولها من معاملة البلاد التي تماثل شؤونها شؤون القطر المصري تقاليد عطف وحرية، ويهمها أن يرتع الشعب الذي يخترق قنال السويس بلاده في بحبوحة الهناء والرخاء.

ثم تكلم عطوفته عن مستقبل مصر فقال:

إنَّه يجب ضرورة أن نضع لمصر منذ الآن نظامًا يكون بمثابة أساس متين مأمون يستطيع أن يقوم بالبناء الذي يريد الجميع إنشاءه. على أنَّ مصر لا تنتظر الآن أن تقطع مسافات واسعة في وقت قصير، بل تؤمل السير خطوة خطوة، وأول ما نتوق إليه أن نرى جمعيتنا التَّشريعيَّة — التي ليس لها الآن إلَّا رأي استشاري — تتمتع بالرأي القطعي في الشؤون الداخلية؛ فإنَّ ذلك يساعد على التَّقدُّم تدريجيًّا، وفي ذلك تحقيق لآمالنا وتمكين للروابط التي تربطنا ببريطانيا العُظمى.

ثم ختم عطوفته الحديث بالثناء على «ما تركه اللُّورد كتشنر من آثار الخدمات الجليلة التي أدَّاها للبلاد.

(٢) خلع الخديوي عباس — وتولية السُّلطان حسين

في صبيحة يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ صدر الإعلان التَّالي بالجريدة الرَّسمية ونشر في الجرائد السيارة وعلق على الجدران في القاهرة والإسكندرية، وفي جميع أنحاء القطر في الأماكن الظاهرة للعيان:

إعلان

يعلن ناظر الخارجية لدى حكومة ملك بريطانيا العُظمى أنَّه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمي باشا خديوي مصر السَّابق على الانضمام لأعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية. وقد عرض هذا المنصب

السَّامي مع لقب سلطان مصر على سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد علي — فقبله.

فلمَّا قبل الأمير حسين كامل العرش صدر الإعلان السَّابق ذكره. وفي اليوم نفسه وجه المستر ملن شيتهام إلى سموه التبليغ الآتي الذي تشرح فيه الحكومة البريطانية الأسباب التي أدَّت إلى هذا الانقلاب السِّياسي.

ياصاحب السموِّ

كلفني جناب ناظر الخارجية لدى ملك بريطانيا العُظمى أن أخبر سموكم بالظروف التي سببت نشوب الحرب بين جلالته وبين سلطان تركيا، وبما نتج عن هذه الحرب من التَّغيير في مركز مصر.

كان في الوزارة العُثمانيَّة حزبان أحدهما معتدل لم يبرح عن باله ما كانت بريطانيا العُظمى تبذله من العطف والمساعدة لكل مجهود نحو الإصلاح في تركيا ومقتنع بأنَّ الحرب التي دخل فيها جلالته لا تمس مصالح تركيا في شيء ومرتاح بما صرَّح به جلالته وحلفاؤه من أن هذه الحرب لن تكون وسيلة للإضرار بتلك المصالح لا في مصر ولا في سواها. أمَّا الحزب الآخر فشرذمة جنديين أفَّاقين لا ضمير لهم أرادوا إثارة حرب عدوانية بالاتِّفاق مع أعداء جلالته معلِّلين أنفسهم أنَّهم بذلك يتلافون ما جرُّوه على بلادهم من المصائب المالية والاقتصادية. أمَّا جلالته وحلفاؤه فمع انتهاك حرمة حقوقهم، قد ظلوا إلى آخر لحظة وهم يأملون أن تتغلَّب النصائح الرشيدة على هذا الحزب؛ لذلك امتنعوا عن مقابلة العدوان بمثله حتَّى أُرغموا على ذلك بسبب اجتياز عصابات مسلحة للحدود المصريَّة ومهاجمة الأسطول التُّركي بقيادة ضباط ألمانيين ثغورًا روسية غير محصَّنة.

ولدى حكومة جلالة الملك أدلَّة وافرة على أنَّ سمو عباس حلمي باشا خديوي مصر السَّابق قد انضمَّ انضمامًا قطعيًّا إلى أعداء جلالته منذ أول نشوب الحرب مع ألمانيا، وبذلك تكون الحقوق التي كانت لسلطان تركيا وللخديوي السَّابق على بلاد مصر قد سقطت عنهما وآلت إلى جلالته.

ولمَّا كان قد سبق لحكومة جلالة الملك أنَّها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته في مصر أنَّها أخذت على عاتقها وحدها مسئولية الدفاع عن القطر

المصري في الحرب الحاضرة، فقد أصبح من الضروري الآن وضع شكل للحكومة التي ستحكم البلاد بعد تحريرها، كما ذكر، من حقوق السِّيادة وجميع الحقوق الأخرى التي كانت تدعيها الحكومة العثمانية.

فحكومة جلالة الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصري جميع الحقوق التي آلت إليها بالصفة المذكورة. وكذلك جميه الحقوق التي استعملت في البلاد مدة سنِي الإصلاح الثلاثين الماضية. وقد رأت حكومة جلالته أن أفضل وسيلة لقيام بريطانيا العُظمى بالمسئولية التي عليها نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانية إعلانًا صريحًا، وأن تكون حكومة البلاد تحت هذه الحماية بيد أمير من أمراء العائلة الخديوية طبقًا لنظام وراثي يقرر فيما بعد.

بناءً عليه قد كلَّفتني حكومة جلالة الملك أن أبلغ سموكم أنَّه بالنظر لسنِّ سموكم وخبرتكم قد رُئي في سموكم أكبر الأمراء من سلالة محمد علي أهليَّة لتقلّد منصب الخديوية مع لقب «سلطان مصر». وإنَّني مكلَّف بأن أؤكِّد لسموكم صراحة عند عرضي على سموكم قبول عبء هذا المنصب أنَّ بريطانيا العُظمى أخذت على عاتقها وحدها كلّ المسئولية في دفع أي تعدٍّ على الأراضي التي تحت حكم سموكم مهما كان مصدره. وقد فوضت لي حكومة جلالته أن أصرِّح بأنَّه بعد إعلان الحماية البريطانية يكون لجميع الرعايا المصريين أينما كانوا الحق في أن يكونوا مشمولين بحماية حكومة جلالة الملك.

وبزوال السِّيادة العُثمانيَّة تزول أيضًا القيود التي كانت موضوعة بمقتضى الفرمانات العُثمانيَّة لعدد جيش سموكم وللحق الذي لسموكم في الإنعام بالرتب والنياشين.

وأمَّا فيما يختصُّ بالعلاقات الخارجية فترى حكومة جلالته أنَّ المسئولية الحديثة التي أخذتها بريطانيا العُظمى على نفسها تستدعي أن تكون المخابرات من الآن بين حكومة سموكم وبين وكلاء الدول الأجنبية بواسطة وكيل جلالته في مصر.[1]

وقد سبق لحكومة جلالته أنَّها صرحت مرارًا بأن المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الأجنبية المقيدة بها حكومة سموكم لم تعد ملائمة لتقدم البلاد. ولكن من رأي حكومة جلالته أن يؤجل النَّظر في تعديل المعاهدات إلى ما بعد انتهاء الحرب.

وفيما يختص بإدارة البلاد الداخلية عليَّ أن أذكِّر سموكم بأنَّ حكومة جلالته طبقًا لتقاليد السِّياسة البريطانية قد دأبت على الجد بالاتحاد مع حكومة البلاد وبواسطتها في حماية البلاد الحرية الشَّخصيَّة وترقية التَّعليم ونشره وإنماء مصادر ثروة البلاد الطبيعية، والتَّدرُّج في اشتراك المحكومين في الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الأمة في الرُّقي السياسي. وفي عزم حكومة جلالته المحافظة على هذه التَّقاليد. بل إنَّها موقنة بأن تحديد مركز بريطانيا العُظمى في هذه البلاد تحديدًا صريحًا يؤدي إلى سرعة التَّقدُّم في سبيل الحكم الذاتي، وستحترم عقائد المصريين الدينية احترامًا تامًّا كما تحترم الآن عقائد نفس رعايا جلالته على اختلاف مذاهبهم، ولا أرى لزومًا لأن أؤكد لسموكم بأن تحرير حكومته لمصر من ربقة أولئك الذين اغتصبوا السلطة السياسية في الأستانة لم يكن ناتجًا عن أي عداء للخلافة، ولا علاقة له البتة بالروابط السياسية التي بين مصر والأستانة، وأن تأييد الهيئات النظامية الإسلامية في مصر والسير بها في سبيل التَّقدُّم هو بالطبع من الأمور التي تهتم بها حكومة جلالة الملك مزيد الاهتمام، وستلقى من جانب سموكم عناية خاصة. ولسموكم أن تعتمدوا في إجراء ما يلزم لذلك من الإصلاحات على كلّ انعطاف وتأييد من جانب الحكومة الإنكليزية. وعلي أن أزيد على ما تقدم أن حكومة جلالة الملك تعول بكل اطمئنان على إخلاص المصريين ورويَّتهم واعتدالهم في تسهيل المهمة الموكولة إلى قائد جيوش جلالته المكلَّف بحفظ الأمن في داخل البلاد ومنع كلّ عون للعدو.

وإنِّي أنتهز هذه الفرصة فأقدم لسموكم أجل تعظيماتي.

(٣) رأي عباس في انتخاب عمه السُّلطان حسين

ولما وقع الانقلاب كان سمو الخديوي السَّابق عباس موجودًا في «فينا» عاصمة بلاد النمسا نازلًا في فندق «إمبريال»، فلمَّا وصل النبأ إلى حاشيته تهيَّبوا إبلاغه لسموه، لكن سعادة أحمد شفيق باشا لَمَّا رأى ترددهم وجد أنَّ من الواجب عليه أن يُوقفه على الحقيقة، فأطلع سموه على نبأ اختيار سمو الأمير حسين — وهو عمُّ سموه — سلطانًا على مصر. فلمَّا علم بهذا النبأ لم يزد على قوله: «في محله».

السُّلطان حسين كامل «الأول» أول سلطان لمصر بعد إلغاء الخديوية.

وممَّا يروى عن سموه أنَّه في الوقت الذي أعلنت فيه الحرب بين تركيا والحلفاء كان يحس بما سيجري من الانقلاب والتغيير، خصوصًا وأنَّه كان يعلم بعداء كتشنر له، وآية ذلك أنه رفع يده وقبَّلها ثمَّ قال: «اللهم لك الحمد. لقد حكمت ثلاثًا وعشرين عامًا وهو زمن ليس بالقليل، فلك الشكر!»

(٤) تثبيت وزارة رشدي باشا

هذا وعلى أثر التبليغ الذي وجهه القائم بأعمال الوكالة البريطانية بمصر إلى عظمة السُّلطان صدرت الإرادة التَّالية إلى صاحب الدولة حسين رشدي باشا الذي كان في الوقت ذاته قائم مقام الخديوي[٢] ورئيسًا لمجلس نظاره، ولم يتخلَّ رسميًّا عن هاتين الصفتين:

حسين رشدي باشا رئيس الوزارة المصريَّة في سني الحرب ورئيس لجنة الدستور سنة ١٩٢٢ ورئيس مجلس الشيوخ في سنتي ١٩٢٦ و١٩٢٧.

عزيزي رشدي باشا

إنَّ الحوادث السياسية التي وقعت في هذه الأيام أدَّت إلى بسط بريطانيا العُظمى حمايتها على مصر وإلى خلو الأريكة الخديوية.

وبهذه المناسبة أرسلت الحكومة البريطانية إلينا رسالة نبعث بصورتها إليكم لنشرها على الأمة المصريَّة موجهة فيها ندائها إلى ما انطوى عليه فؤادنا من عواطف الإخلاص نحو بلادنا لكي نرتقي عرش الخديوية المصريَّة بلقب سلطان. وستكون السلطنة وراثية في بيت محمد علي طبقًا لنظام يُقرَّر فيما بعد.

ولَمَّا كان لنا بعد أن وقفنا حياتنا كلها اليوم على خدمة بلادنا أن يكون الإخلاد إلى الراحة من عناء الأعمال مطمح أنظارنا إلَّا أنَّنا بالنظر إلى المركز الدقيق الذي صارت إليه البلاد بسبب الحوادث الحالية قد رأينا مع ذلك أنَّه يتحتم علينا القيام بهذا العبء الجسيم، وأن نستمر على خطتنا الماضية فنجعل كلّ ما فينا من حول وقوة وقفًا على خدمة الوطن العزيز.

هذا هو الواجب المفروض علينا لمصر ولجدنا المجيد محمد علي الكبير الذي نعمل على تخليد الملك في سلالته.[٣]

وبما فُطِرنا عليه من الاهتمام بمصالح القطر سنوجِّه عنايتنا على الدَّوام إلى تأييد السعادة الحسية والمعنوية لجميع أهاليه، مواصلين خطة الإصلاح التي بدأ العمل فيها. لذلك ستكون همة حكومتنا منصرفة إلى تعميم التَّعليم وإتقانه بجميع درجاته وإلى نشر العدل وتنظيم القضاء بما يلائم أحوال القطر في هذا العصر. وسيكون من أكبر ما نعنى به توطيد أركان الراحة والأمن العام بين جميع السُّكان وترقية الشؤون الاقتصادية في البلاد.

وأمَّا الهيئات النيابية في القطر فسيكون من أقصى أمانينا أن يزيد اشتراك المحكومين في حكومة البلاد زيادة متوالية.

ونحن، على ثقة في سبيل تحقيق هذا المنهاج، سنجد لدى حكومة صاحب الجلالة البريطانية خير انعطاف في تأييدنا. وإنَّنا لموقنون بأنَّ تحديد مركز الحكومة البريطانية في مصر تحديدًا واضحًا ممَّا يترتب عليه إزالة كلّ سبب لسوء التفاهم يكون من شأنه تسهيل التعاون بين جميع العناصر السياسية بالقطر لتوجيه مساعيها معًا إلى غاية واحدة.

وإنَّنا لنعتمد على إخلاص جميع رعايانا لتعضيدنا في العمل الذي أمامنا.

ولوثُوقِنا بكمال خبرتكم وبما تحلَّيتم به من الصفات العالية، واعتمادًا على وطنيتكم نطلب منكم مؤازرتنا في المهمة التي أخذناها على عاتقنا، وندعوكم بناءً على ذلك إلى تولي رئاسة مجلس وزرائنا وإلى تأليف وزارة تختارون أعضاءها لمعاونتكم، وتعرضون أسماءهم على تصديقنا العالي.

ونسأل الله — جلت قدرته — أن يبارك لنا جميعًا فيما نبتغيه من نفع الوطن وبنيه.

١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤
حسين كامل

فرد صاحب الدولة[٤] حسين رشدي باشا على عظمته بما يلي:

مولاي

أقدم لسدة عظمتكم السلطانية مزيد الشكر على ما أوليتموني من الشرف السَّامي إذ تفضلتم عليَّ بأمركم الكريم الذي فوضتم به إليَّ تأليف هيئة الوزارة.

نعم إنِّني كنت وكيلًا عن ولي الأمر السابق. ولكنِّني مصري قبل كلّ شيء، وبصفتي مصريًّا قد رأيت من المفروض عليَّ أن أجتهد تحت رعايتكم السلطانية في أن أكون نافعًا لبلادي. فتغلبت مصلحة الوطن السامية التي كانت رائدي في كلّ أعمالي على جميع ما عداها من الاعتبارات الشخصية.

لهذا فإنِّي أقبل المهمة التي تفضلت عظمتكم السلطانية بتفويضها إليَّ. ولَمَّا كان زملائي بالأمس الموجودون الآن بمصر متشربين بنفس هذه العواطف، وهم لذلك مستعدون للاستمرار على معاونتهم لي فإنِّني أتشرَّف بأن أعرض على تصديقكم العالي رفق هذا، مشروع المرسوم السلطاني بتشكيل هيئة الوزارة الجديدة.

وإنِّني بكل احترام وإجلال لعظمتكم السلطانية.

حسين رشدي

(٥) المرسوم السلطاني بتأليف الوزارة

حسين رشدي باشا: الرياسة والداخلية. أحمد حلمي باشا: الزراعة. عدلي يكن باشا: المعارف. إسماعيل صدقي باشا: الأوقاف. إسماعيل سري باشا: الأشغال والحربية والبحرية. ثروت باشا: الحقانية.

(٦) وفاة السُّلطان حسين

وفي أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩١٧ ساءت حالة صحة عظمة السُّلطان، واضطر إلى ملازمة فراشه. وفي يوم ٩ أكتوبر وافاه القدر المحتوم بقصر عابدين.

(٧) السلطان أحمد فؤاد الأول

واختير حضرة صاحب السمو الأمير أحمد فؤاد سلطانًا لمصر. خلفًا للفقيد. واحتفل بجلوس «عظمته» على العرش في صباح يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩١٧ ووجه سير ونجت[٥] ممثل إنكلترا في مصر يومئذ الكتاب التَّالي إلى عظمة السلطان:

> **يا صاحب العظمة السلطانية**
>
> بأمر جناب وزير الخارجية لحكومة صاحب الجلالة البريطانية أتشرَّف بأن أعرب لعظمتكم عن فائق الأسف الذي شمل حكومة جلالة الملك حينما وصل إلى علمها نعي المغفور له صاحب العظمة السلطانية حسين كامل الذي أكبرت الأمة المصريَّة جميعها إخلاصه لكل ما فيه خيرها إخلاصًا لا يعتريه فتور وقدَّرته حق قدره. فكانت وفاته لديها كارثة وطنية.[٦] وإنني أتشرَّف بإبلاغ عظمتكم السلطانية انعطاف حكومة جلالة الملك لما أصاب شخصكم الكريم من دواعي الحداد. هذا وإني مكلف في الوقت نفسه بأن أحيط علم عظمتكم بأنَّه لما كان نظام الوراثة على عرش السلطنة المصريَّة لم يوضع للآن، وكنتم عظمتكم بعد طبقة البنين، الوارث الشرعي المتعين تبعًا لوراثة العرش السامي. على أن يكون لورثتكم من بعدكم، حسب النِّظام الوراثي الذي سيوضع بالاتِّفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وبين عظمتكم.
>
> وأن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تريد أن تجدد لعظمتكم بهذه المناسبة التأكيدات التي أعطتها لسلفكم عند ارتقائه العرش. وهي مقتنعة أن

في استطاعتها أن تعتمد، في العمل مع عظمتكم، على تلك الصداقة التي كانت شعارًا لحكم السُّلطان المرحوم وعادت ثمراتها على البلاد بازدياد الرفاهية والتقدم، ذلك الأمر الذي له من المكانة في نفس الحكومة البريطانية ما لا تقل منزلته لدى عظمتكم.

حضرة صاحب الجلالة الملك أحمد فؤاد الأول ملك مصر — وأول من لقب بهذا اللقب في تاريخ مصر الحديث، وهو ابن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي.

وإنِّي أنتهز هذه الفرصة فأقدم لعظمتكم السلطانية أجل احتراماتي.

القاهرة في ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧
رجنالد ونجت

(٨) استمرار وزارة رشدي باشا في الحكم

وبهذا التَّغيير انحلَّت بطبيعة الحال هيئة الوزارة. ولكن عظمة السُّلطان أحمد فؤاد الأول أثبت تأليفها. وهنا نُورد نص الرسالتين الرَّسميتين المتبادلتين في نفس اليوم بين عظمته وبين صاحب الدولة حسين رشدي باشا بهذا الشأن:

عزيزي حسين رشدي باشا

يعلم رعايانا أنَّه بسبب وفاة سلفنا وأخينا المحبوب المغفور له السُّلطان حسين الأول الذي اختطفته المنية قبل الأوان وملأت القلوب حزنًا عليه قد تولَّينا بالاتِّفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصريَّة على أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنا طبقًا للنظام الوراثي الذي سيوضع بالاتِّفاق بيننا وبينها.

منذ ثلاث سنوات كانت حدود بلادنا يظهر أنَّها مهددة، وكانت ثروتها الزراعية توشك أن تُصاب في مصادرها، ولقد لبَّى سلفنا رحمه الله، نداء الواجب وتفانى في إخلاصه لمرافق البلاد، فلم يتردَّد في حمل أعباء السلطنة مع ما كان يحفُّ بها من المصاعب. واعتمادًا على ولاء رعاياه وعلى تأييد الدولة الحامية وقف نفسه مدَّة هذه السنوات الثلاث على تنفيذ المنهاج الذي اختطَّه في المرسوم الصَّادر منه إلى دولتكم عند ارتقائه عرش السلطنة، وقد صار وضع أسس تعميم التَّعليم وبحث موارد ثروة البلاد والشروع في الوسائل التمهيدية التي من شأنها إحلال مصر في مكانة الكرامة اللائقة بها في العالم الذي سيتجدد على أثر انعقاد الصلح.

ونحن اليوم ننشد ذلك الولاء نفسه من رعايانا في ظروف هي أكثر يُمنًا وتوفيقًا. فقد زالت الأخطار التي كان يظهر أنها تهدد بلادنا، وعادت ثروة القطر إلى ما كانت عليه. وبقي علينا أن نُخصِّص أنفسنا بالاشتراك مع نواب

الأمة اشتراكًا يزداد على الدوام لإتمام تنفيذ ذلك المنهاج الذي اختطه سلفنا. وأن نحقِّق في جميع الفروع الإصلاحات التي من شأنها ضمان التَّقدُّم المادي والأدبي في بلادنا.

ولمَّا كنَّا على يقين من خبرتكم ومن صفاتكم السَّامية، فإنَّنا نُوجِّه إلى عهدتكم مهمة تأليف الوزارة.

ومن الله نلتمس الإعانة على ما نحن قوَّامون عليه من العمل.

فؤاد

هوامش

(١) بمقتضى هذا ألغيت نظارة «الخارجية المصرية»، واستمرت ملغاة حتى أعيدت سنة ١٩٢٢ بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وإعلان الاستقلال.

(٢) قائم مقام خديوي هو الذي ينوب عن الخديوي في أثناء غيابه وبأمر عالٍ منه.

(٣) أشيع يومئذ أنه إذا رفض السلطان حسين العرش، اختير له أغا خان الهندي أو ألغيت الإمارة المصرية وعين لمصر حاكم عام.

(٤) كان منح رتبة صاحب الرياسة «صاحب الدولة» من حق سلطان تركيا وبإعلان السلطنة فالملكية في مصر أصبح من حق سلطان مصر ثم ملكها منحها لرئيس الوزارة الذي كان يلقب «بصاحب العطوفة» في عهد الخديوي عباس.

(٥) صورته فيما سبق من هذا الجزء.

(٦) لما ارتقى السلطان حسين العرش كان مرموقًا بالغضب العام، وعندما مات كان الأسف عامًّا.

الفصل الرابع عشر

حوادث مصر والسُّودان بعد الهدنة

أُعلنت الهدنة بين الحلفاء والألمان وحلفائهم في يوم الاثنين ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨، وفي مسائه طلب حضرة صاحب المعالي سعد زغلول باشا من الوكالة البريطانية تحديد ميعاد ليقابل هو وعلي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك «باشا» السير ونجت، فحدَّد لهم يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ الساعة ١١ أفرنكي صباحًا.

وقد أصبح ١٣ نوفمبر يُسمَّى عيد الجهاد الوطني. ولمَّا أعلن تأليف الوفد المصري بادر أعضاء الجمعية التَّشريعيَّة بالتوقيع على صيغة التَّوكيل التَّالي، وتبعهم أعيان البلاد ومحاموها وتجارها ... إلخ.

كان إعلان الهدنة مقرونًا بشروط مستر ويلسون — رئيس الجمهورية الأمريكية — التي في مقدمتها: حق كلّ شعب في تعيين مصيره.

(١) صيغة التوكيل للوفد المصري

> نحن الموقِّعين على هذا، الأعضاء بالجمعية التشريعية. قد أنبْنا عنَّا حضرات سعد زغلول باشا. وعلي شعراوي باشا. وعبد العزيز فهمي بك. ومحمد علي بك «علوبة باشا». وعبد اللطيف المكباتي بك. ومحمد محمود باشا. وأحمد لطفي السيد بك، ولهم أن يضموا إليهم من يختارونهم، في أن يسعوا بالطرق السلمية، في استقلال مصر استقلالًا تامًّا. تطبيقًا لمبادئ الحرية والعدل التي تنشر رايتها دولة بريطانيا العُظمى وحلفاؤها ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب.

(٢) استقالة وزارة رشدي باشا

استقالت وزارة رشدي باشا الثَّانية في ٢١ إبريل سنة ١٨٩٩، وخلفتها وزارة محمد سعيد باشا الإدارية.

(٣) أعضاء الوفد المصري

وقد انضمَّ إلى الوفد آخرون، ووضع قانون للوفد كانت مادته الأولى: «تألف وفد باسم الوفد المصري من حضرات سعد زغلول باشا وعلي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي بك وعبد اللطيف المكباتي بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك وإسماعيل صدقي باشا وسينوت حنا بك وحمد الباسل باشا وجورج خياط بك ومحمود أبو النصر بك ومصطفى النحاس بك والدكتور حافظ عفيفي بك.»

وكان لتطور الحوادث منذ نوفمبر ١٩١٨ حتَّى الآن أثر في ضمِّ أعضاء وفي حدوث انشقاق في الوفد المصري، فضلًا عن وفاة الكثير من أعضائه رحمة الله عليهم، ممَّا ليس هنا المجال لبيان تفاصيله. وإنَّما حسبنا أن نذكر أنَّ الوفد المصري يتألَّف من حضرات:

- حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا رئيسًا.
- حضرة المجاهد الكبير الأستاذ مكرم عبيد سكرتيرًا.
- حضرات الأعضاء المحترمين: الأستاذ محمود فهمي النقراشي. الدكتور أحمد ماهر. مصطفى بكير بك. الأستاذ محمود بسيوني. علي سالم بك. محمود الأتربي باشا. محمد الشناوي بك. أحمد حمدي سيف النصر بك. كامل صدقي بك. عبد السلام فهمي محمد جمعة بك. إبراهيم سيد أحمد بك. الدكتور حامد محمود.

(٤) اعتقال سعد وصحبه إلى مالطة

وقد واصل الوفد نشاطه، فأرسل عشرات البرقيَّات إلى الدول بالاحتجاج على منعه من السفر. وفي ٨ مارس اعتقلت السلطة العسكرية البريطانية في مصر المغفور له سعد باشا ومعه حضرات محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وإسماعيل صدقي باشا في ثكنة قصر النيل، وأرسلتهم مخفورين إلى بورسعيد حيث أقلتهم باخرة إلى مالطة.

الفقيد العظيم الزعيم الخالد المغفور له سعد زغلول باشا رئيس الوزارة المصريَّة في سنة ١٩٢٤ — وسميت وزارة الشعب — ورئيس مجلس النواب في سنة ١٩٢٧ حيث توفي إلى رحمة الله في بيت الأمة في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧، وكانت لوفاته رنَّة حزنٍ عميق.

انتشر النبأ في العاصمة، وبدأت الثَّورة المصريَّة في ٩ مارس سنة ١٩١٩، وخربت السكك الحديدية والمواصلات التلغرافية، وقامت مواكب المظاهرات والطلبة، وأصبح الجامع الأزهر مركزًا لاجتماع المتظاهرين وخطب المتحمسين.

(٥) الإفراج عن سعد وصحبه

استدعت الحكومة الإنكليزيَّة السير ونجت من مصر، وعينت اللُّورد اللنبي مندوبًا ساميًّا فوق العادة، فأصدر في ٧ إبريل البلاغ الآتي، حيث وزعته الطائرات ليلًا:

> الآن وقد عاد النِّظام بنجاح عظيم. فبالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان، أعلن أنَّه لم يبق حجر على السفر، وأن جميع المصريين الذين يريدون السفر تكون لهم مطلق الحرية.

حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصري الذي فاوض وهو رئيس للوزارة المصريَّة مستر هندرسون — وزير الخارجية البريطانية — سنة ١٩٣٠، وقطعت المفاوضة إلى اليوم بسبب عدم قبول الحكومة البريطانية النص المقترح لحل مسألة السُّودان في المعاهدة.

وقد قررت علاوة على ذلك أن كلًّا من: سعد زغلول باشا وإسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا، يطلقون من الاعتقال، ويكون لهم كذلك حق السفر.

ففرحت الأمة المصريَّة بذلك وعدت ذلك اليوم يوم عيد وأفراح، وخرجت السيدات المصريات المبرقعات لأول مرة ينتظمن المظاهرات هتافًا للحرية والاستقلال التَّام لمصر والسُّودان وحياة سعد والوفد.

الفيكونت إدموند اللنبي المندوب السَّامي البريطاني لمصر والسُّودان من سنة ١٩١٩ حتَّى سنة ١٩٢٠.

(٦) سفر الوفد إلى باريس

وسافر أعضاء الوفد يوم ١١ إبريل سنة ١٩١٩ من مصر إلى باريس، وانضمَّ سعد وصحبه إلى زملائهم في الطريق وسافروا معًا.

وتألفت لجنة الوفد المركزية في مصر، برياسة المغفور له محمود سليمان باشا، وكان المرحوم إبراهيم سعيد باشا وكيلًا لها، وبعد إبعادهما رأسها المغفور له مرقس حنا بك «باشا» — نقيب المحامين — وقد حدث لأول مرة حادث لا مثيل له، وهو إضراب موظفي الحكومة جميعًا تقريبًا في ١٠ إبريل سنة ١٩١٩، واستمر الإضراب حتَّى آخر الشهر.

واستقالت في ٢١ إبريل سنة ١٩١٩ وزارة حسين رشدي باشا. وتألفت في التَّاريخ نفسه وزارة المرحوم محمد سعيد باشا برياسته مع الداخلية، ومن إسماعيل سري

باشا للأشغال والحربية والبحرية، ويوسف وهبة باشا للمالية، وأحمد ذو الفقار باشا للحقانية، وعبد الرحيم صبري باشا للزراعة، وأحمد زيور باشا للمعارف، والمستشار محمد توفيق نسيم بك «باشا» للأوقاف.

الفصل الخامس عشر

لجنة ملنر والوفد المصري

ظل الوفد المصري في باريس يواصل جهوده بالخطب والمقالات والنداءات والاحتجاجات، وأوفد سعادة «دولة» محمد محمود باشا إلى أمريكا، واتصل بعضو الشيوخ الأمريكي مستر فولك الذي اتفق مع الوفد على أتعاب في سبيل الدفاع عن القضية المصريَّة في أمريكا.

ثم أذاعت شركة روتر ما يأتي:

> لندن في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٩. أعلن رسميًّا أنَّ لجنة التحقيق المعهود إليها البحث في الاضطرابات الأخيرة في مصر وفي شأن الحكومة القائمة في مصر مؤلَّفة من اللُّورد ملنر رئيسًا ومن السر رنل رود والجنرال السر جون سيمون مكسويل والجنرال السر أدين توماس. والمستر ج. أ. سبندر. رئيس تحرير «وستمنستر غازيت». والمستر ث. ج. ب. هورست المستشار القضائي في وزارة الخارجية أعضاءً.

قاطعت الأمة المصرية، تحت إشراف الوفد المصري ولجنته المركزية، لجنة ملنر، وقامت المظاهرات ضدها، واستقالت وزارة سعيد باشا احتجاجًا على وصول اللَّجنة، وقبلت استقالتها في ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٩، وخلفتها وزارة يوسف وهبة باشا، وكان فيها محمد توفيق نسيم باشا، وكانت مؤلَّفة من: يوسف وهبة باشا للمالية، وأحمد زيور باشا للمواصلات، ومحمد توفيق نسيم باشا للداخلية، ويحيى إبراهيم باشا للمعارف، وإسماعيل سري باشا للأشغال والبحرية، وأحمد ذو الفقار باشا للحقانية، ومحمد شفيق باشا للزراعة، وحسين درويش باشا للأوقاف.

(١) مهمة لجنة ملنر

في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٩ أقيم أول احتفال بذكرى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨. في ١٥ سنة ١٩١٩ نشرت دار الحماية في مصر البلاغ الرَّسمي التَّالي عن مهمة لجنة ملنر:

> إن سياسة بريطانية العُظمى في القطر المصري هي المحافظة على حكومته الذاتية تحت الحماية البريطانية، وإنشاء نظام حكومة ذاتية تحت رياسة حاكم وطني. وغرض بريطانيا العُظمى الدفاع عن مصر من كلّ خطر خارجي أو من تدخل أي دولة أجنبية، وغرضها في الوقت نفسه تأسيس نظام دستوري تحت إرشاد بريطانيا العُظمى على قدر الحاجة. والنظام الذي يُمكِّن عظمة السُّلطان ومعالي وزرائه وحضرات مندوبي الأمة في دوائرهم الخاصَّة من الاشتراك في إدارة الأمور المصرية. وذلك على أسلوب يزيد فيه نفوذهم على مرور الأيام. وعليه فقد قررت حكومة جلالة الملك إرسال لجنة إلى مصر مهمتها تقرير نظام الحكم للوصول إلى تلك الغاية. وبعد أن تستشير اللَّجنة عظمة السُّلطان ومعالي وزرائه وأصحاب الرأي من المصريين تباشر الأعمال الأولية اللازمة قبل وضع قانون الحكومة المستقبلة، وليس من اختصاص اللَّجنة أن تشتغل بوضع شكل الحكومة على مصر. فإنَّ مهمتها أن تدرس الأحوال درسًا دقيقًا، وتبحث عن أصحاب الشأن في البلاد في الإصلاحات اللازمة، وأن تقترح نظام الحكم الذي يمكن تنفيذه فيها في النتيجة. فالمأمول أن يكون ذلك بالموافقة التَّامة مع عظمة السُّلطان ومعالي الوزراء الكرام.

(٢) الوفد السُّوداني في لندن

عقب عقد الهدنة وبعد سفر الوفد المصري إلى باريس للمطالبة بالاستقلال التَّام لمصر والسُّودان من مؤتمر الصلح — سافر وفد سوداني برياسة حضرة الحسيب النسيب السر السيد علي الميرغني وعضوية حضرات الحسيب النسيب السر السيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي — أكبر الزعماء الدينيين في السُّودان، وأصحاب الفضيلة الشيخ أحمد الطيب هاشم مفتي السُّودان، والشيخ أبو القاسم هاشم شيخ

العلماء، والشيخ إسماعيل الأزهري مفتش المحاكم الشرعية، والشيخ علي التوم ناظر قبائل الكبابيش، والشيخ إبراهيم موسى ناظر قبائل الهدندوة، والشيخ عوض الكريم أبو سن ناظر قبائل الشكرية، والشيخ إبراهيم محمد ناظر قبائل الجعليين. ورافقهم مستر ويليس مدير المخابرات وصمويل عطية بك وكان الغرض الرَّسمي من سفر الوفد تقديم التهاني لجلالة ملك الإنكليز لانتصاره على الألمان وعقد الهدنة.

وقد ألقى السيد الميرغني خطابًا باللغة العربية في حضرة جلالة الملك جورج، وألقى السير ونجت الذي حضر الزيارة ترجمة للخطاب، ومجمله أنَّهم حضروا بالنيابة عن الشعب السُّوداني لتقديم التَّهاني بانتصار الحلفاء وقد ردَّ جلالة الملك بالشكر.

(الوفد السُّوداني في لندن سنة ١٩١٩) من اليمين: الجالسان: الشيخ أحمد الطيب هاشم. والسر السيد علي الميرغني. الواقفان: عن اليمين الشريف يوسف الهندي، والسر السيد عبد الرحمن المهدي.

ثم قدم السيد عبد الرحمن المهدي سيفًا كان للمغفور له والده، وأنعم جلالته بنياشين مختلفة على أعضاء الوفد. وقد ردَّ جلالته في المقابلة نفسها بكتاب بخط

جلالته وتوقيعه بأنَّه يرد إليه هذا السيف إلى السيد عبد الرحمن لكي يستعمله في خدمة الحكومة السُّودانية.

صمويل عطية بك — رئيس القلم العربي بوكالة حكومة السُّودان بالقاهرة.

(٣) وصول لجنة ملنر وسفرها

وصلت اللَّجنة في صباح الأحد ٧ يناير سنة ١٩٢٠ إلى بورسعيد ومنها إلى القاهرة، حيث اتخذت فندق سيميراميس مقرًّا لها. وواصلت أبحاثها.

واتصلت ببعض الوزراء والكبراء، ولكنَّها لقيت مقاطعة إجماعية لها. وفي ٦ مارس صدر البلاغ الرَّسمي التَّالي:

> رسمي — قد أنجزت لجنة ملنر أبحاثها في مصر، وأجلت إتمام عملها الذي ستعود إليه في لندن بعد عيد الفصح لإعداد تقريرها.»

واستقالت وزارة يوسف وهبة باشا. وتألفت وزارة محمد توفيق نسيم باشا في ٢١ مايو سنة ١٩٢٠ محتفظًا لنفسه بالرياسة والداخلية، ومن زيور باشا للمواصلات، وذي الفقار باشا للحقانية. ومحمد شفيق باشا للأشغال، وحسين درويش باشا للأوقاف، وتوفيق رفعت باشا للمعارف، ومحمود فخري باشا للمالية، ويوسف سليمان باشا للزراعة.

ودعت لجنة ملنر الوفد المصري للمفاوضة معه، وبدأت المفاوضات في لندن في ٩ يونية سنة ١٩٢٠.

واعتقلت السلطة العسكرية عبد الرحمن فهمي بك — سكرتير لجنة الوفد المركزية — وآخرين في أول يوليو سنة ١٩٢٠.

الفصل السادس عشر

السودان في مشروعات الاتِّفاق

(١) في مشروع ملنر

جاء ذكر السُّودان في مشروعات الاتِّفاق بين مصر وإنجلترا. فورد ذكره في مشروع الاتِّفاق الذي وضعته لجنة ملنر وورد في تقرير اللَّجنة الذي أذيع في سنة ١٩٢١ ما يلي:

(١-١) السُّودان

إنَّ المشروع الذي تتضمنه المذكرة يتناول مصر فقط، ولا ينطبق على السُّودان — البلاد التي تختلف كلّ الاختلاف عن مصر في أوصافها وتركيبها وكون حالتها السياسية محدودة تحديدًا جليًّا في الاتِّفاق الإنكليزي المصري المُبرم في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩[١] وليست كحالة مصر التي لا تزال غير معينة. فلهذه الأسباب أخرجنا السُّودان عمدًا من مناقشاتنا كلها مع الوفد. وكان ذلك مفهومًا دائمًا عند أعضائه، ولكن منعًا للخطأ وسوء الفهم بمصر في غاية مناقشاتنا ومداها، دفع اللُّورد ملنر الكتاب التَّالي إلى عدلي باشا يكن لمَّا أرسل إليه المذكرة، وهو:

١٨ أغسطس سنة ١٩٢٠

عزيزي الباشا

بخصوص الحديث الذي جرى بيننا أمس أعود فأقول مرة أخرى إنَّه ليس بين أجزاء المذكرة التي أنا مرسلها إليك الآن جزء بقصد تطبيقه على السُّودان كما هو ظاهر من المذكرة نفسها، ولكنِّي أرى — اجتنابًا لكل خطأ وسوء فهم في المستقبل — أنَّه يحسن بنا أن ندوِّن رأي اللَّجنة، وهو أن موضوع

السُّودان الذي لم نتناقش فيه قط نحن وزغلول باشا وأصحابه خارج بالكلية عن دائرة الاتِّفاق المقصود لمصر، فإنَّ البلدين يختلفان اختلافًا عظيمًا في أحوالهما، ونحن نرى أنَّ البحث في كلٍّ منهما يجب أن يكون على وجه مختلف عن وجه البحث الآخر.

إنَّ السُّودان تقدَّم تقدمًا عظيمًا تحت إدارته الحالية المؤسَّسة على موادِّ اتِّفاق ١٨٩٩، فيجب — والحالة هذه — أن لا يسمح لأي تغيير يحصل في حالة مصر السياسية أن يُوقِع الاضطراب في توسيع نطاق تقدُّم السُّودان وترقيته على نظام أنتج مثل هذه النتائج الحسنة.

على أننا ندرك من الجهة الأخرى أن لمصر مصلحة حيوية في إيراد الماء الذي يصل إليها مارًّا في السُّودان، ونحن عازمون أن نقترح اقتراحات من شأنها أن تُزيل همَّ مصر وقلقَها من جهة كفاية ذلك الإيراد لحاجتها الحالية والمستقبلة.

الإمضاء: (ملنر)

العنوان: «حضرة صاحب المعالي عدلي باشا يكن»

وقالت اللجنة:

ويجمل بنا في هذا المقام أن نُورد بالإيجاز الأسباب التي نرى أنها تقضي باستحالة تسوية مسألة السُّودان على المبادئ التي يراد تسوية المسألة المصريَّة عليها، ونشير في الوقت عينه إلى الخطَّة العامَّة التي يلوح لنا أنَّها أصلح من سواها لسد حاجات السُّودان الحالية فنقول:

إنَّ الأكثرية الكبرى من أهل مصر متجانسة بالنسبة إلى سواها. أمَّا السُّودان فمقسوم بين العرب والسود، وفي كلٍّ من هذين الجنسين الكبيرين أجناس وقبائل يختلف بعضها عن بعض اختلافًا عظيمًا ويضاد بعضها بعضًا كثيرًا. أمَّا عرب السُّودان فيتكلمون باللغة التي يتكلم بها أهل مصر وتجمع بينهم لغة الدين، والإسلام آخذ في الانتشار في السُّودان حتَّى بين الأجناس غير العربية من أهله. وهذه المؤثرات تلطِّف ما بين أهالي البلدين من التَّضاد والتنازع، ولكنَّها تقوى عليه بعد ما زادت تذكار سوء الحكم المصري الماضي قوة وشدة.

أمَّا الروابط السياسية التي تربط السُّودان بمصر في فترات مختلفة من الزمان الماضي، فكانت دائمًا روابط واهية، فإنَّ الفاتحين المصريين اجتاحوا أقسامًا من السُّودان بل السُّودان كله، ولكن مصر لم تخضع السُّودان قطُّ إخضاعًا حقيقيًّا، ولا أدغمته فيها وجعلته بعضًا منها بمعنى من المعاني، وكان فتحها له في القرن الماضي نكبة كبيرة على البلدين معًا، وانتهى أمره بفتنة المهدي التي قلبت السلطة المصريَّة رأسًا على عقب في أوائل العقد الثَّاني من ذلك القرن، ولم يبق للسلطة المصريَّة أثر في السُّودان مدة أكثر من عشر سنوات إلَّا في مقاطعة صغيرة حول سواكن، فاضطرت بريطانيا العُظمى من جراء ذلك الفشل أن تجرد عدة حملات أنفقت عليها أموالًا طائلة لنجدة الحاميات المصريَّة والدفاع عن مصر التي كانت عرضة لسيل عصابات المهدي الجارفة، واستلمت الأيدى البريطانية زمام حكومة السُّودان فعلًا منذ فتحت القوات البريطانية والمصرية البلاد بقيادة قُوَّاد بريطانيين في سنة ١٨٩٦–١٨٩٨، وبات السُّودان تحت الحماية البريطانية المصريَّة في سنة ١٨٩٩؛ لأنَّ الحاكم العام وإن كان يعيِّنه سلطان «وسابقًا خديوي» مصر، فالحكومة البريطانية هي التي ترشحه، وكل مديري المديريات وكبار الموظفين هم من البريطانيين، فتقدَّم السُّودان تقدمًا عجيبًا ماديًّا وأدبيًّا تحت رعاية الحكومة المنظمة هذا النظام؛ لأنَّنا إذا حسبنا حساب كلّ ما تقتضيه بساطة هذه القضية، وهي إدخال المبادئ الأولية لحكومة منظمة متمدنة إلى بلاد أهلها لا يزالون في أول عهد السذاجة حكمنا أنَّ النجاح العظيم الذي نجحته بلاد السُّودان في المدة الطويلة التي كان فيها السر رجينلد ونجت حاكمًا عامًّا عليها يُعدُّ أمجد صفحة في تاريخ الحكم البريطاني على الشعوب المتأخرة. أمَّا الحكومة الحالية فمقبولة ومحبوبة عند أهل السُّودان. والسلام والتقدم مخيمان على تلك البلاد إلَّا فيما ندر.

غير أنَّه وإن تكن مصر والسُّودان بلدين ممتازين أحدهما عن الآخر وارتقاؤهما يكون على منهاجين مختلفين، فلمصر مع ذلك مصلحة عظيمة جدًّا في السُّودان، وهي أنَّ النِّيل الذي يتوقف عليه وجود مصر وكيانها يجري مسافة مئات من الأميال في بلاد السُّودان، فمن أهم الأمور لمصر منع أي تحويل لماء النِّيل يمكن أن يقلل مساحة أراضيها الزراعية الحالية التي تبلغ

مساحتها حوالي مليوني فدان، وتصير قابلة للزراعة إذا خزن ماء النِّيل وزاد ما يرد منه للرَّي عمَّا هو عليه الآن. وقد كانت كمية المياه التي يأخذها السُّودان رأسًا من النِّيل قليلة حتَّى الآن، ولكن كلما زاد عدد سُكَّان السُّودان احتاجت بلادهم إلى ماء أكثر لأجل تقدمها. وقد يفضي ذلك إلى التَّضارب بين مصالحهم ومصالح أهل مصر، ولكن الأمل وطيد أنَّه إذا حُفظت مياه النِّيل جيدًا ووزِّعت كذلك كفت لري كلّ الأطيان التي يمكن أن تحتاج إلى الرَّي، سواء كانت في مصر أو في السُّودان، ولكن التَّحكم بمياه النِّيل وضبطها للرَّي مسألة أعظم مكان من الأهمية والقضايا التي تنطوي تحت ذلك — فنية كانت أو غير فنية — صعبة ومعقدة جدًّا بحيث يقتضي في رأينا تعيين لجنة دائمة من خبيرين من الطبقة الأولى، وأيضًا من رجال ينوبون عن كلّ البُلدان التي لها علاقة بهذا الأمر، وهي مصر والسُّودان وأوجندا لتحلَّ كلّ المسائل التي لها مساس بالتحكم بماء النِّيل وضبطه، ولتضمن توزيع الماء بالقسط.

ولتجاور مصر والسُّودان ولاشتراكهما في المصلحة في النِّيل يحسن أن تكون بينهما رابطة سياسية على الدَّوام، ولكن هذه الرابطة لا يمكن أن تكون صورتها خضوع السُّودان لمصر. فبلاد السُّودان قابلة للتقدم والارتقاء حسب مقتضى أوصافها واحتياجاتها مستقلة بنفسها. ويحق لها أن تكون كذلك أيضًا. ولم يحن الوقت بعد لتعيين الحالة السياسية التي تكون عليها في آخر الأمر، ويكفيها لقضاء أغراضها في الوقت الحاضر الحالة التي عينت لها باتفاق سنة ١٨٩٩ بين بريطانيا العُظمى ومصر، حيث ينص على الصلة السياسية اللازمة بين مصر والسُّودان من دون تأخير السُّودان عن التَّرقي والتَّقدم مستقلًّا عن مصر.

والضرورة تقضي الآن بأن يكون السُّودان كله تحت سلطة واحدة عليها، ولكن لا يستحسن أن ينحصر الحكم كله في حكومة مركزية، بل الواجب إلقاء مقاليد إدارته بقدر الإمكان إلى حكام من الوطنيين[٢] حيثما وجدوا تحت المراقبة البريطانية؛ نظرًا لاتساع أرجائه واختلاف طبع أهله وأخلاقهم، فالحكومة البيروقراطية المركزية لا تلائم السُّودان على الإطلاق. وإنما تلائمه اللامركزية، واستخدام العناصر الوطنية، حيث يستطاع لقضاء الأعمال الإدارية البسيطة التي تحتاج البلاد إليها في الحالة التي هي عليها

من التَّقدُّم؛ لأنَّ ذلك يقلل نفقاتها، ويزيد في كفاءة رجالها وحسن إدارتها، والموظفون الآن من أهل البلاد لا يزالون قلال العدد في جنب الذين يؤتى بهم من مصر، وهؤلاء لا يحبون الخدمة في السُّودان، ولكن هذه الصعوبة ستزول كلَّما تقدم العلم في السُّودان وزاد عدد الذين يصيرون كُفئًا من أهله لتقلد الوظائف الرَّسمية. والواجب في الوقت عينه الانتباه الكلي إلى أمر التَّعليم حتَّى لا يُرتكب فيه الخطأ الذي ارتكب في مصر بإدخال نظام إليها لا يؤهل التلامذة لعملٍ يُذكر سوى الأعمال الكتابية والوظائف الإدارية الصغيرة، وتخريج جمهور كبير يفوق الحاجة من الذين تطمح أبصارهم إلى الاستخدام في الحكومة، فليس في السُّودان مجال لجيش من صغار المستخدمين؛ ولذلك يجب أن يتوجه التَّعليم بحيث يربي في السُّودانيين القابلية والميل إلى الأعمال الأخرى كالزراعة والصناعة والتجارة والهندسة، إذ حاجة تلك البلاد الآن هي إلى الترقِّي المادِّي، وفي وسعها الاستغناء عن نظام إداري على غاية من الإتقان.

إن القواعد العسكرية التي لا تزال تستخدم في السُّودان كبيرة جدًّا. نعم إنَّ وجود جيش كبير في تلك البلاد كان لازمًا لإتمام فتحها ولاستتباب السكون فيها، ولكنَّا نرى أنَّ الزمان قد حان لإعادة النَّظر في مسألة القوات العسكرية[٣] في البلاد وتنظيمها وتخفيف العبء المالي الواقع على عاتق مصر من إبقائها هناك، ثمَّ إنَّ وظيفة الحاكم العام على السُّودان[٤] والقائد العام للجيش المصري لا تزالان مجتمعتين في شخص واحد، وكانت الأسباب التي تقتضي ذلك وجيهة في الماضي؛ ولكن لا يمكن الدفاع عنه إذا أريد أن يكون كذلك دائمًا، ولذلك يجب تعيين حاكم عام ملكي عند سنوح أول فرصة.

ويقال بالإجمال إنَّ الغرض الذي ترمي إليه السِّياسة البريطانية يجب أن يكون إخلاء جانب مصر من كلّ مسئولية مالية للسُّودان، وتقرير العلاقات بين البلدين في المستقبل على قاعدة تضمن ارتقاء السُّودان ارتقاءً مستقلًّا ومصالح مصر الحيوية في ماء النيل. فلمصر حق لا ينازع فيه في الحصول على إيراد كافٍ مضمون من الماء لري أراضيها الزراعية الحالية، وعلى نصيب عادل من كلّ زيادة في إيراد الماء يتيسر للبراعة الهندسية

أن تأتي بها، فإذا صرحت بريطانيا العُظمى رسميًّا باعترافها بهذا الحق، وأنها عاقدة النية على المحافظة عليه في كلّ حال من الأحوال سكَّنت بذلك روع المصريين وخفَّفت عنهم القلق المستحوذ عليهم من هذا القبيل، ورأينا أنَّ هذا التَّصريح يفي بالغرض المقصود إذا تمَّ في الوقت الحاضر. ا.هـ.

(٢) في مشروع كرزن

فيما يلي ترجمة مذكرة بنصوص مشروع اتِّفاق بين بريطانيا العُظمى ومصر؛ مشروع كرزن، تاريخه ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢١:

(٢-١) السُّودان

حيث إنَّ رقي السُّودان السِّلمي هو من الضروريات لأمن مصر ولدوام مورد المياه تتعهد مصر بأن تستمرَّ في أن تقدم لحكومة السُّودان نفس المساعدات الحربية التي كانت تقوم بها في الماضي، أو أن تقدم بدلًا من ذلك لحكومة السُّودان إعانة مالية[٥] تحدد قيمتها بالاتِّفاق بين الحكومتين.

تكون كلّ القوات المصريَّة في السُّودان تحت أمر الحاكم العام.

وغير ذلك تتعهد بريطانيا العُظمى بأن تضمن لمصر نصيبها العادل من مياه النِّيل، ولهذا الغرض قد تقرَّر أن لا تقام أعمال ريّ جديدة على النِّيل أو روافده جنوبي وادي حلفا بدون موافقة لجنة مؤلَّفة من ثلاثة أعضاء يمثل أحدهم مصر والثاني السُّودان والثالث أوغندا.

(٢-٢) رد عدلي باشا

وقد ورد في رد الوفد الرَّسمي المصري برياسة عدلي يكن باشا في صدد مسألة السُّودان ما يلي:

أمَّا مسألة السُّودان التي لم يكن قد تناولها البحث، فلا بدَّ لنا فيها من توجيه النَّظر إلى أنَّ النصوص الخاصَّة بها لا يمكن التسليم بها من جانبنا. فإنَّ

هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع بما لها على تلك البلاد من حق السِّيادة الذي لا نزاع فيه وحق السيطرة على مياه النيل.

(٣) في تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

ننشر فيما يلي نص التَّصريح:

بما أنَّ حكومة جلالة الملك — عملًا بنواياها التي جاهرت بها — ترغب في الحال في الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة.

وبما أنَّ للعلاقات بين حكومة جلالة الملك وبين مصر أهمية جوهرية للإمبراطورية البريطانية، فبموجب هذا تعلن المبادئ الآتية:

(١) انتهت الحماية البريطانية على مصر. وتكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة.

(٢) حالما تصدر حكومة عظمة السُّلطان قانون تضمينات «إقرار الإجراءات التي اتخذت باسم السلطة العسكرية» نافذ الفعل على جميع ساكني مصر تلغى الأحكام العرفية التي أعلنت في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤.

(٣) إلى أن يحين الوقت الذي يتسنَّى فيه إبرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصريَّة فيما يتعلَّق بالأمور الآتي بيانها، وذلك بمفاوضات ودِّية غير مقيَّدة بين الفريقين تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولي هذه الأمور، وهي:

(أ) تأمين مواصلات الإمبراطُوريَّة البريطانية في مصر.
(ب) الدفاع عن مصر من كلّ اعتداء أو تدخُّل أجنبي بالذات أو بالواسطة.
(جـ) حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات.
(د) السُّودان.

وحتي تُبرم هذه الاتِّفاقات تبقى الحالة فيما يتعلَّق بهذه الأمور على ما هي عليه الآن.

(٤) مفاوضات ماكدونالد وسعد سنة ١٩٢٤

سافر حضرة صاحب الدولة المغفور له سعد زغلول باشا — رئيس الوزارة المصريَّة — إلى لندن حيث جرت بينه وبين مستر ماكدونالد رئيس الوزارة الإنكليزيَّة — وكانت أول وزارة للعمال في إنكلترا — مباحثات في أكتوبر سنة ١٩٢٤، في سبيل عقد معاهدة بين مصر وإنكلترا. ولكن المباحثات قطعت، وكان من أسباب قطعها مسألة السُّودان.

(٤-١) بيان الكتاب الأبيض

وقد أذاعت الحكومة البريطانية في يوم الثلاثاء ٧ أكتوبر سنة ١٩٢٤ الكتاب الأبيض الإنكليزي عن المحادثات المصريَّة البريطانية مع سعد باشا جاء فيه بخصوص السُّودان ما يلي:

> أمَّا في شأن السُّودان فإنَّني ألفت النَّظر إلى بعض البيانات التي فاه بها زغلول باشا بصفته رئيس مجلس الوزراء أمام البرلمان المصري في الصيف في ١٧ مايو. ويؤخذ ممَّا علمته في هذا الصدد أن زغلول باشا قال: إنَّ وجود قيادة الجيش المصري العامَّة في يد ضابط أجنبي وإبقاء ضباط بريطانيين في هذا الجيش لا يتَّفق مع كرامة مصر المستقلَّة، فإبداء مثل هذا الشعور في بيانات رسمية من رئيس الحكومة المصريَّة المسئول لم يقتصر على وضع السردار السر لي مستاك باشا في مركز صعب، بل وضع جميع الضبَّاط البريطانيين الملحقين بالجيش المصري أيضًا في هذا المركز.
>
> ولم يفتني أيضًا أنَّه قد نقل لي أنَّ زغلول باشا ادَّعى لمصر في شهر يونية الماضي بحقوق ملكية السُّودان العامَّة، ووصف الحكومة البريطانية بأنَّها غاصبة.
>
> فقال زغلول باشا: إنَّ الأقوال السَّابقة التي قالها لم يكن مرددًا فيها صدى رأي البرلمان المصري فقط؛ بل رأي الأمة المصريَّة أيضًا. فاستنتجت من ذلك أنَّه ما زال متمسِّكا بذلك المركز. على أنَّ الأقوال التي من هذا النوع لا بدَّ أنَّها أثَّرت في عقول المصريين المستخدمين في السُّودان وفي عقول السُّودانيين في الجيش المصري، فكان من جراء ذلك أنَّه أصبح يلوِّح أنَّ الإخلاص للحكومة المصريَّة أمر يختلف عن الإخلاص لإدارة السُّودان الحالية ولا ينطبق عليه.

وكانت النتيجة من ذلك أنَّ الأمر لم يقتصر على تبدُّل تام في روح التعاون الإنكليزي المصري الذي كان سائدًا في السُّودان، بل وجد الرعايا المصريون المستخدمون في حكومة السُّودان مشجعًا جعلهم يقدرون أنفسهم دعاة لنشر آراء الحكومة المصريَّة، وتكون النتيجة أنَّه إذا استمرت هذه الحال بالرَّغم من وجود أي اتِّفاق يصبح وجودهم في السُّودان تحت نظام الحكم الحالي مصدرًا للخطر على الأمن العام.

وقد وعدت في أثناء محادثاتنا الأولى أن أكون صريحًا جدًّا مع زغلول باشا، ولم أترك في نفسه أدنى شك في أثناء تلك المحادثة وفيما بعدها عن الموقف الذي اضطرت الحكومة البريطانية إلى وقوفه في شأن مصر والسُّودان.

إلى أن قال: «ويؤخذ من كلّ ما جرى لي من المحادثات مع زغلول باشا في مسألة السُّودان أن هذه الأحاديث لم تُظهر سوى إصراره على موقفه الذي صرَّح به في أقواله العمومية، فلا بدَّ لي من التَّمسك بالبيانات التي فُهتُ بها في هذا الموضوع في مجلس النواب، ويجب أن لا يبقى شك في ذلك لا في مصر ولا في السُّودان، وإذا كان هنالك شك فإنَّه لا يُفضي إلَّا إلى الاضطراب. وفي خلال ذلك يظل الواجب العملي في حفظ النِّظام في السُّودان مُلقًى على عاتق الحكومة البريطانية، وهي تتخذ جميع التَّدابير اللازمة لهذا الغرض، فإنها منذ ذهبت إلى هناك وضعت على عاتقها تعهدات أدبية بإيجاد نظام إداري جيد، فهي لا تسمح بأن يزول هذا النِّظام، وهي تعدُّ مسئولياتها وديعة في يدها للشعب السُّوداني، ولا يمكن أن تترك السُّودان إلَّا عندما تتمُّ عملها.

إنَّ الحكومة البريطانية لا ترغب في تشويش الاتِّفاقات الحالية، ولكن يجب عليها أن تصرِّح بأنَّ الحالة الحاضرة التي تسمح للموظفين الملكيين والضباط العسكريين أن يتآمروا ضد النِّظام المدني — هي حالة لا تطاق.

فإذا لم تقبل الحالة الحاضرة بإخلاص وتظل قائمة إلى أن يوضع اتِّفاق جديد، فإنَّ حكومة السُّودان تخل بواجبها إذا سمحت لمثل هذه الحال أن تستمر ولم تغفل الحكومة البريطانية قطُّ عن الاعتراف بأن لمصر بعض المصالح يجب أن تضمن وتصان، وأهمها هو ما يتعلَّق بنصيبها في مياه النِّيل، وبإرضاء ما قد يكون لها من المطالب المالية من حكومة السُّودان، فالحكومة البريطانية كانت — وما زالت — مستعدة لصيانة هذه المصالح بطريقة مرضية لمصر.

وعاد المغفور له سعد زغلول باشا من لندن، ووصل الإسكندرية على الباخرة الفرنسية «سفنكس» في الساعة السادسة من صباح يوم الاثنين ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٤.
وقد استقالت الوزارة السعدية في يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤.

(٥) مشروع سير أوستين تشمبرلين سنة ١٩٢٧

وسافر المغفور له عبد الخالق ثروت باشا سنة ١٩٢٧ إلى لندن، حيث جرت مباحثات تفصيلية بين الفقيد وبين سير أوستين شمبرلين تمخضت عن مشروع سير أوستين شمبرلين، وقد جاء فيه عن السُّودان ما يلي:

المادة الثالثة عشرة: تعترف الحكومتان المتعاقدتان بأنَّ أوفى ضمان لصيانة مصالحهما، ولا سيَّما مصالح مصر في مجاري النِّيل العليا هو استمرار سيادتهما المشتركة في السُّودان.

وكلاهما متفقتان على أن تتخذا كقاعدة لتحديد نصيب مصر في مياه النِّيل الأبيض والنيل الأزرق النتائج التي وردت في تقرير لجنة النِّيل المؤرخ ١٢ مارس سنة ١٩٢٦ وفي الاتِّفاق الذي عقد في أول مايو سنة ١٩٢٦ بين ممثلي مصلحتي الرَّي في مصر والسُّودان. ويمنح ممثلو مصلحة الرَّي المصريَّة التسهيلات اللازمة لمراقبة المعاهدات المتعلقة بأعمال قناطر سنار، كما أنه تكون لهم حرية الوصول إلى البيانات الخاصَّة بذلك لتتحقق من أنَّ توزيع المياه جارٍ طبقًا للقواعد التي وضعت في التَّقرير المذكور. وتمنح حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية الحكومة المصريَّة كلّ مساعدة ممكنة؛ لتمكينها من القيام لمصلحتها الخاصَّة وعلى نفقتها وبوجه يتَّفق مع مصالح السلطات المحلية ذات الشأن بأعمال الحفظ المنصوص عليها في ذلك التَّقرير، وتتحمل الحكومة المصريَّة نفقات كلّ عمل تكميلي ودفع كلّ مبلغ نقدي تدعو الحاجة إليهما باعتراف الطرفين تعويضًا للمصالح المحلية من كلّ تلف أو تفكك ينجم عن الأعمال المشار إليها.

ويستمر حضرة صاحب الجلالة ملك مصر؛ نظرًا لاهتمامه بحفظ السلام في ربوع السُّودان وعلى حدود مصر الجنوبية — في دفع حصته الحالية في نفقات الإدارة في السُّودان إلى أن تقرر الحكومتان المتعاقدتان أنَّ الحال يدعو إلى إعادة النَّظر في هذه الترتيبات.

(٥-١) مشروع ثروت باشا سنة ١٩٢٧

وضع ثروت باشا مشروعًا ورد فيه عن السُّودان ما يلي:

> **المادة الحادية عشرة:** مع الاتِّفاق على تأجيل تسوية مسألة السُّودان إلى مفاوضات تجرى فيما بعد، ويكون لكل من الطرفين المتعاقدين فيها تمام الحرية في تقرير حقوقه، توافق الحكومتان منذ الآن على الرجوع إلى الحالة التي كانت قائمة قبل سنة ١٩٢٤، وعلى أن تتخذ كقاعدة لتحديد نصيب مصر في مياه النِّيل الأبيض والنيل الأزرق والنتائج التي وردت في التَّقرير الذي وضع مع ما أدخل عليها من التعديل بناءً على طلب وزارة الأشغال العمومية المصريَّة، وعلى الاعتراف نحو الحكومة المصريَّة في اتخاذ كافة تدابير المراقبة اللازمة؛ لتكفل توزيع المياه طبقًا للقواعد التي وضعت في التَّقرير المذكور، وعلى أن تقدم لها كلّ التسهيلات للقيام على نفقتها بجميع أعمال الرَّي على مجرى النِّيل التي أشار إليها ذلك التَّقرير في مصلحة مصر.

وقد عرضت نتيجة المحادثات سنة ١٩٢٨ على كلّ من الوفد المصري وهيئته الوفدية البرلمانية وحزب الأحرار الدستوريين بصفتهما متآلفين يومئذ، إذ كانت الوزارة مؤلَّفة منهما — وقد رفض المشروع رفضًا باتًّا. ثمَّ استقال ثروت باشا وتألفت وزارة برياسة دولة النحاس باشا.

(٦) مشروع هندرسون

سافر حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا — رئيس الوزارة يومئذ — في صيف عام ١٩٢٩ إلى لندن. وفي أثناء وجوده فيها أبدى مستر هندرسون — وزير الخارجية في وزارة العمال الثَّانية — رغبته في المفاوضة مع مصر، ووضع مقترحات تضمنت المبادئ التي ترى الحكومة البريطانية تأسيس معاهدة عليها.

> **نص المادة الخاصَّة بالسُّودان في هذه المقترحات كما يلي:**
>
> **مادة ١٣:** مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل تعديلًا لاتِّفاق سنة ١٨٩٩، يتَّفق الفريقان المتعاقدان على أن تكون حالة السُّودان

هي الحالة المترتِّبة على الاتِّفاق المذكور، وعلى ذلك يواصل الحاكم استعمال السلطة المخوَّلة له بموجب الاتِّفاق المذكور بالنيابة عن الفريقين المتعاقدين.

وتبودلت المذكرات التَّالية في هذا الشأن:

المذكرة البريطانية

يا صاحب الدولة:

لما تباحثنا في الفقرة ١٣ من الاقتراحات اتَّفقنا على أن تفحص مسألة الديون التي على السُّودان في الوقت الحاضر بقصد تسويتها على أساس العدل والإنصاف. واتفقنا أيضًا على أن يبحث ممثل الخزينة البريطانية مع ممثل لوزارة المالية المصريَّة في هذه المسألة حالما تنفذ المعاهدة التي تُعقد على أساس الاقتراحات.

مذكرة مصرية

يا صاحب السعادة:

ردًّا على مذكرة سعادتكم بتاريخ هذا اليوم، أتشرَّف بإثبات اتفاقنا على مسألة الديون التي على السُّودان سيفحصها ممثلان عن الخزينة البريطانية ووزارة المالية المصريَّة بقصد تسويتها على أساس العدل والإنصاف.

مذكرة بريطانية

يا صاحب الدولة:

من الملائم أن نسجل الاتِّفاق الذي قد انتهينا إليه بشأن الطرق التي بمقتضاها نجعل الاتِّفاقات الدولية منطبقة على السُّودان.

والاتفاقات التي سيكون من المرغوب تطبيقها عل السُّودان ستكون بالطبع ذات صيغة فنية وإنسانية. ففي الحالة التي يتم فيها إمضاء أيِّ اتِّفاق من هذا النوع من مصر وبريطانيا العُظمى ويراد تطبيقه على السُّودان، فإنَّ المندوبَيْن البريطاني والمصري يُبديان معًا في الوقت الملائم تصريحًا كتابيًّا فحواه أن توقيعهما المشترك بالنيابة عن مصر والمملكة المتحدة يقصد به أن يشمل السُّودان، وأنَّه «في الحالة التي يجب فيها التصديق على الاتِّفاق» متى

تمَّ إيداع الوثيقة التي تتضمَّن هذا التصديق من جانب جلالة ملك مصر ومن جلالته البريطانية يصبح هذا الاتِّفاق ساريًا على السُّودان طبقًا لشروطه.

فإذا لم يعمل مثل هذا التَّصريح، فالاتفاق لا يصبح ساريًا على السُّودان إلَّا بطريقة الانضمام التي سيشار إليها فيما بعد.

وفي الحالة التي يعمل فيها مثل هذا التَّصريح لا يذكر السُّودان ذكرًا خاصًّا في مستندات التصديق.

وفي بعض الحالات التي ينص فيها الاتِّفاق على الانضمام اللاحق، ويكون من الملائم أن يسري الاتِّفاق على السُّودان بهذه الطريقة، يتم الانضمام بوثيقة مشتركة يوقعها من مصر وبريطانيا العُظمى مندوبان يُعيَّنان لهذا الغرض.

أما طريقة إيداع وثيقة الانضمام فيتَّفق عليها في كلّ حالة بين الحكومتين، وفي هذه الأحوال لا يكون ثمَّة محل للتصديق.

وفي المؤتمرات الدولية التي تجري فيها المقاضاة بشأن أمثال هذه الاتِّفاقات يظل المندوبان المصري والبريطاني على اتصال من أجل أي عملٍ يتفقان على أنَّه من المرغوب فيه لمصلحة السُّودان.

مذكرة مصرية

يا صاحب السعادة:

أتشرَّف بإبلاغ فخامتكم أنَّني تسلَّمت مذكرتكم بتاريخ هذا اليوم بشأن طريق تطبيق الاتِّفاقات الدولية على السُّودان ممَّا قد يرغب في تطبيقه على تلك البلاد، وأنِّي أؤيد ما جاء فيها بشأن التفاهم الذي انتهينا إليه.

مذكرة بريطانية

يا صاحب الدولة:

في أثناء محادثاتنا الأخيرة أعربتم دولتكم عن الأمل بأنه عند تنفيذ المعاهدة تعاد الجنود المصريَّة إلى السُّودان. فإذا نفذت المعاهدة بالروح الودِّية التي تفاوضنا بها في الاقتراحات كما ترجو بإخلاص حكومة جلالته البريطانية ببريطانيا العُظمى وشمالي أرلندا، فإنَّ الحكومة تكون مستعدةً لأن تفحص بروح العطف الاقتراح بشأن عودة أورطة مصرية إلى السُّودان في الوقت الذي تسحب فيه القوات البريطانية من القاهرة.

مذكرة مصرية

يا صاحب السعادة:

أتشرَّف بإبلاغ سعادتكم وصول مذكرتكم بتاريخ هذا اليوم، الخاصَّة بعودة أورطة مصرية إلى السُّودان، وقد أخذت علمًا بموقف جلالته البريطانية في هذا الشأن.

محمد محمود

مذكرات عبد الحميد بدوي باشا

وفي أثناء بحثنا في مسألة السُّودان، وقفنا على أنَّ لحضرة صاحب السعادة الدكتور عبد الحميد بدوي باشا — رئيس قضايا الحكومة — مذكِّرات قانونية مهمة في مفاوضات كرزون — عدلي سنة ١٩٢١ وفي مفاوضات ثروت — كرزون سنة ١٩٢٧ وفي أحاديث هندرسون — محمد محمود سنة ١٩٢٩.

(٧) رأي الأمير عمر طوسون في المقترحات

حادث مراسل جريدة «الأهرام» الخاص بالإسكندرية حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون حول مقترحات هندرسون ومسألة السُّودان. وقد نشرت الجريدة المذكورة الحديث بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٩.

قال مراسل «الأهرام» السكندري:

بعد أن نشر مشروع الاتِّفاق قصدت غير واحد من أهل المراكز الكبرى وكبار رجال الأحزاب، وسألتهم هل في الاستطاعة محادثتهم في أمر هذا الاتِّفاق. فاعتذر الوفديون بقولهم: إنَّهم — نزولًا على إرادة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا — لا يستطيعون التَّكلم في الظروف الحاضرة، ولا يبيحون لأنفسهم إبداء الرأي إلَّا بعد أن تتغير الأحكام الحاضرة. وقال لي كبير من الأحرار الدستوريين: الكلمة لصاحب الدولة رئيس الحكومة، والرأي لمجلس إدارة الحزب بعد عودة الرئيس. فوجهت النَّظر إلى الأمير عمر طوسون وهو — كما يعلم القراء والشعب المصري عامة — غير مقيَّد برأي حزب أو جماعة. وقد برهن في مواقفه العديدة على صراحة تامَّة في إبداء ما يراه لمصلحة

الوطن. وعرضت على سموه التكرم بحديث يجلو الموقف وينير المسألة إزاء امتناع أهل الأحزاب المختلفة عن إعلان رأيهم، فتنازل سموه ولبَّى طلبي، وأذن لي بنشر الحديث الآتي عن لسانه.

سألت سموه عن رأيه في اقتراحات وزارة المستر مكدونلد التي رضي رئيس الوزارة المصريَّة أن تكون أساسًا لمعاهدة تعقد بين مصر وإنكلترا.

فأجاب سموه: إنَّني أبديت في حديثي الأخير معكم أن الوقت لم يكن مناسبًا للمفاوضة والحياة النيابية معطلة. ولا زلتُ أقول هذا القول رغم ظهور مشروع الاتِّفاق الأخير، ورغم اعتقادي فيه أنه أفضل مشروع قدمته إنكلترا لمصر إلى الآن؛ إذ لو حصلت المفاوضة والبلاد محكومة بحكومة نيابية، لجعلت المفاوض المصري أقوى منه وهي محكومة بغير هذه الحكومة. ولم أقل هذا القول في حينه إلَّا لهذه الغاية التي نظرت فيها إلى مصلحة مصر دون أي اعتبار آخر. فالمفاوض الذي تزوِّده الأمة بثقتها وتمدُّه بقوتها، أصلح لهذا الشأن ممن لا يستمد القوة إلَّا من نفسه، وهذا من البداهة بحيث لا تصلح المجادلة فيه.

أما وقد حصل ما حصل وجاءنا دولة رئيس الوزارة بهذا المشروع الذي يفضل جميع ما سبقه من المشاريع، وأصبحنا به أمام أمر واقع، فالواجب يقضي بشكره والثناء على نتيجة جهوده، ولذلك لا يسعني إلَّا أن أشكره بل وأهنئه على حظه الحسن، وهذا هو رأيي في هذا المشروع إجمالًا.

فرجوت سموه التفصيل، وسألته زيادة البيان.

فتفضَّل سموه وأجابني بقوله: إنَّ هذا المشروع حسن في جملته، وهو من حيث مصر مقبول بعد أن تُفسَّر بعض نقطه الغامضة وتحدد تحديدًا دقيقًا حتَّى تكون بمأمن من التأويل الذي هو عادة في مصلحة القوي. وهذه وظيفة البرلمان الذي سيعرض هذا المشروع عليه فيضع له من التحفظات ما يجعله أقرب إلى مصلحة مصر، مثل قصر معونتنا لإنكلترا على أن تكون داخل حدود بلادنا، وتقدير قيمة الثكنات التي تلزمهم للمحافظة على قناة السويس بمبلغ معين من المال، إلى غير ذلك ممَّا يجعلنا بمنجاة من تحمل ما لا طاقة لنا بتحمله، ويُدنينا مسافة أخرى من الاستقلال الصحيح في شؤوننا الداخلية والخارجية.

وأمَّا من حيث السُّودان، فإنَّ هذا المشروع هو المشروع الذي تناول مسألتة دون المشاريع السَّابقة التي أرجأت مسألة السُّودان إلى اتِّفاق آخر فيما عدا ضمان إنكلترا لنصيب مصر فيه من الماء، ولكنَّه مع ذلك لم يخطُ بنا نحو حقوقنا إلَّا خطوة قصيرة جدًّا، فأرجعنا فيه إلى اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩، وهي اتِّفاقيَّة أبنتُ بطلانها فيما كتبته عن السُّودان من قبل؛ لأنها كاتفاقية الوصي مع القاصر على مافيه المصلحة له والضَّرر لمحجوره. ومع أنَّنا لا نعترف بهذه الاتِّفاقيَّة المُجحفة بحقنا الشرعي في السُّودان، فإنَّ هذا المشروع لم ينلنا ما نرمي إليه وما يستفاد من نصوصها التي قالت إنكلترا ولا زالت تقول: إنَّها تحترمها. وقالت وزارة العمال أخيرًا: إنَّها متمسكة بها هي واتفاقية القنال.

وإنَّ كلّ مطلع على المادة (١٣) من مشروع الاتِّفاق الأخير ليدهش أعظم الدهش ممَّا جاء بعد ذلك في هذا المشروع تفسيرًا لرجوع الحالة في السُّودان إلى اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩، وجوابًا على خطاب رئيس الوزراء بشأن رجوع الجيش المصري إلى السُّودان بناءً على هذه الاتِّفاقيَّة، ألا وهو قول وزير الخارجية الإنكليزية:

> إذا نُفِّذت المعاهدة بالروح الودِّية التي تفاوضنا بها في الاقتراحات كما ترجو، بإخلاص، حكومة جلالته البريطانية ببريطانيا العُظمى وشمالي أرلندا، فإنَّ الحكومة تكون مستعدةً لأن تفحص بروح العطف الاقتراح بشأن عودة أورطة مصرية إلى السُّودان في الوقت الذي تسحب فيه القوات البريطانية من القاهرة.

فإذا كان هذا هو تفسير المادة (١٣) المتعلقة بعودة السُّودان إلى ما كان عليه حسب اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩ ونحن بعد لم نبرم الاتِّفاقيَّة الأخيرة فماذا، إذًا، يكون تفسيرها بعد إبرامها؟

إنَّ إنكلترا إذا كانت صادقة النية في احترام اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩ فعليها:

أولًا: أن تُرجع السُّودان المصري إلى ما كان عليه قبل الثَّورة المَهديَّة، وتُرجع إليه ما سلخته من مديرية خط الاستواء القديمة؛ أي المنطقة التي سيقام فيها خزَّان بحيرة ألبرت نيانزا وهي النِّصف الجنوبي من تلك المديرية،

وأعظم مركز لحياة مصر والسُّودان لما تحتوي عليه من موضع هذا الخزَّان الخطير الذي يتحكم في مجرى النيل.

فقد سلخت إنكلترا هذه المنطقة الحيوية لمصر والسُّودان معًا في أثناء الثَّورة المَهديَّة، وضمَّتها إلى أوغندة، وعدَّتها معها من الأملاك التابعة للتاج الإنكليزي رأسًا. وقد أبنتُ ذلك تفصيلًا فيما كتبتُه عن السُّودان ونُشر في جريدة الأهرام الغرَّاء سنة ١٩٢١. وقد قلتُ في آخر ما كتبته هناك:

> وإذا أدرك المصريون القيمة التي لهذه النقطة وارتباطها بحياتهم علموا أنَّها أهم من الدلتا، وفضَّلوها عليها، ولم يسعهم بعد أن يغفلوا عن المطالبة بحقوقهم فيها واعتبارها جزءًا غير قابل للانفصال عن السُّودان المصري الذي هو جزء من الديار المصريَّة لا يتجزأ.

وأثبتُ أيضًا أنَّها من أملاك مصر فيما أرسلته إلى دولة رئيس الوزراء على أثر خطبته التي أذيعت بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٨.

ثانيًا: أن تجيز تعيين وكيل للحاكم العام، وأن يكون تعيين الاثنين لمدة خمس سنوات، وأن يكون أحدهما مصريًّا والآخر إنكليزيًّا يعني أنَّه عندما يكون الحاكم العام إنكليزيًّا يكون الوكيل مصريًّا وبالعكس.

ثالثًا: أن تكون وظائف السُّودان مناصفة بين المصريين والإنكليز أيًّا كانت درجتها أو نوعها ما عدا الوظائف المشغولة بالسودانيين.

رابعًا: أن يكون عدد الجنود المصريَّة والإنكليزية متساويًا.

هذا هو أقل ما يمكن أن يتحقَّق به معنى الشركة بين مصر وإنكلترا في السُّودان، وهذا أدنى ما يجب الحصول عليه لمصر في السُّودان بمقتضى اتِّفاقيَّة ١٨٩٩.

وإنَّني لا أرى أنَّنا نخسر كثيرًا إذا ضحَّينا بشيء من حقوق مصر في مقابل حصولنا على حقوقنا في السُّودان، ولكن يظهر لي أنَّ الإنكليز يريدون منَّا أن نضحِّي بالسُّودان في سبيل مصر. وهم يعرفون أنَّنا إذا رضينا ذلك وجاز على عقولنا، فقد ضحينا بالاثنين معًا من حيث لا ندري؛ لأنَّ السُّودان من مصر روحها، وهي بدونه جثة هامدة.

أمَّا ارتكاننا على روح العطف وعدُّ رجوع الجيش المصري إلى السُّودان اقتراحًا يفحص بهذه الروح، ثمَّ مسخ هذا الجيش وتفسيره بأورطة مصرية، وتقييد عودتها إلى السُّودان بالوقت الذي تسحب فيه القوات البريطانية من القاهرة، فتلك أمور تُنذرنا من الآن بأنَّ الإنكليز ليسوا خالصي النِّية حتَّى في اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩ الباطلة في نظرنا، والتي لا تزال إنكلترا إلى الآن تدَّعي أنَّها تحترمها وتقيم الدليل على التَّمسك بها بإيداعها في سجلات جمعية عصبة الأمم.

ولَمَّا أتمَّ سموه بيانه الجلي شكرته بلسان قُرَّاء «الأهرام» وانصرفت.

ولست أريد أن أعلِّق على هذه التَّصريحات الخطيرة والرأي فيها لنواب الأمة وشيوخها. ولهم مطلق الحرية في درسها وفحصها قبل عقد البرلمان أو بعده. ا.هـ.

(٨) مفاوضات ربيع سنة ١٩٣٠

اشترطت الحكومة البريطانية — حين عرض مقترحات هندرسون — أن تعرض على برلمان مصري منتخب انتخابًا حرًّا.[٦] فاستقال دولة محمد محمود باشا بعد عودته إلى مصر في آخر سبتمبر فتألَّفت وزارة المغفور له عدلي يكن باشا، التي قامت بإجراء الانتخابات، وفاز الوفد المصري بأغلبية كادت تنعقد إجماعًا، وتألفت الوزارة النحاسية الثَّانية في أول يناير سنة ١٩٣٠، وتلقت دعوة من الحكومة البريطانية على يد مندوبها السَّامي يومئذ سير برسي لورين، ولبَّت الدعوة، وأعطى البرلمان للوزارة النحاسية تفويضًا لإجراء المفاوضات، وسافر الوفد الرَّسمي من القاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٣٠ وقد صحبه المؤلف. وعقد مؤتمر في صالة لوكارنو بوزارة الخارجية.

وكان افتتاح المؤتمر المصري الإنكليزي في يوم الاثنين ٣١ مارس سنة ١٩٣٠. وألقى مستر هندرسون وزير خارجية إنكلترا خطبة، وردَّ عليه حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد الرَّسمي المصري.

استمرت المفاوضات بين التفاؤل والتشاؤم، حتَّى قطعت يوم ٨ مايو سنة ١٩٣٠ بسبب الخلاف على مسألة السُّودان.

ومن الكلمات المأثورة التي قالها دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا بعد رجوعه إلى فندق هايدبارك بلندن وإعلان قطع المفاوضات:

لن أرضى أن أبيع السُّودان بالمنح التي عرضوها علينا في مصر.

وقال الأستاذ مكرم عبيد لمندوب «الأهرام»:

إنَّ الاقتراح البريطاني يمكن تفسيره بإيجاز. أنَّهم يريدون منَّا أن نتخلَّى عن السُّودان، وأن نوقع بيدنا التنازل عنه، ولن نوافق على هذا. وها نحن نعود إلى بلادنا بضمير مستريح، ولا نأسف على ما حدث.

(٩) مفاوضات ١٩٣٠ في الكتاب الأبيض الإنكليزي

أذاعت الحكومة البريطانية في يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٣٠ الكتاب الإنكليزي الأبيض عن مفاوضات المفاوضين الإنكليز والمصريين في لندن، وقد جاء به تحت عنوان «الباب الثَّاني — مشروع هندرسون — محمد محمود» ما يأتي:

(١٣): مع الاحتفاظ بحرية إبرام اتفاقات جديدة في المستقبل مُعدِّلة لاتفاقات سنة ١٨٩٩ يتَّفق الطرفان المتعاقدان على أن يكون مركز السُّودان هو المركز الذي ينشأ من الاتِّفاقات المذكورة، وبناءً على ذلك يظل الحاكم العام يباشر بالنيابة عن الطرفين المتعاقدين، السلطات التي خولتها الاتِّفاقات المشار إليها.

وجاء أيضًا في الكتاب المذكور تحت عنوان «مشروع المعاهدة الأخير — نصوص المواد المتَّفق عليها» ما يأتي:

المادة الحادية عشرة: هي عين المادة الثالثة عشرة من مشروع محمد محمود مع إضافة أنَّ الطرفين المتعاقدين يوافقان على أنَّ مركز السُّودان هو المركز الذي ينشأ من الاتِّفاقات المشار إليها «من غير إجحاف بحقوق مصر ومصالحها المادية.» ا.هـ.

(١٠) المفاوضات في الكتاب الأخضر المصري[٧]

وكان في عزم الوزارة النحاسية إصدار الكتاب الأخضر عن المفاوضات الأخيرة، ولكنَّها لم تتمكَّن من ذلك بسبب الأزمة الدستورية التي واجهتها بعد عودة الوفد الرَّسمي من لندن، ممَّا يترتب عليها تقديم استقالتها يوم ١٧ يونية سنة ١٩٣٠ وقبولها يوم ١٩ يونية، وتأليف وزارة إسماعيل صدقي باشا.

والذي نعرفه — وقد أتيحت لنا الفرصة لمصاحبة الوفد الرَّسمي في سفره وفي مفاوضاته — أن الكتاب الأخضر يتضمَّن تفاصيل هامَّة وجلية عن مفاوضات ربيع سنة ١٩٣٠، ولا سيما فيما يتعلَّق بشأن السُّودان وموقف المندوبين البريطانيين والوفد الرَّسمي منها.

على أنَّ عدم نشر الكتاب الأخضر، لا يحول دون جلاء موقف الوفد الرَّسمي من مسألة السُّودان، فنقول: إنَّ الوفد الرَّسمي قد عني بمسألة السُّودان عناية كبيرة لم ترد في جميع المفاوضات السابقة، فأعدَّ ثلاث مذكرات: مذكرة مالية تُبيِّن ديون مصر على السُّودان وتضحياتها فيه، و(٢) مذكرة اقتصادية تبين العلاقات التي بين مصر والسُّودان والتي هي نتيجة لتوحيد نهر النِّيل بينهما، فجعل الشعب السُّوداني والشعب المصري شعبًا واحدًا، وجعل حدود مصر الطبيعية جنوبًا ممتدة إلى السُّودان نفسه، وأصبح توفير ماء الرَّي لمصر في حاجة إلى إنشاء مشروعات لمصر في السُّودان، وعدد سُكَّان مصر في ازدياد، ولا مجال للعدد الزائد منهم إلَّا الهجرة إلى السُّودان، الذي هو منفذ طبيعي لهم، والسُّودان نفسه في حاجة إلى الأيدي العاملة المصريَّة، و(٣) المذكرة القانونية تبحث في اتِّفاقيَّة ١٨٩٩، المطعون في صحتها والمنادى ببطلانها، وإنَّه على فرض التسليم جدلًا بأنَّها معاهدة نافذة، فإنَّه ممَّا لاشك فيه أنَّها غامضة، وإنَّه لَمَّا كانت المعاهدات تنقسم إلى قسمين Traité-loi أوTraité Statut معاهدة غير موقوتة بمدة، ومعاهدة محددة بوقت تنتهي عنده Traité-contrat، فإنَّ اتِّفاقيَّة ١٨٩٩ تعدُّ من الصنف الأول؛ لأنَّه لم يعيَّن لها مدة. وتطبيقًا لقواعد القانون الدولي تكون المعاهدات «الأبديَّة» أو غير المحددة بمدة — عُرضةً للمناقشة فيها ولإدخال التعديل عليها بتغيير الظروف؛ لأنَّ هناك شرطًا ضمنيًّا في هذه المعاهدات وهو أنَّها قابلة للتَّعديل تبعًا للظروف.

وحيث إنَّ مصر قد تغير مركزها السياسي، إذ كانت عند عقد اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩ تابعة للسِّيادة التُّركيَّة ومحتلَّة بالجيش الإنكليزي وخاضعة لسلطانه، وأصبحت الآن

دولة مستقلة ذات سيادة باعتراف إنكلترا ذاتها، فقد وجدت ظروف جديدة تدعو للتغيير في معاهدة سنة ١٨٩٩.

أمَّا ما حدث في سنة ١٩٢٤ من طرد الجيش المصري من السُّودان وتأليف قوة الدفاع فيه، فهو يعدُّ من أعمال العنف والإكراه من جانب واحد، ولا يجوز أن تترتب عليها نتيجة قانونية.

وأخيرًا تناقش الوفد الرَّسمي والمندوبون البريطانيون في وضع نص مقبول لمسألة السُّودان، وقد قضى هذا النص بأن يُترك البحث في شأن تعديل اتِّفاقيَّة ١٨٩٩ لمفاوضات تجري بين الفريقين بعد سنة. وقد قبل المندوبون البريطانيون عرض هذا النص على مجلس الوزراء البريطاني، فاجتمع هذا المجلس، وقرَّر رفض الاقتراح وأن يبقى النص الوارد في مشروع هندرسون كما هو.

عند ذلك قطعت المفاوضات أو «وقفت» كما عُبِّر عنها رسميًّا!

(١١) رأي مستر لويد جورج

وقال المستر لويد جورج في حديثه المنشور بالعدد ١٦٤٢٤ من «الأهرام» الصادرة في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٠.

> لقد كان للمصريين — قبيل احتلال الإنكليز — السلطة التَّامة في السُّودان، ولكنهم أساءوا السِّياسة والإدارة بدرجة دعت السُّودان إلى طردهم فقد كانوا دخلاء ظالمين!

هوامش

(١) إنَّ هذا الاتفاق وقَّعه وزير الخارجية المصرية واللورد كرومر نصَّ على أنَّه «يحق» لبريطانيا العظمى «بحق الفتح» «أن تشترك في تعمير السُّودان وإدارته وترقيته». وقد أسقط قبول هذا المبدأ كله دعوى سيادة تركيا على السُّودان، وأخرجت البلاد نهائيًّا من الدائرة التي يسري عليها نظام الامتيازات، ولذلك نص في الاتفاق على أن اختصاص المحاكم المختلطة «لا يسري على أي جهة من جهات السُّودان أو يعترف به فيها» وأن لا يقيم قناصل الأجانب في البلاد بلا رضى الحكومة البريطانية. أما السلطة

العسكرية والمدنية العليا فيعهد بها إلى شخص «الحاكم العام» الذي يعين بمشورة الحكومة البريطانية بأمر من خديوي مصر، والذي يكون لمنشوراته قوة القانون.

(٢) هذا هو نظام الإدارة الأهلية في السُّودان — راجع الفصل التاسع.

(٣) هل كان هذا مقدمة لسحب الجيش المصري وإنشاء قوة للدفاع عن السُّودان؟

(٤) وقد نفذ هذا الاقتراح بالإنذار البريطاني في نوفمبر سنة ١٩٢٤ على أثر حادث السردار.

(٥) هل هذه هي الخطة التي نفذت في سنة ١٩٢٥ بتأليف قوة الدفاع وإعانتها بمبلغ ٧٥٠ ألف جنيه؟

(٦) وقد ابتهجت البلاد لهذه النتيجة، إذ كان هناك رأي آخر يقول بأن تبقى وزارة محمد محمود باشا في الحكم، وتقوم بإجراء الانتخابات. وكان هذا الرأي على وشك النجاح. وكان حضرة الأستاذ الكبير مكرم عبيد سكرتير الوفد المصري «وزير المالية سابقًا ونقيب المحامين اليوم» في لندن. وقد ناضل عن نظرية تأليف وزارة محايدة تجري انتخابات حرة في ظل دستور ١٩٢٣ وقانون الانتخابات المباشر، فتمكن من إقناع رجال الحكومة البريطانية وفي مقدمتهم هندرسون والدكتور دالتون الوكيل البرلماني لوزارة الخارجية بهذه النظرية. وبعد سفر الأستاذ مكرم من لندن إلى باريس، وصل مؤلف هذا الكتاب إلى لندن، وقابل الكثيرين من رجال السياسة والصحافة والشبان المصريين، وتأكد أنه لو لم يسافر الأستاذ مكرم إلى لندن ويبذل جهودًا كبيرة، لما تحققت النظرية الوطنية. ولذلك بادر المؤلف بتلقيب الأستاذ مكرم «بالمجاهد الكبير»، ودعا زملاءه المحامين إلى حفلة شاي أقيمت في ٢٧ ديسمبر ١٩٢٩ تكريمًا للأستاذ مكرم وتسجيلًا لهذا اللقب. وقد أصبح هذا اللقب علمًا آخر على الأستاذ مكرم، كما أصبح يلقب «الرئيس الجليل» لقبًا لدولة «مصطفى النحاس باشا».

(٧) الكتاب الأبيض هو الشعار الذي اتخذته الحكومة الإنكليزية لشرح مسائل سياسية هامة، كالمفاوضات والمعاهدات وإعلان الحروب والصلح والهدنة، والكتاب الأخضر هو شعار الحكومة المصرية في هذا الشأن.

الفصل السابع عشر

السُّودان في الدستور المصري

ألفت وزارة المغفور له عبد الخالق ثروت باشا في سنة ١٩٢٢ لجنة لوضع الدستور، وكان الزعيم سعد وبعض صحبه في المنفى في سيشيل، وفرغت اللَّجنة من مهمتها، وتلقَّت في أثناء اجتماعها ما يلي:

(١) كتاب للأمير عمر طوسون

إلى حضرة صاحب الدولة رئيس لجنة الدستور العمومية حضرة صاحب الدولة حسين رشدي باشا.

إنَّ لجنة الدستور التي ترأسونها دولتكم يجب أن يكون عملها مطابقًا لرغبات الأمة. ومسألة السُّودان من أمهات المسائل الشاغلة للرأي العام المصري، وكان الواجب على الوزارة الحاضرة أن تحصل على الاعتراف ببطلان اتِّفاقيَّة السُّودان سنة ١٨٩٩، وتجعل حل هذه المسألة من الشروط الأساسية التي لا يمكن تشكيل الوزارة قبل البتِّ فيها.

ولكن إذا كان هذا قد فات الوزارة مع مزيد الأسف، فلا يصح أن يفوت دولتكم وحضرات إخوانكم أعضاء لجنة الدستور.

لذلك جئت بخطابي هذا مذكرًا دولتكم بوجوب اعتبار السُّودان ضمن حدود البلاد كما كان قبل الاحتلال، ووجوب تشكيل مجلس نوابنا من المصريين والسُّودانيين على حدٍّ سواء حتَّى يجلس نواب إخواننا سُكَّان السُّودان المصري مع زملائهم سُكَّان الوجهين البحري والقبلي ويعمل الجميع للمصلحة المشتركة التي لا انفصام لها أبدًا.

واقبلوا فائق احترامي.

٣ مايو سنة ١٩٢٣

(٢) السودان في مشروع لجنة الدستور

جاء في مشروع الدستور الذي وضعته لجنة الدستور في صدد السُّودان ما يلي:

- **مادة ٢٩:** الملك يلقب بملك مصر والسُّودان.
- **مادة ١٤٥:** تجري أحكام هذا الدستور على المملكة المصريَّة جميعها عدا السُّودان، فمع أنَّه جزء منها يُقرَّر نظام الحكم فيه بقانون خاص.

ولمَّا علم المندوب السَّامي اللُّورد اللنبي بذلك لفت نظر دولة ثروت باشا إلى أنَّ هذين النَّصين يخالفان اتِّفاقيَّة ١٨٩٩، وقد استقالت وزارة ثروت باشا قبل أن تصدر الدستور، وتألفت وزارة حضرة صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا، وعندما أرادت إصداره وفيه هذان النصَّان، وجهت الحكومة البريطانية بلاغًا تهديديًّا ورفعته إلى جلالة الملك. فاضطرت الوزارة النسيمية إلى تقديم الاستقالة، وفيما يلي نص استقالتها:

استقالة نسيم باشا بسبب السُّودان

مولاي

مرَّت على البلاد ظروف عدة أثناء تطورها السياسي وهي تتوقَّع في كلّ يوم حكومة تطأ بها الطريق السَّوي. فلمَّا شرَّفني مولاي أنا وزملائي بخدمة الأمة؛ قبلنا العمل على تحقيق آمالها التي جعلت أمانةً بين أيدينا.

ولما كانت البلاد تجتاز دورًا من أدقِّ أدوارها لحل جملة من مسائلها العامَّة المعلقة بمؤتمر لوزان وإعلان الدستور والفصل في قانون التضمينات توطئة لإلغاء الأحكام العرفية وما يترتب عليها، أقدمنا على بحث هذه المسائل، وابتغينا الوسائل ملتمسين الخُطى مبتدئين بمسألة لوزان التي تشعبت فيها آراء الناس بشأن التَّمثيل والممثلين. ولمَّا لم تكن قد وصلت إلى الحكومة المصريَّة دعوة رسمية لحضور هذا المؤتمر سعت وزارة الخارجية المصريَّة على أثر تسلمنا إدارة البلاد للحصول على هذه الدعوة لدى الدول ذات الشأن

في بعث هذه الدعوة. ولكنَّها لم توفق ولم يُقبل البروجرام الذي قبلت هذه الحكومة أن تدخل المؤتمر على مقتضاه.

وفي أثناء هذه المفاوضات كانت اللَّجنة التَّشريعيَّة تفحص مشروعي قانون الانتخاب والدستور، فلمَّا فرغت منهما رفعتهما إلى الحكومة فبحثتهما وأزالت من قانون الانتخاب بعض عبارات، وأدخلت على بعض النصوص تعديلًا، وكان من وراء ذلك عدم حرمان المنفيين والمعتقلين أو المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية البريطانية بأحكام وفي جرائم معينة من التمتع بحقوق الانتخاب. ولم ينقص من الدستور ما يمس بحقوق الأمة، بل أبقت فيه ما يتعلَّق باشتراكها في الحكم اشتراكًا فعليًّا، وتركت لها الإشراف ومسئولية الوزارة أمام مجلس النواب، ولقد كان محل البحث والتعديل إلى آخر لحظة. وهو على وشك الصدور مطابقًا لغيره من دساتير الأمم المتمدِّنة لولا ما صادفته الحكومة من اعتراض الحكومة الإنكليزيَّة على النَّصين الواردين فيه بشأن السُّودان طالبةً تحرير أحدهما وقصر الآخر على تلقيب الملك بملك مصر وليس بملك مصر والسُّودان. وقد كان البحث مقصورًا في أول الأمر على المادة ١٤٥، وقد اقتضى تبادل الرأي فيما تقدم إلى مناقشة طويلة أبنت في غضونها بالحجج القانونية والأدلة الفعلية الناهضة على وجوب الاحتفاظ بنص المشروع، وكان من أهم ما لاحظته أن المادة ١٤٥ المقصودة بتبادل الرأي لا تنطوي على شيء ما، يخالف الحالة السائدة الآن فيما يتعلَّق بالسُّودان من جهتي الواقع والقانون، بل إن كلّ ما تحتويه إنما هو مجرد تقرير ما لمصر من الحقوق الشرعية بدون إدخال تغيير على الحالة الراهنة.

وفي نهاية الأمر اقترحت دار المندوب السَّامي نصًّا جديدًا طرح على بساط البحث والمناقشة فبعد تحويره تحويرًا طفيفًا حاز الموافقة أُبلغ إلى وزارة الخارجية.

وخلاصة ما ورد فيه أن الدستور يتناول تطبيقه الأقطار المصريَّة ما خلا السُّودان بشرط ألَّا يمس هذا الاستثناء بسيادة مصر على السُّودان ولا بحقوقها الأخرى فيه، ثمَّ جدت مناقشة تلقيب الملك بملك مصر والسُّودان، وعرضت وزارة خارجية بريطانيا العُظمى نصَّين آخرين يقضي أحدهما بحذف لقب ملك مصر والسُّودان وقصره على ملك مصر، والآخر بتعديل المادة

١٤٥ تعديلًا جوهريًّا. ولمَّا كان ذلك ماسًّا بحقوق البلاد، ما وسعني قبوله ولا تحمل مشئوليته، وقدمت مذكرة لفخامة المندوب السَّامي مبينًا وجهة النَّظر والأسانيد في هذا الموضوع. ولكن مع الأسف الشديد لم تصادف قبولًا لدى الحكومة الإنكليزيَّة التي قدمت أخيرًا لجلالتكم مذكِّرات شديدة ما كانت حكومتكم تتوقَّع صدورها، خصوصًا وقد كانت المفاوضات دائرة بينها وبين دار المندوب السَّامي بروح الوفاق والوئام. فلمَّا اطلعنا على هذه المذكرات لم أقبل تحمل تبعتها، وعرضت في الحال على جلالتكم استقالتي، ولمَّا كان المركز خطرًا والوقت المضروب للإجابة على هذه المذكرات معدودًا بالسَّاعات صار مدةً ريثما يجتمع بقية الوزراء في الصباح.

ولقد جرت مخابرات بين الحكومة ودار فخامة المندوب السَّامي كانت نتيجتها وضع نصَّين ورد فيهما أنَّ هذا اللقب يقرر وقت الفصل النهائي في نظام السُّودان بواسطة الممثلين المفوضين، وأنَّ تطبيق الدستور لا يمسُّ حقوق مصر في السُّودان، ورفع فخامة المندوب السَّامي النَّصين إلى وزارة خارجية إنكلترا منتظرًا الردّ الذي لم يصل بعد.

ونظرًا لما أكَّده فخامة المندوب السَّامي في هذه المذكرات التي قدمها لجلالتكم بأنَّ الحكومة البريطانية لا ترغب قط في أن تتعرَّض لحقوق مصر في السُّودان، ولا لحقوقها في مياه النِّيل، وصرَّح أنَّه إذا لم تُقبل وجهة نظر حكومته في أربع وعشرين ساعة؛ فإنَّ الحكومة البريطانية تستردُّ كامل حريتها في العمل بإزاء الحالة السياسية في السُّودان ومصر، وأُورَى بأنَّها تلجأ عند الضرورة إلى أي تدبيرٍ تراه مناسبًا.

ونظرًا للأخطار الجسيمة التي تستهدف لها البلاد في الحال من جرَّاء هذا الإنذار في حالة الرفض القطعي عند حلول الميعاد، وما كانت تدعو إليه الحالة والظروف، تلافت الحكومة الأمر ووافقت على أن تكتب لجلالتكم بقبول هذين النَّصين المراد وضعهما في الدستور الذي لم يُرفع لجلالتكم إلى الآن، ريثما يَرِدُ ردُّ الحكومة الإنكليزيَّة، وقد مضى ميعاد الأربع والعشرين ساعة المفروضة لوصوله.

بقيت الوزارة غير قابلة إلى آخر لحظة محدودة للردِّ المطلوب من مصر، وهي إذا أجابت نداء الواجب نحو العرش، فإنها أجابت أيضًا من أول الأزمة

إلى الآن واجبها نحو البلاد، فقدمت استقالتها قبل أن تسجل في الدستور ما وافقت جلالتكم عليه تحت تأثير الحوادث محافظة على العرش في أحرج المواقف وعلى حقوق البلاد.

أمَّا قانون التضمينات الذي علقت الحكومة الإنكليزيَّة عليه رفع الأحكام العُرفية التي تئن منها البلاد منذ تسع سنوات شاكية آلامها وشدة وطأتها كلّ هذا الزمن، فقد تباحثنا أيضًا فيه وطلبنا لإقراره من الكفالات والضمانات ما يحفظ حقوق البلاد من الوجهتين المدنية والجنائية. وقد خطونا في هذا السبيل خطوات واسعة، ولكنَّا وقفنا وسط الطريق لاستطلاع رأي الحكومة الإنكليزيَّة فيما حدَّدنا من الطلبات الخاصَّة بحفظ الحقوق المصريَّة ذلك من جهة ولعدم إتمام البحث من جهة أخرى. ولقد جعلنا للمنفيين والمسجونين والمعتقلين حظًّا كبيرًا من تفكيرنا وقسطًا من أعمالنا وطلباتنا من أول توليتنا الحكم، بل وفي كلّ فرصة كانت تسنح فيحدث ما يحول دون إتمام النجاح تارة، ولتعلق بعض الحالات على إنهاء تلك المسائل العامَّة أو بعضها تارة أخرى.

وما رجونا من وراء جهادنا جزاءً ولا شكرًا، وتحملنا ألم السكوت ونقد الناقدين ريثما تنتهي المفاوضات إلى نتيجة حسنة. وما وهنت — يومًا — إرادتنا ولا نفوسنا عن العمل؛ لأنَّنا ما كنَّا نبغي المحال، بل نسعى جهدنا لتحقيق آمال بلادنا وللتوفيق بين مصالح قومنا ومصالح غيرنا، مؤملين إدراك النجاح، فلما أبطأ علينا نزعت يدي من ولاية الحكم قبل أن يتمَّ شيء بلا تثريب علينا، سائلين الرحمن أن يكلأ جلالتكم عنايته، وأن يهيِّئ للأمة حكومة قديرة على تحقيق أمانيها، فتتبوأ في مجلس الحكم مقامًا محمودًا، راجيًا قبول استقالتي، ولا زلتُ لجلالتكم العبد الخاضع والخادم الأمين.

صباح الاثنين ٥ فبراير سنة ١٩٢٣

الإمضاء: محمد توفيق نسيم

(٣) قبول الاستقالة

وقد تلقى حضرة صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا الإرادة الملكية الصادرة بقبول استعفاء دولته وحضرات زملائه الوزراء من مناصبهم، وهذا نص كتاب جلالة الملك بقبول الاستقالة:

عزيزي محمد توفيق نسيم باشا

اطلعنا على كتاب استقالة دولتكم المرفوع إلينا بتاريخ ٥ فبراير الحاضر، فكان أسفنا لاستقالتكم عظيمًا لما نعلمه عنكم من شرف القصد والإخلاص، ولحسن مساعيكم في خدمة البلاد.

وإنَّا لشاكرون لكم ولحضرات زملائكم تلك الخدم الجليلة التي قمتم بها للأمة والوطن في عهد وزارتكم، وقد أصدرنا أمرنا هذا لدولتكم بذلك.

فؤاد

صدر بسراي عابدين في ١٣ جمادى الثَّاني سنة ١٣٤١ في ٩ فبراير سنة ١٩٢٣ رقم ١٦ سنة ١٩٢٣.

ثم أسندت رياسة الوزارة التي خلفت وزارة حضرة صاحب الدولة نسيم باشا إلى حضرة صاحب الدولة يحيى إبراهيم باشا، وصدر المرسوم الملكي بتأليف الوزارة في ١٥ مارس سنة ١٩٢٣.

وفيما يلي اقتراح وزارة نسيم باشا المشار إليه في كتاب استقالته:

الأول: أن المادة الأولى التي تنصُّ على أن ملك مصر هو ملك «مصر والسُّودان» ترفع منها الآن كلمة «السودان» إلى القرار الذي يصدره البرلمان المصري بعد مفاوضات يقوم بها مندوبون ينتخبهم البرلمان ويفوض إليهم المفاوضة في تقرير مركز السُّودان نهائيًّا.

الثاني: المادة الثَّانية (١٤٥) أن حذف «كلمة السُّودان جزء من مصر» وتطبيق قواعد الدستور على مصر لا يمس ما لمصر من الحقوق بالسودان.

وكانت استقالت وزارة نسيم باشا في ٥ فبراير ١٩٢٣ نشر كتاب قبول الاستقالة في ٩ فبراير ١٩٢٣.

(٤) وزارة يحيى باشا والدستور

وخلفتها وزارة يحيى باشا التي أعلنت الدستور في ١٩ إبريل ١٩٢٣ الساعة ١٠ ليلًا، وجاء فيه ما يلي:

- **المادة الأولى:** مصر دولة ذات سيادة، وهي حُرَّة مستقلة مُلكها لا يُجزَّأ ولا ينزل عن شيء منه، وحكومتها ملكية وراثية، وشكلها نيابي.
- **المادة ١٥٩:** تجري أحكام هذا الدستور على المملكة المصريَّة بدون أن يخل ذلك — مطلقًا — بما لمصر من الحقوق في السُّودان.

الفصل الثامن عشر

حوادث السُّودان سنة ١٩٢٤

زاد اهتمام الرأي العام المصري بأمر السُّودان في سنة ١٩٢٤ لمناسبة دعوة الحكومة البريطانية «وزارة ماكدونالد والعمال» لوزارة المغفور له الزعيم الخالد سعد زغلول باشا سنة ١٩٢٤ للمفاوضة، وقد كثُر تحدُّث البرلمان والصُّحف والجمهور عن السُّودان، وتألفت في البرلمان لجنة للسُّودان برياسة حضرة صاحب العزَّة أحمد حمدي سيف النصر بك، وشعرت مصر لأول مرة بأنَّها تحيا حياة حرة مستقلة، وأنَّ أمرها بيدها، وكان لهذا صداه في السُّودان؛ إذ نشطت جمعية اللواء الأبيض، ثمَّ جمعية الاتحاد السُّوداني، وتألفت المظاهرات وهتفت بحياة سعد، وهو ما رآه السُّودان لأول مرة بعد سكون عميق فيما مضى.

وقلقت الحكومة السُّودانية لهذه الظواهر، وخشيت اضطراب الأمن، وزاد في عمق الحوادث، فشل مفاوضات سعد — ما كدونالد، ثمَّ مقتل السردار سيرلي ستاك، وترتَّب على ذلك إلغاء المدرسة الحربية بالسُّودان وسحب الجيش المصري وتأليف قوة الدفاع عن السُّودان، وإجراءات أخرى ما زالت قائمة إلى اليوم.

وقد أصبح في عنق المؤرِّخ الصادق أن يدوِّن هذه الأحداث بقدر ما وصل إليه جهده وفي طوق كتابه؛ ولهذا ندون الحوادث فيما يلي:

(١) السُّودان ومعرض ومبلي

في سنة ١٩٢٤ أقيم في ومبلي بإنجلترا معرض عظيم. وتقرر اشتراك السُّودان فيه، وكان المغفور له سعد زغلول باشا رئيسًا للوزارة، فأرسل إلى السير لي ستاك الحاكم العام للسُّودان البرقية التَّالية:

وصل إلى علمي أنَّ السُّودان سيُمثِّل رسميًّا في معرض الإمبراطُوريَّة البريطانية الذي سيُفتتح قريبًا في ومبلي، أرجو إفادتي على أي قاعدة دُعي السُّودان للاشتراك في هذا المعرض الخاص بالمستعمرات، وكيف قبلتم أن تشتركوا فيه من غير إذن الحكومة المصرية!!

فتلقى من اللُّورد اللنبي المندوب السَّامي بمصر خطابًا بأن حاكم السُّودان العام. أخبره بتلغراف دولته بشأن تمثيل السُّودان في معرض ومبلي، وأنَّه أرسل تلغرافًا بطلب المعلومات من حكومته عن جلية الأمر ومتى ورد إليه الرد أخبر دولته به حال وصوله. فأرسل المغفور له سعد باشا التلغراف الآتي إلى حاكم السُّودان:

بعثت إليكم بتاريخ ٣٠ إبريل الماضي برقية لم ترسلوا الردَّ عليها، ولقد أخبرني اللُّورد اللنبي أنكم خاطبتموه بخصوصها، وحيث إنَّ المسائل التي كلفتكم بها من شأنكم دون سواكم لنعلقها بأعمال هي من خصائصكم، فإني ما زلت في انتظار الردِّ منكم، وأرجو أن لا يتأخر الردُّ زيادة عمَّا مضى.

وفي اليوم نفسه أرسل دولته تلغرافًا إلى عبد العزيز عزت باشا وزير مصر المفوض في لندن؛ ليحتجَّ بشدة لدى الحكومة البريطانية «أولًا: على كون الحكومة البريطانية أقدمت على دعوة السُّودان رأسًا ورسميًّا للاشتراك في معرض خاص بالمستعمرات بدون علم الحكومة المصريَّة وتخطيًا لها، وثانيًا: على أن قبول حاكم السُّودان العام وقع بدون إذن سابق من الحكومة المصرية، وفي الأمرين اعتداء صارخ على حقوق مصر وعمل غير ودِّي موجه للحكومة المصرية». وقد ورد الردُّ تلغرافيًّا من الحاكم العام للسُّودان إلى دولة رئيس مجلس الوزراء بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٩٢٤، وهذا نصُّه:

آسف أشد الأسف لتأخر الردِّ على تلغراف دولتكم الرقيم ٣٠ إبريل، وقد أبلغت المعلومات التي طلبتموها دولتكم إلى المندوب السَّامي الذي هو الطريق المعتاد للمخاطبة بين الحكومة المصريَّة وحكومة السُّودان عملًا بالإجراءات المتَّبعة. وكنت أظن أن فخامته أبلغ دولتكم المعلومات المطلوبة إلى أن وصلني تلغرافكم الرقيم ١٠ مايو. على أني علمت أنَّه قام بذلك الآن.

وإنِّي أقدِّم اعتذاري على ما بدا من عدم اللياقة في تأخير الرد على برقية دولتكم؛ الأمر الذي يرجع إلى هذا الفهم الخاطئ. وهو ما آسف له كلّ الأسف.

وبتاريخ ١٢ مايو ١٩٢٤ كذلك تلقى سعد باشا من اللُّورد اللنبي خطابًا يقول فيه:

> يلزمني أن أبيِّن لدولتكم أنَّ السير لي ستاك جرى في إحالة طلب دولتكم إليَّ طبقًا للتقاليد المعمول بها. فقد كانت القاعدة المقررة في الماضي أنَّ التَّخاطب بين الحكومة وحكومة السُّودان إنَّما يكون عن طريق المندوب السامي؛ لذلك فإنِّي أظن أنَّكم توافقون على أنَّ ما صنعه السير لي ستاك لم يكن فيه أيُّ مساس بالحكومة المصرية.

وأخبره في الخطاب نفسه بالمعلومات التي تلقاها من حكومته عن دعوة السُّودان لمعرض ومبلي، وفيها يقول:

> إنَّ هذه الدعوة وُجِّهت منذ أكثر من سنتين من سكرتارية تنظيم المعرض لأهميته التجارية. ونظرًا لأنَّ كثيرًا من الأموال الإنكليزيَّة تشتغل في الأعمال التِّجاريَّة بالسُّودان، وصلت الدعوة عن طريق المندوب السَّامي، وأجابها حاكم السُّودان عن الطريق عينها للإجراءات المعمول بها، وإن الحكومة البريطانية لم يكن ليخطر لها أن تطلب أخذ رأيها إذا وجهت الحكومة المصريَّة دعوة لحكومة السُّودان لتشترك في معرض تجاري شبيه بهذا يُعقد في مصر. وقد سبق أن قبلت حكومة السُّودان مباشرة ودون رجوع إلى دار المندوب السَّامي أو الحكومة البريطانية ما عرضته الحكومة المصريَّة من تخصيص حجرة لمعروضات السُّودان في المكتب المصري للتجارة والصناعة بالقاهرة، وذلك في نيويورك سنة ١٩٢٠، ومن جهة أخرى فإنَّ معرض ومبلي ليس وقفًا على الإمبراطُوريَّة، بل إنَّ فيه أشياء أخرى متنوعة ذات فائدة عامَّة، مثل صورة لمسجد فارسي ونماذج لشلالات نياجرا، ومعرض من التيبت، وأخيرًا فإنَّه موصوف في الخرائط والكتالوجات المعروضة في القسم الخاص بأفريقيا الشرقية باسم السُّودان الإنكليزي المصري، ولذلك لا محل لتساؤل الزائرين للمعرض عن اشتراك السُّودان فيه.

وقد ردَّ عليه سعد باشا في ٩ يونيو سنة ١٩٢٤ بكتاب جاء فيه:

لقد أوضحت للمستر كار قبل سفره بالإجازة، وبعده للمستر فرنس أثناء الكلام معهما في هذا الشأن أنَّه من الصعب التَّسليم بأن تكون دار المندوب السَّامي واسطة التَّخاطب الطبيعية بين الحكومة المصريَّة وحاكم السُّودان العام، فإنَّ اتِّفاقيَّة ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، ولو أنَّه ليس هنا مجال مناقشة أصلها ولا تحديد معناها، إلَّا أنَّه من الواضح أنَّها تتعارض في معناها وفي مبناها مع النَّظرية المذكورة في خطاب فخامتكم، وفي الحقيقة إنَّه يتَّضح جليًّا من نص المادة الثالثة من الاتِّفاقيَّة المذكورة أنَّ حاكم السُّودان العام موظف يُعيِّنه ملك مصر، ويستمدُّ سلطته من هذا التَّعيين ذاته. وتنصُّ المادة الرابعة صراحةً على أنَّ كلَّ إعلان للقوانين والأوامر واللوائح يجب أن يبلَّغ في الحال إلى المعتمد البريطاني في القاهرة وإلى رئيس مجلس النُّظَّار سمو الخديوي المعظم.

وبناءً عليه فإنَّ الطريق الطَّبيعي الوحيد للتَّخاطب بين الحكومة المصريَّة وحاكم السُّودان العام إنَّما هو الطريق المباشر، وهذا ما قصده واضعو اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩.

وفعلًا كانت الحكومة المصريَّة وحاكم السُّودان العام يتخابران مباشرة في غضون المدة التي تلت توقيع الاتِّفاق.

ففي سبتمبر سنة ١٨٩٩ وصل إلى الحكومة المصريَّة من الحاكم العام للسُّودان رأسًا مشروعان بقانونين للعمل بهما في السُّودان مصحوبان برجاء من الحاكم العام للسُّودان إلى رئيس مجلس النُّظَّار أن يؤيدهما أمام المجلس، ففعل ثمَّ أرسل تلغرافًا إلى الحاكم العام يخبره بالمصادقة على المشروعين بعد إدخال تعديلات معيَّنة في نصوص الأوامر التي تنصُّ على سريان العمل بهما في السُّودان.

وقد ردَّ الحاكم العام في الحال معربًا عن شكره ومؤكدًا بأنَّه سيعمل بالتعديلات التي وضعها مجلس النظار.

وبما أنَّه لم يحدث بعد اتِّفاقيَّة سنة ١٨٩٩ إمضاء أيِّ اتِّفاق آخر مغاير لها، فلا يكون هناك أيُّ مبرِّر لاتباع طريقة أخرى للمخابرة بيننا وبين حاكم السُّودان العام.

أمَّا من جهة تمثيل السُّودان بمعرض ومبلي فقد بيَّنت أنَّه بالنظر إلى الظروف التي حدث فيها لا يمكن أن يبرره الحكم الثنائي في إدارة السُّودان الداخلية، كما أوضحت أنَّه ما كان يوجد لدى الحكومة المصريَّة أيُّ اعتراض على أن يمثّل السُّودان في معرض صناعي أو تجاري بحت. وليس هذا حال معرض ومبلي، ولذلك احتججت على تمثيل السُّودان في معرض المستعمرات البريطانية.

ولا شك أنَّه كان يسرُّني ألَّا يكون تمثيل السُّودان في هذا المعرض إلَّا في نفس الموضع الذي وضعه فيه تمثيل العجم والولايات المتحدة وتيبت في المعرض المذكور.

ولستُ في حاجة لأن أزيد على ما تقدم. إنِّي آسف لأنَّ هذا الحادث وقع ونحن على أبواب المفاوضات.

نعم إنَّ مسألة السُّودان كلها سيدور البحث عليها بيني وبين المستر ماكدونالد، ولكن من واجبي أن أحتجَّ على كلّ عمل أعتبره ماسًّا بحقوق مصر.

(٢) وزير مصر في لندن والسُّودان

كان سعادة عبد العزيز عزت باشا وزير الخارجية الحالي وزيرًا مفاوضًا لمصر في لندن سنة ١٩٢٤، وقد أدبت جمعية الشَّرق الأدنى والأوسط بلندن مأدبة عشاء تكريمًا لسعادته في ليلة ٢ مايو سنة ١٩٢٤ بفندق سفواي بلندن.

وكان بين الحاضرين أغا خان وألفيكونت كودراي ومعتمد بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وإيران وسيام والسفير الألماني ورجال المفوضية المصريَّة واللادي بويل التي كانت تستقبل المدعوين واللادي هيلانة بروكلهرست والأستاذ ألن جاردنر وقرينته واللورد لامنجتون واللورد هدلي واللورد كلفورد أوف شدلاي والسر جون فوستر فريزر والسر ديان ملكولم ميلريت والسر جورج ماكولي.

وقد خصِّص لهذه الحفلة خطيبان هما اللُّورد جلايشن رئيسها ومستر أرثر بونسنباي أحد أعضاء مجلس النواب.

وقد ألقى سعادة عبد العزيز عزت باشا في الحفلة الخطاب التَّالي:

أقدم شكري إلى الجميع من صميم الفؤاد على ما أبدوه من الشعور القلبي في الإجابة على نخب مولاي صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر المعظم وأقابل بالحمد والثناء ما نلته من الشرف بدعوتي هذه الليلة، وأشكر لحضرة النبيل اللُّورد جلايشن رئيس المأدبة ولحضرة صاحب المقام الجليل مستر بونسباي ما تلطفا به من القول ولأعضاء جمعية الشَّرق الأدنى والأوسط مساعيهم التي لا تعرف الملل في تعزيز التفاهم بين بريطانيا وبلادي. وإنِّي أشعر أنَّ نجاح هذه المساعي يعود الفضل فيه إلى الودِّ الأكيد والعواطف القلبية التي تستقبلون بها ممثلي الشَّرق الأدنى والأوسط، وأعدُّ هذا الاجتماع — وأنا واثق أن مواطنيَّ يوافقونني — شاهدًا على الصداقة الموجودة الآن بين بريطانيا ومصر — هذه الصداقة التي تحتاج إليها البُلدان كلّ الاحتياج.

إنَّني لم تضعف ثقتي قط بتقاليد بريطانيا القائمة على الحرية، والتي شادت عليها بريطانيا عظمتها الحقيقية. وهذا ما حملني على أن أبقى مطمئنًّا حتَّى في أظلم السَّاعات في تاريخنا الحديث، وما ذلك إلَّا لأنَّني كنت واثقًا أنَّ العدالة لن تفارق الروح البريطانية، فلم يهزني كلّ ما حدث؛ لأنَّني كنت على يقين أنَّه لا بدَّ من أن يأتي يوم يبادر فيه الشعب البريطاني نفسه إلى إنجاز العهود التي قطعتها بريطانيا لمصر. وإنَّني الآن سعيد إذ أرى هذا اليوم قد دنا، وأنَّ بريطانيا نفسها قد مدَّت إلينا يدها بإخلاص شأن الرجل الشريف الذي يعرف قيمة الصديق، فأؤكِّد لكم أنَّنا نصافح هذه اليد وقلوبنا تفيض إخلاصًا لأنَّنا نعرف أنَّ مصر تحتاج إلى صديق مخلص بين الأمم. ونحن موقنون أنَّه إذا تأكدت صداقة بريطانية ففي وسع وادي النِّيل بأسره أن يواجه المستقبل بثقة عظمى.»

(٢-١) مصر والسُّودان

كانت مصر — وما زالت — منذ عهد محمد على الكبير مؤسِّس الأسرة الحالية المالكة، راغبة كلّ الرغبة في التَّوصل إلى تفاهم مع الدول الغربية، وقد صافحت — بوافر الشكر — كلَّ يدٍ مُدَّت إليها بإخلاص لمساعدتها على تحولها إلى دولة عصرية. والتَّاريخ شاهد كيف تمكَّن محمد علي الكبير من تثبيت ملكه وإصلاح مصر وإدخال الأساليب المدنية

إلى وادي النِّيل بأسره. وليس من المجهول عندكم أنَّه قد تأسَّست في عهده الزاهر إدارة عصرية عادلة وأمرعت أراضي السُّودان، وتأسَّست المعامل حتَّى أعالي النِّيل الأزرق، وهكذا فُتح وادي النِّيل للحضارة الغربية.

وفي الوسع أن نرى ما توقعه ذلك الرجل العظيم بأعماله ووصفه اللُّورد روزمري فيما بعد بقوله: «إنَّ النِّيل هو مصر ومصر هي النيل.» بما رواه الدكتور ريشارد لبسيوس حوالي سنة ١٨٤٢ مؤكِّدًا أنَّ محمد علي كان شديد الرَّغبة في إرسال البعثة إثر البعثة إلى أن يعثر على جميع منابع النِّيل الأبيض. ولكن تحقيق هذا المشروع الجليل قد تُرك لينجزه حفيده إسماعيل الذي أدرك الحقيقة التي فاه بها دلكاسه السياسي الفرنسوي المشهور مشبهًا البلاد بعضو طبيعي حائز في داخله على خصائص النمو وطرائقه وحدوده التي يستطيع ضمنها وحدها أن يبلغ التَّقدُّم الصحيح، فإكراه أي بلد على تسليم قسم حيوي من كيانها العضوي لا يمكن أن ينتهي عاجلًا أو آجلًا إلَّا بمأساة لا مردَّ لها.»

(٢-٢) عهد إسماعيل

وقد كتب مراسل جريدة التيمس في مصر سنة ١٨٧٦ يقول:

إنَّ في مصر حركة تقدم عجيبة، فقد بلغت من التَّقدُّم في سبعين سنة كما تقدمت بلدان كثيرة أخرى في خمسمائة سنة، وبعد هذا بسنتين ألقى مستر مستر فرنسيس كوب خطبة في جمعية الفنون نقلتها جريدة التيمس في شهر مارس سنة ١٨٧٨ أشار فيها إلى عهد إسماعيل فقال: «من الأعمال المجيدة التي يخلدها التَّاريخ لهذه الأسرة الخديوية إلغاء النخاسة من الأقطار الحاكمة فيها». وقد أصاب إسماعيل بقوله: «إنَّ بلدي لم تعد من أفريقيا، فنحن الآن جزء من أوروبا.»

فأعظم ما نسعى ونطمح إليه هو أن نجدِّد مجد مصر ونُعيد بناءها على أساس حديث ونجعلها جديرة بشهرتها القديمة، فتنةً لجميع ناظريها رحبة الصدر لجميع زائريها ممتنةً لجميع الذين ساعدوها على السير في سبيل التَّقدُّم والتَّجدد، وبهذا نبلغ الغاية المنشودة التي سعى إليها محمد علي الكبير.

إنَّنا قد نلاقي بعض العقبات في سبيلنا، ولكن أية دولة في هذا العالم الذي هو الآن في دور التَّحول والتَّبدل تستطيع أن تكون بمعزل عن المصاعب رغم المساعي الخارقة التي يبذلها أعظم رجال الدول الآوربية. فإذا وقع لمصر مثل هذه الأمور فهي ترجو

أن ينظروا إليها بعين التساهل، متذكِّرين أنَّ البداية صعبة في كلّ شيء، وأنَّ الأمة التي تشعر بواجبها وتَتُوق إلى تحمُّل نصيبها من المسئولية؛ لتكون عاملًا من عوامل السلم والوِفاق، تستحقُّ التَّشجيع، وتكون جديرة بأن يُنظر إليها باحترام.

(٢-٣) مبادئ الإنصاف

ليس من الممكن الحصول على السلم والرخاء إلَّا على أساس الإنصاف والإخلاص، وهذا المبدأ هو أعز المبادئ لقلب العنصر الإنكلسكوني. أو ليس هذا هو نفس المبدأ الذي بشَّر به كونفشيوس وبوذا وموسى وعيسى ومحمد؟ إنَّ الطبيعة البشرية واحدة في كلّ مكان في الشَّرق والغرب. إنَّ المبدأ البريطاني القائم على الإنصاف هو أسمى ما تدور عليه أحوال الأمل بذلك — فإنَّني واثق أنَّ منافعه لا تتناول بريطانيا ومصر فقط، بل أستطيع أن أؤكد أنَّ العالم كله يستفيد من تفاهم ودِّي دائم بين الأمتين؛ لأنَّ مصر تصبح وهي مستقلة مسالمة حلقة اتصال معنوية للوفاق والإخاء الصحيح بين الشَّرق والغرب.

(٢-٤) تمهيد السبيل للمفاوضات

وهل لي أن أقول على ذكر الإنصاف كم هي الفوائد التي يستفيدها الفريقان اللذان سيجريان المفاوضات بالنيابة عن البلدين لو امتنعت الصحف والجمهور عن المجازفة في إيجاد جو يثير الريب والشكوك وينجم عن النَّظر إلى أي أمر بنظارة ملونة؟

وبما أنَّني أعلق اهتمامًا عظيمًا على اجتماعنا هذه الليلة، فسأبسط لبني قومي مقاصدكم الشريفة، وأنا واثق بأنَّ مصر كلها تقدِّر موقف جمعيتكم حق قدره، ويكون جلالة مولاي الملك العظيم أول من يقدِّر حُسن نيتكم وصفاء سريرتكم، ولن يفوت زغلول باشا رئيس حكومتنا أن يلاحظ بسرور عظيم ما جرى من التَّقدُّم نحو تحسين التَّفاهم بين بلدينا.

فعسى أن نحتفل في المستقبل القريب بالتاريخ السعيد الذي تعقد به معاهدة بين إنكلترا ومصر تسجل بها صداقة وسلم دائمان شريفان بين البلدين مؤسسان على الاحترام وحسن النية المتبادلين.

تعرف أنَّ مصر تحتاج إلى صديق مخلص بين الأمم، ونحن موقنون إذا تأكدت صداقة بريطانيا ففي وسع وادي النِّيل بأسره أن يواجه المستقبل بثقة عظمى.

(٣) خطبة أخرى لعزيز عزت باشا

وألقى عبد العزيز عزت باشا وزير مصر المفوض خطبة في مأدبة أدبتها له جمعية القطن في منشستر ظهر يوم ٤ يونيو سنة ١٩٢٤ فافتتحها بإبداء الشكر والامتنان للإكرام الذي لقيه من الجمعية بدعوته لزيارة منشستر وقال: «إن جلالة مولاي المعظم المحبوب لا بد أن يقدر الإكرام الذي يقابل به ممثله في إنكلترا حق قدره»، ثمَّ تكلَّم فيها عن مسألة السُّودان فقال:

فالمصالح إذن تقرِّب ما بيننا وهي سياسية واقتصادية معًا. فالضرورة تقضي على مصر بأن تزيد إنتاجها من القطن. ويجب أن تكون إنكلترا في حالة تخولها أن تشتري محصولنا، ولكي تبلغ مصر تلك العناية يجب أن لا يُعيقها ولا يعرقل سيرها الذين تدخلوا في شأنها وكان تدخلهم — ولا شك — لمساعدتها كما قالوا في وعودهم وعهودهم الصريحة، بل يجب أن يتركوها حرَّة تتقدم ضمن حدودها الجغرافية الطبيعية التي هي حق لها. وأعني بالحدود الجغرافية الطبيعية وادي النِّيل كله الذي تتألَّف منه من منابعه إلى البحر المتوسط وحدة كاملة لا تقبل التجزئة. فالمصلحة الحيوية والجغرافية والاقتصادية والفنية والحربية التي هي جسم عضوي قائم بنفسه تأبى انفصال أي عضو من الأعضاء التي يتألف منها هذا الجسم. وهذه حقيقة يعرفها ويعترف بها جميع رجال الدولة عندكم.

إنَّ مصر لا تطلب شيئًا خارجًا عن هذه الحدود، ولا تستطيع أن تستغني عن أي عضو من جسمها السياسي أو الاقتصادي.

وقبلما نظر مؤسِّس الأسرة المصريَّة الحالية المالكة محمد علي الكبير جد صاحب الجلالة مولاي الملك فؤاد المعظم إلى حالة البلاد وتعهدها بعين عنايته وحوَّل أنظمة الرَّي من حالتها الطبيعية إلى حالتها الفنية الراقية، كان المزارعون يحصلون على ما يحتاجون إليه من المياه بوسائل فطرية بسيطة للمزروعات الصيفية أو لمزروعات الفيضان، ولم يكن القطن من بين

هذه المزروعات. فقضت حكمة المصلح الكبير بإدخال زرع القطن إلى مصر بعد إتقان وسائل الرَّي، فكان منبع الثروة لمصر وجعلها على اتصال وثيق بلانكشير. وأصبحت أيضًا تحتاج كلّ الاحتياج إلى المهندس البارع لخزن المياه وتنظيمها وتقديم ما يحتاج إليه محصول القطن منها، فانصرف الاهتمام إلى إنشاء مشروعات عظمى من الأحواض والقناطر والسدود، وتمَّ إنشاء كثير منها حتَّى الآن، وما زال الباقي تحت الإنشاء. ومشروعات الرَّي هذه منتشرة على طولي مجرى النيل: وجميعها متوقف بعضها على البعض الآخر ومتصل بعضها بالآخر؛ ممَّا يقضي بجعلها تحت سيطرة سلطة واحدة وإدارتها. ومن الواضح أن هذه السلطة التي تدير بيدها مصالح حيوية خطيرة تستطيع أن تقوى على فعل كلّ شيء. فكل خطأ ترتكبه عن عمد أو غير عمد في تنفيذ سيطرتها التي توزع بها ماء الحياة على النفوس يؤدي إلى عواقب مهلكة تصيب أرواح الشعب الخاضع لتلك السيطرة وأملاكه.

إنَّكم تعرفون — ولا شك — أهمية السلسلة الفقرية للهيكل الجسدي. وهي تقسم إلى ثلاثة أقسام مهمَّة. فإذا حُرم الجسم من أحد هذه الأقسام؛ بل من جزء يسير منها أصبح مشلولًا طول الحياة.

ويمكن أن تُقسَّم مصر أيضًا إلى ثلاثة أقسام: السُّودان والنوبة ومصر السُّفلى؛ فإذا تدخلتم قهرًا في أي من هذه الأقسام الثلاثة فإنَّكم تشلوننا. ولكن إذا سعيتم إلى حرماننا من قسم حيوي كالسودان فإنَّ حياتنا برمَّتها تبيد.

إنَّ رجال السِّياسة يرسمون خطوطًا على الخرائط ويلوِّنونها بألوان مختلفة ويلعبون بالألفاظ وفاقًا لما تصوره لهم مخيلاتهم، ولكن الطبيعة تأبى أن تتقيَّد بشيء من ذلك، ولا تلبث في كلّ حين أن تُثبت وجودها.

وليس ثمت مجال للاختلاف في أن تسلم قلب مصر ومنبع دم الحياة الذي يجري في عروقها يفضي إلى شل لأعصابها وتعريضها للاعتلال والفناء. ولكن مصر واثقة بأنَّ اتضاح حقوقها المقدسة سيزيل جميع الاختلافات في شأن سيادتها العملية المطلقة في السُّودان. وهذه السِّيادة العملية على إحدى مقاطعاتها الطبيعية التي تحتوي حاجاتها من المياه تخوِّل مصر أن تكون قوية بمركزها متقدمة بنشوئها ونشاطها ثابتة في شؤونها السياسية، وبذلك تكون عاملًا عظيمًا للسلام في مجتمع الأمم.

إنَّ مصر المتمتِّعة بالثقة والعطف من جميع الشعوب الأوروبية عامة ومن بريطانيا خاصَّة تستطيع أن تقيم الدليل على أنَّها تخدم الإنسانية بأسرها خدمة لا شك فيها.

إنَّ مصالحكم في وادي النِّيل هي مصالح تجارية واقتصادية. أمَّا نحن فمسألتنا فيه مسألة حياة أو موت. فمصر بلاد لا ترويها الأمطار. ولا بُدَّ لنا أيضًا من أن نهتم لمسألة سكانها الذين يزداد عددهم على الدَّوام، فهؤلاء السُّكان لا يحتاجون إلى العمل وتوفير وسائل العيش فقط في الوقت الحاضر، بل إلى منفذ ينفذون إليه في المستقبل.

إنَّ لكم مستعمرات عديدة يستطيع أن يهاجر إليها الذين يزيدون عمَّا تحتمله بلادكم من السُّكان، أمَّا نحن فلنا سوداننا الذي هو إحدى مقاطعاتنا، وهو يحتوي على أراضٍ شاسعة تكون منفذًا طبيعيًّا شرعيًّا يجلو إليها الذين يزيدون من سُكَّان مصر ويستثمرونها. ومن الطَّبيعي أن يذهب السُّكان الذين يزيدون في قسم من مملكة واحدة إلى قسم منها، حيث يكونون بين قوم منهم يدينون بدينهم ويتكلَّمون لغتهم ويعيشون في مثل مناخهم. وعلينا أن نضع موضع الاهتمام بنوع خاص أنَّ معظم الأراضي المجاورة صحراء قاحلة.

فإذا كنتم توافقونني على رأيي وتنظرون إلى مصالح مصر الحيوية بما تنظرون به إلى المصالح البريطانية من حسن النية متمسِّكين بمبادئ حرية التجارة وحرية التبادل التي نشرتها منشستر قبل كلّ مدينة أخرى في العالم الذي طالما ظهرت عليه دلائل حبِّ الذات، ففي وسعنا حينئذٍ أن نوفِّق بين مصالح بلدينا على المبادئ المقبولة التي تُبنى عليها المصالح التِّجاريَّة والاستقامة والصداقة.

لقد اعتادت الشعوب في هذا الزمن — وياللأسف — أن يتَّجر بعضها بالبعض الآخر بدلًا من بذل تضحيات متقابلة تُوجِد جوًّا تسود فيه الثقة والعلاقات الودية المنتجة على المصالح. وقد أظهرت الحرب العمومية وما عقبها من قلب التجارة بأسرها رأسًا على عقب أن جميع المخاصمات التي سارت إلى أقصى مداها وأهلكت النَّسل وبدَّدت الثروة الوطنية، ليست ممَّا تستثمر فيها الأموال استثمارًا صالحًا؛ لأنَّ القوات المبيدة التي أطلقتها أحقاد

الشعوب المختلفة قد أوقعت المشروعات التِّجاريَّة في الفوضى والاضطراب، وأصابت الشعوب نفسها بمثل ذلك. فالسياسة العملية الصحيحة هي التي تقضي بأن يوضع رأي الفريق الآخر موضع النَّظر، وأن تحقق المقاصد الأساسية التي تلغيها الشعوب الأخرى. فجميعها تود أن تعيش وتتقدم بانيةً مستقبلها على قواعدها الوطنية الخاصة.

ولا تزهو الحياة وتتقدم إلَّا عندما تُدرس المصالح المتقابلة درسًا وافيًا. وهذه الحقيقة الجوهرية كانت — وما زالت — معدودة من بين المبادئ التي تُنادي بها مدينة منشستر الممتازة.

ويجب أن تذكروا أنَّكم تعاملون في مصر شعبًا قديمًا فخورًا بماضيه غيورًا على مستقبله متَّحدًا لبلوغ النجاح وللقيام بالعهود التي تفرضها عليه المعاهدات، راغبًا في أن ينشئ معكم صلات تجارية واقتصادية قائمة على الاستقامة مقدمًا على ذلك جميع الضمانات التي تنطبق على الشرف والكرامة بين الشعوب المتحاربة.

(٤) السُّودان في برلمان ١٩٢٤

صرح المغفور له سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء بمجلس النواب المنعقد يوم الاثنين ٢٢ يونية سنة ١٩٢٤[1] بالتَّصريح التَّالي، بمناسبة بعض الحوادث التي جرت في السُّودان وقتئذٍ.

كلمة المغفور له سعد زغلول باشا

أيُّها السادة

تحركت مسألة السُّودان اليوم ولم تكن الحكومة مستعدَّة لأن تقول رأيها فيها، ولكنِّي مع ذلك يُمكنني أن أصرِّح لحضراتكم بأنَّ الحكومة تشارككم كلَّ المشاركة في شعوركم بالنسبة للسُّودان «استحسان وتصفيق طويل»، بل تنظر بعين المقت لكلِّ عمل من شأنه أن يفصل السُّودان عن مصر «تصفيق».

والإجراءات التي تتمُّ الآن في السُّودان — كما قال حضرة العضو المحترم عبد الرحمن الرافعي بك — على نوعين:

الأول: وثائق تكتب واجتماعات تعقد لإظهار الولاء للحكومة الإنكليزيَّة والرغبة عن الحكومة المصرية.

والثاني: هو منع الذين يريدون أن يقدموا ولاءهم للحكومة من الحضور هنا.

فأما القسم الأول وهو عقد الاجتماعات أو اختلاس الثِّقة لأجل إعلان الامتنان من الحكومة الإنكليزية، فهذا نصرح هنا وفي كلّ مكان بأنه باطل، ولا يعتبر حجة علينا «تصفيق».

إذا قدمت هذه الأوراق أمام أي محكمة أو أي هيئة وحصل التَّمسك فيها، فلسان مصر يقول: إنَّها أوراق باطلة لأنَّها لم تؤخذ بالحرية المطلقة، وإنه يجب قبل التَّمسك بها أن يكون السُّودان خاليًا من كلّ حكومة أجنبية «تصفيق استحسان».

أنا في تصريحي هذا منضم إليكم فيما أعلنتم من أن هذه الوثائق وهذه الأوراق وهذه الاجتماعات لا قيمة لها مطلقًا، وهذا كافٍ «أصوات بدون شك».

وأمَّا فيما يتعلَّق بالقسم الثَّاني ألا وهو منع السُّودانيين المخلصين. وكلهم — فيما أظن — مخلصون لنا ممتنون من حكمنا راغبون في بقائنا بالسُّودان كإخوان لهم وبصفة بلادهم جزءًا لا يتجزَّأ من مصر. فهذه الإجراءات تعلن بصفتنا حكومة. وبصفتنا مجلس نواب. نعلن لجهات الاختصاص استنكارنا لما يكون صحيحًا منها واحتجاجنا عليها «تصفيق».

وأنا ممتن من أنَّ لكم بهذه الوزارة ثقةً تامَّةً بأن تتخذ جميع ما في وسعها لحفظ حقوق مصر في السُّودان «تصفيق».

والآن أجيب حضرة العضو المحترم أحمد رمزي بك على قوله «ماذا تفيد المفاوضات في هذا الجو المضطرب»، نعم إنَّ المفاوضات في جو مضطرب ربما لا تفيد، ولكن يجب علينا ألَّا نكتفي بالكلام فيما بيننا، بل يجب أن نعلن أمام كلّ إنسان، سواء كان إنكليزيًّا أو غير إنكليزي بأنَّ لنا حقوقًا في السُّودان نريد استخلاصها «تصفيق».

فإذا تمكنت من الذهاب إلى المفاوضة فلا أقول: إنَّ السُّودان غير مملوك لنا؛ بل أقول: إنَّه ملكنا، وإنَّه جزء لا يتجزأ من مصر، ويجب أن يُردُّ لنا «تصفيق». وأقيم الدليل على هذا، والدليل تعلمونه حضراتكم ويعلمه كلّ

واحد منا ويحفظه كلّ مصري. فإن نجحنا فبها ونعمت، وإلَّا وإلينا الاحتجاج وعملنا كلّ ما يعمله شعب مهضوم الحقوق لاستخلاصها «تصفيق».

أنا لا أخشى المفاوضة فهي محادثات كسائر المحادثات أباشرها واثقًا بنفسي وواثقًا بأنِّي لا أقبل نتيجة من نتائجها إلَّا إذا كانت متفقةً مع حقوقكم وأمانيكم «تصفيق».

واذا كنت أرى دخولي فيها لا يُضيِّع علينا حقًّا ولا يكسب غيرنا حقًّا ضدنا أدخل فيها وأكون قد خدمت بلادي بهذا الدخول، ولكنِّي لا أخرج منها إلَّا ظافرًا بحقوقنا كلها أو حافظًا حقوقنا كلها «تصفيق».

ولا يمكنني أن أصرِّح لكم الآن بأن وقت المفاوضات قد دنا أو لم يدنُ؛ لأنَّه يوجد أمور تتوقف عليها المفاوضة. فإذا تمَّت هذه الأمور وتحققت دخلتُ المفاوضات مزوَّدًا بثقتكم ومعتمدًا على الله في نجاحها. ا.هـ.

(٥) قرار المجلس

ثم تلا السكرتير النائب نص اقتراحين: الأول مقدَّم من حضرة النائب المحترم الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي، وهذا نصه:

على أثر التلغراف الذي ورد لمجلس النواب من الوفد السُّوداني الذي عزم على الحضور إلى مصر للإعراب عن ولاء السُّودانيين لمصر وتمسكهم بالارتباط بها، وعلى أثر الأنباء الواردة من السُّودان عن المناورات المصطنعة التي يُقصد منها الاعتداء على حقوق مصر والسُّودان — يعلن المجلس عطفه على السُّودانيين جميعًا لتمسكهم الوثيق بارتباطهم بمصر، ويعلن استنكاره للمناورات المصطنعة التي يقوم بها دعاة الاستعمار في السُّودان، ويعلن تمسك الأمة المصريَّة بمبدئها الخالد، وهو أنَّ السُّودان جزء لا يتجزأ من مصر.

والاقتراح الثَّاني مقدم من حضرتيْ راغب إسكندر أفندي وحسين هلال بك وهذا نصه:

بعد سماع التَّصريحات الحكيمة التي أبداها حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء بخصوص الإجراءات غير الشرعية القائمة في السُّودان للسعي في فصل السُّودان عن مصر يكرِّر المجلس ثقته التَّامة بالوزارة، ويطلب الانتقال إلى جدول الأعمال.

فوافق الأعضاء على الاقتراحين بالإجماع.

وقد ورد تلغراف على رياسة مجلس النواب جلسة ١٩ يونيو سنة ١٩٢٤، وهذا نصه:

الخرطوم في ١٧ يونيو.

نحتج باسم الأمة السُّودانية ونسخط مُرَّ السُّخط على سياسة التطويق التي استعملت لمنع الوفد من السفر لعرض وثائق ولاء السواد الأعظم من الأهلين لمليك البلاد، ونطلب بإلحاح تدخل الحكومة في الأمر بكل ما أوتيت من إقدام وعطف لإيقاف ضروب التنكيل، وإن الأمة المصريَّة قاطبة مسئولة أمام التَّاريخ عن كلّ نازلة تحل بخدام العرش المصري أينما كانوا. وأن سفينة يدير دفتها سعد يستحيل أن تصطدم بصخر مهما كانت الزوابع والظلام.

الإمضاءات.

وفي تلك الآيام وصل إلى حضرة صاحب العزة أحمد حمدي سيف النصر بك رئيس لجنة السُّودان البرلمانية وقتئذ هذا التلغراف:

قُبض على الملازم الأول زين العابدين أفندي أمس مساءً وهو في الخرطوم.

(٦) مقتل السردار لي ستاك

بينما كان الفريق السر لي ستاك باشا سردار الجيش المصري والحاكم العام للسُّودان خارجًا من مكتبه في وزارة الحربية، قاصدًا إلى منزله في الساعة الثَّانية بعد ظهر يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ أطلق عليه «أفندية» مجهولون عدة طلقات نارية من مسدسات كانوا مسلحين بها.

وقد أصيب السردار برصاصة في بطنه وبرصاصتين أخريين في يده ورجله، وأصيب الكابتن كامبل ياوره برصاصة في صدره، كما أصيب السائق — وهو إنكليزي — برصاصة في فخذه، وقد توفي السردار متأثرًا بجراحه في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخمسين من مساء يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٤.

(٧) الاحتفال بجنازته

وفي الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة من صباح يوم السبت ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ أطلق سبعة عشر مدفعًا من حديقة الأزبكية إيذانًا بخروج النَّعش من الكنيسة الإنكليزيَّة بشارع فؤاد الأول، وتحية له.

وبدئ الموكب بثلة من فرسان البوليس الإنكليزي، تليها كوكبة من فرسان الجيش المصري، ثمَّ مدفعية جبلية مصرية، ثمَّ بلوك من الأورطة السابعة المصريَّة المشاة تتقدمها موسيقاها عليها شارة الحداد، ثمَّ كوكبة من فرسان الجيش الإنكليزي، فمدفعية إنكليزية، فكوكبة أخرى من الفرسان الإنكليز، فمدفعيتان إنكليزيتان، فأورطة من المشاة الإنكليزيَّة منكسة البنادق، وعلى علمها شارة الحداد، وعلى موسيقاها السواد، وهي تعزف في مسيرها نغمًا محزنًا، ففرقة من سلاح الطيران الإنكليزي، فجميع ضباط البوليس المصري، فضباط البحرية المصريَّة، فجميع ضباط الجيش المصري بأقسامه، فضباط البوليس المصري الإنكليز، فحكمدار بوليس الإسكندرية وضباطه المصريون والإنكليز، فضباط الجيش البريطاني، فضباط فرقة الطيران.

فنعش الفقيد على مركبة مدفع تجرُّها ستة من الجياد الصافنات، ويتقدمها فارسان إنكليزيان، وقد لفَّ النَّعش في علم بريطاني، وعليه إكليل من الأزهار وقبعة الفقيد، ووراءه ضابطان بريطانيان يحمل أحدهما على يديه وسادة من الحرير منضدة عليها نياشين، فجواد الفقيد، فجموع المشيعين وفي مقدمتهم فخامة المارشال اللنبي وإلى يمينه حضرة صاحب المعالي كبير الأمناء نائبًا عن حضرة صاحب الجلالة الملك، فحضرات أصحاب السمو الأمراء، فحضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد زغلول باشا وإلى يمينه حضرة صاحب المعالي أحمد زيور باشا رئيس مجلس الشيوخ، وإلى يساره حضرة صاحب المعالي أحمد مظلوم باشا رئيس مجلس النواب، فحضرات أصحاب الدولة والمعالي الوزراء بملابسهم الرَّسمية جميعًا، فوزراء الدولة المفوضون، فالقناصل فأعيان الجالية البريطانية ومندوبو الجاليات الأجنبية، فمندوبو المصارف

والشركات. فأعضاء مجلس الشيوخ والنواب، فوكلاء الوزارات، فمحافظ القاهرة ومدير الجيزة، وهيآت المحافل الماسونية، فرؤساء مصالح الحكومة، فالمستشارون الملكيون، فحضرات العلماء، فالرؤساء الروحيون، فرئيس محكمة الاستئناف الأهليَّة ومستشاروها، فرؤساء المحاكم وقضاتها، فالنائب العمومي ورجال النيابة، فنقابة الصحافة المصرية، فرجال القضاء الشرعي، فموظفو الوزارات والمصالح، فالأعيان والتجار، وكانت أسراب من الطائرات الإنكليزيَّة تحلق في الجو في أثناء سير الموكب متابعة إيَّاه في سيره ومنتشرة في جو القاهرة.

وقد اجتاز الموكب ميدان الأوبرا فشارع قصر النِّيل فميدان سليمان باشا فميدان الإسماعيلية، وكان في هذا الميدان عدد كثير من السيارات المسلحة، فوصل الموكب إلى المقبرة الإنكليزيَّة في الساعة الثَّانية عشرة.

وحمل النعش ثمانية من الجنود الإنكليز، ومن ورائهم فخامة المارشال اللنبي. وبعد أداء صلاة الجنازة أطلقت المدافع تحية وتكريمًا للفقيد.

وقد بلغ عدد الأكاليل التي أهديت نحو مائة كان من أجملها الإكليل الذي أرسله حضرة صاحب الجلالة الملك.

هذا وقد عطلت يوم تشييع الجنازة البنوك والمحال التِّجاريَّة الكبيرة، وأغلقت جميع المخازن التي مرَّ بها الموكب، وكانت كلها مُنكَّسة الأعلام، كما نُكِّست الأعلام المرفوعة على دور الحكومة ومصالحها.

(٨) الإنذار البريطاني عن مقتل السردار

في مساء ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ زار اللُّورد اللنبي بملابسه الرَّسمية في جمع عسكري بريطاني رسمي جنوده سواري ملأوا شارع مجلس النواب، دولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء في مكتبه بالمجلس، وتلا الإنذار التَّالي بالإنكليزية، وسلَّمه إلى سعد باشا:

القاهرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤

إلى صاحب الدولة سعد زغلول باشا إلخ ...

يا صاحب الدولة

أقدم لدولتكم من قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية البلاغ التَّالي:

إنَّ الحاكم العام للسُّودان وسردار الجيش المصري الذي كان أيضًا ضابطًا في الجيش البريطاني قد قتل بكيفية فظيعة في القاهرة.

فحكومة جلالة الملك تعدُّ مقتله هذا الذي يعرض مصر كما هي محكومة الآن لازدراء الشعوب المتمدينة، نتيجة طبيعية لحملة عدائية ضد حقوق بريطانيا العُظمى وضد الرعايا البريطانيين في مصر والسُّودان. وهذه الحملة القائمة على إنكار الجميل إنكارًا مقرونًا بعدم الاكتراث للأيادي التي أسدتها بريطانيا العُظمى لم تثبط من جانب حكومة دولتكم. وقد أثارتها هيئات على اتصال وثيق بهذه الحكومة.

وقد أفهمت حكومة جلالة الملك دولتكم منذ أكثر من شهر إلى العواقب التي لا بد من أن تنشأ عن هذه الحملة إذا لم تُوقَف. ولا سيما فيما يتعلَّق بالسودان. ولكن هذه الحملة لم توقف. والآن لم تعرف الحكومة المصريَّة كيف تمنع اغتيال حاكم السُّودان العام، وأظهرت أنَّها غيرُ قادرة على حماية أرواح الأجانب أو أنَّها قليلة الاهتمام بهذه الحماية.

فبناءً على ذلك تطلب حكومة جلالة الملك من الحكومة المصرية:

(١) أن تقدم اعتذارات كافية وافية عن الجناية.

(٢) أن تتابع بأعظم نشاط وبدون مراعاة للأشخاص، البحث عن الجُناة، وأن تنزل بالمجرمين — بدون مراعاة لأشخاصهم وأعمارهم — أشد العقوبات.

(٣) أن تمنع من الآن فصاعدًا وتقمع بشدة كلّ مظاهر شعبية سياسية.

(٤) أن تدفع في الحال إلى حكومة جلالة الملك غرامة قدرها نصف مليون جنيه.

(٥) أن تصدر في خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضبَّاط المصريين ووحدات الجيش المصري البحتة من السُّودان مع التعديلات التي تنشأ عن ذلك وتعيّن فيما بعد.

(٦) أن تُبلِّغ المصلحة المختصة أن حكومة السُّودان ستزيد مساحة الأطيان التي تزرع في الجزيرة من ٣٠٠٠٠٠ فدان إلى عدد غير محدود على نسبة ما تقتضيه الحاجة.

الفيكونت أدموند هنري اللنبي المندوب السَّامي البريطاني في مصر والسُّودان من ١٩١٩–١٩٢٥.

(٧) أن تَعدل عن كلّ معارضة لرغبات حكومة جلالة الملك في الشؤون المبيَّنة بعد فيما يتعلَّق بحماية المصالح الأجنبية في مصر.

وفي حالة عدم تلبية هذه المطالب في الحال تتخذ حكومة جلالة الملك على الفور التدابير المناسبة لصيانة مصالحها في مصر والسُّودان.

وإنِّي أنتهز هذه الفرصة؛ لأؤكِّد لدولتكم مرة أخرى احترامي الفائق.

«الإمضاء» اللنبي فيلد مارشال المندوب السامي

يا صاحب الدولة

إلحاقًا ببلاغي السَّابق أتشرَّف بإعلام دولتكم من قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية أن مطالبها الخاصَّة المتعلقة بالجيش في السُّودان وحماية مصالح الجانب في مصر هي كما يأتي:

(١) بعد ما يسحب الضبَّاط المصريون والوحدات المصريَّة البحتة للجيش المصري تحول الوحدات السُّودانية التابعة للجيش المصري إلى قوة مسلحة سودانية تكون خاضعة وموالية للحكومة السُّودانية وحدها وتحت قيادة الحاكم العام العُليا، وباسمه تصدر العرائض «البراءات للضباط».

سير لي ستاك.

(٢) إن القواعد والشروط الخاصَّة بخدمة الموظفين الأجانب الذين لا يزالون في خدمة الحكومة المصريَّة، وتأديبهم وخروجهم من الخدمة، وكذلك الشروط المالية لتسوية معاشات الموظفين الأجانب الذين اعتزلوا الخدمة، يجب أن يُعاد النَّظر فيها طبقًا لرغائب حكومة جلالته.

(٣) من الآن إلى أن يتم اتِّفاق بين الحكومتين بشأن حماية المصالح الأجنبية في مصر تحافظ الحكومة المصريَّة على مركز المستشار المالي والمستشار القضائي. وتحترم سلطتهما وامتيازاتهما كما نُصَّ عليها عند إلغاء الحماية، وتحترم أيضًا النِّظام والاختصاصات التي للمكتب الأوروبي في وزارة الداخلية كما حُدِّدت بالقرار الوزاري، وتنظر بعين الاعتبار الوافي إلى المنشورات التي يمكن أن يقدمها مديره العام فيما يتعلَّق بالشؤون الداخلة في اختصاصه.

وإنِّي أغتنم هذه الفرصة لأؤكد لدولتكم مرة أخرى احترامي الفائق.

٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٤

المندوب السامي

الإمضاء: اللنبي فيلد مارشال

(٩) بلاغ رسمي

في ٢٥ الجاري تلقَّت الحكومة بواسطة فخامة المندوب السَّامي البريطاني تلغرافًا واردًا من الضبَّاط وضباط الصف والجنود بالطوبجية المصريَّة في الخرطوم ذكروا فيه أنَّه صدر لهم أمر نائب حاكم السُّودان العام بمغادرة السُّودان في الحال، وأنَّ الجنود البريطانية قد أحاطت بهم من كلّ جانب. وأضافوا إلى ذلك أنَّ ذخيرتهم وهي عشرون خرطوشة لكل بندقية ومقدار قليل للمدافع كانت غير كافية للدفاع ضد قوات كبيرة مسلحة بمقادير لا حدَّ لها من الذخيرة، فضلًا عن أنَّ مستودعات الذخيرة المصريَّة ما زالت من يوم فتح السُّودان تحت يد السلطات البريطانية، ولكنهم أصروا على أن لا يغادروا السُّودان إلَّا بأمر جلالة الملك أو يموتوا عن آخرهم بعد أن يستنفذوا ذخيرتهم.

ولمَّا اطلع مجلس الوزراء على هذا التلغراف تفاوض مليًّا في الأمر، وقرَّر في جلسة خاصة ضرورة الإسراع إلى منع سفك الدماء بغير جدوى وتجنب كلّ عمل من شأنه المساس بحقوق البلاد. وقد عهد مجلس الوزراء — بناءً على ذلك — إلى وزير الحربية في توجيه الرسالة الآتية إلى الضبَّاط وضباط الصف والجنود بالجيش المصري في السُّودان:

عهدنا فيكم الشجاعة والولاء، ولا يداخلنا أي شك في أنكم مستعدون جميعًا لإراقة آخر نقطة من دمائكم في خدمة جلالة الملك وفي سبيل الوطن. على أنَّنا نأمركم بأن تكفُّوا عن مقاومة الإجراءات التي اتخذها نائب حاكم السُّودان العام لإخراجكم بالقوة من الأراضي السُّودانية، فإنَّه ليس من وراء هذه المقاومة سوى سفك الدماء بغير جدوى، وبما أن الحكومة المصريَّة قد احتجت احتجاجًا صريحًا على هذا العمل الذي نُفِّذ بالقوة القاهرة، فعودتكم لا يترتب عليها أي مساس لا بحقوق الوطن ولا بشرفكم العسكري.

والغرض من هذه التَّعليمات الصادرة من وزير الحربية اللواء صادق يحيى باشا لا من جلالة الملك، كما زعمت وكالة روتر، إنَّما هو منع سفك الدماء بغير جدوى ودفع كوارث جديدة عن الوطن.

وقد أرسلت الحكومة المصريَّة برياسة حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا ردًّا طويلًا مسهبًا عن الإنذار البريطاني مع وزير خارجية مصر في يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤. ومضمون هذا الرد هو إنكار مسئولية الحكومة في حادث السردار وإجابة بعض الطلبات ورفض البعض الآخر.

فأرسل المندوب السَّامي الكتاب التَّالي ردًّا على ردِّ الحكومة المصرية:

حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء

ردًّا على رسالة دولتكم بتاريخ اليوم؛ أتشرَّف بأن أبلغكم أنَّه نظرًا إلى رفض الحكومة المصريَّة تلبية مطالب حكومة جلالة الملك الواردة في الفقرتين الخامسة والسادسة من بلاغي المقدم أمس أرسلت التَّعليمات إلى حكومة السُّودان بما يلي:

أولًا: أن تخرج من السُّودان جميع الضبَّاط المصريين والوحدات المصريَّة المحضة في الجيش المصري مع التَّغييرات المعينة التي تترتَّب على ذلك.

ثانيًا: أنَّها مطلقة الحرية في زيادة المساحة التي تروى في الجزيرة من ٣٠٠ ألف فدان إلى حدٍّ غير محدود وفاقًا لما تقضي به الحاجة.

وستعلمون دولتكم، في الوقت المناسب، العمل الذي ستتخذه حكومة جلالة الملك، نظرًا إلى رفض دولتكم قبول المطلب السابع الخاص بحماية مصالح الأجانب في مصر.

وإنِّي أسجِّل أن الحكومة المصريَّة قد قبلت فيما قبلتْه من المطالب، المطلب الرابع. فحكومة جلالة الملك تنتظر أن يدفع لي مبلغ نصف مليون جنيه قبل ظهر الغد.

وإنِّي أنتهز الفرصة لأجدِّد لدولتكم وافر احترامي الأكيد.

اللنبي. فيلد مارشال: المندوب السامي

وفي الساعة العاشرة قبل ظهر يوم الاثنين ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ وقَّع حضرة صاحب السعادة علي الشمسي أفندي «باشا» وزير المالية تحويلًا ماليًّا بمبلغ ٥٠٠ ألف جنيه قيمة التعويض الذي طلبته الحكومة البريطانية في إنذارها، والذي قرَّرت الحكومة المصريَّة دفعه ورفعه إلى حضرة صاحب الدولة سعد باشا، فأرسله إلى دار المندوب السَّامي مع الكتاب الآتي:

يا صاحب الفخامة:

ردًّا على مذكرتكم المؤرَّخة أمس وإلحاقًا بمذكرتنا المؤرخة ٢٢ الجاري أتشرَّف بأن أرسل إليكم طي هذا تحويلًا على البنك الأهلي المصري بمبلغ خمس مئة ألف جنيه.[٢]

أمَّا فيما يتعلَّق بالإجراءات المبيَّنة في الفقرتين الأولى والثانية من مذكرة فخامتكم، فإنَّ الحكومة المصريَّة تتمسَّك بجميع ما أبدته من التَّصريحات في المذكرة المؤرخة ٢٢ الجاري، وتحتجُّ احتجاجًا صريحًا على ما اتخذته حكومة صاحب الجلالة البريطانية من القرارات، وهي ترى أن لا مسوِّغ لها، وتعتبرها مناقضةً لما لمصر من الحقوق المعترف بها — وتفضلوا فخامتكم بقبول عظيم احترامي.

رئيس مجلس الوزراء
سعد زغلول

(١٠) احتلال جمارك إسكندرية

أرسل المندوب السَّامي البريطاني قبل ظهر يوم الاثنين ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ الكتاب الآتية ترجمته إلى رئيس الوزارة المصرية:

حضرة صاحب الدولة إلخ …

بالإشارة إلى الكتاب الذي أرسلته إليكم أمس أتشرَّف بأن أبلغ دولتكم أنَّه كتدبير أول أعطيت التَّعليمات إلى قوات جلالة ملك بريطانيا بأن تحتل جمرك إسكندرية.

وإنِّي أنتهز هذه الفرصة لأكرِّر لكم عهود احترامي الفائق.

اللنبي فيلد مارشال، المندوب السامي

وقد احتلت الجنود الإنكليزيَّة الجمارك فعلًا. وقد رفع حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء كتابين إلى جلالة الملك يطلب فيهما الاستعفاء، وهما:

١

مولاي

أتشرَّف بأن أرفع لجلالتكم أنَّي لم أقبل مسئولية الوزارة إلَّا لخدمة البلاد وتنفيذًا لمقاصدها السَّامية، ولكن الظروف الحالية تجعلني عاجزًا عن القيام بهذه المهمة الخطيرة؛ ولهذا أرجو من مكارم جلالتكم أن تتفضلوا بقبول استعفائي مع زملائي من الوزراء، وإنِّي وإيَّاهم مستعدون على الدَّوام للعمل على ما يرضيكم أدام الله علينا نعمة رعايتكم العالية وأدامكم مؤيَّدين بالعز والإقبال، وموضع كلّ إكبار وإجلال.

٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤

شاكر نعمتكم: «سعد زغلول»

٢

مولاي

تشرَّفت من يومين بأن عرضت لجلالتكم شفهًا عزمي وعزم زملائي على الاستقالة، وشرحت الأسباب التي حملتنا عليها. وفي الساعة ٦ من مساء أمس قدمت عريضة الاستعفاء وألححتُ في قبولها. وطوعًا للأمر الكريم انتظرت إلى اليوم، وعقب التشرف بهذه المقابلة فورًا وردني خطاب من فخامة اللُّورد اللنبي ينبئني فيه بأنه أعطى أوامر لحكومة السُّودان:

أولًا: أن تُخرج من السُّودان جميع الضبَّاط المصريين والوحدات المصريَّة المحضة في الجيش المصري مع التغييرات المعينة التي تترتب على ذلك.

ثانيًا: أنها مطلقة الحرية في زيادة المساحة التي تروى في الجزيرة من ٣٠٠٠٠٠ فدان إلى ما لانهاية.

وزاد بأنه سيبلِّغ الحكومة في الوقت المناسب العمل الذي ستتخذه حكومته لحماية مصالح الأجانب في مصر، وبأنَّه يطلب دفع مبلغ الخمسمائة ألف جنيه قبل ظهر اليوم، فأرسلت الحكومة إلى فخامتة تحويلًا على البنك الأهلي بهذا المبلغ مصحوبًا بكتاب يشتمل على الاحتجاج ضد هذه التصرفات.

ثم تشرَّفت بمقابلة جلالتكم، وكرَّرت الالتماس بقبول الاستعفاء. وعقب خروجي من حضرتكم الشريفة تلقيت خطابًا من جنابه بأنَّ أول عمل اتخذته حكومته هو أن أمرت قوة عسكرية بريطانية باحتلال جمارك الإسكندرية.

إزاء هذه الاعتداءات المتكررة على استقلال البلاد وحقوقها لا يسعني إلَّا الإلحاح على جلالتكم لتتفضلوا بالإسراع في قبول الاستعفاء؛ لأنَّ هذا فيما أري قد يكون خير وسيلة لوقاية البلاد من الشرور المتوالية.

ولا زلتُ الداعي على الدَّوام بالتوفيق لجلالتكم والشاكر لنعمتكم.

٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤

سعد زغلول

(١١) قبول استقالة الوزارة السعدية

عزيزي سعد زغلول باشا:

اطلعنا على كتاب دولتكم المرفوع إلينا بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ المتضمن استقالتكم من مهمتكم. وقد أصدرنا أمرنا هذا لدولتكم شاكرين لكم ولحضرات الوزراء زملائكم إخلاصكم وما أديتموه من الخدمات أثناء قيامكم بأعباء منصبكم.

صدر بسراي عابدين في ٢٧ ربيع الثَّاني سنة ١٣٤٣ / ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ رقم ٧٦ سنة ١٩٢٤.

فؤاد

وقد تألفت خلفًا للوزارة السعدية وزارة برياسة حضرة صاحب الدولة أحمد زيور باشا وزيرًا للداخلية وللخارجية مؤقتًا، وأحمد محمد خشبة بك «باشا» وزيرًا للمعارف العمومية وللحقانية مؤقَّتًا، وعثمان محرم بك «باشا» وزيرًا للأشغال العمومية، ومحمد السيد أبو علي باشا وزيرًا للزراعة، ومحمد صدقي باشا وزيرًا للمالية، ونخلة جورجي المطيعي بك «باشا» وزيرا للمواصلات، ومحمد صادق يحيى باشا وزيرًا للحربية والبحرية.

(١٢) المكاتبات المتبادلة بين وزارة دولة زيور باشا ودار المندوب السامي

١

من المندوب السَّامي إلى حضرة صاحب الدولة أحمد زيور باشا رئيس مجلس الوزراء.

ياصاحب الدولة ردًّا على سؤالكم أتشرَّف بإحاطتكم علمًا بأن الطلبات التي يصح لي معها أن أشير على حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية بالجلاء عن جمرك الإسكندرية فيما لو قبلتها الحكومة المصريَّة هي:

(١) تقبل الحكومة المصريَّة إحالة الموظفين الأجانب الذين تسري عليهم أحكام المواد ٤ و٧ و٨ من القانون رقم ٢٨ لسنة ١٩٢٣ في التواريخ التي

ستحدد طبقًا للاختيار الذي سيخوِّل لهم الحق في إبدائه قبل ١٥ يناير سنة ١٩٢٥.

ولا يجوز أن تكون هذه التواريخ سابقة لأول إبريل سنة ١٩٢٥ ولا لاحقة للتاريخ السَّابق تقريره لخروج أولي الشأن أو لتاريخ أول إبريل سنة ١٩٢٧.

(٢) تتعهد الحكومة المصريَّة في استعمال كلّ نفوذها لدى بلدية الإسكندرية وبذل كلّ مساعدة ممكنة لها بقصد مساواة موظفي البلدية الأجانب بموظفي الحكومة المصريَّة ومجالس المديريات والمجالس البلدية والمحلية فيما يتعلَّق بأحكام القانون رقم ٢٨ سنة ١٩٢٣ والبندين الأول والثالث من هذه المذكرة.

(٣) في حالة استعمال هؤلاء الموظفين لحق الاختيار المنصوص عليه في البند الأول، يمنح الموظفون منهم — الذين لم يكن لهم بعد حق في المعاش ولكنهم قد يكتسبون هذا الحق إذا ظلوا في الخدمة لغاية أول إبريل سنة ١٩٢٧ — معاشًا يقوم مقام المكافآت المنصوص عليها في قانون المعاشات، ويحسب هذا المعاش طبقًا للقواعد المقررة في المادة السادسة عشرة من ذلك القانون كما عدِّلت فيما بعد ولكن بدون مراعاة لأحكام المادة العشرين التي تشترط خدمة خمس عشرة سنة يحسب عنها المعاش. وفي هذه الحالة يخفض في الملحق رقم ٢ من القانون رقم ٢٨ سنة ١٩٢٣ عامل مدة الخدمة إلى ٦.

(٤) يسري حكم المادة ٢٠ من القانون رقم ٢٨ سنة ١٩٢٣ على كلّ موظف أجنبي من موظفي الحكومة يكون في المعاش أو يحال في المستقبل إلى المعاش. ويقرر لذلك مدة معقولة للاختيار.

(٥) يوضع قلم الموظفين الأجانب وموظفوه كما هو منظم الآن تحت المراقبة الإدارية للجنة تؤلَّف من المستشار المالي رئيسًا ومن عضوين أحدهما أجنبي.

(٦) تراعي الحكومة المصريَّة مراعاة تامة رأي المستشار المالي فيما يطرأ حتَّى أول إبريل سنة ١٩٢٧ من الخلاف الجوهري بشأن شروط خدمة الموظفين الأجانب أو شروط إحالتهم على المعاش.

(٧) يعترف باستقلال Autonomie المستشارين المالي والقضائي فيما يتعلَّق بمكتبيهما ضمن حدود القوانين واللوائح.

(٨) تقبل الحكومة المصريَّة نص البند الثالث من المذكرة الثَّانية التي أرسلت إلى سلف دولتكم بتاريخ ٢٢ نوفمبر الماضي.

وإني أغتنم هذه الفرصة لأجدِّد لدولتكم فائق احترامي.

القاهرة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٤
الإمضاء: اللنبي فلد مارشال السامي

٢

إلى حضرة صاحب الفخامة المندوب السَّامي البريطاني
يا صاحب الفخامة:

أتشرَّف بإحاطة فخامتكم علمًا بأني تسلَّمت المذكرة التي تكرمتم بإرسالها إليَّ في هذا اليوم، وذكرتم فيها المطالب الثمانية التي علقت حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية إخلاء جمرك الإسكندرية على قبول الحكومة المصريَّة لها.

وأتشرَّف بأن أخبر فخامتكم بأنَّ مجلس الوزراء قد فوضني في إبلاغ فخامتكم أنَّ الحكومة المصريَّة قبلت هذه الشروط بأكملها بدون قيد، مذعنة في ذلك إلى حكم الضرورة ومدفوعة بالرغبة الأكيدة في المسألة وحق التفاهم.

وتفضلوا يا صاحب الفخامة بقبول فائق احترامي.

القاهرة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢
رئيس مجلس الوزراء
الإمضاء: أحمد زيور

٣

إلى حضرة صاحب الدولة أحمد زيور باشا رئيس مجلس الوزراء

عزيزي الرئيس

رغبة في اجتناب كلّ تفسير يؤدي إلى تجاوز الغرض الذي ترمي إليه الفقرتان ٦ و٧ من مذكرة حضرة صاحب الفخامة المندوب السَّامي المؤرخة في هذا اليوم بشأن سلطة المستشارين المالي والقضائي، أتشرَّف بأن أعطي دولتكم الإيضاحات الآتية:

تأمل حكومة حضرة صاحب الجلالة أن تراعي الحكومة المصريَّة بتمام الاعتبار وبروح المودة، في علاقاتها ذات الصفة شبه السياسية مع هذين المستشارين، كلّ رأي يُبديه أحد هذين الموظفين ضمن حدود اختصاصاته. وعلى أنه من المفهوم أن لا يكون لسلطتهما أي مساس بما على الوزارة من المسئولية الدستورية.

ومن البدهي أنه لا يجوز أن يترتب على هذه الإيضاحات ما يضرُّ بالتحفظات ذات الصبغة السياسية والصبغة العامَّة التي سبق أن أبدتها حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية.

وتفضلوا يا عزيزي الرئيس بقبول مزيد التحيات.

القاهرة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٤

الإمضاء «كلارك كار»

٤

إلى جناب المستر كلارك كار المستشار بدار المندوب السامي

عزيزي المستر كار

تسلمت كتابكم المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٤ الذي تكرمتم بأن أعطيتموني فيه التَّصريحات الآتية اجتنابًا لكل تفسير يؤدي إلى تجاوز الغرض الذي ترمي إليه الفقرتان ٦ و٨ من مذكرة حضرة صاحب الفخامة المندوب السَّامي المؤرخة في ذات اليوم فيما يتعلَّق بسلطة المستشارين المالي والقضائي.

تأمل حكومة حضرة صاحب الجلالة أن تراعي الحكومة المصريَّة بتمام الاعتبار وبروح المودة، في علاقاتها ذات الصفة شبه السياسية مع هذين المستشارين كلّ رأي يُبديه أحد هذين الموظفين ضمن حدود اختصاصاته. على أنه من المفهوم ألَّا يكون لسلطتهما أيُّ مساس بما على الوزراء من المسئولية الدستورية.

ومن البدهي أنَّه لا يجوز أن يترتب على هذه الإيضاحات ما يضرُّ بالتحفظات ذات الصبغة السياسية والصبغة العامَّة التي سبق أن أبدتها حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية. وقد أحطت علمًا بهذه الإيضاحات وأثبتها.

وتفضلوا يا عزيزي المستر كار بقبول مزيد التحيات.

القاهرة في أول ديسمبر سنة ١٩٢٤

رئيس مجلس الوزراء

الإمضاء: أحمد زيور

(١٣) القبض على الجناة في مقتل السردار

وقد ألقي القبض على عبد الفتاح عنايت الطالب بمدرسة الحقوق، وعبد الحميد عنايت الطالب بمدرسة المعلمين العليا، وإبراهيم موسى الخراط بالعنابر، ومحمود راشد أفندي المهندس بالتنظيم، وعلي إبراهيم محمد البراد بالعنابر، وراغب حسن النجار بمصلحة تلغراف الحكومة، وشفيق منصور أفندي المحامي، ومحمود أحمد إسماعيل الكاتب بوزارة الأوقاف، ومحمود صالح سواق سيارة أجرة؛ متَّهَمين بالتآمر على قتل السردار. وأحيلوا إلى محكمة جنايات مصر برياسة أحمد عرفان باشا.

وقد صدر الحكم في الساعة العاشرة من صباح يوم الأحد ٧ يونية سنة ١٩٢٥، وهو يقضي بإعدام المتهمين الثمانية وبحبس محمود صالح سائق السيارة التي فرَّ فيها الجناة بعد ارتكاب الجريمة سنتين مع احتساب مدة الحبس الاحتياطي وكانت تزيد على ستة أشهر. وكان يمثل النيابة سعادة محمد طاهر نور باشا النائب العام يومئذ ووكيل الحقانية اليوم، وقد أبدلت الأشغال الشاقة المؤبدة من حكم الإعدام بمرسوم

ملكي بالنسبة لعبد الفتاح عنايت، ولا يزال إلى اليوم في تنفيذ العقوبة، ورفضت محكمة النقض الطعن في الحكم.

هوامش

(١) راجع مضبطة مجلس النواب عن الجلسة المذكورة.

(٢) كان إلزام الحكومة المصرية بدفع هذا المبلغ موضع انتقاد شديد في مصر وفي إنكلترا ذاتها، وعزا بعض الإنكليز فرض هذه الغرامة إلى غضب اللورد اللنبي وتسرعه؛ لأنَّ الكرامة البريطانية كانت توجب الاكتفاء بالمطالب الأدبية فقط. وأخيرًا خصص هذا المبلغ باسم اعتماد خاص لذكرى سير لي ستاك للقيام بأعمال خيرية بالسودان الذي نصب الفقيد «نفسه له». وقد أنشئ من ذلك معمل أبحاث بالخرطوم تذكارًا لستاك.

الفصل التاسع عشر

جمعية اللواء الأبيض

قلنا: إنَّ حوادث مصر في سنة ١٩١٩ وما تلاها، وفي ضمن ذلك مفاوضات ملنر والخلاف بين الزعيم سعد والمغفور له عدلي يكن باشا سنة ١٩٢١ ومفاوضات كرزون، كان لها صدى في السُّودان، وبَيَّنَّا أسباب ذلك، وقد وجدت هذه الحوادث في بيئة الشبان الموظفين السُّودانيين نفوسًا مستعدة لمشايعة الحركة الوطنية المصرية، والهتاف معها بحياة الملك فؤاد وسعد باشا والوفد والاستقلال التَّام لمصر والسُّودان.

على أنَّهم قد رأوا أن هذه المشايعة القلبية غير كافية؛ ومن ثمَّ اتَّجهوا إلى تكوين هيئة ذات برنامج. وكان ذلك بتأليف جمعية اللواء الأبيض، التي ظهر نشاطها ووجودها مع نشاط مصر بتأليف الوزارة السعدية واجتماع البرلمان المصري سنة ١٩٢٤ ودعوة وزارة العمال الإنكليزيَّة الأولى سعدًا للمفاوضة.

وقد أُنشئت الجمعية. وتألفت الهيئة التنفيذية للجمعية برياسة الملازم أوَّل علي عبد اللطيف وسكرتيريه المرحوم عبيد الحاج الأمين مترجم سابق بمصلحة السجون السُّودانية بالخرطوم، وعضوية صالح عبد القادر وحسن شريف وحسن صالح الموظفين يومئذ بمصلحة البوستة والتلغراف بالخرطوم.

ومن أعضاء آخرين منهم: المرحوم المهندس السُّوداني محمد سر الختم بالرَّي المصري بالخرطوم، وعلي ملاسي ووهبة إبراهيم الموظفين بالبوسته والتلغراف، وعبيد صالح إدريس بالجمارك، والشيخ عمر دفع الله التاجر بأم درمان، ومحمد المهدي الخليفة نجل التَّعايشي، وعرفات محمد عبد الله، وعثمان محمد هاشم.

وهناك أعضاء سرِّيون خفيت أسماؤهم، وكان أكثرهم من موظفي الحكومة السُّودانية. وقد وضعوا برنامجًا لجمعيتهم، ويتلخص في المجاهرة بتأييد المصريين في موقفهم بطلب الاستقلال التَّام لمصر والسُّودان.

وأنشئت فروع للجمعية في بورسودان، والأبيض، وواد مدني وعواصم أخرى. وكان القصد من تأليف الجمعية وحركتها معارضة حركة أخرى ظهرت في السُّودان لتوقيع عرائض ضد المصريين وبطلب فصل السُّودان عن مصر. وقد جمعت الجمعية عرائض ثقة بتأييد المصريين، وأرسلت العرائض إلى القاهرة مع الملازم أول زين العابدين عبد التَّام ومحمد المهدي الخليفة. ولكنَّ الحكومة قبضت عليهما في حلفا في أثناء سفرهما إلى القاهرة وأعادتهما إلى الخرطوم، أمَّا العرائض فقد تمكَّنَا من تسليمها إلى موظف مصري كان يرافقهما. وكان ذلك تأييدًا لسعد باشا لمناسبة اقتراب مفاوضاته، وكان من مظاهر نشاط الجمعية احتجاجات في الجرائد المصريَّة والإنكليزية على الحكومة السُّودانية. وأُنشئت فروع للجمعية في العطبرة وحلفا وبورسودان ومروى وواد مدني. وقد جهدت الحكومة السُّودانية عندئذ في منع هذه الحركة، فعمدت إلى نقل أعضائها، وهم من الموظفين بها إلى جهات بعيدًا عن الخرطوم.

بعد ذلك أخذت الجمعية تجاهر بنشاطها، فوزعت منشورات ونظمت مظاهرات هتفت بحياة سعد باشا وبنداءات أخرى. فقبضت الحكومة على المتظاهرين وحاكمتهم، وأصدرت المحكمة الجنائية بالخرطوم أحكامًا مختلفة منها سجن «علي عبد اللطيف» لمدة ثلاث سنوات بتهمة التحريض على المظاهرات وبسجن الآخرين لمدة ستة أشهر بتهمة التظاهر. وذلك في شهر يوليو سنة ١٩٢٤.

وفي بورسودان حدثت مظاهرات وحُكم على قائدي المظاهرة وهم: علي ملاسي، بالسجن لمدة ثلاث سنوات لإلقائه خطابًا باللغة الهدندوية واللغة العربية، واتُّهم بالتحريض على المظاهرات والعصيان، وحكم بحبس كلّ من وهبة إبراهيم «من أقباط السُّودان» بمصلحة البوسته، ومحمد عبد المنعم زايد بالسكة الحديد، وأحمد صبري زايد بالجمارك، «وهما مصريَّان ولدا في السُّودان»، وعبيد صالح إدريس بالجمارك، وقُبض على صالح عبد القادر وكيل جمعية اللواء الأبيض ببورسودان.

تنبهت الحكومة إلى حركة الجمعية ونشاطها، وبثت العيون والأرصاد لمنع استفحال أمرها. ومن ذلك القبض على أعضاء الجمعية البارزين وسجنهم ومحاكمتهم بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم. وذلك في شهر أغسطس سنة ١٩٢٤.

(١) عصيان من طلبة المدرسة الحربية بالخرطوم

كان عدد طلبة المدرسة الحربية السُّودانية بالخرطوم ٦٠ طالبًا، وكان قومندان المدرسة البكباشي بيز واليوزباشي حسن حسني الزيدي «مصري» — الآن قائمقام. — وقومندان الأورطة الثامنة — والمدرسون عبد الرحمن فهمي وإبراهيم شعبان، وهما مصريَّان، والملازم أول إبراهيم محمد حسن وهو ضابط «سوداني».

في الساعة السابعة صباحًا يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٢٤ خرج طلبة المدرسة في مظاهرة عسكرية مسلحة، وطافوا بثكنات الجيش المصري بالخرطوم، هاتفين بحياة الملك فؤاد وسعد باشا وعلي عبد اللطيف.

وعندما علمت الحكومة بأمر المظاهرة، صدرت الأوامر إلى الأورطة الإنكليزيَّة المعسكرة في الخرطوم، بمحاصرة المدرسة والاستيلاء على الجبخانة.

فلمَّا عاد الطلبة إلى المدرسة الساعة الحادية عشرة صباحًا أمرهم اللواء مكاون باشا قومندان قسم الخرطوم بتسليم أسلحتهم. فأبوا تسليمها. وتوسط آباؤهم فحملوهم على تسليم السلاح. فسلموه وقبضت الحكومة على ستة طلبة اتهموا بقيادة المظاهرة والتحريض عليها، وأودعوا سجن ثكنات الجيش المصري، حيث كانت الأورطة الرابعة منه معسكرة بالخرطوم.

وقبض على سبعة من تلامذة الصفوف، وأودعوا سجن قسم الأشغال العسكرية بالخرطوم بحري. وصدرت الأوامر لبقية الطلبة بالعودة إلى دروسهم. ولكنهم لم يذعنوا. وشرطوا لعودتهم الإفراج عن زملائهم. ودخلوا بالمدرسة، ولكنَّهم استمروا مضربين عن تلقي دروسهم. وكانوا ينادون بهُتافات مختلفة. واستمر الحال على هذا النحو عشرين يومًا، ثمَّ نقلوا إلى باخرتين نيليتين أمام كلية غوردون رستا في وسط النَّهر بعيدًا عن الشاطئ تحت حراسة بولوك من الأورطة الثالثة المصريَّة حتَّى أواسط سبتمبر. ثمَّ أودعوا السجن العمومي بالخرطوم بحري. وأفرج عن بعضهم بغير محاكمة، وحكم على الباقين كلٌّ بالسجن لمدة ست سنوات في يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٤.

(٢) الهياج في السجن في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤

وفي ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ حصل هياج في السجن؛ ذلك أن طلبة الحربية أُودعوا سجن «كوبر» بالخرطوم مع المعتقلين السياسيين والعاديين. وقد طُبِّقت عليهم لائحة السجون، ومنها إعطاؤهم طعام السجن وخبزه، فأضرب الطلبة عن ذلك الطعام، وطلبوا أن يقدم إليهم طعام مدرستهم كما كان الحال في أثناء اعتقالهم في السفن وقبل الحكم عليهم. فرفضت إدارة السجن طلبهم. وكانت الأغلال محكمة في أرجلهم وأرجل المعتقلين السياسيين. وقد حاولت إدارة السجن أن تضع الأغلال في أيدي الطلبة الحربيين علاوة على أرجلهم عقابًا لهم على عدم إذعانهم للائحة السجن فهاجوا وتمرَّدوا وكسروا الأبواب وهي من الخشب، بواسطة الجرادل الموضوعة في الزنزانات للشرب ولقضاء الحاجة، وكان ذلك صباحًا عقب اغتيال السير لي ستاك بالقاهرة. فلمَّا تسامع المعتقلون السياسيون الخبر وسمعوا الصياح فعلوا مثلهم وانضموا إليهم. وخرج الجميع هاتفين متظاهرين في ساحة السجن. فأغلق حرَّاس السجن أبواب السجن الخارجية، وانتشروا في أعلى السور، وحضرت قوة من الجيش الإنكليزي حاصرت السجن وكسر المسجونون السلاسل والأغلال وورش السجن، واستولوا على أقمشة السجن واستعملوه في اللباس وفي غطاء الرأس وفي الالتحاف. والتجأوا في إعداد إطعامهم إلى مخزن علف البهائم، وصنعوا من ذرته بليلة كانت غذاءهم لمدة تسعة أيام.

وكان الطلبة المسجونون يتصلون بجنود الجيش المصري وضباطه الذين كانت ثكناتهم على مقربة من السجن، بواسطة إشارات الرايات العسكرية، وكانوا يعلمون أخبار المدينة بهذه الطريقة كما كان يعلم الجيش المصري أخبار المسجونين، وقد صادرت القوة الإنكليزيَّة عربة كانت مرسلة من الضبَّاط المصريين إلى المسجونين، وكانت تحمل إليهم صنوف الغذاء.

وقد يئس المسجونون عندما علموا بمقتل السردار، وأُمر الجيش المصري بإخلاء مواقعه والعودة إلى مصر وتنفيذ الأمر، فأذعنوا وصاروا مكبَّلين بالأصفاد في أيديهم وأرجلهم، ثمَّ نقل من بينهم عشرون مسجونًا إلى ثكنات الجيش الإنكليزي بالخرطوم، وهم الذين عُدُّوا زعماء للثائرين، الذين كان عددهم ٨٠ مسجونًا سياسيًّا مضافًا إلى ٥٨ من طلبة المدرسة الحربية و١٣٧ من المسجونين العاديين المحكوم عليهم بعقوبات لارتكابهم جنايات.

وكان تمرد الطلبة في السجن يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤.

وحاصر البوليس السجن. وانضمَّ المسجونون السياسيون الآخرون والمسجونون العاديون إلى الطلبة. وعلموا يوم أول ديسمبر سنة ١٩٢٤ فقط بمقتل السردار وبالأمر الذي صدر بسحب الجيش المصري من السُّودان، وذلك عندما شاهدوا الجنود المصريَّة تركب القطار إلى مصر وتُخلي المواقع. وقد حاصر الجيش الإنكليزي السجن.

وفي فبراير حوكم المتهمون في حادثة السجن، واتهموا بمحاولة قلب النِّظام المقرَّر شرعًا. وحُكم عليهم بعقوبات مختلفة أقلها السجن لمدة تسعة أشهر مع الأشغال الشاقة كنقل المواد البرازية والأتربة.

هدأت الحالة في السُّودان عقب ذلك، وأخذت الحكومة السُّودانية تفرج عن المسجونين قبل انتهاء المدد في مناسبات.

وحوكموا على تمردهم داخل السجن، وصدرت الأحكام عليهم في ٣٠ فبراير سنة ١٩٢٥ بسجن محمد المهدي خليفة ٧ سنوات وعبيد الحاج الأمين بست سنوات، وبسجن ستة آخرين بينهم ثلاث طلبة لمدة خمس سنوات، وتراوحت الأحكام الأخرى بين ٣ سنوات و٩ شهور.

(٣) قضية المؤامرة الكبرى

(٣-١) محاكمة أعضاء اللواء الأبيض والمتظاهرين

حوكم أعضاء جمعية اللواء الأبيض وآخرون بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم، وحكم بسجن علي عبد اللطيف لمدة سبع سنوات مضافة إلى ثلاث سنوات سبق الحكم بها عليه في يوليو سنة ١٩٢٤، وبقية الأعضاء بين الحبس لمدة ثلاث سنوات وستة شهور، بينهم خمسة مصريون، حكم بحبس أحدهم — أحمد أمين مترجم الأورطة التاسعة السُّودانية — لمدة سبع سنوات، وبحبس أحمد المليجي وحامد عوضين سعفان وأحمد المنياوي وأحمد نجيب بمدد أخرى. وقد قضى أحمد أمين خمس سنوات في سجن الخرطوم بحري. وأمَّا الباقون فأُبعدوا إلى مصر عقب الحكم عليهم بنحو شهر. وأكثرهم الآن موظفون بالحكومة المصرية.

(٣-٢) مظاهرات الأورط السُّودانية

قامت الأورطة السُّودانية الثَّانية عشرة المعسكرة في ملاكال في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٤ بمظاهرة سلمية غير مسلحة، وهتفت بحياة الملك فؤاد وسعد باشا، وبسقوط الظلم، فنُقلت ونقل من الملاكال أربعة ضباط، وهم الملازمون الثانون علي البنا، ومحمود الثدي «سودانيان»، وعزيز حيدر، وعبد العزيز شريف، وهما «مصريان».

وفي ١٥ ديسمبر حدث في الأورطة الثالثة عشرة السُّودانية في «واو» أن احتج الضبَّاط السُّودانيون والمصريون بالأورطة على عدم إقامة العلم المصري الأخضر الجديد بدلًا من العلم الأحمر السابق. فنقل هؤلاء الضبَّاط إلى جهات مختلفة في السُّودان ومصر، وأنزل أحمد فوزي من ملازم أول إلى ملازم ثانٍ، ووبِّخ محمود رأفت.

(٤) الأورطة العاشرة السُّودانية في ثالودي (النوبة)

صدرت الأوامر للضباط المصريين في الأورطة العاشرة السُّودانية بالسفر إلى مصر في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ وبتسليم السلاح. فأبوا تسليمه وعصت الأورطة أوامر الضبَّاط الإنكليز. ورافق الضبَّاط السُّودانيون الضبَّاط المصريين في سفرهم إلى مصر. ولكن أعيد السُّودانيون عند أسوان إلى السُّودان.

وظل الموقف حرجًا بين ٢٤ نوفمبر حتَّى ٢٨ نوفمبر، حيث وصلت جنود سودانية من الأبيض فاحتلت المعسكر، وسافر الضبَّاط المصريون إلى مصر.

(٥) الأورطة الحادية عشرة

منذ شهر يوليو سنة ١٩٢٤ نُدب كثير من الضبَّاط السُّودانيين من أورطهم للخدمة في الخرطوم وأم درمان. وعند صدور الأمر للجيش المصري بالانسحاب من السُّودان، أظهر الضبَّاط السُّودانيون رغبتهم في مرافقة المصريين في سفرهم إلى مصر. واجتمع جنود سودانيون مع ضباطهم السُّودانيين، وهم المرحوم الملازم أول سليمان محمد والمرحوم الملازم الأول عبد الفضيل ألماظ، والملازم الثَّاني المرحوم حسن فضل المولى، والملازم الثَّاني علي البنا، والمرحوم الملازم الثَّاني ثابت عبد الرحيم، والملازم السيد فرح وكانوا بلوكا، أي ١٢٠ جنديًّا وستة ضباط، وفي أثناء مسيرهم في شارع غوردون ومعهم سلاحهم للانضمام إلى الجيش المصري بالخرطوم بحري، تصدى لهم الجيش

الإنكليزي عند المستشفى العسكري بشارع غوردون بالقرب من كوبري النِّيل الأزرق. وأمر قومندان قسم الخرطوم الجنود بالعودة. فلم يذعنوا. فأطلق الجيش الإنكليزي الرصاص على الجنود السُّودانيين للتهديد. فردَّ البلوك السُّوداني. وبقيت الحركة ٢٤ ساعة. ومات الضابط عبد الفضيل ألماظ. وهرب بعض الجنود إلى بلادهم بجبال النوبة. وقبض على الآخرين وأفرج عنهم. أمَّا الباقي فحكم على خمسة منهم وهم: سليمان محمد، وحسن فضل المولى، وثابت عبد الرحيم، وعلي البنا بالإعدام، نفذ الحكم على الثلاثة الأولين، واستبدل الحكم بالنسبة لعلي البنا بالسجن ١٥ سنة.

واختفى الضابط السيد فرح، وأفرج عن حضرة علي البنا أفندي، ووصل في هذا العام إلى القاهرة، وقد تقرَّر تعيينه في وظيفة كتابية في مصلحة الأملاك الأميرية بمصر بعد سجنه لمدة عشر سنوات، قضى منها خمسة في سجن الخرطوم، وخمسة في سجن واو، وكان بسجن واو علي عبد اللطيف وعبيد الحاج الأمين، الذي توفي في ٥ يوليو سنة ١٩٣٢ متأثرًا بالحمى السوداء، ومحمد المهدي خليفة أفرج عنه سنة ١٩٣٥، ومحمد عيد النجيت قضى سنة ونصفًا في واو، وأفرج عنه سنة ١٩٣١، أمَّا علي عبد اللطيف فقد مرض بقواه العقلية وهو الآن في سجن المجاذيب.

(٦) جمعية الاتحاد السُّوداني

أنشئت في أغسطس سنة ١٩٢٤ جمعية الاتحاد السُّوداني برياسة أحمد أمين المصري المترجم وأعضاء من الضبَّاط السُّودانيين بالمعاشات والخدمة، ومحمد أحمد راشد مترجم «مصري»، كان يطبع المنشورات. وتألفت هذه الجمعية بعد القبض على جمعية اللواء الأبيض. وقد حكم على أحمد أمين بالحبس سبع سنوات، وبسجن محمد أحمد راشد لمدة سنتين، وقد أُفرج عنه بعد شهرين.

ولقد وجه مستر لالسبوري، العضو في البرلمان الإنكليزي، إلى وزير الخارجية البريطانية في مجلس النواب البريطاني السؤال الآتي يوم ١٨ مارس سنة ١٩٢٥:

> كم عدد الأشخاص الذين اعتقلتهم السلطة البريطانية في السُّودان في الأشهر الستة الماضية بتهم سياسية؟ وكم عدد الذين أُخرجوا من السُّودان، وما هي التهم التي اتُّهِموا بها؟ وهل من بينهم موظفون في الحكومة؟ وهل يريد

الوزير أن ينشر أسماء الموظفين الذين أُبعدوا والذين اعتقلوا ونوع التهم الموجَّهة إليهم؟

فأجابه مستر تشمبرلن وزير الخارجية بما يلي:

قبض على أربعة وتسعين شخصًا بتهم تعاقب عليها قوانين السُّودان منذ وقعت اضطرابات شهر أغسطس الماضي «أي في سنة ١٩٢٤». وكانت للتهم علاقة بهذه الاضطرابات. وأُعيد إلى مصر، في المدة ذاتها، مائة وخمسة وعشرون شخصًا كانوا حميعهم تقريبًا موظفين في حكومة السُّودان. وسبب إعادتهم هو أنَّ وجودهم في السُّودان كان خطرًا على الراحة العامة. وقد سويت علاقاتهم وفاقًا لشروط خدمتهم فنالوا ما يستحقونه من المعاشات أو المكافآت، كما كانوا قد انقطعوا عن العمل بسبب المرض، ولكنهم لو حكم عليهم في محكمة تأديب أو محكمة نظامية لما نالوا شيئًا.

وليس لدي المعلومات المطلوبة في القسم الأخير من السؤال.

الفصل العشرون

الجيش المصري

(١) في عهد محمد علي

لم تعرف مصر في عهدها الحديث جيشًا نظاميًّا يحمل اسم مصر إلَّا منذ عناية محمد علي الكبير بتأليف جيش مصري منظم تنظيمًا جديدًا. وقد أخذ يسعى لذلك منذ سنة ١٨٢٠، وكان جيش محمد علي قبل ذلك «باشبوزق» أي جنودًا غير نظاميين. وقد حاول محمد علي قبل سنة ١٨٢٠ تدريب جيش منظم فلم يفلح؛ لأنَّ الجنود تمرَّدوا.

ولقد كان بالجيش المصري أرناؤود وأتراك، وكان الضبَّاط منهم ومن الجراكسة، وكان المنظمون فرنسيين. أنشأ محمد علي المدرسة الحربية الأولى في أسوان سنة ١٨٢٠، وجعل الكولونيل سيف[١] مديرًا لها، وأرسل إليه مماليك، وبلغ عدد التلاميذ ألفًا درَّبهم فصاروا بعد ثلاث سنوات ضباطًا نظاميين بعد أن حاولوا التَّمرد في أثناء تعليمهم. واتَّجه محمد علي إلى تجنيد السُّودانيين، ففتح السُّودان ودرَّب عشرين منهم في بني عدي «المعروفة الآن باسم بني عديات — مركز منفلوط — وهي بلد المؤلف» — فدربوا هناك ولم تنجح التجربة مع السُّودانيين، فقد أصابهم الموتان لعدم موافقة الجو لهم. فاتَّجه محمد علي إلى تجنيد المصريين. وتألفت سنة ١٨٢٣ الأورط الست الأولى، وكان الضبَّاط المماليك المتخرجون من مدرسة أسوان ضباطًا لها. ثمَّ أنشأ معسكرًا عامًّا في الخانكة كان به حوالي ٢٥ ألفًا من الجنود النظاميين، وأُنشئ المستشفى العسكري في أبي زعبل، ثمَّ مدرسة الطب ثمَّ المدرسة الحربية للمشاة. وأنشئت سنة ١٨٢٥ مدرسة إعدادية للتعليم الحربي بقصر العيني وطلبتها ٥٠٠ يلتحقون بعد تخرجهم بالمدارس الحربية والبحرية: ومدرسة المشاة بالخانكة ثمَّ بدمياط ثمَّ في أبي زعبل، ومدرسة الفرسان بالجيزة، ومدرسة المدفعية بطرة، ومدرسة أركان الحرب بالخانكة، ومدرسة

الموسيقى العسكرية، والمدرسة البحرية بالإسكندرية، ومصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة. ومعمل صبِّ المدافع بمصانع الترسانة. ومخازن البارود والقنابل في سفح المقطم. وأنشأ بالحوض المرصود بالقاهرة معمل البنادق سنة ١٨٣١ لصنع البنادق، ومعمل البارود في المقياس بالروضة. وأصبحت معامل البارود ستة في القاهرة، والبدرشين، والأشمونين، والفيوم، وأهناس، والطرانة.

وكانت ملابس الجنود بسيطة تتألَّف من الطربوش الأحمر، وصدار، وبنطلون «سروال واسع يشد بتكة عند الوسط، ويربط على الركبة برباط الساق «القلشين»، ويتمنطق الجنود على خواصرهم بحزام، وملابس الشتاء من الجوخ. وفي الصيف من القطن السميك. ويلبس الفرسان والطوبجية والحرس صدارًا أزرق وغيرهم صدارًا أحمر. أمَّا ملابس الصيف لأسلحة الجيش كلها فهي بيضاء، ويلبسون «مراكيب» ولا يختلف لباس الضبَّاط عن لباس الجنود إلَّا في نوع الجوخ والتطريز واللون الأحمر، وكان الجندي يتناول ١٥ قرشًا في الشهر، والأنباشي ٢٥، والجاويش ٣٠، والباشجاويش ٤٠، والصول ٦٠، والملازم الثَّاني ٢٥٠، والملازم الأول ٣٥٠ قرشًا، واليوزباشي ٥٠٠، والصاغ ١٢٠٠، والبكباشي ٢٥٠٠، والقائمقام ٣٠٠٠، والميرالاي ٧٠٠٠، والمير لواء ١١٠٠٠ قرشًا، والمير ميران ١٢٥٠٠.

وأنشأ محمد علي ديوان الجهادية «وزارة الحربية»، وكان نظام الجيش المصري وفق نظام الجيش الفرنسي، وأنشأ الطوابي والحصون الكثيرة. وبلغ الجيش في أول حكم محمد علي عشرين ألفًا «غير نظاميين». وفي سنة ١٨٣٣ بلغ ١٩٤٠٣٢ منهم ٢٥١٤٣ بحريين بحسب ما ورد في كتاب البارون بوالكونت[٢] و١٥٩٣٠٠ بحسب إحصاء مسيو مانجان.

وبلغ عدد الجيش في سنة ١٨٣٩ — ٢٣٥٨٨٠ من جنود نظامية وغيرها وطلبة وعمال ملحقين بالجيش — وقد ورد هذا الإحصاء في كتاب الدكتور كلوت بك «لمحة عامة إلى مصر». كان من ذلك في السُّودان ١١٥٦٠.

واهتم محمد علي بالأسطول منذ سنة ١٨١٠. وقد أحصى مانجان قطعه فبلغت ٢٨ سفينة حربية منها ١٠ بوارج كبيرة و٦ فرقاطات وأربع سفن كورفيت وأربع «إبريق» وأربع أخرى، وأحصى كلوت بك العدد سنة ١٨٤٠ فبلغ ٣٢ قطعة، وذكر إسماعيل سرهنك باشا في كتابه إحصاء سنة ١٨٤٣. فبلغ العدد ٣٦ قطعة.

(٢) الجيش في عهد إسماعيل

بلغ عدده ٨٩٠٨٨ حسب إحصاء سرهنك باشا في كتابه يضاف إليه ٣٠ ألفًا في السُّودان.

(٣) في عهد توفيق

ثم قيدت الحكومة العُثمانيَّة عدد الجيش بعد عهد إسماعيل بمقدار ١٨ ألف جندي، وقامت الثَّورة العرابية احتجاجًا على معاملة الضبَّاط الشراكسة، وألغى الإنكليز جيش عرابي، ثمَّ أُنشئ جيش جديد، وقد أرسلت فلول جيش عرابي مع حملة هكس.

(٤) بعد الاحتلال الإنكليزي

ودُرِّب الجيش المصري من جديد في عهد الاحتلال بقيادة جرانفيل باشا وكتشنر باشا ثمَّ ونجت باشا.

(٥) الضباط السُّودانيون

رقَّى اللُّورد كتشنر الممتازين من الجنود السُّودانيين الشبان بالجيش المصري ضباطًا بعد استعادة السُّودان، ثمَّ أدخل أبناء الجنود الممتازين المتقدِّمين في السن المدرسة الحربية بالعباسية، ثمَّ أنشئت المدرسة الحربية بالخرطوم في مايو سنة ١٩٠٥، وتخرج منها ضباط سودانيون، وأغلقت سنة ١٩٢٤ بسبب حوادث تلك السنة.

أما الآن فيُرقَّى الضبَّاط من تحت السلاح في قوة الدفاع عن السُّودان. وفي هذا العام رُئي اختيار بعض خريجي كلية غوردون؛ ليتعلموا الفنون العسكرية لمدة سنتين ونصف في فرق قوة الدفاع كجنود ثمَّ يرقون إلى رُتبة الملازم الثَّاني.

وقد أنشئت كلية غوردون سنة ١٩٠٣، وأنشئت بعدها المدرسة الحربية في السُّودان سنة ١٩٠٥، وكان التَّعليم فيها مجانيًّا مع دفع مرتبات للطلبة، وكان الغرض من إنشائها تخريج ضباط سودانيين يعينون في الأورط السُّودانية التي تؤلف جزءًا من الجيش المصري، الذي كانت الحكومة المصريَّة تدفع مرتباته ونفقاته لكل من كانوا به من ضباط إنكليز ومصريين وسودانيين، وجنود مصرية وسودانية.

وقبل إنشاء المدرسة الحربية، ألحق كتشنر باشا بعض الطلبة السُّودانيين بالمدرسة الحربية بالقاهرة، وبتخرجهم منها، وبتخرج زملائهم من بعدهم في المدرسة الحربية

السُّودانية بالخرطوم أخذ عدد الضبَّاط السُّودانيين في الأورط السُّودانية في الازدياد حتَّى أصبح أكثر ضباطها من السُّودانيين تقريبًا وقوادها من الإنكليز وباقي الضبَّاط بين مصريين وبريطانيين.

ومما هو جدير بالذكر أن جنود الأورط السُّودانية كانت لا تستطيع الحياة العسكرية بغير وجود نسائهم معهم، ولذلك كان بجانب معسكر الجنود السُّودانيين يقوم معسكر لنسائهم. وتعين فيه قومونداناة هي زوجة لقومونداان معسكر الرجال، ويأخذن تعيينًا كما يأخذ الجيش نفسه، وهن يتبعن رجالهن في المعارك، ويحضِّرْن الطعام لهم ويزغردن احتفاءً بهم، ويمتزن بالشجاعة، ويتباهين بالأبطال الشُّجعان من أزواجهن، ويحتقرن الأزواج الجبناء.

(٦) حادث سحب الجيش المصري

كانت الأورط المصريَّة في سنة ١٩٢٤ ترابط بين حلفا والخرطوم وكسلا، بينما كانت الأورط السُّودانية تعسكر في أعالي النِّيل وعند بحر الغزال وسنار ومنجلا.

وكان للجيش المصري بالخرطوم أورطتان من البيادة، وهما الرابعة وقومندانها القائمقام محمد يحيى بك «باشا»، والأورطة الثالثة بالخرطوم بحري وقومندانها القائمقام عثمان صدقي بك، والطوبجية وهي مؤلَّفة من أربع بطاريات، وضباطها مصريون، وقائدها الميرالاي أحمد رفعت بك، ومن قسم الأشغال العسكرية وعدد جنوده حوالي ٩٠٠.

وكان توزيع الجيش المصري بما فيه من الأورط السُّودانية كما يلي:

- في الخرطوم: الأورطة الرابعة المصرية، وقسم الأشغال العسكرية، والحملة القبلية «مصرية وسودانية»، وهي مؤلَّفة من ٤ بلوكات. وموسيقى البيادة السُّودانية، والمدرسة الحربية ومدرسة ضرب النار «سودانية مصرية» بها ضابطان بريطانيان وضابطان مصريان وضابطان سودانيان، والقسم الطبي والقسم البيطري ومدرسة الإشارة.
- في الخرطوم بحري: الأورطة الثالثة المصرية. والحملة الميكانيكية. والطوبجية المصريَّة مؤلَّفة من ٤ بطاريات وبلوكين محافظة وقسم الأسلحة والمهمات، وقسم الأشغال والأورطة ١٢ سودانية بالملاكال، و١٣ سودانية في واو، و١١

و١٤ سودانية في واد مدني، و١٠ سودانية في تالودي. وفرقة العرب الشرقية سودانية ومركزها القضارف. والطوبجية المصريَّة في كسلا. والهجانة السُّودانية في الأبيض، وفرقة العرب الغربية، ومعها طوبجية سودانية ضباطها مصريون في الفاشر. وفرقة خط الاستواء في منجلا والبيادة الراكبة والسواري السُّودانية في شندي.

وكان اليمين الذي حلفه الضبَّاط المصريون والسُّودانيون بالولاء لملك مصر، بينما كان الضبَّاط البريطانيون يحلفون للملك جورج.

- وكان في مصر سبع أورط مصرية، وفي السُّودان عدا الأورطتين المصريتين ست أورط سودانية — اثنتان في أم درمان وواحدة بالملاكال — وواحدة بواد مدني وواحدة في تالودي «النوبة» وواحدة في واو كما تقدم.

وقد وصلت أوامر المندوب السَّامي البريطاني «اللورد اللنبي» إلى الخرطوم في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بوجوب إخلائها من الأورط المصريَّة وعودتها إلى مصر.

وقد حدد يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ لجلاء الجيش المصري عن السُّودان.

وقد نيط بالحامية البريطانية بالخرطوم والأورط السُّودانية بأم درمان التي كان عليها ضباط بريطانيون وسودانيون تنفيذ هذا الأمر.

ولكن الضبَّاط السُّودانيون لم يقبلوا تنفيذ المهمة.

وقال الضبَّاط المصريون بالخرطوم: «لا ننزل من السُّودان إلى مصر إلَّا بأمر من ملك مصر، الذي هو الرئيس الأعلى للجيش المصري، والذي حلفنا له يمين الطاعة؛ ولذا نرفض الانسحاب ما لم يصل إلينا أمر الانسحاب من الحكومة المصريَّة نفسها.»

وكان الموقف دقيقًا، وكان وزير الحربية صادق يحيى باشا، فندب المرحوم الميرالاي محمد أمين هيمن[3] بك فسافر على طائرة إنكليزية من القاهرة إلى الخرطوم يحمل إلى الجيش أمرًا بالعودة.

فوصل ومعه الأمر في منتصف ليلة ٢٧ نوفمبر، واستقل الجيش القطار في صباح يوم أول ديسمبر سنة ١٩٢٤ وعاد إلى مصر.

(٧) الجنود السُّودانية تؤازر الجيش

وكان في الخرطوم في الوقت نفسه نحو بولك من الأورط السُّودانية. فتجمع جنوده ورجاله وتظاهروا واقتحموا المخازن وأخذوا البيارق، وقابلهم محافظ الخرطوم، وأعلنوا لديه انضمامهم إلى الأورطة الثالثة المصرية. ولم يلبُّوا دعوته إلى السكينة وقد التقوا في مسيرهم بنطاق من الجنود البريطانية.

وكان الجنرال هدلستون نائبًا للسردار فأنذرهم بأن يعودوا وأن ينفضُّوا، فرفضوا، فأمر بإطلاق النار عليهم، فردوا على القوة عند الاسبتالية العسكرية، وقتلوا بعض الجنود الإنكليزيَّة، وتحصنوا في الاسبتالية، ثمَّ أخذوا يهربون منها ليلًا.

وقد حاولت جماعات من الأورط السُّودانية اقتحام الكوردون فلم تفلح.

وقد قبلت الأورطة الرابعة المصريَّة في ٢٤ و٢٥ نوفمبر — وكانت معسكرة بالخرطوم نفسها — السفر إلى مصر عن طريق بورسودان، وسافرت فعلًا من غير مقاومة أو معارضة.

أما الأورطة الثالثة والطوبجية بالخرطوم فقد أبت الإذعان لأمر نائب الحاكم العام للسُّودان. حتَّى وصل إليها الأمر المشار إليه، فسافرت صباح يوم أول ديسمبر سنة ١٩٢٤ من الخرطوم بالسكة الحديد.

كان من نتيجة ذلك كله:

(١) خروج الجيش المصري كله من السُّودان وعدم عودته إلى الآن.
(٢) إغلاق المدرسة الحربية السُّودانية بالخرطوم.
(٣) حل الأورط السُّودانية التي تقدم الكلام عليها وإحالة الضبَّاط السُّودانيين إلى المعاش.
(٤) تأليف قوة الدفاع.

(٧-١) الأورط السُّودانية

تألفت في الجيش المصري بقيادة كتشنر باشا الأورط السُّودانية، هي الأورط ٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤. وكانت كثرتهم في بداية الأمر من العبيد «الشلوك والدنكا» جندهم اللُّورد كتشنر، وكانوا من الدراويش، وكان منهم جنود في مصر، وكان واجبًا

أن يكون الضابط الوطني في خط الاستواء زنجيًّا، وفي فرقة العرب الشرقية مصريًّا أو سودانيًّا عربيًّا. أمَّا في فرقة العرب الغربية فلا شرط.

وكان مجموع ضباط الجيش ٧٦٣ ضابطًا و١٧٦٠٩ جنود عند فتح السُّودان.

(٨) الخدمة السرية

الخدمة السرية هو فرع من فروع الاستخبارات عند الحكومات جميعًا من أجل جيوشها وأساطيلها. ومهمته جمع المعلومات المفيدة للدولة. وقد يَستخدم مكتب الخدمة السرية الجواسيس والرجال والنساء والغلمان، للوقوف على الاختراعات الحربية الجديدة، أو أسرار العدو، والوثائق والرسوم والخارطات وبيانات عن الجيوش والذخائر والحصون والمعاقل، ويحتمل موظفو المكتب عناءً ويتعرضون لأخطار ومفاجآت.

ويوجد مكتب آخر مهمَّته مقاومة التَّجسس الذي ينظمه العدو في دواوين الحكومة وفي مراكز الجيش والبوليس والأندية والفنادق والثكنات.

(٩) إدارة الاستخبارات الحربية

مهمتها الوقوف على نيات العدو، وأخباره، ومواقعه، ونُظمه، وعدد قوَّاته وأسلحته، وموارده، وأخلاق قواده وضباطه وجنوده، وروح جيش العدو المعنوية.

قال فردريك الكبير ملك بروسيا: «إذا تمكنَّا دائمًا من الوقوف على خطط العدو قبل شروعه في تنفيذها فإنَّنا نتفوق عليه ولو كان أقوى منَّا.» وقال المارشال فون درغولتز: «أليس لدى الإنسان دليل أقرب إلى العقل، يهتدي به عند إصدار قراراته في الشؤون الحربية من أعمال العدو المزمعة وإجراءاته المحتمل وقوعها.»

وتؤخذ المعلومات لإدارة الاستخبارات من مطبوعات الحكومة وجرائدها الرَّسمية متضمِّنة إحصاءات وقرارات وقوانين وكتب الفنيين العسكريين والمؤلفات الأهلية وأخبار الصحف. ومعلومات الجواسيس. والعادة أن الحكومات — وخاصة وزارات الحربية — تعد خططًا حربية وتضع لها خرطًا. ويعمل الجواسيس للحصول على هذه الخرط بأي ثمن ولو كانت الحياة نفسها.

وتجمع هذه المعلومات في زمني السلم والحرب. ومن القواعد المتَّبعة في الحرب جمع المعلومات من فرق الاستطلاع والطائرات وأهالي البلاد والفارين والأسرى، وبالمراصد والتَّصوير، وبالوقوف على طبوغرافية الأرض وبمعرفة طبيعتها، وسهولها وحزونها.

وكان الإمبراطور نابليون يعتمد على ضابط واحد هو الكولونيل ماكليه دالب، وكان رجلًا مدهشًا يستطيع أن يعرف أرقام وحدات العدو وأماكنها وقوادها.

وكان قلم مخابرات الجيش المصري مندمجًا مع وكالة السُّودان ثمَّ انفصل عنه، وأنشئ قلم مخابرات خاص للحكومة السُّودانية في الخرطوم، ثمَّ جعل في محله إدارة للأمن العام.

(١٠) الجيش المصري بعد انسحابه

أصبح الجيش المصري بعد سحبه من السُّودان وبعد إلغاء الأورط السُّودانية يتألف من ٥٥٠ ضابطًا و١١٨٠٠ عسكري تقريبًا، وتجند العساكر من رعايا الحكومة المنصوص عنهم في الأمر العالي الصَّادر في ٥ نوفمبر سنة ١٩٠٢ الذين يبلغون من العمر ما بين ١٩ و٢٧ سنة اللائقين للخدمة العسكرية، إلَّا إذا صار إعفاؤهم منها بسبب من الأسباب الموضحة في الأمر العالي المذكور ملخَّصه فيما بعد:

(أ) يُعفى من الجندية مستخدمو الحكومة الداخلون في هيئة العمال وبعض مستخدمين مخصوصين من مستخدمي الحكومة الآخرين، وأولاد الضبَّاط وأولاد العمد والمشايخ الموظفين وكذلك المنفصلين عن الخدمة بشرط أن يكونوا خدموا عشر سنوات ولم يُرفتُوا تأديبيًّا أو لجريمة ارتكبوها.

إخوة الضبَّاط الموجودين بالخدمة بالجيش أو بالاستيداع (مادة ٤٤ من قانون القرعة العسكرية).

(ب) الأبناء الوحيدون، أكبر أبناء الأب الميت، أكبر أبناء الأب العاجز عن اكتساب معيشته أو البالغ سن الستين، أكبر الأبناء للأم الأرملة أو التي طُلِّقت ولم تتزوج، بشرط ألَّا يكون لها أب أو أخ أو شقيق يستطيع القيام بمعيشتها.

وكل شخص يقضي عليه قانون الأحوال الشَّخصيَّة الخاضع له أن يساعد في نفقة واحد أو أكثر من أجداده.

الأخ التَّالي لأخيه المجند بالاقتراع أو التَّالي لأكبر الأبناء غير القادر على التكسب نيابة عن والده المتوفى أو غير القادر على التَّكسب لنفسه.

الطلبة في جميع المعاهد الدينية وبعض المدارس الصِّناعيَّة.
(جـ) بعض الموظفين الدينيين بما فيهم العلماء والمشايخ والأئمة والفقهاء والقسس إلخ.

ويحق لكل شخص أن يُعفى من ملزوميته بالخدمة العسكرية في نظير دفعه بدلًا نقديًّا بحسب الفئات المبيَّنة بعد:

(أ) عشرين جنيهًا مصريًّا في أيِّ وقت قبل اقتراعه أو إذا كان معافًى وزال سبب إعفائه، وذلك خلال ثلاثة أشهر من تاريخ زوال الإعفاء.
(ب) أربعين جنيهًا مصريًّا لمن يحضر أو يندب أحدًا عنه للحضور أمام مجلس الاقتراع، وذلك في أي وقت بعد إدراج اسمه في كشوف الاقتراع وقبل فرزه طبيًّا.
(جـ) مائة جنيه لمن يكشف عليه طبيًّا، وذلك في أي وقت بعد الكشف الطبي وقبل التجنيد.

كشف عن بيان أنواع علامات الوحدات المختلفة بالجيش المصري

الوحدة أو السلاح	الاسم	العلامات
مركز رياسة الجيش	مركز رياسة الجيش	علامة أركان حرب من جوخ أحمر على طرفي ياقة السترة وعلامة ذراع للضباط
قسم القاهرة	قسم القاهرة	ق. ق على الكتف للعساكر
اللواء البيادة الأول	اللواء البيادة الأول	ل١ على الكتف للعساكر
اللواء البيادة الثَّاني	اللواء البيادة الثَّاني	ل٢ على الكتف للعساكر
اللواء البيادة الثالث	اللواء البيادة الثالث	ل٣ على الكتف للعساكر
السواري	السواري:	
أورطة سواري عدد ٢	أورطة سواري	س على الكتف
الطوبجية	الطوبجية:	
بطارية (بغالي) عدد ٤	بطارية (بغالي)	
بلوك المحافظة عدد ١	بلوك المحافظة	ط على الكتف

الوحدة أو السلاح	الاسم	العلامات
بطارية سيارات مدفع الماكينة عدد ١	بطارية سيارات مدفع الماكينة	
	الأورط البيادة:	
	الأولى	
	الثانية	
	الثالثة	
	الرابعة	
	الخامسة	
البيادة (١١ أورطة)	السادسة	رقم الأورطة على الكتف
	السابعة	
	الثامنة	
	التاسعة	
	العاشرة	
	الحادية عشرة	
الطيران الحربي	الطيارون	أجنحة أخضر وذهبي على الصدر الشمال
	العساكر	أجنحة أخضر وأصفر على الأكتاف

(تابع) كشف عن بيان أنواع علامات الوحدات المختلفة بالجيش المصري

الوحدة أو السلاح	الاسم	العلاقات
الموسيقات	الموسيقات:	
البيادة المصرية	البيادة المصرية	هارب على الذراع
إدارة السجن	إدارة السجن	س. ح على الكتف

الوحدة أو السلاح	الاسم	العلاقات
إدارة الأشغال العسكرية	إدارة الأشغال العسكرية	م. ع على الكتف
بلوك المهندسين	بلوك المهندسين	م. ع على الكتف
مصلحة التعيينات	مصلحة التعيينات	ثلاث وردات نحاس أصفر متصلة بساق منحن على الكتف
الحملة الميكانيكية	الحملة الميكانيكية	ح.م على الكتف
القسم البيطري	القسم البيطري	حدوة على الذراع
مصلحة الأسلحة والمهمات	مصلحة الأسلحة والمهمات	أ.م على الكتف
القسم الطبي	القسم الطبي	قمرة ونجمة على الذراع
إدارة القرعة العسكرية	إدارة القرعة العسكرية	ق على الكتف
المدرسة الحربية بالقاهرة	المدرسة الحربية بالقاهرة	أسبلايط مجدولة قصب للصف ضباط وحمراء لسائر الطلبة على الكتف

وللجيش مفتش عام هو الفريق سبنكس باشا، ومعه مساعد اللواء فوربس باشا، والمفتش هو القائد العام الفعلي، وجلالة الملك هو القائد الأعلى — وكان للجيش سردار ألغي منصبه بعد سحب الجيش من السُّودان. وكان قواد الآورط المصريَّة ضباطًا بريطانيين يندبون من الجيش الإنكليزي أو الهندي حتَّى سنة ١٩٢٢؛ إذ أعلن الاستقلال فأصبحوا مصريين وفي كلّ أورطة سودانية ٤ بريطانيين برتبة البكباشي عدا القائد، وكان عدد جنود الأورطة المصريَّة ٨٠٠ والسُّودانية ٨٥٠، وبلغ عدد الضبَّاط والجنود السُّودانيين من جميع الأسلحة ١٤٥٠٠ في سنة ١٩٢٤، وبلغ المصريون ٩٣٠٠. ومراكز الجيش المصري الآن في مصر كما يلي: أسوان. منقباد «أسيوط». العباسية والمعادي «القاهرة». الدخيلة «الإسكندرية». السلوم. العريش.

(١٠-١) العلم المصري

العلم الأهلي المصري يتألف من هلال وثلاث نجوم بيضاء على أرضية خضراء وطرفا الهلال تتجهان للجهة التي ليس بها العمود.

أمَّا البيارق لجميع أفرع الجيش فتكون من صوف أخضر بهلال وثلاث نجوم بيضاء في وسط البيرق وسيفين متقاطعين من لون أبيض في الزاوية العليا اليسرى.

الرتب في الجيش المصري

الرتبة المصرية	الرتبة الإنكليزيَّة التي تعادلها	علامات الرتب
مشير	فيلد مارشال	تاج ونجمتان وسيف وعصا متقاطعان
سردار	كومندر إن شيف	تاج ونجمة وسيف وعصا متقاطعان
فريق	لفتننت جنرال	تاج وسيف وعصا متقاطعان
لوا	ميجر جنرال (أو) بريجادير جنرال	نجمة وسيف وعصا متقاطعان
ميرالاي	كولونل	تاج وثلاث نجوم
قائمقام	لفتننت كولونل	تاج ونجمتان
بكباشي	ميجر	تاج ونجمة
صاغقول أغاسي	أدجو تانت ميجر*	تاج
يوزباشي	كابتن	ثلاث نجوم
ملازم أول	لفتننت	نجمتان
ملازم ثان	سكند لفتننت	نجمة واحدة
صول تعليم	سرجنت ميجر	أربعة شرائط معكوسة فوقها تاج على الذراع الأيمن من أسفل
صول تعيين	كوارتر ماستر سرجنت	أربعة شرائط معكوسة فوقها نجمة على الذراع اليمنى من أسفل

الرتبة المصرية	الرتبة الإنكليزيَّة التي تعادلها	علامات الرتب
باشجاويش	كومبني سرجنت ميجر	أربعة شرائط فوقها تاج على القسم العلوي من الذراع اليمنى وبعض الأحيان على الذراعين
بلوك أمين	كومبي كوارتر ماستر سرجنت	ثلاثة شرائط فوقها نجمة على القسم العلوي من الذراع اليمنى وأحيانا على الذراعين
جاويش	سرجنت	ثلاثة شرائط على القسم العلوي من الذراع اليمنى
وكيل جاويش	لنس سرجنت	ثلاثة شرائط على القسم العلوي من الذراع اليمنى
أونباشي	كوربورال	شريطان على القسم العلوي من الذراع اليمنى
وكيل بلوك أمين	لنس كوربورال كلرك	شريط واحد فوقه نجمة على القسم العلوي من الذراع اليمنى وأحيانًا على الذراعين
وكيل أونباشي	لنس كوربورال	شريط واحد على القسم العلوي من الذراع اليمنى
نفر	برايفت	لا شيء
برجي	ترميتر	بوري
ترومبيتجي	درامر	طبلة
بلطة جي	بايونير	بلطتان متقاطعتان

* لا توجد رتبة بالجيش الإنكليزي تعادل هذه.

(١١) قوة الدفاع عن السُّودان

منذ فتح السُّودان وبعد استعادته كان الجيش المصري منوطًا به حفظ النِّظام في السُّودان، وكانت الحكومة المصريَّة تجند أفرادًا من الزنوج أو العبيد وتضمُّهم إلى قوات الجيش المصري.

وبعد فتح السُّودان كان في الجيش المصري أورط سودانية هي الأورط التاسعة والعاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة كما تقدم وكان في أول الأمر ضباطها من المصريين.

الفريق. ش. س. بتلر باشا ح. ن. م. ج وح. ن. ا القائد العام لقوة دفاع السُّودان.

وكان السُّودانيون العرب أنفسهم يجندون كما فعل المهدي والدراويش، وكان هؤلاء العبيد يأخذون من قبائل الشلك والدنكا والنوبة.

وبعد استعادة السُّودان جنَّد سردار الجيش المصري اللُّورد كتشنر باشا العبيد الذين كانوا مع الدراويش.

واتَّجه رأي ولاة الأمور الإنكليز إلى إنشاء مدارس في السُّودان لتخريج ضباط وموظفين سودانيين.

يرجع تاريخ إنشاء فرق العرب التي تتألَّف منها الآن قوة الدفاع السُّودانية إلى تسلم الحكومة السُّودانية «كسلا» من إمرة إيطاليا، بعد استعادة السُّودان، فإنَّ الإيطاليين كانوا قد ألفوا من الأهالي فرقة من الباشبوزق، وهي فرقة غير نظامية ونصف عسكرية وتلبس ملابس بالسراويل ولها عمائم، فاستبقت الحكومة السُّودانية

هذه الفرقة في كسلا. وفي أثناء الحرب الكبرى من سنة ١٩١٤ بدأت الحكومة السُّودانية في تأليف هذه الفرق، وقد عززتها بعد حل الأورط السُّودانية.

ومما يُذكر هنا أن الجندي السُّوداني في الأورط المنحلة كان يجوز له البقاء في الخدمة العسكرية لمدة عشر سنوات أو ١٥ سنة، وكانت الحكومة المصريَّة تدفع له مرتبًا أكثر من مرتب الجندي المصري.

وتقدر قوة الدفاع السُّودانية كلها بنحو 7 آلاف جندي يضاف إليها ملحقون وعمال وتعليمهم العسكري — أي تعليمهم حمل السلاح — يزيد على تعليم الخفراء عندنا قليلًا.

(١١-١) الجيش الإنكليزي

أما الجيش الإنكليزي فيتألف الآن من أورطتين. وعند البلاغ الذي وجَّهه اللنبي في نوفمبر سنة ١٩٢٤ إلى وزارة المغفور له سعد زغلول باشا سافرت أورطة إنكليزية من مصر إلى بورسودان.

هذا ومع الأورطتين الإنكليزيتين طوبجية ودبابات وسلاح طيران، وتوجد أورطة في الخرطوم وأورطة في أركويت. تتبادلان هذين الموقعين كلّ ستة أشهر.

(١١-٢) أمر الحاكم العام

في ١٧ يناير سنة ١٩٢٥، وفي حفلة رسمية أذاع الحاكم العام للسُّودان المنشور الآتي بيانه ننقله عن جريدة «حضارة السُّودان» وهذا نصه:

> عملًا بالسلطة العسكرية والملكية السامية والمخوَّلة لي بمقتضى شروط تعييني، أنا السر جفر فرنسيس آرتشر حامل نيشان القديسين ميخائيل وجورج من درجة فارس حاكم السُّودان العام أُعلن ما يأتي:
>
> بما أنَّه بسبب انسحاب الجيوش المصريَّة من السُّودان قد أصبح من الضروري إنشاء قوة للسُّودان. وبما أنَّه من المرغوب فيه إزالة ما قد يوجد في أذهان الضبَّاط من أهالي السُّودان الذين خدموا في الجيش المصري والمزمع نقلهم قريبًا إلى قوة السُّودان من الارتياب من أجل مراكزهم، فبناءً على ما تقدم أعلن الآن ما يأتي:

من قوة الدفاع.

أولًا: تسمى القوة الجديدة المراد إنشاؤها كما تقدم «جيش دفاع السودان»، وتدين بالولاء لحاكم السُّودان العام.

ثانيًا: يعين الحاكم العام ويعزل جميع الضبَّاط، وتُمنح جميع البراءات باسمه.

ثالثًا: بما أنَّ الحكومة المصريَّة غير قادرة، بعد الآن، على استخدام ضباط الجيش المصري الذين هم من أهالي السُّودان، فسيقبل من جميع هؤلاء الضبَّاط من أرى فيهم الجدارة في خدمة «جيش دفاع السُّودان» بموجب الشروط المنظمة لإصدار البراءات في هذا الجيش، والتي ستبلغ في هذا اليوم إلى أولئك الضباط.

رابعًا: عند إصدار البراءات الجديدة تتولى حكومة السُّودان مسئولية الرواتب والمعاشات والمكافآت المستحقة الآن لأولئك الضبَّاط بمقتضى شروط الخدمة في الجيش المصري.

إمضاء حاكم عام

وننقل هنا ما نشرته جريدة التيمس في ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ لمكاتبها العسكري. فقد جاء فيه ما يلي:

> يتقدم تنظيم قوة الدفاع السُّودانية تقدمًا حسنًا، ويستمر إدخال عدد من الضبَّاط فيها. وقد أخذ نحو ألف ضابط من القوات المعسكرة في مصر والسُّودان، ويبلغ عدد الجند في الوحدات البريطانية ستة عشر ألفًا، أي بزيادة ألفين. وجرت هذه الزيادة بإضافة أورطتين إلى هذه الوحدات، وستنضم أورطة الملاحة التاسعة المعسكرة في فلسطين إلى الخيالة في القاهرة، وكذلك أورطة الرماحة الثَّانية عشرة، وتحلان محل الألاي الموجود هناك. ولكن هذه التنقلات لا تجري مباشرة.

(١١-٣) مناطق قوة الدفاع

- **المنطقة الشمالية:** الخرطوم وملحقاتها: وبها السواري والحملة الميكانيكية وفرق المهندسين والبطاريات المدرعة.
  السواري في شندي. والحملة والبطاريات بالخرطوم بحري، وفرقة المهندسين في أم درمان، ومركز التَّعليم الشَّمالي في أم درمان.
- **المنطقة الجنوبية:** الرياسة في توريت وموزَّعة على مراكز خط الاستواء وبحر الغزال.
- **المنطقة الشرقية:** بها فرقة العرب الشرقية في كسلا والقضارف والقلابات.
- **المنطقة الغربية:** بها فرقة العرب الغربية وموزعة على الفاشر ونيالا والجنينة.
- **المنطقة الوسطى في الأبيض:** وموزعة على مراكز مديرية كردفان: الأبيض وبارة والدلنج وكادوجلي.

ولا يوجد الآن في واو وملاكال — أي في جنوبي السُّودان — سوى بولك خط الاستواء وعدد ١٥٠. ونُقل إلى تالودي قسم من الهجانة السُّودانية في الأبيض وفي أم درمان فرقة المهندسين فقط بعد أن كانت بها أورطتان سودانيتان.

من الأورط السُّودانية بالجيش المصري بالسودان.

(١١-٤) المقاتلون في قوة الدفاع

يلبس الجنود غير النظاميين الذين تتألَّف منهم قوة الدفاع لباسًا طويلًا من الكاكي وجبة من الكاكي وحزامًا أخضر وعمامة من كاكي ونعال. وهم غير نظاميين. مرتب الجندي ٢١٠ قروش، ويعطى علاوة إلى ٦٠ قرشًا، ثلاث سنوات، ثمَّ تجدَّد خدمته ثلاث سنوات، وهكذا حسب الظروف.

(١١-٥) الأورطة المصريَّة بالمكسيك

من اليمين الصف الأول: شارلي جلياردو بك مؤسِّس متحف بونابارت مصر، والقائمقام صالح حجازي بك. من اليمين الصف الثَّاني: اليوزباشي إدريس النعيم، والصاغ فرج والي، والبكباشي عبد الله سالم. انظر الجزء الأول.

ويقول سير هارولد ماكميكل في كتابه: «السودان الإنكليزي المصري» ص١٦١:

ظلت وزارة الحربية المصريَّة يتقلدها وزير الأشغال العمومية مدة عشرين سنة، وكان الوزراء راضين بأن تكون الشؤون العسكرية في يد السردار. ولكن منذ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فصلت الحربية عن الأشغال،

وأصبح يتقلَّد وزارة الحربية وزير مستقل بها. وقد ظلَّ وزراء الحربية بعد التَّصريح مدة سنتين يعنون باستشارة السردار في كلّ مسألة ذات أهميّة، مع عدم التعرض له في أعماله التنفيذية. وكل ما طرأ من التغيير في مدة السنتين التَّاليتين لصدور التَّصريح، أن سلطة السردار فيما يتعلَّق بتعيين من يحل محل الضبَّاط الإنكليز في الجيش عند خلوا أماكنهم — لا تُنفَّذ إلَّا بعد عرض قرارات السردار على مجلس الوزراء.

على أن مجيء وزارة وفدية في فبراير سنة ١٩٢٤ كان من نتيجة جعل وزارة الحربية في يد وزير «المرحوم حسن حسيب باشا» جهر صراحة بأنَّه الرئيس الحقيقي للجيش، وأنَّ جميع المسائل حتَّى لو كانت أهميتها ثانوية، يجب أن تُعرض عليه. وقد أيَّد الوفد هذه الخطة. وتبع ذلك سياسة، كان مرماها إضعاف سلطة السردار والهبوط بالنظام. وكانت مسألة تعيين ضباط إنكليز في الوحدات «الأورط» السُّودانية هي أهم ما دار عليه الحديث بين الوزير «الوفدي» والسردار «سير لي ستاك» قبل مقتله مباشرة.

وقد أصبح واضحًا الوضوح كله أنَّ الاعتراف بمصر كدولة مستقلة ذات سيادة، ومن ثمَّ تحرير سياستها من الرقابة البريطانية، قد أدخل في شروط الاتِّفاق الثنائي «اتفاقية سنة ١٨٩٩» عاملًا جديدًا، وأصبح لزامًا على حكومة السُّودان أن يكون لها الإشراف التَّام على الحامية العسكرية في السُّودان، وأن يعترف لهذه الحكومة بذلك نظريًّا. وقد تمَّ ذلك بتأليف قوة الدفاع عن السُّودان.

(١١-٦) صفة قوة الدفاع في نظر مصر

أصدر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة في ٤ فبراير سنة ١٩٣٥ القرار الآتي:

بعد الاطِّلاع على كتاب وزير الحربية إلى وزير المالية بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٩٢٥ متضمنًا الاستفهام عن الكيفية التي تحرر بها ميزانية وزارة الحربية للسنة المالية المقبلة ١٩٢٥–١٩٢٦ فهل تكون حسب وضعها وترتيبها الحاليين أم توضع على قسمين أحدهما للجيش المصري والآخر للقوة

السُّودانية؟ وهل في هذه الحالة تبين مصروفات القوة الأخيرة كالمتبع إلى الآن أم جملة واحدة.

وعلى مذكرة وزارة المالية إلى مجلس الوزراء المؤرخة أول فبراير سنة ١٩٢٥ وهي تتضمَّن اقتراحات هذه الوزارة في الموضوع المشار إليه.

وعلى كتاب فخامة المندوب السامي البريطاني إلى حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩٢٥ الذي يذكر فيه أن نفقات قوة الدفاع السُّودانية ستتحملها حكومة السُّودان.

ولَمَّا كانت الحكومة المصريَّة تعتبر أن الجيش الموجود في السُّودان. إنَّما هو جزء من الجيش المصري مكلَّف بالدفاع عن الأقاليم السُّودانية. تلك الأقاليم التي ما زالت مرتبطة بمصر ارتباطًا لا انفصام له أوضح ذلك رئيس مجلس الوزراء في كتابه إلى المندوب السَّامي البريطاني بتاريخ ٢٥ يناير سنة ١٩٢٥.

قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة في ٤ فبراير سنة ١٩٢٥ أن تبقى ميزانية وزارة الحربية للسنة المالية المقبلة ١٩٢٥–١٩٢٦ كما كانت في السنة الحالية ١٩٢٤–١٩٢٥ تمامًا من غير زيادة. على أن يُبيَّن في الميزانية تفصيلًا ما يخص الجيش الذي في مصر وما يبقى من المبلغ المدرج في الميزانية يخصص جملة واحدة للجيش الذي في السُّودان.

(١١-٧) الإمضاء عن السُّودان

أذاعت عصبة الأمم بلاغًا في يوم ١٣ مايو سنة ١٩٢٥ تقول فيه: إنَّ «السر أوسي ستيري» المزود بسلطة تامة من حكومة السُّودان قد أمضى، باسم السُّودان في يوم ١١ مايو الحالي الاتِّفاق والبروتوكول اللذين وضعهما مؤتمر الأفيون الثَّاني في جنيف مع الاحتفاظ بإبرامهما.

(١١-٨) اعتماد ٧٥٠ ألف جنيه لقوة الدفاع

كان اعتماد ٧٥٠ ألف جنيه في ميزانية وزارة الحربية المصريَّة لقوة الدفاع عن السُّودان مثار خلاف ومناقشات في البرلمان والصحف، ونعتقد أنَّ هذه المناقشات لم تنتهِ بعد.

ويقول سير ماكميكل في كتابه ص…

> وإذا كانت مصر تدفع مبلغ الـ ٧٥٠ ألف جنيه من ميزانيتها «بصفة نفقات حربية للسُّودان» ويوافق البرلمان عليها بهذا الوصف، فإنَّ قبول حكومة السُّودان لهذا المبلغ ليس على هذا الأساس؛ لأنَّ حكومة السُّودان تستعمله كجزء من الإيرادات العامَّة للحكومة. ا.هـ.

(١١-٩) في برلمان سنة ١٩٢٦

في أثناء نظر مجلس النواب سنة ١٩٢٦ ميزانية وزارة الحربية، قامت ضجة في المجلس حول طلب الموافقة على اعتماد مبلغ ٧٥٠٠٠٠ جنيه لمصروفات الجيش بالسُّودان، وطلبت لجنة المالية بالمجلس الموافقة على هذا الاعتماد تمكينًا للعلاقة الدائمة بين مصر والسُّودان.

وقد كان رجال الحزب الوطني أشدَّ الأعضاء معارضة، فقد خطب الدكتور عبد الحميد سعيد في الأعضاء طالبًا عدم الموافقة على دفع هذا المبلغ إذا لم يرجع الجيش للسُّودان كما كان.

ووجه الأستاذ محمد فكري أباظة ثلاثة أسئلة عن هل لدى وزارة الحربية بيانٌ بتفصيل الأوجه التي يُصرف فيها هذا المبلغ. وهل في وسع وزير الحربية أن يقرِّر أنَّ له الإشراف التَّام على حركات الجيش وقياداته وما يُوقَّع على أفراده من جزاءات، حتَّى نعرف في أي سبيل نصرف مبلغًا هائلًا كهذا، أم الأمر بعكس ما تقدم فنصرفه على شيء مجهول تمام الجهل؟

فأجاب وزير الحربية قائلًا: «ليس لدينا تفصيل للأوجه التي يصرف فيها مبلغ الـ ٧٥٠٠٠٠ جنيه. كما أنَّه ليست لنا سلطة على حركات قوة الدفاع السُّودانية.

ولكن إذا أردتم حضراتكم معرفة الكيفية التي تقرر بها دفع هذا المبلغ فإنِّي على استعداد لبيان حقيقة الموضوع:

في أوائل سنة ١٩٢٥ وصل إلى دولة رئيس الحكومة السَّابق خطاب من دار المندوب السَّامي يخبره فيه بأنَّ قوة الجيش المصري السُّودانية «لأنَّ جيشنا كان قبل ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين، وهما الجيش المصري الأصلي وجيش آخر يقال له: الجيش المصري السُّوداني؛ أي أنَّه مكون من فرق سودانية ولو أنَّه مصري» ستُحل وتحُلُّ محلها قوة الدفاع السُّودانية، وستقوم حكومة السُّودان وحدها بالإنفاق عليها. وقد رد دولة زيور باشا في مارس سنة ١٩٢٥ بخطاب أتلوه على حضراتكم وهو:

حضرة صاحب الفخامة

أخبرتموني فخامتكم في كتابكم المؤرخ ٢٦ يناير أن الحكومة السُّودانية ستحمل نفقات قوة الدفاع السُّودانية.

وقد سبق لفخامتكم في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ أن أبلغتم سلفي أن الوحدات السُّودانية بالجيش المصري ستحوَّل إلى قوة مسلحة سودانية، وأرسلتم إليَّ مع كتابكم المؤرخ ٢٥ يناير نص منشور أصدره حاكم السُّودان العام بتأليف تلك القوة.

ولم يفتني في هذه المناسبة أن أُقرِّر في جوابي المرسل إلى فخامتكم في ذات اليوم تحفظات مصر القانونية، وأن أؤكِّد في الوقت نفسه بصفة خاصَّة أن الحكومة المصريَّة تعتبر أنَّ الظروف العارضية التي قضت بعودة الجنود المصريَّة البحتة، وكذلك الظروف الخاصَّة بتأليف قوة الدفاع السَّابق ذكرها، كلّ هذه لا يمكن أن تؤثر في حل مسألة نظام السُّودان النهائي، تلك المسألة المحتفظ بها للمفاوضات المقبلة، كما أنَّها لا يمكن أن تضعف ما بين مصر والسُّودان من الروابط التي لا انفصام لها.

تلك هي وجهة نظر الحكومة المصرية؛ لذلك أتشرَّف بأن أحيط فخامتكم علمًا بأنَّه لمَّا كانت الحكومة مصمِّمة على صيانة تلك الروابط القوية، ولمَّا كانت لا يسعها التَّخلي عن مسئولية الدفاع عن السُّودان، فهي ترغب في إثبات مصلحتها الدائمة في تأدية هذا الواجب باستمرارها على الاشتراك في الدفاع عن الأراضي السُّودانية.

ولهذا الغرض كان مجلس الوزراء قد قرَّر أن يخصص للنفقات العسكرية في السُّودان كلّ ما يبقى من ميزانية وزارة الحربية بعد خصم المصروفات العسكرية في القطر المصري. ولمَّا كان مشروع ميزانية الحكومة

المصريَّة للسنة المالية ١٩٢٥–١٩٢٦ قد تم إعداده فيما يتعلَّق بمصروفات وزارة الحربية وظهر أنَّ الباقي يبلغ سبعمائة وخمسين ألف جنيه مصري قرَّر مجلس الوزراء أن يضعها جُملة بعد موافقة البرلمان تحت تصرّف الحكومة السُّودانية لحساب النفقات العسكرية السَّابق ذكرها.

وتفضلوا إلخ …

وصل هذا الخطاب إلى فخامة المندوب السامي[٤] في ١٢ مارس سنة ١٩٢٥ فردَّ عليه في اليوم نفسه بالخطاب الآتي:

حضرة صاحب الدولة

أتشرَّف بأن أعلم دولتكم أنِّي تسلَّمت الكتاب المرسل إليَّ بتاريخ اليوم، والذي تكرمتم فيه بإخباري عن رغبة الحكومة المصريَّة في الاشتراك في نفقات حكومة السُّودان.

وقد أحطتُ حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية علمًا برغبة الحكومة المصرية.

وبالرغم من الإجراءات التي اضطرت الحكومة البريطانية إلى اتخاذها بحكم حوادث السنة الماضية فإنها أبقت السِّيادة المشتركة التي أوجدها الاتِّفاق المعقود في سنة ١٨٩٩ بين بطرس باشا واللورد كرومر، ولذلك فهي تقرِّر أن قيام الحكومة المصريَّة بهذه المشاركة في النفقات إنما هو حق وعدل، وتوافق على أن يحدد قيمة ما تدفعه لهذا الغرض بمبلغ سبعمائة وخمسين ألف جنيه.

وتفضلوا إلخ …

هذا كلّ ما جرى في هذه المسألة، وقد ظهر لحضراتكم السبب في تقدير المبلغ ب ٧٥٠٠٠٠ جنيه.

وبعد مناقشات طويلة قدم أحمد رمزي بك الاقتراح التَّالي:

أن المجلس يصدق على مبلغ هذا الاعتماد مؤقتًا — من غير أن يُعتبر «بضم الياء» هذا التصديق قبولًا بما حدث في نظام السُّودان من التغيير ولا اعترافًا بحق للسُّودان على مصر. ولا إقرارًا ببراءته من الديون التي لها عليه. وبشرط أن يكون لها الحق دائمًا في مناقشة أساس هذا المبلغ ومقداره ومدته.[٥]

فوافق المجلس على الاقتراح، ولم يخالفه سوى الأستاذ مصطفى محمود الشوربجي والأستاذ محمد فكري أباظة والدكتور عبد الحميد سعيد.

(١١-١٠) في برلمان سنة ١٩٢٧

وفي أثناء نظر المجلس في مسألة مصاريف الجيش في السُّودان في سنة ١٩٢٧ قدم الأستاذ محمد فكري أباظة اقتراحًا هذا نصه:

> أطلب حذف هذا المبلغ وهو ٧٥٠٠٠٠ جنيه،[٦] ولكن المجلس قرر بالأغلبية الموافقة على رأي اللَّجنة المالية، أي إبقاء المبلغ.

(١١-١١) في برلمان سنة ١٩٢٨

وعند نظر مجلس النواب ميزانية وزارة الحربية عام ١٩٢٨ خطب الدكتور محجوب ثابت مؤيدًا رأي اللَّجنة المالية قائلًا: إنَّ صرف هذا المبلغ يؤيد حقنا في السُّودان، ويضمن لنا ما أنفقناه من ملايين الجنيهات وما بذلناه من مهج الرجال وكبار القواد من يوم استرجاع السُّودان إلى الآن.

فعارض هذا الرأي رجال الحزب الوطني، وخطب فريق منهم وهم حضرات محمد حافظ رمضان بك، والدكتور عبد الحميد سعيد، وعبد العزيز الصوفاني، ومحمد فكري أباظة.

وبعد مناقشة حادة قرر رئيس الجلسة إقفال باب المناقشة بموافقة أعضاء المجلس. وقد قُدِّم اقتراحان من حضرتي محمد فكري أباظة وعبد العزيز الصوفاني بطلب حذف مبلغ الـ ٧٥٠٠٠٠ج.م من مشروع ميزانية وزارة الحربية المقال عنه بأنَّه مصاريف الجيش في السُّودان.

فقرر المجلس بأغلبية أعضائه رفض الاقتراح والموافقة على رأي اللجنة.[٧]

(١١-١٢) في برلمان سنة ١٩٣٤

ألقى وزير الحربية والبحرية المصريَّة في مجلس النواب في أثناء نظر المجلس في ميزانية وزارة الحربية والبحرية لسنة ١٩٣٤–١٩٣٥ بيانًا عن مبلغ ٧٥٠٠٠٠ جنيه التي ترسل لحكومة السُّودان كلّ عام باسم «قوة الدفاع السُّودانية» جاء فيه ما يأتي:

[٨]«أمَّا عن مسألة مبلغ الـ ٧٥٠٠٠٠ ألف جنيه، فأظنها لم تعرض على حضراتكم بالتفصيل قبل الآن، وسأفصل هذه المسألة، وأتناول كلّ ما شمله بحث هذا الموضوع.

وللكلام عن هذا المبلغ يجب أن نتكلم عن العلاقات المالية بين مصر والسُّودان، ثمَّ عن أساس الالتزام بدفع هذا المبلغ:

تنقسم المبالغ التي كانت تدفعها الحكومة المصريَّة لحكومة السُّودان إلى ثلاثة أنواع:

(١) السلف المعطاة لحكومة السُّودان من أجل الأعمال المتعلقة بنمو السُّودان.
(٢) الإعانة الممنوحة لحكومة السُّودان لسد عجز الإيرادات، أي لموازنة الميزانية.
(٣) مصروفات الجيش في السُّودان.

وليست كلُّ المصروفات التي تنفق على الجيش تُلزم بها حكومة السُّودان، ولكن الجيش عندما كان جميعه في السُّودان — سواء في ذلك الجيش المصري البحت أو الأورط السُّودانية الملحقة به — كانت له نفقات تزيد على نفقاته لو كان في مصر، فكانت الحكومة المصريَّة تحسب على نفسها النفقات التي يتكلفها الجيش في السُّودان لو كان في مصر، أمَّا الفرق بين نفقاته في مصر وبينها في السُّودان فكانت تتحمله حكومة السُّودان، وقد بلغ سنة ١٩٢٤ — ٣٧٤٤٩٢ جنيهًا. أمَّا النفقات العادية فكانت تتكفَّل بها الحكومة المصرية.

ولما وقعت حوادث السُّودان سنة ١٩٢٤ كتب المندوب السَّامي لسعد زغلول باشا يقول له بأن: «الوحدات السُّودانية للجيش المصري ستُحوَّل إلى قوة سودانية مسلحة».

وفي ٢٥ يناير سنة ١٩٢٥ أبلغ المندوب السَّامي زيور باشا نص الإعلان الذي أصدره الحاكم العام للسُّودان عن التكوين الجديد لتلك القوى.

وفي اليوم نفسه قدم زيور باشا للمندوب السَّامي مذكرة يحتجُّ فيها على هذا التَّصرف، ويحتفظ بحقوق مصر على السُّودان قال فيها:

> إنَّ الحكومة المصريَّة تعتبر أن الظروف الطارئة التي أدَّت إلى عودة الجيوش المصريَّة البحتة، وإلى تكوين قوة سودانية، لا يمكن أن تؤثر على حل مسألة النِّظام النَّهائي للسُّودان — تلك المسألة المحتفظ بها للمفاوضات المستقبلة — كما أنَّها لا تُضعف الروابط التي لا تنفصل والتي تربط السُّودان بمصر.

وفي ١٢ مارس سنة ١٩٢٥ كتب زيور باشا للمندوب السَّامي يشرح له ما تقدم ويضيف إليه ما يأتي:

> وعليه أتشرَّف بأن أحيط علم فخامتكم بأن الحكومة المصريَّة — التي قرَّ رأيها على المحافظة على تلك الروابط القوية، والتي لا يمكنها النزول عمَّا عليها من مسئولية الدفاع عن السُّودان — تريد تأييد حقها الذي لا يمكن النزول عنه في هذه المهمة، وذلك بأن تستمر في الاشتراك في الدفاع عن الأراضي السُّودانية.
>
> لذلك كان مجلس الوزراء قد قرَّر أن يخصص للمصروفات العسكرية في السُّودان ما يبقى من ميزانية وزارة الحربية بعد استنزال المصروفات العسكرية التي تُنفق في مصر.
>
> وحيث إنَّ مشروع ميزانية الحكومة المصريَّة للسنة المالية ١٩٢٥–١٩٢٦ قد وضع عن مصروفات وزارة الحربية، وقد ظهر منه أن ذلك الباقي يبلغ ٧٥٠٠٠٠ جنيه.
>
> فقد قرر مجلس الوزراء أن يضع — بعد موافقة البرلمان — جميع هذا المبلغ تحت تصرُّف الحكومة السُّودانية للمصاريف العسكرية السَّابق ذكرها.

فأجاب المندوب السَّامي في نفس اليوم على هذه المذكرة بالعبارة الآتية:

> أتشرَّف بإحاطة دولتكم علمًا أنِّي تسلمت المذكرة المؤرَّخة بتاريخ اليوم التي تُبلغوني فيها رغبة الحكومة المصريَّة بأن تشترك في مصاريف حكومة السُّودان.

وقد أخذت حكومة جلالة الملك البريطانية علمًا بذلك، ورغمًا من الإجراءات التي اضطرت حكومة جلالة الملك إلى اتخاذها بسبب حوادث العام الماضي، فإنها أبقت السِّيادة المشتركة التي أوجدتها اتِّفاقيَّة بطرس — كرومر.

ولذلك نرى من العدل أن تقوم الحكومة المصريَّة بهذا الاشتراك، ونوافق على أن يحدد بمبلغ ٧٥٠٠٠٠ جنيه.»

ويتبيَّن من الخطاب الأول ومن المذكرتين أن أساس التزام الحكومة المصريَّة بدفع مبلغ الـ ٧٥٠٠٠٠ جنيه هو أن الحكومة المصريَّة رأت في سنة ١٩٢٤ أن حقوقها في السُّودان كانت مهدَّدة فسعت إلى هذا الالتزام لإقرار حقوقنا في السُّودان، وهذا أمر لا شك فيه.

عندما نظرت ميزانية وزارة الحربية والبحرية بمجلس النواب عام ١٩٣٤ ثارت ثائرة بعض النواب، وطلبوا وقف دفع مبلغ الـ ٧٥٠٠٠٠ جنيه، وقال صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا:

> لقد تكلم بعض حضرات الخطباء عن مساعٍ بُذلت سنة ١٩٣٢ لإجراء تخفيض في هذه المنحة التي تمنحها مصر للسُّودان. فبيانًا للأمر أُقرِّر أنَّ هذه المساعي بُذلت فعلًا، وكانت المبررات التي تقدمت بها حكومة ذلك العهد إلى دار المندوب السَّامي هي هذه الاعتبارات التي شرحتها لحضراتكم، بجملة في أن الأزمة التي أصابت ميزانيتنا، وخطة الاقتصاد التي ألجأتنا هذه الأزمة إلى اتباعها، لا بدَّ أن يكوم لهما أثرهما في تخفيض مبلغ الـ ٧٥٠٠٠٠ جنيه، كما شمل التخفيض جميع اعتمادات الميزانية، وقد أجاب المندوب السَّامي بأنَّه يخشى ألَّا تحتمل حالة السُّودان إدخال أي نقص في هذا المبلغ، ووعدني بأنَّه سيتَّصل بحكومة السُّودان، ليعرف منها المقدار الذي يمكن تخفيضه. فسافر فخامته إلى السُّودان ثمَّ عاد منه، وقال لي: إنَّه بحث مع جناب الحاكم العام فوجد أنَّ الحالة في السُّودان سيئة؛ لأنَّ محصول القطن كان قليلًا جدًّا في تلك السنة فلا يتسنَّى للحكومة هناك والحالة هذه أن تُخفِّض من ميزانية الإيرادات شيئًا مطلقًا. ومصر، باعتبارها الشقيق الأكبر للسُّودان، مصر تلك الأمة التي عطفت دائمًا على السُّودان ومرافقه، لا تقبل أن تقوم بإجراء كالإجراء الذي عُرض على دار المندوب السامي، وقت محنته.[٩]

وقد وافق المجلس على اعتماد مبلغ الـ ٧٥٠٠٠٠ جنيه.

(١١-١٣) رأي الأمير عمر طوسون

حدَّث سمو الأمير عمر طوسون وكيل «المقطم» السكندري حول مبلغ النفقة على قوة الدفاع السُّودانية حديثًا نشرته الجريدة المذكورة في يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٣٤، وها هو:

قال وكيل المقطم السكندري:

اهتم الرأي العام بما دار من الجدل والمناقشة في مجلس النواب وعلى صفحات الصحف، وبما كتبه المقطم تعليقًا على تلك المناقشات عن المال الذي تدفعه الحكومة المصريَّة لحكومة السُّودان باسم قوة الدفاع السُّودانية. وما برحت هذه المسالة موضوع الأحاديث في الأندية والدوائر الخاصَّة ممَّا حملني على استجلاء رأي صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون في هذه القضية الخطيرة، ولسموه آراء سديدة في جميع المواقف الوطنية، ولا سيَّما السُّودانية منها. فلا غرو أن يكون لرأيه في هذه المسألة شأن كبير عند الرأي العام المصري. فتشرَّفت بمقابلته، وبعد التَّحية أدرك سموه بُغيتي من هذه الزيارة المبكِّرة فلم يُحمِّلني كبير مشقة في التمهيد لمحادثته في هذا الموضوع، وصارحني برأيه بكل جلاء ووضوح، وهذه خلاصة الحديث:

سألت سموه: هل قرأتم ما نشرته الصحف عن مبلغ النفقة على قوة الدفاع السُّودانية وما علَّقت به على ما دار في مجلس النواب من المناقشة؟

فأجاب: نعم قرأته، واطلعت على كلّ ما قيل فيه، وأنا لست على رأي القائلين بقطع هذه المعونة عن السُّودان، ولكنِّي أرى أنَّها يجب أن تكون بقدر حاجة هذه القوة لا أكثر ولا أقل. فإذا نقصت القوة في المستقبل أو زادت يجب أن تنقص أو تزيد تبعًا لأحد هذين الأمرين.

الجيش المصري من عهد محمد علي إلى الآن كما قدَّره الأمير عمر طوسون

السنة	عدد الجيش البري بضباطه	مقدار النَّفقة عليه	إيرادات الحكومة بالجنيه
١٨٣٣	٨٨٢٧٢	٦٠٠٠٠٠	٢٥٢٥٢٧٥
١٨٣٩	١٣٠٤٠٢	–	–
١٨٧٤	٩٠٧٢٠	٧٠٠٠٠٠	٩٩١١٩٦٨
١٨٨٠	١٢٠٠٠	٣٦٠٠٠٠	٨٥٦١٦٢٢
١٩٣٣	١٢٢٨٨	٨١٥٩١٣	٣٢٠٧٥٠٠٠

(١٢) سلاح الطيران في السُّودان

قال لورد لويد المندوب السَّامي البريطاني الأسبق في كتابه:

> والسودان مثلًا طريق جوي كثيرًا ما اجتازته الطائرات؛ فإذا ما ارتقت وسائل النَّقل الجوي فمن المحتَّم أن يصبح السُّودان طريقًا ثابتًا متصل الحلقات للنقل الجوي، وإلى اليوم ظل السُّودان يناهض فكرة استخدام سلاح الطيران كوسيلة رئيسية من وسائل الدفاع وإقرار السلام في ربوعه، وهي الفكرة التي قامت لتأييدها حجج واعتبارات قوية جدِّية، فقد اقتُرِح قبل الآن استخدام هذا السلاح باعتباره وسيلة ميسورة يتسنَّى بها القيام بكل ما تؤديه القوات البرية بكفاءة أكبر وأكثر صلاحية، كما يمكن ربطه بأعمال الإدارة المدنية ربطًا مُحكمًا وثيق الحلقات. ولكن إلى الآن ظلت هذه المشروعات والاقتراحات تجد اعتراضًا؛ لأنَّه وإن كان العمل الذي يؤديه سلاح الطيران في بلاد مثل السُّودان هو في الواقع كبير القيمة خطير الشأن فلا ينبغي مع ذلك الغلو في تقدير قيمته؛ إذ هو مهما قيل في مدح مزاياه لا يزال أداة مساعدة للقوات البرية.

وقد شرح الحاكم العام للسُّودان هذه النقطة شرحًا حسنًا في رسالة له كان من واجبي أن أبعث بها إلى وزير الخارجية، وفيها وصف الوجه الصحيح من استخدام سلاح الطيران قائلًا:

> لو أنَّ لنا سلاح طيران كافيًا صالحًا في الخرطوم، ومعدات برية تناسبه في مواضع متعددة منتشرة، لحملنا هذا على أن نعتقد أن المهدوية أولًا، وهي ذلك الخطر الشديد، وإن ظل هاجعًا كامنًا، لن تستطيع اكتساحنا من جهة الغرب إذ يمكننا في هذه الحالة أن نحطم مراكز تجمُّعها ونُشتِّت شملها، وهي في أثناء تعبئتها في مخافرها النَّائية، فلا تقع في المستقبل نكبات كالتي وقعت لحملة هيكس باشا ولبيكر باشا في سنة ٨٠، ولا يكون حصار كحصار الخرطوم؛ إذ يُصبح من المستحيل بفضل عيون سلاح الطيران وأرصاده وأسلحته تكرار تلك المجازر والجوائح التي كانت تقترفها تلك

القبائل المتهوِّسة في الدين، كما تُصبح المسائل المتعلقة بالدفاع الداخلي سهلة بسيطة.

وثانيًا: إنَّ الطبقات الصغيرة من الشباب المتعلِّم في الخرطوم وأم درمان والمدن الأخرى التي أقل منها شأنًا أولئك الذين أعاروا آذانهم فيما مضى لمروِّجي الفتنة من المصريين يدركون غدًا بذكائهم مبلغ ما يستطيع سلاح الطيران أن يفعله. فإنَّ التأثير الذي يُحدثه هذا السلاح في عقول هذه الطبقة من الأهلين هو إلى حدٍّ كبير من أفضل مزاياه وأعماله في سبيل إقرار الحالة السياسية وتوطيدها.

وثالثًا: إنَّ الحاميات النَّائية التي تتألَّف منها قوة الدفاع عن السُّودان تصبح مرتبطة الأجزاء متصلةً اتصالًا وثيقًا بمركز الرِّياسة العامَّة والعالم الخارجي بهذه الوسيلة السريعة من وسائل المواصلات، ويصبح خطر النزعات الثورية وانتقاض الجنود السُّودانية على النِّظام قليلًا ما أمكن.

ورابعًا: أن يكون سلاح الطيران في جميع الطوارئ الشديدة والأزمات الفجائية الجسيمة هو الوسيلة السريعة للاتصال والتَّحري والتحقيق، وبذلك يتيسر اتِّخاذ التَّدابير العاجلة.

وقد استطرد الحاكم العام بعد هذا في رسالته مبينًا أنَّ مشكلة الإدارة الملكية — أي المدنية — في مناطق السُّودان النَّائية التي لا يزال أهلها في شبه جاهلية أو همجية هي من صِعاب المشاكل وأكثرها تعقُّدًا وأدْعَاها إلى الأخذ بمنتهى الحذر والتبصُّر واللَّباقة والكَياسة في تناولها؛ إذ كلَّما كانت تقوم المتاعب فيما مضى ببعض تلك المناطق كان الأمر يقتضي معالجتها برًّا بإيفاد قوة استكشافية تعمل بحذر ودقَّة على أمل الاتِّصال بالثائرين لإقرار صلات حسن التَّفاهم بين الحكومة وبينهم لكي يمكن بذلك توثيق الروابط الحسنة من البداية، ولهذا الاعتبار الخطير ينبغي للسلطات أن تتوخى اختيار أهدافها وأغراضها، وأن تستخدم سلاح المشاة في الملاحم البرية.

وقد استطاع الحاكم العام أن يصوِّر حُججه ووجوه نظره أحسن التَّصوير من المشاهدات الأخيرة والتَّجارب الفعلية، فقد حدث أن سرب الطيارات الذي أُنشئ أخيرًا على سبيل التَّجربة وجُعِل مركزه الخرطوم لم يلبث عقب وصوله أن كُلِّف الاشتراك في عمليتين من العمليات الحربية تختلف إحداهما عن الأخرى وإن كانت كلّ واحدة منهما من نوع الأعمال الحربية التي كثيرًا ما يقتضي الأمر من الحكومة معالجتها،

فقد حدث في مديرية أعالي النِّيل أنَّ مشعوذًا يحترف الطب بالسحر وهو من قبيلة اللاونوير ويُدعى «جويك وندنج» دأب عامًا كاملًا على إظهار العداء للحكومة وتحدِّيها والمجاهرة بالاستخفاف بسلطتها فترة طويلة حتَّى أصبح يُخشى أن تسري عدواه إلى سائر أفراد القبيلة، ولم تُفلح مساعي المفتش في الاتِّصال بذلك الرجل وحمله بالمسالمة على الكفِّ عن موقفه العدائي، فاضطر الأمر في هذه الحالة إلى وجوب الالتجاء إلى تدابير عسكرية حياله، ففي ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٧ جاءت التَّقارير تُفيد بأنَّ أتباع هذا الساحر المتطبب المتمرد على الحكومة يبلغون أربعة آلاف نفس، وأن بعض الجماعات المعادية منهم يقيمون بجوار قرية تُدعى نيرول، وأن القوة العسكرية التابعة للحكومة قد عسكرت بتلك القرية في ١٥ ديسمبر، وقد قامت الطائرات بعدة غارات تمهيدية على سبيل الإرهاب فقط في مبدأ الأمر، ولكنَّها لم تلبث أن قامت بإلقاء القنابل على مراكز تجمع هذه الفصائل المعادية فحطمت مقاومتها المنظَّمة.

وقد قال الحاكم العام منوِّهًا بعمل سرب الطيران في هذا الحادث: إنَّه أدَّى مهمته بمنتهى الكفاية والسرعة، ولكن الدروس التي تؤخذ من هذا العمل لا تزال هي الدروس نفسها التي سبق وصفها في رسالته؛ إذ لم يتحقق هل أتى تعاون سلاح الطيران في ذلك العمل بأية نتائج سريعة مباشرة، وإن تأثيره المعنوي كان هو وحده المحقق الذي لا شك فيه، وكان خليقًا بأن يُصبح عاملًا له خطره وقيمته في الموقف بإزاء الثوَّار المتمرِّدين.

أمَّا العمليات الحربية الأخرى التي استُعِين فيها بسرب الطيران عقب قدومه إلى السُّودان، فقد كانت موجهة أيضًا إلى جزء آخر من قبائل النوير قتلوا بتحريض بعض زعماء الكبتن فرجسون مفتش المركز، وأدى قتله إلى فتنة عامَّة وتمرُّد بين العشائر الأخرى في القبيلة، وإن كان المرجح أن التَّمرد لم يكن مقصودًا لذاته، بل كان لمجرد التخلص من ضابط كان لمعرفته الواسعة بالمركز وسكانه من المحتمل كثيرًا أن يُحرج زعيم القبيلة ويعمل على مضايقته.

وقد ظن الثوار أنهم بالانسحاب إلى مستنقعات إقليمهم سيحتمون احتماءً تامًّا من عقاب الحكومة وتأديبها، ولهذا جاءت غارة سلاح الطيران عليهم وهم في عقر ديارهم مفاجأة تامَّة مُؤلمة: فقد حاصرتهم القوات البرية وحاصرت ماشيتهم وأنعامهم، وراحت الطائرات في الوقت نفسه تصب عليهم مدرار قنابلها، فلم ينقضِ يومان على هذه الحال أو ثلاثة حتَّى تحطم روحهم المعنوي كلّ التحطم، وأدركوا أن ما نزل بماشيتهم كان

عقابًا لهم عمَّا جنته أيديهم وجزاءً على طيشهم. وكل هذا بفضل تعاون سلاح الطيران، فهو الذي يقبل عقاب العُصاة سريعًا ومثمرًا.

ولكنَّ الطائرات — كما أشار الحاكم العام وبيَّن في شرحه — اتخذت من الثوار هدفًا عامًّا، بينما راحت البيادة تتصيدهم في المستنقعات، ولولا ذلك لما كان إلى الوصول إليهم من سبيل.

وفي ذلك يقول الحاكم العام ما نصُّه:

> ولم يكن هذا الهدف واضحًا فقط للطائرات، لكنه كان هدفًا من عناصر قبيلية لا يكون قذفها بالقنابل وهي حاشدة باعثًا على وخز الضمير؛ إذ كانت الضرورة تقضي بأن يكون العقاب سريعًا وصارمًا لأولئك الذين اشتركوا في جريمة قتل ضابط بريطاني أو كانت راضية عن هذا الجُرم مشتركة فيه بالشعور. ا.هـ.

هوامش

(١) الكولونيل سيف Seves ضابط فرنسي، ولد في ليون ١٧٨٧، ووصل في جيش نابليون إلى رتبة كولونيل، وقد حضر إلى مصر وعهد إليه محمد علي بتنظيم الجيش، واعتنق الإسلام وسمَّى نفسه سليمان، ونال الباشوية سنة ١٨٣٤، وعين رئيسًا للجهادية حتى مات سنة ١٨٦٠. وله تمثال في ميدان سليمان بالقاهرة.

(٢) Baron Boislecomte ندبته حكومته الفرنسية في مهمة سياسية لدى محمد علي، وقد ورد في كتابه «مهمة البارون بوالكونت» أنه تلقى هذا الإحصاء من محمد علي.

(٣) كان ياورا لونجت باشا في السُّودان، وهو لأب من أصل ألباني.

(٤) الواقع أن المسألة متفق عليها بين الجانبين من قبل.

(٥) راجع مضبطة الجلسة التاسعة والأربعين لمجلس النواب بتاريخ يوم الاثنين ٢٩ صفر سنة ١٣٤٥ الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٩٢٦ الساعة السادسة مساءً برياسة حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا.

(٦) راجع مضبطة الجلسة الثمانين المنعقدة في يوم الثلاثاء ٢١ ذي الحجة ١٣٤٥ الموافق ٢١ يونيو سنة ١٩٢٧ الساعة الخامسة مساءً برياسة حضرة صاحب السعادة مصطفى النحاس باشا وكيل المجلس.

اللُّورد جورج لويد المندوب السَّامي البريطاني الأسبق لمصر والسُّودان من ١٩٢٥–١٩٢٩.

(٧) انظر مضبطة الجلسة الثانية والستين لمجلس النواب سنة ١٩٢٨.

(٨) محضر الجلسة الثامنة والثلاثين لمجلس النواب من دور الرابع الانعقاد الصادر بتاريخ يوم الاثنين ١٤ مايو سنة ١٩٣٤.

(٩) انظر مضبطة الجلسة الثامنة والثلاثين لمجلس النواب بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٣٤.

الفصل الحادي والعشرون

النيل يُوحِّد بين مصر والسُّودان

لما كان النِّيل هو العلاقة الطبيعية بين مصر والسُّودان، وهو مصدر الحياة ومرجع السِّياسة والحكم فيهما في عصور مختلفة — فقد آثرنا أن نعقد هذا الفصل لبحث هذا النهر:

النيل نهر من أهم أنهار العالم وثانيها طولًا إذْ يبلغ طوله من أقصى منبعه عند بحيرة تنجانيقا إلى البحر الأبيض المتوسط ٦٥٠٠ كيلو متر أو ما يزيد على الأربعة آلاف ميل، ولا يضارعه في الطول غير نهر المسيسيبي مع فرعه الميسوري؛ إذ يبلغ طولهما ٤٢٠٠ ميل تقريبًا.

ويفوقه الكثير من الأنهر في كمية الماء، ولكن لا يفوقه منها نهر من الوجهة العلمية، ومن المحتمل أن يكون القليل من الأنهر قد درس بتفصيل مثله إلَّا أن تنائي بعض الأجزاء من حوضه وصعوبة الوصول إليها ترك الكثير من المعلومات عنه غير مجموع.

ويشغل حوضه مسطحًا يقرب من ٢٩٠٠٠ كيلومتر مربع أو ثلاثة أعشار القارة الأوربيَّة وكثير من هذه المساحة العظيمة لا يمد النَّهر بالإيراد المائي.

ويمتد حوضه من خط عرض ٤° جنوبًا إلى خط عرض ٣١° شمالًا، ويشمل جزءًا من إقليم تنجانيقا «أفريقيا الشرقية الألمانية سابقًا» وكنيا والكونغو البلجيكي والحبشة، وما يقرب من كلِّ مستعمرة أوغندا كلها والسُّودان ومصر. ويشمل حوضه زيادة على ذلك بحيرة فيكتوريا التي هي أكبر بحيرة عذبة في نصف الكرة الشَّرقي ومدينة القاهرة، وهي أكبر مدينة في أفريقيا وجبل الرونزوري، «ويبلغ ارتفاعه ٥١٢٠ مترًا أو ١٦٨٠٠ قدم»، وهو ثالث جبال أفريقيا ارتفاعًا.

ويشمل حوض النِّيل لاتساع مداه طولًا وارتفاعًا الكثير من مختلف المناخ، وكذا الكثير من مختلف الأحياء النباتية والحيوانية.

فمن نباتاته ما هو من نوع نباتات جبال الألب، وهي تنمو في أعالي جبال كينيا وجبل الراونزوري الذي يغطي الجليد قممه على الدَّوام، ومنها أيضًا الغابات الاستوائية الكثيفة بصعيد البحيرات وحشائش الفيلة الطويلة المنتشرة في أكثر أراضي أوغندا وغابات سفانا القليلة الأشجار التي توجد في الجزء الجنوبي من الحوض والنباتات الكثيفة التي تنمو بالمستنقعات الاستوائية وغابات أواسط السُّودان ذات الأشجار الشوكية والنباتات الضئيلة التي تنمو في الصحراء المكوِّنة للجزء الشَّمالي من الحوض، وبحوض النِّيل زيادة على ذلك المحصولات الوافرة التي تزرع في القطر المصري.

أمَّا حيوانات الجزء الجنوبي من الحوض فتنتظم الكثير من الأنواع، وأكثرها شيوعًا: الفيل والجاموس والأسد والفهد والغزال العوام والتياتل ذوات الألوان المختلفة، والكثير من أنواع الخيول القصيرة وتياتل جنوب أفريقية، وعجل البحر، وغزال الأحراش، والغزال العادي، والخنزير البري، والقردة، وعلاوة على ذلك فالمنطقة غنية بطيورها، وأكثرها شيوعًا الطيور المائية وجوارح الطير وطيور الصيد التي منها الغرغر والقطا.

ومن حيواناته الزاحفة: التمساح، وهو منتشر في البحيرات والأنهر والكثير من أجناس السحالي والأفاعي، وكذا تكثر فيه الأسماك.

ويقطن حوض أعالي النِّيل الكثير من الحشرات المؤذية والوبائية، وعلى الأخص الناموس، وفي بعض الجهات يوجد ذباب تسي تسي وغيره من أنواع الذباب القارص التي تسبب الأوبئة التي تصيب الإنسان والحيوان. ولا يمكن الاحتفاظ بالماشية في بعض جهات الجزء الجنوبي، فلا وسيلة للنقل غير استخدام الحمالين، وقد أغنى عنهم النَّقل الميكانيكي في الجهات التي بها طرق ممهدة.

(١) وصف حوض النيل

ينقسم حوض النِّيل إلى الأقسام الآتية:

(١) النِّيل الأعظم من مصب العطبرة إلى البحر.
(٢) العطبرة.
(٣) النِّيل الأزرق وروافده.

(٤) النِّيل الأبيض، وينقسم إلى:

(أ) السوباط.
(ب) بحر الجبل.
(جـ) بحر الغزال.
(د) صعيد البحيرات.

والمنطقة من شمال العطبرة بقليل إلى قرب مدينة القاهرة تكاد تكون عديمة الأمطار إلَّا في تلال البحر الأحمر.

وتنحصر النباتات بجميع أنواعها في جزء ضيق بالقرب من النَّهر وما بعد عن ذلك فهو صحراء. والوادي في هذه المنطقة عادة ضيق وواضح الحدود ومحصور بين تلال الصحراء. ويتسع الوادي شمال القاهرة فيكوِّن دلتا مصر الخصبة. والملاحة ميسورة في النِّيل مدة جزء من السنة من البحر حتَّى وادي حلفا حيث يقع الشلال الثَّاني جنوبها مباشرة، وكثيرًا ما تعيق الشلالات الملاحة من وادي حلفا إلى الخرطوم التي تبعد عن البحر ٣٠٧٠ كيلومترًا نهرًا. وينبع نهر العطبرة من الجزء الشَّمالي من الحبشة، وبالرَّغم ممَّا به من كميَّات الماء الوافرة إبان أغسطس وسبتمبر فإنَّه يأخذ في النقصان من ديسمبر إلى يونية حتَّى يصبح بركًا متناثرة.

ويمتد سهل السُّودان الواسع جنوبًا من شمال نهر العطبرة حيث تحدُّه نجاد الحبشة شرقًا وصعيد البحيرات والأراضي المرتفعة الفاصلة بين حوضي نهري النِّيل والكونغو جنوبًا. أمَّا الحد الغربي فهو أكثر تدرُّجًا وحدوده من الأراضي المرتفعة ليست بمثل هذا الوضوح.

وتظهر تلال منعزلة في السهل لكنها قليلة ومتباعدة.

وينبع النِّيل الأزرق من بحيرة تانا بصعيد الحبشة على ارتفاع ١٨٥٠ مترًا، ويجري النهر بعد تركه البحيرة في وادٍ يتزايد في العمق تدريجيًّا حتَّى يشبه الهوَّة في بعض الأماكن إلى أن يصل إلى سهول السُّودان جنوب الروصيرص، ويتصل به في هذا الجزء الكثير من النهيرات التي تجري كالسيول، وأهمها الديديسا والدابوس، ولا يعرف عنهما إلَّا القليل. والنيل الأزرق سهل الملاحة من الروصيرص شمالًا لمدة من السنة، ويتصل به في جزئه الأسفل الدندر والرهاد من الحبشة، ويمدَّانه بكمية معتدلة من المياه في الفيضان، ولكنهما يجفان بعد ذلك فيصبحان كالعطبرة بركًا متوالية، وتحمل جميع

الأنهر الآتية من صعيد الحبشة كمية من الطَّمي إبان الفيضان. وتبعد بحيرة تانا عن مدينة الخرطوم ١٦٢٠ كيلومترًا نهرًا.

ويتَّحد النِّيل الأزرق مع النِّيل الأبيض عند الخرطوم.

ويستمد النِّيل الأبيض ماءه من السوباط وبحر الزراف وبحر الجبل وبحر الغزال. ويتكوَّن السوباط من رافد البارو الذي ينبع من صعيد الحبشة وروافد البيبور الذي يستمد ماءه من الحبشة ومن منحدرات صعيد البحيرات، ويشمل حوض السوباط مساحات شاسعة تتحوَّل إلى مستنقعات في فصل الأمطار. وتتيسَّر الملاحة فيه زمان الفيضان حتَّى جمبيلا على رافد البارو بالحبشة وإلى ما بعد أكوبو على رافد البيبور.

ويبدأ بحر الزراف من المستنقعات التي في بحر الجبل، وقد وصل بحر الزراف ببحر الجبل بقناتين صناعيتين، ويجري جزؤه بين الأسفل ضفتين منتظمتين. أما جزؤه الأعلى فيجري في مستنقعات.

ويجري النِّيل الأبيض بين ملتقى السوباط وملتقى بحر الغزال من الغرب إلى الشَّرق، ويستمدُّ بحر الغزال مياءه من المنحدرات الشمالية لخط تقسيم المياه بين النِّيل والكونغو الذي ينحدر منه الكثير من المجاري إلى سهول السُّودان، حيث تكون مستنقعات يتبخر منها كلّ ما يصلها من المياه، فلا يجري منها في بحر الغزال غير النَّزر اليسير. ويطلق اسم بحر الجبل على المجرى الأساسي للنيل الأبيض من الجنوب، وهذه التَّسمية أطلقها العرب، وقد كانوا أوَّل من أبحر فيه. وتجاوره المستنقعات الواسعة على الجانبين في الجزء الأسفل من مجراه، وتُعرف بمنطقة السدِّ، وتمتدُّ شمالًا من بور إلى بحيرة نو، وكثيرًا ما سدَّت الأعشاب الطَّافية بحر الجبل في سنة ١٩٠٣ حتَّى كانت الملاحة فيه أحيانًا مستحيلة؛ ولذا سُمِّيت بمنطقة السد، وإذا نظرنا إلى منطقة السدِّ من فوق سطح مركب بخار لرأينا مستنقعًا مترامي الأطراف به عُشب البردي وأمُّ الصوف والأمباتش والبوص الطويل. وربما رأينا القليل من الأشجار عن بُعد، وهي دليل على وجود أراضٍ مرتفعة جافة. ويتوقَّف مسطح المستنقعات على ارتفاع منسوب النهر. وهو يختلف كثيرًا من عامٍ لآخر. ومجراه في شمال منجلا ليس محصورًا في قناة واحدة؛ نظرًا لما يخترقه من مجاري المياه والبرك. ومنطقة المستنقعات هذه سبب خسارة فادحة في الماء.

ويمكن رؤية تلال جنوب منجلا على بعد. وتنقطع الملاحة عند الرجاف التي تبعد عن الخرطوم ١٧٦٠ كيلومترًا، ويجري النَّهر من الرجاف إلى نمولي على حدود أوغندا في

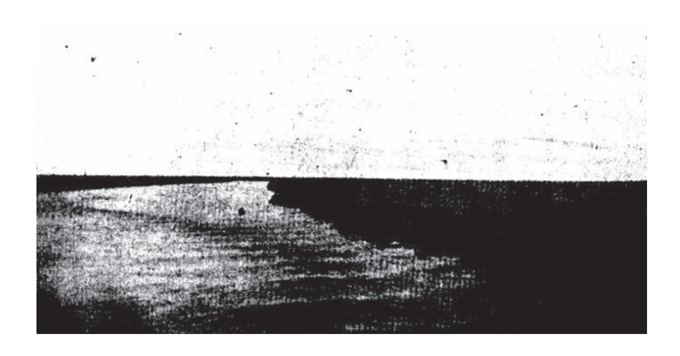

منطقة السدود، حيث الأعشاب ومساحات ماء قليلة العمق في بحر الجبل والزراف والغزال.

وادٍ ضيق تعيق سيره شلالات أشدها تأثيرًا شلالات فولا جنوب نمولي مباشرة، والإقليم ذو مرتفعات ومنخفضات، لكنه يرتفع تدريجيًّا شطر صعيد البحيرات.

أمَّا فوق نمولي فبحر الجبل أو نيل ألبرت، كما قد يُدعى أحيانًا، سهل الملاحة حتَّى بحيرة ألبرت، وبهذه المنطقة بعض المستنقعات، وتصب في النِّيل بين بحيرة ألبرت والرجاف نهيرات كثيرة. وبالرَّغم ممَّا تمد به النَّهر من كميَّات الماء الوافرة في فصل الأمطار فإنَّ أغلبها يجفُّ باقي السنة، أي من ديسمبر إلى مارس.

وتتكون أعالي النِّيل الأبيض من مجموعتين من الأنهر إحداهما تصب في بحيرة ألبرت، وتشمل بحيرتي جورج وإدوارد، والأخرى تصبُّ في نيل فيكتوريا، وتشمل بحيرتي فيكتوريا وكيوجا.

ويمكن القول إجمالًا إنَّ لهاتين المجموعتين مميِّزات مختلفة:

فمجموعة بحيرة فيكتوريا تشمل مساحات واسعة من المستنقعات، وأكثر نهيراتها مستنقعات.

أمَّا مجموعة ألبرت أو مجموعة وادي الرفت، فأغلبها أنهر جبلية تستمدُّ ماءها من سلسلة جبال الرونزوري أو منحدرات وادي الرفت، ونسبة مساحة المستنقعات فيها صغيرة.

ووادي الرفت العظيم من أهم مظاهر أواسط أفريقية، وهو يمتدُّ مع ما يعترضه من العقبات إلى وادي الأردن. والبحر الأحمر جزء منه. وينقسم جنوب حوض النِّيل إلى

فرعين: الغربي منهما ويشمل بحيرات تنجانيقا وكيفو وإدوارد وجورج وألبرت، ويمتد شمالًا على طول بحر الجبل. أمَّا الفرع الشَّرقي من وادي الرفت فيمتد شمالًا مخترقًا مستعمرة كنيا، ولا يدخل في حوض النيل.

وتفصل جبال موفومبيرو بحيرات كيفو وتنجانيقا عن حوض النِّيل، وهي سلسلة براكين تمتد عبر وادي الرفت، وتحيط به، ويبلغ ارتفاع أعلى قممها ٤٥٠٠ متر. ويكون ما يتسرب من ماء الجزء الشَّمالي لهذه السلسلة منبع ماء مجموعة ألبرت، بينما يتسرب ماء الجانب الآخر إلى الكونغو. وبين فرعي وادي الرفت الهضبة التي تشمل بحيرة فيكتوريا، ومتوسط ارتفاعها ١٣٠٠ متر فوق سطح البحر. وهذه الهضبة ليست بمستوية السطح، وتكاد تكون مَلْأى بالتِّلال في كلّ جهة، وهي على العموم تلال مستديرة ليست وعرة ولا كبيرة الانحدار. وبحيرة فيكتوريا هي منخفض قليل الغور في هذه الهضبة. ويبلغ أكبر عمق سبر فيها ٧٠ مترًا.

وتأخذ الهضبة في الانخفاض تدريجيًّا إلى الشَّمال حتَّى سهول السُّودان، حيث يتَّصل بها بحر الجبل عند الرجاف.

وفي الشَّرق ترتفع الأرض تدريجيًّا شطر المنحدر الشَّرقي لوادي الرفت، وتكاد تكون الحد الشَّرقي لحوض النيل.

أمَّا شمالًا فالحدُّ الشَّرقي سلاسل جبال تمتد حتَّى الحدِّ الفاصل بين بلاد الحبشة وأوغندا. والجزء المهم في هذه الجبال هو تلال شيرانجاني «يزيد ارتفاعها على ٣٠٠٠ متر» وجبل إلجون «٤٣١٠ أمتار» وجبل دباسيان «٣٠٦٠ مترًا» وجبل ماروثو «٣٠٥٠ مترًا»، وهضبة مورنجول «يزيد ارتفاعها على ٢٠٠٠ متر».

وعلى ذلك فحوض النِّيل يحوي جبلين من أكثر جبال أفريقية ارتفاعًا، وهما جبل الرونزوري، وتبلغ أعلى قمة فيه ٥١٢٠ مترًا، وجبل الجون وارتفاعه ٤٣١٠ أمتار، وفي حدِّه الجنوبي الغربي جبل كاريسمبي، وهو أعلى جبال موفومبيرو، ويبلغ ارتفاعه ٤٥٠٠ متر.

أما الحد الغربي لحوض النِّيل فمكوَّنٌ من المنحدر الغربي للجزء الغربي من وادي الرفت، وليس الحد بين مجموعتي ألبرت وفيكتوريا واضحًا؛ فإنَّ المستنقع نفسه قد يكون منبعًا لأنهار بعضها من مجموعة ألبرت والبعض الآخر من مجموعة فيكتوريا، فنهر النكوسي مثلًا الذي يصبُّ في بحيرة ألبرت ونهر كافو الذي يصب في نيل فيكتوريا

ينبعان من مستنقع في هضبة بحيرة فيكتوريا. وهناك ما لا يقل عن اتصالين من هذا القبيل بين مجموعتي ألبرت وفيكتوريا.

والبحيرات سبب ضياع قدر عظيم من الماء في كلّ من جزأي حوض أعالي النِّيل بالتَّبخُّر من سطحها. ومع ذلك فإنها تفي بالغرض في تسوية ماء النِّيل الأبيض. كما أنَّها أهم مورد يمد مصر بالماء إبَّان انخفاض النيل. ولولاها لكان ماء النِّيل إبان انخفاضه قليلًا جدًّا، وليست هناك طريقة لزيادة التسوية في ماء النِّيل إلَّا عمل موازنة على ماء البحيرات بانتظام حتَّى تصل إلى درجة يمكن معها جعل ماء السنين الطيبة يزيد على ماء السنين الشَّحيحة. وعلى كلٍّ فيجب قبل وضع مشروع نهائي من هذا القبيل دراسة حوض أعالي النِّيل درسًا وافيًا، كما يجب ابتكار طريقة تقلل من خسارة الماء الفادحة في منطقة السد.

ويبلغ طول بحيرة ألبرت نحو ١٧٥ كيلومترًا، وعرضها ٤٥ كيلوًا، وتقرب مساحتها من ٥٣٠٠ كيلومتر مربع، وهي على ارتفاع ٦٢٠ مترًا فوق سطح البحر، وأهم الأنهار التي تمدها بالماء هو نهر السمليكي الذي ينبع من بحيرة إدوارد ويصب غرب جبل الرونزوري.

وتبلغ مساحة بحيرة إدوارد ٢٢٠٠ كيلومتر مربع، وهي أعلى من بحيرة ألبرت بما يقرب من الثلاثمائة متر، وتصب فيها جملة نهيرات لا يُعرف عنها إلَّا القليل من وجهة الأبحاث المائية. أمَّا بحيرة جورج فصغيرة ولا أهمية لها.

وتمتد بحيرة فيكتوريا مسافة ٣ ١/٢° من خطوط العرض، ويخترقها خط الاستواء، ويبلغ طولها من بورت بل شمالًا إلى موانزا جنوبًا ٣١٥ كيلومترًا، ويبلغ اتساعها في أعظم أجزائها عرضًا ٢٧٥ كيلومترًا. ومساحتها ٦٩٠٠٠ كيلومتر مربع، ومتوسط عمقها أربعون مترًا، وأعظمه ٧٠ مترًا، وساحلها على العموم كثير التَّعاريج والتلال وبها جزر كثيرة. وأهم نهيراتها نهر كاجيرا، وأقصى منابعه عند خط العرض ٤° جنوبًا قريبًا من بحيرة تنجانيقا بالأراضي البلجيكية على ارتفاع ٢٠٠٠ متر. أما نيل فيكتوريا، وهو المنفذ الوحيد للبحيرة فيخرج منها عند جنجا فوق شلالات ريبون، ثمَّ يجري في وادٍ عميق فوق جملة شلالات، وتتعذر فيه الملاحة لمسافة. ثمَّ يخترق الطرف الشَّرقي لبحيرة كيوجا، وهي متسع من الماء قليلة الغور ذات ألسن تسدها نباتات المستنقعات.

أمَّا بعد بحيرة كيوجا فالملاحة ممكنة بنيل فيكتوريا إلى نقطة يلتوي عندها نحو الغرب، ثمَّ يعترض مجراه بعد ذلك الكثير من الشلالات حتَّى يبلغ شلالات مورتشيسون، حيث يدخل بعد ذلك بقليل الجزء الشَّمالي من بحيرة ألبرت.

(٢) الأبحاث المائية

إنَّ أغزر سقوط أمطار حوض النِّيل يقع على صعيد البحيرات وفي الحبشة، ويقلُّ على العموم من الجنوب إلى الشَّمال، ثمَّ يتزايد ثانية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ويقرب متوسط سقوط الأمطار في صعيد البحيرات من ١٣٠٠ مليمتر في العام بالرَّغم من اختلافه في مختلف الجهات إلى أن يبلغ حده الأعلى، وهو ١٨٠٠ مليمتر، ويبلغ متوسط ما يسقط بصعيد بلاد الحبشة ١٠٨٠ مليمترًا. أمَّا متوسط سقوط الأمطار من شمال العطبرة إلى بضع كيلومترات من مدينة القاهرة فهو أقل من ٢٥ مليمترًا سنويًّا. وقد ينعدم تمامًا في بعض السنين. ويبلغ متوسط سقوط الأمطار على ساحل البحر الأبيض المتوسط ١٥٠ مليمترًا.

ويبلغ سقوط الأمطار نهايته العُظمى في الجزء الجنوبي من صعيد البحيرات في شهر إبريل ونهايته تتحوَّل إلى نهاية عظمى واحدة في سهول السُّودان في شهري يولية وأغسطس.

وقد تسقط الأمطار بصعيد البحيرات في أي وقت من السنة، ولكن باتجاهنا شمالًا يتميَّز الفصلان: فصل الرطوبة وفصل الجفاف.

ويمكن القول إنَّ سقوط الأمطار يحدث في منطقة تتبع سير الشمس شمالًا وجنوبًا متأخرًا شهرًا أو شهرين، ويعزى أصل الكثير من أمطار حوض نهر النِّيل إلى الجزء الجنوبي من المحيط الأطلسي.

ويمكننا تقسيم ماء النِّيل إلى قسمين: قسم تحمله نهيرات تنبع في الحبشة، والآخر يأتي به بحر الجبل من صعيد البحيرات. ولا يتسرب الكثير من الأمطار التي تسقط بالسُّودان إلى النيل؛ لأنَّ أكثرها إمَّا أن يتبخَّر أو تمتصه النباتات في موقع سقوطه، ويعزى هذا إلى استواء أكثر أراضي السُّودان.

وأهم أنهر الحبشة هي النِّيل الأزرق والعطبرة والبارو، ولها مميِّزات أنهر الجبال؛ إذ ترتفع ارتفاعًا سريعًا في فصل الأمطار مع تغييرات كبيرة، وتحمل كميَّات عظيمة من الماء، أمَّا بعد فصل الأمطار فيقل جريانها في سرعته كما يحدث عادة في العطبرة وفي

الرهاد والدندر، إذ يقف جريان الماء فيها لمدة تزيد على نصف السنة، وتجفُّ مجاريها إلَّا في برك منعزلة، وماء هذه الأنهر تكون في أثناء الفيضان مشبَّعة بالطَّمي ممَّا يجعل خزنها في الخزَّانات من أصعب الأمور.

ويستمد النِّيل الأعظم أكثر مائه من النِّيل الأزرق الذي يبلغ معدل تصرفه عند مدينة الخرطوم ١٦٤٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية بين سنة ١٩١٢ و١٩٣٣، ولكن معدل تصرفه في شهر أغسطس ٥٦٩٠ مترًا، ثمَّ يتناقص حتَّى يبلغ ١٠٠ متر مكعب في الثَّانية من شهر إبريل.

أمَّا في شهر سبتمبر الذي يبلغ فيه النِّيل الأعظم أعلاه، فإنَّ نسبة ما يستمده من الماء على التَّقريب كالآتي:

٦٩٪ من النِّيل الأزرق، و١٧٪ من النِّيل الأبيض، ويأتي المجرى الأصلي للنيل الأزرق من بحيرة تانا، لكنَّه لا يستمد ماءً كثيرًا منها؛ لأنَّ متوسط التَّصرف من البحيرة يبلغ ١٢٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية.

ويبلغ الفرق بين أعلى وأقل منسوب للنيل الأزرق عند الروصيرص التي هي أبعد نقط القياس عليه نحو تسعة أمتار. أمَّا في رافد العطبرة عند خشم القربة فإنَّ متوسط فرق المنسوبين يقرب من خمسة أمتار.

ويبين الجدول الآتي في الصفحة التَّالية متوسط التَّصرف الشهري في بعض المحطات المهمة في حوض النِّيل، وقد بُنِي على التصرفات المقيسة بالرَّغم من استعمال مناسيب النِّيل في بعض الأحيان بوضع الأوساط العديدة للتَّصرفات المقيسة:

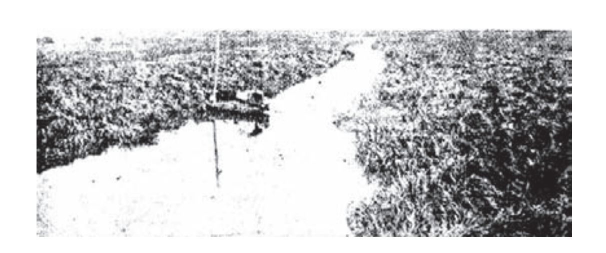

بحر الغزال.

معدل المتوسطات الشهرية لتصرُّف النِّيل ونهيراته الرئيسية بالمتر المكعب في الثَّانية سنة (١٩١٢–١٩٣٣)

النيل ونهيراته	يناير	فبراير	مارس	إبريل	مايو	يونيو	يوليو	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	المتوسط السنوي
النيل الرئيسي عند أسوان خلف الخزان	١١١٠	٩٤٠	٧٦٠	٧١٠	٨٠٠	١٠٢٠	١٧١٠	٦٣٠٠	٧٨٢٠	٥٤٦٠	٢٨٠٠	١٤٨٠	٢٥٨٠
النيل الرئيسي عند وادي حلفا*	١٤٠٠	١٠٢٠	٧٤٠	٥٩٠	٥٦٠	٧٣٠	١٨٦٠	٧١٣٠	٨٤٩٠	٥٦٨٠	٣٠٠٠	١٨٨٠	٢٧٦٠
نهر العطبرة عند الفم						٣٠	٦٤٠	٢٠٦٠	١٣٨٠	٢٨٠	٧٠	٢٠	٣٨٠
النيل الرئيسي عند الخرطوم†	١٢٤٠	٩٠٠	٧٠٠	٦١٠	٧٠٠	١١٠٠	٢٦٠٠	٦٢٧٠	٦٧٤٠	٤٤٢٠	٢٤١٠	١٦٦٠	٢٤٦٠
النيل الأزرق عند الخرطوم‡	٣٤٠	٢١٠	١٤٠	١٠٠	١٧٠	٤٩٠	٢٠٧٠	٥٦٩٠	٥٥٨٠	٣٠٢٠	١١٩٠	٥٨٠	١٦٤٠
النيل الأبيض عند الخرطوم	٩١٠	٦٩٠	٥٦٠	٥٣٠	٥٥٠	٦٢٠	٥٨٠	٦٢٠	١١٤٠	١٣٩٠	١٢٢٠	١٠٩٠	٨٣٠
النيل الأبيض عند الملاكال	٨١٠	٦٥٠	٥٨٠	٥٣٠	٥٨٠	٧٥٠	٩١٠	١٠٥٠	١١٦٠	١٢٤٠	١٢٣٠	١١١٠	٨٩٠
نهر السوباط عند حلة دوليب	٣٢٠	١٨٠	١٢٠	١٠٠	١٦٠	٣٤٠	٤٩٠	٦١٠	٧٠٠	٧٦٠	٧٨٠	٦٣٠	٤٣٠
النيل الأبيض — السوباط — المستنقعات§	٤٩٠	٤٧٠	٤٦٠	٤٣٠	٤٢٠	٤١٠	٤٢٠	٤٤٠	٤٦٠	٤٨٠	٤٥٠	٤٨٠	٤٦٠
بحر الجبل عند منجلا	٧٥٠	٧٠٠	٦٨٠	٧٢٠	٨٧٠	٨٤٠	٩١٠	١٠٣٠	١٠٧٠	١٠٤٠	٩٥٠	٨٣٠	٨٧٠

النيل ونهيراته	يناير	فبراير	مارس	إبريل	مايو	يونيو	يوليو	أغسطس	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر	المتوسط السنوي
جزء بحر الجبل الذي يصل منجلا من بحيرة ألبرت	٧٥٠	٧٠٠	٦٧٠	٦٦٠	٦٧٠	٦٨٠	٦٩٠	٧١٠	٧٣٠	٧٧٠	٧٩٠	٨٠٠	٧٢٠
النسبة المئوية بين بحيرة ألبرت	١٠٠	١٠٠	٩٩	٩٢	٧٨	٨١	٧٦	٦٩	٦٩	٧٤	٨٣	٩٦	٨٣
نيل فيكتوريا بعد بحيرة كيوجا[||]	٦٧٠	٦٢٠	٦٠٠	٦٢٠	٦٩٠	٧٤٠	٧٦٠	٧٨٠	٧٨٠	٧٩٠	٧٨٠	٧٤٠	٧١٠
نيل فيكتوريا عند شلالات ريبون	٥٩٠	٥٨٠	٥٩٠	٦٤٠	٧٢٠	٧٣٠	٦٨٠	٦٤٠	٦٢٠	٦٠٠	٦٠٠	٦١٠	٦٣٠

* في السنوات من ١٩٢٥–١٩٣٣ قد عمل حساب تأثير الموازنة عند قناطر سنار.

† في السنوات من ١٩٢٥–١٩٣٣ قد عمل حساب تأثير الموازنة عند قناطر سنار.

‡ في السنوات من ١٩٢٥–١٩٣٣ قد عمل حساب تأثير الموازنة عند قناطر سنار.

§ ويشمل بحر الغزال الذي يتراوح تصرفه من — ١٢ إلى ٩٥ مترًا مكعبًا في الثانية.

|| هذا المعدل هو للسنين ١٩١٣–١٩٣٣ بعد حذف سنة ١٩١٤.

وبمقارنة المتوسطات السنوية نرى من الجدول أن النَّهر يفقد جزءًا من الماء من العطبرة فصاعدًا شمالًا، وكذا يفقد النِّيل الأبيض جزءًا بين الملاكال والخرطوم.

ويتبيَّن من الجدول أنَّ النِّيل الأبيض هو أهم مورد للماء في طور انخفاض النِّيل الذي يصبح في هذه الفترة عاجزًا عن سدِّ حاجات الرَّي لمصر فتُضاف إلى مائه كمية من الماء المخزون في خزَّان أسوان. ويحجز هذا الماء على الأخص في شهري ديسمبر ويناير، ويصرف منه من إبريل إلى يولية، وفي كلتا الحالتين تحدد حال النَّهر هذه المواعيد التي تختلف من سنة إلى أخرى.

ويرى من الجدول الطريقة العامَّة لموازنة الخزَّان بمقارنة تصرفات وادي حلفا وأسوان. وأول استعمال لخزان أسوان بعد تعليته كان في فترة ١٩١٢–١٩١٣. ومن هنا يتَّضح أنَّ الفترة المذكورة في الجدول هي منذ تعلية الخزان.

ويمد النِّيل الأبيض مصر في أشد الشهور انخفاضًا بما يقرب من ٨٠٪ من كمية الماء. فيبلغ تصرفه نهايته العُظمى عند الخرطوم في شهر أكتوبر بمعدل ١٣٩٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية، ويعيق ارتفاع النِّيل الأزرق السريع تصرّف النِّيل الأبيض فيُحفظ ماؤه ويملأ جزء منه واديه إلى أن تطلق حين انخفاض النِّيل الأزرق. ويُرى تأثير ذلك بمقارنة تصرفات النِّيل الأبيض عند الملاكال والخرطوم من يولية إلى أكتوبر. وقد أُقيم خزَّان جبل أولياء على النِّيل الأبيض قريبًا من الخرطوم لحجز هذه الكمية من الماء زمنًا أطول لمدِّ مصر بها في زمن التَّحاريق.

ولتصرف النِّيل الأبيض مصدران:

(١) السوباط الذي يختلف متوسط تصرفه من ٧٨٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية في شهر نوفمبر إلى ١٠٠ متر مكعب في الثَّانية في إبريل.

(٢) تصرّف بحر الزراف وبحر الجبل، وهو ثابت تقريبًا طول السنة، ولو أنَّه يختلف قليلًا من سنة إلى أخرى.

ويتكون نهر السوباط من التقاء نهري البارو والبيبور أمام محطة الناصر بقليل، والجزء الأعظم من تصرّف السوباط يأتي به نهر البارو من بلاد الحبشة، وتستمدُّ نهيرات جيلا وأكوبو وخور مكواي — التي هي أهم فروع البيبور — ماءها من الحبشة أيضًا، ومعظم فروع البيبور الباقية تأتي من منحدرات صعيد البحيرات، ولكنَّها لا تمده إلَّا بجزء يسير من الماء.

ويبلغ تصرُّف السوباط حدَّه الأعلى عند المصب في أكتوبر ونوفمبر. أمَّا في نهيرات الحبشة فيبلغ هذا الحد في سبتمبر. وسبب هذا التأخُّر هو أنَّ المساحات الكبيرة من الأرض المستوية يغمرها النَّهر ثمَّ يعود بعض الماء منها إلى النَّهر فيما بعد.

وقد غمر الماء مساحات شاسعة بين السوباط، ونجد الحبشة، وصعيد البحيرات، وبحر الجبل في فيضان سنة ١٩١٧ الغزير. وبلغ التَّصرف عند مصبِّ السوباط في هذه الفترة غايته في شهر فبراير سنة ١٩١٨، بينما كان أعظم تصرُّف عند جميلا على البارو في سفح نجد الحبشة قبل منتصف أكتوبر.

ويمكن عد بحر الزراف شعبة لبحر الجبل؛ لأنَّه ينبع من مستنقعات شرق بحر الجبل ويتَّصل به بقناتين حفرتا بالكراكات في سنتي ١٩١٠ و١٩١٣، فماؤه مستمد من بحر الجبل.

أما بحر الغزال فيمد النِّيل الأبيض بقدرٍ يسير من الماء بالرَّغم من اتِّساع مساحة حوضه الغزير الأمطار. وأكبر تصرّف قِيس في مصب بحر الغزال هو ٩٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية وقد يجري أحيانًا في الاتجاه المضاد، أي من النِّيل الأبيض إلى بحيرة تو. أمَّا نهيرات خط تقسيم مياه نهري النِّيل والكونغو، فتجري في سهول السُّودان، حيث تُكوِّن مستنقعات يضيع أغلب مائها بالتَّبخُّر وبامتصاص النباتات لها.

ويعادل تصرُّف بحر الجبل والزراف وبحر الغزال الفرق بين تصرُّف النِّيل الأبيض عند الملاكال وتصرُّف مصب السوباط؛ ولذا سُمِّي هذا المجموع في الجدول تصرُّف المستنقعات.

واذا أهملنا ما يأتي به بحر الغزال؛ فإنَّ جميع الماء الذي يجري ويصل إلى أطراف المستنقعات يأتي من البحيرات العُظمى ومن منحدرات صعيد البحيرات مارًّا بمنجلا، ولا يصل إلى نهايات المستنقعات من التَّصرف المار بمنجلا إلَّا نصفه، وهي نسبة متغيِّرة، ففي السنين العالية تزيد النسبة المئوية للضائع وتقل حين انخفاض النيل.

وللمستنقعات تأثير آخر، وهو إعاقة جميع التغييرات عدا الرئيسية منها، وإطالة الزمن الذي تستغرقه تغيرات التَّصرفات بمنجلا ليكون تأثيرها محسوسًا في نهاية المستنقعات. ويبلغ هذا الزمن من ثلاثة إلى أربعة شهور، ولكنَّه يقلُّ حينما تكون المناسيب واطئةً جدًّا عند جفاف جزء كبير من المستنقعات.

وإذا راعينا الفترة التي يستغرقها سير الماء نجد أنَّ التَّصرف الشهري عند نهاية المستنقعات لا يزيد بحال من الأحوال على كمية الماء المارة بمنجلا، وعليه فقد كانت المستنقعات دائمًا سببًا في ضياع الماء، ولم تكن كخزانات في وقت من الأوقات.

وبهذه المناسبة ندوِّن فيما يلي أقلَّ تصرفات السنتين ١٩٢٢ و١٩٢٣:

المتوسط الشهري للتصرف بالمتر المكعب في الثَّانية

	منجلا			المستنقعات — الملاكال — السوباط	
	١٩٢١–٢٢	١٩٢٢–٢٣		١٩٢٢	١٩٢٣
ديسمبر	٤٤٠	٤٠٠	فبراير	٣٧٠	٣٦٠
يناير	٤٠٠	٣٧٠	مارس	٣٢٠	٢٩٠
فبراير	٣٧٠	٣٣٠	إبريل	٢٩٠	٢٨٠
مارس	٣٧٠	٣٢٠	مايو	٢٩٠	٣٠٠
إبريل	٤٠٠	٣٥٠	يونية	٣٠٠	٣٣٠

ويتصل الكثير من النهيرات ببحر الجبل بين منجلا وبحيرة ألبرت، وتمده هذه النهيرات في فصل الأمطار بقدر وافر من الماء، وكلها سيول جارفة سريعة الارتفاع والهبوط. وما تأتي به من الماء من ديسمبر إلى مارس ضئيل لا يستحق الذكر أمَّا مورد بحر الجبل المستمر فهو البحيرات التي تمده على المتوسط بنحو ٨٠٪ من كمية مائه السنوية.

أمَّا المعلومات عن نظام بحيرتي فيكتوريا وألبرت فقليلة جدًّا، وعليه فكل ما يستنتج منها تجريبي. وقد بحث الدكتور هـ. أ. هرست المعلومات الحالية في تقرير نُشر عن حوض صعيد بحيرات النِّيل، وطبع بالمطبعة الأميرية سنة ١٩٢٥ ملخصه ما يأتي:

أهم نهيرات بحيرة فيكتوريا هو نهر كاجيرا، وتأتي النهيرات الشرقية والجنوبية بكميات وافرة من الماء في فصل الأمطار، لكنَّها عديمة الأهمية زمن الجفاف. أمَّا نهر كاتونجا الواقع بالجهة الغربية فهو ما تبقى من مجموعة أنهر كبيرة، ولكن ما يمد به البحيرة من المياه قليل؛ لأنَّ بواديه مستنقعات البردي التي تعيق سير المياه — ومستنقعات الوديان هذه من مميِّزات مساحات عظيمة من أوغندا. ويقترب خط تقسيم المياه من البحيرة في شمالها، فتتجه المياه شمالًا إلى بحيرة كافو وكيوجا. ونظرًا لاتساع مساحة بحيرة فيكتوريا التي تبلغ $\frac{1}{3}$ مساحة حوضها، ونظرًا لصِغر النسبة المئوية لماء الأمطار المتسرِّبة إليها، فإنَّ أهم العوامل تأثيرًا على نظامها هو ما يسقط على سطحها

من الأمطار مباشرة وما يتبخَّر منه. وهذه العوامل تُقدَّر بأربعة أضعاف العوامل الأخرى، أي ما ينحدر من حوضها وما يصب في شلال ريبون.

ولا يعرف تصرّف نيل فيكتوريا إلَّا بالتَّقريب، ولكن يتَّضح من المعلومات الموجودة أن التَّصرف يتساوى على التَّقريب أمام بحيرة كيوجا وخلفها من الجدول السابق.

وقد يحتمل أن تكون بحيرة كيوجا منبع خسارة في النِّصف الأول من السنة ومنبع زيادة في النِّصف الثَّاني. على أن كلًّا من الزيادة والنقصان عادة قليل الأهمية.

وتأثير ذلك على نيل فيكتوريا هو تأخير موعد النهاية العُظمى والنهاية الصغرى. والنهاية العُظمى أمام بحيرة كيوجا تحصل في يونية والصغرى في يناير وفبراير، بينما النهاية العُظمى خلف بحيرة كيوجا تكون من أغسطس إلى نوفمبر، والصغرى في مارس.

أمَّا في حالة بحيرة ألبرت فإنَّ متوسط ما يدخلها من ماء نيل فيكتوريا يقرب من ضعف ما يتسرَّب من حوضها وما يُخرجه منها نيل ألبرت أو بحر الجبل يزيد بقدر الثُّلث عمَّا يدخلها من مياه نيل فيكتوريا ويبلغ التبخر $\frac{١}{٢}$ هذه المقادير، بينما يبلغ ما يسقط عليها من الأمطار مباشرة خمسها، وتحدث النهايتان العُظمى والصغرى متأخرتين شهرًا على التَّقريب عن حصولهما بنيل فيكتوريا.

وما تقدَّمَ هو نتائج عامة استُخلِصت من المعلومات الحالية القليلة عن المباحث المائية لصعيد البُحيرات، وتحتاج للتَّأكيد ولزيادتها بأرصاد تفصيلية تؤخذ باستمرار في سنين كثيرة. وهو ما يقوم به الرَّي المصري في السُّودان.

أمَّا ما سُجِّل من مناسيب النِّيل في مصر فيرجع إلى سنين عديدة، ولكن القديم منها عن سنة ١٨٧٢ غير مستوفٍ؛ إذ ليس به إلَّا مناسيب مبعثرة. وتوجد مجموعة للنهايات العُظمى والصُّغرى للمناسيب عند القاهرة من سنة ٦٤١ إلى سنة ١٤٥٠ ميلادية تكاد تكون كاملة. وممَّا يلفت النَّظر في هذه المعلومات أنَّ الفيضانات كانت أعلى من المتوسط في مدة طويلة تقرب أحيانًا من الخمسين عامًا، وأقل منه في فترات أخرى، كما يحتمل حدوث فيضانات منخفضة جدًّا بين مجموعة من الفيضانات العالية وبالعكس. وقد فحصتُ هذه السجلات للوقوف على هل كانت الفيضانات العظيمة دورية وقد

استنتجتُ منها أطوارًا قصيرة. وتطمس الاختلافات معالمها لدرجة تصبح معها عملية التنبؤ عديمة الفائدة.

وتوجد علاقة بين الأحوال الجوية لجنوب المحيط الطلسي وبين فيضان النِّيل، ولكن لم يتيسَّر حتَّى الآن عمل تنبؤ عن الفيضان يمكن الاعتماد عليه في الأغراض العمليَّة. وعلى كلٍّ فقد يمكن في يوم من الأيام بتقدم علم الظواهر الجوية، وبالوقوف بالتَّفصيل على حقيقة العامل الذي ينشأ عنه الفيضان أن يُستنتج تنبؤ دقيق عن حال الفيضان قبل حدوثه ببضعة أشهرٍ. وتزداد قيمة هذا التنبؤ بازدياد مناطق الرَّي في وادي النيل.

ويمكن عمل تنبؤات يُعتمد عليها في حال انخفاض النِّيل قبل حدوثه ببضعة أشهر، ففي شهر ديسمبر مثلًا يمكن عمل تنبؤات عن حالة النِّيل على العموم بمصر لغاية شهر مايو. ولكن ابتداء الأمطار في صعيد الحبشة يجعل هذه التنبؤات بعد هذا الميعاد غير مؤكَّدة، وكذلك يمكن عمل تنبؤات لمدد قصيرة مبنيَّة على حساب التصرفات والمناسيب الأمامية بدرجة عظيمة من التحقيق.

وتُعمل تنبؤات من هذا القبيل باستمرار؛ لتساعد على وضع برنامج الرَّي ولملء خزَّان أسوان وتفريغه.

(٣) المناخ

إنَّ اتساع مدى حوض النِّيل ارتفاعًا وعرضًا ينشأ عنه اختلاف عظيم في المناخ، وللحوض على وجه التَّقريب ثلاثة أقسام رئيسية من المناخ، وهي منطقة البحر الأبيض المتوسط، والمنطقة الصحراوية، والمنطقة الاستوائية. وحدود هذه المناطق ليست معيَّنة، ولكن يمكن القول على وجه التَّقريب إنَّ منطقة البحر الأبيض المتوسط تشتمل على الدلتا، وتمتد مسافة قصيرة في صعيد مصر، وإنَّ المنطقة الصحراوية تشمل جزءًا من صعيد مصر وشمال السُّودان، وتمتد تقريبًا حتَّى العطبرة، وإنَّ المنطقة الاستوائية هي ما بقي من الحوض.

وأهم ما بُني عليه هذا التقسيم هو الدورة الجوية، وللقسم الاستوائي أحوال متعدِّدة من حيث سقوط الأمطار والرطوبة ودرجة الحرارة، وهي العوامل المباشرة في التأثير على الحياة فيه. ومميِّزات النِّصف الشَّمالي من هذا الحوض درجة الحرارة،

وانخفاض درجة الرطوبة، وقلة الأمطار، ويندر وجود الماء بعيدًا عن الأنهار في فصل الجفاف حتَّى في سهول جنوب السُّودان.

ولتوزيع الضغط الجوي أربعة فصول يمكن تسميتها بالشتاء من نوفمبر إلى مارس، والصيف من يونية إلى سبتمبر، مع فترتي انتقال قصيرتين بينهما.

ويتمركز الضغط المرتفع على الصحراء الكبرى مدة فصل الشتاء، وتكون رياح وادي النِّيل جزءًا من الرياح التي تدور حوله. وللضغط المرتفع مركز آخر فوق أواسط آسيا. وتخترق أفريقية منطقة من الضغط المنخفض محورها يقرُب من شمال خط الاستواء، وتهب على العموم رياح شمالية على وادي النِّيل حتَّى خط الاستواء، ويعيق هذا الدوران العام الانخفاضات الجوية التي تسير على البحر الأبيض المتوسط من المغرب إلى الشَّرق، فتكثر الرياح الجنوبية في الوجه البحري شتاءً. وفي فبراير حين يكون تأثير الضغط المنخفض على البحر الأبيض المتوسط واضحًا تكون الريح السائدة على مصر من الساحل حتَّى مدينة القاهرة جنوبًا متَّجهة نحو الجنوب الغربي، ويكون الريح العام شماليًّا بين خطَّي العرض ٣٠° و٢٠° شمالًا على مدار السنة.

وفي التَّوزيع الصَّيفي تتكوَّن منطقة منخفضة الضغط فوق الشَّمال الغربي للهند بانحدارها على العموم من الغرب إلى الشرق. أمَّا في الجزء الشَّمالي من الحوض فتهبُّ باستمرار رياح شمالية. وفي النِّصف الجنوبي تكون الرياح على العموم جنوبية غربية تحمل معها النَّدى الذي يسقط أمطارًا في جنوب السُّودان والحبشة.

وعلى العموم توجد منطقة قليلة الضغط ذات خطوط ضغط متساوية مغلقة في أثناء فترتي الانتقال فوق أواسط السُّودان تدور حولها الرياح، بينما تهبُّ رياح شمالية على الجزء الشَّمالي من الحوض، وأكثر ما يتوقَّف عليه اتِّجاه الريح في صعيد البحيرات هو شكل المكان الطُّبوغرافي.

ويمكن القول على وجه التَّقريب بأنَّ طقس النِّصف الشَّمالي من الحوض في أثناء الصيف أكثر انتظامًا من طقس الشتاء، والأمر بالعكس في الجزء الجنوبي.

ويبين الجدول الآتي الظواهر الرئيسية لتوزيع درجة الحرارة:

معدل درجة الحرارة بالسنتيجراد

المرصد		الإسكندرية	الجيزة (القاهرة)	وادي حلفا	الخرطوم	الملاكال	منجلا	عين تيبه
المتوسط السنوي		١٩,٩	١٩,٥	٢٤,٤	٢٨,٢	٢٦,٣	٢٦,١	٢١,٥
أعلى متوسط شهري	الشهر	أغسطس	يولية	يولية	يونية	إبريل	مارس	فبراير
	المقدار	٢٥,٩	٢٦,٧	١٣,٦	٣٣,١	٢٩,٧	٢٨,٤	٢٢,٢
أقل متوسط شهري	الشهر	يناير	يناير	يناير	يناير	أغسطس	يولية–أغسطس	يولية
	المقدار	١٣,٥	١٠,٨	١٤,٤	٢١,٤	١٤,٦	٢٤,٣	٢٠,٤
أعلى متوسط النهاية العُظمى	الشهر	أغسطس	يولية	يونية	يونية	مارس	مارس	يناير–فبراير
	المقدار	٣٠,٨	٣٥,٣	٤١,٣	٤١,٨	٣٩,٠	٣٧,٣	٣٦,٧
أقل متوسط النهاية الصغرى	الشهر	يناير	يناير	يناير	يناير	ديسمبر	يناير	يولية–أغسطس
	المقدار	١٠,٤	٥,٤	٧,٧	١٤,٩	١٧,٦	١٩,٥	١٦,٤
متوسط المدى اليومي	يناير	٨,٢	١٣,٦	١٦,٣	١٥,١	١٧,٧	١٧,٥	٩,٣
	يولية	٧,٣	١٥,٩	١٧,٩	١٤,٠	٩,٨	١٠,٩	٨,٣

وتحدث أقصى درجات الحرارة في شمال السُّودان، ولو أن درجات الحرارة المرتفعة تحدث في كلّ مكان ما عدا الأراضي المرتفعة. أمَّا في مصر فقد كانت أعلى درجة حرارة سُجلت حديثًا هي ٥١ سنتيجراد في أسوان، وأقل درجة هي: ٤ سنتيجراد في الجيزة. وقد سجلت درجة ٥٢,٥° سنتيجراد في السُّودان في وادي حلفا و٥٥,٥° سنتيجراد في طوكر. إلَّا أنَّ الأخيرة مشكوك فيها. وأقل درجة حرارة سجلت في السُّودان هي −٢° سنتيجراد في وادي حلفا.

أمَّا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، فإنَّ مدى الفروق السَّنوي واليومي أقل ممَّا هما عليه في الداخل، ويزيد هذان المدَيَان في مصر العليا وفي شمال السُّودان، ويؤثر عليهما فصل الأمطار جنوبًا عن ذلك، ولو أنَّ المدى اليومي يظل كبيرًا في فصل الجفاف لغاية نمولي على حدود أوغندا والسُّودان.

معدل النسبة المئوية للرطوبة النسبية

بالمرصد	المتوسط السنوي	أعلي منسوب شهري		أقل منسوب شهري	
		الشهر	المقدار	الشهر	المقدار
الإسكندرية	٧٢	يولية	٧٧	فبراير	٧٠
الجيزة (القاهرة)	٦٩	ديسمبر	٨١	مايو ويونية	٥٥
وادي حلفا	٣٢	ديسمبر	٤٩	يونية	٢٠
الخرطوم	٣٠	أغسطس	٥٥	إبريل	١٥
الملاكال	٥٨	أغسطس	٨٦	فبراير	٢٤
منجلا	٦٩	يولية وأغسطس	٨٤	يناير	٤٨
بوكوبا (بحيرة فيكتوريا)	٨٠	إبريل	٨٩	يولية	٧١

وأهم ما يلفت النَّظر من الظواهر الجوية من حيث الرطوبة انخفاضها في الجزء الشَّمالي من السُّودان، ويقل متوسطها من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى الداخل حتَّى قرب مروى عند خط عرض ١٨° شمالًا، حيث يبلغ المتوسط السَّنوي ٢٢٪. ومروى بلا ريب من أجف بقاع العالم، وكثيرًا ما سُجلت بها نسب الرطوبة تقرب من

الصفر، وكثيرًا ما تبلغ نسبة الرطوبة ٥٪ في القطر المصري والسُّودان من ساحل البحر الأبيض المتوسك إلى مسافة جنوب الخرطوم في الربيع وفي أوائل الصيف.

ويزيد المتوسط السَّنوي من مروى فما بعدها لسقوط الأمطار، ولكن تقل الرطوبة جدًّا في فصل الجفاف من أواسط السُّودان جنوبًا حتَّى الملاكال، وترتفع درجة الرطوبة قرب بحيرة فيكتوريا على طول السنة.

وقد يحدث سقوط الأمطار إلى حدٍّ ما. والجدول الآتي يزيد الشرح بيانًا:

معدل سقوط الأمطار بالمليمتر

المرصد	المجموع السنوي	أعلى متوسط شهري		أقل متوسط شهري	
		الشهر	المقدار	الشهر	المقدار
الإسكندرية	١٩٢	ديسمبر	٦٠	يونية، يولية، أغسطس	صفر
الجيزة «القاهرة»	٣٠	يناير	٧	يولية، أغسطس، سبتمبر	صفر
وادي حلفا	–	–	–	–	صفر
الخرطوم	١٥٧	أغسطس	٧٠	نوفمبر إلى فبراير وإبريل	صفر
الملاكال	٨٨٧	أغسطس	٢٠٥	ديسمبر إلى فبراير	صفر
منجلا	٩٥٤	يولية	١٣٨	يناير	٢
عين تيبه	١٤٩٨	إبريل	٢٥٧	يناير	٦٦

المسافة بين بحيرة فيكتوريا وبين أهم الأماكن الواقعة على النيل ومقدار ارتفاعها عن سطح البحر

الأماكن	الموقع	المسافة من شلالات ريبون (بالكيلومتر)	ارتفاع أوطأ سطح تصله المياه عن منسوب سطح البحر (بالمتر)
شلالات ربيون	بحيرة فيكتوريا	صفر	١١٣٤*
ماسندي بورت	نيل فيكتوريا	٢٢٥	١٠٣٠

الأماكن	الموقع	المسافة من شلالات ريبون (بالكيلومتر)	ارتفاع أوطأ سطح تصله المياه عن منسوب سطح البحر (بالمتر)
شلالات مارتشزون	نيل فيكتوريا	٣٨٥	٦٦٤†
بحيرة ألبرت	بحيرة ألبرت	٤١٦	٦١٩
وادلاي	بحيرة الجبل	٤٧٧	٦١٨
نيمولي	بحيرة الجبل	٦٢٦	٦١٤
جوندو كورو	بحيرة الجبل	٨٠٨	٤٥٢
منجلا	بحيرة الجبل	٨٤٥	٤٤٢
بور	بحيرة الجبل	٩٧٣	٤٢١
بحيرة نو	النيل الأبيض	١٥٩٢	٣٨٨
التوفيقية	النيل الأبيض	١٧٢٤	٣٨٥
الملاكال	النيل الأبيض	١٧٣٨	٣٨٤
الدويم	النيل الأبيض	٢٣٥٤	٣٧٤
الخرطوم	النيل الأبيض	٢٥٥٦	٣٧٢
نهر العطبرة	النيل	٢٨٧٧	٣٤٢
أبو حمد	النيل	٣١٢٩	٣٠٨
كريمة	النيل	٣٣٦١	٢٤١
وادي حلفا	النيل	٤٠٨٩	١١٥
أسوان (المدينة)	النيل	٤٤٣٨	٨٣
الأقصر	النيل	٤٦٥٥	٦٨
قنا	النيل	٤٧١٧	٦٤
جرجا	النيل	٤٨٣٩	٥٧
أسيوط	النيل	٤٩٨٢	٤٥
القاهرة	النيل	٥٣٨٤	١٥

الأماكن	الموقع	المسافة من شلالات ريبون (بالكيلومتر)	ارتفاع أوطأ سطح تصله المياه عن منسوب سطح البحر (بالمتر)
قناطر الدلتا (الأمام)	النيل	٥٤٠٧	١٤
فم رشيد	النيل	٥٦٤٣	صفر

* أمام الشلالات.
† أمام الشلالات.

المسافة بين بحيرة تانا وبين أهم الأماكن الواقعة على النيل الأزرق ومقدار ارتفاعها عن سطح البحر

الأماكن	المسافة من بحيرة تانا	ارتفاع أوطأ سطح يصله الماء عن منسوب سطح البحر
	بالكيلومتر	بالمتر
بحيرة تانا	.	١٨٤٤
فازوغلي	٨٧٥	٤٧٧
الروصيرص	٩٧٥	٤٤٠
سنجا	١١٧٥	٤١٥
سنار	١٢٦٥	٤٠٧
واد مدني	١٤١١	٣٨٩
الكاملين	١٢٤٥	٣٨١
الخرطوم	١٦١٧	٣٧٢

(٤) مصر والنيل

قال سعادة الباحث الفاضل أمين سامي باشا:

إنَّ الديار المصريَّة بما هو قائم بها من صفة العتاقة البليغة وفضيلة الثبات العجيبة والتُّؤدة الغريبة التي كانت توصلت بها إلى أعلى درجات الحضارة،

وحصلت على نهاية صلاح الحال والتَّحسين كانت غنيَّة عن اقتباس النور من الغير، وليست محتاجة إلى سواها في اكتساب مناهج الخير،[1] وهذا يطابق ما وصفها به موسى، وهيرودوتس، وديودرس الصقلِّي، واسترابون، وابن مارسين أوكلمنوس الإسكندري.

ورغمًا عن العواصف والتَّخريب وتغيير الدول على مصر، فإنها لا تزال حافظة على مميزاتها الخصوصية. فقد وجهت عناية الفراعنة الذين قاموا بأمر شئونها منذ مبدأ مدنيتها الزاهرة الباهرة إلى ما يأتي:

أولًا: حفظ مجرى النِّيل واتِّقاء كلّ الغوائل التي كانت تعترض سيره كالرمال التي أهلكت جيوش الفرس وألوف الجنود التي قادها هكس باشا لمقاومة ثورة المهدي وإنجاء غوردون فإنَّه للآن لم يعثر لها على أثر، إذ غمرتها الرمال في مكان لا يعلمه إلَّا الله، وقد قرر مجلس النُّظَّار في ٢٤ مايو سنة ١٨٨٤ اعتبار الخدمة العسكرية والملكية معدومين، واعتبار وفاتهم من ٢٩ فبراير سنة ١٨٨٤، وأن يكون ترتيب المعاش لهؤلاء وهؤلاء ابتداءً من أول مارس سنة ١٨٨٤. تلك الرمال التي كانوا يعانون في إزالتها أشد العذاب لم ينجهم منها إلَّا الحيوان، الذي له أكبر فائدة، وهو الأستاذ الأول للإنسان؛ فقد تعلم طرق الادخار ونظام الجيوش وترتيبها والحروب، وهو النمل. كما استفاد منه أحد ولدي آدم الذي لم يقبل منه ما قُبِل من أخيه القربان، وكما استفاد أيضًا تعلم علم الجسور والقناطر من الحيوان المسمَّى بالكستور، وهو المعروف بالجندباوستز، وهذا الحيوان هو الذي وجَّه نظر المصريين القدماء إلى إقامة الهرم الأكبر؛ فإنَّهم لمَّا رأوا هجرة السمان إلى بلادهم وقت هبوب الرياح الشديدة من الشَّمال الغربي، وأنها ترفع أحد جناحيها كالقلع وتحرك الآخر كالمقذاف وتترك نفسها معها حتَّى تقطع البحر المتوسط الإسكندري فتَصِل منهوكة القوى إلى أماكن استراحتها، فكانوا يقيمون أغصانًا تتكون تحتها كثبان من الرمال تقف عليها لتستريح، ومثل السمان القلق[2] المسمى عند الفرنج سيجوفي، فمصيفه الجهات الشمالية الباردة من أوروبا، وشتاؤه وطنه الأصلي من أفريقية، فيسمع صوته جهة الأهرام وغيرها، فبمشاهدته تكون كثبان الرمال تحت تلك الأغصان.

وكان لزامًا عليهم أن يذوقوا من العذاب ألوانًا في تطهير مجرى النِّيل من هذه الرمال التي كانت تطمر مجراه الذي كان بالقرب من مكان الهرم الحالي.

قام بفكرهم أنَّهم إذا أقاموا هدفًا يمنع الرمال من طمر مجرى النَّهر استراحوا من العذاب المستمر، فأقاموا الهرم الأكبر ذا السطوح المائلة التي إذا سقطت عليها الرمال كانت زاوية السقوط مساوية زاوية الانعكاس، وليس في سطح أي جسم آخر تتوفر تلك المزية، وشيدوه وعانوا في تشييده ما عانوا، وأبدعوا هندسته، وتفنَّنوا في تجميله بما وصلت إليه معارفهم الهندسية والفلكية، حتَّى إنَّهم أحكموا الفتحة البحرية التي في منتصف أسفل تلك الوجهة على امتداد محور العالم، وجعلوا الفتحة القبلية في أعلى السطح المقابل تدخل منها أشعة ضوء الشعرى[٣] على جثمان من سيدفن في هذا المكان، وضلع الهرم ١٠٠٠ شبر، وكل شبرين ذراع، وهو من الآثار المصريَّة العجيبة التي تدهش الأبصار؛ فقد هرم الدهر وهو فتى، وتعاقبت عليه العصور وتوالت الدهور وهو باقٍ يشهد بناؤه بعلو درجات المتقدمين، وينطق ببراعة من كانوا بمصر من المهندسين، بوضعه يمكن تعيين الجهات ومعرفة الفصول والانتقالات.

فهذه هي أهم البواعث على تشييد الهرم، وليس كما يقولون إنه أنشئ ليكون مدفنًا، نعم قد دفن فيه منشئه، ولكن هو كما يحصل الآن فيدفن منشئ أحد المساجد أو الجوامع فيها كما حصل في عهد ساكن الجنان إسماعيل باشا؛ إذ دفن الشيخ العروسي شيخ الجامع الأزهر في مسجده الذي هو في الشارع الممتد من باب البحر إلى باب الشعرية. وكثيرًا ما وجدت مساجد سُمح بدفن منشئها فيها، ولكنَّها قبل كلّ شيء هي بيوت أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه.[٤]

وبإنشاء ذلك الهرم استراح الناس من العذاب الأليم الذي كانوا يعانونه كلّ عام في إزالة الرمال الكثيرة التي كانت تعوق سير النِّيل، وبذلك آمنوا طريقه، واتخذ سيره نحو الجهات البحرية، وتولدت من ذلك أرض فسيحة سُمِّيت بهدية النِّيل، وعلى منوال هرم الجيزة عملت أهرام أخرى من الحجر واللبن، ولكن كلها في الجهة الغربية من النِّيل لا في الجهة الشرقية التي كلها أحجار وجبال. أما الجهة الغربية فهي منافس تنسف منها الرمال.

ولو وفِّق الباحثون من المتأخرين لما قالوا كما قال دوربك مفتش المدارس والمكاتب في مقدمة كتابه «التعليم في مصر»: «أو لقد قدر ما حلَّ من العذاب الجسدي لهؤلاء الألوف من البشر الذين كانوا كقطيع من الحيوان بذلوا النفس والقوى في تشييد الآثار العظيمة التي تسمَّى بالأهرام.»

ولو علم المأمون سر إنشاء الهرم لما أقدم على الأمر بهدمه عند حضوره سنة ١٩٠هـ، ولكن لم يتيسَّر إلَّا إزالة الجزء العلوي منه.

ثانيًا: إنشاء خزانات في مجرى النِّيل لادِّخار مياهه وصنع سيالة في كلّ خزَّان تفيض منها إلى ما بعدها مياه بقدر معلوم، «وممَّا يُوجب إعمال الفكر أنَّه يوجد فيما فوق وادي حلفا على القرب من القرية المسماة سحنة — وهذه مسألة فيها نظر — صخور وعرة المرقى رأسية الوضع على حرف النِّيل توجد عليها كتابات بالقلم المصري القديم منقوشة على ارتفاع سبعة أمتار فوق ما تبلغه المياه إذا وصلت إلى أعلى درجة من الزيادة الآن. ومن ترجمتها يعلم أن النِّيل كان في عصر العائلة الملوكية الثَّانية عشرة والثالثة عشرة إذا بلغ أقصى زيادة يصل إلى موضع النقش من تلك الصخور. وإذا صحَّ ذلك فإنَّ النِّيل من قبل هذا العصر بأربعين قرنًا من الزمن يبلغ عند الشلال الثَّاني أكثر ممَّا يبلغه في عصرنا هذا من الارتفاع بسبعة أمتار. ولعل السبب في اختلاف ارتفاع مياه النِّيل وما اعتنى بعمله فراعنة الدولة المتوسطة من الأعمال الجسيمة في ماء النِّيل بقصد الامتناع من غائلته، والانتفاع بزيادته، وللتَّحصن من غارات أعدائهم الذين كانوا يتهجَّمون عليهم من السُّودان يجعل هذا الشلال حصنًا طبيعيًّا ومانعًا قويًّا من نزول سُفنهم إليه وشن الغارة عليهم.

ولَمَّا سافر سير صمويل باكر بحملته التي أعدَّها له ساكن الجنان إسماعيل باشا خديوي مصر، وكانت برياسة الميرالاي رءوف بك، أراد أن يجتاز بحملته ومعداتها وسفنها سيالة الشلال، فاستلزم الحال وقوف الحملة مدة عام حتَّى أزيلت بعمال من بلاد إسنا،[٥] وهكذا يجرؤ كلُّ انسان لا يدرك سر ما هو مجسَّم أمامه على هدم كلِّ أثر نافع.

ثالثًا: إعداد مصرف للنجاة من طغيان ماء النِّيل عند الفيضانات العالية ليفيض منها على جهة الواحات وما بعدها إلى مريوط ليُكسب تلك الأراضي خصوبة، فتنبت حبَّ الحصيد والنَّخيل والأعناب. وقد قال هيردوت:

> إنَّه بسبب حدوث اختلافات مذهبية بين كهنوت ذلك الوادي وكهنوت مصر، وطول عهد تلك الاختلافات اضطرَّ الطرفان إلى تحكيم الإله آمون للفصل فيها، فاجتمعوا تحت الإله آمون الذي هو من حجر الجرانيت الذي تستقبل مسامه النَّدى ليلًا. وعند حرارة الشمس نهارًا يحصل أزيز تسمع منه أصوات، فاعتقد كهنوت وادي النِّيل بأنَّ ذلك مقبع لكهنوت إقليم الواحات وما جاورها، ولكن الآخرين رأوا أنَّ هذا ممَّا يوجب انحطاطهم في أعين سُكَّان واديهم فأصرُّوا على استمرار الخلاف، فاضطر الأولون إلى

> الاستعانة بقوة الحكَّام على عدم سريان المياه في المصرف وأغلقوه ولكن بدون إحكام، فكانت المياه في مدة الفيضان تظهر منه كالنافورات تتسرب في كلّ عام، فتظهر في امتداد البحر الذي بلا ماء.

وقد بحث هذا الموضوع المرحوم محمود الفلكي باشا بحثًا مستفيضًا ودوَّن فيه ما يُؤكِّد رواية هيردوت، وتوسع فيما يتعلَّق بما كان في مريوط من آثار العماوية والخير والكروم، وما كان يعمل منها، وحياض العصير وغير ذلك. فلو درس هذا الموضوع درسًا دقيقًا وأُعيد مجرى البحر الذي بلا ماء لأفاد في تصريف ما يزيد من مياه الفيضان في سنة كالتي نحن فيها بدلًا من ضياعها في البحر الأبيض المتوسط.

وزيادة على ما قدمناه فإنَّ بلاد القطر كانت منشأة على مرتفعات عالية، سواء في الوجه القبلي والبحري، وكانت السُّكان تسر بالفيضانات العالية لتكسب الأرض خصبًا يُغنيها عن التَّسميد. وإنَّما كان يُؤلمهم أن يتأخر هبوط النِّيل إلى شهر بؤونة.

وفي عهد ساكن الجنان محمد علي باشا شرع في عمل الرَّي الصَّيفي وأحكام الحوش في الوجه القبلي؛ فأدَّى ذلك إلى تمكُّن الناس من إزالة البلاد العالية، واستعملت الأتربة التي كانت تحت تلك المباني كسماد بالتَّدريج عندما توفرت لديهم وسائل الرَّيِّ الصَّيفي في عهده، فصرنا لا نرى تل أتريب ولا تل بسطة ولا تل حوين ولا تل راك ولا تل مسمار ولا ولا … إلخ من التلول القديمة لا في الوجه القبلي ولا في الوجه البحري، وتلا ذلك تنظيمات أخرى في الرَّي حتَّى أُنشئ الخزَّان وقناطر أسيوط ونجع حمادي، مع تعلية الخزَّان للمرة الأولى والثانية، وأُدخلت مشروعات من بحري أسيوط إلى الجيزة.

ومع هذا فقد توصلوا إلى ما اعترف به الأوربيون من أن مصر هي المنبع الأول للعلوم والفنون ومهد الهندسة وتخطيط البُلدان والزراعة والكتابة. وبينما هم يحترمونها ويقدسونها التقديس الواجب لوطن الشرائع والنظامات السياسية والكهنوتية والرموز الدينية، وبينما هم يعجبون بآثار عمارتها وبهياكلها ومدافنها وأهرامها ومسلاتها وتماثيلها التي منها أبو الهول، وبينما حب العلوم يحملهم على مطالعة كلماتها السرية المرسومة على ذلك الكتاب الحجري الهائل الذي فتحت صفحاته منذ ألوف من السنين من مبدأ الشلالات التي عند أفواه النِّيل نرى أن أهل الشَّرق كانوا فيما مضى لا يرون في تلك الهياكل وتلك القصور الملوكية القديمة وفي تلك التماثيل الفخمة وفي أبي الهول إلَّا خضراء سحرية على كنوز مدفونة. وما تلك الكتابة الرمزية إلَّا إشارات سرية تُعلِّم الناس طرق استخراج الذهب واستكشاف المال المخبَّأ فيها.

ولقد شاركت أوروبا الشَّرق زمنًا في الاعتقاد بتلك الأوهام، وسألت تلك الأحجار عن أسرار الحجر الفلسفي، وأنكرت المعنى المخبأ وراء سر الكمياء التي استعارتها القرون الوسطى من مصر، على أن تعليم الزراعة التي تُحيل ماء النِّيل ذهبًا قد حلت تلك القضية حلًّا طبيعيًّا.

ولقد مسَّ مصر قحطٌ في عهد فرعون يوسف. ويُؤخذ من كتاب «جينيزس» أن سني الرخاء السبع ابتدأت في سنة ١٧١٥م، ثمَّ تلتها السبع الشداد «انظر سورة يوسف».

وهذا ما كانت عليه حالة مصر في عهد دولة الرومان:

في أيام القنصلين سيلانوس Silanus ونوربانوس Norbanus ذهب جيرمانيكوس Germanicus إلى مصر بحجة الاشتغال بأعمال هذه الولاية، ولكن غرضه في الواقع كان موجهًا إلى درس ما فيها من المخلفات القديمة والآثار العتيقة، فأمر بفتح الأهراء الأميرية وأنقص أسعار الحنطة، وصنع أمورًا كثيرة ممَّا يروق العامَّة ويُرضيها، وكان يمشي على قدمه وبغير حرس، وكان يتزيًّا بزي الأغارقة في ملبسه متشبهًا في ذلك ببليوس ثيبون (Publius Seipion) الذي ذكر المؤرخون عنه أنه سلك هذا المسلك في جزيرة صقلية عند اشتداد نار الوغى فيها أثناء محاربة القرطاجيين.

وكان ذلك السلوك وذلك التزيي سببًا في توجيه العتاب بألفاظ رقيقة من طباريوس (Tibere) إلى جيرمانيكوس، ولكنَّه عنَّفه تعنيفًا شديدًا على ذهابه إلى الإسكندرية خلافًا لما تقتضي به الأوامر التي أصدرها القيصر أغسطس (Auguste) محتِّمًا فيها وجوب الاستئذان من صاحب الأمر.

ذلك لأنَّ أغسطس في أثناء توليته زمام الأحكام أصدر جملة أوامر خصوصية، منها منع أعضاء مجلس الشيوخ «السناتور» وأكابر الفرسان الرومان من النزول إلى ساحل مصر بغير إذنه، فقد كان يخشى أن يرى إيطاليا في قحط وجوع من فعل أي إنسان يقبض على تلك الولاية التي هي مفتاح البر والبحر، والتي يتأتَّى الدفاع عنها بقليل من الأجناد ولو كان المغيرون عليها في جيوش كثيفة.

ولما سافر جيرمانيكوس إلى أعلى النِّيل زار أقرب منابعه، وزار الآثار العظيمة لمدينة طيبة القديمة، وترجم له أحد القسيسين ما عليها من الكتابات الهيروغليفية التي تنبئ بعظمة هذه الدولة القديمة وأنَّه كان يعسكر بطيبة ٧٠٠٠٠٠ جندي أخضع بهذا الجيش الملك رعمسيس الكبير بلاد ليبية والحبشة ومدية والفرس وما جاورها، وكذلك

البلاد التي يقطنها السوريون والأرمن حتَّى وصل إلى البحر الأسود. ويعلم من هذه الكتابة أيضًا مقدار الجزية التي ضربت على الأمم المغلوبة على أمرها والنقود الفضية والذهبية والأسلحة والخيل والعاج والبخور والهدايا التي أهديت للمعابد والحبوب الكثيرة ولوازم المعيشة التي كانت تَرد إلى مصر من جميع الأمم.

ولمَّا تسلَّم عمرو بن العاص من المقوقس عامل الدولة الرومانية في مصر الذي كان على حربها وخراجها، وظهرت جيوشه على جيوش الروم في عدة مواضع، وتضمَّنت معاهدات الصلح أن ينقاد المصريون للفاتحين كلَّ الانقياد، وأن يدفعوا لهم الخراج والجزية، وتكفَّل لهم عمرو بن العاص بحفظ حريتهم الدينية، وأمَّنهم على أنفسهم وأموالهم، وضَمِن لهم المساواة في العدل والإنصاف، هنالك ولَّاه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على الزكاة والحرب وقيس بن أبي العاص قاضيًا. هذا والبلد في ذلك العهد محفور الأنهار معقود الجسور عندما تسلَّموه من الرومان وخمير العمارة فيه.

وفي سنة ٢٥هـ صُرِف عمرو بن العاص عن مصر بعد أن أسَّس فيها حكومتها ونظَّم إدارتها وأقام فيها ميزان العدل، وجبى عمرو الجزية من مصر في هذه السنة فكانت اثني عشر ألف دينار. وبما أنَّ الجزية كانت دينارين على كلّ شخص ذَكَر قادر على العمل بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة فأكثر لغاية الستين سنة، فيكون المكلفون بالدفع ستة ملايين، وهو يعادل ثلث السُّكان بمصر وقتئذ، فيكون عددهم إذ ذاك ثمانية عشر مليونًا.

وممَّا يُفيد في هذا الموضوع:

البيان التَّفصيلي للحوادث التي ارتبطت بأمر النِّيل حسب السنين الميلادية

- **سنون لم يحصل فيها فناء وحصل فيها غلاء:** ٨٩١، ٩٠٣، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٩٧، ١٠٠٧، ١٠٥٢، ١٠٥٥، ١١٨٤، ١٢٩٤، ١٣٧٣، ١٤٠٣، ١٤٢٠، ١٤٥٠، ١٤٦١.
- **سنون لم يحصل فيها وفاء ولم ينوِّه المؤرخون بحصول أي شيء فيها:** ٧٦٩، ٩٤٤، ٩٦٢، ١٠٠٦، ١٠٨٢، ١٠٩١، ١٢٩٧.
- **سنون حصل فيها غلاء بسبب تقصير النيل:** ١٦٩٤، ١٧٢٢، ١٧٨٣، ١٧٨٤.
- **سنون حصل فيها غلاء وقحط وفناء بسبب الشراقي:** ١٠٥٦، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠،

١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١١٨١، ١١٨٦، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١٢٠٠.

- **سنون حصل فيها شراقي لعدم علو النِّيل إلَّا في آخر أيام الفيضان لمدة قصيرة:** ١٨٩١، ١٨٩٣، ١٨٩٧، ١٨٩٨، ١٩٠٠، ١٩٠١.
- **سنون حصل فيها انحطاط مياه النِّيل تسبب عنه تخلف شراقٍ بكمية كبيرة:** ١٨٧٧، ١٨٨٧، ١٨٩٩، ١٩٠٢، ١٩٠٤، ١٩٠٥، ١٩٠٧، ١٩١٣.
- **سنون تأخر الوفاء فيها ولكن لم ينوِّه المؤرخون بحصول شيء فيها:** ١٣٣٨، ١٤٤٩، ١٨٠٨، ١٨١٠.
- **سنون كان فيها شحيحًا ولم ينوِّه المؤرخون بحصول شيء فيها:** ١٥٠٢، ١٨٠٧.
- **سنون حصل فيها وفاء عادي:** ٨٦٣، ١٠٧٣، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١١٧٦، ١١٨٠، ١٢٤٠، ١٢٧٣، ١٢٩٦، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٥، ١٣١٣، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٥، ١٣٣١، ١٣٣٧، ١٣٩٧، ١٤٠٥، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٧، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٨، ١٤٦٠، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨١، ١٤٨٣، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٨، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠، ١٥١١، ١٥١٢، ١٥١٣، ١٥١٤، ١٥١٥، ١٥١٦، ١٧٧٧، ١٧٧٩، ١٧٨٠، ١٧٨١، ١٧٨٥، ١٧٨٦، ١٧٨٧، ١٧٨٨، ١٧٨٩، ١٧٩٠، ١٧٩٣، ١٧٩٤، ١٧٩٨، ١٧٩٩، ١٨٠١، ١٨٠٢، ١٨٠٤، ١٨٠٥، ١٨٠٦، ١٨١١، ١٨١٢، ١٨١٣، ١٨١٤، ١٨١٥، ١٨١٦، ١٨١٧، ١٨٤٧، ١٨٤٨، ١٨٧٥، ١٨٧٦، ١٨٧٩، ١٨٨١، ١٨٨٣، ١٨٨٤، ١٨٨٥، ١٨٨٦، ١٨٨٧، ١٨٨٩، ١٨٩٠، ١٨٩٢، ١٨٩٤، ١٨٩٥، ١٨٩٦، ١٩٠٣، ١٩٠٦، ١٩٠٨، ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١١، ١٩١٢، ١٩١٤، ١٩١٥، ١٩١٦، ١٩١٧، ١٩١٨، ١٩١٩، ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٢،

١٩٢٣، ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٧، ١٩٢٨، ١٩٢٩، ١٩٣٠، ١٩٣١، ١٩٣٢، ١٩٣٣.

- **سنون حصل فيها وفاء وروى بعض الأراضي ولم ينوِّه المؤرخون بحصول أي شيء فيها:** ١٠٠٥، ١٤٢٠.
- **سنون حصل فيها وفاء وسرعة هبوط تسبب عنه غلاء:** ١٠٠٨، ١١٢٣، ١١٢٤، ١٢٠١، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٦٣، ١٢٩٥، ١٣٠٤، ١٣٠٩، ١٣٢٧، ١٣٣٨، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٦٣، ١٤٢٦، ١٤٢٨، ١٤٦٨، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٩٦، ١٧٠٤، ١٧٩١، ١٧٩٢، ١٨٠٣.
- **سنون حصل فيها وفاء وسرعة هبوط ولم ينوِّه المؤرخون بحصول أي شيء فيها:** ١٥٠٥، ١٨٧٣، ١٨٨٠، ١٨٨٢.
- **سنون كان فيها النِّيل عاليًا ولم يحصل من علوِّه ضرر:** ١١٤٩، ١١٨٣، ١٢٣٢، ١٣٢٩، ١٣٥٩، ١٣٨٢، ١٣٨٩، ١٣٩١، ١٣٩٥، ١٤٢١، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٩٣٤.
- **سنون كان النِّيل فيها عاليًا وحصل منه ضرر:** ١٨٧٤، ١٨٧٨.
- **السنة التي حصل فيها غرق تسبب عنه قحط وفناء:** ١٣٠٣.
- **سنون حصل فيها غرق تسبَّب عنه إتلاف الزروع والمساكن:** ١٠٨٨، ١١٦٤، ١١٨٢، ١٣٤٣، ١٣٦٠، ١٣٧١، ١٣٨٣، ١٤٠٩، ١٤٢٢، ١٤٧٧، ١٦٢٢، ١٧٧٨، ١٨٠٠، ١٨٠٩، ١٨١٨، ١٨١٩، ١٨٢٠، ١٨٧٤.
- **السنة التي عظمت فيها مياه النِّيل في ٤ بؤونة وحصل منه غرق:** ١٤٤١.
- **السنة التي بكَّر النِّيل فيها في نصف بؤونة:** ١٧١٨.
- **سنون نوَّه المؤرخون بأنَّها كانت خصبة:** ٩٧١، ٩٧٢، ١٠٢٣، ١٥١٥، ١٣١٧، ١٥٧١.

(٥) تطورات نهائيَّة الفيضان (من أول التَّاريخ الهجري الموافق سنة ٦٢٢م لغاية الآن)

في المدَّة من سنة ٦٢٢م إلى سنة ٧٢١م كان أعلى فيضان ٢٣ قيراطًا و١٩ ذراعًا، وكان ذلك في سنة ٦٧١م في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وكان العامل على مصر مَسْلَمة بن مخلد.

وفي المدَّة من سنة ٧٢٢م إلى سنة٧٢١م كان أعلى فيضان ١٣ قيرطًا و٨ ذراعًا، وكان ذلك في سنة ٧٤٠، وسنة ٧٤١. وسنة ٧٤٢م في خلافة هشام بن عبد الملك، وكان العامل على مصر حنظلة بن صفوان للمرة الثانية في السنتين الأوليين، وفي السنة الثانية جعفر بن الوليد للمرة الثانية.

وفي المدة من سنة ٨٢٢م إلى سنة ٩٢١م كان أعلى فيضان ١ قيراط و١٨ ذراعًا في سنة ٩١٢، وسنة ٩١٣م في خلافة جعفر المقتدر والحاكم تكين بن عبد الله.

وفي المدة من سنة ٩٢٢م إلى سنة ١٠٢١م كان أعلى فيضان ٨ قراريط و١٩ ذراعًا في سنة ١٠١٩م في خلافة القادر بالله والحاكم بمصر الحاكم بأمر الله.

وفي المدة من سنة ١٠٢٢م إلى سنة ١١٢١ كان أعلى فيضان ١ قيراط و١٩ ذراعًا في سنة ١١٠٦م في خلافة المستظهر بالله الحاكم بمصر منصور أبو علي الآمر بأحكام الله.

وفي المدة من سنة ١١٢٢ إلى سنة ١٢٢١م كان أعلى فيضان ١٨ قيراطًا و١٨ ذراعًا في سنة ١١٧٢م في خلافة صلاح الدين الأيوبي في دولة الأكراد.

وفي المدة من سنة ١٢٢٢م إلى سنة ١٣٢١م كان أعلى فيضان ٢٣ قيراطًا و١٨ ذراعًا في سنة ١٢٨٠م في مدة الملك المنصور سيف الدين قلاوون.

وفي المدة من سنة ١٣٢٢م إلى سنة ١٤٢١م كان أعلى فيضان ٢٤ ذراعًا في سنة ١٣٦٠م في مدة الملك الناصر أبو المحاسن حسن للمرة الثَّانية.

وفي المدة من سنة ١٤٢٢م إلى سنة ١٥٢١م كان أعلى فيضان ٢١ قيراطًا و٢٠ ذراعًا في سنة ١٤٤٠ في مدة الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جمقمق، وكذلك في سنة ١٤٤٢م في مدة هذا الملك.

وكذلك في سنة ١٤٧٧م في مدة الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي.

في المدة من سنة ١٥٢٢ إلى سنة ١٦٢١م كان أعلى فيضان ٩ قراريط و٢٤ ذراعًا في سنة ١٥٩٣م في سلطنة السُّلطان مراد خان الثالث وولاية أحمد حافظ باشا.

في المدة من سنة ١٦٢٢م إلى سنة ١٧٢١م كان أعلى فيضان ٢٤ ذراعًا في سنة ١٦٢٢م وسنة ١٦٢٤ في سلطنة السُّلطان مراد خان الرابع. الأولى في ولاية الوزير مصطفى قره باشا، والثانية في ولاية الوزير مصطفى باشا قره الحميدي.

وكذلك في سنة ١٦٩٧م في مدة سلطنة السُّلطان مصطفى خان الثَّاني وولاية حسين البشناقي باشا.

في المدة من سنة ١٧٢٧م إلى سنة ١٨٢١م كان أعلى فيضان ١٢ قيراطًا و٢٤ ذراعًا في سنة ١٧٢٨م في مدة سلطنة السُّلطان محمود خان العثماني وولاية مصطفى باشا.

وكذلك في سنة ١٧٥٦م في مدة سلطنة السُّلطان عثمان بن أحمد وولاية علي حكيم زاده باشا للمرة الثَّانية.

في المدة من سنة ١٨٢٢م إلى سنة ١٩٢١م كان أعلى فيضان ١٢ قيراطًا و٢٢ ذراعًا في سنة ١٨٧٤م في مدة سلطنة السُّلطان عبد الحميد وولاية ساكن الجنان إسماعيل باشا.

في المدة من سنة ١٩٢٢م إلى سنة ١٩٣٤م كان أعلى فيضان ٤ قراريط و٢٤ ذراعًا في سنة ١٩٣٤ في عهد جلالة الملك فؤاد الأول. ا.هـ.

(٦) بعض معلومات القبط عن منابع النيل

قال الأستاذ توفيق إسكاروس ما يلي:

المفهوم أنَّ الرحَّالة الإنكليزي جنس بروس أف كنارد Janos Bruce of Kinnaird وصل إلى مصر سنة ١٧٦٨ قاصدًا الشخوص إلى بلاد الحبشة، وكان ذلك في أيام نفوذ علي بك بلوط، فألقى رجال الجمرك بالإسكندرية القبض على أمتعته، فاستصدر المعلم رزق مدير الجمارك آنئذ أمرًا من علي بك بالإفراج عنها بغير دفع رسوم جمركية، ثمَّ جهزه بكتاب من البطريرك لملك ملوك الحبشة بالتَّوصية عليه في مأموريته العلمية، وكان موجودًا مدة إقامته في القاهرة في بابليون بمصر القديمة.

وحدث في سنة ٤٢٧هـ سنة ١٠٣٦م حينما توفي الخليفة الظاهر وتولى ابنه المستنصر بالله مكانه لم يرتفع النِّيل سنين متوالية، فتعطَّل الزرع وقلَّت المحصولات، وكثُر الغلاء حتَّى بلغ ثمن الإردب الواحد من القمح مبلغًا عظيمًا؛ وإذ علم المستنصر بأنَّ مصدر زيادة النِّيل من بلاد الحبش دعا إليه البطريرك وهو إذ ذاك الأب ميخائيل الملقَّب بالجبس، وبعثه إليه بهدية سنية برسم النجاشي، ولدى وصوله قابله باحتفال عظيم وسأله عن قدومه فأعلمه بما حلَّ بمصر وأهلها من الضَّنك والجوع بسبب نقص زيادة النِّيل، وأنَّه أتى ليستعين به على إيجاد طريقة لمنع هذه الغوائل عن البلاد وأهلها، وقدَّم له

> هدية المستنصر، فأمر الملك بفتح سد في إحدى الجهات التابعة لبلاد الحبش؛ فجرت المياه منه إلى أرض مصر، وزاد النِّيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع، واستمرَّت الزيادة حتَّى رويت البلاد وزُرعت الأراضي فارتفع الغلاء، وفي أثناء وجوده بتلك الصِّقاع بذل جهده في تمكين عرى العلاقات بين المستنصر وملك الأحباش، فكانت هذه خدمة أخرى قام بتأديتها للخليفة غير الخدمة التي أرسله من أجلها؛ فنال بذلك رضاءه وأحسن إليه وبالغ في إكرامه. ا.هـ.

(٧) عيد النيروز

قال الأديب سامي تادرس بشاي ما يلي:

> تحتفل الطائفة القبطية الكريمة بالنيروز، وهو رأس السنة المصريَّة القديمة وسنة الشهداء التي اتَّخذها المصريون مبدأً لتاريخهم من سنة ٢٨٤ ميلادية، وهي سنة الضحايا الكبرى التي جاهد فيها الأقباط بثبات عجيب أدهش الإمبراطور دقلديانوس الذي أعمل السيف والنار، واستخدم كلّ وسائل التعذيب في الأقباط ليحملهم على ترك المسيحية والعودة إلى الوثنية، فأبوا إجابته إلى ما طلب.
>
> وإذا أقبل النيروز اليوم فإنَّه يأتي مملوءًا بالذكريات التي تثير الأشجان، غير أنَّها ذكريات تعتزُّ بها الكنيسة القبطية. وإذا كان الشَّرق بلد الشهداء فتكون الديار المصريَّة البلاد التي استُشهد فيها أكبر عدد من الشهداء، حتَّى لقد قالت السيدة «بوتشر» الإنكليزيَّة — مؤلَّفة كتاب تاريخ الأمة القبطية وكنيستها: «إنَّ وجود قبطي أرثوذكسي إلى الآن يعدُّ من عجائب الدنيا السبع.»

ولا شكَّ في أنَّ الأقباط الذين يعرفون لشهدائهم قيمتهم وقدرهم لا يتركون يوم النيروز يمر دون أن يتجاذبوا أطراف الحديث في سيرتهم الطاهرة، فيذكرون أولئك الشهداء الذين تشبثوا بعقيدتهم وصبروا على كلّ ما أصابهم من أجلها؛ لأنَّهم كرهوا أن يدينوا بدين الرومان الباطل، وأنفوا أن يُذعنوا لهم في عالم الجسد وعالم الروح وصمدوا لهم حتَّى أصبح دينهم دينًا لروما عاصمة الدولة الرومانية، وسلطوا أيدي الرومان على معابد الرومان يهدمونها بأيديهم كما هدموا من قبل معابد المصريين

المغلوبين، ويذكرون أيضًا أن دماء أولئك الشهداء التي سُفكت حبًّا بالسيد المسيح هي بدار الكنيسة.

انتشرت الديانة المسيحية انتشارًا عظيمًا تبعًا لتعاليمها السامية ليس فقط في أملاك الدولة الرومانية ومستعمراتها، بل في روما نفسها عاصمة الدولة ومقر الإمبراطُوريَّة، وذلك لأسباب كثيرة أهمها:

أولًا: ضعف الدين الروماني الوثني الذي كان فيه طقوس وتقاليد منافية للعقل، وكان الغرض من تلك الطقوس والتَّقاليد اتقاء شرِّ الآلهة واستجداء خيرها.

ثانيًا: ضعف تأثير التَّعاليم الفلسفية التي قام بنشرها فلاسفة الرومان، ولكنَّها لم تنفُذ إلى قلوب العامَّة، ولم تبلغ منها ما يمكن أن يبلغه دين كالدِّين المسيحي يُعلِّم الوحدانية وحبَّ الله والناس، ويُقدِّر المساواة بين الخلق جميعًا. غير أن انتشار المسيحية لم يرُق حكومة الدولة الرومانية ولم ترضَ عن ذلك معتقدةً بأنَّ الدين الجديد ينقض الأُسس التي قام عليها المجتمع الروماني، وأن مبادئ هذه الديانة تهدِّد مبادئ كيان الإمبراطُوريَّة وتحضُّ على الفوضى؛ فعمدت إلى اضطهاد منتحليها، فضلًا عن أنَّها وجدت أنَّ المسيحيين لم يتظاهروا بالإغراق في الولاء لها، ولم يشتركوا في الحفلات الوثنية، ولم يقدموا القرابين للأباطرة إظهارًا لخضوعهم ودلالة على ولائهم، ورفضوا أن يعبدوا تماثيل الأباطرة المنصوبة في المعابد؛ إذ كانت هذه العبادة فرضًا على الجميع؛ فعدَّت الحكومة هذا الرفض خيانةً وعصيانًا، وحملها ذلك على اضطهاد المسيحيين وعدِّهم فئةً خارجةً على الجماعة.

وكانت المسيحية قد دخلت الدِّيار المصريَّة في القرن الأول للميلاد على يد مرقس الرسول — مؤسِّس الكنيسة القبطية أو الكرازة المرقصية — الذي استشهد في الإسكندرية، فوجدت في مصر أرضًا خصبة؛ إذ كانت أول أرض قوي شأنها فيها ودخل فيها أُناس كثيرون، وكان عدد أتباعها يزداد كلّ يوم، كما كان اعتقادهم فيها يقوى شيئًا فشيئًا؛ إذ فقدت العبادات الوثنية القديمة سلطانها على عقولهم، خصوصًا أنَّهم وجدوا في الدين الجديد عقيدة الحياة الأخرى — وهي من أعظم عقائد المصريين منذ عهد الفراعنة. كما أنهم كانوا شعبًا مستعبَدًا له في تعاليم المسيحية سلوى.

وفي سنة ٢٧٤ ميلادية تولَّى الإمبراطور دقلديانوس فَسَادَت السكينة في مصر وغيرها من أملاك الدولة الرومانية، غير أنَّها لم تستمر طويلًا، بل انقلبت إلى اضطرابات

شديدة بسبب اضطهاده للمسيحيين؛ فقد كان وثنيًّا كارهًا للمسيحية، ورغب أن تضعه الرعية موضع الألوهية؛ ليضمن بذلك حياته وملكه فلم يخضع لإرادته المسيحيون خصوصًا في مصر.

وحدث أنَّ والي دقلديانوس في مصر خرج عن طاعته، فسار إليه دقلديانوس وحاصر الإسكندرية ثمانية أشهر ثمَّ فتحها عنوةً، وأطلق الجنود فيها يقتلون وينهبون، وأحرقوا منها قسمًا كبيرًا. وحدث أيضًا أنَّ قصر دقلديانوس بمدينة نيقوميديا اشتعلت فيه النار سنة ١٣٠٣، فاتهمت الحكومة المسيحيين بحرقه، فثار دقلديانوس وأخذ يتوعَّد المسيحيين ويُنذرهم بالويلات التي سيلحقها بهم، خصوصًا لمَّا رأى المستعمرات الرومانية تسعى لتنال استقلالها، ولا سيَّما بعد تديُّنِها بالدين المسيحي، وأفهمه رجاله أنَّ السبب في هذه الاضطرابات في أملاك الإمبراطُوريَّة وعدم خضوع الشعوب له إنَّما منشؤه الديانة المسيحية التي تدين لإله قدير وتُطيعه وتقول إنَّه أعلى من الإمبراطور الروماني وأرفع، وتُنكر أن هذا الإمبراطور نائبه.

وممَّا جعله يزداد حقدًا على المسيحية والمسيحيين أنَّ المنجِّمين والعرَّافين الذين دعاهم مرارًا لينبئوه بما يكون في مستقبله قالوا إنَّه يعسر عليهم إغراء الأرواح على مجاوبتهم وإظهار ما يخبئه القدر ما دام قصر الإمبراطور مفعمًا بجماعة المسيحيين الكفرة الذين يمنع وجودهم في القصر تجلِّي الأرواح وظهورها.

فعزم حينئذ دقلديانوس على محاربة المسيحية في جميع أنحاء مملكته وعلى محوها من وجه البسيطة والقضاء عليها قضاءً مبرمًا لا تقوم لها قائمةً بعده. ولكنَّه بدأ بمقاومتها أولًا في مصر؛ لأنَّه لقي من المصريين مقاومة شديدة فقد أبوا أن يخضعوا للظلم والاستبداد، فكثُرت الفتن الداخلية والثورات على الرومان، فكانت مصر مصدر مشكلات جمَّة للدولة الرومانية.

وبدأ الاضطهاد في فبراير سنة ٣٠٣ فسار الوالي بموكب حافل إلى كنيسة نيقوميديا الكبرى يصحبه جمٌّ غفيرٌ من الموظَّفين وحاملي الفؤوس، فكسروا الأبواب، وأحرقوا جميع كتب الكنيسة، ثمَّ أخذ العمال في هدم الكنيسة حتَّى دكُّوا معالمها. وفي غد ذلك اليوم صدر منشور إمبراطوري بمحو الدين المسيحي، وهذا نصه:

(١) يجب هدم جميع الكنائس وإزالتها من الوجود.
(٢) يجب إحراق كلِّ الكتب المقدسة.

(٣) جميع المسيحيين الموظفين في خدمة الحكومة لا يُكتَفَى بفصلهم، بل يحرمون من حقوقهم الوطنية أيضًا لكي يتسنَّى لأعدائهم أن يذيقوهم أنواع العذابات وأشكال القسوة.

(٤) كلّ المسيحيين غير الموظفين يصيرون عبيدًا أرقَّاء.

وحينما عُلِّق المنشور في الأسواق والأماكن العموميَّة وازدحم الناس لقراءته، اقتحم شاب مسيحي جريء القلب شديد المنكب، الجمهور المزدحم، وتقدم ليقرأ المنشور، فلمَّا علم بما فيه غضب من تدخُّل الرومان في أمور الديانة، ومدَّ يده بسرعة عظيمة وتناول منشور العاهل الروماني ومزَّقه تمزيقًا ونثره في الهواء، وفعل ذلك بغاية الشجاعة والحزم؛ فألقوا القبض عليه وأذاقوه من العذاب ألوانًا شتَّى، ثمَّ جرَّدوه من ثيابه ووضعوه في نار خفيفة ليطول عذابه إلى أن تُوُفي. فكان أولَ مَن وقف في وجه دقلديانوس واستُشِهد وضحَّى بنفسه في مصر في عهده. وعُرِف ذلك الشاب فيما بعد باسم الشهيد ماري جرجس.

ثم أخذ ذلك الطاغية ورجاله القُساة يُعذِّبون كلَّ من يُعلن أنَّه مسيحي، وراح كثير منهم شهداء حتَّى قدَّر بعضهم الذين استشهدوا في عشر سنوات من إصدار هذا المنشور في مصر بنحو مائتي ألف شخص.

وإنَّه يعسر على الكاتب البليغ أن يصف مقدار ما تجرَّعه الشهداء من ضروب العذاب، فكانوا يُلبسونهم جلود الحيوانات ويُسلمونهم إلى الكلاب الكَلِبة الجائعة والحيوانات المفترسة في ملاعبهم، فيرى النَّاظر في أقل من لمح البصر أجسامًا وقد قُطِّعت إربًا إربًا. أو يخدشون أجسامهم ويسلخون جلودهم حتَّى يموتوا. أو يدهنونهم بالصمغ وما شاكله من المواد الملتهبة ثمَّ يربطونهم بالأشجار أو بأعمدةٍ من الخشب ليكونوا عبرةً للشاهدين وعرضةً لسخط الناظرين وإهانتهم، ثمَّ يجعلون عند دخول الليل من أجسام أولئك الشهداء مشاعل حية يطوفون بها في الشوارع، وكانوا يستعملون نور ذلك الحريق كمشاعل لإضاءة موائد الإمبراطور وحاشيته يأكلون عليها ما طابت له نفوسهم، أو يستعملونه كمصابيح بشرية لإضاءة الحدائق والبساتين المخصصة لتنزه العامَّة، أو يعلقونهم بالمسامير على خشبة الصليب، أو يذبحونهم ذبح الأنعام في الطرقات. واستخدموا طريقة فظيعة لتعذيبهم وقتلهم؛ فقد كانوا يقرِّبون غصنين قويين من شجرتين متجاورتين فيربطون بهما الشهيد ربطًا محكمًا، ثمَّ يفكُّون الغصنين فيفترقان. وحينئذٍ تتفرق أضلاع الشهيد وأشلاؤه في قسوة شنيعة. أمَّا النساء فكانت

تربط إحداهن في رجليها وترفع في الهواء بعد أن يخلعوا عنها ملابسها ويكشفوا كلَّ جسمها، وتظهر أمام جمهور المتفرجين بمظهر تنفر منه الإنسانية وتأباه النفوس الأبيَّة. وحينما كان الجلادون والقائمون بأمر القتل والتعذيب يتعبون كانوا يلقون الشهداء في أتون من نار حامية.

وممَّا هو جدير بالذكر أنَّ استشهاد أولئك الأبرار البسلاء لم يكن استشهاد المُرغَم. بل كان بمحض اختيارهم وإرادتهم ومحبتهم لكنيستهم وخالقهم. فلذلك كانوا يلاقون الموت بثَغْر باسم مستشهدين في سبيل دينهم ما دام مؤسِّس دينهم قد مات شهيدًا على الصليب في سبيل تعاليمه، عالمين أنَّه بضيقات كثيرة، ينبغي أن يدخلوا ملكوت السموات. ولَمَّا كان يصدر عليهم الحكم النهائي بالموت كانوا يقابلون هذا الحكم بفرح وتهليل، ويرتلون أغاني الحمد والشكر لله الذي أهَّلهم لأن يموتوا لأجله.

وممَّا يدعو إلى الدهش حقًّا أنَّ بعض المسيحيين والوثنيين كانوا يدفعون أنفسهم للاستشهاد في وسط تلك المجازر التي قام بها دقلديانوس وغيره من أباطرة الرومان في سبيل الدين المسيحي، فكان لا يحكم على شخص منهم بالإعدام حتَّى يندفع آخرون من كلِّ مكان ويعترفون بأنَّهم مسيحيون معتقدون بأنَّ كلَّ وسائل التعذيب والموت في سبيل دينهم أمور هيِّنة بجانب الإكليل الذي سيوضع على هاماتهم بجانب ملكوت الله الذي يرثونه بعد مماتهم.

وقد استشهد في أثناء تلك المجازر في ذلك العصر عدد كبير من كبار الأقباط وقديسيهم وقديساتهم، نذكر منها «مينا» المعروف باسم ماري مينا، والقديسة كاترينة التي تعلقت بالمسيحية فأغضبت أهلها الوثنيين، وانتهى الأمر بإعدامها. ومن بين الذين ألحَّ عليهم الإمبراطور — في الارتداد — القديسة دميانة المشهورة، فقد كانت هذه القديسة من ضحايا ذلك العصر المشؤوم، وكان أبوها مديرًا مصريًّا في إحدى مديريات القطر المصري مُحترمًا في قومه ذا مكانة عند الإمبراطور، وبنى لابنته دميانة ديرًا على بُعد ساعتين عن بلقاس اعتزلت فيه للعبادة، ولَمَّا أصدر دقلديانوس منشوره كان في الدير أربعون راهبة، فطلب الإمبراطور من أبيها أن يجاهر بالوثنية فأرسلت دميانة إلى أبيها تستعطفه بأن يرفض رفضًا باتًّا ما طُلب منه، فعمل بمشورة ابنته؛ فاستعمل الإمبراطور معه نفوذه الشَّخصي ليُقنعه بأن يذبح للأوثان؛ لأنَّه لم يكن يودُّ هلاك

خادم أمين مثله في بلاد عمَّها الاضطراب والقلاقل وكثر فيها أعداء الإمبراطور. غير أن والد دميانة أصرَّ على رأيه فاستشاط غضبًا منه ومن ابنته، فألقى القبض على دميانة وراهباتها الأربعين، وأمرهنَّ أن يسجدن للأوثان فامتنعن؛ فأخذ يعذبهنَّ تعذيبًا قاسيًا. ولكنهن لم يعدلن عن رأيهنَّ فأمر بقطع رؤوسهن وما زال ديرهن قائمًا حتَّى اليوم.

وقد كانت مذابح دقلديانوس لمسيحيي مصر أعظم المذابح وأفظعها، فتركت أثرًا كبيرًا في نفوس المصريين، حتَّى إنَّهم سموا عصره بعصر الشهداء.

ولم تصنع أمة في الأرض مثل ما صنع المصريون لأولئك الشهداء الذين ذهبوا في سبيل عقيدتهم. فهي قد جعلت ذكرى شهدائها تاريخًا لها تحسب عليه كلَّ يوم من أيامها وكل عام من أعوامها. فقولنا: سنة ١٦٥١ قبطية معناه: مرور هذه السنين على تلك الأيام المشؤومة، وتذكار تمسك الشهداء بالمسيحية.

ولا ريب في أن اضطهاد دقلديانوس للأقباط وغيرهم من المسيحيين كان من أكبر الأسباب لانتشار الديانة المسيحية ونموها؛ لأنَّ قساوة أولئك الظالمين أفناها الدهر. وأمَّا دماء الشهداء فقد صارت زرعًا لمسيحيين آخرين. أي إن الاضطهاد لم يأتِ بالغرض المقصود منه؛ لأنَّ المسيحيين ازدادوا تمسكًا بدينهم، وأخذ الناس يعجبون بشجاعتهم وصبرهم وتحملهم للأذى؛ فدخلوا في دينهم أفواجًا حتَّى زاد عدد المسيحيين على عدد الوثنيين.

ولمَّا أتى قسطنطين الأكبر في سنة ٣١٣م رأى أن يعترف بالديانة المسيحية جهارًا، فجعلها دين الحكومة والأمة؛ لأنَّها دين الكثرة، وانتحلها، وعطَّل الأشغال في أيام الآحاد، وهدم الهياكل الوثنية، وبنى الكنائس، وكان المسيحيون حتَّى ذلك العهد يُقيمون الصلاة في الكهوف والدياميس. وفي سنة ٣٧٨ تولى الإمبراطُوريَّة الرومانية «تيودوسيوس» فعمَّم الدين المسيحي في أنحاء الإمبراطُوريَّة الرومانية، بأن حتَّم التَّمذهب به، ونهى عن الوثنية فحرم عبادة الأوثان وأغلق معابدها، وأخذت الحكومة تضطهد الوثنيين، وعلى ذلك أُنشئت كنائس كثيرة أشهرها كنائس روما والإسكندرية وأورشليم وأنطاكية والقسطنطينية، وكثُر بناء الأديرة والصوامع؛ فتوطدت دعائم المسيحية وأصبحت عنصرًا من عناصر الحضارة الأوربيَّة الحديثة. ا.هـ.

(٨) بعض معلومات العرب عن منابع النيل

قال المغفور له أحمد زكي باشا ما يأتي:

> البحيرتان المعروفتان الآن باسم فيكتوريا نيانزا وألبرت نيانزا قد كان لجغرافيي العرب فضل السبق بمعرفتهما وبوصفهما. وهذا ابن فضل الله العمري آخر من كتب عنهما، فقد ألمح إليهما في سنة ٧٤٥هـ (١٢٣٦م) في كتابه الممتع الحافل الموسوم بـ (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، وذكر عنهما ما أيده بعده بخمسة قرون ونصف قرن روَّاد الإفرنج الذين وصلوا إليهما بفضل مصر وبمال مصر ورجال مصر. وهذا كلامه عنهما بالحرف الواحد: «إنَّ النِّيل ينصب عشرة أنهار من جبل القمر المتقدم الذكر. كلّ خمسة أنهار شعبة. ثمَّ تتبحَّر تلك العشرة الأنهار كلُّ خمسة أنهار تتبحر بحيرة بذاتها. ثمَّ يخرج من البحيرة الشرقية منها بحر لطيف يأخذ شرقًا على جبل قاقولي ويمتد إلى مدن هناك ثمَّ يصب في البحر الهندي. ثمَّ يخرج من تينك البحيرتين ستة أنهار من كلِّ بحيرة ثلاثة أنهار. ثمَّ تجتمع تلك الستة الأنهار في بحيرة متشعِّبة.» ثمَّ أفادنا أنَّ هذه البحيرة تُسمَّى عند بعضهم «البطيحة» وأنَّ فيها تضريسة جبل يفرق بها الماء نصفين.
>
> هذا وقد عرفنا نقلًا عمَّا حدَّثه به أقضى القضاة شرف الدين أبو الروح عيسى الزواوي أنَّ الأمير أبا دبوس بن أبي العلى أبي دبوس «ووالده آخر سلاطين بر السعدوة من بني عبد المؤمن» حدَّثه أنَّه وصل إلى هذه البطيحة في أيام هربه من بني عبد الحق ملوك بني مرين القائمين الآن «أي في عهد المؤلف سنة ٧٤٥هـ.
>
> وروى لنا أيضًا أنَّ الشيخ الثبت سعيد الدكالي — وهو ممَّن أقام بمالي خمسًا وثلاثين سنة مضطربًا في بلادها مجتمعًا بأهلها) حدَّثه بما نصه:
>
>> والمستفيض بلاد السُّودان أنَّ النِّيل في أصله ينحدر من جبال سودتبان على بُعد كأنَّ عليها الغمام. ثمَّ يتفرق نهرين يصب أحدهما في البحر المحيط إلى جهة بحر الظلمة الجنوبي «يشير إلى نهر النيجر المعروف عند العرب بنيل السُّودان، والآخر يصل إلى مصر حتَّى يصبَّ في البحر الشامي.

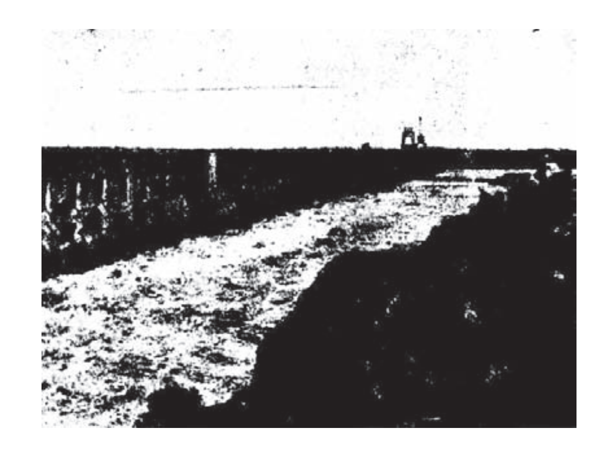

النِّيل عند خزَّان سنار.

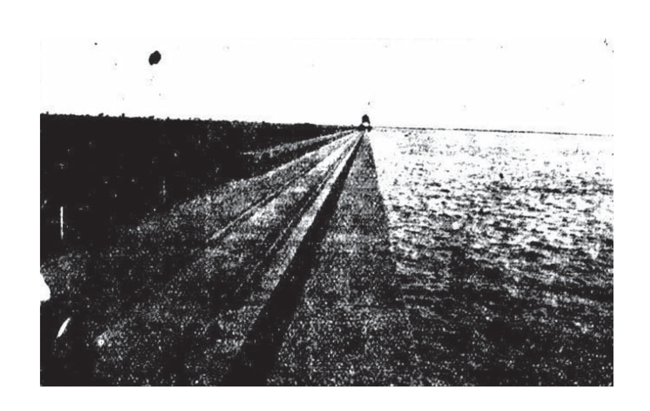

خزَّان سنار «مكوار».

وروى ابن فضل الله العمري عن ذلك الشيخ قوله أيضًا:

> ولقد توغَّلت في أسفاري في الجنوب مع النِّيل فرأيته متفرقًا على سبعة أنهر تدخل في صحراء منقطعة، ثمَّ تجتمع تلك الأنهر السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرًا واحدًا مجتمعًا. كلا الرؤيتين في بلاد السُّودان. ولم أره لمَّا اجتمع بالصحراء؛ لأنَّنا لم ندخلها إذ لم يكن بنا حاجة إلى الدخول إليها.

هذا وقد كان للملك الصالح نجم الدين الأيوبي ولع بمعرفة منابع النِّيل، فلمَّا وصل إليه ما حاوله السلف دون أن يظفروا بفائدة أراد أن يذلل العقبات التي تحول دون تلك الغاية، فاشترى عبيدًا صغارًا من الزنوج ومن شاكلهم واختارهم من الحلب الذين لم يستعربوا، ثمَّ سلَّمهم لصيادي السمك والبحارة ليعلموهم صنعة البحر وصيد السَّمك، ورسم بأن يكون قوتهم من السَّمك لا غير، وقرَّر أنَّهم متى مهروا في ذلك تُصنع لهم مراكب ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل. ذكر ذلك صاحب مطالع البدور ومنازل السرور المطبوع في القاهرة «صحيفة ٧٤ و٧٥ من الجزء الثَّاني».

والظاهر أنَّ هذا المشروع لم يتمّ نظرًا للاضطرابات التي وقعت في مصر في ذلك الوقت أولًا بسبب هجوم الصليبيين تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس، والذي يُسميه مؤرخو مصر (ريدافرنس Reade France)، وثانيًا لسبب انقراض الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك. وهذا المشروع قد تمَّ بفضل إسماعيل خديوي مصر الكبير في هذا العهد الجديد.

أردت أن أنشر هذه الصفحة المطوية من مآثر الدول الإسلامية في مصر، حتَّى لا يقول قائل بأنَّ الأجداد لم يعرفوا شيئًا عن النِّيل أو أنَّهم لم يعنوا بمصدر الحياة في مصر. وفوق كلِّ ذي عِلمٍ عليم. ا.هـ.

أحمد زكي باشا

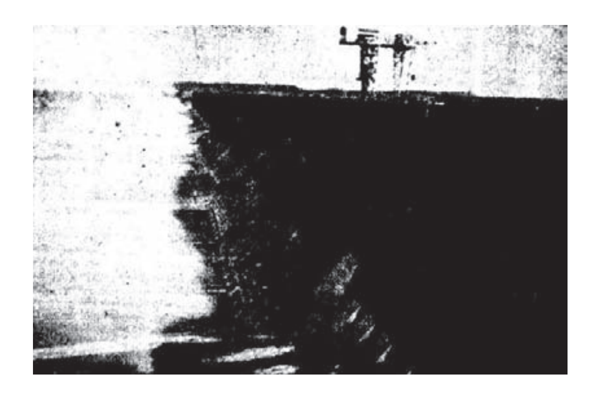

خزَّان أسوان.

(٩) الفيضانات العالية والمتوسطة والواطئة

يقول المهندس كامل بخاتي بك:

> إذا جارينا الدورة الشمسية لمدة الثلاث والثلاثين سنة من سنة ١٨٦٩ قلنا إنَّ الفيضانات العالية انتهت سنة ١٩٠١ أو ما يقاربها، أي سنة ١٨٩٨، وخلفتها الفيضانات، الواطئة وهي تنتهي في سنة ١٩٣٣، وعلى ذلك تكون سنة ١٩٣٤ هي مبدأ الفيضانات العالية المتتالية التي تعلو مناسيبها ٩٣ مترًا بأسوان.
>
> والآن نورد حدود الفيضانات الواطئة والمتوسطة والعالية والخطرة.
>
> فأوطأ فيضان عُرف في مصر هو في سنة ١٩١٣، وكان مقاسه في أسوان ٩٠,١١، وتصرفه ٤١٩ مليون متر مكعب في اليوم.
>
> أمَّا أعلى فيضان فكان في سنة ١٨٧٨، وكان مقاسه ٩٤,١٥، وتصرفه ١٢٨٠ مليون متر مكعب في اليوم.
>
> فالفيضان المتوسط هو ٤١٩ + ١٢٨٠ = ١٦٩٩ مقسومًا على اثنين، أي ٨٤٩ مليونًا، وهو يطابق منسوب ٩٢,٦٦ خلف أسوان، وهذا ما يُعبَّر عنه بالفيضان المتوسط، فإن زاد عن ذلك دخل في دور الفيضانات العالية، حتَّى إذا وصل تصرفه من ١٠٦٤ مليون متر مكعب في اليوم إلى ٩٣,٤٨ خلف

أسوان يدخل في حالة الخطر، وقد وصل في سنة ١٩٣٤ إلى٩٣,٣٧، فكان قريبًا جدًّا من الخطورة في أوطأ درجاتها.

نهر النِّيل عند الشلال الثَّاني.

وبناءً على هذا التَّعريف الجديد نذكر السنين التي مرَّت من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٩٣٣. وكانت فيضاناتها متوسطة، أي للحدِّ المفروض وهو ٩٢,٦٦، والفيضانات الواطئة المعروفة الدورة الزمانية.

السنة	مقياس أسوان	
١٨٧٣	٩٢,٦٦	حد المتوسط
١٨٧٧	٩١,٤٠	
١٨٧٨	٩٢,٠٨	
١٧٩٩	٩١,٦٨	
١٩٠٢	٩١,٧٢	الحد الفاصل بين الفيضانات العالية والواطئة
١٩٠٤	٩١,٩٧	
١٩٠٥	٩١,٩٠	
١٩٠٧	٩١,٤٨	

السنة	مقياس أسوان	
١٩١١	٩٢,٦٨	حد المتوسط
١٩١٢	٩٢,٠٥	
١٩١٣	٩٠,١١	أوطأ المتوسط
١٩١٥	٩١,١٨	
١٩١٨	٩١,٩٩	
١٩١٩	٩٢,٢٢	
١٩٢٠	٩٢,٢٩	
١٩٢٣	٩٢,٤٦	
١٩٢٤	٩٢,٦٢	حد المتوسط
١٩٢٥	٩١,٧٤	
١٩٢٦	٩٢,٣٨	
١٩٢٨	٩٢,٠٨	
١٩٢٨	٩٢,٢٩	
١٩٣٠	٩٢,٤٨	
١٩٣١	٩٢,٦٢	حد المتوسط
١٩٣٢	٩٢,٧٠	حد المتوسط
١٩٣٣	٩٢,٥٩	حد المتوسط

فببحث هذا الجدول يُرى:

أولًا: أنَّ الفيضانات التي مرَّت على القُطر المصري من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٩٠١ كانت كلها عالية ما عدا فيضانًا واحدًا متوسطًا في سنة ١٨٧٣ وثلاثة فيضانات واطئة.

ثانيًا: أنَّه من سنة ١٩٠٢ إلى سنة ١٩٣٣ مرَّ اثنان وعشرون فيضانًا، منها ستة في حد المتوسط وستة عشر واطئة وأحد عشر عالية، ولكنَّها كانت في علوها دون الدورة الأولى.

وعلى هذا فالدورة الأولى جاء الفيضان عاليًا فيها ٢٩ مرة من ٣٣، وفي الدورة الثَّانية جاء واطئًا اثنين وعشرين مرة من ٣٣، فحينئذ لا يسعنا الآن إلَّا تصديق الأمر الواقع، وهو أنَّ الدورة الأولى تختلف عن الدورة الثَّانية التي بدأت من سنة ١٩١٢، واستمرت إلى سنة ١٩٣٣ بفيضاناتها العالية كما أنَّ هذه بفيضاناتها المتوسطة والواطئة.

أعني ولو جاءت الأرصاد الآن من الروصيرص تشير إلى هبوط في مقياس النِّيل الأزرق، فإنَّ هذا لا يغير في النَّظرية شيئًا، فإنَّه يعدُّ نيلًا متوسطًا من السنين العالية في الدورة الزمنية الخاصَّة بها. ا.هـ.

أوراق البايبرس «البردي» في بحر الجبل.

هوامش

(١) ترجمة من كتاب تاريخ قدماء المصريين، تأليف جوست ماربيت نك ناظر دار الآثار المطبوع في سنة ١٢٨١هـ (١٨٦٤م) صفحة ٩٧ سطر ٨.

(٢) لعله اللقلق.

(٣) وقد حسب المرحوم محمود الفلكي باشا تزحزح أشعة تلك الشعرى، التي كانت من أجل معبودات المصريين لاعتبارها في نظرهم إله الآلهة من تلك الفتحة، وعلم ألوف السنين عمر فيها الهرم من يوم إنشائه إلى الآن والغرض من إنشائه.

(٤) وإنه لما انتقل إلى دار البقاء مارييت بك أول ناظر لدار الآثار في عهد ساكن الجنان إسماعيل باشا أمر سموه بأن توضع جثته في تابوت يوضع في حوض من أفخم الرخام عند مدخل دار الآثار. ولما نقلت محتوياتها إلى سراي الجيزة نقل معها، ولما نقلت ثانية إلى محلها الحالي جعل في الجهة الغربية من الباب، وهذا اعتراف بجميله في ترتيب أعمال تلك الدار، ولم يعهد أن دور الآثار قبور، وإنما هو اعتراف بعمله الجليل.

(٥) وكان جاريًا استعمال سفن صغيرة لاجتياز كل شلال، ولقد ترتب على تصميم الذين أرادوا اجتياز تلك الشلالات إعدام مزيتها.

الفصل الثاني والعشرون

اتفاق بين مصر وإنكلترا سنة ١٩٢٩

ننشر فيما يلي نص الاتِّفاق الذي عُقد بين الحكومة المصريَّة «ممثلة في وزارة حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا» والحكومة الإنكليزيَّة ممثلة في «اللورد جورج لويد» مندوبها السَّامي البريطاني عن ضبط ماء النِّيل وتوزيعه بين مصر والسُّودان.

(١) مذكرة رئيس الوزارة إلى المندوب السامي

يا صاحب الفخامة:

(١) تأييدًا لمحادثاتنا الأخيرة أتشرَّف بأن أبلغ فخامتكم آراء الحكومة المصريَّة فيما يختص بمسائل الرَّي التي كانت موضع مباحثاتنا.

إنَّ الحكومة المصريَّة توافق على أنَّ البتَّ في هذه المسائل لا يمكن تأجيله حتَّى يتيسَّر للحكومتين عقد اتِّفاق بشأن مركز السُّودان. غير أنَّها مع إقرار التسويات الحاضرة، تحتفظ بحريتها التَّامة فيما يتعلَّق بالمفاوضات التي تسبق عقد مثل ذلك الاتِّفاق.

(٢) من البيِّن أنَّ تعمير السُّودان يحتاج إلى مقدار من مياه النِّيل أعظم من المقدار الذي يستعمله السُّودان الآن.

ولقد كانت الحكومة المصريَّة دائمًا — كما تعلم فخامتكم — شديدة الاهتمام بعمران السُّودان وستواصل هذه الخطة، وهي لذلك مستعدة للاتفاق مع الحكومة البريطانية على زيادة ذلك المقدار بحيث لا تضر تلك الزيادة بحقوق مصر الطبيعية والتاريخية في مياه النِّيل، ولا بما تحتاج إليه مصر

في توسعها الزراعي، وبشرط الاستيثاق بكيفية مُرْضية من المحافظة على المصالح المصريَّة على الوجه المفصَّل بعدُ في هذه المذكرة.

(٣) وبناءً على ما تقدم تقبل الحكومة المصريَّة النتائج التي انتهت إليها لجنة مياه النِّيل في سنة ١٩٢٥ المرفق تقريرها بهذه المذكرة، والذي يُعتبر جزءًا لا ينفصل من هذا الاتِّفاق. على أنَّه نظرًا للتأخير في بناء خزَّان جبل الأولياء الذي يعتبر — بناءً على الفقرة الأربعين من تقرير لجنة مياه النِّيل — مقابلًا لمشروعات ريّ الجزيرة. ترى الحكومة المصريَّة أن تُعدَّل تواريخ ومقادير المياه التي تؤخذ تدريجيًّا من النِّيل للسُّودان في أشهر الفيضان كما هو مبين بالبند ٥٧ من تقرير اللَّجنة بحيث لا يتعدى ما يأخذه السُّودان ١٢٦ مترًا مكعبًا في الثَّانية قبل سنة ١٩٣٦. وأن يكون من المفهوم أنَّ الجدول المذكور في المادة السَّابق ذكرها يبقى بغير تغيير حتَّى يبلغ المأخوذ ١٢٦ مترًا مكعبًا في الثَّانية، وهذه المقادير مبنيَّة على تقرير لجنة مياه النِّيل؛ فهي إذن قابلة للتعديل كما نُصَّ على ذلك في التَّقرير.

(٤) ومن المفهوم أيضًا أنَّ الترتيبات الآتية ستراعى فيما يختص بأعمال الرَّي على النيل:

(١) أنَّ المفتش العام لمصلحة الرَّي المصريَّة في السُّودان أو معاونيه أو أي موظف آخر يعينه وزير الأشغال تكون لهم الحرية الكاملة في التعاون مع المهندس المقيم بخزان سنار لقياس التصرفات والأرصاد كي تتحقق الحكومة المصريَّة من أن توزيع المياه وموازنات الخزَّان جارية طبقًا لما تمَّ الاتِّفاق عليه. وتسري الإجراءات التفصيلية الخاصَّة بالتنفيذ والمتفق عليها بين وزير الأشغال ومستشار حكومة السُّودان، من تاريخ الموافقة على هذه المذكرة.

(٢) ألَّا تُقام بغير اتِّفاق سابق مع الحكومة المصريَّة أعمال ريّ أو توليد، ولا تتخذ إجراءات على النِّيل وفروعه أو على البحيرات التي ينبع منها، سواء في السُّودان أو في البلاد الواقعة تحت الإدارة البريطانية، يكون من شأنها

إنقاص مقدار الماء الذي يصل إلى مصر أو تعديل تاريخ وصوله أو تخفيض منسوبه على وجه يُلحق أي ضرر بمصالح مصر.

(٣) تلقى الحكومة المصريَّة كلّ التسهيلات اللازمة للقيام بدراسة ورصد الأبحاث المائية (هيدرولوجيا) لنهر النِّيل في السُّودان دراسة ورصدًا وافيين.

(٤) إذا قررت الحكومة المصريَّة إقامة أعمال في السُّودان على النِّيل أو فروعه أو اتخاذ أي إجراء لزيادة مياه النِّيل لمصلحة مصر، تتَّفق مقدمًا مع السلطات المحلية على ما يجب اتخاذه من الإجراءات للمحافظة على المصالح المحلية. ويكون إنشاء هذه الأعمال وصيانتها وإدارتها من شأن الحكومة المصريَّة وتحت رقابتها رأسًا.

(٥) تستعمل حكومة جلالة ملك بريطانيا العُظمى وشمال أيرلندة وساطتها لدى حكومات المناطق التي تحت نفوذها لكي تسهل للحكومة المصريَّة عمل المساحات والمقاييس والدراسات والأعمال من قبيل ما هو مبيَّن في الفقرتين السابقتين.

(٦) لا يخلو الحال من أنه في سياق تنفيذ الأمور المبيَّنة بهذا الاتِّفاق قد يقوم من وقت لآخر شك في تفسير مبدأ من المبادئ أو بصدد بعض التفصيلات الفنية أو الإدارية، فستعالج كلّ مسألة من هذه المسائل بروح من حسن النية المتبادل. فإذا نشأ خلاف في الرأي فيما يختص بتفسير أي حكم من الأحكام السَّابقة أو تنفيذه أو مخالفته ولم يتيسر للحكومتين حلُّه فيما بينهما، رُفع الأمر لهيئة تحكيم مستقلة.

(٥) لا يُعتبر هذا الاتِّفاق بأي حال ماسًّا بمراقبة وضبط النَّهر، فإنَّ ذلك يحتفظ به لمناقشات حرة بين الحكومتين عند المفاوضة في مسألة السُّودان.

وإنِّي أنتهز هذه الفرصة لأجدِّد لفخامتكم فائق احترامي.

القاهرة ٧ مايو سنة ١٩٢٩

رئيس مجلس الوزراء: محمد محمود

(٢) رد فخامة المندوب السامي

ياصاحب الدولة

أتشرَّف بأن أخبر دولتكم بأنِّي تسلَّمت المذكرة التي تكرمتم دولتكم بإرسالها إليَّ اليوم.

(١) ومع تأييدي للقواعد التي تمَّ الاتِّفاق عليها كما هي واردة في مذكرة دولتكم، فإنِّي أُعبِّر لدولتكم عن سرور حكومة جلالة الملك من أنَّ المباحثات أدَّت إلى حلٍّ لا بدَّ أنَّه سيزيد في تقدم مصر والسُّودان ورخائهما.

(٢) وإنَّ حكومة جلالة الملك بالمملكة المتحدة لتشاطر دولتكم الرأي في أنَّ مرمى هذا الاتِّفاق وجوهره هو تنظيم الرَّي على أساس تقرير لجنة مياه النِّيل، وأنَّه لا تأثير له على الحالة الراهنة في السُّودان.

(٣) وفي الختام أذكِّر دولتكم أن حكومة جلالة الملك سبق لها الاعتراف بحق مصر الطَّبيعي والتاريخي في مياه النِّيل، وأقرر أنَّ حكومة جلالة الملك تعتبر المحافظة على هذه الحقوق مبدأً أساسيًّا من مبادئ السِّياسة البريطانية، كما أؤكد لدولتكم بطريقة قاطعة أن هذا المبدأ وتفصيلات هذا الاتِّفاق ستنفَّذ في كلّ وقت أيًّا كانت الظروف التي قد تطرأ فيما بعد.

وإنِّي أنتهز هذه الفرصة لأجدِّد لدولتكم فائق احترامي.

القاهرة في ٧ مايو سنة ١٩٢٩

لويد المندوب السامي

(٣) تقرير لجنة مياه النيل

أمَّا تقرير لجنة مياه النِّيل الذي يُعتمد عليه في هذا الاتِّفاق فسببه أنَّه كان مقررًا أن تكون مساحة الأطيان التي تزرع في الجزيرة ٣٠٠ ألف فدان، فلمَّا قتل السردار وَرَد في الإنذار الذي أُرسل إلى الحكومة المصريَّة زيادة المساحة إلى مقدار غير محدود، فأجاب سعد باشا على ذلك أن هذه المسألة سابقة لأوانها، فردَّ اللُّورد اللنبي أنَّه أرسل تعليمات

إلى حكومة السُّودان يُطلق لها فيها الحرية في زيادة المساحة التي تُروى بالجزيرة إلى حدٍّ غير محدود تبعًا لما تقضي به الحاجة. ولمَّا تولى زيور باشا رياسة الوزارة أرسل إلى اللُّورد اللنبي مذكرة قال فيها: «إنَّ الإجراءات المنوَّه عنها بمذكرة ٢٣ نوفمبر أحدثت في البلاد أشد المخاوف، وإنَّ الحكومة المصريَّة كانت في جميع المفاوضات في الماضي متمسكة أشد التَّمسك بحقوقها بمياه النيل.» ولفت نظره إلى إعادة النَّظر في مسألة ريِّ الجزيرة.

فأجابه اللُّورد اللنبي أنَّ حكومة جلالة الملك تحت تأثير هذه الاعتبارات ودليلًا على حسن مقاصدها تأمر حكومته بعدم تنفيذ التَّعليمات السَّابقة، وأن تشكل لجنة من الاختصاصيين تكون مأموريتها درس المسألة ووضع القواعد التي يمكن بمقتضاها تنظيم حالة الرَّي بطريقة تراعَى فيها مصالح مصر حق المراعاة وبدون اعتداء على حقوقها الطبيعية والتاريخية.

وهكذا تألفت اللَّجنة من المستر كنتر كريموز والمستر ماكجريجور وعبد الحميد سليمان باشا.

(٣-١) تأليف اللجنة

في ١٧ فبراير بدأت اللَّجنة أعمالها، وزارت قناطر الدلتا وأقلام مصلحة الطبيعيات، ثمَّ زارت سد رشيد، وانتقلت بعد ذلك إلى الصعود في النِّيل، فكانت لها رحلة بحث تناول فيما تناول سد سنار وترع الجزيرة، والمكان الذي سيُقام فيه سد جبل الأولياء وخزَّان أسوان وقناطر إسنا، والمكان الذي اختير لإقامة قناطر نجع حمادي والحياض المجاورة لسوهاج.

وفي خلال رحلاتها، وأثناء انعقاد جلساتها بالقاهرة، كانت تفحص الكثير من أرصاد مصلحة الطبيعيات ومصلحة الرَّي، وتقابل عدة من كبار الموظفين في مصر وفي السُّودان، فتتبيَّن آراءهم في الأمور ذات الصلة بمهمتها حتَّى إذا رجع أعضاؤها إلى القاهرة — وكان ذلك في آخر مارس — عكفوا على الإحصائيات يفحصون منها ما أُعدَّ لهم، ويطلبون غيره من المعلومات التي رأوا وهم يبحثون أن لا مناص من الوقوف عليها.

في هذه الفترة الدقيقة أخذت صحة رئيس اللَّجنة تبعث القلق في النفوس، ووجد جنابه عناءً شديدًا في مباشرة عمله، ثمَّ اشتدت عليه الوطأة فتوفي في ٢١ مايو.

استدعى مرض الرئيس وموته وقف أعمال اللَّجنة وهي على وشك الفراغ من مهمتها، فعوَّلت الحكومتان على تكليف المندوبين عنهما أن يستأنفا البحث الذي عطلته يد القدر زمنًا، وأن يُقدِّمَا التَّقرير النهائي.

(٣-٢) تقرير اللجنة

بدأت اللَّجنة تقريرها بنظرة تاريخية عن ريّ السُّودان فقالت:

لَمَّا استقرت أمور السُّودان بعد فتحه في سنتي ١٨٩٦–١٨٩٨ احتاج إلى طلمبات لري مساحات يسيرة فيه فرُخِّص له بإقامة هذه الطلمبات بعد موافقة الحكومة المصريَّة، ثمَّ زادت على توالي الأيام مساحة الأراضي التي خولت هذا الحق. ومن الطلمبات ما رُكِّب لتجربة زراعة القطن، ومنها ما جُعل لزراعة الحبوب.

وليس من المساحات الواسعة في السُّودان ما هو قابل للرَّي الصناعي سوى الجزيرة، وهي منطقة مثلثة بين النِّيل الأزرق والنيل الأبيض، رأسها عند الخرطوم، وتمتد جنوبًا إلى سكة الحديد من سنار إلى كوستي. أمَّا ما عدا هذه المنطقة من أراضي السُّودان فهو ممَّا يُروى بالأمطار وممَّا لا يقبل الري الصناعي. فُكر في إمكان ريّ جزء من هذه الجزيرة منذ سنة ١٩٠٥، وفي سنة ١٩١٣ أعد مشروع لري ١٠٠٠٠٠ فدان منها بواسطة ترعة تستمد ماءها من التَّصرف الطَّبيعي للنيل الأزرق، مع إنشاء قنطرة عند مكوار للوصول إلى المناسيب المطلوبة، وكان الرأي إذ ذاك أنَّ المشروع يمكِّن من زراعة القطن دون الإضرار بمصر. لكن تبيَّن من زيادة الخبرة بأمور الزراعة ومن تقصير النِّيل على خلاف العادة في فيضان سنة ١٩١٣–١٩١٤ بطلان هذا الرأي، وثبت أنَّه لابد في المشروع من خزَّان، وأن الاقتصار على قنطرة موازنة لا يُجدي نفعًا. أمَّا إذا أنشئ الخزَّان فيمكن زيادة المساحة إلى ١٠٠٠٠٠ فدان دون حاجة إلى أخذ مياه النَّهر في دور انخفاضه. وهذه الزيادة في المساحة ضرورية لتغطية الزيادة في نفقات الخزَّان. وقد أُفرغ المشروع في قالبٍ جديد روعيت فيه هذه الاعتبارات، غير أنَّ الحرب حالت دون الاستمرار فيه.

وكانت الحكومة المصريَّة في الوقت نفسه تفكر في سد على النِّيل الأبيض عند جبل الأولياء لغرضين؛ كبح جماح الفيضانات العالية التي يخشى إضرارها بمصر، وتخزين المياه لتنتفع بها مصر في فصل الصيف، وهو مشروع أَخَّرته الحرب أيضًا وإنْ نفِّذ فعلًا شيء منه في سنة ١٩١٧ وما بعدها إلى سنة ١٩٢٠.

ولقد قابلت مصر استئناف العمل في هذين المشروعين بعد الحرب بمناقشات علنية عنيفة وانتقاد مر، وكانت حملاتها في هذا السبيل موجهة على الأخص إلى الطعن في صحة المعلومات التي أسِّست عليها المشروعات، فكانت النتيجة أن أُلجِئَت الحكومة المصريَّة في يناير سنة ١٩٢٠ إلى تكوين لجنة للتحقيق عرفت بلجنة مشروعات النِّيل، وكان أعضاؤها ثلاثة اختارتهم حكومة الهند وجامعة كمبردج والولايات المتحدة، وجعل اختصاص هذه اللَّجنة إمداد الحكومة المصريَّة بالرأي في المشروعات التي وضعتها وزارة الأشغال العمومية تبقى بها زيادة ضبط ماء النيل ضبطًا يعود بالفائدة على مصر والسودان، وطالبت الحكومة اللَّجنة بمعالجة المسائل الآتية على الأخصِّ، وهي:

(أ) فحص المعلومات الطبيعية التي أُسِّست عليها المشروعات وإبداء الرأي فيها.

(ب) صلاحية الطريقة التي بها يُقسَّم بين مصر والسُّودان ما يترتب على هذه المشروعات في أدوار تنفيذها من زيادة في كمية المياه الممكن الانتفاع بها.

(جـ) إبداء الرأي فيما تتحمَّله مصر وما يتحمله السُّودان من نفقات المشروعات ونفقات اللجنة. والمشروعات التي نحن بصددها مبيَّنة في كتاب نشرته الحكومة المصريَّة عنوانه «ضبط النيل»، وهي السدَّان اللذان تقدَّم ذكرهما، وقنطرة في الوجه القبلي، ومشروع الاحتفاظ بمياه النِّيل في منطقة السدود وخزانات البحيرات الكبرى.

نشر تقدير لجنة مشروعات النِّيل في سنة ١٩٢١ فقرر صحة المعلومات التي اتخذت أساسًا للمشروعات وأشار بتنفيذها. غير أن الحكومة المصريَّة قررت في مايو سنة ١٩٢١ أن يقف العمل في سد جبل الأولياء وما يتبعه لِمَا رأت من جسامة النفقات التي قدرت له. أما حكومة السُّودان فأخذت برأي اللَّجنة وقرَّرت المُضي في مشروع ريّ الجزيرة.

ولم تستطع الأغلبية في لجنة مشروعات النِّيل أن تشير بشيء في إشكال تقسيم الماء الذي لا يزال مباحًا، ولم يكن للجنة رأي في هذا الإشكال سوى ما أبداه مستر كوري العضو الأمريكي في اللجنة. على أن آراءه لم يُعمل بها.

ولَمَّا رأت الحكومة البريطانية الحال التي أدَّت إلى تشكيل لجنة مشروعات النِّيل تعهدت في فبراير سنة ١٩٢٠ بألَّا تزيد مساحة المنزرع في الجزيرة على الثلاثمائة ألف فدان إلَّا برأي الحكومة المصرية. وبهذا القيد نفِّذ مشروع ريّ الجزيرة.

(٤) الموقف الحاضر

يتكون القسم المعجل من المشروعات المبيَّنة في كتاب (ضبط النيل) من ثلاثة مشروعات هي:

(أ) سد جبل الأولياء، والغرض منه زيادة الماء الذي تنتفع به مصر.
(ب) سد مكوار أو سد سنار على التسمية الحالية، وتتبعه ترع تروي ٣٠٠٠٠٠ ألف فدان في الجزيرة.
(جـ) قنطرة عند نجع حمادي.

فالمشروعان الأول والثالث لم ينفذ منهما شيء لأسباب هي: الحرب أولًا ثمَّ الصعوبات المالية وغير المالية.

ثانيًا: أمَّا المشروع الثَّاني فتمَّ واستعمل في يولية سنة ١٩٢٥، وزادت نفقاته كثيرًا عمَّا كان مقدَّرًا لها. فحكومة السُّودان وهي المسئولة عن عواقبه المالية راغبة في زيادة المساحة التي يرويها هذا المشروع كي تقلل من خطر التعرض لفشله ماليًّا وتُوجِد لمصادر الثروة في السُّودان مجالًا أوسع.

كان من أهم الاعتبارات في برنامج هذه المشروعات الثلاثة وجوب إنجازها، بحيث تستعمل كلها في آنٍ واحد، لكن الأمر الذي لا مندوحة لهذه اللَّجنة أن تواجهه هو: أنَّ حكومة السُّودان قد فرغت من أعمال الرَّي الصناعي اللازم لثلاثمائة ألف فدان في الجزيرة، وتريد أن تخطو بعد ذلك خطوة أخرى. على حين أن مصر لم تُوفَّق بعد إلى تنفيذ نصيبها من برنامج المشروعات الأول، غير أن الحكومة المصريَّة قد قطعت في الفترة التي انقضت منذ عطلت أعمال اللَّجنة شوطًا لا بأس به في سبيل تنفيذ مشروعاتها؛ إذ أقرت سد جبل الأولياء وإنشاء قناطر نجع حمادي، وخطت خطوة في سبيل تنفيذ مشروع السدود.

أمَّا فيما يتعلَّق بالثلاثمائة ألف فدان فقد تغيرت الحالة بالمكاتبات التي دارت بين الحكومة المصريَّة والحكومة البريطانية في سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٢٥. ومن هذه المكاتبات المذكرتان الأخيرتان اللتان أعقبهما تكوُّن هذه اللَّجنة، وتجدهما في الذيل من هذا التَّقرير.

بهاتين المذكرتين فُكَّت القيود التي وضعت في سنة ١٩٢٠ لتحديد الثلاثمائة ألف فدان على أن يُبحث من جديد عن طريقة لتسوية مسألة التَّوسع في ريٍّ أراضي الجزيرة.

(٥) اختصاص اللجنة

كانت مهمة لجنة مشروعات النِّيل في سنة ١٩٢٠ فحص مشروعات معينة وإبداء الرأي فيها، ومن هذه المشروعات ما كان العمل جاريًا فيه، ومنها ما كان موضع النَّظر في وزارة الأشغال العمومية. أمَّا اللَّجنة الحالية فلم تبلغ مهمتها هذا المبلغ من التَّخصص؛ إذ لم يُطلب منها سوى أن تقترح أسلوبًا للرَّي تراعي فيه كلَّ المراعاة حقوق مصر ومصلحة مصر. فهي على هذا قد أُطلقت من كلِّ قيد في اختيار ميدان عملها وتحديد وجهة أبحاثها ومدى هذه الأبحاث والمنهج الذي تسلكه في وضع قراراتها.

إن المعلومات المجتمعة في كتاب ضبط النِّيل والمشروعات التي بحثت فيه قد تناولت مجالًا واسعًا جدًّا هو ما يمكن أن يصل إليه الرَّيُّ من التَّقدُّم إذا نُفِّذت سلسلة من المشروعات فيما بين البحيرات الأفريقية الكبرى والبحر الأبيض المتوسط، وتصدَّت للمنتظر في المستقبل البعيد كما تصدَّت للميسور في زمن قريب. وقد أيَّدت لجنة مشروعات النِّيل ذلك كله. أمَّا اللَّجنة الحالية فلم تتعرض لمثل هذا التَّوسع الذي يأباه ضيق الوقت المحدد لها ولم ترَ أنَّها مطالبة بالخوض في القواعد التي تتَّبع في قسمة الماء بين الفريقين المنتفعين به، بل اقتصرت على بسط الاعتبارات التي كانت رائدها في استنباط آرائها.

إنَّ السوابق نادرة في هذه المسألة، مسألة قسمة الماء، والعرف فيها غير مطَّرد، وهذه اللَّجنة لا تعرف نظامًا عامًّا متَّبعًا ولا عرفًا مقررًا يمكن أن يُجعل قاعدة للفصل في مسألة الماء الذي يشترك في الانتفاع به وحدات عدة. على أن الحالة التي نحن بصددها لا تخلو من عوامل خاصة بين تاريخية وسياسية وفنية من شأنها أن تجعل القواعد المتبعة في غير النِّيل غير صالحة في حالة النِّيل والتقيد بها غير وجيه. ولما تأملت اللَّجنة الأحوال التي اكتنفت تشكيلها، ونظرت في ماضي المسألة التي تعالجها وفي دورها الحالي، استقر رأيها على أن تجعل غايتها إعمال الحيلة في استنباط تسوية ممكنة التنفيذ لا تغفل ما يلزم لحالة الرَّي القائمة الآن، ولا تتعارض مع برنامج التَّوسع الذي تسمح به الحالة الراهنة والحالة التي تَجِدُّ في المستقبل القريب، على ألَّا يكون في هذه التسوية مساس ما بالحالة في المستقبل البعيد.

هذه التسوية ترمي إلى تفسير المذكرة التي أشرنا إليها في الفقرة الأولى من هذا التَّقرير بعبارات فنية بيِّنة لا يتسرب إليها غموض. وقد جاء في تلك المذكرة أنَّ الحكومة البريطانية مع عظيم اهتمامها بتقدم السُّودان لا تنوي مطلقًا الافتئات على ما لمصر من

الحقوق التاريخية والطبيعية في مياه النيل، تلك الحقوق التي تعترف بها اليوم كما كانت تعترف بها في الماضي سواءً بسواء.

واللَّجنة كلها أمل أنَّ آراءها التي تتمشى فيها هذه الروح، والتي لم تكن إلَّا بعد استيعاب الموضوع من الوجهات الفنية تكون — إذا صحت العزيمة على الوئام والتعاون — أساسًا مقبولًا لتقدم الرَّي في المستقبل وضمانه إلى الأبد لكلِّ ما هو قائم الآن من الحقوق المكتسبة.

(٦) مشروع ريّ الجزيرة

قد بينَّا من قبل أنَّ أهم ميدان لترقية الرَّي في السُّودان هو أراضي الجزيرة، وعلى ذلك فالأحوال المحيطة بمشروعات الرَّي في هذه المنطقة لها صلة ذات شأن بالمسألة التي نيطت باللجنة لتسويتها؛ لذا آثرت اللَّجنة قبل الاستمرار في أبحاثها أن تقول في هذا المشروع كلمة تتحرى فيها شيئًا من التفصيل.

الغرض من هذا المشروع ريُّ مساحة من الأراضي الصالحة للزراعة قدرها ٣٠٠٠٠٠ فدان ثلثها يُزرع قطنًا في مدة أولها يولية وأغسطس، وآخرها لا يكون بعد ١٥ إبريل، وثلث آخر يزرع مواد غذائية من أغسطس وسبتمبر إلى نوفمبر في حالة زراعة الذرة وإلى يناير في حالة زراعة اللوبيا. أمَّا الثلث الباقي فيبقى بورًا، ومن ١٦ إبريل إلى ١٥ يولية تكون الأرض خالية من الزراعة، ولا يحتاج إلى الماء إلَّا للقدر اللازم للأهالي في معيشتهم وللقطن دون سائر الحاصلات الزراعية الشأن الأكبر، سواء من وجهة الماء اللازم له ومن وجهة الثمرات الاقتصادية للمشروع.

من ١٦ يولية إلى ٣١ يولية يرفع منسوب ترعة الجزيرة تدريجيًّا من الحد اللازم للأهالي إلى الحدِّ اللازم للرَّي، وفي هذه الفترة عينها يرفع منسوب الخزَّان بالضرورة. ومن ٣١ يولية تستمد الترعة ماءها حسبما تقتضي الزراعة، ويكون أقصى تصرفها ٨٤ مترًا مكعبًا في الثَّانية، وفي شهر نوفمبر يرتفع الماء في الخزَّان حتَّى يصل إلى منسوب التَّخزين المقرَّر، وفي هذه الحالة يكون استمداد الماء من النَّهر بمقدار بمقدار ١٥٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية، وذلك لمدة ٣٠ يومًا، وينتهي ريّ اللوبيا أثناء النِّصف الأول من يناير ويقتصر الرَّي على القطن وحده. بُني هذا المشروع على التقديرات المدونة في كتاب ضبط النِّيل، وهي تدل على أنَّ الماء اللازم لري زراعة القطن في تلك المنطقة يمكن أخذه من النِّيل الأزرق لغاية ١٨ يناير دون إضرار بمصر حتَّى في الفيضانات الشاذة في

تقصيرها كفيضان سنة ١٣–١٩١٤. أمَّا بعد ١٨ يناير فلا مناص من أخذ الماء اللازم لري القطن من الخزان؛ لهذا روعي في وضع المشروع أن يكون في الخزَّان كمية المياه التي يتطلبها (حسب التَّقدير ومع مراعاة الضائع) ريُّ القطن إلى ١٥ إبريل وحاجة الأهالي من ١٥ إبريل إلى ١٥ يولية.

وثَمَّ قيدٌ آخر غير ما تقدم من القيود الخاصَّة بالوقت الذي يستمد فيه الماء من التَّصرف الطَّبيعي للنيل الأزرق وبكمية هذا الماء، ذلك القيد هو تحديد الأرض التي تزرع في الجزيرة بثلاثمائة ألف فدان بمقتضى التعهد الذي قدمناه في الفقرة (١٥) من هذا التَّقرير. فلا تبين بالفعل أن المُقنَّن المائي أقل ممَّا قدِّر أولًا لما كان سبيل إلى الانتفاع بالماء الفائض في زيادة المساحة المنزرعة.

مشروع الجزيرة.

(٧) اعتبارات عامة للجنة

جرت العادة في مصر من قديم باعتبار السنة الزراعية فصلين كلٌّ منهما نحو ستة أشهر في أحدهما يستعمل في الرَّي كلُّ تصرُّف النِّيل الطَّبيعي مضافًا إليه الماء المخزون في أسوان، وفي هذا الفصل يسد كلٌّ من فرعي النِّيل متى سمحت الحالة بذلك. وفي الثَّاني ينساب ماء النِّيل في البحر الأبيض بمقادير كبيرة جامدة بضعة شهور.

وقد وضع مشروع ريِّ الجزيرة الذي تمَّ في يونية سنة ٩٢٥ بحيث لا يستمد الماء من التَّصرف الطَّبيعي إلَّا في الفصل الثَّاني من فصلي الزراعة في مصر، وبحيث يستمده من خزَّان سنار في زمن انخفاض النيل. هذه القاعدة تقرُّها اللَّجنة، وقد سلَّم بها رجال

حكومة السُّودان، وهم في هذا الفصل لا يتشبَّثون إلَّا بالماء اللازم لري مساحات يسيرة بالطُّلمبات عملًا باتفاق قديم أقرَّته الحكومة المصرية. على هذا رأت اللَّجنة أن تكون فاتحة أعمالها تقسيم السنة تقسيمًا دقيقًا إلى فصلين، مسترشدة في ذلك بتدبير الأحوال الحاصلة في أول الفيضان وآخره، وهما الوقتان اللذان فيهما تتغير الأحوال.

فإذا قسمت السنة على هذا النحو أصبح من الميسور أن تستأثر مصر في شهر الانخفاض بكل التَّصرف للنيل إذا ما كان منه حق للسُّودان بحكم نظام الطلمبات المتفق عليه كما قدمنا، ثمَّ ينظر في إيراد الماء أثناء الباقي من السنة للاهتداء إلى القدر الذي يصح أن يكون للسُّودان، مع مراعاة ما تحتاج إليه مصر في توسعها الزراعي، ويبقى أمام اللَّجنة النَّظر في موضوعين أقل شأنًا هما الرَّي بالطُّلمبات وري الحياض في السُّودان ووضع القيود لها.

تلك هي الخطَّة العامَّة التي التزمتها اللَّجنة في تكوُّن آرائها، ولا غنى في هذا المقام عن بيان بضع قواعد وأساليب بحث اتَّبعتها اللَّجنة وهي تعالج بالفعل المسألة المطروحة أمامها، فنقول: إنَّ العملية الأساسية هي تقسيم السنة إلى فصلين وعلى الأخص تحديد الوقت الذي يكفُّ فيه السُّودان عن أخذ الماء من التَّصرف الطَّبيعي للنَّهر عند سنار. ولقد ذهب كتاب (ضبط النِّيل) إلى أن يكون هذا الوقت متفقًا مع البدء في تفريغ خزَّان أسوان، فوضع خزَّان سنار ليمد ترعة الجزيرة بالماء اللازم لها بعد ١٨ يناير، وهو التَّاريخ الذي يقابل في أسوان البدء في تفريغ الخزَّان في سنة ١٩١٣–١٩١٤، وهي سنة الانخفاض الخارق للعادة. ولقد أقرت أغلبية اللَّجنة هذه الطريقة، غير أنَّها أشارت بجواز تغيير هذا التَّاريخ تبعًا لحالة النِّيل في كلِّ سنة على أن يكون ذلك بعد يوم ١٨ يناير عادة، رأت اللَّجنة ذلك أولى من جعل التَّاريخ المذكور ثابتًا لا يتغير تبعًا لحالة الفيضان في سنة ١٩١٣–١٩١٤، وقد كانت حالة شاذة.

ليس من رأي هذه اللَّجنة اعتبار وقت البدء في تفريغ خزَّان أسوان مقياسًا صحيحًا للدلالة على انتهاء مدة زيادة التَّصرف على المطالب، فقد يجوز مع انتهاء مدة هذه الزيادة ألَّا يبدأ بتفريغ الخزَّان، بل يحتفظ بمائه زمنًا ما توقعًا لشدة الحاجة إليه فيما يلي من الشهور. لهذا الاعتبار رأت اللَّجنة ألَّا تأخذ بهذا المقياس، بل تأخذ بانتهاء مدة الزيادة فعلًا حسبما يعلم من تصرُّف الترع والموازنة على قناطر الدلتا وإقامة سد دمياط وسد رشيد.

فكرت اللَّجنة فيما إذا كانت تبني آراءها على الحالة الشاذة التي كانت في سنة ١٩١٣–١٩١٤، أو على معدل مجموعة من السنين، أو تضع مقياس تدرج بمقتضاه يقدَّم التَّاريخ الذي نحن بصدده ويؤخَّر تبعًا لحالة كلِّ سنة، ونظرت إلى أرصاد الفيضانات فرأتها تتناول أكثر من ٩٦٠ سنة ليس فيها سوى أربعة فيضانات بلغت من التقصير مبلغ فيضان سنة ١٩١٣–١٩١٤. ومع تسليمها بعدم إغفال مثل هذه الفيضانات لاحتمال حدوثها لا ترى اتخاذها أساسًا يُبنى عليه مشروع ما، وكذلك ترى أن العمل بجدول التَّدرُّج لا يخلو من تعقيد، وأن التغيرات التي تعتري مناسيب النِّيل ليست من الخطورة بحيث تأبى التَّقيد بتاريخ وسط يصطلح عليه، فقرَّرت الأخذ به وتطبيقه على السنين المنخفضة لترى ما يترتب عليه من نتائج. ولم يفت اللَّجنة التسليم بالحاجة إلى ترتيب خاص للفياضانات التي تكون من قبيل فيضان سنة ١٩١٣–١٩١٤.

ولقد فكَّرت اللَّجنة فيما إذا كان ينبغي لها وهي تعالج مسألة التَّوسع في ريِّ السُّودان أن تجمع إلى اعتبار المساحات التي تروى اعتبار كمية الماء التي تستعمل في أوقات معينة، فلقد سبق — كما قدمنا في الفقرة ٢٦ — تحديد مساحة المنزرع في الجزيرة بثلاثمائة ألف فدان مع القيود التي توجبها بطبيعة الحال سعة الخزَّان ويقتضيها تحديد الوقت الذي فيه يتسنَّى أخذ الماء من المنصرف الطَّبيعي ومقدار هذا الماء.

لكي تتسنى معالجة هذا الموضوع على الوجه الصحيح يجب أن تكون الأرصاد المتعلقة به مبنية على المواسم ومقادير الماء، فلا بد إذن من تدوين الأرصاد المتعلقة بتشغيل الخزَّان وكمية الماء التي تستمدها الترعة الرئيسية يوميًّا؛ لأنَّ هذه الأوقات ومقادير الماء هي خير ما يُستأنس به في فرض القيود التي لا غنى عنها في ضبط العمل بأية طريقة يهتدي إليها كنتيجة لاقتراحات اللجنة.

أمَّا تحديد المساحة، فلن يكون وسيلة لضبط الماء المستمد من النَّهر إلَّا إذا اشترط معه التقيد بأنواع الزراعة وبدورة زراعية خاصة، ثمَّ إنَّ تحديد الزراعة يجرُّ إلى فروض لا بدَّ فيها من التَّوسع في التَّقدير وأخذ بالأحوط. وهذا التَّوسع وما ينطوي تحته من حيطة يستلزمها الشك في سعة الخزَّان وفي الماء الضائع وفي الماء اللازم لكل نوع من أنواع الزراعة يحول دون انتفاع السُّودان انتفاعًا كاملًا بمياه كبيرة الفائدة، فهو يؤثر في السُّودان أثرًا غير صالح دون أن يعود على مصر بفائدة، ومن ثمَّ كان تحديد المساحة

ما لم تقدر عن سعة، مدعاة للإسراف في الرَّي، وبديهي أن الإسراف فيه لا يكون في مصلحة المنتفعين به.

أخذت اللَّجنة بتلك الاعتبارات، فاستقر رأيها على أن تجعل الأوقات ومقادير الماء أساسًا لمقترحاتها دون أي أساس آخر، وهي مقتنعة بأن جهات الاختصاص لا تلقى عناءً في استنباط الوسائل التي بها يضبط سحب الماء من النَّهر ومن الخزَّان، وبشرط إيجاد هذه الوسائل لا ترى اللَّجنة من الوجهة الفنية حاجة إلى تقييد مساحة المنزرع علاوة على تقييد مقادير الماء، فإنَّ المعروف من تقاليد الرَّي يجعل في تحديد الأوقات ومقادير الماء الضمانات الكافية. أمَّا إن مست الحاجة إلى التقيد بمساحة المنزرع كما حصل من قبل، فإنَّ ذلك يكون راجعًا إلى أسباب لا تدخل في اختصاص اللجان الفنية.

بقيت مسألة لم يكن للجنة بدٌّ من التَّفكير فيها وهي تضع خطة البحث في الموضوع الذي من أجله شُكِّلت؛ ذلك أن الجزء الأكبر من أرض الصعيد يُروى بطريقة الحياض، وأكثر اعتماده على منسوب الفيضان الطَّبيعي، ولا يعتمد على القناطر إلَّا قليلًا. فكل ماء يستنزفه السُّودان إبَّان الفيضان يُحدث لا محالة في هذا المنسوب أثرًا يتبعه ضررٌ بِرَيِّ الحياض المصريَّة، فالتسليم بأنَّ لهذه الحياض حقًّا مطلقًا في مناسيب الفيضان غير منقوصة يستلزم حتمًا تحريم ماء الفيضان على السُّودان.

جال بخاطر اللَّجنة تلقاء هذه الحالة أنَّ من المتعذِّر إرجاء كلِّ تحسين في ريِّ السُّودان إلى أجلٍ غير مسمًّى أو الاندفاع بلا روية في هذا التحسين والغلو في استمداد الماء اللازم له على ما فيه من تعريض حياض الصعيد لضرر بليغ. لهذا رأت ألَّا يتشبَّث بمناسيب الفيضان إلى حد إغفال تقدم الرَّي في السُّودان، بل يقتصر في التَّمسك بها على القدر اللازم لتحديد مدى هذا التَّقدُّم وسرعة السير فيه.

وممَّا ساعد اللَّجنة على الأخذ بهذا الرأي ما قرَّرته الحكومة عقب تشكيل اللَّجنة من بناء قنطرة أخرى في الوجه القبلي وما قررته بعد ذلك من إقامة سدِّ جبل الأولياء لانتفاع مصر به، فإنَّ إنجاز هذين المشروعين يجعل مناسيب الفيضان أقلَّ أهمية لحياة مصر ممَّا لو اقتصر الأمر على مشروعات السُّودان.

وهناك مسألة أخرى عامة تستدعي أن يُفصل فيها توطئةً للبحث المستفيض في الموضوع الذي تعالجه اللَّجنة — هذه المسألة هي هل سد جبل الأولياء يكون حكمه حكمَ ترعة الجزيرة سواءً بسواء من حيث الأولوية في الحق وإن لم يكن الأول في السبق لعدم إنجاز شيء منه حتَّى الآن، ولَمَّا كان سد جبل الأولياء وترعة الجزيرة من أول الأمر

حلقتين من سلسلة مشروعات واحدة، فقد رأت اللَّجنة أن لا يكون لمشروعات الجزيرة ميزة على جبل الأولياء في الانتفاع بالزيادة في إيراد الماء بل يسوَّى بينهما في حق الأسبقية، وينتج عن ذلك الرأي أنَّ السُّودان ينبغي له أن لا يألو جهدًا في تسهيل مهمة إقامة سد جبل الأولياء. وقد افترضت اللَّجنة أن هذا التسهيل من جانب السُّودان كائن.

وختامًا نظرت اللَّجنة فيما إذا كان حتمًا لزامًا أن يبقى لمشروع الجزيرة الحقُّ الذي قرره له كتاب (ضبط النيل) في مقدار الماء الذي يأخذه وشروط أخذه، فلقد كان محتملًا أن بحث اللَّجنة في الإحصائيات التي تناولها (ضبط النيل) وفي إحصائيات السنين التي انقضت منذ ابتكر المشروع يقضي إلى آراء مغايرة للآراء المثبتة في ذاك الكتاب، لكن هذا المشروع لم يقرَّر إلَّا بعد بحث مستفيض من جانب رجال الرَّي في مصر ومن جانب لجنة مشروعات النِّيل، وارتبطت حكومة السُّودان بتعهدات قامت على أساس الحصة التي قررها المشروع، ومن ثمَّ بدا للجنة أن الإقدام على النقص في كمية الماء اللازم لهذا المشروع يجرُّ إلى عواقب لا تدخل في اختصاصها وهي هيئة فنية. على أن القواعد التي بُني عليها المشروع قد دلَّ تمحيصها بالأساليب التي جرت عليها اللَّجنة على أن ليس هناك كبير خلاف بين النتائج التي أفضى إليها بحث هذه اللَّجنة والنتائج التي توصل إليها من قبل.

(٨) في الإحصائيات

من المناسب قبل الخوض في تمحيص الإحصائيات أن نشرح بالإيجاز ماهية ما لدينا من الأرصاد، ونبيِّن بعض عوامل لها دخل في التقديرات المبيَّنة على هذه الأرصاد.

(٨-١) الأرصاد المائية

إنَّ مناسيب النِّيل عند القاهرة أعلاها في السنة وأدناها مدونة معروفة من سنة ٦٤١ ميلادية إلى ١٤١٥ ميلادية، ثمَّ من سنة ١٧٣٧ ميلادية إلى الوقت الحاضر لا في فترة واحدة، فهذه المناسيب إذن تتناول أكثر من ٩٦٠ سنة، ولها قيمتها في بيان دورة السنوات الشحيحة، ولقد بُدِئ برصد مقاييس النِّيل عند أسوان والقاهرة في سنة ١٨٧٠ مع رصد مقدار التَّصرف أحيانًا، ومنذ سنة ١٩٠٣ لا تزال المناسيب أمام الخزَّان وخلفه، ومقدار فتح عيونه ترصد كلَّ يوم، ولقد قدرت تصرفات النَّهر في السنين الأولى

بواسطة تقنين فتحات هذه العيون، وهذا التَّقنين قد بلغ الآن مبلغًا عظيمًا من الضبط، وكذلك توزيع الماء عند قناطر الدلتا يعمل بطريقة التقنين منذ سنة ١٩١٩، والمقادير الإحصائية يتحرَّى فيها على الدَّوام التوقي من دقة الرصد وتهذيب أساليبه، حتَّى إنَّ هذه الدِّقة، وهذه الأساليب قد بلغت الآن مبلغًا عظيمًا من الإتقان، فيمكن الركون إلى تلك الإحصائيات، ولا سيَّما ما كان منها خاصًّا بالسنين السبع الأخيرة.

(٨-٢) مدة انتقال الماء

إنَّ طول النِّيل وقلة انحدار مجراه يجعلان لزمن انتقال الماء شأنًا جديرًا بالاعتبار في كلِّ ما يتعلَّق بتقدير مياهه، ولا بُدَّ من أن يكون زمن انتقال الماء هذا دائمًا على بال الباحث في هذا التقدير، فإذا رصدت للنَّهر حالة معينة في سنار مثلًا لزم حساب الوقت الذي فيه يبدو أثر هذه الحالة قبل أن ترتِّب عليها أي نتيجة. فالخلاصة أن لا بدَّ من اعتبار الزمان والمكان في رصد حالات النَّهر، وليلاحظ أنَّ زمن الانتقال غير ثابت، بل يعتريه التغير طبقًا لحالة النهر.

ولقد قامت مصلحة الطبيعيات بحساب زمن انتقال الماء بين الأماكن المختلفة عندما طلبت اللَّجنة ذلك، وهذا الحساب مبيَّن في الذيل «ب»، ومنه يتَّضح أن زمن انتقال الماء من سنار إلى قناطر الدلتا في بدء الفيضان وانتهائه قدر كما يأتي:

في يناير وفبراير ٣٤٠٠٠٠ يومًا. وفي يوليو وأغسطس ٢٦٠٠٠٠ يومًا.

أمَّا عند البحث في حالات خاصة كحالات السنين الشحيحة، مثلًا فإنَّ حساب زمن الانتقال اللازم لفحص هذه الحالات يقدر تقديرًا خاصًّا أساسه المعلومات المناسبة له.

(٨-٣) الماء الضائع

قدر كتاب «ضبط النيل» (انظر صحيفة ٢٥٣ من النسخة العربية) أن ١٢٤ وحدة من الماء عند الخرطوم تنقص بالانتقال حتَّى تصير عند أسوان ١٠٠ وحدة فقط، واللَّجنة لا ترى من الضروري ولا من الميسور في فحص الموضوع الذي بين أيديها أن تعتبر ما يضيع بالانتقال حين تنظر فيما يكون لأخذ الماء عند سنار من أثر في حالة الماء في مصر، بل تُؤْثر اللَّجنة الذهاب إلى أنَّ الماء الذي يؤخذ عند سنار يبدو في مصر أثره كله مع افتراض أنَّه لا ينقص بالانتقال، وقد يتيسر يومًا في المستقبل أن يحسب هذا الضائع

بالانتقال حسابًا يكون أدنى إلى الصواب، كما يجوز أن يكون لهذا الضياع شأن أكبر من شأنه الحالي، وإذن يكون ثمَّت وجه للاعتداد به عند اللزوم.

(٨-٤) تقسيم السنة

إنَّ الفكرة الجوهرية المنطوية عليها آراء اللَّجنة هي كما سبق بيانه تقسيم السنة إلى فصلين في أحدهما تستمد ترعة الجزيرة الماء من تصرُّف النَّهر الطَّبيعي، وفي الآخر تستمده من الماء المخزون، وتترك التَّصرف الطَّبيعي لمصر خاصة، ولهذا لم تعد اللَّجنة القواعد التي قررها كتاب «ضبط النيل»، وأقرتها لجنة مشروعات النِّيل، لكنها في معالجة الموضوع، وفي بيان النتائج سلكت مناهج غير التي سلكها، وجعلت أهم أركان بحثها فحص الأحوال التي تصحب ظهور الفيضان وانقضاءه، أي حين يربو ماء النِّيل إبَّان الزيادة على المطلوب منه، وحين يقلُّ إبَّان الانخفاض عن ذلك المطلوب، وأكثر هذا الفصل من التَّقرير قد خصَّ لهذا الفحص وإبداء نتائجه وما يُبنى عليها من الآراء.

(٨-٥) زيادة النِّيل — يوليو وأغسطس

الحالة الحاصلة عند قناطر الدلتا في إبان الزيادة مبيَّنة بالرسم رقم ١ الوارد في الذيل (ح) من التَّقرير، وهي مبنية على التَّصرف خلف قناطر الدلتا ومنحنيات النَّهر، هي عن معدل السنين من سنة ١٩١٢ إلى ١٩٢٥ وعن سنة ١٩١٣ الشحيحة على خلاف العادة وعن سنة ١٩١٥ التي فيضانها أردأ الفيضانات في مدة ١٤ سنة إذا استثنينا سنة ١٩١٣. وقد روعي مقدار الماء الذي استُعمل في الرَّي خلف القناطر. وفي هذا الوقت وبين تأثير خزَّان سنار حسب برنامج الموازنة المبَّين بالجدول رقم ٥ الوارد في صحيفة ٨٧ من كتاب ضبط النِّيل، وروعي في بيان هذا التأثير زمن انتقال الماء، وهو كما قدمنا يتغير تبعًا لحالة الفيضان.

يتضح من الرسم أنَّه في السنين المعتادة، وحين يبدو في قناطر إسنا أثر سحب الماء عند سنار يكون الماء الذي ينساب في فرعي النِّيل ١٥٠ مليون متر مكعب في اليوم تقريبًا، ويكون أثر السحب عند سد سنار ضئيلًا لا أهمية له ولو كان هذا السحب في سنة ١٩١٥ لما أضر بمصر وإن استشعرت أثره. ولو كان في سنة ١٩١٣ لاقتضى أخذ الماء من النَّهر قبل استقرار الزيادة من الفيضان بنحو ١٠ أيام، فالنتيجة التي

تستخلص من هذا الرسم هي أن الترتيب الذي يقول عنه كتاب «ضبط النيل» مناسب بشرط أن تتأخر زيادة النِّيل عن وقت مجيئها في سنة ٩١٥، وذلك الترتيب يقضي أن تبدأ ترعة الجزيرة يوم ١٦ يوليو في أخذ الماء من النَّهر عند سنار بالمقادير المقررة. أمَّا في السنين الأقل فيضانًا من سنة ٩١٥ فيحتاج إلى الماء اللازم للرَّي في مصر.

تقدم في الفقرة ٤١ أنَّ اللَّجنة تشعر أنَّها إذا تصدَّت للتقليل من كمية الماء الذي سبق تخصيصه لهذا المشروع، والذي من أجله ارتبط أحد الفريقين بتعهد تكون قد تخطت حدود اختصاصها. أمَّا مسألة تأخير فتح ترعة الجزيرة أيامًا في سني تأخير زيادة النِّيل فللجنة فيها نظر آخر. ذلك أنَّ الماء في هذا الوقت يكون مطلوبًا في مصر، ولا سيَّما في زراعة الذرة، وهذه ينبغي التبكير بها كي يجود المحصول. كذلك في الجزيرة يستحسن التبكير بزراعة القطن، والمعقول أن السُّودان في كلِّ سنة تتأخر فيها زيادة النِّيل يقاسم مصر كلَّ ضرر ينجم عن تأخر وقت الزراعة.

هذا الجدول أثبت في هذا التَّقرير وجعل الذيل «د».

إنَّ حالة الفيضان في سنة ١٩١٥ يمكن أن تعتبر أردأ الحالات التي يلائمها العمل بالترتيب المقرَّر في كتاب «ضبط النيل»، كما يمكن اعتبار فيضان سنة ١٩١٣ أردأ فيضان ممكن، وقد يكفي في تحقيق الغايات التي تتوخاها اللَّجنة — تدرج يعمل به في تأخير فتح ترعة الجزيرة بنسبة تقصير الفيضان عمَّا وصل إليه في سنة ١٩١٥، ومثل هذا الجدول يمكن استنباطه من الأرقام الواردة في الذيل «هـ» من ذيول هذا التَّقرير، وهذه الأرقام تدل على أنه في سنة ١٩١٥ وسنة ١٩١٣، وفي التَّاريخ الذي يمكن فيه للسُّودان سحب الماء يبلغ مجموع تصرُّف النِّيل الأزرق وتصرف النِّيل الأبيض معًا ١٤٢ مليون متر مكعب يوميًّا، ومعدل التَّصرف ١٦٠ مليونًا أخذًا بالأحوط أن لا تستمد ترعة الجزيرة ماءها من التَّصرف الطَّبيعي إلَّا بعد أن يبلغ معدل التَّصرف في خمسة أيام ١٦٠ مليونًا في اليوم في سنار وملكال مع تقديم تاريخ ملكال عشرة أيام.

والواقع أنَّ اللَّجنة وإن قدمت هذا الاقتراح من باب توخي العدل والمساواة في المعاملة لا تعتقد أنَّ مصر يلحقها ضرر يُذكر إذا جرى العمل في مشروعات السُّودان على النحو المبيَّن في كتاب «ضبط النيل» بلا نظر إلى حالة الفيضان. ثمَّ إنَّ اللَّجنة كما قدمنا لا تميل إلى التعقيد الذي قد يجرُّ إلى استعمال جدول التَّدرُّج، غير أنَّها ترى حالة الفيضان في هذه المسألة بالذات عاملًا ذا أثر مباشر كما ترى العمل بهذا الجدول سهلًا، وهي لا تتوقَّع صعوبة ما في العمل به عند الحاجة إليه وهي نادرة. لهذا تشير باتباع هذه الطريقة إذا بدا لجهات الاختصاص أن لا تتقيَّد بالتاريخ الثابت وسهولة العمل به.

(٨-٦) الفيضان

إذا استقرت زيادة النِّيل في النِّصف الثَّاني من يونية كما قدَّمنا بقي النَّظر في مقدار المياه — إن وجدت — التي يمكن أن يأخذها السُّودان علاوة على المقادير المقررة لمشروع الجزيرة في كتاب «ضبط النيل» دون أن يترتب على اختصاص السُّودان بها الإضرار بمصلحة مصر أو الخروج عن القواعد التي تأخذ اللَّجنة بها. هذا وفي الرسم رقم ٢ و٣ و٤ بيان كمية المياه التي تنساب في البحر الأبيض في السنين المعتادة، وفي سنة ١٩١٥ وسنة ١٩١٣، وهما أقل السنين فيضانًا، وفي هذه الرسوم أيضًا بيان تأثير ترعة الجزيرة وملء خزَّان سنار وخزَّان جبل الأولياء. وقد وصل إلى علم اللَّجنة أن وزارة الأشغال العمومية قد وافقت على تفصيلات مشروع هذا الخزَّان بعد تنقيحه، هذا غير أنَّ اللَّجنة لم تعلم ما هي التفصيلات على وجه التحقيق.

وعلى هذا فما في الرسوم من بيان لملء الخزَّان هذا إنَّما هو افتراض من اللَّجنة الغرض الأكبر منه إظهار مقدار سعته بالنسبة لمقدار الماء الميسور في هذا الوقت. ولمَّا كان ماء النِّيل الأبيض خاليًا من الطَّمي فملؤه ممكن في أي وقت خلافًا لخزان أسوان وخزَّان سنار.

ترى اللَّجنة أنَّ ما يزداد على نصيب السُّودان من الماء ينبغي أن يكون بقدر معتدل، وإن كان الماء غير مستعمل كثيرًا في هذا الفصل. وإنما رأت ذلك لسببين: أولهما أن الضائع من المياه في سنار وجبل الأولياء مشكوك في مقداره الآن، ولا سبيل إلى تقديره بالدقة إلَّا بعد تشغيل الخزانين سنة أو سنتين، والثاني تأثير المناسيب في حياض مصر، وقد نظرت اللَّجنة في هذا الموضوع بدقة وأعدت الذيل «و» من ذيول هذا التَّقرير لتبيِّن به هذا الأثر الذي أحدثه عند السُّودان أخذ ١٠٠ متر مكعب و٥٠ مترًا مكعبًا و٢٠٠ متر مكعب أثناء فيضانات السنين ١٩١١ و١٩١٣ و١٩١٥ و١٩١٨. وقد كانت كلها فيضانات شحيحة، ولم يحسب الأثر الذي يحدثه ملء خزَّان جبل الأولياء بعد تعديله، ولكن من الواضح أنَّ أثر هذا الخزَّان في مصر يكون أكبر كثيرًا من أثر سحب المياه عند سنار حسب التَّقدير الحالي.

ومن الاعتبارات ذات الشأن التي لها دخل في هذه المسألة أن مياه الرَّي اللازمة لترعة الجزيرة لا تبلغ حدها الأقصى في أغسطس وسبتمبر، أي في وقت بلوغ الفيضان أقصاه، كما يُؤخذ من تجارب الرَّي بالطُّلمبات والقطن في السُّودان أن يزرع في أواخر يولية وأوائل أغسطس، ونظرًا لهطول الأمطار في هذا الوقت لا يحتاج إلى الريَّة الثَّانية

إلَّا في أواخر سبتمبر. أما زراعة المواد الغذائية فتأتي بعد القطن. وعلى هذا فترعة الجزيرة مهما بلغ أقصى التَّصرف المقرَّر لها في زمن الفيضان لا يأخذ في الواقع إلَّا مقدارًا أقل من هذا التَّصرف في وقت ملء الحياض في مصر.

من المسلَّم به أن خزَّان جبل الأولياء ومشروع الجزيرة يترتب عليهما حتمًا انخفاض المناسيب في الصعيد، وهذا يستتبع صعوبة في ملء الحياض، وسيكون لهذين المشروعين مثل هذا التأثير في حياض السُّودان، واللَّجنة غير ميَّالة إلى أن تخوض غمار البحث في هذه المناسيب لتقرر إلى أي حدٍّ يمكن اعتبار المحافظة عليها حقًّا مقررًا.

على أن هذه المسألة قد تناولتها اللَّجنة على اعتبار أنَّها هيئة من المهندسين دعيت للاستئناس برأيها في مسألة عملية، وهي على هذا الاعتبار ترى أن ما يكون في النِّيل الأعلى من أعمال هندسية لتحسين الرَّي والاحتفاظ بالماء يجب ألَّا يتغيَّر إلى أجلٍ غير مسمى بمسألة مناسيب التَّصرف الطَّبيعي في النِّيل الأدنى، وأنَّ السُّودان يجب أن يتقيَّد في تحسين ريِّه لسرعة محدودة حتَّى يتيح لمصر فرصة اللحاق به، وهذا يكون بإنجاز الأعمال التي جعلت من نصيبها في البرنامج الأصلي.

ومع مراعاة ما جاء في الفقرة السابعة ترى اللَّجنة مستطاعًا في زمن الفيضان أن تؤخذ عند سنار المقادير الإضافية المبيَّنة بالجدول الآتي على أن يكون أخذها من أول أغسطس؛ فإنَّ أول أغسطس عند سنار يقابل تقريبًا ٢٥ أغسطس عند قناطر الدلتا، وفي هذا التَّاريخ تكون زيادة الفيضان قد توطدت وترع الوجه البحري قد وصلت إلى منسوبها الكامل، وتشير اللَّجنة بأن يكون أخذ هذه المقادير الإضافية تدريجيًّا بقدرٍ لا يزيد على ما في الجدول الآتي:

أقصى التَّصرف مقدرًا بالمتر المكعب في الثَّانية

السنة	المقرر في البرنامج الأول «ضبط النيل»	المقدار الإضافي المقترح	المجموع
٢٥–٢٦	٨٤	…	٨٤
٢٦–٢٧	٨٤	…	٨٤
٢٧–٢٨	٨٤	…	٨٤
٢٨–٢٩	٨٤	…	٨٤
٢٩–٣٠	٨٤	١٢	٩٦

السنة	المقرر في البرنامج الأول «ضبط النيل»	المقدار الإضافي المقترح	المجموع
٣٠–٣١	٧٤	٢٤	١٠٧
٣١–٣٢	٨٤	٣٦	١٢٠
٣٢–٣٣	٨٤	٤٨	١٣٢
٣٣–٣٤	٨٤	٦٠	١٤٤
٣٤–٣٥	٨٤	٧٢	١٥٦
٣٥–٣٦	٨٤	٨٤	١٦٨

ملاحظة: أقصى التَّصرف ٨٤ مترًا مكعبًا في الثَّانية في أغسطس وسبتمبر وأكتوبر ونوفمبر و٨٥ مترًا مكعبًا في ديسمبر.

ترى اللَّجنة أن ملء خزَّان سنار في مثل سنة ١٩١٣ قد يحتاج فيه إلى الخروج عن الخطَّة المقررة في كتاب «ضبط النيل» إذا كانت ترعة الجزيرة تأخذ المقادير الإضافية التي تقترحها، وأن يُنظر بدقة في برنامج ملء خزَّان أسوان في جميع السنين التي من هذا القبيل، ثمَّ يُعدَّل طبقًا للحالة، ولا تتوقَّع اللَّجنة صعوبة في تطبيق هذه الطريقة على خزَّان سنار.

ومقادير المياه اللازمة لملئه صغيرة بالنسبة إلى مقادير خزَّان أسوان، ولا ترى ضرورة لأن تقترح طريقة خاصة لهذا. بل تؤثر التَّخلي عنه إلى جهات الاختصاص تنظر فيه عند الحاجة.

(٨-٧) انخفاض النِّيل — يناير وفبراير

خصصت اللَّجنة وقتًا طويلًا في النَّظر فيما إذا كان ١٨ يناير هو اليوم الذي يصح جعله حدًّا لانتهاء زيادة النِّيل، وحاولت الاهتداء إلى تاريخ صحيح كما ترى في الذيل «ز» وبيان التواريخ المرافقة له، مسترشدة بمطالب الترع وتناقص مقادير الماء المار في قناطر الدلتا وسد رشيد ودمياط.

يمكن صرف النَّظر عن السنين الماضية البعيدة؛ إذ لا يصح الركون إليها وتطبيق حالتها على الأحوال الحاضرة، ولا يمكن اعتبار سنة ١٩١٧–١٩١٨؛ لأنَّها كانت خارقة

للعادة إذا استمر الفيضان طول فصل الصيف، وإذا جعلنا السنين الباقية مجموعتين تبين لنا أنَّ الزيادة انقطعت في التواريخ المبيَّنة بعد:

تواريخ قناطر الدلتا	التواريخ المقابلة لها في سنار
٢١ فبراير	٨ يناير
٢١ فبراير	٨ يناير

ففي المجموعة الأولى من السنين، وهي التي تدلنا على الأحوال الحاصلة عند تهيئة مشروع الجزيرة تأتي الطريقة التي تتبعها بتاريخ عند سنار هو نفس التَّاريخ الذي ارتآه واضعو المشروع، أي ١٨ يناير. لكن المجموعة الثَّانية تقضي أنَّ هذا التَّاريخ ٨ يناير.

ولكيما يزيد الموضوع تمحيصًا دعت اللَّجنة الدكتور هرست مدير مصلحة الطبيعيات، ومستر بوتشر مدير قناطر الدلتا إلى البحث في أصول هذا الوقت من السنة، على أن يستقل كلّ منهما عن الآخر ويتبع أصلح الطرق في رأيه، وطلبت منهما أن يختبرا صحة هذا التَّاريخ الذي قرره كتاب «ضبط النيل» ١٨ يناير. ثمَّ ينظرا إلى أي تاريخ يسمح ما يفصل من الماء بعد تشغيل جبل الأولياء بأن تعطى الجزيرة المقادير الإضافية التي تراها اللَّجنة ميسورة في فصل الفيضان، والغرض من مراعاة تأثير جبل الأولياء التمشي مع الرأي الذي تضمنته الفقرة ٤، وهو البحث عن وجود الماء الكافي لجبل الأولياء وما يتبعه من توسيع نطاق الرأي في مصر قبل أن تُعطى الجزيرة نصيبها من الماء.

ولقد بنى دكتور هرست بحثه على أرقام سنة ١٩٢٠، وهي من حيث الماء في شهر فبراير أقل السنين الست من سنة ١٩١٩–١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢٤–١٩٢٥، وتجد الطريقة التي اتبعها والنتائج التي اهتدى إليها مبيَّنة في الذيل (ح) والرسم رقم ٥ الموافق له. ورأي مستر هرست هو أنَّ ترعة الجزيرة في الأحوال الحاضرة — أي بغض النَّظر عن خزَّان جبل الأولياء — يمكن أن تُعطي المقادير المقررة لها في «ضبط النيل»إلى ٢٢ فبراير في قناطر الدلتا، وهو يقابل ٢٠ يناير في سنار، فإذا اعتبر خزَّان جبل الأولياء دون مقدار الضائع كان هذا التَّاريخ ١٢ يناير في سنار، ويكون ٨ يناير إذا عمل حساب هذا الضائع. أما المقادير الإضافية للجزيرة فقد رأت اللَّجنة إمكان

إعطائها للسُّودان إلى أول يناير في سنار إذا غُضَّ النَّظر عن الضائع، وإلى ٢٧ ديسمبر إذا عمل حساب هذا الضائع.

أما مستر بوتشر فقد اتبع طريقة غير هذه، وهي موضحة في الذيل (ي)، أساسها معدل السنوات الست من سنة ١٩١٨ إلى ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٣–١٩٢٤، والأرصاد في هذه السنين كما قدمنا غاية في التفصيل والصحة، ومما يجدر التنبيه له مقارنة هذه السنين بمعدل عدد من السنين أكبر، والذيل (ي) يدلُّ على أن معدل كمية الماء في ديسمبر ويناير من هذه السنوات الست يعادل ٩١ في المئة من نظيره في العشرين سنة الأخيرة، كما يدلُّ على أن السنوات الست كلها أقل من معدل العشرين سنة، ورأي اللَّجنة أن هذه السنوات تصلح أساسًا للتقدير.

لا تعلم اللَّجنة الطريقة التي تتَّبع في الانتفاع بالماء المخزون في جبل الأولياء، ورأى مستر بوتشر أنَّ هذا الماء يزيد في ماء مصر أثناء الصيف نحو ٢٢ في المائة، فافترض مثل هذه الزيادة في الماء اللازم كمصر في غير فصل الصيف أيضًا، والشك قائم في وقوع ذلك بالفعل، لكن لا نزاع في أنَّ هذا الافتراض يجعل التَّقدير في مصلحة مصر. وعند تشغيل كلّ من خزَّان سنار وخزَّان جبل الأولياء يوجد في الماء ما يسد المطالب كلها إلى ١٠ فبراير، وهو يقابل ٧ يناير في سنار، كما يدلُّ عليه الرسم رقم ٦ المعمول به في هذا التَّقدير، ويبقى بعد ذلك ٤٠ مليونًا، وهي الآن تنساب في البحر.

وفي هذا الرسم أيضًا بيان الأثر الذي يُحدثه سحب مقدار إضافي من الماء قدره ٨٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية بعد سحب المقرَّر لترعة الجزيرة بمقتضى كتاب (ضبط النيل)، وبعد زيادة المنزرع من أراضي مصر على أثر إنشاء جبل الأولياء، ولا يغيبنَّ عن الأذهان أنَّ هذا القدر الإضافي يمكن سحبه إلى ٥ فبراير في قناطر الدلتا، وهو ما يُقابل ٢ يناير في سنار دون التَّعدي على الماء المستعمل للآن في الرَّي، ويبقى بعد ذلك تصرُّف قدره ٧٥ مليون متر مكعب للملاحة في مصر وقت سد ترعها.

لبيان الحالة في هذا الفصل من السنة وعلاقتها من حيث الوقت بالحالة في سنار بطريقة أخرى قد أعد الرسم رقم ٧، وفيه التَّصرف اليومي لفرعي النِّيل في يناير وفبراير في السنوات ١٩١٣–١٩١٦ و١٩٢٠–١٩٢٣، وهي أقل السنين فيضانًا. كذلك بيَّن فيه مقادير الماء الذي يخزن في أسوان. فالرسم إذن يصور الحالة في هذا الفصل تصويرًا لا بأس بمبلغه من الكمال، وقد أثبت فيه أيضًا التاريخان ٣١ ديسمبر و٢٨ يناير، كلاهما عند سنار، وروعي في إثباتهما ما يلائم من زمن انتقال الماء.

وليلاحظ أن كلًّا من التَّقدير المذكور في الفقرة «٦٠» فيما يتعلَّق بالسنين الماضية البعيدة والتقدير الأول الذي عمله مستر هرست، كلاهما ينزع إلى تأييد الترتيب الذي جعل ترعة الجزيرة يستمد الماء من النَّهر إلى ١٨ يناير. وفي كلٍّ من هذين التَّقريرين قد غض النَّظر من تأثير خزَّان جبل الأولياء، على حين أن ما جاء بالفقرة ٤٠ من أن مشروع الجزيرة لا يختص بأولوية في الحقوق يقتضي أن لا يقل جبل الأولياء، وأن يعمل حساب المشروعين معًا. في هذه الحالة يكون التَّاريخ على حساب مستر هرست ٨ يناير. واللَّجنة وإن أخذت بالرأي الذي أبدته في الأولوية لا تقبل أن تذهب إلى حد القول بتطبيق هذا الرأي على الماضي، وجوب تعديل أساس كلِّ مشروع ثمَّ تبعًا لما يجدُّ من قاعدة أو معلومات أو طريقة تقدير.

ولنرجع إلى تقدير مستر بوتشر، ويوجه النَّظر إلى أهمية إقامة السدين في هذا الوقت من السنة. هذه العملية تستدعي مقادير عظيمة من الماء بها يبقى في فتحة السد تيار يكفي لسد ماء البحر عن مجرى النَّهر. والسد الآن يكون في فبراير في أغلب السنين، لكن تشغيل خزَّان جبل الأولياء ومشروع الجزيرة ستنجم عنهما زيادة الماء المأخوذ من النَّهر، ولم يقم السدان قبل موعد إقامتهما الآن، فلا مندوحة عن أن تؤخذ المقادير اللازمة لصد ماء البحر من الماء المخزون.

ومتى بُكِّر بإقامة السدين أمكن الانتفاع بالماء المستعمل الآن في صد ماء البحر في شؤون الرَّي في هذا الوقت، والواقع أنَّ هذا القدر داخل في الـ ١٤٠ مليونًا التي ذكرناها في الفقرة ٦٤ وقلنا إنَّها في متناولنا بعد ٧ يناير (تاريخ سنار)، وهو التَّاريخ الذي فيه أثر تعجيز الماء عن المطلوب. والترتيب المقرَّر في (ضبط النيل) يقتضي أن يكون لمشروع الجزيرة من ماء النَّهر ٦٩ مليونًا أو ما يقرب من أن يكون بالضبط نصف الـ ١٤٠ مليونًا التي في يدنا، وعلى هذا فيتغير زمن إقامة السدين، وهو على تقدير مستر بوتشر يصحب التَّوسع في الرَّي لا محالة. لا يكون القسط الأول من الماء اللازم للجزيرة مستمدًّا من الماء المستعمل الآن في ريّ مصر، وإن كان هذا القسط يؤخذ من تصرّف النَّهر حتَّى ١٨ يناير، واللَّجنة ترى في هذا التَّقدير تأييدًا للرأي القائل بعدم تغيير التَّاريخ الذي تقرر، وهو ١٨ يناير فيما يتعلَّق بمشروع الجزيرة.

أمَّا التَّاريخ الذي إليه يمكن سحب المقادير الإضافية فنتائج البحثين متفقة فيه اتفاقًا لا بأس به؛ إذ هو في أحدهما ٢٨ ديسمبر وفي الثَّاني ٢ يناير (سنار)، ورأي اللَّجنة أن يبقى سحب المقادير الإضافية إلى ٣١ ديسمبر، ويهمُّنا في هذا المقام أن نبيِّن

أنَّ التطهير وغيره من الأعمال تقتضي في مصر سدَّ الترع كلَّ سنة قبل نهاية ديسمبر، وفتحها في أوائل فبراير. أمَّا التواريخ التي فيها فتح الترع فعلًا فتتوقف على الفراغ من الأعمال التي لأجلها سدت الترع. وسد الترع هذا ضروري في كلِّ سنة، ولا بُدَّ من حصوله في هذا الفصل لأنَّ أحوال القطر تأبى حصوله في غيره؛ فهو إذن من أخص مظاهر الرَّي في مصر. وفتح الترع بعد سدها كما قدمنا هو الذي يعلل سرعة اختفاء زيادة الماء في مصر في فبراير، كما يعلل حصول نقص الماء في تاريخ يكاد يكون ثابتًا. لهذه الاعتبارات ترى اللَّجنة أن ترعة الجزيرة لا تأخذ من ماء النَّهر مقدارًا ما إضافيًّا بعد الوقت المقابل لفتح الترع في مصر.

إنَّ الترتيب الذي بمقتضاه تستمد ترعة الجزيرة المقادير المقررة لها في (ضبط النيل) من تصرُّف النَّهر الطَّبيعي إلى ١٨ يناير، ولا تستمد مقادير إضافية بعد ٣١ ديسمبر. هذا الترتيب قد يزداد وضوحًا إذا تبين الحد الذي لا يتعدَّاه السُّودان في سحب الماء من النَّهر في يناير بكميات الماء من غير اعتبار ليوم ١٨ يناير بالذات. ولقد قررت (ضبط النيل) للسُّودان ١١٧ مليون متر مكعب إلى ١٧ يناير، والذي تراه اللَّجنة أن لا يأخذ السُّودان في شهر يناير أكثر من هذا المقدار على أن لا يستأنف أخذ الماء من التَّصرف الطَّبيعي للنَّهر حتَّى ١ يولية كما بينا في الفقرة ٤٩. وعلى هذا فمن أول يناير إلى ١٥ يوليو يقتصر السُّودان على أن يأخذ من التَّصرف الطَّبيعي — وهو النَّهر — ١١٧ مليون متر مكعب خلاف المقادير القليلة التي ترفع بالطلمبات، وفي هذا الوقت من السنة تستأثر مصر بما يكاد يكون جميع الباقي من التَّصرف الطَّبيعي، وهو على حسب الذيل «ك» يصل إلى نحو ١٣٠٠٠ مليون متر مكعب عدا ما هو مخزون بأسوان وجبل الأولياء، وبتأمل الموضوع بعد هذا البيان تقل بالنسبة لمصر أهمية تحديد يوم من أيام يناير لا يتعداه السُّودان في سحب المقدار المقرَّر له في (ضبط النيل)، وهو ٤٫٥ ملايين متر من النَّهر يوميًّا، لكن تحديد هذا اليوم كبير الأثر بالنسبة للسُّودان الذي ليس له من مورد في فصل الانخفاض في خزَّان سنار سوى نحو ٥٠٠ مليون متر مكعب، والـ ١١٧ مليونًا المقررة له من التَّصرف الطَّبيعي والمقدار القليل المخصوص للطلمبات.

قد فكرت اللَّجنة بعناية فيما إذا كانت تقترح ترتيبًا خاصًّا يعمل به في سني التقصير الشديد التي تشبه سنة ١٩١٣–١٩١٤، وفطنت إلى أن الجزيرة إذا لبثت في مثل تلك السنة تستمد ماء ريها من التَّصرف الطَّبيعي إلى ١٨ يناير، فالسودان على

حسب طريقة التَّقدير المتبعة في هذا التَّقدير يكون لحدٍّ ما قد استمدَّ حاجته من ماء تحتاج إليه مصر. فلكي يحتاط للسنين التي من هذا القبيل لا بدَّ من اتخاذ مقياس أو دليل يهتدى به في أحوالها الخارقة للعادة، فيُعطى للسُّودان حصته بمقتضى جدول مدرج، كما توضع طريقة للتنبؤ بهذه الأحوال قبل وقوعها.

فكرت اللَّجنة في ترتيبات مختلفة، وبحثت فيها مع مصلحة الطبيعيات، ثمَّ نظرت إلى ضآلة مقادير المادة التي هي موضوع بحثها وإلى نُدرة السنين الشحيحة، وإلى أن الحكومة المصريَّة قد أقدمت نهائيًّا على خطة معينة لزيادة الانتفاع بمياه النِّيل، فرأت تلقاء ذلك كله أنَّ مثل هذا إنْ وُضِع لا يكون محقِّقًا للفائدة، بل هو يجرُّ إلى عناء في التنبؤ بالمستقبل من أحوال الفيضان، ويفتح باب خلاف وتشادٍّ، ثمَّ يحتمل أن لا يرجع إليه قط، واللَّجنة إذا أخذت بالحقائق الثابتة والاعتبارات العامَّة المبيَّنة في الفقرة ٤١ لا تقترح تغييرًا ما في الخطَّة الأولى التي تُجيز أن تستمد ترعة الجزيرة من التَّصرف الطَّبيعي للنَّهر إلى ١٨ يناير مقادير الماء التي تكررت لها من أول الأمر في كتاب (ضبط النيل).

لكن الاعتبارات المبيَّنة في الفقرة ٤١ لا تسري على المقادير الإضافية، واللَّجنة لم تجد بُدًّا من أن يكون للسنين الشحيحة دخل في الآراء التي تُبديها، ولو جرَّ ذلك إلى جدول التَّدرُّج ومتاعب العمل به، وإن هناك فرقًا كبيرًا بين أخذ الماء عند سنار في الثمانية عشر يومًا الأولى من يناير وبين أخذه في ديسمبر؛ لأنَّ المأخوذ في يناير قد يؤثر في كمية مياه الرَّي اللازمة لمصر، على حين أن المأخوذ في ديسمبر لا يشعر بأثره في مصر إلَّا في وقت سد الترع، وهو وقت انسياب الماء في البحر الأبيض، وليس فيه مصلحة تُراعى إلَّا مصلحة الملاحة. فالمقياس الذي يستأنس به عند التَّفكير في تحديد التَّاريخ الذي فيه ينبغي الكفُّ عن سحب الماء الإضافي من التَّصرف الطَّبيعي، هو أثر هذا السحب في الملاحة في مصر.

لا وجود لتقدير حاسم في بيان كمية الماء التي يمكن اتخاذها حدًّا أدنى لما تطلبه الملاحة في وقت ما و(ضبط النيل) يقدر لها في يناير مقدارًا من الماء يتراوح بين ١٥٠٠ و٢٣٠٠ مليون خلف أسوان، وتقرير الأغلبية في لجنة مشروعات النِّيل يشير بجعل المقدار اللازم للملاحة ١٥٠٠ مليون. وبمقتضى الترتيب المقترح في تقريرنا هذا يكون هذا المقدار كما جاء في الفقرة ٥٦ هو ٧٥ مليونًا في اليوم، أي ٢٣٠٠ في الشهر في الأحوال التي تقل بعض الشيء عن المتوسط، ولا سبيل إلى التَّمسك بهذا الحد الأدنى

حتَّى في أردأ السنين، فلقد نزل التَّصرف في يناير سنة ١٩١٤ إلى ٤٠ مليونًا في اليوم عند قناطر الدلتا بل إلى أقل من ذلك.

ولقد اهتدت اللَّجنة إلى ترتيب آخر لطريقة بحث غير الطريقة التي تقدم ذكرها؛ ذلك أنَّ التَّصرف الطَّبيعي للنَّهر كما هو ظاهر من الرسم رقم ٦ بمعدل مليون متر مكعب في اليوم في آخر يناير عند القناطر يقابله آخر ديسمبر هو على وجه التقريب ١٤ مليونًا في اليوم، وعلى هذا فكل ما وقع في مصر في السنين الماضية يقع مبكرًا بأربعة عشر يومًا، وإذن يمكن الاتِّفاق على جدول تدرُّج بمقتضاه يقدم تبعًا لطبيعة الموسم تاريخ الكشف عن سحب المقادير الإضافية حتَّى يصير هذا التَّاريخ في السنين التي تشابه سنة ١٩١٣–١٩١٤ يوم ١٨ ديسمبر بدل ٣١ ديسمبر، وهو اليوم المحدد للسنين المعتادة.

يمكن اعتبار مجموع التَّصرف الطَّبيعي في أسوان في شهر ديسمبر مقياسًا يستدل به على حالة النِّيل، ولدينا لتحديد الأحوال التي يسري عليها تاريخ ٣١ ديسمبر تقديران؛ أحدهما الوارد ذكره في الفقرة ٦٣ يدلُّ على أن هذا التَّاريخ كان ينبغي أن يكون ٢٨ ديسمبر في سنة ١٩١٩–١٩٢٠، والثاني التَّقدير الوارد ذكره في الفقرة ٦٢، وهو يدلُّ على أن هذا التَّاريخ ٢ يناير، ولقد كانت جملة التَّصرف في ديسمبر من سنة ١٩١٩–١٩٢٠، ٤٤١٠ مليونات كما هو ظاهر من الذيل (ي). أما في السنوات الست التي اتُّخِذت أساسًا للتقدير الثَّاني، فقد بلغ معدل التَّصرف ٤٨٦٠ مليونًا، وإنه يناسب أن تجعل بداية جدول التَّدرُّج الذي تقترحه نحو ٤٧٠٠ مليون، ونهايته ٢٨٠٠ مليون، وهي جملة التَّصرف في سنة ١٩١٣–١٩١٤، فيكون التَّاريخ الذي يجعل حدًّا لاستمداد السُّودان القدر الإضافي، أي ٨٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية هو ٣١ ديسمبر في جميع السنين الشحيحة يقدم التَّاريخ بنسبة ٣ أيام عن كلّ ٤٠٠ مليون من الفرق ٤٧٠٠ مليون، ومقدار التَّصرف الفعلي للنَّهر في ديسمبر.

قد لا تخلو المقادير المترتبة على جدول التَّدرُّج هذا من تقريب يسير، لكن هذا الجدول قد استنبط من المعلومات التي بين أيدينا، وبني على الاعتبار الوحيد الذي يمكن مراعاته في هذا الفصل من السنة، وهو مطالب الملاحة غير الممكن تحديدها على وجه الدِّقة، وهذا الجدول يتَّفق مع الأرصاد، ويحقق غاية ترمي إليها اللَّجنة، وهي وضع نظام لماء السُّودان يمكن أن يتمشَّى مع طوارئ هذا الفصل التي لا يصح أن يسلم

منها أحد الطرفين. وهذا سيضطر السُّودان إلى الاستمرار في السحب من النَّهر إلى آخر ديسمبر، على أن يرد ما زاد عن حقِّه فيما بعد حين يتسنَّى الحكم على حالة السنة.

لدينا اعتراضان خطيران على جدول التَّدرُّج هذا: الأول أنَّه قد يفتح باب الخلاف في الأرقام التي بني عليها، وقد يكون التقيد بتاريخ ثابت لا يحتمل الخلاف خيرًا من الأخذ بطريقة إذا استحسنت من الوجهة النظرية فهي قابلة من الوجهة العملية لأن تجرَّ إلى تشادٍّ بين الفريقين الآخذين بها، والثاني — وهو يعزز الأول — أن جدول التَّدرُّج هذا مبني على التَّصرف الطَّبيعي في أسوان، ومتى كان على النِّيل قبل أسوان خزانان آخران يشتغلان، فإنَّ تقدير التَّصرف الطَّبيعي في أسوان يكون أمرًا عسيرًا تدخل فيه عدة عوامل غير يقينية، لكن جدول التَّدرُّج مع ذلك كله هو خير وسيلة ترى فيها اللَّجنة ضمانة لتشغيل ترعة الجزيرة فيما يتعلَّق بالتوسع الزراعي على النحو الذي يلائم السنين الشحيحة.

(٩) الرَّي بالطُّلمبات وري الحياض في السُّودان

قدمنا في فقرة من الفقرات الأولى من هذا التَّقرير أنَّ ما يُروى بالطُّلمبات وما يُروى بطريقة الحياض من أراضي السُّودان قليل المساحة لا يعدُّ في موضوع بحثنا عاملًا من العوامل الكبيرة. لكنَّه مع هذا ينطوي على اعتبارات لها قيمة، وقد فكرت اللَّجنة فيها عامًا، ولا سيما في موضوع الرَّيِّ بالطلمبات.

قبل سنة ١٩٠٤ رخص للسُّودان — بعد موافقة الحكومة المصرية — بإدارة طلمبات تكفي لري ٢٠٠٠ فدان ريًّا دائمًا. ولما أُنشئ خزَّان أسوان في تلك السنة زيدت تلك المساحة ١٠٠٠٠ فدان، ثمَّ زيدت ١٠٠٠٠ أخرى بعد تعلية الخزَّان في سنة ١٩١٢؛ وإذن تكون جملة الأرض المسموح بريها بالطُّلمبات ريًّا دائمًا ٢٢٠٠٠ فدان، غير أنَّ هناك شيئًا من الخلاف في حقيقة مساحة هذه الأراضي منشؤه أنَّ بعض المستندات قد يؤخذ منها أنَّ الـ ١٠٠٠٠ فدان التي أُبيح ريُّها عند إنشاء الخزَّان يدخل فيها ما كان مسموحًا بريه قبل ذلك، على حين أنَّ غيرها من المستندات قد يُؤخذ منه أنَّ هذه الـ ١٠٠٠٠ فدان هي المسموح بريه بعد إنشاء الخزَّان خاصة. نعم إنَّ الفرق بين الاعتبارين ليس بذي شأن كبير. ولكن من رأي اللَّجنة أن تتفاهم جهات الاختصاص في هذه المسألة تجنُّبًا للخلاف في المستقبل.

ولقد أبدى المندوب البريطاني في اللَّجنة رأيًا في هذه المسألة، وهو أنَّه يصح قياسًا على ما كان في الماضي أن لا ترى الحكومتان البريطانية والمصرية ما يمنع من زيادة المساحة التي تُروى بالطُّلمبات ريًّا دائميًّا ٢٠٠٠٠ فدان بعد أن يتم سد جبل الأولياء. لكن هذه مسألة غير هندسية لا تكاد تدخل في موضوعات بحثنا على ما بيَّنا من أمرها في فقرة سابقة من هذا التَّقرير، فالبحث فيها يُثير مسألة أخرى هي: هل للسُّودان — بسبب موقعه الجغرافي لا غير — حقُّ السحب في التَّصرف الطَّبيعي للنيل في وقت تعجيزه.

وممَّا ينبغي التنبيه له أنَّ الرَّي الدائمي يجرُّ — لا محالة — إلى أخذ الماء في وقت انخفاض النَّهر، ومع أنَّ مساحة ما يُروى فعلًا في فصل الصيف كانت دائمًا أقل كثيرًا من المساحة المرخَّص بها فإنَّ هذا الاقتراح يُبيح للسُّودان سحب مياه تنتفع بها مصر الآن، ولكن اللَّجنة امتنعت من أن تُبدي رأيًا قاطعًا، ورأيها: أنَّ تسوية هذه المسألة من غير تدخل هيئة فنية أمر ليس بعزيز على الحكومتين البريطانية والمصرية؛ نظرًا لضآلة المقادير التي يقتضي ذاك التَّوسع المحدود في الرَّي الدائمي بالطُّلمبات أخذها من النِّيل في زمن انخفاضه.

وفوق هذا الرَّي الدائمي الذي ذكرنا أُبيحَ للسُّودان — بأمر من وزارة الأشغال المصريَّة — أن يرفع الماء بالطُّلمبات من ١٥ يولية إلى آخر فبراير (باعتبار تاريخ السُّودان) من غير تحديد المساحة، وحتى وقتنا هذا بلغ المنزرع بمقتضى هذه الإباحة نحو ١٦٠٠٠٠ فدان. ولقد دلَّ تمحيص الحالات الراهنة — كما هي مبسوطة في هذا التَّقدير — على أن موسم الفيضان — وهو الموسم الملحوظ في تلك الإباحة — لا يمكن اعتباره ممتدًّا إلى ما بعد نهاية ديسمبر (تاريخ سنار). وعلى هذا فالرفع بالطُّلمبات في زمن الفيضان، ينبغي طبقًا للقواعد التي أخذت بها اللَّجنة أن يقف في هذا التاريخ، ولكن الأحوال الزراعية تجعل الرَّي بالطُّلمبات قليل الجدوى إذا قُيِّد بهذه القيود، ومن ثمَّ لم تجد اللَّجنة مندوحةً عن النَّظر في وضع خطة للرَّي النِّيلي بالآلات في السُّودان يعمل بها في المستقبل، وتُراعى فيها القواعد المأخوذ بها في هذا التَّقرير والأحوال الراهنة لمياه النيل.

الحل القريب تعويض الماء الذي يُستعمل للرَّي النيلي بالطُّلمبات بماء من المخزون في سنار، والتَّعديل في طريقة تشغيل الخزَّان يأتي بكمية إضافية يمكن تخصيصها لهذا الغرض، وهي غير داخلة في المقادير المقرَّرة لمشروع ريِّ الجزيرة. ولقد كانت

الخطَّة الأولى لتشغيل ترعة الجزيرة — وقد بيَّنا هذه الخطَّة من قبل — أنْ تبقى جارية من ١٥ إبريل إلى ١٥ يولية، وتستمد من مياه الخزَّان الماء اللازم للأهالي في المنطقة المنزرعة، ولا بُدَّ في هذه الحالة إذن من أن يبقى منسوب الخزَّان بطبيعة الحال عند الحدِّ اللازم لإمداد ترعة الجزيرة بهذا القدر من الماء، ومنسوب التِّرعة بالنسبة لمنسوب النَّهر الطَّبيعي يقتضي في هذه الحالة أن يُحبس في الخزَّان على الدَّوام نحو ١٥٠ مليون متر مكعب من الماء، ولو أنَّ الماء اللازم للأهالي يُرفع بالطُّلمبات لأمكن إطلاق هذا القدر المحبوس في الخزَّان ليجري في النَّهر ويعوِّض ما يُؤخذ منه بالطُّلمبات بعد انتهاء موسم الفيضان، أي بعد آخر ديسمبر (تاريخ سنار).

ولا بدَّ من حبس هذا القدر ثانية في النَّهر في شهر يولية حتَّى يتسنَّى إعداد ترعة الجزيرة للموسم القادم، والرسم رقم (١) يدلُّ على أنَّه في الفيضانات العادية أو العالية لا يوجد أثر ذو بال في حالة المياه بمصر وفي الزمن القابل. وفي سني الفيضان المتأخر كثيرًا يمكن تأخير البدء بالموازنة في خزَّان سنار على حسب الترتيب المقترح في الفقرة ٥١ كي يعيد المقدار المسحوب قليلًا يمكن إغفاله، وهذا ليس بعزيز على جهات الاختصاص، واللَّجنة تشعر بأنَّ ما يطرأ أحيانًا من الحالات الشاذة يجب أن لا يتخذ ذريعة لنبذ الوسائل التي تلائم الأحوال المعتادة ولا تأباها السنون الرديئة، وعلى هذا فالذي تراه اللَّجنة أنَّ الطلمبات التي تعمل في موسم الفيضان إلى آخر فبراير يمكن أن يستمر التَّوسع التدريجي في الترخيص بها كما كان الحال في الماضي ما دام الماء الذي ترفعه بعد آخر ديسمبر يمكن تعويضه بالكيفية المتقدمة.

(٩-١) ري الحياض في السُّودان

في السُّودان حياض مساحتها نحو ٨٠٠٠٠ فدان. لكن لا يُغمر منها إلَّا جزء يسير.

هذه الحياض — فيما هو معلوم — غير صالحة لتحسين يذكر، وليس لها من الوجهة الزراعية كبير قيمة. ذلك أنَّ أراضيها عالية وطبيعتها تأبى ملأها من الترع الآخذة من النِّيل على مسافات بعيدة كما هو الحال في مصر. هذه الحياض سينالها شيء من الضَّرر بسبب سحب الماء عند سنار وجبل الأولياء. لكن القضايا التي تقدمت عند الكلام في حياض مصر تصدق هنا، واللَّجنة لا تعدُّ ريَّ حياض السُّودان ركنًا كبيرًا من أركان الموضوع الذي تعالجه، ولا تجد داعيًا لأن تُدلي بآراء فيه خاصة.

(١٠) الخُلاصة والكلمة الختامية

يمكن تلخيص أهم آراء اللَّجنة فيما يأتي:

(أ) يجب أن تختصَّ مصر بالانتفاع بتصرُّف النِّيل الطَّبيعي من ١٩ يناير إلى ١٥ يولية (تاريخ سنار)، مع مراعاة ما سيذكر بعد عن طلمبات السُّودان.
(ب) لترعة الجزيرة أن تبدأ باستمداد مائها من التَّصرف الطَّبيعي للنَّهر في يوم ١٦ يولية على أن يرفع منسوبها حتَّى يصل في ٣١ يولية إلى منسوب الرَّي المقرَّر طبقًا للجدول الذي وُضِع لهذا الغرض في كتاب (ضبط النيل)، والمُثبت هنا في الذيل «د»، بشرط أن يكون معدَّل مجموع التَّصرف عند سنار وملاكال قد وصل إلى ١٦٠ مليون متر مكعب في اليوم أثناء الخمسة الأيام السَّابقة، مع تقديم تاريخ ملاكال عشرة أيام.
(جـ) من أول أغسطس إلى ٣١ ديسمبر يمكن لترعة الجزيرة أخذ المقادير الآتية بعدُ من النَّهر، مع التزام التَّدرُّج المبيَّن بالجدول الوارد في الفقرة ٥٧ من هذا التَّقرير، وهذه هي المقادير:

- من أول أغسطس إلى ٣٠ نوفمبر ١٦٨ مترًا مكعبًا في الثَّانية.
- من أول ديسمبر إلى ٣١ ديسمبر ١٦٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية.

وبشرط أنَّ جملة التَّصرف الطَّبيعي للنَّهر في ديسمبر عند أسوان إذا قلَّت في أي سنة عن ٤٧٠٠ مليون متر مكعب تُؤخذ من التَّصرف الطَّبيعي ٨٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية أثناء شهر ديسمبر كله، والباقي يؤخذ من التَّصرف الطَّبيعي إلى تاريخ يتقدم عن آخر هذا الشهر بمقدار ثلاثة أيام لكل ٤٠٠ مليون متر مكعب تنقصها جملة التَّصرف الطَّبيعي في تلك السنة عن الـ ٤٧٠٠ مليون متر مكعب.
(د) لترعة الجزيرة أن تأخذ في شهر يناير أكثر من القدر الذي قرَّره لها كتاب (ضبط النيل)، أي ٨٠ مترًا مكعبًا في الثَّانية، من أول الشهر المذكور إلى ١٥ منه، و٥٢ مترًا مكعبًا في الثَّانية من ١٦ إلى ١٨ من هذا الشهر، فتكون جملة المقرَّر لها ١١٧ مليون متر مكعب.
(هـ) (تمام ملء خزَّان سنار ورفعه من المنسوب اللازم لملء الترعة إلى منسوب التَّخزين المقرَّر يكون في نوفمبر طبقًا للبرنامج المقرَّر في كتاب ضبط النيل.

(و) كلُّ توسيع في الرَّي بالطُّلمبات أثناء الفيضان يقوم به السُّودان إلى آخر فبراير يجب اعتبار مائه مستمدًّا من خزَّان سنار بعد ٣١ ديسمبر، وبعبارة أخرى يطلق من الماء المخزون في هذا الخزَّان على سبيل التَّعويض لمصر مقدار من الماء يساوي بالحساب المبنيِّ على المعلومات الأكيدة ما استعمله السُّودان في زيادة المساحة المنزرعة، ويجب تشغيل خزَّان سنار بكيفية تضمن تدبير هذا القدر اللازم لتعويض مصر.

(ز) بعد آخر فبراير يقتصر عمل الطلمبات في السُّودان على الرَّي الدائمي المبيَّن بالفقرة ٨١.

(١٠-١) الكلمة الختامية

تتوقَّع اللَّجنة مسَّ الحاجة من وقت لآخر إلى إعادة النَّظر في المسائل التي تناولها التَّقرير، وهي ترى احترام كلّ نظام للرَّي قائم أمرًا لازمًا عند كلِّ نظرة مستقبلة في هذه المسائل، وترى على الأخص وجوب أن لا يعدو السُّودان في استمداد الماء من التَّصرف الطَّبيعي في يناير الـ ١١٧ مليون متر مكعب المقررة له في كتاب (ضبط النيل) عدا ما هو مقرر الآن من حقوقه في الرَّي بالطلمبات. أمَّا سوى ذلك من مطالبه إلى يولية فيكون تدبيره من ماء الخزَّان أو غيره من أعمال تدبير المياه.

ولقد قدَّرت اللَّجنة حقَّ القدر احتمال حاجة مصر في المستقبل بسبب توسيع نطاق ريِّها إلى أعمال ريٍّ تنشأ في السُّودان وما جاوره كأوغندا وكينيا وتانجانيقا. وعند اللَّجنة أنَّ لمصر من هذه الناحية أن تعول على المساعدة التَّامة تلقاها من القائمين بالأمر في السُّودان فيما يتعلَّق بالمشروعات فيه ومن الحكومة البريطانية فيما يتعلَّق بما جاوره من الأقطار.

لم تألُ جهدًا في التماس قاعدة للرَّي عملية التَّطبيق ولا في توقُّع ما قد ينشأ في المستقبل من صعاب، ولا في الاحتياط لهذه الصعاب ما أمكن الاحتياط. وهي لا يفوتها أن المستندات لا تخلو من نصوص قد تكون عند التَّطبيق غامضة لا يسهل تأويلها، ولا أن المسائل التي هي من قبيل مقادير الماء الذي يجري في نهر أو ترعة، أو يمر من عيون خزَّان أو يضيع بالتَّبخُّر أو التَّشرب لا يمكن أن تسلم من خلاف في حقيقة أمرها. ولكنَّ اللَّجنة لا ترى

في مهمتها اقتراح طريقة خاصة يستأنس بها في مثل ذاك الغموض والخلاف، بل يُخيَّل إليها أنَّ ذلك لا يدخل في اختصاص هيئة فنية. لكنَّها تحب أن تثبت هذا المقام رأيًا — وتثبته بقوة — ليس للاتفاقات مهما أحكمت واحتيط في نصوصها للخلاف أن تحجب عن الفريقين الثقة والتعاون وما لهما من شأن خطير في كلِّ ما له صلة بالنيل ومياهه.

وختامًا؛ ترجو اللَّجنة توجيه النَّظر إلى أهمية المُثابرة على دراسة هذا النَّهر وتدوين الإحصائيات عنه تدوينًا منظمًا. وإنَّنا نرى نظامًا مائيًّا محكمًا قائمًا، وبقاؤه على الدَّوام قادرًا على أداء الغرض المقصود منه أمر ضروريٌّ لا غنى عنه فيما يجدُّ من تحسين الرَّي. وفي تنفيذ النُّظم المقترحة في هذا التَّقرير على الوجه الصحيح، بل لا غنى عنه في تنفيذ أيِّ أنظمة أخرى يمكن استنباطها.

تحريرًا بالقاهرة في ٢١ مارس ١٩٢٦.

إمضاء

المندوب المصري: عبد الحميد سليمان

المندوب البريطاني: ر. م. ماكجريجور

(١٠-٢) رأي الأمير عمر طوسون

في كتاب إلى حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا بالاعتراض على ما جاء في خطبته التي ألقاها بالمنصورة من أن منطقة السدود يقع بعضها في السُّودان وبعضها في الأملاك البريطانية. نشرته الجرائد المصريَّة بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٨، وها هو:

حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء.

اطَّلعنا على خطبة دولتكم بالمنصورة، ولفت نظرَنا منها قولُكم عند ذكر جبل الأولياء: «ولقد درست وزارة الأشغال هذا الموضوع من مدة بعيدة، واسترشدت في درسها بكبار الفنِّيين حتَّى انتهت إلى وضع برنامج شامل لتحقيق مطالب الرَّي تضمن إقامة خزَّان بمنطقة جبل الأولياء في السُّودان، وشق قناة لتحويل مجرى النِّيل من منطقة السدود التي يضيع فيها كثير

من الماء في غير جدوى، وهذه المنطقة يقع بعضها في السُّودان وبعضها في الأملاك البريطانية، ثمَّ خزَّان بحيرة ألبرت الواقعة في الأملاك البريطانية» — إلى أن قلتم — «ولو سلمنا بنظرية القائلين بوجوب وقف أعمالنا على النِّيل الخارج عن الحدود المصريَّة لتمشَّى حكم هذا التعطيل ليس على جبل الأولياء فقط لوقوعه في السُّودان الذي لا ننكر سيادتنا عليه. بل تتناول بالأولى مشروعات أعالي النِّيل بما فيها منطقة السدود الذي تقدمت وزارة الأشغال للقيام بالأعمال فيها بطلب مليون ومائة ألف جنيه في سنة ١٩٢٥، وأقرَّها مجلس الوزراء على هذا الاعتماد، كما أقرَّه البرلمان في سنة ١٩٢٦ في حين يعلم الجميع أن من هذه المنطقة ما يقع في السُّودان المصري، ومنها ما يقع في الأملاك البريطانية.

هاتان هما النقطتان اللتان لفتتا نظرنا بنوع خاص في خطبة دولتكم؛ ذلك أنَّ منطقة السدود المذكورة جميعها داخلة ضمن حدود السُّودان المصري القديم حسب ما كان عليه قبل الثَّورة المَهديَّة، وكذلك مخرج النِّيل من بحيرة ألبرت نيانزا المراد عمل السد فيها لجعل تلك البحيرة خزانًا هو أيضًا جزء من مديرية خط الاستواء المصريَّة، ظل محكومًا بمصر حتَّى آخر عهد أمين باشا، وهو آخر مدير لتلك المديرية السُّودانية المصريَّة إلى نهاية الحكم المصري الفعلي للسُّودان. وقد شمل الحكم جزءًا من شواطئ هذه البحيرة، وأقام فيه المعاقل العسكرية التي بقيت حتَّى شاهدها ستانلي في سياحته المشهورة عندما توجَّه إلى هذه الجهة لتخليص أمين باشا ظاهرًا ولمحو الآثار الباقية لمصر بتلك المنطقة في الحقيقة. ثمَّ توجَّه الكابتن لوجارد إلى هناك، واستخدم الجنود المصريَّة المتروكة فيها باسم الشركة البريطانية الأفريقية الشرقية، واستولى على أوغندة والقسم الجنوبي من مديرية خط الاستواء، وبسطت الحكومة البريطانية حمايتها على البلاد. ثمَّ عقدت بعد ذلك مع مصر معاهدة سنة ١٨٩٩. ولو احترمت هذه المعاهدة كما تدَّعي لكان أول واجب عليها إرجاع هذه البلاد وجعلها تحت إدارة حكومة السُّودان، حيث إنَّ هذه المعاهدة تشتمل عموم الأراضي التي يتكون منها السُّودان المصري القديم كما كان عليه قبل الثَّورة المهدية. ولكنَّها لم تفعل هذا الواجب ولم تراعه في تطبيق هذه المعاهدة، وهذا لا يجعلنا نعتبر عملها الذي استندت فيه

إلى القوة وحدها عملًا شرعيًّا. فإنَّ إنكلترا التي أخرجت مارشان من فاشودة بحجة أنَّها جزء من السُّودان المصري ما كان ينبغي لها بعد ذلك أن تسلخ جزءًا منه لنفسها، وهذه الحجة لا تزال إلى الآن باقية. وإنَّنا كتبنا إلى دولتكم هذا محافظة على حقوق مصر وبيانًا للحقيقة. وتفضلوا دولتكم بقبول مزيد سلامنا.

١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٨

الإمضاء: عمر طوسون

(١٠-٣) النيل في عهد قدماء المصريين

يقول الأديب محسن عبد الفتاح حسين:

كان قدماء المصريين يطلقون على نهر النِّيل اسم «حابي» ”Hapi“، وهم لم يعرفوا مكان منبعه الحقيقي، وكانوا في تراتيلهم وتسبيحاتهم إلى إله النِّيل يصفونه ب «الإله المختفي» و(غير المرئي)، وأنَّ مكانه السري غير معروف. والنهر الذي يشرف عليه هذا الإله (وهو نهر النيل) كانوا يعدُّونه جزءًا من النَّهر أو المحيط السَّماوي الكبير الذي تسير عليه قوارب إله الشمس كلَّ يوم. وكانوا يعتقدون أنَّ هذا النَّهر السماوي يحيط بجميع بقاع الأرض، ولكنَّه ينفصل عنها بسلسلة من الجبال، وأن على ناحية من هذا النَّهر يُوجد عرش أوزيريس تبعًا لنص من نصوصهم الدينية، وبجانبه فتحة في سلسلة الجبال ينحدر منها فرع من النَّهر السَّماوي ويسيل على الأرض، وكانوا يقولون: إنَّ المكان الذي يظهر فيه النِّيل هو عند الشلال الأول، ولكنْ في العصور الأخيرة من عهدهم كانوا يقولون: إنَّ النِّيل يرتفع وينبع من بين جبلين قريبين من جزيرة أنس الوجود، وقد أسمى هيرودوتس هذين الجبلين (كروفي) و(موفي)، وهذان الاسمان محرَّفان عن الأصل المصري وهو (كور حابي) و(مو حابي)، ومعناهما على الترتيب (كهف حابي) و(ماء حابي).

وكان قدماء المصريين يطلقون على كلٍّ من نهر النِّيل وإله النِّيل الاسم (حاب) أو (حابي)، الذي كان يُنطق في العصور الأخيرة (حوفي) أو (أوفي)، ومعناهما معروف. أمَّا في عصور الأسر الأولى فكان إله النِّيل يُسمَّى (حابور)، ومعناه (حابي الكبير).

والاسم (النيل) الذي يعرف به نهر القطر المصري ليس من أصل مصري، ولكنَّه في الغالب مأخوذ من الكلمة السامية «نهر، نهال» التي حرَّفها الإغريق إلى نهيلوس بالإغريقية وفيلوس باللاتينية، ومنها جاءت كلمة النيل.

ولمعرفة اعتقاد المصريين في قوة إله النِّيل تقرأ هذه التسبيحات — المقدمة لنهر النِّيل — وهي مكتوبة على ورقة من البردي محفوظة في المتحف البريطاني:

> لك الإكرام يا حابي، إنَّك تظهر لكي تجعل مصر تعيش، إنَّك تروي الحقول التي خلقها رع، وتمد جميع الحيوانات بالحياة، وعندما تنزل من السماء فإنَّك تمد الأرض بالمياه بدون انقطاع، إنَّك صديق الخبز وكل ما يشرب، إنَّك تمدُّ الحبوب بالقوة وتجعلها تنمو وفيرة، إنَّك تملأ كلَّ مكان بالعمل — إنَّك سيد السَّمك، إنَّك خالق الحنطة والشعير، إنَّك حامي الفقير والمحتاج، وأنت إذا قهرت في السماء فإنَّ الآلهة ترتمي على وجوهها ويهلك الرجال وتموت النساء، وعندما تظهر على الأرض فإنَّ صيحات الفرح تملأ الهواء ويصبح جميع الناس سعداء؛ لأنَّ كلَّ شخص سينال طعامه، وكل سن ستمد باللحم «أي إنَّ الإنسان سيكون غنيًّا حتَّى إنه سيأكل اللحم»، وأنت الذي تملأ مخازن المنازل بالأطعمة ومخازن الغلال بالحبوب، وتساعد الفقير والمحتاج، إنَّك أنت الذي تجعل الحشائش تنمو وتجعل كلَّ إنسان غير محتاج للآخر.

وفي قطعة أخرى من هذه التسبيحة أيضًا قالوا: إنَّ الإله غير ممثل في تمثال، وإنَّ صوره ليست مرئية «فليس هناك مكان كبير يسعه. وأنت لا تقدر أن تعمل له صورة «أي تتخيَّله» في قلبك». وهذه الكلمات ترينا سبب قلة تماثيل هذا الإله. وفي الحقيقة إنَّ تماثيل إله النيل، كبيرة أو صغيرة، نادرة جدًّا.

أمَّا من حيث عبادة النِّيل فقد كان هناك احتفالان مهمَّان. أولهما في شهر يونيو، ويسمَّى «ليلة الدَّمعة Qorb en Hatiu»؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ في مثل هذا الوقت من السنة تبكي إيزيس ذاكرة نحيبها وندبها الأول على جثة زوجها وأخيها أوزيريس، فتسيل دموعها في النَّهر فتسبب زيادة مياهه وارتفاعها، وهكذا ينشأ الفيضان. وهذه العقيدة كانت لا تزال موجودة حتَّى بضع سنين مضت، ولكن في شكلٍ معدَّل، فكان المصريون — إلى منتصف القرن الماضي — يقيمون احتفالاً في اليوم الحادي عشر من شهر بؤونة «١٧ يونيو» يسمى «ليلة النقطة». ففي هذه الليلة كانوا يعتقدون أن

هناك نقطة تسقط في النِّيل وتسبب زيادة مياهه وفيضانها. أمَّا الاحتفال الثَّاني فكان في منتصف شهر أغسطس، وهو ما يماثل الآن احتفال «العقبة» أو «قطع الخليج». فكانوا يبنون في الخليج سدًّا من التُّراب يبلغ ارتفاعه ٢٣ قدمًا، وعندما يصل منسوب مياه النِّيل إلى هذا العلوِّ، يأتي العمال قُبيل شروق الشمس في اليوم التَّالي لوصول المياه إلى ٢٣ قدمًا، ويُزيلون قليلًا من التراب من على قمة السد، ثمَّ يُؤتَى بقارب يركب فيه البعض ويجرفون تجاه السدِّ الذي يكون قد ضعف لإزالة قليل من التراب من على القمة، فينكسر وينقطع فتمر مياه النِّيل بقوة جارفة أمامها السد. وهذا الاحتفال يُشبه الاحتفال الذي يقوم به أهالي رأس البر ودمياط تمام الشبه.

ولم يكن النِّيل طبعًا يرتفع كلَّ سنة الارتفاع المطلوب، فكانت تنشأ من ذلك التَّحاريقُ وتتسبَّب المجاعات عنها. ففي عصر الملك زوسر — من الأسرة الثالثة — حدث أن انخفض النِّيل سبع سنوات، فنشأت من ذلك مجاعة هائلة نتج عنها أنَّ الجار كان يسرق جاره، وكان الشُّبَّان لا يقدرون على السير، والرجال الأقوياء يسقطون على الأرض من شدة الجوع، والعجائز يتمدَّدون على الأرض على ظهورهم منتظرين الموت، وتقول قطعة الصخر المنقوش عليها هذه القصة: إنَّ الملك زوسر كتب إلى حاكم إقليم الشلال الأول، لأنَّهم — كما ذكرت — كانوا يعتقدون أن النِّيل يرتفع من هناك، يطلب منه أن يسأل الإله خنوم Khnum، إله الشلال، لماذا يسمح بحدوث هذه الأشياء؟ وتستمر النُّقوش فتقول: إنَّ الملك زوسر عوَّل أخيرًا على زيارة جزيرة أنس الوجود، حيث قابله الإله خنوم الذي قال له: إنَّ سبب انخفاض النِّيل هو أنَّ الناس أهملوا عبادة آلهة الشلال. فوعده الملك بأنه سيعنى بذلك، وأنَّه سيأمر بتقديم القرابين إلى المعابد بانتظام. وقد وفَّى الملك بعهده؛ فارتفع النِّيل وغطَّى الأرض وسبب ازدياد ثروة البلاد. وهذه الرواية مأخوذة من نقوش على قطعة حجر من عصر البطالسة وُجِدت في جزيرة عند الشلال الأول. ا.هـ.

الفصل الثالث والعشرون

الخزانات

ترتب على مشروعات النِّيل وتنظيم توزيع ماء الرَّي بين مصر والسُّودان، التَّفكير في إنشاء خزانات على النيل، فأُنشئ من الخزَّانات:

(١) خزَّان أسوان وتمت تعليته مرتين.
(٢) خزَّان سنار «مكوار سابقًا»، وقد تقررت تعليته قريبًا.
(٣) خزَّان جبل الأولياء ويتم بناؤه في سنة ١٩٣٧.
(٤) مشروع خزَّان بحيرة ألبرت.
(٥) مشروع خزَّان تانا. والأخيران في دور التَّفكير والبحث والمفاوضة والتمهيد، ولم يُوضع لهما تصميم معيَّن، ومن باب أولى لم يُبْدأ فيهما.

وقد اكتنفت السِّياسة هذه المشروعات، وكان أشد مظاهر ذلك هو خوف المصريين من أن يُتَّخذ بناء خزانات مصرية أو سودانية للإضرار بالرَّي المصري، أو أداةً لإكراه مصر على ما تأباه.

ونتكلَّم هنا على منطقة السدود، ومشروع خزَّان ألبرت. ومشروع خزَّان تانا. وفي الجزء الثالث من هذا الكتاب نُسهب الكلام على خزَّان سنار، وخزَّان جبل الأولياء، وخزَّان أسوان؛ لأنَّنا زرنا هذه الخزَّانات، فنحن نكتب عن معاينة لا عن علم فقط.

يقول أحد المهندسين: «إنَّ فكرة التَّخزين قديمة في مصر، وترجع إلى عهد الفراعنة، فقد عنوا بتنظيم التَّخزين، واختاروا له المنخفض الذي تشغله الآن مديرية الفيوم. وقد أطلق الإغريق على هذا الخزَّان اسم بحيرة «موريس» (راجع تاريخ مصر للعلامة السر ملندرس ستري ج١ ص٢٠ إلى سنة ٢٠٤)».

وقام قدماء المصريين كذلك بإنشاء خزانات في وديان السيول في الصحراء الشرقية وفي شبه جزيرة سينا لتخزين مياه الأمطار والسيول، والانتفاع بها في سقي بعثات التَّعدين وعمال المحاجر «راجع كتاب علم الآثار المصريَّة للعلامة جاستون مسبيرو صفحة ٣٩–٤١». وكان الرومانيون يخزنون ماء الأمطار في آبار في الصحراء الغربية.

ولَمَّا ولي المغفور له محمد علي باشا أمر مصر اهتمَّ بتخزين المياه، فأنشأ خزانًا في مديرية البحيرة على أرض واسعة لا تزال تسمَّى أرض الخزَّان، وهي الآن ملك للأمير عمر طوسون، وكان الغرض من هذا الخزَّان تغذية ترعة المحمودية في الصيف، فلمَّا أنشئت طلمبات العطف بطل استعمال هذا الخزان.

واهتم المغفور له محمد علي باشا كذلك بإنشاء خزانات للنيل لزيادة الإيراد الصَّيفي، وكلف لينان باشا كبير مهندسيه البحث عن مكان خزَّان «موريس» وإمكان إعادته، فلمَّا وجد لينان باشا التكاليف كثيرة اقترح إنشاء سد على النِّيل عند جبل السلسلة «راجع مذكِّرات لينان دي بلفون صفحة ٣٩٧–٤٢٠–٨٨».

ولما احتلَّ الإنكليز مصر أحضروا إليها نخبة من مهندسيهم الذين كانوا في الهند لإصلاح الرَّي، وقد وجدوا أمامهم اقتراحين لتخزين المياه، وهنا يصح أن ندع السير ويلكوكس يتكلم، فقد قال في كتابه «الري في مصر صفحة ٤٢٤ الطبعة الثَّانية» ما يأتي:

> في سنة ١٨٨٠ (أي قبل دخول الإنكليز مصر) اهتمَّ الكونت دي لامون الفرنسي بمسألة الخزَّانات، فاقترح إنشاء سد على النِّيل عند جبل السلسلة لتخزين المياه إلى جنوبه، أي في سهل كوم أمبو، وقدر التكاليف بأربعة ملايين من الجنيهات، وذلك عدا التعويضات، وقدر كمية المياه التي يسعها هذا الخزَّان بنحو سبعة مليارات من الأمتار المكعبة.
>
> وفي سنة ١٨٨٢ اقترح المستر كوب هويتوس الأمريكي إنشاء خزَّان في وادي الريان (الذي يقع في الصحراء الغربية إلى جنوب الفيوم)، أي في الوادي الذي سبق للينان باشا أن ذكره ورسمه في خريطته.

ولَمَّا نجح الإنكليز في إصلاح قناطر الدلتا وجعلها قادرة على تغذية الرياحات وترع الوجه البحري في الصيف بفضل تهيئة المال اللازم لذلك، بدأوا يدرسون المشروعين اللذين أسلفنا ذكرهما في أثناء كلام السير ويلكوكس، ولكن الأمر انتهى إلى حفظهما

لاختلاف الآراء فيهما، ويرجع الفضل في بيان قيمة هذين المشروعين من الوجهة الفنية إلى بعض كبار المهندسين المصريين في ذلك الوقت مثل سالم باشا وغيره.

وإلى هذا الوقت لم تكن فكرة التَّخزين في مجرى النَّهر قد أخذت حظها من الوجود. وقد كان في الإمكان أن تقف فكرة التَّخزين في ذاتها أمدًا بعيدًا لولا أنْ هيَّأ الله لمصر مهندسًا فرنسيًّا هو المسيو برومب — العضو بمجلس إدارة السكك الحديدية المصريَّة — فلفت نظر المهندسين الإنكليز إلى التَّخزين في مجرى النَّهر ذاته، وكان هذا الاقتراح هو مفتاح الفرج، وفي ذلك يقول السير ويلكوكس في كتابه الذي أسلفنا ذكره صفحة ٤٢٥ ما يأتي:

> في سنة ١٨٨٩ اقترح المسيو برومب — العضو بمجلس إدارة السكك الحديدية المصريَّة — استخدام مجرى النِّيل نفسه للتخزين ما دامت لا توجد سهول منخفضة متصلة بالنيل وتصلح للتخزين.

وقد رحب المهندسون الإنكليز بهذا الاقتراح، وعيَّنوا السير ويلكوكس لدراسة مجرى النِّيل في بلاد النوبة لتعيين أفضل موقع للسد الذي ينشأ على النِّيل للتخزين، وقد عُيِّن أربعة من المهندسين المصريين مع السير ويلكوكس لهذا الغرض، نذكر منهم المرحومين محمد بليغ (بليغ باشا فيما بعد)، ومحمد صابر، وعبد الرحمن رشدي، وعبد الله حسين.

وقد انتهت هذه الدراسة باختيار رأس شلال أسوان باعتباره أحسن موقع للسد.

(١) خزان أسوان وإنشاؤه وتعليته

وهنا يبدأ دور خزَّان أسوان من حيث إنشاؤه وتعليته. وضع السير ويلكوكس مشروعًا لإنشاء السد. وفي سنة ١٨٩٤ استدعيت لجنة دولية لفحص هذا المشروع، وكانت مؤلَّفة من ثلاثة أعضاء؛ أحدهم إنكليزي، وثانيهم فرنسي، وثالثهم إيطالي. وقد قدمت اللَّجنة تقريرين لأنَّها لم تُجمع على رأي واحد، فقد انضمَّ العضوان الإنكليزي والإيطالي الواحد إلى الثَّاني، وانفرد العضو الفرنسي برأي قدم به تقريرًا مستقلًّا أخذ بأهم ما فيه بعد ذلك عند التَّفكير في حماية مجرى النَّهر من سقوط مياه الخزَّان؛ لأنَّها أحدثت تآكلًا في الصخر.

وقد أدخل تقرير الأكثرية تعديلات مهمة على مشروع السير ويلكوكس.

وفي سنة ١٨٩٨ بُدئ بإنشاء الخزَّان، وأُبعِد المهندسون المصريون عنه ليستقل المهندسون الإنكليز بفخره، وشملت هذه الخطَّة المهندسين الأربعة الذين قاموا بنصيب كبير في دراسة النِّيل وعمل ميزانيته مع السير ويلكوكس. وقد انتهى العمل في الخزَّان وافتتح سنة ١٩٠٢، وبلغت تكاليف إنشائه أربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات، ولكنَّه ما كاد يستخدم حتَّى ظهرت عيوب في بنائه، واقتضى الحال عمل «فرشة» خلفية له انتهى العمل فيها في سنة ١٩٠٧، وقد بلغت تكاليف هذه «الفرشة» ٢٨٢٧٠٠٠ جنيه، وكان إنشاء هذه الفرشة تنفيذًا للملحوظة التي كان قد أشار إليها العضو الفرنسي في لجنة ١٨٩٤.

ولم يكد العمل ينتهي من «الفرشة» حتَّى ظهرت فكرة التعلية الأولى، فاضطر المهندسون الإنكليز إلى إزالة جزء من «الفرشة» حتَّى يتمكنوا من عمل التعلية، وقد بلغت تكاليف التعلية الأولى مليونًا ونصف مليون من الجنيهات.

وهنا يصح أن ننقل رأي السير ويلكوكس في هذه التعلية. فقد قال في الطبعة الثالثة من كتابه السالف الذكر صفحة ٧٤٢ ما يأتي: «وقد حدثت شروخ بسيطة وشقوق في البناء الجديد ففرغت اللحامات لتمرَّ فيها مياه الرشح بعد تغطيتها «بكحلة كاذبة».»

واستدعى الأمر ترميمات كثيرة حتَّى ثبت البناء كما هو مدوَّن في تقارير وزارة الأشغال من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩١٦.

أمَّا التَّعلية الأخيرة، فإنَّ تاريخها لا يزال عالقًا بالذاكرة، ولا يزال ماثلًا للأعين أنَّ اللَّجنة الدولية التي دُعيت لدرس التَّعلية الثَّانية في سنة ١٩٢٨ لم تأخذ برأي السير ماكدونالد — مستشار الخزَّان الفني — في طريقته الفنية للتعلية، ولا برأي المستر بكلي الذي كان معهودًا إليه بتحضير مشروع التعلية (راجع تقرير اللَّجنة الدولية ص٤ الذي نشرته الحكومة المصرية)، وكان الرأي السائد في اللَّجنة هو رأي المستر كوبر العضو الأمريكي. وممَّا هو جدير بالذكر أن وزارة الأشغال أخذت عهدًا على السير ماكدونالد أن ينفِّذ التَّصميم الذي وضعته اللَّجنة الدولية حين تعيينه مستشارًا فنيًّا للتَّعلية.

(١-١) منطقة السدود

ألقى الدكتور هيرست — مدير مصلحة الطبيعيات — محاضرة علمية بجمعية الفنون الملكية بلندن عن منطقة السدود ننشرها فيما يلي:

إنَّ المقصود بالسدود هنا تلك النباتات الطُّفيلية والحشائش وأشجار البردي التي تعوق انحدار الماء في بعض فروع النِّيل الأبيض. وهي كثيرة وكثيفة في المنطقة الواقعة بين خطي عرض ٦ و١٠، حيث يجري بحر الجبل وبحر الظراف وبحر الغزال ونهر بيبور وبعض فروعه. وهي تنمو كذلك في طريق النِّيل في أوغندا، بيد أنَّ انتظام الملاحة في الوقت الحاضر في بحر الجبل والظراف والغزال تجعل تماسك هذه العشاب نادرًا. وقد كانت في الماضي تلتفُّ حول بعضها وتنمو وتتكاثف؛ فتعيق الملاحة شهورًا كما قال سير صموئيل بيكر.

و(منطقة السدود) تطلق الآن على الإقليم المليء بالمستنقعات الذي يحف ببحر الجبل وبأعالي بحر الظراف فيما بين بحيرة «نو» و«وبور» على خط عرض ٦، ويجوز أن ندمج فيها كذلك إقليم المستنقعات الذي يحف ببحر الغزال، وإقليم بيبور الذي لبعض نهيراته صفات ومميزات بحر الجبل وبحر الغزال.

لم يكن أعالي النِّيل الأبيض معروفًا قبل أن تجوسه البعثات التي أرسلها من مصر المغفور له محمد علي باشا فيما بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٢. وقد أنشئت بعد ذلك في تلك المناطق محاط تجارية، وأتمَّ السياح الأوربيون اكتشاف ذلك الإقليم بالتدريج إلى أن كانت ثورة المهدي، فامتنع السُّودان على المكتشفين في المدة بين سنتي ١٨٨٢ و١٨٩٨، ولم يكن معروفًا في ذلك الوقت عن نظام فروع النِّيل وأهمية النِّيل الأزرق والنيل الأبيض إلَّا النَّزْر اليسير.

وقد أورد سير هنري لبونز في كتابه (جغرافية النيل) كلَّ ما كان معروفًا عن حوض النِّيل حتى سنة ١٩٠٥. وإنَّه لمن دواعي سروري أن يكون رئيس هذا الاجتماع هو سير هنري ليونز نفسه. الذي كان في مقدمة الذين ارتادوا هذا الإقليم من العلماء الباحثين.

وصف منطقة السدود

يخرج مجرى النِّيل الأبيض من بحيرتي فيكتوريا وألبرت في سهول أفريقيا الوسطى، ثمَّ ينحدر في الوديان المسطحة التي يتكون منها السُّودان الجنوبي. وهناك يلتقي ببحر الغزال ثمَّ بنهر السوباط الذي يستمد أكبر كمية من مائه من مرتفعات الحبشة.

وأكثر فروع النِّيل تفيض بشدة في موسم الأمطار. ويضعف انحدارها أو يكاد أن يتلاشى في موسم الجفاف. وبعض الفروع يفيض في الوديان فيكوِّن المستنقعات، ونظرًا لانتظام سيل الماء من البحيرات ترى أن بحر الجبل يختلف اختلافًا كليًّا عن سائر فروع النِّيل، حيث لا يطرأ عليه تغيير كبير في موسمي الفيضان أو الجفاف. وإلى هذا الانتظام ثمَّ إلى إمكان صيانة الماء من الانسياب في المستنقعات بإقامة السدود على البحيرات يرجع الفضل في أهمية بحر الغزال إلى كلِّ مشروع يُراد به الانتفاع بجميع ماء النيل.

وتقع أبعد منابع بحر الجبل في بُقعة جبلية جميلة قريبة إلى بحيرة (ليفو) وأقرب إلى (الكاب) منها إلى (القاهرة)، ومن هذه البقعة ينبع أيضًا نهر (كاجيرا) الذي هو أهم نهر يصب في بحيرة إدوارد التي يربطها نهر (سمليكي) ببحيرة ألبرت.

وفي هذا الإقليم توجد قمم «رونزوري» التي يبلغ ارتفاع أعلاها ٥١٢٠ مترًا، وتوجد المنطقة الوحيدة في طول حوض النِّيل التي تعلوها الثلوج باستمرار.

وكمية الماء التي يستمدها النِّيل من ذوبان الثلوج قليلة الأهمية. على الرغم من أن بعض المؤلفين قد ذكروا أنَّ النِّيل يستمد ماء الفيضان من ذوبان الثلوج في الحبشة؛ لأنَّ الحبشة في الواقع لا توجد بها ثلوج دائمة بكمية تستحق الذكر.

هذا وتوجد خمس بحيرات في منطقة بحر الجبل هي بحيرات جورج وإدوارد وألبرت في الوادي الغربي. وبحيرة فيكتوريا وكيوجا في الوادي الشرقي. والحوض الأساسي لهذا النَّهر يخرج من بحيرة فيكتوريا عند شلالات (ريبون)، ويمر بنهاية بحيرة كيوجا (حيث يوجد إقليم منخفض كثير المستنقعات)، ثمَّ يهبط إلى بحيرة ألبرت عند شلالات مرشيزون حيث ينحدر مستوى النَّهر انحدارًا عظيمًا.

وثمة فرع آخر يتكون من نهيرات وادي (ريفت) التي تصب في بحيرات إدوارد وجورج وألبرت.

أمَّا البحر الأساسي فإنَّه يستمر في حوض تحفُّ به المستنقعات حتَّى يصل إلى حدود السُّودان عند منيول، ومن ثمَّ ينحدر سريعًا مسافة ١٦٠ كيلومترًا حتَّى يصل إلى (ريجاف) بالسودان.

وفي المنطقة بين بحيرة ألبرت وريجاف يتلقَّى النَّهر أمواه فروع كثيرة سريعة تفقد أهميتها في موسم الجفاف.

وفيما بين ريجاف والخرطوم «وهي مسافة ١٧٥٠ كيلومترًا»، يظل النِّيل الأبيض صالحًا للملاحة طول السنة.

وانحدار الأرض بعد ريجاف عظيم ويسبِّب تآكل ضفتي النَّهر بين ريجاف وبور، وبسبب هذا التآكل قد اختفت وتلاشت مدينة «كبرو» التي كانت مركزًا حكوميًّا هامًّا أثناء احتلال البلجيكيين لمنطقة «لادو» ويتأثر مجرى النَّهر بعد «بور» بالأعشاب أكثر ممَّا يتأثر بالتآكل.

هذا ومجرى بحر الجبل وبحر الغزال يحفُّ بهما المستنقعات الكثيرة. ومساحة هذه المستنقعات تختلف باختلاف موسم الأمطار.

ففي موسم سنة ١٩١٧ مثلًا الذي امتاز بغزارة أمطاره، ترامت هذه المستنقعات حتَّى وصلت إلى بحر العرب. أمَّا مواسم الجفاف الشديد كموسم سنة ١٩٢٢، فإنَّ المستنقعات لا تشمل غير مناطق ضيقة على ضفتي النهر.

وعندما تنهمر الأمطار تنمو في الوديان حشائش كثيفة ترتفع إلى ٥ أقدام أو ستة أقدام. وتجعل السير والنقل مستحيلًا. وعندما ينقطع انهمار المطر تجف هذه الحشائش، وغالبًا ما يشعل فيها الأهالي النيران قبل موسم الأمطار التَّالي.

وقد قامت شركة المساحة الجوية بلندن بتصوير منطقة بحر الجبل، وهي الآن بسبيل وضع خرائط لهذه المنطقة، وسوف تستفيد من جهود هذه الشركة بالحصول على معلومات جديدة صحيحة عن هذه المنطقة لم يكن يتسنَّى لنا الحصول عليها بأية وسيلة أخرى. فاللشركة الشكر على اضطلاعها بهذه المهمة الشاقة الخطيرة في إقليم بلقع موحش.

ويخرج بحر الظراف من المستنقعات الواقعة شرقي «شامبي»، ثمَّ يستقيم في مجراه مسافة مائة كيلومتر فلا تحف به مشتنقعات تُذكر، وقد أُوصِل ببحر الجبل بواسطة قناتين مهَّدتا بواسطة الكراكات في سنتي١٩١٠ و١٩١٣ بقصد الحصول من المستنقعات على أكبر كمية من الماء.

والنبات الذي ينمو أكثر من غيره شمال شامبي هو نبات البردي: فترى النَّهر ينساب هناك كأنَّما من بين جدارين من شجر ذلك النبات.

ويتَّحد بحر الجبل وبحر الغزال عند بحيرة «نو»، وينحدران شرقًا حيث يُعرفان بعد ذلك باسم النِّيل الأبيض، وتحف المستنقعات بالنيل الأبيض إلى قبيل اتصاله ببحر الغزال، وهناك يستقيم مجراه في حوض جاف الضفتين.

وبحر الغزال نهر بطيء يستمد ماءه من نهيرات أهمها نهر «جور» ونهر «لول»، وهما يحملان إليه كميَّات وافرة من الماء. أمَّا النهيرات الأخرى فإنَّها تختفي في المستنقعات.

ونهر «جور» صالح للملاحة في المدة بين يوليو وأكتوبر، وهو يستخدم في نقل كميَّات كبيرة من البضائع من مدينة «واو» عاصمة مديرية بحر الغزال، غير أن البحارة يعانون كثيرًا من جراء ضيق النهر، ثمَّ من جراء انحرافه المفاجئ في بعض المواقع.

المناخ

ومناخ جنوب السُّودان خاضع لموسم الأمطار في المدة بين إبريل وأكتوبر، ثم لموسم الجفاف من نوفمبر إلى مارس من كلِّ عام، وكمية الأمطار في مختلف الوديان تتراوح بين ٨٠٠ و١٠٠٠ ملليمتر. وتبلغ درجة الحرارة أقصى ارتفاع في شهر مارس. وأقصى هبوط في يولية وأغسطس، ولا توجد هناك برودة بالمعنى المفهوم؛ لأنَّ درجة الحرارة تتراوح بين ٣١ مئوية في شهر يولية ودرجة ٣٨ في شهر مارس.

وموسم الأمطار في جنوب السُّودان هو أبدع المواسم جميعًا من حيث المناخ، ولكنَّه للأسف يجعل النَّقل والتنقل غاية في الصعوبة، حيث يضطر الإنسان في أكثر المناطق أن يجتاز المسافات الشاسعة سيرًا على قدميه. والسير يكاد يكون مستحيلًا في بعض الجهات نظرًا لطبيعة الأرض وكثرة المستنقعات. وفي الجنوب الأقصى حيث لا يمكن استخدام وسائل النَّقل الميكانيكية لا يجد الإنسان مناصًا من استخدام الآدميين للنقل بسبب كثرة ذباب «تسي تسي» الذي يفتك بالدَّواب فتكًا ذريعًا.

النباتات

ونباتات المستنقعات في أعالي النِّيل كثيرة ومحيِّرة لمن لا يعرف علم النبات. فالبردي مثلًا كثيف جدًّا في بحر الجبل، ولكنَّه قليل جدًّا في بحر الغزال. وتُوجد في بعض المناطق

حشائش طويلة كثيفة تعيق الملاحة، كما توجد في مناطق أخرى حشائش عائمة ذات أنواع مختلفة، وقد لا يكون مضيِّعًا للوقت أو المال أن يتوفر الإنسان على دراسة طبائع النباتات في تلك المناطق لمعرفة النوع الذي يمكن إنماؤه على الشواطئ لمنع التآكل.

على أنَّ أضرار هذه الحشائش والنباتات ليست كبيرة كما كانت منذ ثلاثين عامًا حين كانت تسد بحر الجبل وترغم البعثات العلمية والاستكشافية عل قضاء الشهور الطويلة في محاولة إزالتها. ولعل أهم هذه النباتات هو البردي وتلك الحشائش العائمة التي أتينا على ذكرها. فإنَّها تتماسك في بعض الأحيان حتَّى تحجز الماء فيخرج النَّهر من مجراه الطبيعي. وقد تعددت هذه الظاهرة في المدة بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٩٠٣.

وقد حاول الكثيرون استثمار هذه النباتات، ولا تزال توجد بمقربة من بحيرة «نو» بقايا مصنع أُريد به — ولا شك — الانتفاع بتلك الحشائش؛ إذ لا ريب في أنَّه يمكن صنع الورق والبوتاس والوقود والكحول وغير ذلك كله من النباتات غير المحدودة التي تنمو في منطقة السدود. بيد أنَّ غلاء أجور نقل المواد الأولية والمنسوجات من شأنه أن يقضي على مستقبل كلِّ مشروع صناعي.

على أنَّه لَمَّا كان ثمن البترول مرتفعًا جدًّا في جنوب السُّودان وأواسط أفريقيا، فإنَّه من الممكن استنباط وقود جديد من تلك النباتات كالكحول مثلًا. ومن رأيي أن مشروعًا كهذا قد يوتي أُكله ويصبح من المشروعات التِّجاريَّة الهامة.

الحيوانات

توجد في أعالي النِّيل مجموعة عجيبة من الحيوانات الضخمة والصغيرة. فأنت تستطيع دائمًا أن ترى قطعان الفيلة حول بحر الغزال وفي «ريجاف»، وتستطيع أن ترى التماسيح والغزلان والوعول، وقد يسعدك الحظ فترى أسدًا. وقد شهدتُ في إحدى سياحاتي جميع هذه الأنواع كما شهدتُ الحمار البري، والفهد، ووحيد القرن.

وأمَّا الأسماك فكثيرة، وبينها ما يزن مائتي رطل، وأكثرها يزن ٢٠ رطلًا أو ما يقرب من ذلك، غير أنَّه من الصعب اصطيادها بغير الشباك التي يستعملها المصريون.

والطيور كذلك كثيرة، ولكنَّها ليست أكثر من الهوام التي تضايق الإنسان أشد المضايقة، وفي منطقة السدود نوع من الذباب يلدغ الإنسان ويؤلمه، ولكنَّه لا ينقل إليه الجراثيم كما يفعل ذباب «تسي تسي» الذي يحمل جرثومة مرض النوم ويصيب به الإنسان والحيوان على حدٍّ سواء.

وذباب «تسي تسي» غير موجود قطعًا في وديان السُّودان، ولكنَّه كثير في بحيرات الكنغو، وقد عملت الحكومة على إبادته من حوض النِّيل، فلم يعد ذلك الوباء الذي طالما فتك بالأهلين منذ أعوام.

السُّكان

وتقطن وديان تلك المناطق قبائل الدنكا والنوبر والشيلوك، وهم قوم رُحَّل إلى حدٍّ ما؛ لأنَّهم يقيمون حيث تنمو الحشائش، ويرحلون حين تجف، وهم في موسم الجفاف يهاجرون إلى المستنقعات فيعيشون حولها، وكل ثروة هؤلاء القوم هي قطعان الماشية التي يرعونها، والقليلون جدًّا منهم يعيشون في البقاع الجافة الغربية من المستنقعات، ويصطادون السمك أو «جاموس البحر» الذي يقطعونه شرائح ويجففونها في الشمس.

أمَّا في المناطق المحيطة بالأحراش والأدغال، فإنَّ القوم يشتغلون بالفلاحة، فيزرعون الأذرة والبطاطس وأكثر القبائل ميلًا إلى الزراعة هي قبيلة الدنكا.

ورجال النوير والدنكا والشيلوك نحاف القامة، طوال السيقان، يعيشون عُراة الأبدان إلَّا من خيوط من الخرز تستر عوراتهم، أمَّا النساء المتزوجات فيرتدين مآزر من الجلود يمضغونها حتَّى تكتسب شيئًا من النعومة والليونة.

المياه

كنت أريد أن ينصبَّ كلامي على منطقة السدود دون سواها، ولكن أرى لزامًا عليَّ عند تذكر خصائص المياه وطبيعتها في تلك المنطقة أن أتناول المصادر التي يستمد منها النِّيل ماءه.

نرى من خريطة نهر النِّيل أن كمية الماء التي تنصب في هذا النَّهر من فروعه تقدر بمليارات الأمتار المكعبة كلَّ عام، وأنَّ النِّيل الأزرق يمده بـ ٥٧ في المائة من هذه الكمية، ويمده النِّيل الأبيض بـ ٢٩ في المائة، وعطبرة بـ ١٤ في المائة.

ويستمد النِّيل الأبيض نصف مائه من الحبشة، وبذلك تكون الحبشة مصدر ٨٠ في المائة من مجموع ماء النيل، والجزء الأكبر من هذه الكمية يجد سبيله إلى النِّيل في المدة بين يولية وأكتوبر، ويكون محملًا بالطَّمي، وإلى هذا الطَّمي الذي يحمله النِّيل إلى مصر منذ آلاف السنين — وربما ملايين السنين — يرجع الفضل في خصوبة وادي النيل.

أمَّا النِّيل الأبيض فيستمد ماءه من المستنقعات ومن نهر السوباط، ومنه يستمد النِّيل ماءه في الوقت الذي ينحدر فيه منسوبه، وماء النِّيل الأبيض لا يحمل عادة شيئًا من الطَّمي.

بقيت كمية الأربعة عشر مليارًا من أمتار الماء التي يستمدها النِّيل من بحر الغزال وبحر الجبل وبحر الظراف.

فأمَّا بحر الغزال فيمدُّ النِّيل بماء لا يقل عن نصف مليار من الأمتار المكعبة، ويذهب من مائه هباءً خمسة عشر مليارًا بسبب التبخُّر، وبقية الأربعة عشر مليارًا يستمدها النِّيل من بحر الجبل وبحر الظراف، وهذان النهران يفقدان من مائهما أربعة عشر مليارًا «أي ضعف الكمية التي يسعها خزَّان أسوان بعد تعليته» تسيل في الوديان والمستنقعات.

المشروعات

أرى من الضروري أن أتكلم عن نظام الرَّي في مصر قبل أن أتناول موضوع المشروعات التي يمكن القيام بها في أعالي النيل.

إنَّ السنة في مصر تنقسم إلى قسمين: الأول من فبراير إلى يونية، وخلال هذه المدة يتعيَّن إعداد النَّهر بالمزيد من الماء لكفاية حاجة الأراضي الزراعية. والثاني من أغسطس إلى ديسمبر. وفي هذه المدة تزيد كمية الماء عن حاجة الزراع. أمَّا شهر يناير فتغلق فيه الترع لتطهيرها، ولا تكون ثمة حاجة إلى الماء لغير الملاحة.

ففي موسم الجفاف يرتفع منسوب النِّيل بفضل ما يخزن في «خزان أسوان» في المدة بين نوفمبر ويناير عندما يكون الماء صافيًا وخاليًا من الطَّمي بقدر الإمكان؛ ذلك لأنَّه من المقرَّر حتَّى الآن أنَّ الماء المحمَّل بالطمي لا يمكن تخزينه بغير تعريض الخزَّانات لخطر الامتلاء بالطمي. وعليه فقد جرت العادة أن يؤجل ملء خزَّان أسوان إلى أن يصفو الماء.

وهناك مشروعان هامَّان يختصان ببحر الجبل أحدهما إقامة سد عند مخرجه من بحيرة ألبرت بقصد إنشاء خزَّان يسع ٢٠ مليارًا من الأمتار المكعبة، والآخر يرمي إلى الاستفادة بقدر الإمكان من ماء المستنقعات في منطقة السدود شبكة من الترع، وهذان المشروعان يتمِّم كلٌّ منهما الآخر، ولا

يزال كلاهما في المهد، والمقصود بخزان بحيرة ألبرت الاحتفاظ بماء الفيض الشديد لسنوات الجفاف، ولمَّا كانت جوانب هذه البحيرة مرتفعة فإنَّ كمية التبخر لا ينتظر حينذاك أن تتجاوز نسبتها الحالية إلَّا قليلًا.

وثمة مشروع آخر يُراد به إنشاء ترعة في جنوب نهر «بور» بقصد تخفيض فيض نهر السوباط إلى النسبة التي تكفل عدم ضياع مائه. بيد أنَّ هذا المشروع يتطلب كثيرًا من الجهد قبل أن يؤتي ثماره.

أمَّا المشروع الأخير فيتلخَّص في إقامة سد على بحر الجبل عند الجميزة، وتوصيله إلى نهر فيفينيو «فرع البيبور»، وبذلك لا يذهب الماء ضياعًا في المستنقعات، بل ينصب في النِّيل الأبيض عن طريق السوباط.

وهناك مشروعات أخرى كثيرة وضعها مكتب مصلحة الرَّي المصريَّة في السُّودان، وسوف تطرح هذه المشروعات على بساط البحث عندما يظهر ما يدعو إلى الحصول على المزيد من ماء النِّيل الأبيض.

أمَّا خزَّان أسوان فسيصبح من الضروري بعد تعليته التبكير في ملئه. ولقد قرر المهندسون المنوطون بأعمال الرَّي في مصر أن يتحاشوا خطر الطَّمي على هذا الخزَّان، وفكروا في مشروع لتلافي طمي النِّيل الأبيض. فكان مشروع خزَّان جبل الأولياء خير كفيل، وسيقام هذا الخزَّان على النِّيل الأبيض على بعد ٢٥ ميلًا جنوب الخرطوم. وسيُملأ في مواسم ارتفاع الفيضان.

وثمة مشروع آخر كان موضع بحث ودراسة هو مشروع خزَّان بحيرة «تانا» الذي تستفيد منه مصر والسُّودان على السواء، وسيُملأ هذا الخزَّان كذلك في موسم الفيضان. بيد أنَّ الشطر الأخير من الوقت اللازم لملئه يُصادف الشطر الأول من الوقت اللازم لملء خزَّان أسوان بعد تعليته، ومن هذا يتبيَّن أن ملء هذه الخزَّانات جميعًا يتطلب نظامًا ودقةً، ويستلزم تحديد الوقت المبكر لملء خزَّان أسوان من الماء غير المحمَّل بالطَّمي. ولهذا الغرض قد أُعدَّت العدة لإجراء تجربة سوف تكون أهم تجربة من نوعها. فإذا ثبت أنه يمكن ملء خزَّان أسوان في بداية الفيضان بغير تعريضه لخطر الطَّمي، فإنَّ الرأي في جميع المشروعات المقترحة قد يتبدَّل نهائيًّا ويصبح من الممكن درس مشروع إنشاء خزَّان أكبر في أسوان. ا.هـ

الدكتور هيرست

(٢) بيانات أخرى

وقد أرسلت في سنة ١٩٢٤ وزارة الأشغال العمومية إلى وزارة الخارجية لتبليغها إلى الحكومة البلجيكية بشأن مشروع تحويل بحيرة ألبرت إلى خزَّان للنيل والأعمال التي يتطلَّبها هذا المشروع في جزء يقع في بلاد الكونغو البلجيكية. وقد وقفنا على بيانات تفصيلية عن هذا المشروع منذ بدء التَّفكير فيه، ويؤخذ من هذه البيانات أن سير وليم جارستن كان أول من أشار باستعمال بحيرة ألبرت خزانًا للمياه؛ إذ رأى من مقارنة المطالب المائية اللازمة في المستقبل للقطر المصري بمقادير الإيراد المتيسَّر في السنوات الشحيحة أنه يتبيَّن أن الكمية الإضافية اللازمة لا يمكن تخزينها في أي بقعة من حوض النِّيل عدا بحيرة ألبرت، حيث يتسنَّى ادِّخار الكمية الكافية ادخارًا اقتصاديًّا.

وتبلغ مساحة هذه البحيرة نحو ٥٥٠٠ كيلومتر، فإذا ارتفع منسوب مياهها مترًا واحدًا كان ذلك معادلًا لتخزين ٥٥٠٠ مليون متر مكعب. ولما كانت جروف البحيرة تكاد تكون قائمة فإنَّ مساحة سطحها لا تزداد بدرجة عظيمة بارتفاع منسوب مياهها، ولذلك لا يترتب على هذا الارتفاع زيادة يعتدُّ بها في خسائر التبخر حتَّى لو ارتفع المنسوب سبعة أمتار أو ثمانية كما هو مقترح.

وتقدر النفقات اللازمة لإنشاء الخزَّان عند مخرج البحيرة بما لا يتجاوز مليوني جنيه مصري. وأمَّا إنجازه فيرى أن يتمَّ قبل سنة ١٩٤٠.

وقد قال سير مردوخ مكدونالد مستشار وزارة الأشغال سابقًا: «إنَّه لا فائدة من تخزين كميَّات كبيرة من المياه في بحيرة ألبرت إذا لم يضمن توريدها إلى مصر في المكان والزمان المناسبين، ولهذا يجب إنشاء قناة تخترق الغياض الهائلة بمنطقة السدود؛ لأنَّه إذا اكتُفي بإطلاق المياه المخزونة من بحيرة ألبرت إلى مجرى النِّيل الحالي؛ لتسرَّب معظمها إلى الغياض وتبدَّد هناك، ويوجد الآن في أعالي مسايل النَّهر مجرى صالح للغرض المنشود، وكذلك الحال في أسافل مسايل النِّيل الأبيض. أمَّا في منطقة السدود فلا يوجد مجرى وافٍ بالغرض، وهنا يُراد إنشاء القناة المقترحة.»

وكان السير وليم جارستن أول من أشار باستعمال بحيرة ألبرت خزانًا للمياه، وقد رسم الخطط الأساسية للبحث والاستقصاء في هذا الشأن، وتقدم بعده مسيو ديبوي بأعمال البحث والتجارب مرحلة عظيمة، وواصل هذا العمل كذلك مستر توتنهام.

ويتبيَّن من هذا أن مشروع تحويل بحيرة ألبرت إلى خزَّان النِّيل يتطلب مشروعين آخرين أولهما إنشاء القناة التي تخترق الفيافي بمنطقتي السدود، وثانيهما إنشاء قناطر الموازنة، وقد قال سير مردوخ مكدونالد عن هذين المشروعين:

> لا يزال الأمر يقتضي عمل ميزانيات شاقَّة عن الأرض والماء قبل اختيار التَّخطيط الصحيح من بين تخاطيط مختلفة، ولذا كان تقدير النفقات مبنيًّا على التَّخمين، ولكن المعتقد أن مبلغ ١٥ مليون جنيه مصري كافٍ للوفاء بنفقات قناة السدود وما يلزمها من قناطر الموازنة.»

ثمَّ قال:

> ويستدل من المباحث الحديثة التي قام بها موظفو مصلحة الرَّي على إمكان اختيار طريق آخر للقناة فيه تخفيض عظيم للنفقات المقدرة آنفًا، ولكن يحسُن الآن اعتماد النفقات على التَّقدير الأكبر، وذلك إلى أن يتمَّ قياس المناسيب اللازمة ووضع الأرقام والبيانات المحددة. أما إنجاز هذا العمل فيجب أن يكون حوالي سنة ١٩٤٠ في نفس الوقت الذي يتم فيه سد بحيرة ألبرت.

ويقولون في وزارة الأشغال إنَّ نتائج هذه المشروعات الثلاثة هي:

أولًا: منع ضياع في منطقة السدود منعًا كليًّا في السنوات المنخفضة وجزئيًّا في السنين الآخرى.

ثانيًا: الاحتفاظ في بحيرة ألبرت بما كان يضيع في منطقة السدود من المياه حتَّى يتسنَّى إطلاقها في قناة السدود فيما بعد أثناء السنة ذاتها أو ادخارها بمثابة احتياطي لحاجة مصر في سنة ثانية دون أن يفقد منها شيء غير الخسائر المعتادة أثناء الجريان.

ثالثًا: تدبير وسيلة للتَّخلص من المياه الزائدة عن الحاجة أثناء الفيضانات العالية؛ إذ يصبح من المتيسر استبقاء الماء منحدرًا في الوادي بحيث يمكن زيادة كميتها ونقصها حسب مطالب الزراعة في مختلف المواسم.

وعلى هذه النتائج الثلاث هناك نتيجة رابعة ولكنَّها عرضية، وهي حرمان الغياض من جانب عظيم عن المياه التي تتسرب إليها، وربما أدَّى ذلك إلى تصغير مساحتها كثيرًا.

أمَّا المكان الذي ينشأ فيه سد بحيرة ألبرت فهو حاجز من الصخر يوجد على بعد خمسين كيلومترًا من مصب البحيرة في نيل ألبرت — وهو الاسم الذي يطلق على مسيل النَّهر في تلك الجهة — ويقولون في وزارة الأشغال إنَّه إذا تمَّ ذلك أصبح من المتيسر التحكم في منسوب البحيرة على ارتفاع سبعة أمتار أو ثمانية، وإنَّ كلَّ متر من هذا الارتفاع يعادل نحو ٥٥٠ مليون متر مكعب من الماء المدخر، وبذلك يكون الخزَّان معدًّا لنحو أربعين مليون متر مكعب من الماء.

وقال سير مردوخ مكدونالد: «إنَّ بحيرة ألبرت يمكن تحويلها بلا كبير صعوبة لاستخدامها في هذه الغاية.» ثمَّ قال عن المشروعات الثلاثة التي نحن بصددها: إنَّ «كل ما لدينا من المعلومات يدلُّ على أنَّها قابلة للتنفيذ وصالحة لإخراجها إلى حيز العمل، ولا غرو فإنَّها تمنِّي بشكل جلي تدبير الكميات العظيمة من المياه اللازمة لمصر، كما أنَّها لا تشتمل على شيء من المشروعات البنائية التي لم تجرَّب في كثير من البلاد، زد على ذلك أنَّها كلها مبنيَّة على الاستنتاج من المعلومات الثابتة، وليست قط مبنية على شيء من النَّظريات التي لم تُؤيَّد بالاختبار».

وختمَ سير مكدونالد كلامَه عن هذه المشروعات الثلاثة بقوله: «إنَّ منطقة السدود ستُحرم في بعض السدود حرمانًا باتًّا من المياه التي تساعد على إنماء ما فيها من مختلف النباتات، وإن ما يصلها من الماء في السنين الأخرى لن يتجاوز القدر الزائد عن الحاجة، وهذه المنطقة مترامية الأطراف وأراضيها بالنظر إلى موقعها ومناخها ومياه أمطارها أثمن من أن تُترك مستنقعات على الدَّوام، فالمنتظر في المستقبل أن تصرف المياه عن جانب عظيم منها بحفظ جزء من المياه الزائدة عن الحاجة في خزَّان بحيرة ألبرت.

وممَّا سيساعد يومئذ على إتمام هذا التَّصرف مباشرة أعمال الموازنة على بحيرة فيكتوريا؛ حتَّى يتسنَّى منع مياه هذه البحيرة العظيمة من الانحدار إلى بحيرة ألبرت في الفترة الحرجة من موسم الفيضان، فإنَّ مجرد ارتفاع بسيط في منسوب بحيرة فيكتوريا يُعادل تخزين مليارات كثيرة من الأمتار المكعبة، ومتى حكم التوفيق بين عملي البحيرتين معًا أصبح من المتيسر استجماع كلِّ المياه التي تضيع الآن سُدًى بمنطقة

السدود في سني الفيضانات العالية، ومن ثمَّ تزول المستنقعات من تلك البقاع تمامًا، وإذا كان من المحتمل أن تصبح هذه البقاع أرضًا مثمرةً، وليس هناك ما يحمل على الارتياب في أنَّها سوف تتحوَّل إلى إقليم ذي مراعٍ خضراء أو مزارع نافعة أو غابات فسيحة بدلًا من بقائها كما هي الآن غياضًا وَبيئةً لا ينمو فيها إلَّا البردي والبعوض. وعليه فسيشهد السُّودان القاصي وأوغندا — حيث تقع بحيرة ألبرت — تعديلًا فيما لهما من التأثيرات في مياه النِّيل، فيستمر الحسن منها وهو تخفيف وطأة الفيضانات العالية.

هذه هي البيانات التي رأينا نشرها عن مشروع تحويل بحيرة ألبرت خزانًا للنيل؛ لتكون مرجعًا لكل من يريد البحث في هذا الموضوع الخطير.

(٣) مشروع خزَّان تسانا

وكَّلت حكومات السُّودان والحبشة ومصر إلى شركة هويت الهندسية الأمريكية في عمل الأبحاث والمساحات لإنشاء القناطر على مخرج بحيرة تسانا، وإقامة طريق من السُّودان إلى أديس أبابا عاصمة الحبشة مارًّا ببحيرة تسانا.

قد اعتمدت وزارة الأشغال المصريَّة منح تلك الشركة خمسين ألف جنيه كنفقات لأعمالها التمهيدية.

(٣-١) مطامع الدول في الحبشة

بريطانيا العُظمى وإيطاليا وفرنسا هي الدول التي تحيط مستعمراتها بالحبشة من جميع الجهات وتتنافس على تمزيقها، وقد أبرمت عدة معاهدات ثلاثية بين الدول الثلاث وثنائية بين فرنسا وإنكلترا تارة وبين إنكلترا وإيطاليا تارةً أخرى، لتنظيم استعمار تلك الإمبراطُوريَّة الواسعة:

(١) الإنكليز يحيطون الحبشة بمستعمراتهم الآتية: السُّودان المصري وكينيا وأوغندا والصومال البريطاني.

(٢) الإيطاليون يتاخمون الحبشة بمستعمرتي الإرترية والصومال الإيطالي.

(٣) الفرنسيون يتاخمون الحبشة بمستعمرة جيبوتي المعروفة بالصومال الفرنسي، ومنها يمتد خط السكة الحديدية الرئيسي بالحبشة من أديس أبابا إلى ميناء جيبوتي، وهو أهم طريق للتجارة.

الاتفاقات الدولية

الاتفاق الإنكليزي الفرنسي الإيطالي عقد في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٦، وبمقتضاه تحدَّد سرًّا بين الدول الثلاث مركز كلِّ دولة في الحبشة ومناطق نفوذها ومصالحها الإقليمية، واتِّقاءً لإيغار صدور سائر الدول وذرًّا للرماد في أعين الحبشان تضمَّنت ديباجة هذا الاتِّفاق توكيد استقلال الحبشة والمحافظة على وحدتها والحيلولة دون وقوع الاضطرابات فيها. فإذا وصلنا إلى المادة الرابعة من هذا الاتِّفاق انتهينا إلى بيت القصيد، وضبطنا السادة الثلاثة في حالة التلبس، تضمَّنت المادة الرابعة تقسيم المصالح الاقتصادية في الحبشة بين الدول الثلاث، وإذا قلنا المصالح الاقتصادية في الحبشة قلنا كلّ شيء، وهذه المصالح تتلخص في إطلاق يد كلِّ دولة في المناطق الحبشية المتاخمة لمستعمراتها.

ومن الغريب أن الفقرة الأولى تتضمَّن أن مصالح بريطانيا العُظمى ومصر في حوض النِّيل الأزرق تتناول بصفة رئيسية تنظيم مياه هذا النَّهر وروافده.

لهذا أتمنَّى أن تعود وزارة الأشغال المصريَّة فيما عسى تستطيع مصر أن تفيده من هذا الاتِّفاق الثلاثي الدولي الخطير في حوض النِّيل الأزرق ومنابعه، وتتضمَّن المادة التاسعة من هذا الاتِّفاق على أنَّ الدول الثلاث قد اتَّفقت على أن كلَّ مشروع بإنشاء سكة حديدية في غرب أديس أبابا تنفرد إنكلترا به، كما أن مشروع إنشاء سكة حديدية لربط مدينة بنادر في الصومال الإيطالي بإرترية الإيطالية تنفرد بالإشراف عليه والاستئثار به إيطاليا... أما فرنسا فقد استأثرت عمليًّا بخط جيبوتي أديس أبابا.

وتقدم هذا الميثاق الثلاثي اتِّفاق بين الحبشة وإنكلترا تمَّ في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٤، تضمن ترخيص النجاشي منليك للإنكليز بإنشاء سكة حديدية من الصومال البريطاني إلى حدود السُّودان المصري، بشرط أن توافق على ذلك كلٌّ من فرنسا وإيطاليا، ولهذا السبب نشطت إنكلترا إلى عمل ذلك الميثاق الثلاثي في عام ١٩٠٦ كما تقدم؛ لتأمن كلَّ عقبة في طيِّ المستقبل.

والواقع أن الإنكليز قد سهروا على رعاية مصالحهم، وقد حوت المادة الثالثة من هذا الاتِّفاق أنَّه لا يجوز إقامة أعمال على النِّيل الأزرق وبحيرة تسانا ونهر السوباط من شأنها أن تمس جريان المياه بغير موافقة الحكومة البريطانية وحكومة السُّودان، ومن المهم أيضًا أن نذكر بأنَّ المادة الخامسة تضمنت الترخيص لبريطانيا العُظمى بإنشاء خط حديدي عبر بلاد الحبشة ليربط السُّودان بأوغندا (كنيا).

وأوضح أن هذا الاتِّفاق الخطير قد خوَّل الإنكليز حق التدخل في إقاليم الحبشة، وأنشأ لإنكلترا حقًّا صريحًا في مسائل الماء والسكك الحديدية ببعض مناطق الحبشة، وهذا ممَّا أكسب الإنكليز نفوذًا عظيمًا لتوطيد الاستعمار البريطاني في شمال أفريقيا.

وقد حفَّز هذا النَّشاط الإنكليزي ساسة فرنسا إلى منافسة جديدة في الحبشة؛ فقد نشطت حكومة فرنسا إلى إقناع حكومة النجاشي بإبرام معاهدة في سنة ١٩١٢ ترخص لفرنسا بحق إنشاء سكة حديدية تمتد من جيبوتي إلى هرر إلى أنطوطو إلى إقليم كافا إلى النِّيل الأبيض، وفيه كسب متبادل للحبشة ولفرنسا، ولكن هذا المشروع لم ينفَّذ حتَّى الآن.

غير أنَّ حكومتي إنكلترا وإيطاليا تحالفتا على الغنيمة حلفًا جديدًا.

ايطاليا وإنكلترا

دخلت إيطاليا الحرب العُظمى مع الحلفاء، فوعدتها إنكلترا في وثيقة رسمية مؤرَّخة في لندن سنة ١٩١٥ بالمادة ١٣ أنَّه في حالة الانتصار واتساع ممتلكات بريطانيا وفرنسا على حساب ألمانيا، فإنَّه يرخص لإيطاليا بتوسيع مستعمراتها وتمديد حدودها في ليبيا «يعني حدود طرابلس على حساب مصر» وفي مستعمرتي الأرترية والصومال الإيطالي.

وفي سنة ١٩٢٠ حصل اتِّفاق بين لورد ملنر والسنيور شيالوجا بمنح إيطاليا ٩٠ ألف كيلومتر مربع في ليبيا شرقًا تستغرق جغبوب، ونص على تخويل إيطاليا حق تمديد مستعمرتيها المجاورتين للحبشة مقدارًا بمقدار ١١٦٠٠٠ك.م في الأرترية و٢٠٠٠ك.م في الصومال.

واقترحت إيطاليا على إنكلترا أن تتعاقد سويًّا على تنظيم مصالحهما العليا بالحبشة، وتتلخص في الجانب الإنكليزي في إنشاء قناطر على بحيرة تسانا، وعمل طريق من السُّودان إلى البحيرة، وللجانب الإيطالي إنشاء خط حديدي يخترق غرب الحبشة بين الأرترية والصومال مارًّا غربي أديس أبابا، وتخويل إيطاليا حقوق الامتياز على غرب

الحبشة، ودخلت هذه المفاوضات الجديدة إلى دور تبادل الوثائق في المدة من ١٤ إلى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥، ولا تزال إيطاليا ماضيةً في مهمتها الاستعمارية بالحبشة. أمَّا الإنكليز فقد اعترضهم منذ عام ١٩٢٧ عامل دولي جديد، ذلك هو ظهور الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب الحبشة.

أمريكا بالحبشة وتسانا

ليس لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية مستعمرات بالحبشة، ولكنَّها مع ذلك تتمتع بنفوذ كبير لدى حكومة النجاشي بفضل ما حبا الله الأمريكيين من حب حرية الغير، وتشبعهم بالعدالة في تبادل المنافع، وفضلًا عن هذا فإنَّ الأمريكيين يسيطرون على جانب عظيم جدًّا من تجارة الحبشة، وتكاد جلود الحيوان تستأثر أمريكا باستيرادها من الحبشة، وهي من أعظم ثروات الحبشة.

وقد عنَّ لبعض الأمريكانيين أن يقدموا للرأس طفرى في عام ١٩٢٧ مشروعًا جليل الشأن مؤداه اتخاذ بحيرة تسانا خزانًا للمياه لتنظيم الرَّي ببعض أقاليم الحبشة، ثمَّ توليد الكهرباء عند مخرج البحيرة لإنارة كثير من مدائن الحبشة وإقامة صناعات كبرى، هذا فضلًا عن إمكان بيع الماء من خزَّان تسانا إلى حكومة السُّودان لري الجزيرة الموعودة، وطربت حكومة الحبشة بهذه المقترحات الدَّسمة، وكان أمامهما عقبتان؛ الأولى سياسية لأنَّها تخشى معارضة إنكلترا لتدخل أمريكا، والثانية مالية.

وقد عقدت إنكلترا لحكومة السُّودان قرضًا مقداره خمسة عشر مليون جنيه بفائدة خمسة في المائة، ومن سنة ١٩٢٠ وحكومة السُّودان ماضية في استعمار أرض الجزيرة بإنشاء خزَّان سنار وترع ومصارف وآلات وحقول قطن من هذا القرض. وقد صرف القرض والشركات الإنكليزيَّة مع حكومة السُّودان يعولان في استثمار القرض وتغطيته على التَّوسع في زراعة القطن السكلاريدس بالجزيرة، وقد عجز خزَّان مكوار عن سد حاجات التَّوسع الزراعي بالجزيرة باعتراف جميع المهندسين في السُّودان، وأصبح مشروع الجزيرة متوقفًا نجاحه على إنشاء خزَّان بحيرة تسانا، فهو العلاج الأوحد.

لهذا أشفقت إنكلترا من استئثار أمريكا بإنشاء الخزَّان لمصلحة الحبشة، فأقامت الصحف البريطانية ضجة كبرى حول النفوذ الأمريكي في سنة ١٩٢٧، وردد البرلمان المصري صوته داعيًا إلى إيقافه على حقائق مجرى الأمور وعلى صون مصالح مصر.

ولا حاجة بنا إلى إعادة تفاصيل تلك الضجة، وإنَّما نذكر أنَّ سير أوستين شمبرلين — وزير الخارجية البريطانية يومئذ — لوَّح لحكومة الحبشة في خطاب بمجلس النواب البريطاني في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٧ بتعهدات منليك بإعطاء حكومتي إنكلترا والسُّودان حق الأولوية في إنشاء خزَّان بحيرة تسانا، وذلك في سنة ١٩١٢، ثمَّ صرَّح بأنَّ الرأس تفري قد أنهى إليه الممثل البريطاني في أديس أبابا بوجوب احترام حقوق إنكلترا.

وبهذا أخذ المشروع يسير في اتجاه جديد يُرضي الأسد البريطاني. وأذعنت حكومة الحبشة، وفي مقابل ذلك كفلت لها الحكومة الإنكليزيَّة بأنَّه عندما يحين الوقت لإنشاء خزَّان تسانا توفق إنكلترا بين مصالح الحبشة وأمريكا وإنكلترا والسُّودان. فأصبحت المشروعات كما يلي:

المشروع:

(١) القناطر تقام على مدخل البحيرة لتدبير مياه للرَّي الصَّيفي لأراضي الجزيرة بالسودان، وطبعًا ما دام السُّودان في حاجة إلى هذه المياه فيستأثر بها. (وحسب مصر تعلية خزَّان أسوان لكفاية جميع حاجاتها المائية عشرات السنين. بل إلى نهاية القرن العشرين).

فخزان تسانا إذن للسُّودان وحده ولا شريك له في الغنيمة.

(٢) الطريق من السُّودان إلى البحيرة هو جزء من المشروعات الإنكليزيَّة المرخَّص بها من إيطاليا وفرنسا، وبالمثل الطريق إلى العاصمة أديس أبابا، فهو طريق تجاري وسياسي وحربي.

(٣) الحبشة تستفيد من الطريقين، وتستفيد من استخدام العمال الحبشان، وتستفيد أدبيًّا وماديًّا من وجود الخزَّان في بلادها، فذلك من عوامل الرخاء.

(٤) أمريكا: يُعهد أولًا إلى شركة هويت الأمريكية بالأعمال التمهيدية والمساحات للمشروع كله، وبعد ذلك تعهد إليها بالاتِّفاق مع بعض الشركات الإنكليزيَّة على تنفيذ المشروع.

(٤) مؤتمر أديس أبابا

ليس مشروع خزَّان بحيرة تانا الذي نحن بصدد القيام بالأبحاث الخاصَّة به إلَّا حلقة في سلسلة أعمال مصر المائية على النيل، وليست دراسته بواسطة وزارة الأشغال العمومية حديثة العهد كما يصورها بعضهم، بل إنَّها ترجع إلى سنة ١٩٠٤، حيث ذهبت أول بعثة هندسية برياسة السير ويليام جارستون — وكيل وزارة الأشغال العمومية في ذلك العهد — إلى مناطق البحيرات الاستوائية لدراسة منابع النِّيل الأبيض وروافده. كما ذهبت في الوقت نفسه بعثة المستر ديبوي إلى أعالي النِّيل الأزرق وبحيرة تانا وما حولهما.

كذلك أوفدت في سنة ١٩١٥–١٩١٦ بعثة برياسة المستر بكلي ومعه بعض موظفي حكومة السُّودان، للقيام بأبحاث استكشافية أخرى لطبيعة البحيرة «تانا» وجمع بعض الأرصاد الهيدروليكية، وقد كلفت هذه البعثة الخزانة المصريَّة نحو ٦٠٠٠ج.م.

وفي المدة من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢٤ ذهبت بعثة أخرى مؤلَّفة من بعض موظفي الحكومتين المصريَّة والسُّودانية، وعُرفت ببعثة «جرابهام» لقياس تصرفات البحيرة وعمل مساحة لمخارجها، وكلفت هذه البعثة خزانة مصر حوالي ٣٥٠٠٠ج.م.

إلى جانب هذه البعثات الخاصة، فإنَّ تفتيش ريِّ السُّودان الذي أُنشئ سنة ١٩٠٥ ثابر على دراسة أرصاد لنهر النِّيل وتصرفاته وواصل أبحاثه الفنية طوال هذه السنين، كما أنَّ وزارة الأشغال العمومية قامت أيضًا بإيفاد الاختصاصيين في مختلف السنين لإتمام هذه المباحث، فمن ذلك إيفاد الدكتور هرست مدير مصلحة الطبيعيات إلى السُّودان في السنوات العشر الأخيرة ست مرات، ذهب أثناءها إلى أعالي النِّيل الأبيض ومسايله المتعددة، وكذلك النِّيل الأزرق ويوغندا وتانجانيقا وبحر الغزال وغيرها، وذلك للأغراض العملية الفنية التي تعتمد عليها في دراسة مشاريعها وتنفيذها.

تلك فذلكة تاريخية فنية، لم تر اللَّجنة بدًّا من سردها؛ ليعرف القاصي والداني أنَّ تخزين المياه حياة مصر في جميع أدوارها، وأنَّه كان جاريًا وفقًا لحاجاتها، وأنَّها لم تدخر سعيًا في هذا السبيل، حتَّى ترامت أبحاثها المائية إلى أقاصي النيلين الأبيض والأزرق، طمعًا في زيادة مواردها المالية، وتوصُّلًا إلى أقصى غايات الانتفاع بها، وهي لا تضنُّ في ذلك بجهد ولا مال.

(٤-١) خزَّان بحيرة تانا

بيَّنا فيما سلف أن الحكومة المصريَّة تابعت أبحاثها ودراساتها للنيل ومسايله العليا منذ استقرت الأحوال في السُّودان حوالي نهاية القرن الماضي، وأنها تكبدت من النفقات في هذا السبيل مبالغ باهظة — تقدرها وزارة الأشغال بنحو تسعة ملايين من الجنيهات — وهي تشمل نفقات البعثات المختلفة وميزانية تفتيش ريِّ السُّودان، وما ينفق على أسطولها المائي الكبير في تلك البقاع، وقياسًا على ذلك لا يعد مبلغ الـ ٥٠٠٠٠ج.م المقدرة للقيام بالأبحاث التي نحن بصددها شيئًا مذكورًا إذا ما قورن بهذه التكاليف التي صُرفت في المباحث المختلفة التي قامت بها مصر في سبيل تنمية مواردها المائية والاحتفاظ بجميع ما تجود به منابع النيل، كلما ساعدتها الهندسة المائية ومكَّنتها الأحوال المائية.

وقد تابعت اللَّجنة دراسة الموضوع للتحقق من وجهتين:

الأولى: هل الخزَّان المزمع إنشاؤه ببحيرة تانا يكون حلقة في سلسلة المشاريع المائية اللازمة لمصر؟

الثانية: هل كمية المياه المنتظر الحصول عليها تبرِّر فتح الاعتماد المطلوب للمباحث؟

أمَّا النقطة الأولى فقد تكفَّل بالرد عليها دولة صدقي باشا في المجلس بتاريخ ١٨ يناير سنة ١٩٣٣ حيث قال:

> والذي لفت النَّظر إلى بحيرة تانا هو أن المشروع الذي يلي عمليات التَّخزين القائمة الآن هو مشروع منطقة السدود، وهذه المنطقة لم ينته بعد فحص طريقة استخدامها أو تنظيمها. والشواهد كلها تدل على أن مشروع هذه المنطقة سيكلف خزانة الدولة مقدارًا كبيرًا من المال، بينما دلَّت المباحث التي جرت بشأن خزَّان تانا على أنَّ هذه البحيرة هي من أليق المناطق لعملية التَّخزين ومن أكثرها استعدادًا لإمداد مصر بما تحتاجه من المياه في أقصر وقت وبأقل ما يمكن من المياه الفائدة والنفقات.

النقطة الثَّانية: علم من المباحث التي أجريت أن كمية المياه الممكن الحصول عليها بعد إنشاء خزَّان تانا تبلغ نحو ٢٨٠٠ مليون متر مكعب يصل منها إلى مصر حوالي ٢٢٠٠ مليون متر مكعب، كما عرف أن نسبة مياه بحيرة تانا إلى النيل الأزرق توازي ٨٪ من مجموع إيراده، وهو يقدر بنحو ٧٠٪ من مياه النِّيل جميعها.

وقد يعترض بعضٌ بأن هذا القدر من المياه لا يتَّفق مع ما قُدِّر له من النفقات، غير أنَّ هذا القول على وجاهته الظاهرية لا يتَّفق وحقيقة الواقع، إذ إنَّ حاجة مصر إلى مياه النِّيل الأزرق وبحيرة تانا تشتد في فصل التحاريق، وتكاد تلتمس مصر كلَّ قطرة من المياه تجود بها المنابع في ذلك الوقت. ومن هنا تتَّضح لنا أهمية هذه الكمية بالنسبة لمصر، وخاصة إذا لاحظنا أن تعلية خزَّان أسوان الأخيرة التي قدرت لها ملايين الجنيهات لا يُنتظر أن تزيد كمية المياه التي تأتي بها على ٢٥٠٠ مليون متر مكعب في أحسن سني الفيضان.

كذلك رأت اللَّجنة أن تقف على تاريخ فكرة إنشاء خزَّان على بحيرة تانا، والأدوار التي مرت به منذ أثير في سنة ١٩٢٦، وسنتناوله بالتفصيل فيما يلي:

(١) في صيف سنة ١٩٢٦ ذكرت التلغرافات أن هناك اتفاقًا أُبرم بين حكومات إنكلترا وإيطاليا والحبشة خاصًّا ببحيرة تانا، وقدِّم عن ذلك سؤال في البرلمان على أثر ما عمَّ الخواطر من القلق، وقد أجاب المرحوم ثروت باشا بأن الحكومة جادت في العمل على الوقوف على جلية الأمر، وأنها لا تني في المحافظة على حقوق البلاد.

وفي سنة ١٩٢٩ عُقد في أديس أبابا مؤتمر من مندوبين ثلاثة، أحدهم إنكليزي يمثل السُّودان، والثاني يمثل شركة وايت التي وقع عليها اختيار جلالة إمبراطور الحبشة لدراسة المشروع، والثالث مندوب يمثل حكومة الحبشة.

وفي نهاية تلك السنة، اكتفت الحكومة المصريَّة بطلب الوقوف على ما دار من المباحثات في هذا الشأن.

(٢) ظلت المسألة واقفة عند هذا الحد، حتَّى إذا ما أسندت الأمور إلى الحكومة الخالية وسارت في مشاريعها العامة، ومنها المشآت المائية على النِّيل لم تتوانَ في الاهتمام بالأمر وحسن التأهب له، وأخذت في مخابرة حكومة الحبشة حتَّى حملتها على دعوتها إلى الحضور في مؤتمر أديس أبابا الذي عقد في فبراير من السنة الحالية.

تلقت الحكومة الدعوة فبادرت إلى وضع التَّعليمات اللازمة لمندوبها في المؤتمر المذكور، وهي تعليمات محددة واضحة وغاية في الحكمة السياسية وبُعد النظر، فوق ما بها من الاستمساك بحقوق مصر في النِّيل الأزرق وبحيرة تانا، مع المحافظة على رعاية

الجوار وحسن العلائق، واتفق على أن يكون ممثلا مصر والسُّودان في صف واحد، وأهم هذه التَّعليمات ما يأتي:

(١) أن يوضح مندوبا مصر والسُّودان أن لا حاجة بهما الآن للمشروع، ولكنَّه مع ذلك يهمهما.

(٢) أن تعرض الحكومة المصريَّة رغبتها في إتمام المباحث الهندسية حتَّى يمكن الوقوف على تكاليف الأعمال الإجمالية، وخاصة النقط الآتية:

(أ) إمكان رفع منسوب المياه بالبحيرة بمقدار ١,٥ متر بدون إلحاق أي ضرر.
(ب) التخطيط النهائي وتكاليف الطريق من البحيرة إلى أديس أبابا.
(جـ) التخطيط النهائي وتكاليف الطريق من البحيرة إلى حدود السُّودان.

(٣) أن يوضح مندوبا مصر والسُّودان بجلاء أن الحكومتين المصريَّة والسُّودانية لا توافقان على أي مشروع إلَّا إذا تضمَّن إنشاء طريق من السُّودان إلى البحيرة.

(٤) أن تعرب الحكومة المصريَّة عن استعدادها لدفع تكاليف هذه المباحث.

(٥) ألَّا يوجد مانع من الموافقة على أن تقوم شركة هوايت الهندسية بعمل هذه المباحث، وأن يكون للحكومتين المصريَّة والسُّودانية الحق في الاتِّصال المباشر مع الشركة لتقرير النقط الفنية متى رؤيت ضرورة لذلك.

(٦) أن يوافق المندوبان على أن تتحمل مصر التكاليف بما فيها الطريق من حدود السُّودان في حدود القيمة المقدرة، وهي ١٣٠٠٠٠ دولار تقريبًا.

صدرت هذه التَّعليمات لمندوبي مصر والسُّودان معًا، وبناءً على هذا التفاهم سافرا وكانا جبهة واحدة؛ لأنَّهما يمثلان وادي النِّيل والمنتفعين من النِّيل الأزرق ومنابعه.

وكان من الطَّبيعي في نظر حكومة الحبشة — ومشروع الخزَّان إنما هو لمنفعة مصر والسُّودان — أن تطلب إليهما القيام بدفع النفقات اللازمة للمباحث، ولهذا قبلت الحكومتان ذلك، وقامت حكومة السُّودان فعلًا في سنة ١٩٢٩ بدفع تكاليف المباحث التي قامت بها شركة هوايت في تلك السنة، وتبلغ حوالي ٨٠٠٠٠ درلار، وأظهرت مصر استعدادها لتحمل نفقات المباحث التي رأتها لازمة لاستكمال المعلومات الفنية، وتقدر بنحو ١٥٩٠٠٠ دولار أمريكي، واستجماع هذه البيانات لازم لمصر من وجهتين:

الأولى: أجمعت آراء البعثات العلمية والفنية التي زارت بحيرة تانا، على أنه من الضروري توسيع مجرى مخرج المياه للتمكُّن من تخفيض سطح المياه في البحيرة قبل هطول الأمطار، فإذا ما هطلت المطار، وهي بارتفاع نحو متر ونصف المتر، وكان مخرجها مقفلًا بالخزَّان المطلوب إنشاؤه، فإنَّ سطح المياه بالبحيرة لا يعلو على أعلى منسوب وصل إليه، وحينئذٍ ينتفي الضَّرر على الكنائس والمعابد، فإذا تبين أنه ممكن تعلية مياه البحيرة هذا المتر والنصف فوق أعلى منسوب تصل إليه الآن من غير إلحاق ضرر ما بالمباني المقدسة، فيكون من مصلحة مصر عدم تعميق مجرى المخرج، وبذلك يتوفر نحو نصف مليون جنيه.

الثانية: يجب لمعرفة قيمة تكاليف هذا الخزَّان أن يكون تحت يد الحكومة المصريَّة جميع البيانات والميزانيات والخرط، وكافة المباحث المتعلقة بالبحيرة والطريقين السَّابق ذكرهما.

(٤-٢) مؤتمر أديس أبابا

في أواخر يناير ١٩٣٣ سافر مندوبا مصر والسُّودان إلى بلاد الحبشة، ووصلا إلى أديس أبابا في أوائل فبراير، وفي نيتهما — كنص التَّعليمات — استجماع ما ترغب حكومة الحبشة في الإدلاء به من البيانات المتعلقة بالموضوع، غير أن مندوب الحكومة الحبشية لم يتقدم بشيء من ذلك، واقتصرت أعمال المؤتمر على أن تقدمت مصر والسُّودان معًا بمذكرة أهم ما احتوت عليه ما يأتي:

(أ) أن المندوبين يقران بأهمية المباحث التي سبق لشركة وايت القيام بها.

(ب) أن إنشاء الخزَّان في الوقت الحاضر لا يتيسر نظرًا لقلة حاجة العالم الآن إلى المحاصيل الزراعية كالقطن وغيره، فضلًا عن ارتفاع سعر الدولار الحالي.

(جـ) أن من المرغوب فيه أن تقوم الشركة بإعداد مشروع نهائي مستوفٍ يشمل جميع التكاليف والتقرير النهائي لها بعد عمل المباحث التكميلية التي تراها الحكومة المصريَّة ضرورية لإتمام المشروع، على أن يراعى تخفيضها بقدر الإمكان، وذلك بطريقتين:

الأولى: رفع منسوب المياه قليلًا في البحيرة بحيث لا تضر الأماكن المقدسة.

الثانية: يمكن جلب المواد اللازمة للعمل من السُّودان إذا ما أنشئ الطريق منه إلى البحيرة.

فأجاب سعادة وزير خارجية الحبشة عليها بمذكرة مؤرَّخة ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٣ وافقت فيها حكومة الحبشة على مطالب مصر، بشرط أن تتولى «شركة وايت» القيام بهذه الأبحاث، وتتعهد الحكومة المصريَّة بدفع التكاليف اللازمة لذلك إلى شركة وايت بوساطة حكومة الحبشة، وأن الشركة ستعمد إلى إنجاز الأعمال المطلوبة على وجه السرعة وأن تتسلم مصر والسُّودان صورة من تقريرها النهائي، وصورة هذه المذكرة ملحقة بالأوراق.

ومن هذا يتبيَّن أن الحكومة المصريَّة لم ترتبط في المؤتمر المذكور بشيء مطلقًا لا عن الخزَّان ولا عن كيفية إنشائه، ولا عن مصاريف إنشائه، ولا عن موعد لذلك، وكل ما عرضته ينحصر في استكمال المباحث الجديدة التي ارتأتها على نفقتها كما تحملت حكومة السُّودان بالنفقات السابقة.

هذه هي الخطوات التي سارت عليها حكومة مصر في هذا الموضوع الذي بالغ بعضهم في تجسيمه والتهويل من شأنه، وهي لا تتعدى استكمال المباحث الفنية اللازمة لتقرير المشروع وتقدير النفقات، وستكون هذه المعلومات ثروة فنية لمصلحة الرَّي تُضاف إلى تراثها العلمي الذي حصلت عليه مصر في ربع القرن الأخير، والتي بلغت تكاليفها الملايين، فضلًا عمَّا ينتظر من تخفيض نفقات إنشاء هذا الخزَّان في المستقبل إذا أنشئ الطريق من السُّودان إلى البحيرة لنقل المواد اللازمة للعمل بواسطته والتمكن من إشرافها على الخزان.

وبعد ارفضاض المؤتمر حضر مندوب شركة وايت — التي تم اتِّفاق الحكومتين على تكليفها القيام بعمل المباحث اللازمة — إلى مصر، وبعد مفاوضات استمرت زمنًا بينه وبين معالي وزير الأشغال، قرَّ الرأي فيما بين الطرفين على إنجاز هذه المباحث وفقًا لرغبة الحكومة المصريَّة، واتفق الطرفان على قيمة المصاريف اللازمة لذلك.

وبناءً على هذا تقدمت شركة هوايت لوزارة الأشغال العمومية بتعهد كتابي مؤرخ ٢١ مارس سنة ١٩٣٣، وفيه قدرت النفقات بمبلغ ١٥٩,٠٠٠ دولار أمريكي، وذكرت أن هذا المبلغ تقريبي قد ينقص أو يزيد بمقدار ١٠٪.

وقد أوضحت بهذا الكتاب الشروط التي تقبل بمقتضاها إنجاز هذا العمل، وطلبت أن تدفع لها النفقات مقدمًا بواسطة حكومة الحبشة كما سبق بيانه.

ومن الاطلاع على هذه الشروط يتَّضح أن الشركة تعهدت بتحقيق جميع المطالب المصريَّة الخاصَّة بالأبحاث، وأهمها ما يأتي:

(١) مسح وتحديد الطريق المزمع إنشاؤه من أديس أبابا إلى بحيرة تانا.

(٢) مسح وتحديد الطريق المزمع إنشاؤه من حدود السُّودان إلى بحيرة تانا.

(٣) إتمام المباحث التي تحصلت عليها للآن، خاصة ببحيرة تانا، والقيام بعمل دراسة أخرى للمناسيب حول البحيرة وعلى الجزائر وفي الوديان والسهول المجاورة، وكذا دراسة حالة المعابد والقرى الواقعة على شواطئ البحيرة والجزر، حيث تبين أنها ستتأثر بمناسيب المياه التي وقع الاختيار عليها لأعمال الضبط.

كما اشترط أن تكون أعمال المساحة والتقرير وافية البيانات بدرجة تسمح بتجهيز المقايسات الخاصَّة بتكاليف إنشاء الطرق والكباري والمنشآت الأخرى اللازمة لتقدير هذه التكاليف، وكذلك التصميمات اللازمة لتقدير نفقات السد والانتفاع بمياه البحيرة.

(٤) تعهدت الشركة بأن تجري أعمالها وفقًا لرغبة وزارة الأشغال، وستكون الخطط التي سيسير عليها العمل بموافقة مندوب الحكومة المصريَّة ليتسنَّى لها الوقوف أولًا بأول على جميع الأعمال ومناقشتها ومرافقتها أثناء السير فيها جملة وتفصيلًا.

ومرافق للتقرير صورة من هذا الكتاب والشروط التي تعهدت الشركة أن يتمَّ العمل على مقتضاها. وهي غاية في الدِّقة وفي الاحتفاظ للحكومة المصريَّة بالرأي الأعلى في هذه المباحث أولًا وآخرًا.

وقد أثار بعض حضرات أعضاء اللَّجنة موضوع عدم حاجة مصر لهذا الخزَّان الآن فأجابت وزارة الأشغال بأن ذلك صحيح في الوقت الحاضر، وأنَّ مصر لن تحتاج لهذا الخزَّان قبل ١٥ سنة، غير أنَّه يجب ألَّا يغيب عنها أي عمل أو تدبير يتعلَّق بالنيل — وهو حياتها — ولذلك فهي من الآن تشترك في

المؤتمرات وتقوم بالإنفاق على دراسة إقليم البحيرة وما جاورها حتَّى تكون واقفة على جميع الأعمال والإجراءات الخاصَّة بالنيل ومنابعه، ومحيطة بكل ما يتصل بكيانها حتَّى إذا ما جاء الوقت المناسب قامت بإنشاء الخزَّانات التي تلزم لرخائها ورفاهية أهلها.

وقد احتفظت مصر في اتِّفاقيَّة النِّيل سنة ١٩٢٩ بحقها المطلق في السيطرة على مياه النِّيل الأزرق، وأن يترك إيراد النَّهر جميعه في مدة معلومة من السنة لمصر وحدها، كما اعترفت حكومة السُّودان بحقوق مصر في المياه التي تخزن في خزَّان جبل الأولياء، وألا تعمل حكومة السُّودان في حوض النِّيل شيئا إلَّا إذا وافقت عليه الحكومة المصرية. وفي هذا من الحيطة واتقاء الطوارئ ما يجعل البلاد مطمئنة على حقوقها المائية في المستقبل.

وقد بدا للجنة أثناء دراستها للمشروع أن تحوطه برغبات تدور كلها حول تحقيق أقصى ما يمكن من الصالح لمصر، وهي أن اشتراك مصر في عمل هذه المباحث وقيامها بمصاريفها لا يترتب عليه — بحال من الأحوال — تعهد من قبلها للشروع في العمل إلَّا في الوقت الذي تراه ملائمًا لمصلحتها، وأنَّه عندما تشرع الحكومة بصفة نهائية في هذه الأعمال يجب أن يتوافر لديها من الضمانات ما يحفظ حقوق مصر في السيطرة والرقابة الفعلية على الأعمال التي تقوم بها، وأن جميع الأعمال الإنشائية من أولها إلى آخرها يجب أن تكون خاضعة لعلم رجالها الفنيين، واطلاعهم ومصادقتهم عليها، مهما كانت جنسية المقاول الذي يعهد إليه العمل، كما يكون للحكومة المصريَّة حق الاشتراك في وضع التصميمات والموافقة عليها قبل تنفيذها. كما أنَّ السُّودان في مقابل انتفاعه بجزء من المياه المخزونة يجب عليه أن يتحمل نصيبه النسبي في النفقات، سواء ما تعلق منها بالمباحث والإنشاء أو ما يستتبع ذلك من الترميم والصيانة.

وقد وافقت اللَّجنة على الاعتماد في حدود الرغبات السالفة. أما الأقلية فلم توافق على فتح الاعتماد بدعوى عدم الحاجة إليه في الوقت الحاضر، وإن اقتنعت بالمبدأ والفكرة السائدة فيه. ا.هـ.

هذا ما ورد في تقرير اللَّجنة المالية لمجلس النواب سنة ١٩٣٣.

وثائق ملحقة بالتقرير

وقد رأت لجنة المالية — إتمامًا للبحث واستقصاءً للدراسة — أن تثبت بعض الوثائق الهامة المتصلة بهذا الموضوع وهي:

تعليمات للمندوبين

(١) على المندوبين أن يوضحوا أن لا حاجة لمصر ولا السُّودان للمياه في الوقت الحاضر، ولكنَّه مع ذلك فإنَّ المشروع يهمهما.

(٢) ترغب الحكومة المصريَّة أن تتم أعمال المباحث الهندسية حتَّى يمكن أن تعرف تكاليف الأعمال الإجمالية، ويهمها بنوع خاص الوصول إلى دراسة النقط الآتية:

(أ) إمكان رفع منسوب المياه بالبحيرة بمقدار ١٫٥ متر بدون إلحاق أي ضرر.

(ب) التخطيط النهائي وتكاليف الطريق من أديس أبابا إلى البحيرة.

(جـ) التخطيط وتكاليف طريق يوصل البحيرة بحدود السُّودان بالقرب من الروصيرص.

(٣) يجب على المندوبين أن يوضحوا جليًّا أن حكومتيهما لا توافقان على أي مشروع إلَّا إذا تضمَّن عمل طريق من السُّودان، وليس من المهم أن يكون هذا الطريق صالحًا طول السنة.

(٤) الحكومة المصريَّة مستعدة لدفع تكاليف هذه المباحث.

(٥) لا مانع أن يوافق المندوبان على أن تقوم شركة وايت الهندسية بعمل المباحث، ولهما أن يطلبا أن تكون حكومتاهما على اتصال مباشر مع الشركة لتقرير النقط الفنية في المباحث إذا تراءى لهما ضرورة ذلك.

(٦) تكاليف المباحث المطلوبة تقدر بنحو ١٢٦٠٠٠ دولار، ولا يدخل ضمن هذا المبلغ تكاليف مباحث الطريق للسُّودان، وتكاليف هذا الطريق لن تكون جسيمة؛ حيث إنَّ المصاعب الهندسية محصورة في جزء من الطريق.

(٧) يجوز أن تبلغ تكاليف المباحث بما فيها الطريق للسُّودان ١٢٠٠٠٠ دولار، وللمندوبين أن يوافقوا على أن تتحمل مصر قيمة هذه التكاليف في حدود هذه القيمة.

(٨) تكاليف المباحث التي تمت وقيمتها ٨٠٠٠٠ دولار سبق أن دفعت مقدمًا إلى جلالة الإمبراطور بناءً على طلب جلالته الخاص، ودفعت من جلالته إلى شركة وايت الهندسية. وإذا رغب جلالته في اتباع هذه الإجراءات فليس للمندوبين أن يعارضوا في ذلك. وقد طبع نموذج خاص لهذه العملية في بنك إنكلترا.

وهذا نص المذكرة من المندوبين المصري والسُّوداني:

(١) قام مهندسو شركة وايت بأعمال جمة قيِّمة، سواء من حيث الأعمال المساحية في أثيوبيا أو الدراسات في نيويورك، وتقريرهم في ذلك عظيم القيمة.

(٢) ومن سوء الحظ أن قلَّت حاجة العالم إلى المحاصيل كالقطن وغيره في ثلاث السنوات الأخيرة، وندر وجود المال، وزادت أيضًا قيمة الدولار الأمريكي زيادة عظيمة، ولذلك ليس من المتيسر إنشاء سد على بحيرة تانا فورًا.

(٣) ولكن من المرغوب فيه أن تقوم شركة وايت بإعداد مشروع نهائي وتقدير التكاليف بعد عمل أبحاث أخرى في بحيرة تانا وفي مسألة الطريق إذ لم يكن لدى المهندسين — عندما كانوا في إثيوبيا منذ عامين — الوقت الكافي لدراسة هذا المشروع دراسة وافية.

(٤) ومن المرغوب فيه على وجه خاص معرفة ما إذا أمكن تخفيض تكاليف الأعمال، ويمكن الوصول إلى ذلك بالطريقتين الآتيتين:

أولًا: يمكن رفع منسوب الماء في البحيرة ارتفاعًا قليلًا إذا ما وجد المهندسون أنَّه ليس ثمَّت ضرر من ذلك.

ثانيًا: يمكن جلب المواد اللازمة للعمل إلى البحيرة من السُّودان إذا ما وصل الطريق من أديس أبابا إلى الروصيرص الواقعة بالسودان.

(٥) لذلك يراد أن يفحص المهندسون ثانيًا الطريق من أديس أبابا ومناسيب البحيرة، ويبحثوا أيضًا عن طريق إلى الروصيرص.

عبد المجيد عمر

ر. م. ماكريجور

وهذا نص رد حكومة الحبشة على مذكرة المندوبين:

إيماءً إلى اقتراح القيام بدراسة أخرى لمنسوب المياه في بحيرة تانا والطريق من أديس أبابا إلى بحيرة تانا، ومدِّ هذا الطريق من بحيرة تانا إلى الحدود تميل حكومة إثيوبيا الإمبراطُوريَّة — بدون تحديد أيًّا كان لحقها في تقرير ما تبدو لها مناسبته في المستقبل — إلى الموافقة على هذا الطلب بشرط أن يقوم مهندسو شركة هوايت بالدراسة الأخرى المقترحة على حساب المقترح كما هو الحال حتَّى الآن، ويدفع إلى شركة هوايت بواسطة حكومة إثيوبيا الإمبراطُوريَّة. وإنه يجب على شركة هوايت أن تسرع في بدء الدراسة الأخرى المقترحة، وتعد مشروعًا نهائيًّا وتفاصيلَ للأعمال وتقديرًا للنفقات. وبعد إتمام الدراسة تستلم الحكومة الإمبراطُوريَّة التَّقرير وتبعث بصورة منه.

ختم وزارة الخارجية الإثيوبية
(هروي)

ترجمة كتاب شركة وايت الهندسية بنيويورك

القاهرة في ٢١ مارس سنة ١٩٣٣

حضرة صاحب المعالي وزير الأشغال العمومية

بعد المباحثة بين معاليكم وحضرة صاحب العزة حسين سري بك — وكيل الوزارة — وبيننا، أتشرَّف بأن أتقدم بالاقتراح الآتي للعمل بصفة مهندسين استشاريين لمعاليكم، والقيام بأعمال المساحة الخاصَّة ببحيرة تانا في سنة ١٩٣٣ كمندوبين عنكم.

والغرض من المساحة المذكورة وتقديم تقرير عنها هو كما يلي:

مسح وتحديد الطريق المزمع إنشاؤه بين أديس أبابا وبحيرة تانا بالحبشة.

مسح وتحديد الطريق المزمع إنشاؤه بين بحيرة تانا وحدود السُّودان.

إتمام المباحث التي تحصَّلنا عليها للآن الخاصَّة ببحيرة تانا، وعمل دراسة أخرى للمناسيب حول البحيرة وعلى الجزائر وفي السهول المجاورة ودراسة حالة المعابد والقرى الواقعة على الشواطئ والجزر، حيث تبين أنها ستتأثر بمناسيب المياه التي وقع الاختيار عليها لأعمال الضبط.

وستكون أعمال المساحة والتقرير وافية البيانات بدرجة تسمح بتجهيز المقايسات الخاصَّة بتكاليف إنشاء الطرق، كما أنها ستشمل على تصميمات الكباري والإنشاءات الأخرى اللازمة لتقدير قيمة تكاليف السد والإنشاءات اللازمة للانتفاع بمياه بحيرة تانا، ويتضمن التَّقرير المقايسات الخاصَّة بالطرق والسد والإنشاءات الأخرى على بحيرة تانا.

وسنقوم بانتخاب المستخدمين اللازمين لهذا العمل، وإعداد المعدات اللازمة لفرق المساحة، وإرشادهم إلى خطط العمل. كما أننا سنتفق مع معاليكم أو مع مندوبكم الذي ترخصون له بذلك على خطط العمل أثناء سيره حتَّى يتسنى لنا تحقيق رغباتكم فيما يختص بالطرق المراد فحصها، وبمدى أعمال المساحة الواجب عملها حتَّى من وقت لآخر، ويمكنكم الإلمام بما يقوم به هؤلاء المستخدمون مدى تفاصيل الأعمال أثناء سيرها.

وسندمج نتائج بحثنا في تقرير مطبوع يحتوي على خرط ورسومات، وسترسل صور منه لحكومة الحبشة لتوزيعها.

وجميع ما تبرمه من العقود وتصدره من الأوامر، وكذلك جميع الالتزامات ستكون باسم شركة وايت الهندسية بالنيابة عن معاليكم.

وستقوم مصلحة المحاسبة والمكاتبة في مكتبنا بنيويورك بتجهيز البيانات الخاصَّة بسير العمل، أما فيما يختص بسجلاتنا وحساباتنا والمستندات التي لها علاقة بهذا العمل والمبالغ التي ستصرف بموجب هذا الاتِّفاق فتكون تحت تصرُّف مندوبكم المرخص له لفحصها ومراجعتها.

وسندفع من الاعتمادات التي ستضعونها تحت تصرفنا مقدمًا دفعًا لنا وللآخرين نظير خدماتهم، وكذلك لمشتري الأدوات والجهازات والمصاريف العارضة.

وفيما يلي خلاصة المقايسة الخاصَّة بتكاليف العمل وأتعابنا كمهندسين استشاريين للحكومة المصريَّة. وهذا يتضمن الأتعاب الخاصَّة بقيامنا بالعمل المبيَّن في هذا الاتِّفاق.

خلاصة المقايسات:

	دولار
أعمال في بلاد الحبشة	٦٩٧٥١٠٠
نقل المستخدمين والتأمين عليهم من وإلى أمريكا (رئيس وأربعة مهندسين)	٦٤٠٠٠٠
مهندسو مكتب نيويورك القائمون بتجهيز الرسومات واللوحات والبيانات الهندسية	١٦٠٠٠٠٠
طبع وتجليد التَّقرير إلخ	٤٠٠٠٠٠
تلغرافات ومتنوعات	١٠٠٠٠٠
الجملة	٩٧١٥١٠٠
مصاريف إضافية لمكتب نيويورك بواقع ٣٥ في المائة	٣٤٠٠٢٨٥
	١٣١١٥٣٨٥
أتعاب المهندسين الاستشاريين (بما فيها الخدمات ومصاريف نائب الرئيس في مؤتمر سنة ١٩٣٣)	٣٨٠٠٠٠٠
	١٥٩١٥٣٨٥

وقد قام جناب المستر نيوهاوس بفحص هذه البيانات وملحق مع هذا صورة المقايسة التفصيلية التي صار تحضيرها بالاشتراك مع المستر نيوهاوس، وبذلك انخفضت قيمتها عن المقايسات السَّابق تقديمها.

وعند قبول معاليكم لهذا الاتِّفاق تقومون بدفع مبلغ ١٥٩١٥٠٠٠ دولار لدفع قيمة المصاريف والخدمات التي ستقوم بها من حساب قيمة العمل على أن يُدفع لنا هذا المبلغ بوساطة حكومة الحبشة.

وسنضيف لحسابكم من وقت لآخر الفوائد على الرصيد الشهري للمبالغ التي تدفع مقدمًا حسب ما قد يضيفه مصرفنا بنيويورك على رصيد الودائع الشهرية.

وهذه التكاليف قابلة للزيادة والنقص بمعدل ١٠ في المائة متى استدعت ذلك ضرورة إتمام العمل على الوجه الأكمل. وتدفع لنا الزيادة حسب ما هو مدوَّن بعاليه عند إتمام التَّقرير، كما أن كلَّ وفر سيصير إعادته لكم كما هو مبين في هذا الكتاب.

وعند إتمام التَّقرير سندفع لمعاليكم الاعتمادات التي ستبقى من المبالغ التي دُفعت لنا مقدمًا بعد خصم المبالغ المرخص لنا بدفعها بموجب هذا الاتِّفاق.

ومن المفهوم أنه عندما توافق حكومتكم على هذا الاتِّفاق ستفيدوننا تلغرافيًّا حتَّى يتسنى لنا أن ننتهز أنسب الفصول للقيام بالعمل المطلوب في بلاد الحبشة.

وهذا الاقتراح يقوم مقام الاقتراح السَّابق تقديمه منا — ونرجو معاليكم إذا لم يكن ثمة حاجة لبيانات أخرى التكرم بإفادتنا حتَّى يتسنَّى لنا العودة إلى نيويورك وانتظار أوامركم. وتفضلوا معاليكم بقبول فائق الاحترام

٢٣ مارس سنة ١٩٣٣

رخصت لي حكومة السُّودان بالاتفاق.

ماكريجور هـ. لاردنر

نائب رئيس شركة وايت الهندسية الأمريكية

وهذه صورة رد الحكومة المصريَّة على شركة وايت الأمريكية:

جناب المستر هـ. لاردنر

نائب رئيس شركة وايت الهندسية بنيويورك بالقاهرة

أتشرَّف بأني أفيد جنابكم أنني تسلمت خطابكم المؤرخ ٢١ مارس سنة ١٩٣٣ وبه التفصيلات التي تقترحونها بخصوص الأعمال اللازمة لخزان بحيرة تانا، والشامل للمقايسة عن تكاليف الأعمال ومقدار أتعابكم.

ويظهر أن المعلومات التي يحتويها كافية لأن أتقدم لمجلس الوزراء والبرلمان للحصول على التصديق اللازم للاعتمادات للسير في العمل.

ويلوح لي أنَّه لا يوجد ما يدعو لإطالة إقامتكم بالقاهرة، حيث إنِّني لا أشك أنكم سترسلون تلغرافيًّا أية معلومات تُرى لازمة لزيادة الإيضاح.

وسنفيدكم تلغرافيًّا بما يستقر عليه رأي مجلس الوزراء والبرلمان، سواء أكان هذا الرأي بالموافقة أو عدمها.

وزير الأشغال العمومية

قرر مجلس الوزراء في ٢٩ مارس سنة ١٩٣٣ إنشاء خزَّان بحيرة تانا، وأرصد له في ميزانية السنوات الخمس المقبلة مبلغ ٣ ملايين و٥٠ ألف جنيه تنفق على إنشائه.

نشر كاتب في جريدة «البلاغ» المقالات الآتية في سبتمبر سنة ١٩٣٤:

(٣-٤) بحيرة تانا وجزرها المقدسة

أقام كاتب هذه المقالات عدة سنين في القنصلية البريطانية بدنجيلا — شمال غربي الحبشة، فأتيحت له فرص قلَّما تتاح لغيره لكي يرى بحيرة تانا الجميلة من وجهات مختلفة وعلى جميع اتجاهات البوصلة، وقد سافر الكاتب في رحلات رسمية فرأى هذه الأربعين ميلًا من الماء في مناسبات عديدة، كما أنه دار حولها تمامًا مرتين. وهناك سائحون أوروبيون آخرون رأوا هذه البحيرة من اليبس، فمن الطَّبيعي أن تكون الجزر المتعددة — التي تقع أحيانًا على ثلاثة أميال من الشاطئ — مُثيرة لطلعة السائح، ومن السائحين القليلين الذين زاروا الجزر فعلًا (سنكر) الذي صنع هذا سنة ١٨٨١، وخلَّف لنا أحسن وصف وإن كان يعوزه التَّمام؛ لأنه لم يستطع الحصول على إذن بالنزول إلى تلك الجزر التي تقوم عليها أهم الديور مثل داجا.

ويقول سنكر في تفسير هذا إنه لم يتمكن من زيارتها؛ لأنَّ أحدًا لا يسمح له بذلك إلَّا أن يكون راهبًا متنسِّكًا لكون هذه الجزر تعتبر أرضًا مقدسة.

كان مشروعي أن أدور حول البحيرة في الماء، وأزور كلّ جزيرة وكل كنيسة ودير فيها، وكذلك ما كان منها على الشاطئ. ومعنى ذلك كله أنني أقطع مائتين وعشرين ميلًا، والظاهر أن هذه كانت الطريقة الوحيدة التي يجب أن أتَّبعها حتَّى لا يغيب عني شيء له أهمية نظرًا لعدم وجود خرائط دقيقة أو أي شيء سوى كتابات ضئيلة في الموضوع.

وتاريخ الكنيسة الحبشية يحوي أشياء كثيرة ذات قيمة للباحث في تاريخ المسيحية الأولى التي دخلت البلاد في سنة ٣٧٠ أو حوالي تلك السنة على يد فرومنتيوس الذي

أصبح أول رئيس لأساقفة إثيوبيا على نفس الصورة التي أدخل بها القديس أوغسطين المسيحية إلى إنكلترا السكسونية بعد هذا التَّاريخ بمائتين وستة وعشرين عامًا، وأصبح أول رئيس لأساقفة كنتربوري.

ولم يقترب الخطر قطُّ من إنكلترا، ولكن في حكم الإمبراطور الحبشي لبنادنجل (١٥٠٨–١٥٤٠م) فتحت البلاد، واستولى عليها تمامًا فاتح مسلم هو محمد جراف، جاء إليها من بلاد عدل الصحراء المنخفضة القريبة من البحر الأحمر، وهي الأرض التي تقيم فيها الآن قبائل الدناقلة.

ورغم أن ابن لبنادنجل وخليفته استطاع أن يجلي المسلمين عن البلاد، فإنَّ كلَّ الكنائس والديور في طول البلاد وعرضها نُهبت وأحرقت، فذهبت بذلك المكاتب التي حوت من المخطوطات والكتب ما لا يقوم بثمين مع نسخ يونانية وعبرية، بل وربما كانت أصولًا من الكتاب المقدس وسفر الرؤيا.

ومن ثمَّ يبدو أن المكاتب التي ربما تكون نجت لا بدَّ وأن تكون باقية في ديور الجزر في بحيرة تانا؛ لأنَّ موقع هذه الجزر بعيدة عن الشاطئ هو الذي حال بين الجيوش الإسلامية الظافرة وبين تناول هذه الآثار، وأحد أغراض رحلتي أن أرى المكاتب وإن لم يكن لدي وقت للخوض على محتوياتها. والأمر الثَّاني أنني أمَّلت في أن أحصل على بعض الروايات المتواترة التي تتصل بتابوت العهد في معبد سليمان بأورشليم الذي يتمثل كلَّ كنيسة بالحبشة.

وعلاوة على هذا؛ فإنني أنظر إلى زيادة المعلومات العامَّة في الجغرافيا وعلم الحيوان والطيور والأسماك والحيوانات الثديية التي تسكن الجزر وما يحتمل من معرفة شيء عن قبيلة الوايتو، ومنها الرجال الذين يصنعون زوارق الغاب التي يسيرونها في البحيرة، وكذلك أمَّلت في أن أعلم شيئًا عن عمق البحيرة.

وبعد أن تمَّت كلُّ الاستعدادات للرحلة، وحصلت على إذن الإمبراطور هيلي سيلاسي اصطحبت ترجماني، وسرت في قافلة من البغال في يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٢ متجهًا نحو شواطئ البحيرة، مسافرًا بطريق ضفتي نهر أباي الصغير، وهو أكبر مصدر يمد البحيرة بالماء، ولا تزال ثلاثون ميلًا منه غير مرسومة.

وأهم ما كشفته هنا بحيرة مستديرة أصلها بركاني، وربما كانت قائمة على فوهة بركان يبلغ قطرها نصف ميل، وتُسمَّى تنجيتي بركان، وقد استطعت الآن أن أرسمها على الخريطة هي وتفصيل سير النهر. وفي ٢٩ نوفمبر وصلنا إلى ليجومي على الشاطئ

الجنوبي لبحيرة تانا، وهناك قابلنا على موعد بعض رجال الوايتو مع ثلاثة من زوارقهم المصنوعة من الغاب. وأول ما سافرنا في الماء اتجهنا نحو الغرب؛ لنشاهد تكوُّن مصب نهر أياي الصغير. ذلك النَّهر بفعل الرواسب كوَّن رأسين عاليين من الطَّمي كلٌّ منهما على ضفة، وقد أصبح طول كل منهما يمتد ميلين في البحيرة. والواقف في البر لا يمكنه أن يرى نهايتهما لأنهما محجوبتان بأعشاب البردي الطويلة. وكذلك رغبت في أن أصل إلى مكان مغطى بالغابات يقال له موكال لزيارة زعيم. واقتضاني هذا سفر يوم طويل على خلاف ما أفهمني رفاقي من الوايتو. وقد عُدنا من هذه الرحلة والظلام مخيِّمٌ في بحر هائج، ووصلنا إلى خيامنا منتصف الليل مقرورين جائعين، وبعضٌ منَّا به وعكة خفيفة من سفر البحر.

عندما كانت المباحثات دائرة منذ ثلاث سنوات في مسألة خزَّان بحيرة تانا حرصت حكومة الحبشة على أن لا يمس تصميم الخزَّان بالديورة والكنائس الموجودة في تلك البحيرة أو حولها. فلا نعلم هل يُغرق الخزَّان عند إنشائه بعضًا منها؟ لأنَّ تفاصيل تصميمه لم تنشر بعد. وقد اطلعنا الآن على مقال في جريدة التيمس الميجر شيسمان عن تلك الديورة والجزر التي زارها أخيرًا. وهذا بعض ما جاء فيه:

رأيت مياه بحيرة تانا التي تبلغ مساحتها ٤٠ ميلًا مرارًا متعددة في أثناء رحلاتي للقيام ببعض المهام الرَّسمية، وطفت البحيرة كلها مرتين، ورآها كثيرون من السياح الأوربيين من الشاطئ، فلا شكَّ أن جزائرها العديدة التي يقع بعضها على بُعد ثلاثة أميال من الشاطئ تستلفت أنظار السياح. وفي طليعة السياح الذين كتبوا رسائل شائقة عن البحيرة «ستيكر»، فقد زارها سنة ١٨٨١، ولكن رسالته ناقصة؛ لأنه لم يستطع أن يزور الجزر التي بُنيت فيها الديورة المهمة كجزيرة داجا، وقد قال إنَّه لم يزرها؛ لأنَّه لا يجوز لأحد أن يطأها سوى النُّسَّاك إذ هي جزيرة تُعتبر مقدسة.

وقد وضعت نصب عيني أن أطوف البحيرة كلها وأن أزور كلَّ جزيرة وكل كنيسة وكل دير فيها. وكذلك الكنائس والديورة الموجودة على الشواطئ، وهذا الطواف يستغرق ٢٢٠ ميلًا. ولم يكن لي بدٌّ من ذلك لكي أقف على كلّ شيء؛ لأنَّ البحيرة ليس لها خرائط دقيقة ولم يُكتب عنها إلَّا القليل.

ويحتوي تاريخ الكنيسة الحبشية على أمور كثيرة تهم الذين يدرسون تاريخ المسيحية في عهودها الأولى. وقد أسسها فرومنتيوس نحو سنة ٣٧٠، وكان أول رئيس أساقفة للحبشة كسان أوغسطين الذي جاء بعده بنحو ٢٢٦ ونقل المسيحية إلى إنكلترا السكسونية، وأصبح أول رئيس أساقفة لكنتربوري.

ولكن محمد جران، وهو قائد مسلم عظيم، خرج من الأراضي التي تحتلها الآن قبائل الدناقل، وفتح الحبشة وأخضعها لسلطانه في عهد الإمبراطور لبناديجل (سنة ١٥٠٨–١٥٤٠)، ولكن ابن ذلك الإمبراطور أخرج المسلمين من بلاده، وكانت الحروب المتوالية سببًا للإحراق والتخريب الذي أصاب جميع الكنائس وذهب طعم النار كثير من الكتب والمخطوطات. ونسخ أول أصول من الكتب المقدسة بالعبرية واليونانية. فإن كان قد نجا شيء من المكاتب فهي المكاتب الموجودة في الديورة؛ إذ كان من الصعب على الفاتحين أن يبلغوها وهم لم يكونوا مجهزين بالزوارق ولا يجيدون استخدامها، فكان من جملة أغراضي من رحلتي أن أبحث عن تلك المكاتب وأن أدون تقاليد الناس وعاداتهم وما يرونه من تابوت العهد الذي أخذ من هيكل سليمان في القدس، وهو التابوت الذي تمثله في كلِّ كنيسة من كنائس الحبشة اليوم نسخة مقلدة من الصندوق الذي يحتوي على الألواح الحجرية التي نزل بها موسى من جبل سيناء. ويروي الأهالي أن منليك الأول جاء بالتابوت الأصلي من القدس إلى الحبشة، ويقال إنَّها الآن موجودة في كاتدرائية أقسوم، ولكنني سمعت أنه نُقل عندما وصل إلى جزيرة في بحيرة تانا، على أننا ليس لدينا دليل مادي أو مستند يدلُّ على أن تابوت العهد نقل إلى الحبشة، ولكن لا بدَّ من أن يكون لدعوى كنيسة الحبشة الخاصَّة بالتابوت شيء من الصحة، ويظهر أنَّ اليهود لم يعودوا يعرفون شيئًا عنه بعد انقضاء مدة على اختفائه، وآخر ما ذكر عنه هو الفصل الثالث من سفر أرميا في التوراة في العدد السادس عشر.

ثم إنَّ في تلك الجزائر أشياء كثيرة تدعو إلى الاهتمام، وتتعلق بالجغرافيا والحيوان والطيور والسماك وذوات الثدي. وقد يمكن أن يعرف المرء شيئًا عن قبيلة وايتو التي تصنع الرمث من القصب لاستخدامه كالزورق في البحيرة. وخطر لي أن أعرف شيئًا عن أعماق البحيرة.

وقد أكملت عدتي للقيام بهذه الرحلة، وحصلت على إذن من الإمبراطور هيلاسلاسي، وسافرت في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٢ إلى البحيرة يصحبني ترجماني وقافلة من البغال، وتتبعت في طريقي ضفاف نهر أباي الصغير الذي يصب في البحيرة، ولم يُرسم نحو ثلاثين ميلًا من قسمه الأسفل على الخريطة بعد. وأهم ما اكتشفته في طريقي بحيرة مستديرة ذات أصل بركاني، وهي تُسمى «بركة تنجيتي»، ويبلغ قطرها نحو كيلومتر واحد، فرسمتها على الخريطة هي والقسم الذي لم يرسم من النهر.

وفي ٢٩ نوفمبر وصلنا إلى ليجومي على شاطئ بحيرة تانا الجنوبي، والتقينا هناك ببعض رجال قبيلة وايتو الذين جاءوا إلينا بثلاثة أرماث، فاتجهنا أولًا إلى الغرب لنرى مصب نهر أباي الصغير.

وفي اليوم التَّالي ذهبنا شرقًا بالأرماث، وبلغنا جزيرة باك التي هي أكبر الجزر في البحيرة، وتكاد تكون مستديرة، وقطرها ثلاثة أميال، وهي مسطحة ولا تزيد أعلى نقطة فيها على ثلاثين قدمًا فوق سطح الماء، والبعوض كثير فيها، وتبدو من البرِّ كأنَّها أرض مكسوة بالغابات، ولكنَّها ليست كذلك لأنَّ ثلاثة أرباعها ستستخدم للزراعة، وفيها كثير من الأشجار الكبيرة، ومعظمها من أشجار التين المسمَّاة «ورقة».

وقيل لنا: إنَّ في الجزيرة خمس كنائس فزرنا اثنتين منها، وعند ذلك مرض الترجمان، فلم يكن لي بدٌّ من التوقف عن الرحلة والعودة به مسافة خمسة أيام إلى منزله، ثمَّ سافرت نحو أسبوعين إلى جلايات على حدود السُّودان للبحث عن ترجمان جديد، فجئت به وعدت لإكمال رحلتي مخترقًا في طريقي أقاليم لم ترسم على الخريطة، واجتزت أعالي أنهر رهاد ودندر وبالاس، وهي من روافد النِّيل، وتحققت أنَّ المراكز التي أُعطيت لها على الخريطة مملوءة بالخطأ، وقد رُسم نهر بالاس في موضع يبعد ثلاثين ميلًا عن موضعه الحقيقي.

وعدنا إلى جزيرة داك في ٩ مارس لنكمل رحلتنا في البحيرة، فزرنا الكنائس الثلاث الباقية. ولكل كنيسة قرية تحيط بها، ويُسمح للنساء بالإقامة في الجزيرة. والعمل الوحيد الذي يعمله الأهالي هو الزراعة. وتكثر في الجزيرة الأشجار التي من نوع التين، وفيها زهور ونباتات مختلفة، ورأينا فيها جرذان الحقول، وأمسكنا اثنين من نوعين مختلفين لكي يساعدانا على درس عمر الجزيرة. وتحيط بالجزيرة نباتات من القصب، وقد وجد الأهالي فيها أفاعي عظيمة وقتلوا سبعًا منها.

زرنا جزيرة جبران الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية من البحيرة، وفيها كنيسة باسم الملاك جبريل، وقبر للإمبراطور تكلا جيمنوت (سنة ١٧٠٦–١٧٠٨): والكنيسة قائمة على بعد ١٢ عمودًا من الحجر في شكل مستدير، ولها جرسان أحدهما من الحجر الأصم والآخر من الخشب، وهناك أيضًا جرس من النحاس عليه كتابة باللغة الجعزية. ويتولى رياسة الدير راهب شيخ يشغل منصبه منذ ٤٥ سنة، وقد أرانا من الكتب بقدر ما سمح لنا الوقت، ولا شكَّ أن في مكتبة دير أكريت كثيرًا من الكتب التي تستحق

البحث، وقد نقلت كتب عديدة من الكنائس المجاورة في البر إلى هذه الجزيرة في أزمنة الاضطرابات لجعلنا في مأمن.

وبعد ذلك عبرنا المنطقة التي يمر بها النِّيل الأزرق خارجًا من البحيرة، وفيها أغوار يحجبها البردي. وقد تساقطت عليها حمم بركانية تألف منها سد طبيعي غيَّر مجرى النِّيل الأزرق القديم، فتألفت من هذا السد بحيرة تانا، ورأينا الماء يجري من شلال شارا — شارا فوق ذلك السد الذي يضبط مستوى مياه البحيرة.

وعلى الشاطئ الشَّرقي صف طويل من الجزائر التي لم يكن لنا بدٌّ من زيارتها، وأولاها وأهمها جزيرة ريمة التي فيها كنيسة مضحاني عالم. ومن الكتب التي وجدناها فيها كتاب يحتوي على أسماء الملوك من آدم إلى منليك الأول فملوك زغوه، ولعل القائمة تتصل بالملك الحالي. فلم يسمح لنا الوقت إلَّا بنقل جزء منها، فنقلت الجزء الذي يبدأ من منليك وينتهي بملوك زغوه. ووجدت كتابًا آخر اسمه تاريخ مريم، ولكن لم أجد فيه تاريخًا، ووجدت صورًا مثلثة الأضلاع كان التكوين والفن في بعضها حسنًا، وهي رسوم العذراء مريم وطفلها يوسف.

ونصبنا خيمة على فم نهر غمارة؛ لكي نستطيع أن نخصص يومًا كاملًا لزيارة جزيرة تانا قرقوس، وكنت قد سمعت من الناس حكايات عن تلك الجزيرة جعلتني أتوقع اكتشافات جديدة فلم يخب أملي. وقد اصطدنا هناك أضخم سمكة، وقد بلغ وزنها ٢٨ رطلًا، ويروي الناس حكايات عن وجود حيوان بحري عظيم في البحيرة، فأعلنت أني أدفع جائزة عظيمة لمن يصطاد حيوانًا كهذا ويأتي به إليَّ؛ فبادر الأهالي إلى الاصطياد. ولكن لم يستطع أحد أن يحصل على الجائزة.

وتتصل جزيرة تانا قرقوس بالبر بطريق صخرية في زمن هبوط البحيرة فتصبح كأنها شبه جزيرة. ويقال: إن تابوت العهد بقي فيها مدة طويلة عندما جيء به من القدس قبل نقله إلى أقسوم. ولكن لم أجد في المخطوطات ولا في المراجع الموثوق بها ما يؤيد هذه الرواية. ويقال أيضًا: إنَّ أول كاهن لهيكل الكنيسة هو عزرا بن صدوق — رئيس كهنة أورشليم في عهد سليمان — وإنَّه رافق منليك الأول عندما جاء بتابوت العهد. ورأيت وعاءً من المعدن كتبت عليه كتابة سيئة يبلغ طول الحرف فيها قيراطًا. وعلى مقربة من الكنيسة ثلاثة أعمدة من الحجر في حجم مستدير على شكل المذابح اليهودية، وعليها عصا الكهنوت التي جاء بها فرومنتيوس، وفي رأسها صليب، وقد أسس الكنيسة (أبراها) و(أسبيها) الملكان اللذان حكما معًا، ولكن السر واليس بدج

يظن أن المقصود هو عزانا ملك أقسوم الذي اكتشفت كتاباته باليونانية والإثيوبية والسبئية وترجمت. وروى فيها أخبار انتصاراته وشكر آلهته عليها، ولكنَّه سلم في حكاية حملته الآخيرة بأنَّ رب السماء الموجود في السماء وعلى الأرض، والذي هو أقوى من أي شيء موجود قد ساعده. ولم يذكر عزانا أسماء آلهة أخرى. فكانت هذه الرواية سببًا للحكم بأن عهد ملكه كان في أول عهد دخول المسيحية إلى الحبشة.

على أن اكتشاف كنيسة أسسها أبراها وأسبيها في جزيرة تانا قرقوس وثلاثة مذابح يهودية يعلوها صليب ووعاء عليه كتابة سبئية لا يمكن أن يكون مصادفة واتفاقًا. وفي هذه الجزيرة كتبٌ يجب أن يفحصها رجل اختصاصي. وأحدها نسخة من «كتاب الأسرار»، وقال ناقلها عن نفسه إن اسمه جبريل ولد بطريق، وإنه كتب هذه النسخة في دبرة قدوس حيث يوجد دير عربي يدعى دير أنطونيوس سنة ٩٨٣ بعد الشهداء. وقد ترجمت من اليونانية إلى العربية، وبقيت باللغة العربية ٣١٥ سنة، ثمَّ ترجمها سليق إلى اللغة الجعزية. ويقول الرهبان: إنَّ جزيرة تانا قرقوس كانت تسمى دبرة ساحل يوم كان اليهود هناك. وبما أن ليس لدينا دليل على أصل اسم ذلك الدير كان من المحتمل أن هيكل بحيرة تانا سمي باسم النجم كانوبوس الذي يسمى بالعربية سهيل.

ورأينا في الجزيرة التَّالية التي زرناها — وهي شقلا منزو — خرائب لقصر الإمبراطور أياسوس الذي قتل هناك سنة ١٧٠٦.

ثم إننا زرنا جزيرة مطرحة التي تبعد نصف ميل عن البر، وأقدم كنيسة فيها أسسها الإمبراطور داود الأول، ولكن أحمد جران أحرقها، وهناك كنيسة أخرى بناها يوحنا الأول، ونهبها الدراويش في أيام الخليفة، وهي الآن خراب، ولم نجد أي تاريخ على الكتب التي رأيناها.

وسرنا عدة أيام حول الجانب الشَّمالي الشَّرقي من البحيرة، وعلى طول الساحل الشَّمالي، وبلغنا شبه جزيرة جرجرة، وهي أرض جبلية يلوح أن يدي الغزاة لم تصل إلى الديورة التي فيها وعلى مقربة منها. ووجدنا كنيسة في دير اسمه دير سيناء على طرف الجانب الشَّرقي، وفيها بعض الكتب. ويقع دير مندية جنوبي جرجرة، وهو مبنيٌّ على صخر مشرف على الماء، ولعله أكبر دير في البحيرة لأنَّ فيه ١٥٠ راهبًا وتحيط المنازل والغرف بالكنيسة التي تسمى كنيسة مضجاني عالم. وقد سمح لي بزيارة الرهبان فوجدتهم يعيشون في صوامع حقيقية ويطالعون الكتب المقدسة، فلم أشأ أن أتعرض لكنيستهم وتأملاتهم.

وفي جزيرة جليلة التي تبعد ميلين في البحر دير من النوع ذاته، واستقبلني الرهبان في الديرين بكل لُطفٍ وبشاشة.

وزرت في البر قصر الإمبراطور سوسينيوس الصَّيفي (١٦٠٧–١٦٣٢)، وقد بناه الراهب البرتغالي بيدرو بايز، وهو من رهبان الجزويت الذين أرسلوا إلى الحبشة في القرن السادس عشر. ولا شكَّ أن حكاية تيههم ومتاعبهم وآلامهم وتمسكهم بعقائدهم تحمل كلَّ من يقرأها على الإعجاب بهم والعطف عليهم. أما قصر جرجرة فهو الآن خَرِبٌ ومهجور، ولكنَّ ما بقي منه يكفي للحكم بأنه كان رائعًا، ويبلغ علو جداره الرئيسي ٧٠ قدمًا، وهو ما زال قائمًا. وعلى الجدار الداخلي أنواع من النقوش.

وبعد تجول في البحيرة دام ١٥ يومًا تَلِفَتْ أرماثُنا فلم يكن لنا بدٌّ من إصلاحها، فانتهزت هذه الفرصة وذهبت شمالًا للتثبت من أخبار وصلت إليَّ عن وجود بركان ثائر في شلجة، ولكنني لم أجد سوى نبع معدني منبثق من صخر يسيل منه ماء كبريتي تملأ رائحته الجو.

وبعدما أصلحت أرماثنا توجهنا إلى الناحية الشمالية الغربية من البحيرة، ثمَّ إلى الساحل الغربي الذي هو أقرب نقطة إلى السُّودان، وكان الدراويش قد سحقوا تلك الأقطار سحقًا، فلم يتركوا فيها حجرًا على حجر لكي يعرف المرء أين كانت الكنائس القديمة قائمة، ولكنَّ أسماءها باقية.

ثم إنَّنا ذهبنا إلى الساحل الجنوبي، وبلغنا المكان الذي بدأنا رحلتنا منه، فتركت الأرماث الثلاثة لرجال القبائل الذين استأجرتهم ونقدتهم أجورهم وعدت بقافلتي إلى دنجيلة.

وفي اليوم التَّالي عدنا إلى البر بالطريق التي قدمنا منها، ثمَّ سرنا في الماء حول الشاطئ، وكنا رتبنا أن نلتقي بقافلتنا في نقطة معينة، وهو ترتيب نجح تمامًا على طول الطريق حول البحيرة.

وكانت ثاني جزيرة زرناها جزيرة كبران في الزاوية الجنوبية الشرقية لبحيرة تانا، وفيها دير كنيسة بنيت تذكارًا للملاك جبريل، وفيها قبر للإمبراطور تقلا هيمانوت سنة (١٧٠٥–١٧٠٨م). وهذه الكنيسة محمولة على دائرة مؤلَّفة من اثني عشر من الأعمدة الحجرية الضخمة، وفيها ناقوسان، وهناك كذلك ناقوس من النحاس الأصفر منقوش عليه كتابة باللغة اللإثيوبية القديمة. ورئيس هذا الدير راهب هرم مضى عليه خمسة وأربعون عامًا. وقد أرانا من الكتب ما لو صرف وقت كبير في استيعابه لعرض

على الباحث جهده ودقته، وكثير من هذه الكتب جاءت من الكنائس القريبة لتُودَع في كنائس الجزيرة حتَّى تكون بمنجاة في زمن الاضطراب.

ثم اجتزنا المنطقة التي يقع فيها مخرج بحيرة تانا محجوبًا عن البرك في مكان مغطى بنبات كثيف من نبات البردي المرتفع. وقد كونت المواد البركانية خزانًا طبيعيًّا يعترض المجرى القديم للنيل الأزرق مكونًا بحيرة تانا، وعند شلال شاراشارا ينساب الماء فوق الحاجز بما يحفظ مستوى الماء في البحيرة.

وكان علينا أن نزور شيئًا طويلًا من الجزر على الساحل الشرقي، وأول ما يستحق الالتفات الخاص هي جزيرة ريمة التي بها كنيسة مدهاني علام، وبين الكتب وجدنا سجلًّا مدونًا به أسماء الملوك من آدم إلى منليك الأول حتَّى ملوك زاجوي، وفي الغالب إلى الزمن الحاضر، ولم يكن الوقت متسعًا لاستقصائهم جميعًا، ولكنني نقلت أسماء الملوك من منليك الأول إلى ملوك الزاجوي، وعثرنا بين الكتب على كتاب في (تاريخ مريم)، ولكننا أخفقنا مرة أخرى في العثور على تاريخ.

وقد رتبت أن أقضي يومًا كاملًا في جزيرة تانا كركوس؛ إذ جعلتني رؤيات الأهالي أتوقع اكتشافات، ولم يخب أملي؛ فقد أمسكنا هناك سمكة كانت أكبر ما صدناه في البحيرة؛ إذ كانت سمكة من نوع الهر زنتها ٢٨ رطلًا. وبحيرة تانا — كغيرها من البحيرات — لها حكاية تتعلق بوحش يسكنها، وقد ترامت إليَّ قصص عنه من كثيرين من شهود العيان، حتَّى إنني عرضت جائزة كبيرة لأي من رجالي أو من الناس الذين يعيشون حول البحيرة إذا أمسك بواحد منه وأحضره لي. وكان الاتِّفاق العام على أنه سمكة في مثل حجم الرجل يقال لها سورز. واستمر الصيد عدة أيام فتوقعت أن أكون أول من يسجل أن سمك «لاتس نيلوتيوس» يسكن بحيرة تانا. فهذا النوع من السمك يوجد في النِّيل الأزرق عند سفارو الخرطوم، حيث ينمو إلى أن تبلغ زنة الواحدة أكثر من مائة رطل. ولقد ظللت أنتظر طويلًا، ولكن الجائزة بقيت ولم يطلبها أحد.

وجزيرة تانا كركوس جزيرة صغيرة صغيرة تتصل الآن بالبر بمجاز من الصخر بحيث يمكن للإنسان في شهور التحاريق أن يصل إلى الجزيرة بغير أن تبتل قدماه. ولعل أدق وصف لها أنها شبه جزيرة. والحقيقة التي يسلم بها الجميع أنها كانت في زمن غير بعيد (بل وعلى أي حال في زمن أحمد جران) محاطة بالماء من جميع الجهات، ولم يكن يمكن العبور إليها إلَّا في الزوارق، وهذا ما حماها من تخريب الغزاة والفاتحين.

وأول رئيس لكنيسة تاناكركوس — أو على الأصح كاهن المعبد في تلك الجهة — يقال إنه أزارياس بن زادوك — رئيس كهنة أورشليم أيام سليمان — ويقال: إنه قدم إلى البلاد صحبة منليك الأول. وبقرب الكنيسة ثلاثة أعمدة حجرية في قمتها هبوط مستدير على هيئة أكواب هي بلا شك المذابح القديمة للقرابين العبرية.

ومؤسسا هذه الكنيسة أبرهة وأسبيها، وهما ملكان حكما معًا، ولو أن هذا لا يمكن التحقق منه. واكتشاف كنيسة في تانا كركوس أسسها أبرهة وأسبيها، وثلاثة مذابح عبرية يعلوها صليب، وأخيرًا طاس عليه نقوش بلغة سبأ، كلٌّ ذلك لا يمكن أن يكون تطابقًا. وفي هذه الجزيرة كذلك توجد كتب لابد وأن يستوعبها رجل متوفر على البحث منقطع له. ويقال: إنَّ واحدًا من هذه الكتب نسخة من كتاب الأسرار، ويقول الكاتب: إنه جبريل والد أباتريك، وإنه كتبه في دير أقادوس، وهو دير عبري يقال له أنطونيوس في سنة ٩٨٢ من تاريخ الشهداء، وقد ترجم من اللغة اليونانية إلى العربية، وبقي باللغة العربية ٣١٥ سنة، وبعد ذلك ترجمه سليك إلى اللغة الإثيوبية. وقال الرهبان: إن جزيرة تانا كركوس كانت في أيام وجود الإسرائيليين هناك تدعى دبراساهل. ومن الممكن (مع عدم وجود أي دليل على أصل الاسم) أن المعبد الذي ببحيرة تانا يمكن أن يسمى باسم النجم كانوباس الذي يسمى في بلاد العرب باسم سهيل.

والجزيرة التَّالية — شكلامانزو — تحوي خرائب قصر الإمبراطور أياسوس الذي قتل طبقًا للسجلات في سنة ١٧٠٦م.

(٤-٤) بحيرة تانا من الوجهة الاقتصادية

تقع بحيرة تانا في غرب الحبشة، ومساحتها ٣٥٠٠٠٠ هكتار، وترتفع ١٨٠٠ متر عن سطح البحر، وهي مستودع كبير للماء، الذي يخرج منها إلى السهول التي حواليها، من روافد ومجارٍ صغيرة، وممكن أن تروي مليون هكتار، ومناخها معتدل، ومنطقتها أغنى مناطق الحبشة خصوبة: وعقد منليك ملك الحبشة سنة ١٩٠٢ مع إنكلترا اتِّفاقًا بأن لا يبني بالنيل الأزرق سدودًا بغير اتِّفاق مع إنكلترا.

وعقد بين إيطاليا وفرنسا وإنكلترا سنة ١٩٠٦ على توزيع المنافع الاقتصادية بينهن، فتقيم إنكلترا سدًّا بالبحيرة، وتقيم إيطاليا سكة حديدية من الحبشة إلى أرتيريا والسومال غرب أديس أبابا، وفي سنة ١٩٢٥ عُقد بين إنكلترا وإيطاليا اتِّفاق جديد

تأييدًا لاتِّفاق سنة ١٩٠٦. والنزاع الحبشي الإيطالي يدور في الواقع حول هذه البحيرة والانتفاع بها.

وقرر مجلس الوزراء بجلسته في ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ الموافقة على برنامج الأعمال الجديدة في الوزارات المختلفة لمدة خمس سنوات.

ومن ذلك الذي أقره مجلس الوزراء مشروع بإنشاء خزَّان على بحيرة تانا والأعمال المرتبطة به. وقدر لمشروع تانا مبلغ ثلاثة ملايين وخمسون ألف جنيه موزعة على خمسة أعوام تبتدئ من العام الحالي بمبلغ مئة ألف جنيه، وفي العام الثَّاني بمبلغ خمسين ألفًا ومئتي ألف جنيه، وفي الأعوام الثلاثة الباقية بمعدل تسع مئة ألف جنيه في السنة.

وعرضت إيطاليا أن تتفاهم مع إنكلترا على مسألة الخزان. ولا تزال المباحثات بين مصر وإنكلترا مستمرة.

الفصل الرابع والعشرون

الزراعة في السُّودان

كان سُكَّان السُّودان يعتمدون على محاصيل الصمغ والسمسم وريش النعام والماشية والذرة، وكانت الزراعة متقطعة، وتعتمد على هطول الأمطار، ولكن دراسة منابع النِّيل ومجاريه وأراضي السُّودان دراسة علمية أدى إلى الاتجاه في الاعتماد على تخزين الماء في خزانات وتوزيعه في ترع للتوسع الزراعي، وكان للآمال الكبيرة التي عقدت على إمكان هذا التَّوسع ما ترتب على ذلك من اهتمام الإنكليز بالسُّودان واتجاههم إلى استعماره واستثماره وتقوية نفوذهم فيه وإضعاف نفوذ مصر شيئًا فشيئًا.

(١) أنواع الأراضي الزراعية

الأرض المطرية: التي ترويها الأمطار، كسنار والقضارف وكردفان ودارفور والبحرية — التي يرويها النيل.

فصول الزراعة

(١) **الدميرة:** فصل الفيضان من ١٥ بؤونة، ويدوم ٣ شهور.
(٢) **الشتوي:** من ١٥ توت، ويدوم ٦ أشهر.
(٣) **الصيفي:** فصل التحاريق، مدته ٣ شهور.

ويستعملون وابورات الرَّي الكبيرة في الزراعات الكبيرة كمزارع المهدي وكونتوميخلوس وإبراهيم عامر وكفوري.

والساقية والشادوف والطبوزية والنورج — كما في مصر، ولهم آلات خاصة بهم مثل السلوكة — وهي عصًا طويلة كالصولجان ذات رأس عريض به وتد طوله شبر تغرز في الأرض، ويضغط الوتد عليها.

والواسوق: عصًا طويلة في رأسها لوح عريض مثقوب من طرفيه.

والملودة: عصا معقوفة في رأسها حديدة.

والمنجل: مسنن كالمنشار.

والمنتاب: كالفأس.

والحشاش: كالفأس.

(٢) المزروعات

الذرة وهي أنواع: الفتريتة والكرفي في السُّودان الشَّرقي، وأم قرظ والصفرا والمقد وعيش الريف، وهو الذرة الشامية.

والدخن: ومن الذرة والدخن يصنع شراب الماريسة أو البوزة.

والقمح والشعير والسمسم والقطن، وكان ممتاز باشا أول من أدخله، وأصبح أكثر القطن المزروع في السُّودان من السكلاريدس. وتزرع الخضر — كالباميا وتُسمَّى الويكة — والشطة والباذنجان واللوبيا والقرع والطماطم والملوخية والبصل والثوم والكرنب واللفت والبقدونس والفجل والكوسا والبطاطة والفلفل. وتزرع الفواكه المعروفة في مصر إلَّا أنها قليلة، ولذلك يعتمدون على برتقال يافا.

(٣) المساحات المزروعة والبور

بلغت هذه المساحات في سنة ١٩٣٣ و١٩٣٤: ٧١٤٧٣٢ فدانًا، من ذلك ١٧٥٧٣٤ زرعت قطنًا، و٢٠٥٤٥ فدانًا لوبيا، ٨٧٧٤٥ فدانًا ذرة، و٤٣٠٦٠٨ فدادين تركت «بورًا».

(٤) مشروع الجزيرة

جاء في تقرير اللُّورد كتشنر عن الحالة في السُّودان سنة ١٩١٣:[١]

جاء (حقل التَّجارب الزراعية) في الجزيرة بنقطة الطيبة فجنى محصولًا جيدًا جدًّا من القطن ومحصولًا جيدًا من القمح والذرة. وهو يعلِّم الأهالي الطرق الزراعية الحديثة وهم شديدو الرغبة في تعلمها.

جاء وفد من قبل جمعية زراعة القطن البريطانية، وكان تقريرهم عن القطن السُّوداني، وخصوصًا قطن الطيبة حسنًا جدًّا، وسيكون لنصائحهم واقتراحاتهم قيمة عظيمة، وقد نشر المستر شمدت والمستر شتز من أعضاء جمعية الغزالين الدولية تقارير أخرى حسنة بهذا الشأن.

وكان محصول القطن الذي جُني من الأطيان التي أرويت أحسن بكثير من محصول السنة الماضية، وتحسن نوع القطن تحسنًا بيِّنًا وخصوصًا في طوكر. وزيدت وسائط الحلج بإنشاء معملين جديدين له.

ولعله يفيد أن أذكر هنا خلاصة تاريخ مسألة زرع القطن في السُّودان فأقول: إنه منذ سنوات رأى موظفو الحكومة وغيرهم من ذوي الاطلاع على أحوال هذه البلاد أن فيها أراضي واسعة الأطراف تصلح لزرع القطن المصري إذا استوفت حقَّها من الإرواء والاعتناء.

فاستمالت هذه المسألة التفات غزالي لانكشير، وهؤلاء وجهوا نظر الحكومة البريطانية لتحقيق المساعدة المالية المطلوبة لوضع هذا المشروع موضع التنفيذ والإجراء.

والفضل الأكبر في إدراك هذه الغاية للسير وليم ماذر وهو — كما لا يخفى — ممن زار السُّودان غير مرة، وأحد أعضاء لجنة كلية غوردون، وقد طالما أبدى أشد الارتياح إلى تقدم الأقطار السُّودانية وتوفير أسباب عمرانها وارتقائها. وفي أثناء إقامته في الخرطوم تحقق بالاختبار شدة صلاحية السُّودان لإنتاج القطن، وفي شهر أكتوبر سنة ١٩١٠ ألقى خطبة في منشستر كان لها أكبر تأثير في توجيه التفات الجمهور إلى هذا الأمر المهم.

ومن ذلك الحين اتجهت أفكار تجار القطن في لانكشير إلى السُّودان، وأصبحت هذه المسألة موضوع اهتمام جمعية زراعة القطن البريطانية،

> فعقدت النية على إرسال وفد إلى السُّودان؛ لإيفاء هذه المسألة حقها من البحث والتمحيص، ولشدة أهميتها عرض المستر ج. آرثر هتن — رئيس الجمعية — أن يرأس الوفد، فجاء ووضع تقريرًا مطولًا عن زيارته أيَّد فيه كلَّ ما ذاع عن هذه المسألة. وبعد رجوعه إلى إنكلترا قابل وفد كبير حكومة جلالة الملك، وطلبوا إليها بإلحاح أن تضمن قرضًا ينفق على إعداد السُّودان لزرع القطن.

وجاء في خطاب السر إدوارد كوك — محافظ البنك الأهلي المصري بالقاهرة — في اجتماع الجمعية العمومية السنوية للبنك سنة ١٩٣٥ تحت عنوان «مستقبل الجزيرة»:

> أمَّا فيما يختص بالمستقبل القريب لمنطقة الجزيرة الهامة التي تستنفد معظم رؤوس أموال السُّودان المقترضة، فإنَّ محصول القطن الحالي جيد، وهناك دلائل قاطعة على أن أبحاث الخبراء المضيئة قد نجحت أخيرًا في تخفيف أضرار الحشرات والأمراض التي كانت في السُّودان، أكثر من أي إقليم آخر مبعث متاعب لا تحصى، كما أن التَّوسع المشاهد في السنين الحالية في زراعة القطن على ماء الأمطار في جبال النوبة وكردفان بناءً على تشجيع الحكومة تحت إشرافها ومراقبتها، هو تطور اقتصادي يبشر بمستقبل ذي بال. ا.هـ.

(٥) زراعة القطن

أصدر أخيرًا مجلس إدارة جمعية زراعة القطن البريطانية تقريره، وقد استعرض فيه زراعة القطن في جميع أنحاء الإمبراطُوريَّة البريطانية في أثناء السنة الماضية ١٩٣٤، وسجل زيادة جديدة في محصول البُلدان التي تنتج القطن عدا الهند.

ويقول التَّقرير: إنَّ الكميات التي استهلكها العالم من القطن المزروع في البُلدان التي ليست ضمن الإمبراطُوريَّة البريطانية تزيد على ما استهلك من القطن الأمريكي في المدة نفسها بدليل انقاص المساحات المزروعة قطنًا في الولايات المتحدة الأمريكية وتقييد المحصول الذي تم حلجه.

وعلى ذلك ينبغي ألَّا تكون هناك مشقة في إيجاد سوق للأقطان التي أنتجتها الإمبراطُوريَّة بالنسبة إلى ما يجده القطن الأمريكي، على شرط أن تبذل البُلدان التي تنتج الأقطان أقصى جهدها لتكفل وحدة النوع والشحن.

حقول القطن في السُّودان — حركة الجني.

وتحسنت واردات القطن الخام من الهند كثيرًا نظرًا لزيادة العراقيل التي قامت في سبيل التجارة الدولية والجهود التي تبذلها لجنة لانكشير لترويج القطن الهندي، والتي من شأنها أن تثبِّت مركز الهند في أسواق العالم.

وتقدر المساحة المزروعة قطنًا في الهند في موسم ١٩٣٣ بـ ٣٣ مليونًا و٤٠٨ آلاف فدان والمحصول بـ ٤ ملايين و٣١٨ ألف بالة في الموسم السابق.

وانتعش محصول السُّودان في سنة ٩٣٣–٩٣٤ بعض انتعاش بالنسبة إلى ما كان عليه في الموسم الأسبق، ولكن محصول أوغندا هبط عن أقصى حد بلغه في سنة ٩٣٢–٩٣٣.

وتبذل الحكومات ذات الشأن في أجزاء أخرى من أفريقية جهودها لتنمية الإنتاج بقصد التخفيض من تأثير الأسعار المنخفضة الذي أدى إلى زيادة المحصول، والمحصول الناتج من زراعة القطن في السُّودان وأوغندا معًا يزيد دائمًا على المحصول الناتج من جميع الخمسة عشر بلدًا من بلدان الإمبراطُوريَّة مجتمعة، ولذلك يكون لمحصول هاتين المنطقتين الأثر الكبير في تقدير المحصول العام للإمبراطورية.

وأشار التَّقرير إلى محصول القطن في هذا الموسم فقال: إن محصول السُّودان وأوغندا سيزداد زيادة هامة؛ لأنَّ الحالة تحسنت في كلا البلدين فأنتجا محصولًا جيدًا من حيث الغلة والنوع.

وستتحسن الحالة أيضًا في تنجانيقا ونيسالاند وبعض المستعمرات والبلدان الأخرى المشمولة بالحماية، وسوف لا يكون محصول أوغندا كبيرًا كما يُرجى، ولكن ممَّا لاريب فيه أن مجموع محصول الإمبراطُوريَّة وقد زرع بالجزيرة ١٧٤٠٠٠ فدان يقدر محصولها بمقدار ٧٠٠٠٠٠ قنطار سكلاريدس.

تأخذ الشركة الزراعية بالجزيرة القطن وتبيعه وتحلجه في محالجها، وتعطي من الربح ٤٠ في المائة للمزارع، وتتناول الشركة ٣٥ في المائة والحكومة ٢٥ في المائة، وتترك الشركة المزروعات الأخرى للأهالي.

وجاءني تقرير مصلحة الزراعة السُّودانية بالخرطوم عن سير موسم القطن في شهر فبراير سنة ١٩٣٥ ما يلي:

السكلاريدس:

- **الشركة الزراعية بالجزيرة:** المساحة المزروعة ١٥٦٠٤٠ فدان جني منها لغاية تاريخه ٤٥٢٨١٢ قنطارًا (وزن ٢١٥ رطلًا)، والمقدر لها ٧٠٠٠٠٠ قنطار.
- **شركة قطن كسلا:** المساحة المزروعة ١٩١٤٣ فدان جني منها لغاية تاريخه ٧٣٢٠٧ قناطير
- **توكر:** المساحة المزروعة ٣١٦٨١ فدانًا جني منها لغاية تاريخه ٨٥٥٢ قنطارًا، ومقدر لها ٤٨٠٠٠ قنطار.
- **كسلا:** المساحة المزروعة ٢٨٢١٠ فدادين جني منها لغاية تاريخه ١٧٠٠٠ قنطار، ومقدر لها ٤٨٠٠٠ قنطار.
- **الدويم:** المساحة المزروعة ٥٠٠ فدان، جني منها لغاية تاريخه ١٨٥٠ قنطارًا، ومقدر لها ٢٥٠٠ قنطار.
- **مزارع خصوصية:** المساحة المزروعة ٦٣٥٣ فدانًا، جني منها لغاية تاريخه ١٣٧٤٣ قنطارًا، والمقدر لها ٢٢٧٠٠ قنطار.

فيكون مجموع مساحات السكلاريدس: ٢٤١٩١٧ فدانًا، والمجني منها لغاية تاريخه ٨٥٧١٦٣ قنطارًا، والمقدر لها ٧٢٣٢٠٠ قنطار.

الأمريكاني:

- **المزروع بالرَّي:** المساحة المزروعة ١٢٤٢١ فدانًا المجنيُّ منها لغاية تاريخه ٣٠٩٦٧ قنطارًا، والمقدر لها ٣٣٢٦٦ قنطارًا.
- **المزروع بالمطر:** المساحة المزروعة ٩٦٩١٦ فدانًا المجني منها لغاية تاريخه ١٣٨٥٧١ قنطارًا، والمقدر لها ١٣٨٥٧٠ قنطارًا.

فيكون مجموع مساحات الأمريكاني المزروعة: ١٠٩٣٧٧ فدانًا، المجني منها لغاية تاريخه ١٦٩٥٣٨ قنطارًا، والمقدر لها ٨٧١٨٣٦ قنطارًا.

وجملة مساحات السكلاريدس والأمريكاني معًا ٣٥١٢٥٤ فدانًا، والمجني منها لغاية تاريخه ٧٣٦٧٠١ قنطار، والمحصول المقدر لها ٩٩٥٠٣٦.

(٦) تقرير مندوبي النقابة الزراعية

ننشر فيما يلي التَّقرير الذي وضعه حضرات مندوبي النقابة الزراعية العامَّة في البعثة، وهم حضرات الدكتور يوسف نحاس بك، والمهندس مصطفى نصرت، والسيد أحمد أبو الفضل الجيزاوي:

> تلقت النقابة الزراعية المصريَّة العامَّة في ٩ يناير سنة ١٩٣٥ كتابًا من حضرة صاحب العزة مدير الجمعية الزراعية الملكية يبلغها به أن الجمعية قد عنيت بإعداد رحلة إلى السُّودان تبدأ من ٢٦ يناير الحالي، وتكون مدتها ٢٢ يومًا ونفقتها بجملتها خمسين جنيهًا مصريًّا لكل فرد، ويقوم بها نخبة من رجالات الزراعة والصناعة والتجارة المصريين لتمكين الصلات الاقتصادية مع تلك البلاد الشقيقة، ويسأل عمَّا إذا كان للنقابة أو لأحد من حضرات أعضاء مجلس إدارتها رغبة في الاشتراك في هذه الرحلة.
>
> فكانت هذه الدعوة ممَّا بحث فيه مجلس إدارة النقابة بجلسته يوم السبت ١٦ يناير سنة ١٩٣٥، وبعد التداول في أمر تلك الرحلة، وتبين وجوه

الفائدة العامَّة للقطرين المصري والسُّوداني، منها قرر أن يندب اثنين من قِبل النقابة وعلى نفقتها؛ ليمثِّلاها في تلك الرحلة، وانتخب لهذه المهمة حضرتي صاحب العزة أحمد حمدي سيف النصر بك نائب رئيس النقابة، والدكتور يوسف نحاس بك سكرتيرها العام، ثمَّ سئل حضرات الأعضاء عمَّا إذا كان أحد منهم يرغب على نفقته الخاصَّة في الانضمام إلى القائمين بتلك الرحلة فأجاب بالاستعداد لهذه المشاركة كلٌّ من حضرات أصحاب العزة عبد العزيز رضوان بك، وأحمد أبو الفضل الجيزاوي، ومصطفى نصرت، وإسماعيل عبد الرازق بك.

ثم اعتذر حضرتا عبد العزيز رضوان بك، وإسماعيل عبد الرازق بك، فأسف زملاؤهما للضرورة التي قضت بتخلفهما، وقبيل موعد القيام من مصر فوجئ حضرة أحمد حمدي سيف النصر بك بوعكة شديدة حالت دون سفره أيضًا، فكانت لها رنة ألم لم تقتصر على زملائه المسافرين، بل اشترك فيها السُّودان وأهلوه لما له عندهم من مكانة رفيعة ومودة خالصة شائعة.[٢]

غير أن البعثة لم تصل إلى بورسودان حتَّى وردتها برقية من سكرتيرية النقابة تطمئنها بأن الخطر قد زال، وأن حمدي بك يتماثل للشفاء، على أن غيابه القهري قد أحدث فراغًا كبيرًا، ولو كان معنا لكانت الفائدة أعمَّ وأتمَّ.

هذا وقبل أن نبدأ الكلام على ما شاهدناه في رحلتنا يقتضينا الواجب أن نقول: إنَّ النجاح العظيم الذي أُتيح لها يرجع الفضل فيه إلى الجمعية الزراعية الملكية التي أخذت على نفسها مهمة التمهيد لتجدد الصلات بين القطرين الشقيقين بعد أن زار حضرة صاحب العزة فؤاد أباظة بك مديرها العام السُّودان عام أول، ودرس الممكنات وقدرها، وأدرك أن من المصلحة الوطنية الكبرى توثيق الأواصر بين الجارين، فوجد من حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون أقوى عضد لإخراج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ بإيفاد هذه البعثة، ولذلك وجب لسموه ولحضرات مدير الجمعية العام وأعضاء مجلس إدارتها الكرام أجزل الشكر وأطيب الثناء.

(٧) الحالة الاقتصادية في السُّودان

معلومٌ أنَّ الأمرين اللذين لأجلهما سافرت البعثة هما: غرض تجاري وغرض زراعي، والمقصود منهما جميعًا توثيق الصلات الاقتصادية بين مصر والسُّودان، غير أنَّنا نرى بمقتضى طبيعة مهمتنا الخاصَّة أن نقصر تقريرنا فيما يتعلَّق بالبحث الاقتصادي على كلمة عامة، ثمَّ نتَّجه بتفصيل أوفى إلى البحث الزراعي، وهو أدخل في نطاق أعمال النقابة.

فأمَّا الحالة الاقتصادية، فإنَّ ما سمحت لنا إقامتنا القصيرة في ذلك القطر بالوقوف عليها من نواحيها دلَّتنا على أن مجهودًا كبيرًا قد بُذل لرفع المستوى الاقتصادي فيه؛ فشهدنا من المعدات التي هُيئت له ما يشهد بأنَّ العمل قد جرى على طريقة مُحكمة جديدة النَّمط في نواحي العمران. مثال ذلك: أنَّ بورسودان على صغر حجمه قد جُعل من أصلح المواني وأحدثها نظمًا، وأنَّ السكك الحديدية متوافرة فيها أسباب الراحة لا تُستثنَى منها درجة رابعة خصِّصت لنقل الطبقة الفقيرة من السُّودانيين فقط، وأنَّ تخطيط القرى فضلًا عن المدن قد رُوعِيَ فيه أن تكون الطرق متَّسعة والمباني مشيَّدة على ما يلائم الجو السُّوداني من ارتفاع الأسقف وتصميم المساكن ممَّا لوحظ به خاصة أن تكون لكل منزل واجهة بحرية وأخرى قبلية، وذلك لأنَّ الهواء في الشتاء يأتي من الشمال، أمَّا الهواء الرطب فيأتي في الصيف من الجنوب؛ نظرًا لتكاثر الأمطار في الجهة الجنوبية، وجميع مباني العمال وكثير من المباني الأخرى كالاستراحات جُعلت جملونية مستديرة لغزارة المياه التي تجود بها السماء.

على أن الذي يسترعي الباحث الاقتصادي هو ما يقوم في وجه التعمير من عقبات أخصُّها قلة اليد العاملة وضعف الإنتاج المادي والفكري في ستة أشهر من السنة يشلُّ فيها القيظ المحرق والهبوب والسموم والتقلبات الجوية العنيفة كلَّ حركة، ومن تلك العقبات الحاجة إلى المال، فهي بادية بشكل واضح، وقد كان للأزمة العالمية تأثير كبير في مرافق البلاد الاقتصادية، وبالتَّالي في موارد الحكومة التي لم تستطع موازنة دخلها مع خرجها إلَّا في عام ١٩٣٣ وفي عام ١٩٣٤، وقد اضطرت إلى تقليل عدد الموظفين الإنكليز وغيرهم، وتخفيض مرتبات الآخرين تخفيضًا ذا بال، وكان من جرَّاء ذلك طبعًا ومن جرَّاء إمحال الحاصلات الزراعية وأخصها القطن في معظم أعوام الأزمة أن ثُبِّطت العزائم إلى حدٍّ ما وتعطل المضي في تنفيذ ما كان مرسومًا من البرامج لإنهاض البلاد اقتصاديًّا وزراعيًّا، ولا بدع فيما نذكره؛ فإنَّ الزارع الذي كدَّ طول عامه في تلك السنين

العِجاف لم يكد يحصل على نتيجة يسد بها رمقه عند بيع حاصلاته، فممَّا نجم عن هذه الحالة أنَّها منعت كثيرين من زرع أراضيهم، وخصوصًا من زرع القطن في جهات متعددة.

فإذا أضفنا إلى ما تقدَّم ما مُنيت به الحاصلات عامَّة في أرجاء المعمورة من انخفاض أسعارها، ولمحنا جسامة مصاريف النَّقل في السُّودان، خصوصًا بين الخرطوم وحلفا، وجسامة تكاليف حلج القطن التي تبلغ أربعة أمثالها في مصر؛ عذرنا أولئك الذين فضلوا ترك معظم أراضيهم بائرة.

ولقد صارحنا بعض المسئولين بأنَّ خطة الحذر هي التي يجب اتِّباعها، لا سيَّما وأنَّ الطبيعة نفسها تُفاجئ البلاد بين وقت وآخر بنكبات زراعية متأتِّية من احتباس الأمطار أو فرط تدفقها، ومن اشتداد الرياح ودرجة حرارتها، وما ينتاب الحاصلات من الآفات الزراعية التي يشتد فتكها حين تكون الأحوال الجوية ملائمة لها، وهم يرون من ثمَّ ضرورة الاعتصام بتكوين احتياطي مالي لتلك الطوارئ المتكررة، ويؤثرون عدم التَّوسع في المشروعات إلَّا بمقدار.

فيُستخلص ممَّا بُيِّن آنفًا أن ظروف السُّودان الاقتصادية المالية لا إغراء فيها ولا مطمع لرأس مال الماليين؛ إذ إنهم يجدون من المخاطر ما لا يشجعهم على توظيف أموالهم في السُّودان إلَّا إذا توقعوا ربحًا يزيد على ما يكتفون به في بلاد أخرى ذات استقرار اقتصادي يطمئنهم على غَدِهم. وعلة أخرى يجب الإيماء إليها هي مسألة الضرائب وأنها غير ثابتة، بل تفرض السنة بعد السنة حسب حالة المحصول. والجاري الآن أن ما يؤخذ من الفدان المزروع هو عشرة قروش.

أمَّا الأمن فمستتبٌّ في البلاد وإن كانت الوحوش الضواري لا تحترمه في أحوال جمَّة. ثمَّ إنَّ السُّودانيين محبون للنظام، فإذا كان في ذلك شيء من الفضل لأساليب الحكومة فلا جرم أنَّ جُلَّ الفضل فيه لأخلاق السُّودانيين الأصليين الذين يميلون إلى احترام القوانين ورعاية الحدود، وهذا إلى ما توسمنا فيهم من صفات الشمم والإباء وما أعجبنا به من معاملة الموظفين منهم للجمهور. ولا نغالي إذا قلنا إنَّها معاملة يُضرب بها المثل. وربما كان لجري الموظفين الإنكليز على نفس هذه الخطَّة من المحاسنة سبب يستفاد من هذه القدوة بجانب السبب الآخر الذي يخامر الظن، وهو تحببهم إلى الشعب.

وما ينبغي لنا أن ننتهي من هذه النظرة العامَّة في الحالة الاقتصادية بالسُّودان من غير أن نذكر ما تأثرت به تلك الحالة على أثر خروج الجيش المصري من تلك البلاد،

فإنَّ الأهلين أنفسهم يُبدون أسفهم لذلك الجلاء الذي حرم ديارهم المنافع التي كانت تصيبها من نفقات ذلك الجيش، وكانت لا تقل عن مليون جنيه سنويًّا في بلد ميزانيته أربعة ملايين جنيه.

فإذا تبيَّن المصري كلَّ ما أوردناه من الاعتبارات بقي عليه قبل أن يقصد إلى السُّودان للتملك أو للاشتراك في عمل اقتصادي آخر أن يحصل على اطمئنان في ذهابه وإيابه وفي إقامته وممارسته لأعماله هناك.

ولا يتحقق ذلك إلَّا بأن ترفع جميع العراقيل الموضوعة الآن دون دخوله السُّودان ومكوثه فيه، وبعبارة أصرح يجب إذا أريد ارتباط البلدين بربط وثيقة من الوجهة الاقتصادية أن يُعامل المصري في ذلك القطر من جميع الوجوه كما يعامل السُّوداني إذا حلَّ في مصر.

أمَّا إذا تفاوتت هذه المعاملة أو وقع أي شرط وقيد دونها فذلك في رأينا يكون هادمًا من الأساس للدعائم التي يقوم عليها استئناف الصلات الاقتصادية، ومفسدًا لنموها وازدهارها؛ إذ ليس لناصح أن ينصح بتجديد تلك الصلات إلَّا إذا استوثق من زوال هذه العقبة.

(٨) الحالة الزراعية في السُّودان

بعد هذه النظرة العامَّة يتعيَّن علينا تفهم حالة السُّودان من الناحية الزراعية بتفصيل أوفى كما أشرنا. وهذه الناحية ستتناول تعرف طبيعة التُّربة ووسائل الرَّي ومسألة اليد العاملة ومسألة النَّقل، وكل أولئك في المناطق التي زرناها وسنذكرها واحدة واحدة.

(١) **منطقة طوكر:** مساحتها القابلة للزراعة نحو ٣٥٠ ألف فدان تستمد ريَّها من نهر بركة الذي يفيض في شهر يولية أو أغسطس من كلِّ عام فيغمر من تلك الأراضي نحو ٦٠ ألف فدان. وفي العام التَّالي ينتقل فيضانه تدريجيًّا إلى شقة أخرى منها، تاركًا جانبًا ممَّا غمره في العام الماضي، وآخذًا بجانب مقابل من هذه الشقة، وهكذا دواليك عامًا بعد عام إلى أن ينتهي بإرواء الجزء الأخير من المنطقة المذكورة بعد مضي خمسين عامًا في قولهم، ثمَّ يعود سيرته الأولى. فجملة ما يزرع في كلِّ عام من منطقة طوكر لا يعدو ما يقرب من ستين ألف فدان. والأهلون يتبعون فيضان النَّهر ويزرعون القطن المغمور على الطريقة البعلية؛ لأنَّ مياه النَّهر لم تضبط في أقنية تسمح بالتَّصرف فيها كما هو الشأن في نهر القاش الذي سيأتي الكلام عليه.

ومعدن هذه الأرض رملي خفيف جملة ورملي صرف في بعض النقط وخصبه متوسط، ومحصوله من القطن السكلاريدس — وهو الوحيد الذي يزرع فيه — تقل كميته، ولكن تجود تيلته في الأغلب. وقلة إنتاج الفدان متأتية من وجود كمية من الرمل وفيرة تمتص رطوبة الأرض بسرعة، وليس هناك وسيلة لسقي الزرع وهو قائم إلَّا ما تدره السحب. ويلاحظ أنَّه لا يمكن زرع كلِّ المساحة المروية في كلِّ عام قطنًا؛ لأنَّه يتخلَّل تلك المساحة بقاع رملية صرفة لا تصلح لإنباته، ففي هذا العام مثلًا لم يزرع من الستين ألف فدان التي غمرت سوى ٤٢ ألف فدان قطنًا و٧٥٠٠ فدان ذرة، وقد أتلف الهبوب والهيباي عشرة آلاف فدان من جملة هذه المساحة، فبقي ٣٢ ألف فدان يقدرون محصولها في هذا العام بنحو خمسين ألف قنطار، وهو محصول يعد قليلًا. أمَّا محصول الفدان في الموسم الماضي فلم يزد على ٢/٣ القنطار. والزرع هناك على امتداد متر بين الشجيرة والأخرى ليستبقى ماء كاف تستطيع الشجيرة أن تمتص منه ما يكفيها، ولذلك يكون ارتفاعها من ٩٠ سنتيمترًا إلى مترين ونصف متر. والجمع يبتدئ من نوفمبر لغاية يونيه؛ لأنَّ التلقيح يستمر طوال هذه المدة. والزرَّاع هم قبيلة «الهدندوة» التي يسميها الإنكليز «فازي وازي»، أي أصحاب الشعور المنقوشة، وهم شجعان لهم مواقع مشهورة، غير أنَّهم لا يحسنون خدمة الزراعة.

وطريقة الاستغلال هي أنَّ الحكومة تقسم الأرض على الأهلين لزراعتها كلَّ سنة، وتُعطيهم البذرة، وعند حلول المحصول تأخذ هي الربع والأهالي الثلاثة الأرباع بعد خصم ثمن البذرة، وفيما يتعلَّق بهذه البذرة يلاحظ أنهم يعطون أردبًا واحدًا لزرع ٢٠ فدانًا، فإذا أتلفت العوامل الجوية بعضها فهذا البعض لا يدفع المزارع ما يخصه من ثمن البذرة. ومحصول طوكر يحلج في محلج دباس بسواكن، وينقل إلى ذلك المحلج من سوق طوكر التي تتوارد إليها المحصولات بديكوفيل ممتد منها إلى ميناء سنكات ثمَّ بحرًا إلى سواكن.

(٢) **منطقة نهر القاش:** هذه المنطقة شهيرة أيضًا بدلتا القاش ومحطتها أورما.

ينبع نهر القاش في بلاد الحبشة، ثمَّ يمر ببلاد الأرترية من جهة تيسيناي، حيث عمل الإيطاليون خزانًا لزرع بعض الأراضي سيأتي الكلام عنها، ثمَّ يهبط في دلتا القاش بالسُّودان، وفيها أقيمت جسور وحفرت ترع للتحكم في مياهه وقت الفيضان وتوجيهها إلى أي جزء من الأراضي الصالحة للزراعة بهذه الدلتا. وعادة تبتدئ مياه هذا النَّهر بالفيضان في شهر أغسطس، ويبقى جاريًا حوالي شهرين بعدهما يجف تمامًا.

ونظام الرَّي هو أنهم حفروا المياه في ترعة رئيسية تتفرع منها ترعة فرعية في كلِّ سنة يستخدم منها ما تحتاج إليه الأفدنة المخصصة للزرع في تلك السنة. وطريقة الزراعة هي البعلية، ومساحة هذه الدلتا حوالي ٢٦٠ ألف فدان يزرع كلَّ سنة منها حوالي ٥٠ ألفًا بالتَّناوب. وفي هذه السنة بلغ ما زُرع ٤١ ألف فدان منها ٧٥٠٠ للذرة والدخن والفاصوليا والباقي للقطن، وقد تلف من هذا الباقي حوالي ٥٠٠٠ فدان بالعوامل الجوية، فيبقى ٢٨ ألفًا وخمسمائة فدان زُرع في أغلبها السكلاريدس، وفي سائرها صنف أمريكاني مؤقلم في السُّودان اسمه ويبر.

هذه الأراضي تعدُّ من أخصب أراضي الطَّمية لا أملاح بها إلى عمق مترين، ومحصول الفدان منها بين قنطارين وأربعة قناطير تبعًا للسنوات، وهو محصول يقل كثيرًا عمَّا كان يجب أن تجود به أرض بذلك الخصب، ولكن زرعه على الطريقة البعلية وعدم إمكان مده بالمياه في أوقات افتقاره إليها، وطروء العوامل الجوية المعاكسة، وقلة الأيدي العاملة والفلاحين الممرَّنين، كلُّ تلك من علل هذا النقص في المحصول.

ويلاحظ أنَّه من غير المستطاع عمل آبار ارتوازية لتساعد على الرَّي؛ لأنَّ طبقات الأرض في هذه المنطقة ليس بها عرق مائي يكفي لإرواء مساحة كهذه مزروعة قطنًا، حتَّى إن المقيمين في أورما يجلبون مياه الشرب من مسافة ١٩ كيلومترًا باستخدام طلمبة ارتوازية صغيرة، وهذه المياه تخزن في فناطيس، ويوزع منها على كلِّ مزارع.

وقد لاحظنا أيضًا أن شجيرات القطن على مسافات أضيق من المسافات بين شجيراته في طوكر. والسبب في ذلك هو أن هذه المنطقة تستطيع أن تحفظ الرطوبة أكثر من تلك فتغذي عددًا أوفر من النباتات.

كانت دلتا القاش في الماضي في حيازة شركة كسلا الزراعية البريطانية. فلمَّا أُنشئ مشروع الجزيرة على النِّيل الأزرق استبدلت الشركة بأرضها هذه أرضًا في منطقة الجزيرة، وأصبحت الآن دلتا القاش ملكًا للحكومة تعطيها للأهالي بحصة قدرها ٤٠ في المائة لها و٦٠ في المائة للأهالي، وعليهم في مقابل هذه الحصة مصاريف الزرع والجني وثمن التقاوي. أمَّا الذرة والحبوب الأخرى التي يزرعونها فكلها تترك لهم.

وممَّا يجدر بنا ذكره أنَّ القطن الويبر الأمريكي يغل في السنوات المقبلة وفي بعض النقط الجيدة ٩ قناطير من الفدان.

وقبل الانتقال إلى الكلام على منطقة الجزيرة استصوبنا أن نتكلم على جزيرة أبا المملوكة ملكًا حرًّا للسيد عبد الرحمن المهدي، ومساحتها حوالي ٤٠٠٠٠ فدان لسيادته، منها ٣٠ ألفًا، والباقي لأفراد أسرته.

هذه الجزيرة واقعة في وسط النِّيل الأبيض، وتربتها ذات طمية خفيفة يتخللها الرمل، ويزكو فيها الزرع، وهي تُروى من مياه النِّيل الأبيض قبلي خزَّان جبل الأولياء بواسطة أربع مضخات منها اثنتان احتياطيتان قطر كلٍّ منهما ١٦ بوصة، واثنتان جديدتان قطر كلٍّ منهما ٢٢ بوصة، تديرهما آلتان قوة كلٍّ منهما ٢١٠ أحصنة «ماركة بترس»، وتدوران بالغاز الوسخ، وهاتان المضختان ومحركاهما حديثة. رخص لها بالتركيب والإدارة في سبتمبر سنة ١٩٣٣، أي بعد اتِّفاقيَّة المياه، وكُلفة الإرواء للفدان الواحد تبلغ ٨٠ قرشًا طول السنة.

يزرع في هذه الجزيرة القطن السكلاريدس، وقد وجدنا منه عند زيارتنا ٣٥٠٠ فدان ستزاد في العام القابل إلى ٥٠٠٠٠، ثمَّ تتوالى زيادتها عامًا بعد عام، ويتوقَّعون أن يكون محصول الفدان من القطن ٥ قناطير في هذه السنة، ويزرع في الجزيرة أيضًا من الحبوب ما مساحته ٣٥٠٠ في هذا العام.

والزراع هناك نوعان: المقيمون والمستقدمون، فالمقيمون وهم من أتباع المَهديَّة يعملون بلا أجر معيَّن مقابل أن يتكلف السيد بنفقاتهم ويربي أولادهم في مدرسة أنشأها في الجزيرة لهم، وهو يعاملهم معاملة الأب لأبنائه، وأما المستقدمون فلهم ٤٠ في المائة من محصول القطن تخصم منها تكاليف الزراعة كافة.

أمَّا الطريقة الزراعية في جزيرة آبا فمماثلة للتي تتَّبع في الجزيرة مع فروق بسيطة والري كلَّ ١٢ يومًا مرة.

(٣) **منطقة الجزيرة:** وتسيطر عليها النقابة الإنكليزيَّة المعروفة بنقابة زراعة القطن في السُّودان Sudan Cotton Plantaion مساحتها أربعة ملايين فدان تقريبًا، منها مليون غير صالح للزراعة، وقد باشرت النقابة المذكورة زرع القطن منذ ١٧ سنة، فزرعت حتَّى الآن ٧٠٤ آلاف فدان، منها في هذه السنة ١٦٦ ألف فدان كلها سكلاريدس و١٠٠٠٠ فدان زُرع فيها قطن جديد اسمه X ١٥٣٠ — وهو نوع استنبت في السُّودان وسط في الجودة بين السكلاريدس والجيزة «٧»، ولكنَّه ذو غلة وفيرة وأكثر مقاومة لفتك الآفات.

والذي أمكننا معرفته من طبيعة أرض الجزيرة أنَّها طمي إلى عمق يتراوح بين ٦٠ و٨٠ سنتيمترًا، وبعد ذلك طبقة مشبَّعة بأملاح الجبس Gypson وسلفات الصوديوم

وقليل من البيكربونات؛ ممَّا جعلها صلدة لا تستطيع المياه ولا جذور النبات اختراقها. وممَّا لوحظ عند أناس اتصلنا بهم ممن خبروا عناصر تلك الأرض أن هذه الأملاح تصعد ببطء تدريجي كلَّ سنة إلى سطح التُّربة، وإذا لم تعمل لها مصارف فسيأتي يوم — على قولهم — تكون فيه الجزيرة غير صالحة للزراعة، ونذكر هنا أن الدكتور بولز نفسه يتَّفق مع هؤلاء رأيًا فيما يتعلَّق بضرورة إنشاء المصارف بالجزيرة إذا ما أريد الاحتفاظ بخصبها. على أن هناك رأيًا فنيًّا لخبراء من المشتغلين في تلك الجهات مفاده أن عمل المصارف إذا استُطِيع فعلًا لا يكون ذا جدوى؛ نظرًا لكثرة الأملاح التي تمنع المياه من اختراق الطبقة السُّفلى. وهناك رأي مخالف لهذا يجهر به بعض الخبراء الإنكليز المشتغلين بالجزيرة، ويدافعون عنه بقولهم: إنَّه لا حاجة إلى المصارف في الجزيرة، وإنَّهم للتثبت منها زرعوا في حقل تجارب بركات قطعة مساحتها نحو فدان مدة ١٧ عامًا متوالية، وقد عاينَّا فيها محصولًا يقدر بما يناهز قنطارًا أو نصف قنطار في هذا العام، ويفسرون انحطاط محصول الجزيرة في الأعوام الماضية بقولهم: إنَّه ناشئ من إصابته بالآفات، ومن عوامل جوية أخرى، مثل تساقط الأمطار الغزيرة بعد الزراعة مباشرة، وعلل أخرى.

على أن زرع الجزيرة في هذه السنة مقبل إقبالًا ارتاح له أصحابه، وقد يخرج الفدان في المتوسط ثلاثة قناطير أو تنيف قليلًا. وكان في العامين الماضيين ممحلًا، وفيما قبلهما كان تارة يمحل وتارة يقبل. ولعل سبب ذلك نوع التُّربة التي يكون قائمًا عليها الزرع في مداولة السنين، وليس لنا أن نجزم بصحة هذا الرأي، ولكن من المحقق أنَّ هناك عوامل عدة معاكسة: منها التقلبات الجوية، ومنها الآفات التي تنتاب الزرع وتفتك به فتكًا يشتد أو يضعف تبعًا لدرجة الجو لها، ونذكر من تلك الآفات:

(١) مرض الذراع الأسود (black arm): الذي يكون فتكه ذريعًا من كثرة الرطوبة التي تحدثها الأمطار الغزيرة في أشهر أغسطس وسبتمبر وأكتوبر. ويقول بعضهم في السُّودان — ولم يقم دليل على صحة قولهم — إن هذا المرض نقل إلى السُّودان من مصر، وكان موجودًا في بذرة الدومين الذي أخذت منها التقاوي في أحد الأعوام السَّابقة، وهذا المرض لا يفتك بالزراعة في مصر لجفاف الجو في يونية ويولية وقلة مياه الري. ودواؤه عندهم إحراق الحطب أو إتلاف البذرة.

(٢) تجدُّع الورق Curly leaf: وهو مرض يسبِّب التواء الورق وعجز الشجرة عن النمو. وللتفادي من عوده يحرق الحطب والورق المتساقط.

(٣) دود اللوز: ولم يستطيعوا مقاومته إلى الآن كما هي الحال في مصر. أمَّا ريُّ الجزيرة فمن الترعة الرئيسية المأخوذة من خزَّان سنار، وهي لسقي ٢٠٠٠٠٠ فدان فقط، ولا ينتفع بها إلَّا من الكيلو ٥٧، حيث تتشعَّب منها فروع لسد حاجة منطقة الجزيرة وجميع الرَّي بالراحة، وبين كلِّ دور وآخر اثنا عشر يومًا. ويجري البحث الآن في إرواء الأراضي العالية الواقعة قبل الكيلو ٥٧ إما بآلات رافعة أو بعمل حجز على الترعة الرئيسية لتعلية منسوب المياه إن تيسَّر.

وبمقتضى اتِّفاقيَّة المياه بين مصر والسُّودان غير مصرح للجزيرة أن تأخذ مياهًا مطلقًا من خزَّان سنار من إبريل لغاية يولية ما لم تستوفِ مصر حاجتها من المياه، وفي الغالب فإنَّ الجزيرة لا تحتاج إلى المياه في هذا الوقت، والأمطار تنهمر بكثرة في المنطقة الشمالية. يسقط منها ما يناهز ٣٥ سنتيمترًا في السنة، وفي الجنوب حوالي ٥٠ سنتيمترًا.

ويزرعون في الجزيرة من الحبوب الذرة. أما البرسيم فلا يجود فيها البتة بسبب الأملاح الآنف ذكرها.

وعدد الزراع قليل، وهم سودانيون لا يكفون لفلاحة الجزيرة بأكملها، بل يتحتَّم جلب اليد العاملة له من الخارج.

والأرض توزَّع على الأهالي كالمتَّبَع في مصر، وعند نضج المحصول تأخذ الحكومة أولًا ٤٠٪ منه لتسديد قسط قرض مشروعات الجزيرة، ثمَّ يأخذ الزارع ٣٨٪ يخصم منها مصاريف الزرع وحلج القطن وتصديره لإنكلترا، والباقي وهو ٢٢٪ تأخذه النقابة.

وفي الجزيرة بجوار واد مدني حقل تجارب يدعى حقل بركات أجريت فيه منذ سبعة عشر عامًا اختبارات متعددة نتيجتها أنَّه بعد أن كانت الدورة الزراعية كلَّ ثلاث سنوات مرة أصبحت كلَّ أربع سنوات مرة ابتداءً من هذا العام.

والأرض التي يزرع بها القطن في عام تزرع بعده إمَّا فاصوليا أو ذرة وتترك بورًا سنتين، ثمَّ تزرع قطنًا مرة ثانية. وقد لوحظ أنَّ الأرض التي تزرع فيها الفاصوليا تنتج عند زراعتها قطنًا في الدورة التَّالية أكثر غلة من التي تزرع ذرة.

وجميع الحرث بالآلات تقوم به النقابة على أن تخصم تكاليفه بالضبط وبلا زيادة من حصة الزارع. وبذرة القطن جميعًا يستخرج منها زيتها، ثمَّ تجعل كُسبًا، وذلك لتقليل الآفات. ولهذا فبذرة الجزيرة للتقاوي تجلب دوامًا إمَّا من مصر أو من منطقتي طوكر والقاش. وجميع قطن الجزيرة يباع في ليفربول بمعرفة النقابة. وتزرع

في الجزيرة سنويًّا مساحة موازية لمساحة القطن من الحبوب، مثل الذرة والفاصوليا، والمحصول بأكمله يترك للزارع. ويلاحظ أن هذه الحبوب تزرع على مياه الأمطار ويلاحظ كذلك أنَّ القمح لا يجود في هذه المنطقة.

(٤) **منطقة الخرطوم وما حواليها:** يوجد بحري الخرطوم حقل تجارب حكومي يسمَّي شمباط فيه إخصائيون بعلمي النباتات والكيمياء يبحثون في كلِّ ما هو متعلق بالزراعة من مثل تحسين طرقها، واستنبات الأنواع الجيدة منها، ومقاومة آفاتها. وقد وجدنا ذلك المكتب منظمًا تنظيمًا يستوقف النَّظر، وألقى فيه علينا المستر ماسي العالم الكيمائي محاضرة تناول بها علل القطن واحدة واحدة شارحًا تطوراتها ووسائل علاجها، ففهمنا من بيانه أنَّهم استطاعوا أن يتغلَّبوا على مرض الذراع الأسود وتجدُّع الأوراق: الأول بتحويل البذرة إلى كسب بعد استخراج زيتها، والثاني بإحراق الحطب كما ذكرنا آنفًا. وقد ظهر لهم أن القطن المسمى X ١٥٣٠ ذو مناعة طبيعية ضد التواء الورق. والمنتظر أن هذا الصنف من القطن سيكون له المستقبل في الجزيرة.

وشاهدنا هناك بعض الأصناف المصريَّة الجديدة التي ما زالت وزارة زراعتنا تختبرها بعد أن استنبتتها. ومن الأسف أن الـ X ١٥٣٠ لا وجود له في حقل تجارب وزارتنا، وكان يجب أن نجرب أصنافهم كما يجربون أصنافنا. ووجدنا في الحقل قطعًا شطرنجية زرعت فيها أصناف جديدة يختبرونها ويحافظون على شجيراتها بتغطيتها بملاءات الشاش على الطريقة المعروفة.

ووجدنا أيضًا قطعة أرض زرعها نامٍ نموًّا عظيمًا بحيث لا يقدر محصول الفدان بأقل من ٧ قناطير، ويا حبذا لو جرَّبت وزارة الزراعة والجمعية الزراعية الملكية هذا النوع في نطاق واسع وعلى توالي السنين لمعرفة ما تنتهي به التجربة بعد تأقلم هذا الصنف مدة طويلة.

وممَّا لمحناه أن حقل التجربة هذا متسع بما يزيد كثيرًا على مساحة حقل التَّجارب بالجيزة. وهو يروى بطلمبات تديرها ماكينات ديزل مركبة على صنادل من حديد لسهولة نقلها من محطة إلى أخرى، وهذه الصنادل تعلو وتنخفض مع ارتفاع مياه النَّهر وانخفاضها. وبهذه الطريقة يقتصد من نفقاتها ما يستطاع لو ثبِّتت على بناء.

أمَّا الأراضي الأخرى الواقعة بحري الخرطوم مباشرة، والتي يملكها الأهالي، فقد زرنا منها مزارع حضرات عزيز كفوري أفندي، ومستر كونتوميخالوس، والدكتور معلوف، وإبراهيم بك عامر. فوجدنا التُّربة من الطَّمي الخفيف ذات خصب فوق

المتوسط، ووجدنا في المزرعة الأولى قمحًا يبشر بمحصول جيد جدًّا، ولكنهم لا يزرعون فيها القطن بالنظر لفداحة تكاليف حلجه ونقله وما تتقاضاه الحكومة من إتاوة عليه؛ ممَّا يجعله غير مربح بأسعاره الحالية.

وفي الحقول الأخرى قد اقتصروا أيضًا على الأصناف الشتوية، وتركوا القطن في هذا العام عدا مستر كونتوميخالوس فقد زَرَعَه. وزرعه دون المتوسط.

وهناك حدائق فاكهة شجرها نامٍ أحسن نموٍّ، ولكن قيل لنا: إنَّ ثمار البرتقال واليوسفي بالرَّغم من كبر حجمها ليس لها طيب المذاق الذي للثمار المصريَّة، وذلك أنَّها تنضج عاجلًا بتأثير الحرارة الزائدة.

أمَّا عامة الأصناف الأخرى كالليمون المالح والتين والجوافة والمنجة وخصوصًا الموز فجيدة، غير أنَّنا علمنا أن بعض هذه الحدائق تُصاب بذبابة الفاكهة، ولا يستعملون فيها طريقة العلاج المستعملة في مصر، وهي الرش بالفلوسليكات الصوديوم، حتَّى إن بعضهم طلب منَّا إرسال التَّعليمات الخاصَّة باستعمالها، وقد أجبناه إلى هذا الطلب.

(٥) **العطبرة وبربر:** هذه الأراضي من معدن أراضي بحري الخرطوم تقريبًا مع تفاوت قليل، وتصلح مثلها لزراعة الحبوب والقطن على ما ظهر لنا، وهي ملك لأهالي السُّودان ولفريق قليل من المصريين.

وتروى هذه المنطقة بالآلات الرافعة، وجوها أكثر ملاءمة للزرع؛ نظرًا لموقعها الجغرافي.

ففي زيداب مثلًا مساحة قدرها ٥٠٠٠ فدان يفضل قطنها قطن الجزيرة غلة وتيلة، وتجود فيها الحبوب وخصوصًا القمح، فقد يبلغ محصول الفدان منه ٨ أرادب.

وعلمنا أن ثمن الفدان الجيد فيها ممَّا يروى من الساقية ١٠ جنيهات. وكثير من أهالي هذه المنطقة يؤثرون أن يُستخدموا سُفرجيَّة في مصر والسُّودان فيَحرمون الزراعة من يد عاملة تساعد على إبقائها.

وفي مجموع هذه المنطقة، المسمَّاة بمديرية الشمال، يتمتع الأهالي بسعة من العيش بسبب انصرافهم إلى الخدم المذكورة، وهم يفحشون في تعاطي الشاى بحيث إنَّه أحصى ما يستنفده كلٌّ واحد من السكر، فوجد أنه (٤٢) رطلًا في العام مع غلاء السكر لاحتكار الحكومة إياه، في حين أن البريطاني لا يستهلك من السكر أكثر من (٢٠٠) رطل في السنة. ويحسن أن نذكر هنا أنَّ في العطبرة عددًا كبيرًا من المصريين تستخدمهم مصلحة السكة الحديدية التي جعلت تلك العاصمة مركزها العمومي، وفيها ناد كبير للمصريين أكبر من النادي المصري بالخرطوم.

نضيف إلى ما تقدم أن الدُّوم مزروع بكثرة في هذه المنطقة، كما أنه يوجد أيضًا في جهات أخرى من السُّودان، ومحصوله يُعدُّ من موارد ذلك القطر؛ فإنَّ الدُّوم يستعمل لصنع الأزرار في أوربا، وقد أُنشئ مصنعان لعمل تلك الأزرار في العطبرة أحدهما لمصري استوطن السُّودان والآخر لإيطالي. وهذه الأزرار تصدَّر إلى إنكلترا وإيطاليا بنوع خاص، حيث تُصبغ وتُعرض للبيع. ولمَّا كان في أسوان أشجار من الدُّوم كثيرة العدد فيحسن أن تتَّجه الأنظار إلى استغلال ثمارها صناعيًّا كما هو جارٍ في السُّودان.

(٦) **تيسينايا في الأريترية:** أما وقد انتهينا من وصف مناطق الزراعة بالسُّودان فلا يخلو من الفائدة أن نقول كلمة عن منطقة تيسينايا الإيطالية في الأريترية.

ذهبنا إليها من كسلا، وهي تبعد عنها نحو ٦٢ كيلومترًا: يقوم بزراعة تلك المستعمرة شركة إيطالية يديرها السنيور جاسباريني الحاكم العام للأريترية سابقًا، وهي تُروى من نهر القاش، حيث أقيم خزَّان يقال إنه أنفق عليه نصف مليون جنيه، وبوساطة هذا الخزَّان تأخذ تيسينايا المياه بالقدر المتفق عليه بين حكومة السُّودان والحكومة الإيطالية؛ أي إن منسوب المياه إلى حد معين للأرترية، وما زاد على ذلك فهو للسُّودان.

والمساحة التي تسنَّى لهم زرعها قطنًا إلى الآن ٢٥٠٠ فدان يعطي الفدان منها في هذه السنة (٢½) قنطارين ونصف قنطار من السكلاريدس.

والأشموني لا يصلح في هذه المنطقة كما لا يصلح الأمريكي لشدة إصابته بدودة اللوز، وقد جُرِّب زرع الأمريكي والسكلاريدي في قطعة واحدة من الأرض فأصيب الأول بالدودة دون الثَّاني. ومحصول العام الماضي كان رديئًا، ومعدن الأرض متوسط الجودة، غير أن طريقة الزرع هي البعلية، والفرق في أسلوب الزراعة هو أن المسافة بين الشجيرة والأخرى ١٣٠ سنتيمترًا تبعًا لتجاربهم، والذي تبينَّاه أنَّه أُنفق على إعداد هذه المنطقة للزراعة ما لا يؤمل أن تعطيه من الربح ما يتناسب معه مهما جادت.

أمَّا طريقة الزراعة، فإنَّهم يوزعون الأرض على الأهالي، ويقرضونهم مبالغ على كلِّ عمل من أعمال الزرع، حتَّى إذا ما حلَّ حين المحصول يكون مجموع ما اقترضه كلُّ شخص ٤٠ ليرا عدا ثمن التقاوي، وكل ذلك يُخصم من حصته التي توازي ٥٠ في المائة. وهناك محلج للقطن فيه معصرة لزيت البذرة يصنع منه صابون لتوزيعه بالثمن على الأهالي.

أمَّا الكُسب فيُستعمل غذاءً للمواشي أو سمادًا للزراعة. والذرة جميعها للفلاح.

ومياه القاش تحصر في ترع على مثال ما يجري في دلتا القاش. ولما كانت المساحة القابلة للزراعة في هذه المنطقة ٢٦ ألف فدان. فهم يرجون أن يعدوا ٢٥٠٠ فدان أخرى للقطن في العام القادم.

على أن زيادة الأراضي التي تزرع قطنًا متوقفة على كمية ما يفيض من نهر القاش سنويًّا.

إلى هنا انتهى بنا وصف ما وقفنا عليه من الحالة الزراعية في المناطق التي زرناها. ونودُّ قبل ختم هذا التَّقرير لو يسمح لنا بكلمة نزيدها، هي، من جهة، معوان على التَّقدُّم الزراعي السريع في السُّودان. ومن جهة أخرى قد تكون مرشدًا للمصري الذي يريد أن يمد يده إلى يد السُّودان لتحقيق هذا التقدم.

من القواعد المأثورة التي جرت عليها جميع الأمم حين تعتمد إلى تأسيس اقتصادي في بلد بِكْر كالسودان أن تُمنح كلَّ وسائل المؤازرة والترغيب، وفي مقدمتها بالطبع تسهيل طرق الزراعة نفسها، ثمَّ توفير وسائل نقل الإنتاج بكُلفة قليلة، وتشجيع تصديرها إلى الخارج ولو بمنح جوائز للتصدير ما زالت تُمنح في كثير من البُلدان. وقد قلنا: إنَّ تكاليف النَّقل باهظة إلى حد أنها تُثني الأهلين عن بعض مزروعات تجود في أرضهم؛ لأنَّ تلك التكاليف تحمِّلها ما لا تطيق، فترخيص النوالين أمر ضروري، وكذلك ترخيص أجرة البريد والتلغراف، وتعبيد الطرق لسيارات النَّقل، ومن أكبر المغريات للمصريين على استيطان السُّودان لغرض زراعي أن تُوصلَ البُلدان من الشلال إلى حلفا بخط حديدي علمنا أن إنشاءه لا يصادف عقبات طبيعية كبيرة.

ولا ننسى بجانب ذلك ما يكون من شأن لمد الأسلاك التليفونية بين القطرين.

ويسرُّنا أن نرحب كلَّ التَّرحيب باللجنة الاقتصادية المشتركة التي شُرع في تشكيلها، وستجمع من رجالات مصر ومن رجالات السُّودان خيرة من تُناط بهم الشؤون التي ستهتم بها تلك اللجنة، فإنها تستطيع أن تذلل أولًا فأولًا كلَّ صعوبة تحول دون تنمية صلات البلدين وتقويتها.

أمَّا مسألة تملُّك المصريين بعد أن تكون قد أزيلت جميع العوائق التي أشرنا إليها في أثناء هذا التَّقرير، فهي مسألة نسبية وتقديرية يرجع فيها إلى رأي كلّ راغب

في التملك: فقد يكون اقتناء أرض متوسطة الجودة أمرًا مربحًا إذا أمكن الحصول عليها بثمن ملائم، وأمكن استغلالها باطمئنان، واستطاع صاحبها أن يستكثر لها اليد العاملة، وهي من كبريات المصاعب في السُّودان كما أشرنا آنفًا.

وجملة القول: إنَّنا ننصح للذين يخطر لهم هذا التملك — خصوصًا إذا أخرجت إلى حيز الوجود فكرة إنشاء شركة مصرية سودانية لهذا الغرض — أن يكون ما تبدأ به دراسة جميع العوامل الاقتصادية والزراعية في المنطقة المراد شراؤها، فتُناط تلك الدراسة بإخصائيين يباشرونها محليًّا. فإذا تملكت تلك الشركة بعد المباحث الوافية، فهي ستفيد المصريين أفرادًا بخبرتها المكتسبة من ممارسة العمل، وسيتسنَّى لها أن ترشدهم إرشادًا محكمًا مأمون العاقبة بالقدر الميسور.

وإذا تكلمنا عن التملك فلا يفهم ممَّا نرمي إليه أنَّنا نقصد استنبات صنف معين كالقطن، بل الذي نراه وننصح به أن يتخير المصريون المناطق الشمالية التي يجود فيها القمح وتعود زراعته فيها على أصحابه بكسب وافر، لا سيما وهو لا يحتاج إلى كثرة من الأيدي العاملة، فإنَّ هذا الاختيار يفيد مصر كما يفيد السُّودان؛ إذ يغني الأول عن استيراد القمحات الأجنبية يوم نجدها في متناول اليد بالسُّودان واستيرادها منه يوسع نطاق الصادرات المصريَّة إليه. وفي ما ذكرناه عن نجاح مزارع القمح التي شاهدناها ما يشجع على درس هذه الفكرة بعناية خاصة.

هذا وإنا لنتمنى من صميم الفؤاد لذلك القطر الذي أكرم وفادتنا إكرامًا شرح صدورنا، وحرك فينا أواصر الود والإخاء القديم، ثمَّ زادنا سرورًا بما تبيَّناه فيه من طيب عنصر الأهلين وتعطشهم للتقدم والرقي أن يخطو خطوات واسعة في سبيل الرفاهية والعمران، وأن يشترك معه المصريون في هذا العمل الجليل اشتراكًا يعود عليهم وعلى جيرانهم الكرام بالخير الوفير العميم.

القاهرة في ١٠ مارس سنة ١٩٣٥

يوسف نحاس، مصطفى نصرت، أحمد أبو الفضل الجيزاوي

(٨-١) مشاهدات عن زراعة القطن في وادي النِّيل

تقرير قدمه فؤاد أباظة بك إلى لجنة القطن الدولية المشتركة المنعقدة بالقاهرة في ١٧ و١٨، و١٩ فبراير سنة ١٩٣٤

ننشر التَّقرير المذكور المؤرخ في ١٧ فبراير سنة ١٩٣٤ فيما يلي:

يزرع القطن في جميع البلاد التي يمر النِّيل بها، ويقدر ما تنتجه تلك البلاد، وهي مصر والسُّودان وأوغندا والحبشة، بنحو أحد عشر مليونًا من القناطير، وإذا أضفنا نحو نصف مليون قنطار مقدار ما تنتجه البلاد المتاخمة مثل الكنغو البلجيكي وكينيا والصومال الطلياني والأرترية، وهي البلاد المكونة لأفريقيا الشرقية والشمال الشرقي، لكان الناتج العام نحو ١١٥٠٠٠٠٠ — حصة مصر فيها نحو تسعة ملايين قنطار هذا العام، والباقي وقدره مليونان ونصف تخرجه البلاد الأخرى: تنتج الأوغندا منها (٢٦٠٠٠٠) بالة، أي ١٣٠٠٠٠٠ قنطار باعتبار وزن البالة في هذه الأصقاع ٥٠٠ رطل، وكلها من النوع الأمريكاني.

أما السُّودان فمحصوله ٧٠٠٠٠٠ قنطار، منها ٦٥٠٠٠٠ من القطن السكلاريدس المصري.

وفي الأوغندا يزرع القطن في مساحات صغيرة مبعثرة على التلال والأحراش إلخ، ومن الغريب أن مجموعها ينتج هذا المقدار الكبير. ولقد قمت بسياحة في المنطقة القطنية الأكثر أهمية وزرت غيط التَّجارب في بوكالاسا الذي لا يبعد كثيرًا عن بحيرة كيوجا، وهناك يشتغل الإخصائيون في تحسين صفات القطن. أما مستعمرة كينيا فيظهر أنها تجد من زراعة البن والشاي والحاصلات الزراعية الأخرى أحسن موردًا من القطن، وكذلك الحبشة؛ فإنَّ إنتاجها قليل. ولا تزال زراعة القطن عند بدئها في الصومال الطلياني عند جنالي وأفجوي على نهر الوبي شبالي، وكذلك في الإرترية عند تسينايا على نهر الجاش.

أما السُّودان المصري الإنكليزي ففيه حركة كبيرة في أرض الجزيرة على النِّيل الأزرق وفي كسلا على دلتل نهر الجاش، وفي طوكر على حوض نهر

بركة، وكل هذه المناطق الثلاثة تزرع القطن السكلاريدس، وما بقي من السُّودان فيزرع القطن الأمريكي.

ويزرع قطن طوكر وكسلا على طريقة ريِّ الحياض بعد فيضان بركة والجاش اللذين لا يتصلان بالبحر، بل تفيض مياهها الغزيرة في الفلاة، وتعقبهما زراعة القطن.

وينبع نهر الجاش في الحبشة مارًّا بالأرترية، وقد أقامت عليه الحكومة الإيطالية قناطر عند مزرعة تسينايا، ثمَّ يمر بكسلا، وهناك حُفرت ترع رئيسية لتأخذ ماء الفيضان منه ويتفرع منها مساقٍ كثيرة.

وفي سنة ١٩١١ شرَّفني جلالة مليكنا المحبوب بالاتِّفاق مع عظمة المرحوم السُّلطان حسين كامل أبي الفلاح، مؤسِّس الجمعية الزراعية ورئيسها الأول، لزيارة الصومال الطلياني لبحث إمكان زراعة القطن هناك عل جوانب مجرى نهر الوبي شبالي — وعند عودتي من هذه الرحلة زرت الإرترية والسُّودان، وكانت إقامة سدود على نهر الوبي شبالي ونهر الجاش والنيل الأزرق مشروعات وأفكارًا وأمانيَّ.

أما في رحلتي الأخيرة في يناير وفبراير سنة ١٩٣٤، فقد رأيت أن تلك المشاريع قد حققت بالفعل، وزاد عليها جبل الأولياء الذي رأيت العمل فيه قائمًا علي قدم وساق، كما رأيت تعلية أصوان قد تمت.

ليس من شأن هذه المذكرة بحث المشروعات الكبرى على النِّيل من إقامة قناطر وسدود وخزانات. ولكن لا مناص من الإشارة إليها لما لها من العلاقة المباشرة للتصرف في مياه النِّيل لإنتاج مقادير جديدة من القطن للعالم.

فبإقامة خزَّان سنار على النِّيل الأزرق (وكان مسمى خزَّان مكوار) خلقت مساحة جديدة في الجزيرة مقدارها ٣٠٠٠٠٠ فدان، زرع منها ٨٠٠٠٠ قطنًا في سنة ٢٥–٢٦ بعد افتتاح الخزان و١٠٠٠٠٠ فدان في موسم ٢٦–٢٧، وقد زيدت هذه المساحات من وقت لآخر حتَّى بلغت الآن ٧٥٠٠٠٠ فدان، منها ١٨٠٠٠٠ فدان تزرع قطنًا هذا العام، أي نحو ربع المساحة الجاري ريها، والتي ينتظر أن تنتج نصف مليون قنطار. أما مساحة الجزيرة نفسها فتبلغ أربعة ملايين من الفدادين أو أكثر، وتتعشم حكومة السُّودان أن تزرع منها ثلاثة ملايين في النهاية وفي المساحة التي يمكن وصول المياه إليها من الترعة

التي حفرت بموازاة النِّيل الأزرق، والتي تأخذ المياه مباشرة من خزَّان سنار، ولكن زيادة الأراضي التي تزرع وزيادة مناسيب المياه التي تؤخذ خاضعة لاتفاقات ومراقبة من الحكومة المصريَّة ولها علاقة مباشرة بكميات المياه التي تخزن من تعلية خزَّان أسوان، وإقامة خزَّان جبل الأولياء وما يتلوهما من مشاريع الرَّي الكبرى في بحيرة ألبرت نيانزا، وشق مجرى النِّيل في منطقة السدود، ومشروع إقامة سد في بحيرة تسانا في الحبشة، وربما على فيكتوريا نيانزا نفسها في أوغندا.

لم يمكِّني ضيق الوقت من زيارة بحيرة تسانا مع أن الحكومة الحبشية تفضلت بالموافقة على وضع إحدى طياراتها تحت تصرفي لتنقلاتي في الحبشة، ولم أتمكن من الانتفاع بهذا العرض الثمين؛ لأني كنت مرتبطًا بمقابلة لجنة القطن الدولية يوم ٤ فبراير ببورسودان لأقوم بزيارتي للسُّودان مع حضرات أعضاء اللَّجنة، ولَّما لم تحضر اللَّجنة وعدلت عن المجيء، قمت بالرحلة وحدي مع أسفي وأسف الجهات المختصة بالسُّودان التي رحبت كثيرًا بتلك الزيارة — ومن واجبي أن أقرر مع السرور أن جميع التسهيلات لقيامي بهذه الزيارة ووقوفي على دخائل ما يجري هناك من التَّصرف في المياه إلخ وزراعة القطن، قد قدمت إليَّ على أحسن وجه مُرْضٍ. وأضيف على ذلك أن الرجال الإداريين والفنيين في منطقة الجزيرة والجاش كشفوا لي عن مصاعبهم عن طيب خاطر، وكما أن في زراعة القطن عندنا مصاعب وآفات وأمراضًا فعندهم قسطهم منها.

ويظهر أن أحسن قطن السُّودان هذا العام هو ما تخرجه دلتا نهر الجاش، ويأتي بعده قطن الجزيرة، أما قطن طوكر فقد علمت أنَّه مصاب إصابة كبيرة بمرض التواء الورق، وكلها منزرعة سكلاريدس.

أما الأشموني والأقطان المصريَّة الأخرى فلم تفلح زراعتها في السُّودان. ودل القطن الأمريكي على صلاحية زراعته في باقي أقطار السُّودان، سواء على المطر أو بالري، ولكنَّه في الوقت نفسه يصاب بالآفات إصابة خطيرة عند زراعته في الجزيرة.

وينتظر أن ينتج الفدان من السكلاريدس في أرض الجزيرة ٢٫٧٥ قنطارًا في المتوسط في مساحة قدرها ١٨٠٠٠٠ فدانًا كما أسلفنا أو نحو نصف

مليون قنطار بالتقريب، وكذلك مائة ألف قنطار أو تزيد في منطقة الجاش ومائة ألف قنطار أخرى من طوكر وباقي السُّودان.

وهناك آراء متضاربة عن مستقبل أرض الجزيرة، ومن المصاعب التي تعترض زراعة القطن فيها مرض البلاك آرم ومرض التواء الأوراق، وهما أشدهما خطورة، ويلي ذلك دودة اللوز المصريَّة والسُّودانية ودودة اللوز الحمراء، ثمَّ الشلل والسوس والحشرة المسماة تربس.

وقد عثر الفنيون على نبات من السكلاريدس فيه مناعة ضد مرض التواء الأوراق أسموه إكس ١٥٣٠، وسيزرع منه ١٠٠٠٠ فدان في الموسم القادم، وينتظر أن تزرع الجزيرة كلها منه في عام سنة ١٩٣٥–١٩٣٦.

وقد يتوقف على نجاح هذا القطن الجديد انتعاش الآمال بزيادة متوسط محصول الفدان في الجزيرة كلها من نصف قنطار إلى قنطار.

ويلاحظ أن مرض البلاك أرم موجود في ترجمته الحرفية الذراع الأسود؛ إذ إن الفروع واللوزات المصابة في أنسجتها تسود ثمَّ تنشف ويتعطل نبات القطن عن النمو والإنتاج.

ولحسن الحظ ليس في مصر أمطار كثيرة كأمطار السُّودان تساعد على انتشاره، ولكن ذلك لا يمنع أن يراقب سير هذا المرض بكل انتباه خشية ما لا تُحمد عقباه، والأمطار في السُّودان تنزل بكثرة وغزارة عادة في يولية وأغسطس، وهو وقت زراعة القطن في السُّودان، فتنتشر الأمراض بمساعدة المطر والرطوبة، ويقال إن تفريق الأرض بعد تقليع القطن بآلة خاصة في شهر مايو تفيد في قتل المرض وجارٍ عمل تجارب على ذلك.

ويزرع القطن بالجزيرة الآن في ربع الأرض المنزرعة بدلًا من الدورة الثلاثية لتفادي أضرار الحشرات والأمراض الفطرية إلخ.

وتظهر الأملاح في بعض البقاع وعلى جوانب الترع فتشق مصارف سطحية لتصريفها.

أما شق المصارف — كما نعرفه بمصر — فلا ينفع في الجزيرة ذلك؛ لأن أرضها طينية ثقيلة لا تتشرب مياهها بسهولة؛ ولذلك لا تنفذ منها المياه للمصارف.

على أن جميع هذه المصاعب يشتغل في مقاومتها رجال قديرون من مصلحة الزراعة ونقابة زراعة القطن بالسُّودان من فنيين وإداريين، وقد

أعجبت بالمباحث القيمة المنتجة في غيط تجارب الجزيرة في واد مدني وغيط شمباط في الخرطوم بحري، وهناك نقط تجارب ومشاهدات أخرى في أنحاء الجزيرة.

وفي دلتا الجاش غيط تجارب قريب من بلدة أروما، ورأيت فيه مساحة صغيرة منزرعة من القطن الجديد إكس ١٥٣٠، وإنه ليلذ للناظر أن يرى مساحة شاسعة من القطن في دلتا الجاش تبلغ آلافًا من الفدادين عليها ثوب الصحة والنضارة خالية من الآفات والأمراض. لُوَيْزاتها ما بين مفتحة وخضراء سليمة حتَّى القمة من أعلى النبات

ويلاحظ أن زرع القطن في السُّودان وأوغندا والصومال والأريترية يبدأ في شهر يوليو، ويبدأ الجمع في شهر ديسمبر رويدًا رويدًا حتى شهر مايو، وفي بعض الجهات يمر الجمَّاعون كلَّ أسبوع لالتقاط كلِّ ما يفتح، وهذه الطريقة تعطي قطنًا نظيفًا متجانس الدرجة، كما أنَّه لا يزرع في كسلا وطوكر والجزيرة إلَّا صنف واحد هو السكلاريدس، وليس هناك ما نعهده في مصر من خلط رتب القطن بعضها ببعض لتوليف ما نسميه TYPE تيب. وإني أهنئ مصلحة الزراعة بالسُّودان لما أصدرته من القوانين واللوائح لنقاوة بذور التقاوي، ومنع خلط أنواع الأقطان ببعضها في المحالج والمكابس كما قد يحصل أحيانًا عندنا في مصر، كخلط السكلاريدس بالبليون والفؤادي أو الجيزة ٧ أو غيرها في غرفة الفرفرة بالمكابس.

وقد يتساءل إخواننا الغزَّالون في لجنة القطن الدولية الممثِّلة لإنكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا إلخ: ماذا عملت الحكومة المصريَّة في القرار الإجماعي الذي أصدره مؤتمر القطن الدولي في مصر سنة ١٩٢٧ لمنع خلط أنواع القطن بعضها ببعض في مكابس ميناء التصدير وجوابنا — هو بعينه ما أعلنَّاه في مؤتمر بارشلونة في سنة ١٩٢٩ ومؤتمر باريس سنة ١٩٣١ ومؤتمر براج سنة ١٩٣٣ — أنَّنا غير قادرين على إصداره بسبب هذا النِّظام الممقوت المسمَّى امتيازات الذي لا تزال مصر مثقلة بحديده وأغلاله، ولعلنا نتمكن قبل مؤتمر نابلي أو روما سنة ١٩٣٥ من فكها وإصدار هذا القانون الذي طلب تشريعه ممثلو الدول الأجنبية في مؤتمرات القطن الدولية بإجماعهم وإجماع الممثلين المصريين من الزراع.[٣]

ولقد وصلتُ صباح اليوم من رحلتي لإدراك أول انعقاد للجنة القطن الدولية في القاهرة، وتمكنت من تجهيز هذه المذكرة المختصرة على وجه السرعة، وإني آمل أن أكون قد نجحت في وصف زراعة القطن في وادي النِّيل، وإني مستعد للإجابة على كلِّ ما يُقدم لي من الأسئلة والاستعلامات.

وإني مدين لأصحاب السعادة حاكم السُّودان وأوغندا وكينيا والصومال الطلياني والأرترية، والذين كان لي السرور بمقابلتهم جميعًا (عدا سعادة حاكم كينيا)، وحضرات رجالهم الزراعيين والفنيين والإداريين الذين تفضلوا بتسهيل مأموريتي على وجه مُرضٍ.

وقبل أن أختتم كلمتي أبادر بالقول بأنَّ العناية تامَّة بإعطاء مصر ما يلزمها من مياه الرَّي، واستعمال ما يزيد عن احتياجاتها في ريٍّ وزراعة أراضي إخواننا السُّودانيين، ولكن الأحوال في الوقت الحاضر من الوجهة الاقتصادية والتِّجاريَّة البحتة ليست على ما يرام، بل يلزم زيادة التعاون والتآزر الزراعي والتجاري. أما كيف يكون ذلك فمن الوجهة الاقتصادية البحتة فإنَّ ذلك على حسب تخيلي الضعيف فليس من الصعوبة بمكان. أما من الوجهة السياسية فليس من شأن هذه المذكرة. ا.هـ

فؤاد أباظة

(٨-٢) رأي عبد الحميد بك فتحي

تحدث حضرة صاحب العزة عبد الحميد فتحي بك — ناظر مدرسة الزراعة العليا بالجيزة سابقًا وعضو مجلس إدارة الجمعية الزراعية وأحد أعضاء البعثة الاقتصادية — عن رأيه فقال:

سأتحدث كرجل زراعي مصري، وأول ما أسجله لإخواننا السُّودانيين بالفخر هو شدة تعلقهم بمصر وأحوالها وأبنائها، ولا يمكنني أن أوفيهم حقهم من الشكر والتقدير على ما أحاطوا به بعثتنا من الحفاوة والترحيب، ولا أبالغ إذا قلت: إنَّه كان لقاء أخوين طال عليهما البعد، ولا أخص بهذا فردًا أو هيئة، فالكل كان سواءً في الغبطة والبشر شعبًا وحكومة، زرَّاعًا وتجارًا وصنَّاعًا. حتى إنَّنا شعرنا بلذعة التقصير في القيام بهذا الواجب من زمن بعيد.

ولم تكن هذه الرحلة فكرة طارئة أو بنت اليوم، بل كانت أمنية تجيش في نفس المصري والسُّوداني على السواء، فالنيل قد جمع بينهما من قرون وآماد، فلم نشعر عند حلولنا في ربوع السُّودان إلَّا أننا في جانب من جوانب وادي النِّيل، فاللغة والدين والعادات كلها واحدة. وأين سرت لا ترى إلَّا أنهارًا وعيونًا ووديانًا كما ترى في مصر، وحتى النباتات والمزارع والطرق متشابهة تشابهًا كليًّا، فهناك القطن والقمح والفول وغيرها.

يزرع القطن في أنحاء كثيرة في السُّودان، منها ما يزرع بنظام الرَّي، وأكبر ميادينه الجزيرة، ومنها ما يزرع القطن السكلاريدي، ومنها ما يزرع «بعليا»، وهو ما يزرع بعد غمر الأرض بالمياه ولا يروى بعد ذلك، وهذا النوع يزرع في كسلا وتوكر. ففي كسلا أعدت طرق هندسية لغمر الأرض بالمياه. أما أرض توكر فتغمرها مياه نهر بركة وروافده، وتصادف أثناء وجودنا هناك أنهم كانوا يجنون القطن؛ لأنَّه يزرع عندهم في شهر يوليو وأغسطس.

والقطن البعلي المذكور نامٍ لدرجة كبيرة، وقد بلغ ارتفاع شجيرات القطن نحو ١٧٠ سنتيمترًا، ويغل الفدان منه نحو ثلاثة قناطير، وهو من النوع الأمريكي، وهو يزرع عادة على مسافات كبيرة، سواء بين الخطوط وبعضها أو بين الشطرات.

ويجرب هناك الآن نوع جديد من القطن يسمى «X ١٥٣٠»، وهو مستنبت من السكلاريدي المصري، وميزته أنه يقاوم مرضي «الذراعة الأسود» و«تجعد الأوراق»، وهاتان الآفتان هما أظهر أمراض القطن في السُّودان.

أما قطن الجزيرة فتقل غلة الفدان منه عنها في توكر وكسلا ومديرية بربر، ويرجع ذلك لكثرة الرَّي وللآفات الزراعية السالفة الذكر.

(٨-٣) زراعات الحبوب

شاهدنا مساحة واسعة لا تقل عن ثلاثة آلاف فدان في بلدة «البوقة» بعد مدينة «بربر»، مزروعة قمحًا وفولًا وقطنًا، ولم نتمكن من تقدير درجة نمو القطن؛ لأنَّه كان قد نزعت شجيراته في الوقت الذي وصلنا فيه. أمَّا القمح والفول فمن أحسن الأنواع، ولا يقل نموها عمَّا عندنا، والسبب الأكبر في نجاح الزراعة بتلك الجهة راجع إلى الرَّي؛ فإنَّ للحكومة طلمبات للرَّي بها.

(٨-٤) المحاصيل الأخرى

أمَّا المحاصيل الأخرى فكثيرة ويطول الكلام عنها، وأهمها السمسم والأذرة بأنواعها والصمغ والدوم. وتقام للدوم سوق كبيرة يباع فيها ويصدَّر إلى الخارج، ولعل أطرف ما أحدثك به عن الدوم الذي لا تعتد به في مصر أنَّه من أمتن العناصر لعمل الأزرار، ومنه تعمل أفخر أنواع الأزرار في العالم.

ولما عُرفت فائدته هذه؛ أنشأ أحد التُّجار معملًا للأزرار في العطبرة، ومنه تخرج أنواع الأزرار المختلفة، وليس ينقصها في الوقت الحاضر إلَّا عمليتا (التخريم) والصبغ، وهي تصدر إلى إنكلترا لهاتين العمليتين فقط، وسمعنا من المشرفين على هذا المعمل أنهم سيتمكَّنون قريبًا من إعداده بآلات التخريم وألوان الصباغة.

لا يخفى عليك أن السُّودان واسع جدًّا، وأن التُّربة لا تختلف كثيرًا عن أرض مصر، فهناك أراضٍ سوداء وصفراوية ورملية وحجرية كما هو الحال في مصر وإن اختلفت في النوع من جهة وفي عناصر تركيبها من جهة أخرى، غير أنني أستطيع أن أؤكد لك من الآن أنه يمكن زراعة مساحات لا تقل عن مساحة المنزرع في مصر إن لم تزد، ولا ينقصها إلَّا المال والأيدي العاملة.

وقد تألَّف لاتصال القطرين لجنتان واحدة في مصر من أعضاء البعثة وأخرى من إخواننا السُّودانيين، وسيكون الاتِّصال بينهما مستمرًّا لبحث المواضيع الاقتصادية التي تهم البلدين وتنمية العلائق، وتسهيل سُبل المواصلات والنقل وغيرها، وقد رأينا بادئ الأمر أن يكون اجتماعنا سنويًّا ودوريًّا، بمعنى أننا نجتمع سنة في القاهرة وسنة في الخرطوم لتوثيق العلائق وتنمية موارد القطرين الزراعية والاقتصادية والعمرانية.

وممَّا يُؤسف له أن الاتِّصال التليفوني بين مصر والسُّودان لا وجود له في حين تتصل مصر بجميع بقاع الأرض تليفونيًّا. وقد كان هذا من أهم المطالب التي عنيت بها البعثة، كما أن البعثة رأت أنه لإحكام الروابط بين البلدين، وخاصة من الوجهة الاقتصادية، أن تخفض أجور التلغراف ورسم الطرود ونولون البضائع إلى مثلها في مصر، وعلى ما أظن ستكون هذه المطالب محل عطف السلطات هنا وفي السُّودان.

وقد خطرت لأعضاء البعثة فكرة إنشاء شركة مصرية سودانية يكون غرضها الرئيسي مشترى أراضٍ بالسُّودان وزرعها، وهي فكرة جديرة بالتقدير إلَّا أنها تحتاج لبحث طويل. وتسود الجميع هنا وهناك روح الموافقة على تأليف هذه الجمعية. واعتقادي أن القانون المعمول به في السُّودان بخصوص عدم تمليك الأرض لغير

السُّودانيين لا يحول دون ذلك؛ لأنَّ هذا القانون صدر من زمن طويل، وكان المقصود منه وقت سنه عدم تمكين بعض الجاليات الأوربيَّة من شراء أراضٍ واسعة كان غرضهم الرئيسي منها المضاربة والكسب. ا.هـ

(٨-٥) أراضي دنقلا

الأراضي في دنقلا مساحات صغيرة، وتزرع نخيلًا في الغالب.

(٨-٦) أراضي حلفا والخرطوم

والأراضي بين حلفا والخرطوم عالية.

وكبار الزراع: كفوري، ويملك حوالي ٤٠٠٠ فدان، ومسيو كونتو ميخلوس ٤٠٠٠ فدان، ثمَّ إبراهيم عامر بك وغيره.

وكان في بربر شركة الزيداب، وكانت تزرع عشرين ألف فدان.

أسهم شركة السُّودان الزراعية تباع في بورصة لندن لأي إنسان، وكانت قيمة السهم جنيهًا، ثمَّ صعد إلى أربعة جنيهات، ثمَّ إلى ٢٢ شلنًا، وسعره بين الصعود والهبوط.

ولا يجوز للسُّوداني أن يبيع أرضه إلَّا بإذن من مدير المديرية، إذ يفضل السُّودانيُّ المشتري على المشترين غير السُّودانيين، وأراضي الجزيرة مسجلة باسم الأهالي.

وقد قسمت الشركة الزراعية أرض الجزيرة إلى أقسام صغيرة كلٌّ قسم يسمى «حواشة». والأرض ملك للأهالي، تولت الحكومة عنهم تأجيرها للشركة. والشركة تصلح الأرض وتسلمها إلى الذين يقبلون زراعتها، وتعطيهم التقاوي وسلفية.

تأخذ الشركة القطن وتحلجه في محالجها، ويرسل القطن إلى إنكلترا.

(٨-٧) زراعة الدخان

زراعة الدخان مباحة في المديريات التي كانت تزرعه قبل الثَّورة المهدية، مثل جبال النوبة ودارفور، وهو على العموم دخان غير جيد، وقد حرم السيد أحمد محمد المهدي — زعيم الحركة المَهديَّة — زراعته، ولما عاد الحكم الحالي في السُّودان اقتصرت الإباحة في المديريات التي كانت تزرعه قبل الثورة.

(٨-٨) جمعية زراعة القطن البريطانية[٤]

وقد نشرت في ٧ إبريل ١٩٣٥ جريدة «مانشستر جارديان» حديثًا للسر وليام همبوري — رئيس جمعية زراعة القطن البريطانية — وقد عاد أخيرًا من مصر والسُّودان. ومما قاله: «إن زارعي القطن في السُّودان يتوقَّعون الحصول في هذا الموسم على محصول أحسن بكثير ممَّا حصلوا عليه في بضع السنوات الأخيرة. وقد حصل الزارع منذ عامين على بذرة جديدة تقاوم دودة القطن، ولكنَّها لا تقاوم الآفة المعروفة باسم «بلاك آرم» مقاومة تامة، وهذا النوع من البذرة تنتشر زراعته في السُّودان.

وجاء السكلاريدي الجديد والقديم بغلة جيدة، وينتظر أن يزيد المحصول على ضعفه في العام الماضي، وأن يكون من نوع جيد، وعلى ذلك فإنَّ الآمال بتحسن الحالة الاقتصادية في البلاد أقوى منها منذ بضعة أعوام، كما أن هناك تفاؤلًا عامًّا يشمل البلاد.

وأعرب السر وليام عن ارتياحه إلى زيادة القطن الذي يزرع من بذرة القطن الأمريكي على مياه الأمطار بواسطة أناس لم يشتغلوا من قبل بزراعة شيء للتصدير، وقد كان لهذا تأثير كبير من حيث المدنية، وتقدمت الزراعة تقدمًا عظيمًا في المناطق الواقعة في جبال النوبة. والسُّكان هناك من الإفريقيين المعروفين بالخشونة من طراز رجال العصابات، وهم يعيشون على الفطرة، فلم يتعودوا ارتداء الملابس. وكانوا فيما مضى يُظهرون نفورًا كبيرًا من الاحتكاك بالمدنية، فأخذوا الآن يهبطون من منازلهم الجبلية، ويزرعون كميَّات معينة من القطن في أراضيهم في السهول. وهم يدفعون ضرائبهم من النقود التي يحصلون عليها من بيع القطن، ويشترون القلائد والعقود والملح والسكر.

ويقدر محصولهم من نوع القطن الأمريكي الذي زرعوه بمياه الأمطار في هذا الموسم بنحو ٣٠٠ ألف جنيه. ويجد ولاة الأمور أنفسهم الآن أمام مشكلة تحمل بعض الذين يشتغلون بالمشروعات التِّجاريَّة على الذهاب إلى هذه المناطق لإغراء هؤلاء الجماعة بالبضائع القطنية وغيرها. ومن الصعب تقدير عدد السُّكان، ولكن لا بد أن يكون كبيرًا.

وحكومة السُّودان مغتبطة بما لزراعة القطن من الأثر في نشر الحضارة بين السُّكان، ولك أن تقدر معنى هذا القول متى علمت أن الأمر لا يتطلب وضع جنود للحراسة.

ومن المناطق الأخرى التي يزرع فيها القطن بمياه الأمطار، المنطقة الجنوبية القريبة من حدود أوغندا، وبين الملاكال ومنجلا، حيث تقطن في الغالب قبائل الشلوك

والنوير التي لم يسبق لها الاشتغال أيضًا بزراعة شيء من المحصولات التي تُباع. وقد أقلعت هذه القبائل الآن على أن يشن الغارة بعضها على بعض وعن نهب المواشي وسبي النساء، وشرعت تعيش هذه العيشة النافعة.

والتقدم في هذه المناطق ليس سريعًا كما هو الحال في منطقة النوبة، ولكن الصناعة في تقدم.

وتحتضن الحكومة الآن جميع الأعمال الخاصَّة بزراعة القطن وتتولى أمرها. وقد بذلت كلَّ ما في وسعها في أثناء الضيق الاقتصادي لترويج الصناعة التي لو تركت للمصالح التِّجاريَّة لأصيبت على الأرجح بصدمة قوية.

أما سياسة الرئيس روزفلت الخاصَّة بحفظ أسعار القطن، فقد نفعت السُّودان نفعًا كبيرًا. ا.هـ.

تقرير السر وليم همبوري رئيس جمعية زراعة القطن

أصدرت جمعية زراعة القطن البريطانية التَّقرير الذي وضعه السر وليم همبوري عن زيارته الأخيرة لمناطق القطن في مصر والسُّودان في مايو سنة ١٩٣٥. وقد كان من أغراض زيارته درس التسهيلات اللازمة لخزن القطن في بورسودان، والسعي لمعرفة التأثيرات الضارة — إذا كانت هناك تأثيرات — في بالات القطن التي تخزن لمدة طويلة.

ويقول السر وليم همبوري: إنَّه «لم يجد عيوبًا تذكر، سواء في طرق تخزين القطن أو شحنه من ميناء بورسودان، حيث توجد تسهيلات للتخزين يمكن مقارنتها مقارنة حسنة بالتسهيلات الموجودة في موانئ إنكلترا.

ومعامل الحليج التي تملكها الحكومة السُّودانية في بورسودان حسنة، ومن المحتمل أنَّها لا تقل من حيث معداتها الحديثة وإتقان العمل فيها.

وينتظر الحصول على محصول جيد من نوع القطن الأمريكي من المناطق التي تُروى بمياه الأمطار في جبل النوبة والشقة الواقعة في جنوبها بين الملاكال ومنجلة. وقد تقدمت زراعة القطن تقدمًا عظيمًا في جبال النوبة، بحيث يقدر مجموع المحصول في هذا الموسم بنحو ٣٤ ألف بالة من القطن الذي يتراوح طول تيلته بين ١ $\frac{1}{8}$ و٦ $\frac{1}{2}$ قيراط، وهو يساوي ٨٠ إلى ١٠٠ بنط من كنتراتات القطن الأمريكي، وتوجد في هذه المنطقة بضعة معامل للحليج سيزاد عددها قريبًا».

ويقول السر وليم: «إن صناعة القطن هذه كلها أنشأتها مصلحة الزراعة بمساعدة الموظفين الإداريين، وهم لا يزالون يرعونها بعناية، وإذا ذكر المرء بين هؤلاء السُّكان الذين كانوا منذ أعوام قليلة لا يعرفون شيئًا عن المدنية ولا ينتجون إلَّا غذاءهم وحده، وكانوا مصدر قلق للسلطات المحلية، فإنَّه لا يسعه إلَّا الثناء على الذين أقنعوا هؤلاء القوم الذين كانوا يعيشون عيشة العُزلة والبداوة بأن يهبطوا من المرتفعات ويصغوا إلى نصيحة الرجل الأبيض ثمَّ ينتجوا محصولًا يمكن عرضه في الأسواق تربو قيمته على ربع مليون جنيه يجدون فيها ما يساعدهم على تسديد الضرائب وشراء ما يحتاجون إليه من الطعام وحاجيات المعيشة الأخرى.

وهذه المنطقة لم تستغلَّ تمامًا، ومن المحتمل جدًّا الحصول منها على مائة ألف بالة أو أكثر في المستقبل القريب.

وليس هناك شك في أن أرض الجزيرة — بل جميع مناطق القطن في السُّودان — ستعطي في هذا الموسم محصولًا طيبًا، سواء من حيث الكمية أو النوع، والواقع أنه ينتظر أن تعطي أرض الجزيرة غلة تزيد على أربعة قناطير للفدان، وقد تصل إلى الرقم الذي بلغته في سنة ١٩٣٢ وهو ٤٫٠٣ قناطير.

وبلغت غلة الفدان في كسلا ٤ $\frac{٣}{٤}$ قنطار مقابل ٥٫١٧ في سنة ١٩٣٢، وهو محصول حسن جدًّا.

وكل هذا القطن من نوع جيد يمكن استعماله، ولكنَّه يختلف قليلًا من حيث النوع؛ نظرًا للأنواع المختلفة التي تزرع من بذرة السكلاريدي التي لا يستهدف بعضها للأمراض والآفات. ا.هـ.

(٨-٩) الزراعة في منطقة سنكات

وصف الأديب صالح عبود بالخرطوم بحري «سنكات» فقال:

> سنكات إحدى مراكز مديرية (كسلا) محاطة بالجبال، هواؤها جاف ومعتدل طول أيام السنة، وهي من أكبر مصايف السُّودان، يقصد إليها المصيفون بكثرة من مختلف الجهات المجاورة وغيرها. حتَّى إن المساكن قد تضيق بهم في بعض الأحايين فيضطرون إلى السُّكْنى في جيبت التي تبعد عنها بنحو ٨ كيلو تقريبًا، وهي نقطة بسيطة الآن، وجميع أشغالها مرتبطة بسنكات. أما

سوق سنكات فلا بأس به، غير أنَّ حركته التِّجاريَّة تنشط في أيام المصيف التي تبتدئ غالبًا من شهر مايو وتنتهي في أواخر أغسطس من كلِّ سنة، وأحيانًا تمتد لغاية أكتوبر، وذلك يتوقف على الرَّي في إقليم طوكر، وبعد انتهائه يغلق أغلب أصحاب الحوانيت محلاتهم ويقصدون إلى بورت سودان وسواكن وطوكر؛ لأنَّ المصيِّفين معظمهم من مزارعي طوكر.

شجرة الجوافة تؤتي أكلها في سنتين إلى ثلاث من تاريخ غرسها، بينما في الخرطوم لا تثمر في أقل من خمس سنوات، وهذا ممَّا يدلُّ دلالة أكيدة على أن أرض الأولى أخصب وأنتج للفاكهة لأنَّ طينتها مخلوطة بالرمل، وأرض الثَّانية طينية لا تصلح كثيرًا للفاكهة إلَّا بعد مزج تربتها بالرمل والسباخ.

وفي سنكات بعض بساتين، ولكن ماذا يوجد في هذه البساتين يا هل ترى؟ الجواب لا شيء، إلَّا القليل من البقول الصيفية التي تكثر زراعتها في الصيف، كالملوخية والباذنجان والفجل والجرجير والبطيخ الذي ينتج بكثرة في بعض السنين ويكون موردًا لربح عظيم، وليت أصحاب هذه الجناين فكروا في زراعة ما هو أدر للربح وأنفع كأشجار الفاكهة والبطيخ، ولا شك في نجاحها لو عرفوا كيفية توليدها بطريقة التجنيس واستجلاب البذور من مصر والخرطوم، على أني لا أقول لهم أن يتركوا زراعة الخضروات التي تعوضهم أتعابهم، وقد يلاحظ بالسوق كثير من أنواع الفاكهة والخضروات المستجلبة من داخلية البلاد والخارج في أيام المصيف التي يمكن الاستغناء عن استجلابها فيما لو خُصَّت هذه الأرض بعناية من الحكومة بتشجيع أهالي سنكات ماديًّا لزراعة أنواع الفاكهة هناك، كان يمكن تصدير الفاكهة من سنكات للخارج، وقبل أن أختم هذه العجالة أريد أن أنوِّه عن الرمان الذي ينتج بكثرة في أركويت، ولكن مع الأسف الشديد لا يوجد من يهتم باستثماره، وأركويت لا تبعد عن سنكات بأكثر من عشرين كيلو، وهي العاصمة الصيفية لصاحب المعالي حاكم السُّودان العام، وفيها فندق كبير تحت إشراف مصلحة السكة الحديد يؤمه المصيفون الأورباويون برحلات منظمة تديرها المصلحة المذكورة في أوقات مخصوصة من السنة، ولا يوجد فيها فندق للوطنيين.

وفي سنكات توجد جنينة للحكومة منتظمة بالنسبة لبقية الجنائن الأخرى يحتكرها نادي توفيق بك في المصيف، ولا يوجد بها من الأشجار الصالحة إلَّا

بعض من شجيرات النخيل والرمان، ومن هنا يظهر لي أن أصحاب الجنائن لم يفكروا، ولولا ذلك لما أهملوا هذه الأرض التي تدرُّ عليهم أضعاف ما ينفقون. ولو شمَّروا عن ساعد الجد وابتدأوا من الآن باستحضار الأشتال، والشتلة الواحدة من الفاكهة لا تكلفهم أكثر من مائة مليم بما في ذلك نولون السكة الحديد؛ لجنوا ربحًا طائلًا في أقرب ما يتصوره العقل من الزمن، وأسباب المياه متوفرة لديهم، وفيها بعض الخواص المعدنية المفيدة لنمو النباتات.

ولا أكون مبالغًا إذا قلت إن بعض المساكن في سنكات توجد بها حدائق صغيرة غناء تثمر طيبًا كحديقة حضرات الشيخ عبد المجيد فضل المولى من كبار مزارعي طوكر والشيخ محمد عبد الرحمن من كبار مزارعي طوكر أيضًا وآل عبود، فليتخذوها أنموذجًا لهم، وفيها من البرتقال واليوسفي والنارنج والليمون والجوافة والعنب والياسمين ما يشرح الصدور فهنيئًا لهم بما غرست أيديهم. ا.هـ.

هوامش

(١) راجع الفصل السادس من الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٢) انظر نبذة بترجمة حياة حمدي سيف النصر بك بالجزء الثالث.

(٣) صدر قانون منع خلط القطن سنة ١٩٣٤، ونفذ وأنشئ له مكتب بالإسكندرية تابع لوزارة الزراعة رئيسه مسيو فيليبو.

(٤) تألفت هذه الجمعية سنة ١٩٠٣، وغرضها توسيع زراعة القطن في الإمبراطورية البريطانية، وفي سنة ١٩١٦ تألفت جمعية زراعة القطن الإمبراطورية، واعترف بها في سنة ١٩٢١ بأمر ملكي، ومنحت مليون جنيه لمساعدتها على البحث الفني ومكافحة آفات القطن والاستغناء بمحصوله في بلاد الإمبراطورية عن محصول أمريكا.

الفصل الخامس والعشرون

جغرافية السُّودان ومصر

يقع السُّودان «الحالي» في الشَّمال الشَّرقي من أفريقية جنوبي مصر، يبدأ منها عند خط العرض ٢٢° إلى جنوب الخط ٥° من العرض الشمالي، ويبلغ طول هذه المسافة ١٢٠٠ ميل، ويحدُّ السُّودان شمالًا بمصر وشرقًا بالبحر الحمر وأريترية التابعة لإيطاليا وبلاد الحبشة، وغربًا بأفريقيا الاستوائية الفرنسية، وجنوبًا مستعمرة أوغندا الإنكليزيَّة والكونغو البلجيكي، ليمتد غربًا من بحيرة رودلف قاطعًا النِّيل عند نموله، وهي قرية في أقصى الجنوب.

وتبلغ مساحة السُّودان حوالي مليون ميل مربع، أي ضعفين ونصف مساحة المملكة المصرية. وقد نزلت حكومة السُّودان عن مثلث من الأرض ضُمَّت إلى طرابلس الغرب، ويقع المثلث الصحراوي في الشَّمال الغربي للسُّودان. وكان ذلك بمعاهدة بين السُّودان وإيطاليا سنة ١٩٣٤.

وسكان السُّودان قليلون، وإحصاؤهم مستحيل؛ لاتساع المساحة وتفرق القبائل أقل من تنقلهم فيها. ويقال: إنهم بلغوا عشرة ملايين قبل الثَّورة المهدية، وإنهم نقصوا إلى أقل من ثلاثة ملايين بعد انتهائها. وأصبح العدد الآن متراوحًا بين ستة ملايين وعشرة ملايين.

ويشغل السُّودان أكبر نصيب من وادي النيل، وتحيط بالسُّودان الهضاب عند حدوده الشرقية والغربية والجنوبية، وبين رأس نباس على البحر الأحمر إلى بحيرة رودلف في الجنوب صحاري واسعة، بها جبال وهضاب، منها الهضبة الحبشية، وهي عالية المواقع في الحبشة، ثم تميل إلى الهبوط عند السُّودان. وتقع غرب النِّيل صحارى واسعة حتَّى مرتفعات جنوبي كردفان وجبال النوبة، وبعض الجبال يصل ارتفاعه إلى ٢٥٠٠ متر كجبل قدير الذي أقام به المهدي مدة وجاءته الوفود تترى من أنحاء

السُّودان مصدِّقة دعوته مقبلة على مبايعته، وجبل طقيم وتاج الله. وجبل مرة على مقرُبة من دارفور وعلوُّه ٣٠٠٠ متر. وترتفع الأراضي عند بحر الغزال ابتداءً من بحر العرب وبحر الجبل، إلى خط تقسيم الماء الفاصل بين النِّيل والكونغو.

وأشهر صحارى السُّودان: بيوضة، وهي جزء من صحراء ليبيا، والنوبة، وهي امتداد صحراء العرب شمالًا.

وأهم واحات السُّودان: سليمة ولوجيا وبئر النطرون أو السُّلطان، وتقع كلها غربي النيل.

كان بالسُّودان ١٥ مديرية: وهي الخرطوم وعاصمتها الخرطوم، وبربر وعاصمتها الدَّامر، ودنقلة وعاصمتها مروى، وحلفا وعاصمتها حلفا، والبحر الأحمر وعاصمتها بورسودان، والنيل الأبيض وعاصمته الدويم، والنيل الأزرق وعاصمته واد مدني، والفونج وعاصمتها سنجة، وكسلا وعاصمتها كسلا، وأعالي النِّيل وعاصمتها ملاكال. وكردفان وعاصمتها الأبيض، ودارفور وعاصمتها الفاشر وجبال النوبة وعاصمتها تالودي، وبحر الغزال وعاصمتها واو، ومنجلا وعاصمتها منجلا.

وفي كلِّ مديرية مأموريات «مراكز»؛ ففي الخرطوم: الخرطوم، أم درمان، الخرطوم بحري، وجيلي.

وفي بربر: أبو حمد وبربر والدامر وزيداب وشندي، وود حامد وعطبرة.

وفي دنقلة: أرجو ودنقلة والخندق والدية وكورتي ومروى.

وفي حلفا: حلفا والمحس وسكوت.

وفي البحر الأحمر: سواكن ومحمد غول وسنكات وطوكر والعقيق وكارورة.

وفي النيل الأبيض: الدويم والكوة وكوستي وتندلي والجبلين والقطنية.

وفي النِّيل الأزرق: مدينة ود مدني ومركز ود مدني والمناجل ورفاعة والمسلمية وسنار والكاملين وأبو دليج.

وفي الفونج: سنجة ودندر «أبو هاشم» وكركوج والرصيرص ودارفنج وكرمك.

وفي كسلا: كسلا وتمريز والبكانة «خشم القرية» والقضارف والمفازة والقلابات.

وفي أعالي النِّيل: الرنك وملوت وكودوك وملاكال وتنجة وفنجاك ولنجتام ونيرول وأبونج وأيوض ونقطة خور أثر والناصر ونقطة جارجوانج ونقطتا أكوبو وبيبور وجامبلة «محطة تجارية استأجرتها الحكومة من الحبشة».

وفي كردفان: بارادام دام وسوديري والأبيض وأم روابة ورهد والنهود وأبو زبد والأضية ومقلد.

وفي جبال النوبة: دلنج وسنجيكاي وكدوجلي ورشاد وتاج الله وتالودي واليري وهيبان والقوالب.

وفي دارفور: الفاشر وكتوم ونياله وأم كداده.

وفي بحر الغزال: واو وطنج ومشرع الرق ونيام ليل وراجه وديم الزبير وكفيكنجي ورومبيك ولاو وشامبي وجنب ومريدي وياميبو وطمبورة.

وفي منجلا: دك فايول وبور وأمادي وطمبة وباي ولوكا والرجاف وتوريت وأكوتوس ولوزنجا وعدالي وأوباري وكاجوكاجي ومنجلا.

وتكثر الأمطار في الجنوب الشرقي. والجو في الشَّمال جافٌّ، مع حرارة شديدة في الصيف «وخاصة في إبريل ومايو ويونية. تصل إلى ١٢٠°» فارنهيت، وبرودة شديدة في الشتاء، حيث تنزل بعض الأمطار.

في الجنوب: الجو حار رطب.

وفي الشَّرق: رطب — لا سيما في فصل الأمطار — وفي الهضبة الحبشية بارد صحي، وفي السهول رطب غير صحي.

وفي الغرب: حار وجاف صحي، وحرارته ليست شديدة.

جدول مديريات السُّودان قبل الإدماج الأخير

المديرية	البندر	المديرية	البندر
الخرطوم	الخرطوم	كسلا	كسلا
بربر	الدامر	أعالي النيل	ملاكال
دنقلة	مروى	كردفان	الأبيض
حلفا	حلفا	جبال النوبة	تلودي
البحر الأحمر	بورسودان	دارفور	الفاشر
النيل الأبيض	الدويم	بحر الغزال	واو
النيل الأزرق	واد مدني	منجلا	منجلا
الفونج	سنجا		

(١) إدماج المديريات

ورُئِي أخيرًا إدماج المديريات في بعضها، كما ألغيت مراكز بسبب إنشاء المحاكم الأهليَّة.

أُدمجت مديريات حلفا وبربر ودنقلا، وأصبحت باسم المديرية الشمالية وعاصمتها الدامر. وأُدمجت النِّيل الأزرق والفونج باسم النِّيل الأزرق عاصمتها واد مدني.

أُدمجت مديريتا البحر الأحمر وكسلا — أصبحتا مديرية كسلا — ماعدا بورسودان، فقد أصبحت محافظة.

وأدمجت مديريات النِّيل الأبيض وأعالي النِّيل وملاكال، وأصبحت مديرية ملاكال عاصمتها ملاكال.

أدمجت بحر الغزال في منجلا باسم مديرية خط الاستواء وعاصمتها جوبا.

(٢) جغرافية النِّيل في رأي العرب

جاء في مقدمة ابن خلدون تحت عنوان «تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا»:

> الإقليم الأول وفيه من جهة غربية الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس يأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الإقليم، وإنما هي في البحر المحيط جزر متكاثرة أكبرها وأشهرها ثلاثة، ويقال إنَّها معمورة، وقد بلغنا أن سفائن الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة، وقاتلوهم فيها فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أساراهم بسواحل المغرب الأقصى، وصاروا إلى خدمة السُّلطان، فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم، وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون، وأن الحديد مفقود بأرضهم، وعيشهم من الشعير، وماشيتهم المعز، وقتالهم بالحجارة يرمونها إلى خلف، وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت، ولا يعرفون دينًا، ولم تبلغهم دعوة، ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلَّا بالعثور لا بالقصد إليها؛ لأنَّ سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات معها بها ولا أين يوصِّل، وإذا مرَّت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب، وإذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على

الاستقامة حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها في القوانين في ذلك محصله عند النواتية والمَلَّاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حفافي البحر الرومي وفي عودته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهابِّ الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة، ويسمونها الكنباص، وعليها يعتمدون في أسفارهم، وهذا كله مفقود في البحر المحيطي؛ فلذلك لا تلج فيه السفن؛ لأنَّها إن غابت عن مرأى السواحل فقلَّ أن يُهتدى إلى الرجوع إليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الأبخرة المانعة للسفن في مسيرها، وهي لبُعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها، فلذلك عَسُر الاهتداء إليها، وصَعُب الوقوف على خبرها.

وأمَّا الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصب النِّيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه، ويُسمَّى نيل السُّودان، ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أولئك، وعلى هذا النِّيل مدينة سلا وتكرور وغانة، وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السُّودان، وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى، وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثَّمين ومفاوز يجولون فيها، وفي جنوبي هذا النِّيل قوم من السُّودان يقال لهم: طلم، وهم كفار، ويكتوون في وجوههم وأصداغهم، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وكلهم عامة رقيقة، وليس وراءهم في الجنوب عمران يُعتبر إلَّا أناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق، يسكنون الفيافي والكهوف، ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة، وربما يأكل بعضهم بعضًا وليسوا في عداد البشر. وفواكه بلاد السُّودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين وورکلان، فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة القوم من العلويين يُعرفون ببني صالح، وقال صاحب كتاب زجار: إنَّه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن، ولا يُعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن. وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد، وصارت غانة لسلطان مالي، وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من هذا الإقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك،

ويمر مغربًا فيغوص في بلاد الجزء الثَّاني، وكان ملك كوكو قائمًا بنفسه، ثمَّ استولى عليها سلطان مالي، وأصبحت في مملكته، وخُرِّبت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم من أمم السُّودان، وبعدهم ونفارة على ضفة النِّيل من شماليه وفي شرقي بلاد ونفارة وكاتم بلاد زغاوة وناجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم، وفيه يمر نيل مصر ذاهبًا من مبدئه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشَّمال، ومخرج هذا النِّيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة، واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه، وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند، وكذا ضبطه ابن سعيد، فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كلُّ خمسة منها في بحيرة، وبينهما ستة أميال، ويخرج من كلِّ واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشَّمال، وينقسم ماؤها بقسمين؛ فيمر الغربي منه إلى بلاد السُّودان مغربًا حتَّى يصب في بحر المحيط، ويخرج الشَّرقي منه ذاهبًا إلى الشَّمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما.

وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط، ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول، وعلى هذا النِّيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان، وحاضرة بلاد النوبة دنقلة، وهي في غربي هذا النِّيل وبعدها علوة وبلاق، وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشَّمال، وهو جبل عالٍ من جهة مصر منخفض من جهة النوبة، فينفذ فيه النِّيل ويصبُّ في مهوى بعيد صبًّا مهولًا، فلا يمكن أن تسلكه المراكب، بل يحول الوسق من مراكب السُّودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد، وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل، وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة والواحات في غربيها عدوة النِّيل، وهي الآن خراب، وبها آثار العمارة القديمة، وفي وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة ودياتي من وراء خط الاستواء ذاهبًا إلى أرض النوبة، فيصبُّ هناك

في النِّيل الهابط إلى مصر، وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنَّه من نيل القمر، وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا، وذكر أنه ليس من هذا النيل. ا.هـ.

(٢-١) جغرافية مصر

تشتمل بلاد القطر المصري على الأقسام الآتية:

(١) **مصر الأصلية:** وهي عبارة عن الزاوية الشمالية الشرقية من قارة أفريقيا، وتمتد جنوبًا من البحر الأبيض المتوسط إلى خط عرض ٢٢ شمالًا، وشرقًا من خط الزوال ٢٥ إلى قنال السويس وخليج السويس والبحر الأحمر. وتنقسم مصر الأصلية إلى ثلاثة أقسام متناسبة:

وادي النِّيل والدلتا، صحراء ليبيا أو الصحراء الغربية، صحراء العرب أو الصحراء الشرقية.

(٢) **شبه جزيرة سينا:** وهي عبارة عن جزء من قارة آسيا يمتد شرقًا من قنال السويس إلى الخط الواصل بين رفح على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وبين طابا بالقُرب من رأس خليج العقبة، وتسكنها قبائل من البدو ما عدا مدن العريش والطور والقنطرة. وتعرف شبه جزيرة سينا إداريًّا باسم محافظة سينا، وهي ضمن المناطق التي تشرف عليها مصلحة الحدود.

(٣) **عدة جزر في خليج السويس والبحر الأحمر:** أهمها جويال وشدوان وقفاطين وزبرجد أو جزيرة سان جون (القديس يوحنا).

وتبلغ مساحة مصر حوالي ١٠٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع أو أقل من المساحة الكلية صالحة للزراعة ولسد حاجة عدد محدود من السُّكان، والباقي منها يحتوي على أراضٍ صحراوية قاحلة يسكنها قليل من الأعراب الرُّحَّل.

وقد بلغ عدد سُكَّان القطر المصري حسب الإحصاء الأخير الذي عمل في سنة (١٩٢٧) ١٣٢١٧٨٦٤ نسمة، أكثر من ٩٩ منه يسكن وادي النِّيل والدلتا ومديرية الفيوم ومنطقة قنال السويس، والباقي مبعثر في الصحاري وشبه جزيرة سينا، ونسبة عدد السُّكان تبلغ ٤٥٠ نسمة في الكيلو متر المربع من وادي النِّيل والدلتا. أمَّا في

الصحاري فإنَّ تلك النسبة هي نسمة واحدة في كلِّ ١٣ كيلومترًا مربعًا. أمَّا مدينة القاهرة — وهي عاصمة القطر المصري — فإنَّها أكبر مدينة في أفريقيا، وقد بلغ عدد سكانها في إحصاء سنة (١٩٢٧) ١٠٦٤٠٦٧ نسمة.

الشاطئ: يبلغ طول شاطئ القطر المصري ٢٤٠٠ كيلومتر تقريبًا أو ١٣٠٠ ميل جغرافي، وشاطئ البحر الأبيض المتوسط مستوٍ ورملي ما عدا الجهات الغربية لمدينة الإسكندرية؛ فإنَّها مكوَّنة من هضاب صخرية قليلة الارتفاع قريبة من البحر في بعض المواضع. أمَّا على امتداد شاطئ البحر الأحمر فيوجد سهل رملي أو حصوي منحدر يفصل بين الجبال والبحر، وتلك الجبال ترتفع كثيرًا على مسافة قريبة في داخل البلاد، وتقترب كثيرًا من البحر في جهات أخرى، خصوصًا عند خليجي السويس والعقبة؛ فإنَّ مياههما تتلاطم بسفوح الجبال، وترى غالبًا في كلِّ مكان على امتداد شاطئ البحر الأحمر سلسلة صخور مرجانية كثيرة، توجد عدة من الجزر الأخرى بعيدة عن شاطئ البحر، وفضلًا عمَّا في مصر من الثغور الثلاثة العظيمة: الإسكندرية وبورسعيد والسويس، فإنَّ بها أيضًا ثغورًا ومرافئ أُخرى معدَّة لرسو المراكب الكبيرة، أهمُّها على التوالي: السَّلُّوم ومرسى مطروح على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، والطور وأبو زنيمة والزيتية وجمسة وهرغادة على خليج السويس، وسفاجة والقصير وحلايب على البحر الأحمر.

وادي النِّيل والدلتا: نهر النِّيل هو أهم الظواهر الجغرافية في مصر، وعليه تتوقف حياتها الزراعية، ويبلغ الجزء الممتد منه في مصر من وادي حلفا في أقصى الجنوب إلى رشيد ودمياط على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ١٥٠٠ كيلومتر.

أمَّا في جنوب القاهرة، فإنَّ وادي النِّيل يسير منحصرًا بين صخور شاهقة يبلغ ارتفاعها عن سطح النَّهر أكثر من ٣٠٠ متر في بعض المواقع، ومن هذه الصخور تؤخذ معظم أحجار البناء، ويختلف اتساع الوادي من أقل من كيلومتر في المواضع التي بها أحجار الجرانيت والأحجار الرملية في جنوب أسوان إلى أكثر من ٢٠ كيلومترًا فيما بين أسيوط والقاهرة حيث يتكوَّن معظم صخورها من حجر الجير. والأرض الصالحة للزراعة في الوجه القبلي عبارة عن الطبقة المستوية من وادي النِّيل، وهي المحصورة بين مجرى النَّهر والصخور المحيطة به. أمَّا في شمال مدينة القاهرة فإنَّ الأراضي الزراعية تمتدُّ من الدلتا على شكل مروحة غير منتظمة، وتشتمل على مديريات الوجه البحري الستِّ. ومديرية الفيوم ذات الأرض الخصبة والواقعة في

منخفض من صحراء ليبيا على بعد ٩٠ كيلومترًا جنوب غربي مدينة القاهرة، وإن كانت خارجة عن حوض وادي النِّيل، ولكنَّها تُروى من مياه النَّهر بواسطة ترعة كبيرة يبلغ طولها أكثر من ١٥٠ كيلومترًا معروفة باسم بحر يوسف، ولا يتَّصل بالنيل رافد مطلقًا في كلِّ مجراه الطويل في مصر، حيث يقل في الواقع سقوط الأمطار لدرجة أنَّ ما يفقده النِّيل بالتَّبخُّر يزيد كثيرًا جدًّا على كمية ما يسقط من المطر في هذه البلاد.

ويستمد النِّيل ماءه من الأمطار الغزيرة التي تسقط في مناطق خط الاستواء بإفريقية، ويختلف ارتفاع الفيضان في القُطر المصري سنويًّا تبعًا للمواسم الممطرة والجافَّة التي تتعاقب على هضاب الحبشة وبلاد السُّودان التي تعتبر حوض تجمُّع لمياه النيل.

ويبدأ النِّيل في الزيادة عند مدينة القاهرة في شهر يولية، ويصل إلى النهاية العُظمى (التي تزيد عن أربعة أمتار من منسوبه مدة التَّحاريق) حوالي منتصف شهر سبتمبر، ثمَّ ينخفض إلى الحد الأدنى في شهر مايو، ويختلف مقدار تصرُّف النَّهر المار بالقاهرة من ٢٥ مليون طن في اليوم مدة التحاريق إلى ٨٠٠ مليون طن في اليوم وقت الفيضان. وعند انخفاض النِّيل يكون ماؤه رائقًا ولكنَّه يتغير وقت الفيضان ويصير معكَّرًا ضاربًا إلى السُّمرة كلون الشكولاته؛ نظرًا لوفرة ما يعلق به من الرواسب أو الطَّمي الذي يحمله أثناء جريانه في جبال الحبشة، وبسبب احتواء هذا الطَّمي على المواد المخصبة كان هو العامل الأساسي في خصوبة أراضي القطر المصري.

وتوجَّه عناية مهندسي الرَّي إلى الاحتفاظ بمياه النِّيل وحصرها بين ضفتيه وقت الفيضان، ثمَّ توزيعها على الأراضي بواسطة الترع: أما خزَّان أسوان الكبير فإنَّ الغرض منه حجز كمية من مياه النِّيل عند أول دور من أدوار نقصانه السريع وإطلاقه وقت الصيف تخفيفًا لما قد يحصل في مياهه من النقص مدة التحاريق. وقد أنشئت قناطر عند إسنا وأسيوط وقرب القاهرة وزفتى بقصد مراقبة توزيع المياه على ترع الرَّي الكبيرة.

صحراء ليبيا أو الصحراء الغربية: تمتد صحراء ليبيا الشَّاسعة الأرجاء من غرب وادي النِّيل إلى بلاد طرابلس الغرب، وفي الجهة الشمالية منها تتكون معظم الصخور السطحية من حجر الجير؛ أمَّا في الجهة الجنوبية فإنَّه يكثر انتشار الحجر الرملي.

وجبل عوينات (١٩٠٧ أمتار)، وهو أعلى القمم بها، يقع في أقصى الطرف الجنوبي الغربي من الأراضي المصريَّة، وهو — مثل قمم جبال الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سينا — يتكون من صخور نارية. والسلاسل الطويلة من التلال الرملية التي لا يمكن عبورها والممتدة من شمال الشَّمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشَّرقي لمسافات تبلغ ٥٠٠ كيلومتر هي أجلى ظاهرة لصحراء ليبيا التي هي في جملتها من أكثر مناطق الدنيا ذات الأرض القاحلة وغير الآهلة بالسُّكان، غير أنَّ بها عددًا من المنخفضات به آبار وينابيع كافية لري مساحات قليلة وسد حاجة الآلاف من السُّكان، وهذه المنخفضات عبارة عن الواحات الغربية التي أهمها (من الجنوب الشَّرقي إلى الشَّمال الغربي): الواحات الخارجة والداخلة والفرافرة والبحرية وسيوه، وتتصل الواحات الخارجة بوادي النِّيل بواسطة سكة حديدية. وأمَّا معظم الواحات الأخرى فبعد أن كان الوصول إليها فيما مضى يقتضي سفرًا طويلًا شاقًّا على ظهور الجمال في أرض مقفرة خالية من الماء أصبح الآن بفضل الطرق التي مهدتها مصلحة الحدود للسيارات على قيد ساعات معدودة. أمَّا واحة سيوة ومديرية الفيوم فمنخفضتان عن سطح البحر، ويقع بينهما منخفض القطَّارة الواسع الأرجاء الذي تبلغ مساحته حوالي ١٨٠٠ كيلومتر مربع، وهو أوطأ من سطح البحر، وتقع أوطأ نقطة فيه على منسوب ١٣٤ مترًا تحت سطح البحر الأبيض المتوسط. وإمكان الانتفاع اقتصاديًّا من مشروع توليد القوى الكهربائية من منخفض القطَّارة لا يزال قيد البحث الدقيق. والمعادن التي تستخرج من صحراء ليبيا في الوقت الحاضر هي النطرون أو الصودا الطبيعية التي تُوجد في بحيرات وادي النطرون الواقعة على مسافة ١١٠ كيلومترات شمال غربي مدينة القاهرة. ويستعمل النطرون على الخصوص في صناعة الصابون البلدي، ويوجد نوع من صخور الفوسفات في الواحات الداخلة وحجر الشب في الواحات الخارجة ومعدن الحديد في الواحات البحرية، غير أنَّ النفقات العظيمة التي تلزم لنقل هذه المعادن تحول دون استخراجها والانتفاع بها تجاريًّا. ولا يعلم ما يدلُّ على وجود أثر للبترول في صحراء ليبيا، وكذا منابع الزيت فإنَّه يشرع في البحث عنها في تلك البقاع إلى الآن.

وتنقسم صحراء ليبيا إداريًّا إلى محافظتين تابعتين لمصلحة أقسام الحدود: إحداهما تشمل القسم الشَّمالي بما فيه الواحات البحرية والفرافرة تعرف بمحافظة

الصحراء الغربية، والأخرى الجزء الجنوبي بما فيه واحات الخارجة والداخلة، وتُسمَّى بمحافظة الصحراء الجنوبية.

صحراء العرب أو الصحراء الشرقية: تُعرف المنطقة الواقعة بين النِّيل والبحر الأحمر بصحراء العرب أو الصحراء الشرقية، ولو أنَّها تشبه صحراء ليبيا في عدم وجود الماء بها غير أنَّها تختلف كثيرًا عنها، فبدلًا من الهضاب المتماثلة الواسعة الأرجاء التي تتكون منها المنطقة التي على الجانب الآخر من النَّهر؛ فإنَّ بالصحراء الشرقية ظواهر طبيعية متنوعة أهمها سلسلة الجبال الوعرة المرتفعة التي تمرُّ في وسطها، ويتكون معظمها من طبقات من الصخور النارية، وتمتد من الشَّمال الغربي من بلاد الحبشة إلى ما يقرب من السويس، وهناك تظهر ثانية كأنَّها كتلة منفصلة عن جبال شبه جزيرة سينا، وأشهر قمم هذه الجبال الموجودة بالقطر المصري (من الشَّمال إلى الجنوب) جبل غريب (ارتفاعه ١٧٥٦ مترًا)، وجبل أبو دخان (١٦٦٢ مترًا)، وجبل الشايب (٢١٨١ مترًا)، وجبل حماتة (١٩٧٨ مترًا)، وجبل فريد (١٣٦٦ مترًا)، وجبل جيرف (١٤١٩ مترًا)، وجبل شنديب (١٩١٢ مترًا)، وجبل علبة (١٤٢٨ مترًا). وتحيط بسلسلة جبال من الجهة الغربية بين محورها والنيل هضاب من الحجر الرملي والجيري تخترقها وديان كثيرة الطول والعمق بها كثير من الآبار ومنابع المياه وكذا الأعشاب البرية. ولما كان محور هذه الجبال أقرب إلى البحر الأحمر منه إلى النِّيل كانت منحدرات الجبال الشرقية على الدوام أكثر انحدارًا منها في الجهات الغربية؛ ولذا تنعدم الهضاب لمسافات طويلة على شاطئ البحر الأحمر، ويكثر وجود الآبار والينابيع في الجهات الجنوبية من الصحراء الشرقية عن الجهات الشمالية منها؛ لأنَّ الجهات الجنوبية قريبة من مناطق خط الاستواء الممطرة، ونسبة الطرق الممتدة في الصحراء الشرقية غالبًا بين الوديان الشهيرة من بئر إلى بئر. وقد ترى هنا وهناك أكواخًا صغيرة للأعراب الرُّحَّل الذين من عددهم القليل يتكون سُكَّان هذه البقاع. وتربية الجمال السريعة العدو تقوم بها قبائل البشارين الذين يسكنون الجهات الجنوبية للصحراء الشرقية، لا سيما بالقرب من جبل علبة.

ولا تخلو الصحراء الشرقية من الثروة المعدنية، وقد عُمِلت في السنين الأخيرة محاولات جديدة للبحث عن إيجاد مراكز معينة لهذه المعادن التي عُلم أنَّها توجد في بعض الأماكن لاستخراج ما فيها والانتفاع به، ولا يزال كثير من جغرافية هذه الجهات الاقتصادية قيد الكشف في القطر المصري، ولكن البترول يُستخرج بكميات

وافرة من جمسة وغرهادة على شاطئ خليج السويس، ويستخرج الفوسفات كثيرًا من الجهات المجاورة لسفاجة، ولا يزال ما يستخرج من البترول من الينابيع المصريَّة غير كافٍ لسد حاجة البلاد، إلَّا أنَّه من المأمول كشف ينابيع جديدة. أمَّا الفحم فإنَّه قد كشف في عدة جهات طبقات صغيرة في صخور الصحراء محتوية على مادة الكربون. غير أنه للأسف لم تكشف من بينها طبقات فحمية يمكن الاعتماد عليها، وليس هناك أمل في كشف غيرها في المستقبل. وقد أدَّت قلة وجود الفحم في مصر مع قلة وجود الخشب أيضًا إلى الاهتمام بالبحث عن سوائل الوقود اهتمامًا لم يسبق له مثيل.

ويصدر إلى الخارج جميع ما يستخرج من الفوسفات من سفاجة وغيرها لعدم حاجة البلاد إليه؛ إذ إن أراضي القطر المصري غنية بهذه المادة من السماد وليست في حاجة إليها.

وتوجد كميَّات قليلة من الذهب والنحاس الأحمر في أماكن مختلفة من الصحراء الشرقية، ولكن استخراجها لا يعود بفائدة ما لكثرة ما يصرف من النفقات في استخراجها من هذه الأراضي الوعرة المسالك والتي لا ماء فيها، كما أنه قد بذلت مجهودات أخرى لإعادة فتح مناجم الزمرُّد القديمة في جهات السكيت، وقد كانت النتيجة أن استخرجت منها كميَّات متوسطة منذ بضع سنوات، على أنه قد لُحظ أن نوع هذه الأحجار لم يكن عالي القيمة، بل كان منحطًّا جدًّا بحيث إنَّه يحول دون إمكان صنعها إلَّا بخسارة.

وهذا الجزء من الصحراء المصريَّة يقع تحت إشراف مصلحة أقسام الحدود، ويعرف إداريًّا بقسم البحر الأحمر، ويمتد شمالًا إلى طريق القاهرة — السويس وجنوبًا إلى حدود السُّودان الإدارية.

شبه جزيرة سينا: تمتد من الساحل الشَّمالي للبحر الأبيض المتوسط، وهو ساحل رملي مستوٍ، مرتفعة نحو الجنوب لمسافة ٢٥٠ كيلومترًا تقريبًا، وتكون بعد ذلك هضبة مرتفعة جيرية تنتهي بمنحدر عظيم عند التيه. ويعلو هذا المنحدر في بعض الجهات إلى أكثر من ١٥٠٠ متر عن سطح البحر، ثمَّ تتغير طبيعة البلاد تغييرًا فجائيًّا في الجهات الجنوبية من التيه، والقسم الجنوبي من شبه الجزيرة عبارة عن جبال وعرة من الجرانيت تخترقها وديان عميقة، وأعلى قمم هذه الجبال جبل كاترينا (ارتفاعه ٢٦٤٦ مترًا)، وأم شومر (٢٦٠٢ مترًا)، وأستيب (٢٤٤٩ مترًا)؛ فإنَّها أعلى

جبال في مصر، وفي شبه جزيرة سينا ينابيع وآبار بكميات متوسطة، وتجري فيها مياه ملحية، ولا توجد في شبه الجزيرة مدينة متسعة، أمَّا الجهات المأهولة فهي العريش والنخل والطور التي لها أهمية خاصة في كونها محجرًا صحيًّا.

أمَّا ثروتها المعدنية؛ فإنَّها قليلة لغاية الآن، ويستخرج معدن المغنيز بكميات متوسطة من الجبال الواقعة في شرق أبو زنيمة، وتصدَّر للخارج. وقد كُشفت بشبه الجزيرة منابع للزيت بالقرب من خليج السويس في أبي دربة، ولكن الكميات المستخرجة منها قليلة.

جزائر خليج السويس والبحر الأحمر: قليلة الأهمية، وعلى بعضها كجزيرة الأشرفي وجزيرة صدوان فنارات السفن، يسكنها حراس هذه الفنارات فقط، وليس بها سُكَّان آخرون، وقد عملت مباحث عن البترول في جزائر جاي صم وملحميت وجوبال بالقرب من خليج السويس بدون جدوى، كما استُكشِفت حديثًا جملة أماكن لمنابع الزيت في جزيرة الزبرجد أو سان جون الواقعة في البحر الأحمر على بعد خمسين كيلومترًا من الجنوب الشَّرقي لرأس بناس.

الفصل السادس والعشرون

معادن السُّودان وجوه وحيواناته وصناعاته

كان السُّودان محطَّ أنظار الباحثين عن المعادن الثمينة. وطالما كانت هذه المعادن — وفي مقدمتها الذهب — أول ما حفَّز الفاتحين لغزوه والكاشفين لارتياد مهابطه ومجاهله. وقد اشتهر ذهب سنار، فهو يوجد تِبرًا في جبال بني شنقول جنوبي سنار، ويدعى الذهب السناري، ويوجد في جبل تيرا وشيبون غربي جبل قدير. ويروي المؤرخون أنَّ الذهب كان يوجد في وادي العلاقي بين كرسكو والبحر الأحمر. ولكن انقطع وروده من هذه المنطقة الآن.

والزمرد في الصحراء الشرقية والنحاس في «حفرة النحاس» في الشَّمال الغربي من بحر الغزال وفي جبال سواكن، والحديد في كردفان ودارفور وبحر الغزال مطمورًا في الرمال. والرصاص في جبل الكتم مسيرة يوم إلى الشَّمال من كوبي بدارفور والنطرون. وهو يؤخذ من بحر النطرون من طريق الأربعين، والملح ممزوجًا بالتراب السَّبخ، ويوجد في عطبرة والدامر والبويضة في مكان اسمه شرشار شمالي بارة، ويوجد في وادي الكعب غربي دنقلة، وملح البارود من الخرطوم والفاشر، والشب في واحة الشب غربي حلفا. والتريبة وهو تراب يحتوي على مواد ملحية في بربر، وتستعمل دواءً للزهري والحمى.

«والأنتيمون» أو الكحل في جبال مرة، والحجر الرملي والجرانيت والأحجار الكلسية في أنحاء مختلفة. وتنقب شركات أوروبية عن المعادن.

(١) المعادن والذهب عند الفراعنة

يقول الأستاذ سلامة موسى من بحث له:

كلنا يعرف أن هجرة الأوربيين إلى القارة الأمريكية تعود إلى رغبتهم في الذهب، وأن استعمار الأمريكيين للولايات المتحدة نفسها كان يسير على الدَّوام في أثر الذهب، فحيثما يكون المنجم يهرع إليه السُّكان، وأفريقية الجنوبية لم تُستعمر إلَّا من أجل الذهب.

وكذلك الحال عند القدماء، فإنَّ الكتب الستسكريتية تذكر أن هجرة الهنود إلى الهند كانت تتخذ على الدَّوام تلك الطرق التي تؤدي إلى مناجم الذهب، ولكن الهنود القدماء مثل المصريين القدماء لم يكونوا يطلبون الذهب من أجل الزينة والنقد كما يُطلب الآن. بل كانوا يعزون إليه صفات قيمة أكبر عندهم وألصق بحياتهم من قيمته عندنا.

كان القدماء من الهنود يصفون الذهب في كتبهم التي لا تزال تقرأ في اللغة الستسكريتية المنقرضة بأنَّه خالد، وأنَّه متولد من النار، وأنَّه يعيد الشباب، ويُطيل الحياة، ويكثر النسل. وهو النار والنور والخلود معًا.

وهذه الصفات لم يخترعها الآريون المهاجرون إلى الهند، وإنَّما هم أخذوها عن الفراعنة، فإنَّ تقديس الذهب عقيدة فرعونية، فهم كانوا أبناء الشمس، أي أبناء رع. وكان يجري في عروقهم سائل الذهب الذي ورثوه عن رع.

وقد دهشنا منذ سنوات عندما أُكتشف قبر توتخ أمون ورأينا مقدارًا عظيمًا من الذهب، ولكن هذا الفرعون لم يكن شاذًّا في وفرة الذهب؛ فإنَّ جميع الفراعنة منذ الأسرة الأولى، بل جميع النبلاء، كانوا يضعون الذهب في القبور لأنَّه الوسيلة إلى الخلود.

وهذه القداسة التي نسبت إلى الذهب أيام الفراعنة قد انحدرت إلى الأمم القديمة، بل بقيت منها أثارة حتَّى في القرون الوسطى حين اختلط البحث عن أكسير الحياة بالبحث عن إحالة المعادن الخسيسة إلى معادن شريفة. والذهب بالطبع في رأسها، وفي هذا الاختلاط يؤيد قدم العقيدة في قداسة الذهب، وأنَّه معدن الآلهة، والسبيل إلى الخلود.

وكيف وصل الذهب إلى هذه المنزلة؟

للجواب على هذا السؤال نقول: إنَّنا نجد في المتحف المصري ودعًا مصنوعًا من الذهب، وهو يعزى إلى الأسرة الأولى، وليس في العالم الآن صائغ يصيغ الذهب في هيئة

الودع، ونعني هذا الودع الذي ما زلنا نجده عند العرَّافين الذين يخبروننا بطالعنا بضربه فوق الرمل.

هذا الودع كان له أثر كبير جدًّا في عقائد الإنسان البدائي في العصر الحجري، حتَّى لقد كان سببًا في انتقال الثَّقافة الأولى بين البشر كما أوضح ذلك المستر ولفرد جاكسون في كتابه «الأصداف ودلالتها على الهجرة الثقافية».

فإنَّ الإنسان في العصر الحجري كان من السَّذاجة بحيث يعتقد أن الأم هي العامل الوحيد للولادة، وكان يجهل الأبوة بمعناها البيولوجي. ولذلك نظر إلى الودعة نظرة خاصة لما بينها وبين عضو التناسل في المرأة من مشابهة؛ فقدَّسها لهذا السبب، وصار يتجشَّم المشاق لجلبها من البقاع النائية لكي يحملها وهو يتوهَّم أنَّها ما دامت هي الأصل في الحياة فإنَّها قادرة على أن تحفظه في صحة دائمة، وتقيه من الأمراض، وتُطيل عمره حتَّى بعد الموت. وذلك لأنَّ الموت عنده كان حياة أخرى تحتاج أيضًا إلى ما يحفظها ويُطيلها.

ولكن الودعة بطبيعتها صدفة هشَّة تنكسر لأقل مصادمة، وهي مع ذلك كانت تُجلب من البقاع النائية. ولذلك فكَّر الإنسان البدائي في أن يصنع ودعًا من الحجر. وظل الإيمان بالودعة مدة طويلة حتَّى بعد أن اهتدى المصريون إلى الزراعة وأسَّسوا الحضارة. وكانوا يصنعونها من الحجر والذهب.

ويرى إليوت سمث أن اكتشافهم للذهب كان مصادفة حين كانوا يبعثون بعثاتهم إلى سواحل البحر الأحمر لجمع الودع؛ فإنَّ هذا الودع لا يوجد في سواحلنا الشمالية، وإنَّما يوجد كثيرًا في البحر الأحمر. وهناك عثروا على مناجم الذهب، فاستحسنوا لونه وخفَّته ومرونته ونصاعته، فصاروا يصنعون منه تماثيل صغيرة للودع بدلًا من أن يصنعوها من الحجر، وشاع بعد ذلك استعمال الذهب لهذه الغاية. ثمَّ بتوالي السنين أو القرون انتقلت ميزات الودعة إلى الذهب حتَّى أصبح المعدن نفسه يُضفي على من يحمله أو يتحلَّى به صفات الصِّحة والخلود أو طول البقاء.

(١-١) الودعة والبقرة والذهب

هذه الأشياء الثلاثة كانت تمثل في أذهان الفراعنة معاني الصحة وطول العمر والخلود. ولا بدَّ أن الودعة فقدت قيمتها عندما عمَّت الحضارة البدائية الأولى، وشرع الناس يفكرون في وظيفة الرجل البيولوجية في التناسل. ولكنَّ الذهب كان قد احتلَّ من نفوسهم مكانًا كبيرًا يُلابس عواطفهم فبقيت مكانته. أمَّا البقرة فكانت حاضرة على الدَّوام في أذهانهم وهي أعمُّ من الذهب؛ لأنَّ هذا المعدن كانت حيازته تقتصر على الأغنياء، وأمَّا البقرة فكانت عامَّة في الريف يملكها الزارعون. وكانت رمزًا للأمومة تُرضع الناس لبنها فيقوم عند الطفل مقام اللبن الذي يرضعه من أمه. ومن هنا أصبحت البقرة — التي لا تزال تُقدس في الهند — الربَّة هاتور.

ولكن الودعة والبقرة والذهب اختلطت؛ لأنَّها جميعًا تؤدي مهمة واحدة. وهذا القول هو الذي تُثبته الشواهد التاريخية. ولذلك ترى الكلمة الهيروغليفية لهاتور تعني الذهب. وهي توصف بأنَّها «هاتور الذهبية».

ومن هنا كانت عناية القدماء بالذهب الذي كانوا يبعثون البعثات إلى الأقطار النائية لجلبه واحتفالهم به ودفنه مع الموتى.

وكان الذهب بذلك وسيلة لنقل الحضارة — حضارة أبناء الشمس في عصر الفراعنة من مصر إلى آسيا وأفريقيا وأوربا بل إلى أمريكا. والآن يطوف السائح المنقِّب فيجد في تاريخ الأمم التي ينزل فيها أو في تقاليدها الباقية قصصًا عن أبناء الآلهة الذين نزلوا فيها واكتشفوا الذهب.

وأبناء الآلهة هم أبناء الشمس أيْ رَع. هم المصريون الذين أقاموا حيث كان الذهب، وزرعوا وعلَّموا من حولهم التقويم الشمشي وتحنيط الموتى وبناء الهرم، ونقلوا الإنسان من العصر الحجري إلى الحضارة.

ولم تقف مهمة الذهب عند إنشاء الثَّقافة؛ فإنَّ المصريين افتتحوا به عصر المعادن. واستخرجوا النحاس واستعملوه أولًا كما يستعمل الذهب للشبه الكبير بينهما، ثمَّ وجدوا من صلابته ما يجعله صالحًا للآلات فصاغوا منه الخناجر على هيئة الأسلحة الحجرية القديمة، ثمَّ صنعوا السيف وهو خنجر طويل. ووجدوا في الرماد المتخلِّف من صهر النحاس موادَّ لصنع المينا التي يُطلى بها الفخار. ثمَّ ارتقوا من ذلك إلى صنع الزجاج.

وهكذا نجد سلسلة متعددة الحلقات من ألوان الرُّقيِّ البشري نشأت جميعها على أسطورة قديمة هي أنَّ الذهب يُطيل العمر.

في هذا العام «١٩٣٥» يبلغ السير جيمس فريزر الحادية والثمانين من عمره. وهذا العالم العظيم قد عُرف وذاع صيته بكتاب يُدعى «الغصن الذهبي» تُعدُّ صفحاته بالألوف. وهو مجموعة وافية من العادات والعبادات والشعائر وألوان الحرف والعرافة والعقائد التي تتمشَّى في أنحاء العالم المتحضِّر والمتوحش. ولهذا الكتاب موجز تبلغ صفحاته ٧٥٦.

والقارئ لهذا الكتاب يعجب بهمَّة المؤلف وجلده وإحاطته، وسيبقى هذا الكتاب خالدًا بين الكتب التي تُعدُّ مراجع غالية وإن كان أساسه كله خطأ. فإنَّ الحقائق المدونة فيه لها فائدتها التي يمكن كل قارئ أن ينتفع بها. أمَّا استنتاجات المؤلف منها فقد ثبت خطؤها ولا قيمة لها الآن.

فإنَّ المؤلف يفرض أن الطبيعة البشرية واحدة في كلّ مكان، وأنها تستجيب للظواهر الطبيعية بعقائد متشابهة؛ ولذلك إذا عرفنا أنَّ التَّحنيط معروف في بيرو في أمريكا السفلى وفي الجزر الملاوية في جنوب آسيا وفي مصر وفي الكونجو؛ فإنَّنا يجب أن نعرف أن الظروف تشابهت فاستجاب لها الإنسان في جميع هذه الأقطار استجابات متشابهة. فليس هناك إذن ما يدعونا إلى أن نفرض أن الثَّقافة انتقلت في مسألة التحنيط من قطر إلى آخر. وكذلك الشأن في اختراع الزراعة والاهتداء إلى المعادن ونظام الحكومة والكهانة والزواج إلى غير ذلك.

ولكن هل هذا هو الواقع الذي نستطيع أن ندعمه بشهادة الحياة التي يعيشها البشر أو قبائلهم أو أممهم المختلفة؟

إنَّ الواقع يثبت أن الأمم أو القبائل أحيانًا تتجاور، ومع ذلك تعيش كلٌّ منها في حدود ثقافتها الموروثة. فهذه قبيلة تمارس الزراعة، وأخرى تجاورها ولكنَّها لا تزال تجمع الطعام جمعًا ولا تستنتجه استنتاجًا. وهذه طائفة تمارس عادات في الزواج أو تحريم بعض الطعام فتخالف الطوائف الأخرى المحيطة بها، ولو أنَّ الجميع يتجاورون ويختلطون. وكل ذلك لأنَّ لكل منها تراثًا ثقافيًّا يجعلها تحب وتكره ما لا يحبه غيرها أو يكرهه.

والإنسان بطبيعته جامد لا يقبل على العادة الجديدة، وليس هو بالمفكر النشيط الذي يدأب في الاختراع والاكتشاف. فإذا فرضنا أن إحدى الأمم اهتدت إلى كشف أو

اختراع؛ فإنَّ من المبالغة الكبيرة في حسن الظن بالذهن البشري أن نعتقد أن سائر الأمم ستخترع مثلها. وقصارى ما يحدث أنها تنقل عنها في بطء وفتور. وانتشار الأديان الحديثة يدلُّ على أن انتقال الثَّقافة من قطر إلى آخر في العصور القديمة كان مألوفًا. ولَمَّا كانت الحضارة المصريَّة القديمة تتصل بالدين وتمس العقائد التي تتعلق بالصحة وطول العمر والخلود والتناسل — كانت تجد قبولًا، بل تلهفًا أينما حلَّت؛ لأنَّ الإنسان مهموم بهذه الأشياء كما يدلُّ على ذلك هذه المعارف الجديدة عن الفيتامينات التي فشت بين الناس هذه الأيام، وبولغ فيها مبالغات كثيرة خرجت بها عن حدودها العلمية فإنَّ الناس لشوقهم إلى ما يطيل العمر ويقوي الصحة يكثرون من قراءة هذه الموضوعات، كما أنَّ الكتاب الذين عرفوا هذا الشَّغف قد أصبحوا يبالغون في فائدة الفيتامينات.

وهكذا الحال في العصور القديمة. فإنَّ الوهم الذي أشاعه المصريون عن فائدة الذهب والتحنيط جعل الأمم البدائية الأخرى تعتنق مذهبهم وتقبل حضارتهم وترتقي بها إلى الاكتشافات والاختراعات الأخرى.

ويجب عندما نبحث في انتقال الثَّقافة المصريَّة إلى أقطار العالم أن نميز بين إنسانين أحدهما الإنسان البدائي. والآخر الإنسان المتوحش.

فإنَّ الإنسان البدائي لا يعرف الزراعة، وليس عنده تراث كثير أو قليل من التَّقاليد. فهو يعيش عيشة ساذجة يجهل فيها اللباس والمسكن والغزو والسَّبْي.

أمَّا الإنسان المتوحش فيعرف طائفة عظيمة من العقائد يمارسها، منها: السحر والقتال ونظام الحكم، وأحيانًا يعرف الزراعة، وهذا الإنسان هو الذي جمع السير جيمس فريزر عاداته من جميع الأقطار وعرضها في كتابه لكي يثبت المشابهة في استجابة الذهن البشري للبيئة إذا اتفقت الظروف.

ولكن مدرسة كمبردج التي تقول بأن مصر هي أصل الحضارة التي تفشَّت منها إلى سائر الأقطار تُفسِّر هذا التَّوحش عند المتوحش بأن الثَّقافة المصريَّة القديمة وصلت إليهم فركدت ولم ترتقِ، أو هي انحطَّت على أيديهم وانمسخت.

وهذا التفسير يبرِّره الاستقراء؛ لأنَّنا نجد في عادات المتوحشين الحاضرة بذور الثَّقافة المصريَّة القديمة.

(٢) حالة الجو في السُّودان

يختلف الجو في السُّودان باختلاف مديرياته ومناطقه لاتساع مساحته. وفي السُّودان ثلاثة فصول: فصل الأمطار، أو فصل الخريف من يوليو إلى أكتوبر، حيث يفيض النِّيل وتُورق الأشجار وتُزرع الأراضي البعيدة عن النِّيل، وأول نزول الأمطار يسمَّى الرشاش، وعند اخضرار الأرض يعرف بالربيع، وعند النُّضج يعرف بالدرت. ويقف سير المراكب.

وفصل الشتاء: من نوفمبر إلى فبراير، وهو فصل البرد، ولا ينزل المطر، وهو خير فصول السُّودان اعتدالًا وصحةً.

وفصل الصيف — من مارس إلى يونية: وهو فصل الحر، وهبوب ريح السموم وثوران الغبار.

تسمَّى رياح السُّودان بالهبوب. وتهب في فصل الصيف بشدة فتثير الغبار والحصى وتلذع الوجوه؛ لأنَّها لهيب من النار. وفي الهبوب أعاصير زاحفة أسطوانية، وتهب الرياح «اللواقح» فتُثير الغبار، ويظلم الفضاء. وقد تقتلع الأشجار وتهدم المباني الضعيفة، وقد تُغرِق المراكب والبواخر.

ويشتد هطول الأمطار كأنَّه ينزل من أفواه القِرب، وتصطحب بالرياح والبرق والرعد، وقد تنزل الصواعق.

(٣) غابات السُّودان وأخشابه

السودان غنيٌّ بالأخشاب والغابات: فمنه النخيل وهو أنواع كثيرة. والدُّوم والدليب والعُرديب، وهو شجر التَّمر الهندي، والسدر وهو شجر النبق. والتبلدي وهو شجر هش، وثمره كجوز الهند والجوغان ثمره كالنبق، والقضيم والطندب والأهليلج ويسمونه «الهجليج». والحميض والجميز واللاستك والهشاب واللبان والسنط والسلم والكتر والسيال والحراز والعرد والمدس. ويؤخذ منه قشر الدبغ والأبنوس والكاكموت والأندراب والحبيل والبشم والعشر والأراك واللعوت يشبه شجر الليمون والصباغ في كردفان والنيل الأزرق والكليت واللولو والخمرة والروم والسنا والحناء والخروع، ويستخرج منه زيت والحسكنيت والحنظل والسم والسلعلع والمرخ والحمريب والحلفاء والنجيلة والطرفاء والصفصاف والقنا وقصب البردي والضبح وأكثر الغابات والأشجار في الجنوب.

(٤) الصناعة

- **الحدادة:** لصنع الحراب والسكاكين وأدوات الزراعة.
- **الصياغة:** الحلي والأواني المعدنية. ومن الصناع من يخرط العاج والخرتيت، ويصنع منهما الأساور والفناجين والأقداح.
- **الحياكة:** يصنعون قماشًا يشبه الدمُّور.
- **الدِّباغة:** للجلود.
- **البناء:** يبنون المنازل من طوب أو حجر أو طين ويصنعون الجير.
- **النجارة:** ومنها صنع المراكب، وهم مهرة في الخزف.

(٥) بعثات التَّنقيب عن المعادن

(١) شركة إنكليزية في أم بناردي عن طريق في الصحراء بين حلفا وأبي حمد (محطة رقم ٦)، ومنها إلى أم بناردي — مدت سكة حديد، ونقَّبت عن الذهب، ولكنَّها أفلست، ولم تصل إلى نتيجة.

(٢) شركة إنكليزية على حدود الحبشة في بني شنقول نقبت عن الذهب، وأفلست.

(٣) شركة إنكليزية تسمى (السد) أي (السدود)، تألفت لقطع الأعشاب وكبسها واستعمالها وقودًا، في قوالب كالطوب الأحمر.

(٤) مصلحة الجيولوجيا بالخرطوم تبحث عن المعادن — ولكنَّها لم تصل إلى أية نتيجة.

البترول: لم يكشف البترول بعد.

وجاء في تقرير اللُّورد كتشنر سنة ١٩١٢:

> واستمر النقب في مروى، وكان نتيجته حسنة، ومن جملة الأطلال التي كشف الروم عنها حمام روماني، وهيكل صغير أمامه أعمدة، وجانب من الحمام الملكي. وقد سافرت بعثة أكسفورد من فرس، وستعود في السنة القادمة إلى النقب في نبطة، وهي عاصمة ملوك مروى الثَّانية، وقد تولى المستر ولكوم النقب في جبل مويه للبحث عن الأشياء التي صنعت قبل عهد التاريخ.

(٦) الحيوانات

المفترسة: الأسد، ويسمُّونه الدَّابي ودود الخلا، والفيل ويصطاد من أجل سنه وجلده. ووحيد القرن ويسمونه العنزة أم قرن، ويصطاد لأجل قرنه المعروف بالخرتيت، ويصنع منه كاسات وفناجين وأنصبة.

والزرافة والجاموس البري وبقر الوحش. وحمار الوحش ويسمَّى عندهم حمار الخلا أو حمار الوادي والزيبرة، ويسمونه خطأً حمار الوحش، والضبع ويسمى بالمرفعين أو المرعفيب. والذئب والنمر والفهد والنمس والقنفذ، والثعلب ويسمى البعثوم، والخنزير البري ويسمَّى الحلوف، وأبو أظلاف، وهز الزباد والثيتل والغزال والقردة والنعام.

وتصطاد الكواسر بالبنادق والشراك، ومنه عمل حفرة في الطريق على عمق خمسة أمتار، وتغرز في قاعها أوتاد محددة، وتسقف بالحصر، ويحثى التراب فوقها حتَّى تكون شبيهة بالأرض المحيطة بها. فإذا ما مرَّ الحيوان المفترس هوى في الحفرة، واستحال عليه الصعود والهرب، فيرميه الصائد بحربته.

وتكثر الثعابين، ومنها غير السام والكبير الحجم، واسمه (الأصلة)؛ طوله أربعة أمتار، ويُصاد لجلده، والعقرب، وأبو شبت، والأرضة، والسروت وهي ذبابة سامة كالنحلة، والذباب العادي، والبعوض، والبق، والنحل، والفراش، والنامتة.

(٧) الأمراض والمستشفيات

جو السُّودان صحي في عامَّة الفصول، لجفاف التُّربة، وليس وجود الأمراض به مانعًا من وجود مناطق صحية. ويغلب في الأمراض سعة المساحة والعجز عن إعداد الوسائل الصحية في كلِّ مكان لما يتطلَّبه ذلك من المال الكثير.

والأمراض المشهورة هي: الحُمَّى الملاريا، وتُسمَّى بلغة السُّودان الوردة. وعلاجها البلدي: منقوع القرظ الممزوج بشراب العسل، أو منقوع التَّمر الهندي، أو ثمر التبلدي.

والديسونطاريا، وتُسمَّى عندهم العشرة، وعلاجها البلدي: اللبن الرايب بالحلبة أو أقراص النبق ومسحوق عرق السنط.

والزهري ويسمى «الحلق أو الجقيل»، وعلاجه البلدي: العُشبة المعروفة أو التَّربية، والسيلان ويسمونه «البجل»، وعلاجه: السمن البقري بمنقوع الحنظل أو بعشب الربع، والدودة الوحيدة، وعلاجها شرب الحشيشة الحبشية ممزوجة باللبن. والجدري. ويكون

أحيانًا وبائيًّا يصيب الزنوج أكثر من العرب، ويمنعون عن المريض به الروائح، ويدهنون عينيه بماء البصل، ويعالجونه بطعام البلح واللبن والبصل مع الذرة.

والالتهاب السحائي الشَّوكي والجرب والبرص، والكوليرا وتُسمَّى عندهم وعند أهل الصعيد: «الشوطة» وضربة الشمس. وأكثر الأمراض منشؤها تقلُّب الجو. على أن التَّحوط الصحي — وهو ميسور — يعطي مناعة لا بأس بها.

وقد انتشرت في السُّودان المستشفيات، وهي ثلاثة أنواع: صغيرة ومتوسطة وكبيرة. وبناء المستشفيات بسيط من الطوب في مساحات واسعة، نفقاتها قليلة، وهي دور واحد أو دوران، ويشرف عليها أطباء إنكليز، ويساعدهم أطباء سودانيون من خريجي مدرسة كتشنر الطبية في الخرطوم، ويدخلها خريجو طلبة غوردون لمدة أربع سنوات.

الفصل السابع والعشرون

الحالة الاقتصادية في السُّودان

زادت الحركة التِّجاريَّة في السُّودان فجأة عقب نشوب الحرب سنة ١٩١٤. وعندئذ كان مشروع ريِّ الجزيرة قد نهض ولم يبقَ عليه إلَّا القيام ببعض التَّجارب في جوار «واد مدني». وقد قسم قرض الحكومة السُّودانية الذي صدر به القانون سنة ١٩١٣، وأريد تنفيذه في سنة ١٩١٤ إلى ما يلي: مليوني جنيه، ما يلزم من الأعمال لتحقيق ريِّ سهل الجزيرة، و٨٠٠ ألف جنيه لمد السكك الحديدية، ٢٠٠ ألف جنيه لأعمال ريٍّ أخرى وللطوارئ.

ولكن هذا القرض الذي أريد الاكتتاب به في لندن، قد منعت الحرب الشروع فيه والحصول عليه، إلى أن كان شهر أغسطس سنة ١٩١٩، فرأت وزارة المالية البريطانية أن تزيد مبلغ القرض من ثلاثة ملايين إلى ستة ملايين. ولكنَّه لم يكن كافيًا، وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٩ أُبرم اتِّفاق مع «نقابة السُّودان الزراعية» "Sudan Plantations Syndicate" وقد واصلت النقابة المذكورة في أثناء الحرب تجاربها في نواحي الزيداب بمديرية بربر، وفي مزارع الطيبة وبركات بالجزيرة، على أن تقوم الحكومة السُّودانية بنفقات الترع الرئيسية، وأن تقوم النقابة بإنشاء الترع الصغرى تحت إشراف الحكومة، مع تمويل المستأجرين وبيع المحصول، على أن تقسم الأرباح الناتجة من بيع محصول القطن بين المستأجر والحكومة والنقابة بنسبة ٤٠٪ للأول و٣٥٪ للحكومة و٢٥٪ للنقابة. أما المحاصيل الأخرى فتكون كلها للمستأجر. وبمقتضى الأمر الصَّادر في أكتوبر سنة ١٩٢١ الخاص بأرض الجزيرة خول للحكومة الحق في استئجار الأراضي التي لها ملَّاك وطنيون مسجلون لمدة أربعين سنة، وتكون أجرة الفدان عشرة قروش، على أن يكون للملاك الحق الأول في زراعة قطع كلٌّ منها تبلغ ٣٠ فدانًا كلما كانت أقرب إلى

أملاكهم الأصلية. أما الأراضي التي كان محتاجًا إليها لأعمال مستديمة. فقد اشتريت من أصحابها.

(١) لجنة التحقيق في مشروعات الرَّي

في سنة ١٩٢٠ ثار نزاع مشهود في صدد تنفيذ مشروعات الرَّي الكبرى في مصر والسُّودان، وقام مهندسان إنكليزيان كبيران «ويلكوكس وكندي باشا» يعارضان في برنامج هذه المشروعات. وقد كان لهذا ضجة كبيرة استيقظ لها الرأي العام المصري، وطلب وقف المشروعات. فاضطرت وزارة الأشغال إلى تأليف لجنة للتحقيق تألَّفت من مهندسين من الهند والولايات المتحدة وكامبردج لإعطاء رأيها في صدد تنظيم توزيع ماء النِّيل لمصلحة مصر والسُّودان، وقد شملت المشروعات: خزَّان سنار، وخزَّان جبل الأولياء وقناطر نجع حمادي في الوجه القبلي، والقيام بأعمال صيانة عند منطقة السدود. وخزانات تخزين في البحيرات الكبرى.

(٢) ميزانية الحكومة

ورد في التَّقرير المرفوع من الفيكونت كتشنر إلى السير إدوارد جراي وزير خارجية إنكلترا يومئذ عن المالية والإدارة والحالة العمومية في السُّودان سنة ١٩١٢ ما يلي:

ويظهر نمو إيرادات السُّودان من الجدول التَّالي الحاوي الإيرادات التي حصلت منذ سنة ١٨٩٨.

السنة	الإيرادات ج.م
١٨٩٨	٣٥٠٠٠
١٨٩٩	١٢٧٠٠٠
١٩٠٠	١٥٧٠٠٠
١٩٠١	٢٤٢٠٠٠
١٩٠٢	٢٧٠٠٠٠
١٩٠٣	٤٦٣٠٠٠
١٩٠٤	٥٧٦٠٠٠

السنة	الإيرادات ج.م
١٩٠٥	٦٦٥٠٠٠
١٩٠٦	٨١٨٠٠٠
١٩٠٧	٩٧٦٠٠٠
١٩٠٨	٩٧٩٠٠٠
١٩٠٩	١٠٤٣٠٠٠
١٩١٠	١١٧١٠٠٠
١٩١١	١٣١١٠٠٠
١٩١٢ (المنتظرة)	١٤٢٤٠٠٠

وبلغ جملة الإيراد من الأطيان والعشور، أي أموال الأطيان التي تُروى بماء المطر ١٤١٤٠٠ج.م.

إيرادات سنة ١٩١٣	١٦٣١٠٠٠
مصروفات سنة ١٩١٣	١٦٣١٠٠٠

والسبب في نقص الإيرادات والمصروفات هو الاتِّفاق الذي تمَّ بين الحكومة السُّودانية والحكومة المصريَّة على العلاقات المالية التي كانت بينهما، فقد تقرَّر في هذا الاتِّفاق أن تُلغى الإعانة التي تدفعها الحكومة المصريَّة للحكومة السُّودانية، وأن تدفع الحكومة المصريَّة للسُّودان رسوم الجمارك التي تُؤخذ في مصر.

(٢-١) إيرادات الحكومة ومصروفاتها

(١) الإيرادات: في سنة ١٩٣٣ بلغت هذه الإيرادات ٣٦٣١٥٥٢ جنيهًا مصريًّا: من ذلك ٦١٨٠٠٥ج من المديريات و٦٩٦٤٣٧ من المصالح، و٧٥٠٥٤٩ من الإدارات المركزية

العامَّة، و٤٤٧٢٥٥ من السكك الحديدية، و٣٦٩٣٠٦ جنيهات من الري، و٧٥٠٠٠٠ الاعتماد الذي تدفعه مصر لقوة الدفاع عن السُّودان.

وقد بلغت الإيرادات ٤١٧٧٨٠٩ في سنة ١٩٢٧، و٤٦٨٠١٨٨ في سنة ١٩٢٨، و٤٨٣٥٠٠٣ جنيهات في سنة ١٩٢٩، و٤٦٩٣٦٢٣ ج في سنة ١٩٣٠، و٤٣٩٨٦١٨ جنيهًا في سنة ١٩٣١، و٣٨٥٣٧٩٨ ج في سنة ١٩٣٢، و٣٦٣١٥٥٢ في سنة ١٩٣٣.

(٢) المصروفات: وبلغت المصروفات سنة ١٩٣٣ مبلغ ٣٦٢١٩٥٧ جنيهًا مصريًّا.

(٢-٢) الحساب الختامي لحكومة السُّودان ١٩٣٤

صدر الحساب الختامي لحكومة السُّودان عن السنة المنتهية في ديسمبر سنة ١٩٣٤. وقد بلغت جملة الإيرادات ٣٧٧٤٩١١ج. و١٥٤م. والمصروفات ٣٧٤٩٤٧٧ج. و٢٤م. يوفر ٢٥٤٢٣ج. و١٣٠م. أضيفت لمال الاحتياطي العام فبلغت جملته ٣٦١٨٣٥ج و٦٥٤م. هذا بخلاف أموال الاحتياطي المخصصة التي تبلغ جملتها ١٨٠٥٠٤٠ج و٧٨٢م. والباقي من مال الاحتياطي المخصص للسلفيات البالغ قدره ٩٢٠٤٩ج و٦٦٥م. وتدلُّ أرقام الحساب الختامي على أن مركز الحكومة المالي متين يبعث على الطمأنينة، ويصحُّ أن يؤخذ كدليل قاطع على انكشاف الأزمة المالية، فلديها مبلغ ٦٩٥٣٤٤ج. و٨٤٩م نقدية في الخزَّانات وطرف البنك، ومبلغ ٢٨٤٢٨١٩ج. و٣٥٨م. سندات دين الحكومة البريطانية والمصرية، هذا بخلاف مال تعويضات خزَّان جبل الأولياء الذي بلغ بأرباحه حتَّى آخر العام الماضي مبلغ ٧٧٨٥٥٢ج و٤١٤م. منها مبلغ ٧٧٧١٩٣ج و٨٠م. موظفة في سندات، والباقي محفوظ في البنك الأهلي المصري. ا.هـ.

(٢-٣) مذكرة الحكومة عن ميزانية ١٩٣٤–١٩٣٥

ميزانية سنة ١٩٣٤

كان من أثر اضطراد التَّحسين في الميزان التِّجاري في سنة ١٩٣٤ أن زاد دخل الحكومة في جميع أبواب الإيرادات إلَّا في ما يخصُّ أسهمها في محصول القطن في توكر والجزيرة، حيث كان العجز ظاهرًا ظهورًا ملموسًا.

وقد بلغ صافي الدخل في الميزانية ٣٧٧٤٩١١ جنيهًا، وذلك بعد خصم مبلغ ٣٦٩١٣٧ جنيهًا لسد العجز في حساب القطن، وكان المقدر للإيرادات مبلغ ٣٨١٢٠٠٠ جنيهًا، وبلغت المصروفات الفعلية ٣٧٤٩٤٨٨، وكان مقدرًا لها ٣٨٠٩١١٤، وبهذا بلغ الوفر في الميزانية ٢٥٤٢٣ جنيهًا أضيفت للمال الاحتياطي.

وقد بدئ في خلال سنة ١٩٣٤ بتخطيط قنالات إضافية في المساحات المروية في أراضي الجزيرة. وينتظر أن تُزاد مساحات الأراضي المزروعة قطنًا نحو ٨٠٠٠ فدان حتَّى شهر يولية سنة ١٩٣٦.

وكذلك أنشئت ثلاثة محالج صغيرة في مديرية كردفان لتلافي الحاجة التي أوجبها الاتساع السريع في زراعة القطن المطرية في منطقة جبال النوبة، حيث زاد المحصول من ٣٣٥٦٦ قنطارًا كبيرًا في ١٩٣٢–١٩٣٣ إلى ٨٦٨٠٠ في ١٩٣٣–١٩٣٤، ويقدَّر محصول ١٩٣٤–١٩٣٥ بما يزيد على ١٣٣٠٠٠ قنطار كبير.

وأقيمت في مديرية الفونج فابريقة لنشر الخشب لإمداد السكة الحديد السُّودانية بما تحتاج إليه من الفلنكات، وأجريت تخفيضات هامَّة في كثير من أجور النَّقل في السكك الحديدية وفي أسعار السكر وأجور التليفونات، وخفضت ضرائب مباشرة كثيرة في المراكز التي ظلت الأحوال الاقتصادية فيها رديئة. ومع هذا فقد دفعت الضرائب بسهولة وختمت السنة بمتأخرات قليلة.

ميزانية سنة ١٩٣٥:

بعد الاستعداد لسداد زيادة قدرها ١٧٨٧٣ جنيهًا تمَّ تعادل الميزانية على مبلغ ٤٠٣٥١٥٠ جنيهًا.

وقد وضعت زيادات معتدلة ودقيقة في تقديرات أغلب أبواب الإيرادات، وظلت الضرائب تناسب مقدرة البلاد على احتمالها. وفي ناحية المصروفات وضعت نفقات الإدارة عند أقل منسوب تقضي به الضرورة. ولكن زيدت المبالغ المرصودة للإنفاق على الوسائل التي وضعت لزيادة الإنتاج والدخل، وتجديد ما يستهلك من الماكينات، وزيدت الأموال المرصودة للتعليم والأعمال الطبية.

وأعيدت الاستقطاعات التي كانت أخذت من مرتبات الوظائف الصغيرة وجزء من تخفيضات مرتبات الوظائف الأخرى.

والأسس العامَّة التي بنيت عليها الميزانية تدل على أن الحكومة مع حرصها على الاحتفاظ بنفقات الإدارة الاعتيادية تتَّخذ من الوسائل الفعالة ما من شأنه أن يُعجِّل إعادة الانتعاش إلى كيان البلاد الاقتصادي. ا.هـ.

وجاء في خطاب السر إدوارد كوك — محافظ البنك الأهلي المصري بالقاهرة — في اجتماع الجمعية العمومية السنوية ما يلي:

كانت آثار الكساد في السُّودان أشد وقعًا منها في القطر الشقيق؛ نظرًا لضآلة موارده الطبيعية وقلة الأموال المدخرة فيه، فلقد انحطت قدرة الأفراد على الشراء بغتةً وإلى حدٍّ كبير. وعجز التُّجار عن احتمال خسائرهم، واختلَّ توازن ميزانية الحكومة، التي يتوقف. الجزء الأكبر من إيراداتها على ما تجنيه من أرباح مشروعاتها التِّجاريَّة اختلالًا خطيرًا. ولكن هذه الصعاب قوبلت بهمَّة وشجاعة، وأنقصت المصروفات في كلِّ ناحية بمجرد أن تبيَّنت الحكومة أن الآمال التي نيطت بها برامج الإدارة لن تتحقق لسنين متعددة.

هذه السِّياسة السليمة، وإن كانت محافظة، آتت ثمارها، وعادت بها ميزانية الحكومة إلى حالتها من التَّوازن، وانتعشت الحياة الاقتصادية بالتَّحسن الطارئ على التجارة العالمية، فارتفعت أثمان أغلب البضائع السُّودانية، وزادت الصادرات بما يزيد على ٤٠ في المائة قياسًا بسنة ١٩٣٣، كما زادت تجارة السُّودان الخارجية في مجموعها نحو الثلث. وتدل زيادة استهلاك السكر والشاي على نحو قدرة الأفراد على الشراء: واستطاعت الحكومة، بعد أن أصبحت ماليتها في حالة أبعث على الرضى، أن تقوم بشتى الإصلاحات، وأجرت من تخفيض نفقات النَّقل المائي وعلى سكك الحديد، ما يدلُّ على شعورها بضرورة تخفيض نفقات النَّقل؛ كي تستطيع الحاصلات السُّودانية أن تصمد للمنافسة في الأسواق التجارية. ا.هـ.

(٣) تجارة السُّودان

(٣-١) الصَّادرات

نبيِّن في الجدول التَّالي قيمة صادرات السُّودان إلى البلاد الأخرى:

اسم المملكة	سنة ١٩٣٢ (جنيه مصري)	سنة ١٩٣٣ (جنيه مصري)	النسبة المئوية
بريطانيا العُظمى	٢٦٦٧٠٩٩	١٥٧٤٩٩٨	٦٠,٥
مصر	٢٢٨٣٢٠	٢٩١٣٥٣	١١,٢
الهند الإنكليزية	٣٦٨٥١١	١٦٥٩٧٤	٦,٤
الولايات المتحدة	١٠٣٢٢٢	٩٤٤٥٢	٤,٤
فرنسا	١٠١٥٨٨	١٢٩٧٦٦	٥
ألمانيا	٦٤٠١٢	٦٥٧٠٠	٢,٥
إيطاليا	٩١٠٨٢	٥٦٩٤٢	٢,٢
بلجيكا	٣٠٦٢٠	٣٦٨٩٦	١,٤
هولاندا	٢٥٦٤٨	٢١٠٦٧	٠,٨
اليابان	١٨٧٩٥	٣١٤٢٢	١,٢
أستراليا	١٥٩١٨	٨٣٣٩	٠,٣
بلاد أخرى	٨٢٧١٣	١٠٨٤٨٥	٤,١
المجموع	٣٧٩٧٥٢٨	٢٦٠٥٣٩٤	١٠٠

(٣-٢) الواردات

اسم المملكة الموردة	سنة ١٩٣٢ (جنيه مصري)	سنة ١٩٣٣	النسبة المئوية
بريطانيا العُظمى	٧٥١٧٥٣	٨٥٩٩٠٨	٢٧,٢
مصر	٤٦٠٤٤٢	٥٨٤٢٧١	١٨,٥
اليابان	٤٢٣١٥٥	٥٥٨٨٣٧	١٧,٧

اسم المملكة الموردة	سنة ١٩٣٢ (جنيه مصري)	سنة ١٩٣٣	النسبة المئوية
الهند البريطانية وعدن	٢٣٢٢٣٦	١٧٩٥٢٠	٥,٧
الحبشة	١٧١٤٨٤	١٥٤٨٦٢	٤,٩
أستراليا	٩٥٠٤٦	٨٢٢٩١	٢,٦
بلجيكا	١٤٤٦٤٢	٦٧٥٧٩	٢,١
اتحاد جنوبي أفريقيا	٤٤٦١٠	٥٣٠٢٧	١,٧
كنيا	٤٥٥٩٣	٥٢٦٧٤	١,٧
يافا	٦٨٠٨٠	٥٢١٠٨	١,٦
جزر الهند الشرقية	٣٧٠١٣	٥١٦٨٦	١,٦
الصين	٢٧٣٠١	٤٥٤٠٩	١,٤
فرنسا	٥٣٨٦١	٤١٥٨٨	١,٣
إيطاليا	٤١٩٦٨	٤٠٠١٥	١,٣
ألمانيا	٣٤٩٥٢	٣٤٦١٣	١,١
الولايات المتحدة	٣٤١٩٦	٣٠٤٩٦	١
هولندا	٥٢١٨٨	٨٥٩٩	٠,٣
بلاد أخرى	٣٣٦١٢٤	٢٦٢٨٦٠	٨,٣
المجموع	٣٠٥٤٦٤٤	٣١٦٠٦١٩	١٠٠

إيرادات السكك الحديدية

بلغت هذه الإيرادات في سنة ١٩٣٣ مبلغ ١٧٣٧١٤٢ جنيهًا، وبلغت الأرباح ٥٢٠٢٤٢ جنيهًا مقابل ٦١٢٧٠٤ جنيهات في سنة ١٩٣٢.

إيراد البريد والتلغراف

بلغت هذه الإيرادات ١٠٢٠٧٤ جنيهًا في سنة ١٩٣٣.

(٣-٣) الغرفة التِّجاريَّة وخطاب المستر كنتوميخالوس

بالسودان غرفة تجارية وحيدة هي الغرفة التِّجاريَّة السُّودانية بالخرطوم، وقد عقدت اجتماعها السَّنوي يوم ١٢ إبريل سنة ١٩٣٥، وألقى مسيو كونتوميخالوس رئيسها السَّابق الخطاب التَّالي:

أيها السادة

لي الشرف بأن ألقي خطابي السَّنوي للمرة الثَّانية كرئيس للغرفة التِّجاريَّة، وإنَّ من دواعي السرور أن نرى هذا العدد العظيم في اجتماعنا السَّنوي؛ ممَّا يدلُّ على اهتمامكم بأعمال الغرفة وتقديركم لمجهودات اللجنة:

إنَّ الحساب السَّنوي لحالة الغرفة يدلُّ على تقدم ظاهر، حيث لدينا الآن رصيد نقدي مبلغ ٨١٤ج ثمانمائة وأربعة عشر جنيهًا مصريًّا، ومتأخرات عند الأعضاء مبلغ ١٦ جنيهًا ستة عشر جنيهًا مصريًّا، كما أنه قد وصلتنا اشتراكات عن السنة القادمة مبلغ ١٨ جنيهًا ثمانية عشر جنيهًا مصريًّا. ونتيجة أعمال السنة كانت بزيادة الإيرادات على المصروفات بمبلغ ستين جنيهًا مصريًّا.

إنَّ أعضاء الغرفة التِّجاريَّة قد بلغوا الآن ٤٠٣ أعضاء منهم ٢٨٦ عضوًا في السُّودان و٧٢ عضوًا في مصر والخارج و٤٦ عضوًا شرفيًّا. ومع أن هذه النتيجة مرضية جدًّا؛ فإني لا أزال أنتظر من التُّجار الذين لا زالوا خارج الغرفة أن ينضموا إليها بأول فرصة.

في خلال السنة الماضية كانت لجنة الغرفة منهمكة في جملة محادثات مع اللَّجنة الاقتصادية في مواضيع كانت تطلب اهتمامها الخاص، وإنه يسرني أن أشكر رؤساء وأعضاء اللَّجنة الاقتصادية لمساعدتهم القيِّمة في هذا الصدد، وإن المسائل التي نجحت الغرفة في الحصول عليها في بحر السنة تتلخَّص فيما يأتي:

أولًا: إلغاء عوائد الحنظل والسنمكي الخلوية والمزروعة، وقد كان هذا من الضروري بمكان بالنسبة لحالة هذين الصنفين.

ثانيًا: تخفيض ناولون الأذرة في المحطات قبلي أبو حجار ومصاريف تخزين هذا الصنف في حلفا.

ثالثًا: تخفيض ناولون الفاصوليا واللوبيا من محطات خط دنقلة.

رابعًا: إلغاء عوائد توريد الصمغ في أستراليا بمساعدة الغرفة التِّجاريَّة في سيدني وفي ملبورن اللتين نقدم لهما تشكُّراتنا.

خامسًا: توحيد العوائد على القرض مدة ١٢ شهرًا ابتداءً من أول يناير بدلًا من تحديد هذه العوائد شهريًّا، وذلك بمساعدة اللَّجنة الاقتصادية.

لقد شُكِّلت لجنة فرعية لدرس مشتريات الحكومة من الخارج، وقد قدمت هذه اللَّجنة تقريرًا عن ذلك من اللَّجنة الاقتصادية. ولنا الأمل بأن نتحصَّل على مساعدة الحكومة في هذا الشأن، وقد بحثت اللَّجنة بالاشتراك مع اللَّجنة الاقتصادية تشجيع الأهالي لتقشير الفول السُّوداني، ولكن بالنسبة للمصاريف الباهظة التي تطلبها هذه العملية وُجد أنَّ الأوفق عدم الاستمرار في هذا الموضوع في الوقت الحاضر.

وقد اجتهدت الغرفة لإيجاد أسواق جديدة للشطَّة، ولكن لم تحصل على نتيجة من ذلك. وقد طلبنا من سعادة السكرتير القضائي الموافقة على نشر الكمبيالات التي يعمل عليها برتستو، ولكن الحكومة لم توافق على طلبنا، والموضوع لا زال تحت النظر.

وقد حصلت مباحثات لتعميم البيع بالمزاد لجميع الحاصلات في جميع المديريات بما فيها جميع الفونج، وكذلك توحيد جميع الحاصلات في الوزن، ومنع تصدير الأذرة والسمسم إلَّا بعد الغربلة بماكينات الغربال، وهذه المواضيع جميعها لا زالت تحت النظر.

بموافقة صاحب المعالي الحاكم العام تألفت لجنة مشتركة مكونة من مدير اللَّجنة الاقتصادية وموظف من مصلحة الزراعة من جانب الحكومة، ورئيس وسكرتير الغرفة التِّجاريَّة من جانبنا مع إمكان ضم أعضاء آخرين يُستدعى حضورهم وقت النَّظر في أي موضوع يهم التجارة، ولنا الأمل بأنَّ هذه اللَّجنة المشتركة ستأتي بفوائد عظيمة لصالح تجارة السُّودان.

هذا ملخص الأعمال التي قامت بها اللَّجنة في هذه السنة.

ومن أعظم حوادث هذه السنة زيارة فخامة المندوب السَّامي لأول مرة للسُّودان، ونؤمِّل أنَّ فخامته كان مسرورًا ممَّا شاهده من تقدم هذه البلاد.

وحادث آخر له أهمية، وهو زيارة البعثة التِّجاريَّة المصريَّة التي من نتائجها الكبيرة زيادة التعارف بين البلدين، وبهذه المناسبة أودُّ أن أشكر مرة أخرى معالي الحاكم العام وجميع موظفي حكومة السُّودان لحسن اهتمامهم بالبعثة؛ ممَّا جعل زيارتها للسُّودان ذات فائدة عظيمة. لا يمكن أن نقول بأن التجارة ستحصل على نتائج سريعة من وراء زيارة البعثة وتعارف التُّجار في القطرين؛ حيث هذا يتطلب جهودًا متواصلة حتَّى يصل إلى زيادة العلاقات التِّجاريَّة بيننا، ولكن يمكن أن أقول بأن زيارة البعثة قد أتت بفوائد من جهة العلاقات بين البلدين. وفي خلال زيارتي الأخيرة لمصر وجدت أن أصدقاءنا المصريين أصبحوا أكثر فهمًا من قبل، ويقدرون الصعوبات التي أمامنا، وهذا نفسه يعدُّ خطوة إلى الأمام لتحسين العلاقات الودِّية التي هي واجبة بيننا. والنتيجة الأولى التي ظهرت من زيارة البعثة هي تأليف لجنة دائمة مكوَّنة من أحسن العناصر التِّجاريَّة والزراعية، والتي ستكون على اتِّصال مع لجنة هذه الغرفة للنظر فيما يهمُّ تجارة البلدين.

وعند إتمام تأليف اللَّجنة الجديدة لهذه الغرفة سيكون أول اهتمامها الاتِّصال باللجنة الدائمة في مصر لتقرير خطة مشتركة للعمل في المستقبل. وليس من شك بأن هذا سيعود بفوائد جمَّة على القُطرين.

وفي ديسمبر القادم[١] سيقام معرض زراعي صناعي في مصر، وقد قبلت الغرفة الاشتراك في هذا المعرض. واللَّجنة الجديدة سيكون عليها الاستعداد من الآن كي تكون معروضات السُّودان ظاهرة بمظهر لائق، وأنا متأكد بأنَّه يمكننا الاعتماد على مساعدة الحكومة في ذلك.

كذلك نؤمل بأن أكبر عدد ممكن من تجار هذه البلاد يغتنمون هذه الفرصة لزيارة المعرض ومشاهدة التَّقدُّم العظيم الذي حصلت عليه مصر في السنين الأخيرة صناعيًّا وتجاريًّا، ويتبادلون الآراء مع التُّجار المصريين للوصول إلى الغرض التي تسعى إليه وهو زيادة العلاقات بيننا وبين مصر.

وسيقام في هذه السنة مؤتمر دولي للغرف التِّجاريَّة في باريس.[٢] وكما كانت لي فرصة حضور مؤتمر فينا في العام الماضي نؤمل أن نتمكَّن من الحضور في مؤتمر باريس، وأن البعض منكم أيضًا يغتنم هذه الفرصة للاجتماع برجال الأعمال في الأقطار الأخرى.

إحصائية تجارة البلاد:

بلغ مجموع وارداتنا في سنة ١٩٣٤ مبلغ ٣٧٤٤٣١٣ جنيهًا مصريًّا يقابله مبلغ ٢٩٩٩٤٧٩ جنيهًا مصريًّا في سنة ١٩٣٣، ومجموع صادراتنا مبلغ ٣٨٢١٤١٥ جنيهًا يقابله مبلغ ٢٥٨٧٤٢٣ جنيهًا مصريًّا في سنة ١٩٣٣، أو بزيادة مبلغ ٧٤٤٨٣٤ جنيهًا مصريًّا، ومبلغ ١٢٣٣٩٩٢ جنيهًا مصريًّا في الصادرات والواردات. من المبالغ المذكورة أعلاه زادت واردات الحكومة مبلغ ٢٢٥٨٨٣ جنيهًا مصريًّا، وورادات الجمهور مبلغ ٥١٩٠٠١ جنيه مصري. وبدون شك إنها نتيجة حسنة بالرَّغم من أنَّ هذه الأرقام لا زالت أقل من أرقام بعض سنين مضت.

كانت إنكلترا أول البلاد في الواردات والصادرات، فقد استوردنا منها بمبلغ ٩٧٢٦٨٨ جنيهًا مصريًّا، وصدرنا إليها بمبلغ ٢,٠٨٤١١٦ جنيهًا مصريًّا، أو بمعدل ٢٦٪ من جميع وارداتنا، و٥٤٪ من جملة صادراتنا، وكانت مصر ثانية البلاد بهذا المعنى، فقد استوردنا منها بمبلغ ٨٧١٤٠٥ جنيهات، وصدرنا إليها بمبلغ ٧٨٣٧٩٨ أو معدل ٢٣٪ في الوارد و٢٠٪ في الصادر.

أما علاقاتنا بالبلاد الأخرى فلم تتغير كثيرًا ما عدا اليابان، فقد بلغ الوارد منها للسُّودان مبلغ ٧٥٤٦٧٨ جنيهًا، أو معدل ٢٠٪ من جملة وارداتنا، بينما من وارداتنا لم تأخذ اليابان إلَّا بمبلغ ٥٠٤٦٩ جنيهًا أو ١ $\frac{1}{2}$ من جملة الصَّادر، وقد ذكرتُ لكم هذا في خطابي الماضي، وتحدثت بذلك في فرص أخرى، ولكن يظهر أنَّه لا يوجد دواء لهذه الحالة لسبب بعض معاهدات مرتبط بها السُّودان، وبهذه الفرصة نتوجه إلى الحكومة بالرجاء أن تسعى بأول فرصة بتغيير هذه الحالة، حيث لا أجد مبررًا لأن ندفع لليابان هذه المبالغ العظيمة بينما اليابان لا تهتم بأن تزيد مقدار صادراتنا إليها. إنَّ حالة التَّقدُّم في تجارتنا في العام الماضي لا زالت في استمرار في الربع الأول من هذه السنة، ولنا الأمل في أن تكون نتيجة سنة ١٩٣٥ كلها كذلك.

إنَّ إنكلترا لا زالت أحسن عميل لنا. ولكن للأسف وبالرَّغم عن كلِّ ما بذلناه لا زالت بعض صادراتنا تدفع ١٠٪ جمركًا هناك. وقد ذكرت ذلك في تقريري الماضي، كما أنِّي ذكرت بأنَّنا ننتظر من إنكلترا مساعدتنا في

أوجه أخرى، وذلك بإعادة النَّظر في قرض الجزيرة وفائدته، وقد بحث هذا الموضوع أشخاص ذوو نفوذ في إنكلترا. وقال صديقنا السير جيمس كري في مقال نشره في مجلة الجمعية الأفريقية، بينما كان يبحث في حالة التَّعليم في هذه البلاد ذكر نفس الموضوع. وهذا نصُّ ما نشره السير كري: «منذ سنة ١٩٠٠، وفي مختلف الظروف، حصل السُّودان على مساعدات ضئيلة من إنكلترا إلَّا ما كان بمعدل فائدة ٦٪، وبحكم الظروف السياسية لقد حُرم السُّودان من مساعدات مصر، كما أنه لم يكن له نصيب من الأفضلية التي منحت للبلاد الأخرى التابعة للإمبراطورية البريطانية، والتي كان يجب أن تُمنح للسُّودان بالرَّغم عن الظروف السياسية.»

أظن أن جميعكم موافقون معي أن السُّودان — ولو لم يكن بنفس الحالة التي تربط البلاد الأخرى بالإمبراطورية — ما كان يجب أن يُحرم من الفوائد التي حصلت عليها البلاد التي ترفع العلم البريطاني وحده.

السكرتير المالي:

في خلال السنة ترك هذه البلاد السكرتير المالي الذي استلم مالية البلاد في وقت الضائقة، والحقيقة أن المستر فاس يوم حضر لهذه البلاد قابلته حالة صعبة جدًّا. وقد تمكَّن بالرَّغم عن ذلك من موازنة الميزانية، وقد ترك لخلفه حالة أحسن، وإن لم تكن أقل صعوبة. إن تعيين المستر رجمان كسكرتير مالي للسُّودان قد قوبل باغتباط وارتياح في جميع الدوائر. وإنه تعيين في غاية التوفيق بالنسبة لمعرفته للبلاد وأهلها، وبكل تأكيد سيكون كأحسن سكرتير مالي حصلت عليه هذه البلاد، وإني أقدم للمستر رجمان تهاني جميع أفراد الهيئة التجارية. وصحيح أن السكرتير المالي تعين حين بدأت البلاد تنتعش، ولكن الحالة لا زالت تطلب عناية خاصة.

وقد كان أول أعمال السكرتير المالي أن صدَّق على ما يلزم للحكومة من المصروفات الضرورية لإدارة الأعمال وعلى منشآت جديدة ذات فائدة. وبهذه الفرصة أؤمِّل أن وقت النَّظر في أي مشروع جديد يُسهِّل السكرتير المالي للهيئة التِّجاريَّة الاشتراك فيه، وإنِّي أؤمِّل أن جنابه يجيب طلب العموم

بأن يعيد للتجارة ما أُخذ منها بإلغاء احتكار السكر الذي كان من الأمور الاستثنائية التي قررت الحكومة العمل بها بعد الحرب.

كما تعلمون أن ميزانية سنة ١٩٣٤ قد تعادلت، ولكن النتيجة النهائية قد زادت على الأرقام التي كان قدَّرها سلفًا المستر رجمان، وفي التَّقرير النهائي للإيرادات يظهر أن إيرادات المديريات قد بلغت ٦٠٠٠٠٠ جنيه، وقد كان مقدرًا لها ٥٥٨٠٠٠ جنيه. وإيراد المصالح ٨٦٨٠٠٠ جنيه، وقد كان مقدرًا لها ٧٣٥٠٠٠ جنيه. وأهم زيادة في الإيراد كانت كالآتي:

من الجمارك مبلغ ٨٧٠٠٠ جنيه، ومن مصلحة الزراعة والغابات مبلغ ٣١٥٠٠ جنيه. وعلى العموم فكل مصلحة قد زادت إيراداتها عمَّا قدِّر لها.

كما أنَّ إيراد المصالح العامَّة قد بلغ ٢٢٧٤٠٠٠ جنيه، وقد كان مقدرًا بمبلغ ٢٠٢٥٠٠٠، وزيادة السكر كانت ٥٦٤٤٠ بالرَّغم من تخفيض سعر البيع. ومن عوائد الصمغ ٧٧٨٢٠ جنيهًا، ومن السكة الحديد ١٠٠٠٠٠ جنيه، والمصلحة الوحيدة التي حصل فيها عجز كبير هي مصلحة الري السُّوداني التي قُدِّر إيرادها بمبلغ ٤٨٠٠٠٠، ولم يبلغ الـ ٣٨٩٠٠٠ جنيه، وهذه من سوء رداءة محصول الجزيرة في العام الماضي.

وقد كانت النتيجة العامَّة لسنة ١٩٣٤ أنَّه بعد إضافة مبلغ ٣٦٩٠٠٠ جنيه لحساب احتياطي القطن كانت الزيادة في الإيراد عن المصروف مبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه يعادلها مبلغ ٩٥٠٠ جنيه في السنة التي قبلها، والتي أضيف إليها أيضًا مبلغ ١٤٥٠٠٠ جنيه لحساب الاحتياطي، وأن هذه النتيجة تستدعي شكر جميع من ساهموا في الحصول عليها.

وأما لسنة ١٩٣٥ فقد قدر السكرتير المالي أرقام الإيراد والمصروف بتحفُّظٍ كبير؛ ممَّا يجعلنا نتفاءل خيرًا بأن النتيجة النهائية ستكون أيضًا بزيادة الإيرادات على المصروفات.

كانت ميزانية سنة ١٩٣٤ مقدرة بمبلغ ٢٨١٢٠٠٠ جنيه للإيراد، و٣٨٠٩١١٤ للمصروف، أي بزيادة ٢٨٨٦ جنيهًا. أما ميزانية سنة ١٩٣٥ فقد قدرت بمبلغ ٤٠٣٥٠٠٠ للإيراد، ومبلغ ٤٠١٧٠٠٠ للمصروف بزيادة ١٧٨٧٣ للإيراد. على أن المصروف الذي زاد بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ عن سنة

١٩٣٤ للإنشاءات جديدة كزيادة زراعة القطن في الجزيرة ومحالج القطن في كردفان وأعمال أخرى لفائدة البلاد.

وبالنسبة لحالة محصول القطن في الجزيرة هذه السنة، وحيث إنَّ السكرتير المالي لم يقدر لهذا الباب إلَّا نفس أرقام سنة ١٩٣٤، فالأمل عظيم بأن الميزانية ستترك زيادة كبيرة في الإيراد؛ ممَّا سيُمكِّن السكرتير المالي من عمل جملة تخفيضات لصالح التجارة.

وإنِّي أهنئ السكة الحديد على التعريفة الجديدة التي جاءت نتيجة عمل طويل، والتي سهَّلت على التاجر عملية النولون لأي صنف بدلًا من الطريق المعقد القديم، ولا يسعني إلَّا أن ألفت نظر هذه المصلحة لبعض النولونات العالية، وخصوصًا نولون القطن، والزيادة الإضافية على بعض الأصناف، والتي يجب إعادة النَّظر فيها، خصوصًا أنها وُضعت أيام الحرب. أمَّا الآن مع رخص الفحم والأدوات والزيادة العظيمة في إيراد السكة الحديد، فهذه النولونات ليس لها ما يبررها.

الجزيرة:

مما يسرُّنا جميعًا أن حالة محصول القطن هذا العام بعد أعوام عديدة سيعطي أكثر ممَّا قُدِّر له، فجملة ما ننتظر من الفدان من زراعة الشركة الزراعية وشركة كسلا ستكون أربعة ونصف قنطار. إنَّ إدارة شركة كسلا تستحق الشكر العظيم؛ فقد قاربت أن تصل إلى رقم قياسي لإنتاج فدان القطن خمسة ونصف قنطار.

كذلك الشركة الزراعية وخبراء الحكومة يستحقون كلَّ الشكر للنتائج القيمة التي تحصَّلوا عليها في زراعتهم الواسعة بالتَّغلب على الآفات والحشرات.

جارٍ العمل الآن على زيادة مساحة القطن في الجزيرة. ومنتظر أن تبلغ المساحة المزروعة في يوليو سنة ١٩٣٧ مائتي ألف فدان أو ثمانمائة ألف فدان كمساحة إجمالية من مشروع. وهي غاية ما يمكن ريُّه بواسطة الجداول الرئيسية الموجودة.

إنَّ الحالة في الجزيرة — والتي ذكرتها في خطاباتي الماضية — لا زالت موجودة بالرَّغم من أنَّها تحسَّنت بزيادة محصول هذا العام، ولا أرى طريقة

لتغيير الحالة إلَّا إعادة النَّظر في شروط المشروع بأكمله حتَّى يصبح ذا فائدة أكبر للمزارعين.

إنَّه ليس لي أن أشير إلى إدارة الشركة الزراعية التي لها خبرة طويلة من مدة سنين عديدة … لا نملُّ أيَّ بحث. إلَّا أننا — معشر رجال الأعمال — لنا طريقتنا في بحث الأمور والوصول لتكوين فكرة لها على الغالب صلاحيتها.

إنَّ الزراعة الحالية التي تسير على أساس المناوبة كلَّ أربعة سنوات تكلِّف مصاريف زائدة للمحافظة على جداول في مساحة ثمانمائة ألف فدان لزرع مائتي ألف فقط قطنًا، وقد يجوز أن المناوبة كلَّ أربعة سنين تكون ضرورية لبعض الأطيان. ولكن ليس لكل المساحة، ولو أُعيدَ النَّظر في هذا الموضوع، وتعادلت المناوبة لثلاث سنين لأمكن زرع مائتين وخمسين ألف فدان بدون أي زيادة تُذكر في المصاريف.

نعم إنَّ تقدم الحالة التِّجاريَّة والزراعية تسمح لنا بأن ننظر إلى المستقبل بثقة أكبر. ولكن لا زالت أمامنا جملة مصاعب للتَّغلب عليها، إلَّا أنكم توافقونني بأنَّ لنا الآن أن ننتظر بتحقيق آمالنا أن يكون المستقبل أحسن من الماضي.

إنَّ أحسن ظواهر الحالة هو الاهتمام والنشاط الذي بذله معالي الحاكم العام وحضرات معاونيه الذين ينظرون إلى الهيئة التِّجاريَّة بروح التعاون. وباختباري الطويل أقدر أن أؤكِّد لكم بأن العلاقات بين الحكومة والهيئة التِّجاريَّة لم تكن في وقت من الأوقات أحسن منها الآن. ولزامٌ علينا أن نتقدم بالشكر لمعالي الحاكم العام للخطة الحكيمة التي وضعها في هذا الشأن.

وبهذه المناسبة. ولو أنَّه ما زال أمامنا عمل طويل حتَّى نصل إلى الدرجة التي يُمكننا فيها — نحن التُّجار — أن نقول بأنَّنا حصلنا على كلِّ ما يلزمنا من معاضدة الحكومة فيما يمكننا عمله في محيطنا التجاري، أقول بالرَّغم عن ذلك: إنِّي أنتظر نتائج مجهوداتنا، وإنه يمكننا أن ننظر إلى الهيئة الحكومية بثقة متبادلة.

إنَّ أول أعمال معالي الحاكم العام كانت إعادة تأليف اللَّجنة الاقتصادية التي تُؤلَّف من رؤساء المصالح الكبرى الآن، والتي تنظر في أهم المسائل، وتعرض توصياتها رأسًا على معالي الحاكم العام للتصديق، وبعد ذلك تصبح

هذه المسائل تحت التنفيذ بحسب ما تسمح به الحالة المالية، وإن هذه الطريقة في العمل تمكِّن معاليه من الإلمام بجميع أمور البلاد، كما أن اتصال معاليه بجميع من في البلاد سببٌ آخر مهمٌّ يساعده للسير بالبلاد إلى الأمام، وقبل أن أختم تقريري أودُّ أن أطلب منكم الموافقة على إرسال برقية لمعالي الحاكم العام معبرين باحترام عن تقديرنا العظيم لمعاليه، ونتمنى له الصحة الكاملة لكي يقود هذه البلاد إلى طريق النجاح.[٣]

أيها السادة

أشكركم لاستماعكم إلى تقريري الطويل، وإنَّا نعتمد دائمًا على تأييدكم لجمهورنا لتنمية مصالحنا المشتركة، ولتعود بالخير لهذه البلاد. ا.هـ.

(٣-٤) الانتخابات في غرفة التجارة — بيان رسمي

عقدت غرفة التجارة السُّودانية جلستها في منتصف الساعة الخامسة من مساء يوم الجمعة ١٢ إبريل سنة ١٩٣٥ عند موعدها المحدد. وقد كان العدد الذي أمَّها في هذا اليوم كبيرًا جدًّا، وقد افتتحت الجلسة بتلاوة تقرير الرئيس الذي ألقاه هو بنفسه باللغة الإنكليزيَّة، وكان خطابًا جامعًا شاملًا لكل أعمال الغرفة متتبعًا في إجمال سير الحركة الاقتصادية في البلاد، ذاكرًا الانتعاش الذي بدأ، معرِّجًا على كثير من النقط ذات الاتِّصال بأعمال التجارة، ثمَّ تحدث عن زيارة البعثة الاقتصادية المصريَّة للسُّودان والمباحثات التي دارت بينهما وبين رجال الغرفة وما اتفق عليه معها وما بقي معلقًا للدراسات المقبلة. وبعد أن جلس جنابه نهض جناب المستر جورج توتنجي، فقرأ تعريب هذا الخطاب، ثمَّ اقترح جناب الرئيس أن تُرسل برقية لحضرة صاحب المعالي الحاكم العام، وتلا صورتها؛ فنال الاقتراح الموافقة الإجماعية، وكانت البرقية تتضمَّن شكر الهيئة التِّجاريَّة مجتمعة لمعاليه على ما نالت من معونة منه ومن رجال حكومته في بحر السنة المنصرمة في جميع المرافق الحيوية، مقدمة لمعاليه أطيب التمنيات والإخلاص، ثمَّ نهض جناب الرئيس مرة أخرى، فذكر أنه في اجتماع العام الماضي كان قد اقترح أن تكون مدة اللَّجنة سنتين بدلًا من الانتخابات السنوية، ولكن رُئي بعد انفضاض هذا الاجتماع أن هذا الاقتراح

لا يمكن تنفيذه؛ لأنَّه يخالف قانون الغرفة الذي ينصُّ على أن كلَّ اقتراح لا يتَّفق مع القانون يجب أن يقدم به طلب من ١٥ عضوًا يوقعون عليه ويكون موجودًا بين يدي اللَّجنة قبل الاجتماع العام بزمن لا يقل عن ١٥ يومًا.

ولَمَّا كان ذلك الاقتراح لم يحز هذه الصفة، فقد أُوقف تنفيذه، ثمَّ قدم البعض طلبًا حائزًا لهذه الصفة من كلِّ الوجوه يطلب فيه مقدموه إعادة النَّظر في بعض مواد القانون بسبب تطور الحالة التِّجاريَّة وصلة التُّجار بالغرفة، فوافق الحاضرون عليه، وقد أعلن جنابه أن اللَّجنة عندما تدرس مشروع القانون وتضع تلك التعديلات تعقد جمعية عمومية للنظر فيها، ومتى أقرتها يصير القانون المعدل دستورًا للغرفة — ومن ثمَّ وزعت بطاقات الانتخابات على المجتمعين، وهي بطاقات تشتمل على أسماء المرشحين ومتروك بها فراغ لمن يشاء أن يضع اسم منتخب آخر غير المرشح، والبطاقة مشتملة على ٤٢ اسمًا، فما على المنتخب إلَّا أن يشطب على الأسماء التي لا يرشحها للعضوية ويبقي ١٤ اسمًا، بشرط ألَّا يزيد عدد المنتخبين من أي جالية عن ٥ أعضاء، وألَّا ينتخب من محل تجاري واحد أكثر من شخص واحد، وبعد أن يفرغ الناخب من انتخابه يضع بطاقته في الصندوق المعد لذلك.

وفي أثناء عملية فرز الأصوات تدفق المجتمعون في حديقة الدار يتناولون المرطبات والمحادثات حتَّى ظهرت النتيجة على اللوحة، فكانت كالآتي: المستر جورج توتنجي ١٠٢ صوت. المستر ألفريد كفوري ١٠٠ صوت. المستر ويكر ٨٩ صوتًا. المستر أزمرليان ٨٧ صوتًا. المستر سميث ٨٥ صوتًا. الشيخ محمد مدني يحيى ٨٣ صوتًا. المستر ويليامز ٧٨ صوتًا. مصطفى أفندي أبو العلا ٧٧ صوتًا. المستر كونتوميخالوس ٧٠ صوتًا. الشيخ أحمد حسن عبد المنعم ٦٩ صوتًا. المسيو تسكارغلو ٦١ صوتًا. الشيخ السيد أحمد سوار الذهب ٦٠ صوتًا. عبد المنعم أفندي محمد ٥٥ صوتًا. المستر جورج مرهج ٤٦ صوتًا. ا.هـ.

(٣-٥) تجارة مصر مع السُّودان

تستورد مصر من السُّودان نحو ٩٥ في المائة من حاصلاته (بعد استبعاد القطن والصمغ؛ إذْ لا حاجة لنا بهما)، والواردات لمصر من السُّودان سنة ١٩٣٤ هي:

الواردات	جنيهًا مصريًّا
السمسم	٩٦٤٢٨
الفول السُّوداني	٣٨٧٤٣
الذرة العويجة	٣٥٤٦٣٤
الماشية	٣٦٢١١
الغنم	١٤١٠٠
الجلود	١٢٢١٩
البلح	٤٢٩٤٣
السمك المجفف	٨٢٢٥
الفحم البلدي	١١
الفاصوليا الناشفة	٤١٩٥٥
الشطة	١٩٥٥٧
لب البطيخ	٣٣٣٩٥
الذرة	٢٣١٦٦
المسلي	٢٥٣٩٥
القرض	٤٢٠٥

والصادرات من مصر للسُّودان في السنة عينها هي:

الصادرات	جنيهًا مصريًّا
السكر	٢٢٦٠٦٧

الصادرات	جنيهًا مصريًّا
تبغ وسجاير	١٠٨٢٤٧
دقيق القمح	٥٢
بضائع قطنية	١٤٤٧٦٤
الأرز	١٧٦٥
حبوب أخرى وخضروات وفواكه	٢٣٨٤٥
صابون	٢٧٥٦٧
أحذية ومراكيب وشباشب	٣٤٥٣
سبرتو وغاز	٧١٧

وقد بلغت قيمة الواردات لمصر من السُّودان سنة ١٩٣٤ مبلغ ٧٨٣٧٩٨ جنيهًا.

وبلغت قيمة صادرات البضائع المصريَّة للسُّودان مبلغ ٦٨٧١٢٣ جنيهًا، أي بنسبة ٢٠,٤ في المائة بالتوالي من مجموع تجارة السُّودان، حيث بلغت قيمة الصادرات في سنة ١٩٣٤ — ٣٨٤٨٦٧٩ جنيهًا، وبلغت الواردات إلى السُّودان ٣٩٤٥١٤٩ جنيهًا.

وتُعدُّ مصر العميلة الثَّانية للسُّودان بعد إنكلترا.

المبادلات التِّجاريَّة بين مصر والسُّودان

عقدت لجنة البعثة الاقتصادية المصريَّة إلى السُّودان بعد عودتها اجتماعًا بمكتب مدير التجارة والصناعة الغرض منه وضع نتائج مباحث البعثة المصريَّة موضع التنفيذ، وإجراء ما يلزم للاتصال بالهيئات المختصَّة من المصالح الحكومية، وتمهيدًا لهذا الإجراء أُذيع تقرير اشتمل على بيان هذه العلاقات كالآتي:

أنَّ واردات السُّودان من مصر سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢٤ كانت ٣,٥ في المائة بالنسبة لمجموع وارداته.

ومن سنة ١٩٢٥ إلى ١٩٢٩ كانت ١٠,٥ في المائة، وفي سنة ١٩٣٠ كانت ٨,٥ في المائة، وفي ١٩٣١ كانت ١٥ في المائة، وفي سنة ١٩٣٢ كانت ٦ في المائة، وفي سنة ١٩٣٣ كانت ١١ في المائة، وفي سنة ١٩٣٤ بلغت ٢٢ في المائة.

الصادرات من مصر إلى السُّودان:

وأهم صادرات مصر إلى السُّودان السكر، والمنسوجات المصنوعة من القطن والحرير الصناعي، والأقمشة القطنية المصبوغة، والسجاير، والأتربة، والأحجار، والجير والأسمنت، والصابون، والحلويات، والحديد والظهر والفولاذ، وبذرة القطن، والنحاس، والورق.

ولوحظ أن صادرات السكر والمنسوجات القطنية المخلوطة بالحرير الصناعي زادت زيادة كبيرة، ويبلغ المصدر منها مقدار ربع صادرات مصر للسُّودان.

وكذا زادت صادرات الجير والأسمنت في هذه السنة زيادة كبيرة بسبب بناء خزَّان جبل الأولياء.

الواردات من السُّودان لمصر:

تستورد مصر من السُّودان: الذرة. السمسم. الفول السُّوداني. لب البطيخ. الحيوانات الحية. البقول. المسلي. البلح. التوابل «الشطة». الجلود. الأسماك المملحة: «فسيخ وملوحة». فول جاف.

وفي سنة ١٩٣٢ صدَّر السُّودان لمصر من الذرة ما قيمته ١٣ ألف جنيه، ولكن ما صدرته في السنة الماضية (١٩٣٤) بلغ ٤٠٠ ألف جنيه.

وتنقسم واردات السُّودان إلى أهليَّة وحكومية. وقد نمت الواردات الأهليَّة حتَّى وصلت إلى ٨٠ في المائة بعد أن كانت ٥٣ في المائة.

وقد أصبح الميزان التِّجاري في صالح السُّودان في سنة ١٩٣٤، بعد أن كان في صالح مصر قبل ذلك.

الأرز المصري:

لاحظت البعثة أن السُّودان يستورد من الأرز ما قيمته ١١٤٤٩ جنيهًا مصريًّا كله من الهند سوى ١٨٠٩ جنيهات من مصر، وذلك بسبب غلاء أجور نقله بالسكة الحديد وشركة البواخر الخديوية، وقد طُلب من حكومة السُّودان والشركة تنزيل أجور النَّقل، كما طُلب من الحكومة المصريَّة إعفاء الأرز المصدر للسُّودان من الضرائب.

الأحذية:

وقامت اللَّجنة ببحث للوقوف على الأذواق السُّودانية لصنع الأحذية التي تلائمها.

وعن المصنوعات القطنية كالفانلات والشرابات ستُعرض بالغرفة التِّجاريَّة السُّودانية ليعرفها السُّودانيون ١٨٥٠٠ جنيه. ورُئي أنَّ السُّودان يستورد فواكه بقيمة يخص مصر منها ٣٤٠٠ جنيه. فاقترحت اللَّجنة تخفيض أجور نقلها بالسكة الحديد بين مصر والسُّودان.

الجمارك:

يغلب في نظام الجمارك أن تعريفته ١٠٪.

غلاء السكك الحديدية

يرجع غلاء أجور السكك الحديدية في السُّودان إلى غلاء الفحم والوقود وقلة الركاب والحركة، ولا يمكن اتصال السكك الحديدية السُّودانية بالسكك الحديدية المصريَّة؛ لأنَّ الخط الحديدي السُّوداني أضيق، ولكن يمكن وصل الخط السُّوداني إلى الحدود السُّودانية، ويقابله الخط المصري، وينقل الركَّاب من قطار إلى آخر.

عدد الموظفين

بلغ عدد الموظفين في سنة ١٩٣٣ — ٤٧٥٧ منهم ٢٩٨٧ موظفًا سودانيون، والباقون بين إنكليز ومصريين وسوريين وغيرهم.

(٤) الحالة الاقتصادية لمديرية دارفور

وصف الأديب يوسف عمر التني حالة دارفور فيما يلي:

> تمتد مديرية دارفور من صحراء ليبيا شمالًا إلى حدود مديرية بحر الغزال جنوبًا، وتُحدُّ غربًا بوادي كجا الذي يفصلها من مقاطعة واداي التي تكون الآن جزءًا من أفريقية الاستوائية الفرنسية، وتُحدُّ شرقًا بمديرية كردفان عند

حلة الشريف كباشي — هذه المنطقة كثيرة الجبال والتلال، خصوصًا في الشَّرق والشمال والغرب، وقليل منها في الجنوب كجبال الداجو وغيرها، ولا يكاد يوجد بها مكان متناسب إلَّا نادرًا، وأرضها رملية وكثيرة الأودية والأشجار — مناخها حسن جدًّا في الشَّرق والوسط والشمال ورديء في الجنوب، ومتوسط في الغرب، ويبلغ عدد سكانها نحو ٧١٥٥٤٣ نسمة، ومساحتها ١٤٤١٠٠ ميل مربع. وتبعد الفاشر عن الأبيض بمقدار ٣٩٦ ميلًا، وهي مسيرة ثلاثة أو أربع أيام بالسيارات.

سمِّي هذا الإقليم دارفور مع وجود القبائل الكثيرة فيه؛ لأنَّ الفور هم أسبق القبائل إليه. وقد ينقسم السُّكان هنالك إلى عرب وفور وغيرهم من قبائل السود الأخرى. أمَّا العرب فمنهم الزيادية والمسيرية، الرزيقات، بني هلبا وغيرهم. أمَّا السود فمنهم الفور وغيرهم. كانت دارفور تحت سيطرة ملوك من التنجر آخرهم السُّلطان شاودورثيت، ثمَّ آل الملك إلى العباسيين أولاد أحمد المعقور، وأولهم السُّلطان سليمان سلنج، وآخرهم المرحوم السُّلطان علي دينار لغاية سنة ١٩١٦، ومن ذلك التَّاريخ صارت دارفور تحت نفوذ الحكومة الحاضرة ومن أكبر مديريات السُّودان.

ولدارفور مكانتها التاريخية وعظمتها الخالدة؛ فقد كانت مهجر التُّجار ومحطَّ آمالهم ومفتاح السعادة، وإن التاجر لا يُرفع ذكرُه إلَّا إذا تردد إليها وقطع درب الأربعين يوم كانت التجارة تتمركز في مدينة كوبي التي ضربتها المَهديَّة على يد المرحوم السيد محمد زنقل، وأتى إليها بالثَّمين الغالي، وعاد منها بالجواري والغلمان وريش النعام وسن الفيل يوم كانت أغلى من الذهب الأحمر.

(٤-١) الثروة الطبيعية

المحصولات الزراعية

لا شكَّ أنَّ الموارد الطبيعية لإقليم من الأقاليم هي في طليعة الدوافع لنهوضه الاقتصادي. وأهم موارد دارفور الطبيعية هي الزراعة. وتقدم زراعة التمباك ود عماري بدارفور على رأس محصولاتها التي تجلب إليها النقود، وإن الأحوال الجوية هنالك ملائمة لنمو

التمباك، ويعلق الأهالي أهمية عظمى على هذا المحصول في إنعاش ثروتهم، وإذا ولَّينا وجوهنا شطر دارفور في البحث عن زراعة التمباك ود عماري ومعه أنواع المحصولات الأخرى وجدنا أنَّه الشاطئ الذي ترسو لديه سفينة بحثنا، فزراعته هنالك من الكثرة حيث تشغل بال كلَّ فرد من السُّكان باستمرار، حيث لتجارته أهمية خاصة في داخلية البلاد (السودان)، ويظهر لنا أن أسعاره هي التي تقرر مستوى الأسعار لباقي أنواع محصولاتهم الزراعية الأخرى، فإذا كان سعر التمباك منخفضًا فمن المعتاد أن يكون هنالك كساد عام. ولكن إذا كان التمباك متمسِّكًا ومرتفع السعر أو إذا كان ثمنه في مستوى معتدل، فهذا التَّمسك يكون مصحوبًا غالبًا بميل مشابه له في أسعار المحاصيل الأخرى التي تبدو أنها تتأثر بتأثيره.

وحقيقة التمباك ما هو إلَّا الوحيد من محاصيل دارفور الزراعية الهامة. وهي المورد الوحيد لهذا الصنف الذي يستهلك القطر منه كميَّات وافرة بمبالغ طائلة تقدر بألوف الجنيهات سنويًّا. ويزرع التمباك ود عماري بكميات غير محدودة في طوبلة على مسيرة يوم إلى الجنوب الغربي من مدينة الفاشر ووادي بيرة ووادي شقرة بغرب الفاشر ووادي الملم جنوب الفاشر، وفي جهات نيالا وزالنجي وغيرها. أما المحل الرئيسي لزراعته بدارفور فهو طريلة. ويباع هذا المحصول على نظام المزاد العلني تحت إشراف الحكومة بسوق الفاشر. ولقد أحدث هذا النِّظام فائدة كبرى في إنعاش هذا الصنف منذ بداية من أوائل سنة ١٩٣١. وقد حصَّل سعر القنطار منه في عام سنة ١٩٣٢ نحو ثلاثة جنيهات أو أكثر بسوق الفاشر، مع العلم أنَّه في نفس السوق كان يساوي ٢٥ قرشًا القنطار في أوائل سنة ١٩٣٠، وتُصدَّر منه كميَّات كبيرة سنويًّا، وقد بلغ ما دخل جيوب الأهالي من ثمن التمباك في عام سنة ١٩٣٢ نحو ٢٠٠٠٠ جنيه مصري.

والتمباك هو من أهم مرافق الثروة بدارفور في الوقت الحاضر، ويعد أول صادراتها من المنتوجات الزراعية.

ويستعمل التمباك ود عماري (للنشوق) السعوط الذي يعد من أقدم الطرق التي ابتدعها الناس لاستعمال التبغ في غير هذه البلاد، وأن استنشاق السعوط كان معروفًا منذ القرن الخامس عشر حيث قد كتب العالم كورتز (Cortes) أنه رأى هنودًا في المكسيك يسحقون أوراق التبغ، ويتنشقون المسحوق كما يتنشق الناس اليوم السعوط — ومن المكسيك انتقلت بدعة السعوط إلى فرنسا أولًا في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون يستعملون أوراق التبغ للتدخين فقط، وانتشر من فرنسا إلى سائر أنحاء العالم، لا سيما الجزر البريطانية.

كثير من تجار التمباك المعسرين بالفاشر يشترون أحيانًا بلات وزن عشرة من تجار الجملة بأثمان عالية بمواعيد، وبسبب اضطرارهم قد يرهقهم الدائنون بأرباحهم الباهظة — وهم يقذفون بهذه البلات إلى السوق ويبيعونها بخسارة تكاد تكون فادحة، وأملهم في ذلك أن يشتروا التمباك ويستعوضوا منه هذه الخسارة مع الربح. وبالطبع لا يكون ذلك إلَّا إذا ارتفع السعر وصادفت الحالة حظًّا وافرًا — وإنَّهم ربما ينسون تدهور سعر التمباك فجأة وتحل عليهم مواعيد الكمبيالات؛ ففي ذلك الحين لا خلاص لهم إلَّا عرض تمباكهم للبيع بخسارة، وبلا شك ينتج من ذلك انحلال في ميزان التمباك التجاري بزيادة العرض على الطلب، وزيادة على ذلك سيبقى عليهم دين وزن عشرة عندما تصادفهم الخسارة في السلعتين؛ ولذا نلفت نظر التُّجار هنالك الذين يهمهم هذا الشأن لتجنُّب هذا المسلك السيِّئ الذي ربما قضى على اسمهم تجاريًّا.

ومن منتوجات دارفور الزراعية الشطَّة التي تُصدَّر للمقايضة بالنقود أيضًا، حيث تجود بها الطبيعة بمحصول وافر في تلك الأصقاع. وهي تُزرع بنطاق واسع في شمال دارفور وبجبل مُرَّة وكاسي وزانجي. وشطَّة جبل مرَّة كبيرة الحجم. أمَّا نوع كاسي وزالنجي صغيرة جدًّا، وتُسمَّى بالدنقاية وحرارتها شديدة وهي أشبه بشطة القبانيب ورشاد، وتصدر الشطة من دارفور إلى أسواق كردفان بكميات كبيرة — ولا يفوتني أن أذكر أن مركز الجنينة بدار المساليت مورد كبير للشطة، وترد إليها من دارتاما الواقعة في المقاطعة الفرنسية.

ومن محصولاتها الغنائية الزراعية الأذرة والدخن، وتزرع الأولى فيها على قدر حاجة البلاد الداخلية بكثرة والغذاء الرئيسي للسكان هو الدخن، ويستخلصون من هذا النوع دقيقًا أبيض ناصع البياض أشبه «بالكورنفلور»، ويسمونه بالجير، ويستعمل هذا الصنف عصيدة لطعام الفطار، ويمكن استعماله أيضًا كحلو بدلًا من استعمال الكورنفلور. ويعملون منه ما يكون كالأرز. وعند تقديمه للطعام لا يمكن تمييزه من الأرز مطلقًا — ويزرع هنالك الماريق أيضًا. هذا المحصول غير قابل للتصدير، وذلك راجع إلى عدم التَّوسع في زراعته، وعدم تقدم المواصلات بسبب بعد الشقة، وعدم إمكان نقله إلى محل آخر للتجارة.

ومن محصولات دارفور الطبيعية الرئيسية الصمغ العربي الذي ينمو نموًّا طبيعيًّا بكثرة في شرقها بدار برتي حول أم كدادة والطويشة. ويباع هذا المحصول بسوق النهود بكردفان بكميات كبيرة.

وقد تصدر من صمغ دارفور الذي بيع في سوق كردفان ٣٠٤ أطنان في سنة ١٩٣٤، وهذه أصغر كمية في السبعة سنوات الماضية كالبيان التَّالي:

سنة	طن
١٩٢٨	٩٧٣
١٩٢٩	٨٤٤
١٩٣٠	١٥٠٥
١٩٣١	١٣٢٥
١٩٣٢	٤١١
١٩٣٣	٣٢٠
١٩٣٤	٣٠٤

ويزرع القمح في الأودية، فينجح نجاحًا باهرًا في الحجم والكمية، خصوصًا في خور تندلني ببندر الفاشر — أما الخضر فحدِّث عنها ولا حرج. وهي تنمو بشكل يفوق ما يزرع عندنا في نواحي الخرطوم بالسواقي والشواديف، وقد يصدرون الطماطم الحمراء بكميات كبيرة بعد تجفيفها على الشمس إلى أسواق كردفان لاستعمالها صلصة.

الماشية

أريد بالمواشي هنا ذوات الخف والظلف كالإبل والبقر والغنم. ومن المعروف أن الناس اعتادوا تربية الحيوانات الأليفة منذ عهد طويل بغرض الانتفاع بألبانها ولحومها وأوبارها وأصوافها وغير ذلك — وتكثر أنواع هذه الماشية بدارفور، والبقر أكثر ما يقتنى في جنوب دارفور عند عرب الرزيقات وغيرهم. وهي تصدر بكميات غير محدودة لأسواق مديرية كردفان بالنهود والأبيض، وتصديرها يعدُّ أول مصادر الرزق بتلك الناحية — أمَّا الإبل فتكثر في الشَّمال عند عرب الزيادية وأم جلول والماهرية. وهي تستخدم في النَّقل محليًّا ما بين الأبيض والفاشر ووادي، ولكن الفائدة التي تعود على الأهلين من جراء هذا النَّقل تكاد لا تذكر بسبب مزاحمة السيارات، لها في هذه الآونة

الأخيرة منذ بضع سنوات مضت — وتوجد سوق رائجة للإبل بالقطر المصري، وقد دلت التَّجارب على نجاح باهر في تصريف الإبل السُّودانية بأثمان مناسبة ذات فائدة للمصدِّرين — وتوجد أيضًا الأغنام بكثرة بدار الميدوب ودار زغاوة. وأغنام الميدوب تصدر لسوق أم درمان، والأغنام الزغاوية تصدر لأسواق كردفان. وهما أقل في القيمة من الأغنام الأخرى، وهما من ذات الفراء الأسود، وتستعمل جلودها بالسُّودان كفراء للصلاة.

المنتوجات الحيوانية

إن ما يُصدَّر من المنتوجات الحيوانية بدارفور يكاد ينحصر في الجلود فقط، وتجارة هذا الصنف واسعة النطاق وذات أهمية اقتصادية كبرى، خصوصًا في أسواق ما وراء البحار — والجلود السُّودانية عمومًا لا ينقصها إلَّا القليل من الجودة، وهذا النقص يُعزى إلى حدٍّ بعيد للإهمال في عمليتي السلخ والتجفيف. فإنَّ كمية كبيرة من الجلود تنزل إلى المرتبة الثَّانية لهذا السبب. فتكون النتيجة هبوطها في القيمة المالية، وهذا كله يعزى لجهل أهالي البلاد بطرق تحضيرها على الطريقة المستحدثة. وممَّا يسرني ذكره بهذا الصدد أن المصلحة البيطرية باذلة قصارى جهدها لإدخال الطرق المستحدثة للسلخ والتجفيف حتَّى تنمو تجارة هذا الصنف وتعود على البلاد بالخير العميم.

والسودان وإن كان معروفًا في أسواق العالم كمصدر للجلود، فهو لا يهتم بصنعها والإنتاج فيها كما تفعل الأمم الأوربيَّة المتمدينة، بل إنك لتجد هذا الاهتمام بالمصنوعات الجلدية حتَّى بين الأمم غير الأوربيَّة أو الأمم الشرقية. وبالرَّغم من النَّشاط الذي أبدته مصر في الأعوام الأخيرة في إنتاجها من المصنوعات الجلدية، فإنَّ هذا النَّشاط لم يبعث في نفس السُّوداني حتَّى اليوم فكرة الاستفادة بجلود بلاده التي يستغلها غيرنا من الأمم — وكل ما نعرفه من المصنوعات الجلدية اليدوية، هو ما تداولناه عن أجدادنا وأجداد أجدادنا في هذه البلاد، وأهم ما نصنعه هو أحذيتنا القومية (المراكيب) التي تُزاحمها الآن الأحذية اليابانية وخلافها مزاحمة مهلكة كان واجبًا لتوقي خطرها القوة الكافية لدفعنا إلى تحسين منتوجاتنا الجلدية.

ولم نستحدث من مصنوعاتنا الجلدية غير مصنوعات دارفور التي تشمل المقاعد والشنط المكتبية. وهذه وإن كانت جميلة الصنع إلَّا أنها لم تتسع دائرة استعمالها عن هذا القطر إلَّا نادرًا، وهذا ما يجعلها قليلة القيمة التجارية، وإن مركز الصناعة

الجلدية بالسُّودان هو دارفور، وتقوم الجنينة عاصمة المساليت على رأس مدن دارفور في صناعة المراكيب التي تشبه الجزم الكشف، وتفضل عند كثير من الوطنيين على الجزم نفسها، ويا حبذا لو أقبل مواطنونا الكرام على استعمالها بدلًا من استعمال الجزم اليابانية التي لو نظرت إليها نظرة الفاحص المدقِّق لوجدتها لا تساوي شيئًا تجاه هذه المراكيب الوطنية التي لصناعتها جاذبية الطرافة في اللون والشكل.

وأهل الجنينة أيضًا يجيدون الدباغة والصبغة إجادة فائقة، خصوصًا دباغة جلود الأغنام ذات الفراء. وبهذه المناسبة أذكر أن جلود أغنام السُّودان ذات الفراء جلود دقيقة النسيج وخفيفة؛ فإنها تُخرج أحسن أنواع (الأجلاسيه)، وتستعمل بنطاق واسع في صناعة القفازات ذات الدرجة الأولى، وكثير من المصنوعات الجلدية الدقيقة وأحسن أنواع (الكموش)، ولهذه الجلود سوق رائجة ممتازة في أمريكا التي تصدر إليها من هذا النوع نحو ٩٧٠ ½ طنًّا في سنة ١٩٣٤ من مجموع صادراتنا الجلدية البالغ قدرها ١١٦٨ طنًّا.

وتستعمل الجلود بدارفور في صناعة الشباشب وأشياء أخرى يطول شرحها نذكر منها الستاير الجلدية التي تُصنع على شكل الرهط العربي الذي يستعمله الفتيات السُّودانيات منذ العصور السحيقة، ولقد وجد هذا الرهط في قبور قدماء المصريين واستعمالها كستاير ما يفي بالغرض المطلوب تمامًا، ولها أهمية كبرى للوقاية من الذباب وما شاكله من الحشرات المنزلية — كما أذكر أيضًا صناعة فرايات سروج الخيل وأكياس المخدات — وإن المصنوعات الجلدية اليدوية بدارفور يعتمد عليها الأهالي كمورد ثانٍ قوي يوازي التمباك في إنماء ثروتهم.

وتستعمل الجلود بالخارج في العدد الكثير من حاجات البشر اليومية، وهي عماد صناعة الأحذية (الجزم وما شاكلها) وشنط الملابس والمحافظ بأنواعها — وسروج الخيل، ومقاعد السيارات، وأشياء أخرى كثيرة — ووظيفة الجسم الطبيعية أن يكسو جسم الحيوان من تأثير العوامل الجوية، ولا شك أنه يختلف من حيث كثافته بحسب نوع الحيوان وجسمه وطقس البلاد التي يعيش فيها، كما يختلف باختلاف أجزاء الجسم. فجلود الفيلة مثلًا التي تعيش في الفيافي والقفار أكثر سُمكًا من جلود الأبقار التي تعيش في القرى والمزارع، وجلود البقر الإناث تختلف عن جلود الثيران، كما أن جلود الضأن تختلف عن جلود الماعز وهلم جرّا. وبطن الجلد يختلف عن ظاهره، وإن أمتن أنواع الجلود وأحسنها هي جلود العجول التي تعيش على الألبان فقط. ومن هنا يُعلم لنا أن لغذاء الحيوان تأثيرًا عظيمًا في نوع جلده من حيث الجودة.

سبق أن ذكرت أن الجلود السُّودانية — بصفة عامة — لا ينقصها إلَّا القليل من الجودة، وها هي أسباب التَّلف فيها:

تنقسم أسباب تلف الجلود عندنا إلى قسمين، وكلاهما يسبب ضررًا عظيمًا للجلود حتَّى تفقد ميزتها؛ فتقل قيمتها في السوق: أما القسم الأول فهو ما يتعلَّق بطريقة السَّلخ، وليست طريقة السَّلخ بالعملية السهلة التي يستطيع أن يزاولها كلٌّ من استطاع أن يمسك السكين ويمر بها على جسد الحيوان فيفصله عن جسده دون مراعاة لما ينتج من وراء ذلك من أخطاء ربما أتلفت الجلد. فعملية السلخ عملية منظمة لها قوانينها، ولها تدريبها الخاص، ولها طرقها المضمونة التي لا تنتج ما يسبب تلفًا للجلد، وأول شروط السَّلخ هو أن تكون المُدْية حادَّة لدرجة أنَّها تزيل الشعر من جسد الإنسان إذا جربها عليه لأنَّ السكين غير الحادَّة هي التي تسبب الخروق التي تشين الجلد وتقلِّل من قيمته — كما أنَّ السكين الحادَّة وحدها دون السالخ الماهر هي — أيضًا — خطر على سلامة الجلد، فلا بدَّ أن يكون العامل ماهرًا والسكين حادة، وبذلك تضمن سلامة الجلد من الخروق، وتبعد العيوب عنه. أمَّا القسم الثَّاني فهو ما يتعلَّق بعمليتي التَّطبيق والتنشيف. ومن العمليتين تتسبب أخطار عظيمة تؤدي بقيمة الجلد إلى المرتبة الدنيا — أما عملية التَّطبيق فتتداول عندنا دون مراعاة لما يعلق بالجلد من لحوم أو دهن يسببان عفونة في الجلد بعد تطبيقه بأيام، وبذلك يفقد جودته، كما أن كثيرًا من الجزَّارين يعمدون إلى مسح الجلد بالتراب أو الأوساخ، ثمَّ يطبقونه، وأملهم في ذلك أن يزيدوا وزن الجلد، ولكنهم ينسون أن هذه العملية تشين الجلد؛ فالتاجر الذي يشتريه لا يبقى عنده يومين أو ثلاثة إلَّا ويفقد قيمته — ومما يسبب أيضًا ضررًا بليغًا بالجلد وضعه في الشمس مدة طويلة قبل إجراء عملية مسحه بالملح.

ومما تقدم نفهم أن طريقة استغلال الجلود غير صالحة، ولكن هذه المعضلة تعالج كثيرًا إذا أوجدنا في السُّودان المدابغ الفنية ذات العدد والآلات المنظمة، ولعل بعض المتموِّلين الوطنيين أو ملجأ القرش يفكر في هذه الناحية تفكيرًا جديًّا يجعلهم يستفيدون من هذه الدباغة في ترويج الأحذية الوطنية، وقطع خط الرجعة على الجزم اليابانية، ومن المهم قبل المدبغة تعليم بعض الطلبة هذا الفن بالخارج. ويمكن التَّعليم في مصر أو الشام بدون كبير زمن أو نفقة تذكر.

المسلي

من منتوجات دارفور الحيوانية المسلي، وهي تعد في مقدمة أقاليمنا في تصدير المسلي، ولكن الذي يؤسف له أن مسلي دارفور لا يتمتع بسمعة حسنة بين الأوساط التِّجاريَّة في السُّودان. وسبب ذلك عدم إنضاجه بالطريقة التي تضمن له استمرار الطلب والرَّواج في الأسواق عند المستهلكين. وسبق لي أن بيَّنت ذلك فيما قلته عن كيف نروِّج محصولاتنا في الأسواق العالمية — فهأنا أُكرِّر طلبي مرة أخرى على تجار المسلي هنالك أن يُعطوا هذه السلعة ما تستحق من عناية في الإنضاج والنظافة وعدم التلويث بما يشين سمعة مسليهم حتَّى يحصلوا على الفائدة المنشودة ويشيدوا اسمًا حسنًا لمسلي دارفور عند جميع المستهلكين.

صناعة الأحذية الفاشرية

ليست مدينة الفاشر بالمدينة الزراعية بحيث تكفي لشغل جميع سكانها بالزراعة فقط؛ لذا فقد تحوَّل فريق من سكانها شطر صناعة الأحذية الفاشرية المعروفة بالمراكيب الفاشرية التي يستعملها السواد الأعظم من الشعب الوطني، وهي تكاد تكون في مقدمة أحذيتنا القومية من حيث شهرتها بين الأوساط السُّودانية — وكثير من العائلات هنالك يعيشون على هذه الصناعة؛ إذ هي المورد الوحيد لكسبهم — وتشتهر المراكيب الفاشرية بمتانتها وجودة صنعها، وشكلها بديع. وهي تقي الأقدام تمامًا من تأثير الرطوبة وحرارة الشمس المحرقة، وهي الواقية أيضًا للحافي من أضرار الأحجار والشَّوك وغير ذلك من الأعشاب المُضرَّة — ولا شكَّ أن استعمال الحذاء المتقن بالمعنى الصحيح هو الذي يُكسب الإنسان صحة بدنية وذهنية — وأن استعمال النوع الرديء الرَّث الذي لا يقي من تأثير الحر أو البرد مثل الجزم اليابانية وما شاكلها التي اتخذناها في هذا الزمن لباسًا قوميًّا تقريبًا، فهي في الحقيقة رمز للشخصية البائسة التَّعسة؛ فإنَّ لبسها في الحرِّ يُسبِّب البلهارسيا وفي البرد تُسبِّب أمراض الأسنان — ولا يفوتني أن أذكر أنَّ كثيرًا من الأمراض مصدرها استعمال مثل هذه الأحذية التي تُسبِّب عفونة في الأرجل — وربما ظنَّ البعض أنَّها رخيصة، ولكن عندما تقارن ثمنها بالزمن الذي تعيشه وعدم فائدتها الصحية، نجدها أغلى ثمنًا من المراكيب الفاشرية — ومثال ذلك المركوب الفاشري المتوسط لا يزيد على مبلغ ١٥٠ مليمًا في سوق الخرطوم، وهو يعيش

أكثر ممَّا تعيش ثلاث جزم يابانية سعر ٧ قروش مثلًا، ويمتاز عليها بالوقاية التَّامة للرِجْل من تأثير العوامل الجوية مثل الحرِّ والبرودة — ولَمَّا لم يكن لوسائل تشجيع الصناعات الوطنية حدٌّ أو نهاية، وجب علينا أن نفضلها على الأجنبية ولو كانت أغلى في الثمن، وبذلك نضمن عدم تلاشي صناعاتنا كما يفعل غيرنا من الأمم من طرق التشجيع لحماية صناعاتها بما يُلائم طبائع أهلها.

وإن تشجيعنا للمصنوعات الوطنية سيخلق عملًا واسعًا للأيدي في صناعة كهذه يمكن أن يشتغل فيها أضعاف عدد المشتغلين بها الآن، وبذلك نكون أسدينا أجلَّ الخدمات لوطننا المحبوب.

(٤-٢) الخيول في دارفور

قد يصحُّ لنا أن ندرج الخيول تحت المنتوجات الحيوانية بالرَّغم من أن المتعارف بيننا أن يُطلق هذا الاسم على ما ينتجه الحيوان المقتول لا على الحيوان نفسه — وعلى هذا الاعتبار نتحدث عن الخيول في دارفور كحلقة من هذه السلسلة التي بدأناها.

تشتهر دارفور بخيولها النادرة المثال بهذا القُطر، ولكن نسلها ليس بالجيد لو قُورن بخيول نجد والعراق والحجاز أو الخيول الأجنبية عمومًا؛ ولذا فكَّر أولو الأمر في استجلاب الفحول منذ سنين مضت وأرسلوها لتلك المقاطعة، وقد أتت التَّجارب بنتائج حسنة حتَّى استغنت بها الآن حكومة السُّودان وعشاق الخيل عن الجياد الأخرى ما عدا السُّودانية والدارفورية. ومعظم طلبات الحكومة تستورد سنويًّا من جنوب دارفور عندما تقام المعارض السنوية للخيول بتلك الناحية.

ربما ذهب بنا حسن الظن بأن يكون قطرنا من مصدرات الخيل للخارج، وفي هذا من الفوائد الاقتصادية ما فيه؛ إذ تبقى أموال البلاد في داخلها وتُجلب أموال أخرى من الخارج، فتزداد مقدرة الشراء وتسري في حركة الأخذ والعطاء روح ربما أفادت أسواق المحصولات الأخرى والواردات فائدة تذكر.

منذ المحاولات الأولى التي عملت لحصر الخيل وتحسين تربيتها في دارفور من سنين مضت قبل التَّقدُّم بالمشروع الحكومي قد أزيلت بنجاح باهر كثير من الصعوبات الاقتصادية والحيوية، كما أن معارضة الأهالي في إدخال الطرق الحديثة قد أزيلت.

إن النجاح الباهر الذي لازم المشروع يعزى — إلى حد بعيد — إلى المساعدات التي قدمها كثير من الموظفين في دارفور بإذاعتهم ونشرهم المعلومات الخاصَّة بتحسين طرق تربية الخيل التي أدخلها الكبتن أودس بك المفتش البيطري بتلك المديرية سابقًا.

وإن المشتريات الكثيرة بجنوب دارفور تُدخل مبالغ طائلة إلى جيوب أصحاب الخيول، وتساعدهم في تسديد ضرائبهم وقضاء لوازمهم الضرورية، وخصوصًا في الزمن الذي كانت التجارة فيه متأخرة. ومما هو جدير بالذكر أن حكومة إيطاليا قد اشترت كمية من خيول دارفور لحكومة أريتريا في المعرض الماضي.

(٤-٣) دارفور في الصناعة الحديثة

يُخيَّل إليَّ أن سيكون لهذه المديرية القديمة شأنٌ وأي شأن في التَّاريخ الصناعي في هذا القطر: فهي منذ زمان بعيد تتمتع بشهرتها كمديرية مؤهلة للصناعات اليدوية الدقيقة. وها هي قد بدأت في طورها الحديث تساهم مساهمة لا بدَّ أنها ستغدو فعَّالة في الحركة الاقتصادية في البلاد — وستكون دعامة من أقوى دعامات صرحنا الاقتصادي القادم، كما ستكون خير قدوة لغيرها من المديريات في استغلال كلِّ مواردها الخام استغلالًا صناعيًّا ما وجدت إلى ذلك سبيلًا.

والمثال الذي نسوقه لك اليوم ونحدثك عنه في هذا المقال هو صناعة الدبارة التي أصبحت ذات شأن في الأوساط التِّجاريَّة المحليَّة، وهي واحدة من أمثلة عدة لدخول دارفور في الصناعة الحديثة. وأوَّل ما عرفت دبارة دارفور في سنة ١٩٣١ بطريق المصادفة. إذ حصل أن انتبه حضرة عثمان أفندي محمد خير مساعد حكيم شفخانة زالنجي إلى تلك الخيوط الجميلة التي يصنعها بعض مرضاه من الأهلين، فلفت إليها أنظار ولاة الأمور الذين أعطوها ما تستحق من احتفال وعناية. وفي مقدمة هؤلاء جناب المستر ساندسون الذي كان نائبًا لمعتمد زالنجي في ذلك الحين — لقد فكر المستر ساندسون المذكور لاتخاذ أنجع الوسائل التي تكفل استغلال هذه الصناعة استغلالًا يعود على الأهلين بالنفع العميم حتَّى أبرز هذه الصناعة بجهوده الجبارة إلى حيز الوجود — وهو لا يألو جهدًا في تحسينها وإعلاء شأنها حتَّى أصبحت تستعمل في دواوين الحكومة. ولقد جرَّبت استعمالها بعض الشركات.

وفي الجنينة يوجد مصنع للدبارة، وهو مصنع شقيق لمصنع زالنجي، وإن هذين المصنعين يؤذنان بأنهما سوف يحلَّان مكانًا جليلًا في صناعة الدبارة بالسُّودان — وهذه

الصناعة تشرف عليها الآن الحكومة. وأصبحت صناعة الجنينة تزاحم صناعة زالنجي، وذلك بفضل الجهود العظيمة التي بذلها المسترساندسون عندما نقل إليها كمساعد للمعتمد هنالك — ولقد استطاع المستر ساندسون أن يحصل على آلات حديثة لصناعة الدبارة والخيش بالجنينة. وينتظر أن يكون لمصنوعاتها شأن كبير كما تدل التَّجارب على ذلك — كما ينتظر الحصول على نفس الآلات لزالنجي.

ممَّ تُصنع الدُّبارة؟

تصنع الدُّبارة بزالنجي قبيلة الفور من اللحاء الداخلي من ذلك النبات البري المعروف عندهم بالكوكنج «كركديه». ويقوم بهذه الصناعة الرجال، ويستعمل المحصول محليًّا في صناعة الشرك لدجاج الوادي وغيره من صغار الحيوانات التي تُؤكل.

يُجمع هذا اللحاء، ثمَّ يُغلى في محلول من الماء والأملاح النباتية يُسمَّى بالكمبو، ثمَّ يترك لينشف قليلًا، ثمَّ يصنع وهو رطب، ويمكن خزن هذا اللحاء وهو خام لمدة غير محدودة دون أن يطرأ عليه انحلال أو فساد قبل استعماله. ولكن لقد وُجِد أن أحسن النتائج إنَّما هي وليدة استعمال اللحاء وغليه بالكمبو وهو في حالة رطوبته الطبيعية. وليس هناك ضرورة ما تستدعي استعمال هذا اللحاء بعد تلك العملية مباشرة، بل يمكن أن يخزن لمدة شهور حتَّى يجيء أوان العمل ويتوفر هذا اللحاء لجامعيه في شهري أكتوبر ونوفمبر من كلِّ سنة.

وتُصنَع الدبارة بالجنينة من نبات (التنجت) كما يُسمِّيه المساليت والأرنجة، ويسمَّى بالعربي (لوبيا الغزلان)، وهو نبات من فصيلة الفاصولية يزرع في الأراضي الرملية بواسطة (تامة وارنجة). وهم يأكلون الورق والثمر، ويصنعون من لحاء جذوره الدبارة — كما تصنع أيضًا هنالك من نبات آخر يسمونه (نيادو) بالمسلاتي وبالعربي ملوخية الرهد. وهذا النبات ينبت على ضفاف الوديان في زالنجي ودار مساليت، ويكثر في دار مساليت ودار قمر، وتصنع أيضًا من ألياف أخرى مثل السيال وخلافه، وإن هذه الصناعة بزالنجي والجنينة تعتبر العمود الفقري لنمو مرافق الثروة بهما، حيث البلاد تحتاج لهذا الصنف بكثرة حكومةً وشعبًا. فالأمل عظيم أن نرى الدبارة الدارفوراوية قريبًا تزاحم الدبارة الطليانية مزاحمة مهلكة، وذلك من الميسور جدًّا إذا عُمِلت الدعاية الكافية وعُرِض الصنف في المحلات التِّجاريَّة الكبيرة. ولعل بعض تجارنا الوطنيين يفكر في احتكار الصنف ونشره في الوسط التجاري. ا.هـ.

إلغاء باقي السبعة ونصف في المائة

انتهزت الحكومة السُّودانية فرصة عيد اليوبيل الفضي لجلالة الملك جورج الخامس في هذا العام، فألغت الثلاثة في المائة التي كانت باقية من استقطاع السبعة ونصف في المائة، والتي دعا لخصمها من مرتبات المستخدمين استحكام الضائقة في السنين السالفة — فانتهزت الحكومة هذه الفرصة وأصدرت منشورًا بذلك.

وعندما أُذيع هذا المنشور قيل بأنَّ في النية صرف نصف ما استقطع من مرتبات المستخدمين وبأنَّ الصرف سيكون لشهر واحد ممَّا خصم.

تقرير بوليس مديرية الخرطوم

نشرت هيئة البوليس لمديرية الخرطوم تقريرها عن سنة ١٩٣٤، وقد قارن التَّقرير بين الجرائم في سنة ١٩٣٣ و٣٤، فكانت في الأولى أقل منها في الثَّانية. ويعلل التَّقرير هذه الزيادة لاستحداث مشاريع كبيرة في الخرطوم وبعض نواحيه كمشروع خزَّان جبل الأولياء وغيره من المنشآت. على أن التَّعليل يبدو غريبًا لأول وهلة؛ إذ المعلوم أن إيجاد المشاريع الكبيرة ممَّا يساعد على تخفيف الجرائم التي كثيرًا ما تدعو إليها البطالة وقلة العمل. وإنشاء مثل هذه المشاريع بطبيعتها داعية للعمل ومخففة لوطأة العوز الذي من أجله تُرتكَب الجرائم. وقد تزول هذه الغرابة إذا نظرنا إلى البطالة وانتشارها في أنحاء البلاد قبل بروز هذه المشاريع. ونظرنا من ناحية أخرى إلى تَعطُّش الناس إلى العمل وتكاثرهم في بقعة محدودة كمنطقة خزَّان جبل الأولياء مثلًا. وقد وفد الناس إليها من كلِّ صوب، وهؤلاء الناس خليط من جميع الأجناس، وفيهم من يحمل طبيعة الإجرام بأنواعه، وفيهم من فشل في الالتحاق بأي عمل.

(٥) بريد السُّودان وأعالي النيل

يقوم البريد للسُّودان من القاهرة عن طريق النِّيل (الشلال وحلفا) مرتين في الأسبوع في يومي الاثنين والخميس.

المراسلات العادية يجب تسليمها قبل الساعة ٦٫٣٠ مساءً.

والموصى عليها يجب تسليمها قبل الساعة ٥,٣٠ مساءً.

أما الطُّرود فقبل الساعة الثالثة بعد الظهر.

ويقوم قطار بالبريد بين الخرطوم وسنار في أيام الأحد والخميس. ويستمر في سيره إلى كوستي والأبيض.

أما البواخر النيلية فتسير من الخرطوم إلى الجنوب بالكيفية الآتية:

(أ) مرة واحدة في كلِّ شهر لمشرع الرق (بحر الغزال) عندما يكون نهر الجور مغلقًا أمام الملاحة (من أكتوبر–يونية من كلِّ سنة).

(ب) مرة واحدة في كلِّ أسبوعين لمشرع الرق وواو عندما يكون نهر الجور صالحًا للملاحة (يولية–سبتمبر) من كلِّ سنة.

(جـ) مرة واحدة في كلِّ أسبوعين إلى جوبا في الصيف ومرة واحدة كلَّ أسبوع في الشتاء (يناير–مارس) تقريبًا.

(د) مرة كلَّ شهر إلى جمبيلا طول السنة؛ لأنَّ الطريق غير منتظمة.

تعريفة أجور المراسلات المتبادلة في داخلية القطر المصري وللخارج

أنواع المراسلات	المراسلات المتبادلة في داخلية القطر المصري وصادرة إلى السُّودان	المراسلات الصادرة إلى البُلدان الخارجية الداخلة في أنحاء البريد العام
مراسلات	٥ مليمات عن كلِّ ٣٠ جرامًا أو كسورها	٢٠ مليمًا لغاية ٢٠ جرامًا و١٣ مليمًا عن كلِّ ٢٠ جرامًا أو كسورها زيادة عن الأولى
تذاكر بريد مفردة	٣ مليمات عن كلِّ تذكرة	١٣ مليمًا عن كلِّ تذكرة
تذاكر بريد خالصة الرد	٦ مليمات عن كلِّ تذكرة	٢٦ مليمًا عن كلِّ تذكرة
جرائد ومطبوعات دورية	١ مليم عن كلِّ عدد أو نسخة	–
المطبوعات غير الدورية. الجرائد والمطبوعات الدورية المنشأة في البلاد الخارجية الجاري تداولها داخل القطر	٢ مليم عن كلِّ ٥٠ جرامًا أو كسرها لغاية ٢٠٠٠ جرام	٤ مليمات عن كلِّ ٥٠ جرامًا أو كسورها لغاية ٢٠٠٠ جرام

أنواع المراسلات	المراسلات المتبادلة في داخلية القطر المصري وصادرة إلى السُّودان	المراسلات الصادرة إلى البُلدان الخارجية الداخلة في أنحاء البريد العام
أوراق الزيارة	٢ مليم عن كلِّ ٥٠ جرامًا أو كسرها لغاية ٢٠٠٠ جرام	٤ مليمات عن كلِّ ٥٠ جرامًا أو كسورها لغاية ٢٠٠٠ جرام
أوراق الأشغال	٢ مليم (أقل رسم عن أوراق الأشغال مليمان)	٤ مليمات عن كل ٥٠ جرامًا أو كسورها، وأقل رسم يحصل عن أوراق الأشغال هو ٢٠ مليمًا
عينات	٢ مليم عن كلِّ ٥٠ جرامًا أو كسورها لغاية ٥٠٠٠ جرام، وأقل رسم مليمان	٤ مليمات عن كلِّ ٥٠ جرامًا أو كسورها لغاية ٥٠٠ جرام. وأقل رسم هو ٨ مليمات

(٥-١) التلغرافات المرسلة إلى السُّودان

التلغرافات التي تتبادل مع السُّودان على نوعين:

الأول: (تلغرافات مستعجلة)، وأجرتها مائة وعشرون مليمًا عن التلغراف المركب من ست كلمات وأقل من ست كلمات، وما زاد على ذلك فباعتبار عشرين مليمًا عن كلِّ كلمة زيادة.

الثاني: (تلغرافات عادية)، وأجرتها ستون مليمًا عن التلغراف المركب من ست كلمات أو أقل، وما زاد عن ذلك فباعتبار عشرة مليمات عن كلِّ كلمة زيادة. وينتظر تخفيض هذه الأجرة.

مكاتب تلغراف السُّودان هي الآتي بيان أسمائها بعد، وهي مستعدة لقبول التلغرافات باللغات العربية والأفرنجية:

أبو حمد — سودان	الأضية النهود	الدويم
أبو زبد الأبيض	الجبلين كوستي نيل أبيض	الروصيرص
أبو نعامة — سنجه	الجنينة	الرنك

أتبره	الحصيحيصة	الرهد
أرصفة بورسودان	الخرطوم	الزيداب
أرقو — سودان	الخرطوم البحري	السعاتة الأبيض
أركويت (يفتح في فصل الصيف)	الحندق	السوكي
أرومه	الدامر	الفاشر
أكوبو	الدبة	القضارف
أوونج	الدلنج سودان	القطينة الدويم
الأبيض	الدم جمد النهود	الكاملين
الكوه الدويم	تومبي بور	قلابات
الليري تلدوي	جبينت	قلع النحل
المسلمية	جبل الأولياء	كابوتا
الناصر سودان	جبل الحلة — النهود	كادقلي
النهود	جبل دوليب ملكال	كاكا — سودان
أم درمان	جمبيلا	كدوك — ملكال
أم روابه	جوبا	كرمة النزل
أم كدادة الفاشر	حاج عبد الله بركات	كريمة
باره — سودان	خشم القربة — كسلا	كسلا
بربر	دلقو	كنجور بور أعالي النيل
بريد منقلة بور	دار عقيل — سنجه	كرمك
بريد منقلة جوبا	دنقلة — سودان	كوستي — نيل أبيض
بركات	رشاد	مروى
بور أعالي النيل	رفاعة	مشروع الرق — واو
بورت سودان	رمبيك	ملكال
بورت سودان اللاسلكي	زالنجي	ملوت كاكا
تالي بور	سنار	موت ديد
تلودي	سنجة	نيالا
تندلتي	سنكات	واد بنده النهود

ننجاسي السوق مروى	سواكن	وادي حلفا
توريت	شندي	واو
توكر	طابية الجنينة	ود النايل سنجه
تونجا ملكال	عبرى	ود مدني

(٥-٢) فيما يتعلَّق بالتلغرافات الخارجية

قانون التلغرافات التي لخارج مصر هو نفس المتبع في داخلية القطر ما عدا الأحوال الآتية:

التعريفةُ

أجرة التلغرافات التي تُرسل إلى البلاد الخارجية تُحصَّل بواقع الكلمة الواحدة البسيطة حسب التَّعاريف الموجودة بمكاتب التلغراف، وتختلف قيمة أجرة الكلمة باختلاف البلاد المرسل إليها، وباختلاف الطرق التي تتبعها التلغرافات.

والتعريفة المذكورة هي عن أجرة الكلمة الواحدة من أي مكتب من مكاتب الوجه البحري. أما التلغرافات التي تصدر من الوجه القبلي فتُضاف ستة مليمات لكل كلمة على القيمة الموضَّحة بالتعريفة إذا كانت البرقية «عادة» وثلاثة مليمات إذا كانت البرقية «مؤجَّلة».

التلغرافات المستعجلة

أجرة التلغرافات الخارجية المستعجلة هي صنف أجرة التلغرافات الخارجية العادية.

لا تقبل تلغرافات بواقع المستعجل إلى بعض ممالك وارد بيانها بدليل التلغراف.

تلغرافات الحكومة لخارج القطر المصري تتحصَّل أجرتها بواقع الأجرة العادية حتَّى لو كتبت عليها كلمة «مستعجل»، ويجب على مكتب التصدير أن يشطب هذه الكلمة عند المحاسبة.

صاحب السعادة السير ستيوارت سايمز حاكم السُّودان العام.

التلغرافات المؤجلة المعنونة لبعض بلاد أجنبية

تقبل التلغرافات المحررة بلغة واضحة المعنى بنصف الأجرة العادية لبعض البلاد الأجنبية عن طريق الإيسترن أو أي طريق آخر من الطرق المبينة بالتعريفة ودليل التلغراف. وهذه التلغرافات يجب أن تكون محررة باللغة الفرنسية، أو الإنكليزيَّة، أو العربية (بحروف لاتينية)، أو الإيطالية، أو بلغة البلد المرسلة إليه أو المتصدرة منه، ويمكن الاستعلام عن الشروط الأخرى لقبول هذه التلغرافات من مكاتب التلغراف.

التلغرافات الجفرية والاصطلاحية

التلغرافات المحررة بلغات سرية (جفرية كانت أو اصطلاحية) تقبل لجميع الممالك الخارجية ما عدا بعض ممالك مبيَّنة بدليل التلغراف، والتلغرافات المحررة بلغات سرية المتصدرة من الحكومة أو الوكلاء السياسيين تقبلها جميع الممالك.

التلغرافات التي تصدر عن طريق حلفا

تقبل مصلحة التلغراف الأخبار التلغرافية التي برسم الجهات الآتية عن طريق حلفا باللغات والتعريفة الموضحة أدناه

	عن الكلمة الواحدة	
	من الوجه البحري (مليم)	من الوجه القبلي (مليم)
الأريترة باللغة الأفرنجية فقط طريق حلفا وكسلا	٢٩	٢٣
الحبشة باللغة الأفرنجية فقط طريق حلفا وكسلا	٣٧	٣١
السومال الإيطالي أو بنادير باللغة الأفرنجية فقط طريق حلفا وكسلا	٣٥	٢٩
كزيمابو باللغة الأفرنجية فقط طريق حلفا وكسلا	٣٥	٢٩
عدن باللغة الأفرنجية فقط طريق حلفا وكسلا	٦٧	٦١
جيبوتي باللغة الأفرنجية فقط طريق حلفا وبورسودان ولاسلكي عدن	١١٣	١٠٧
بيريم باللغة الأفرنجية فقط طريق حلفا وكسلا	٦٧	٦١
الصومال الإنكليزي:		
بربره باللغة الأفرنجية فقط طريق حلفا وكسلا	٩١	٨٥
الحجاز:		
الطائف وبحره ومكة باللغة العربية والأفرنجية طريق حلفا وبورسعيد	٧٦	٧٠
جدة باللغة العربية والأفرنجية طريق حلفا وبورسعيد	٧٠	٦٤

	عن الكلمة الواحدة	
	من الوجه البحري (مليم)	من الوجه القبلي (مليم)
باقي الجهات الأخرى باللغة العربية والأفرنجية طريق حلفا وبورسعيد	١١١	١٠٥

(٦) نقل حسابات صندوق التوفير بين القطر المصري والسُّودان

يمكن نقل حسابات صندوق التوفير بين القطر المصري والسُّودان، وكذلك يمكن استرداد المبالغ المودعة في صندوق توفير أحد القطرين من القطر الآخر، كما يجوز الاسترداد بالتلغراف.

ويؤخذ عن كلِّ عملية من هذا النوع رسمٌ قدره خمسة مليمات عن كلِّ جنيهين أو كسورهما.

هوامش

(١) تأجل المعرض من ديسمبر ١٩٣٥ إلى فبراير ١٩٣٦.

(٢) حضر كونتو ميخلوس هذا المؤتمر.

(٣) أرسلت البرقية ووردت منه برقية شكر.

الفصل الثامن والعشرون

في وظائف السُّودان والموظفين

عدد موظفي حكومة السُّودان ٤٧٥٧، وكان عدد الموظفين المصريين في حكومته ١٢٠٠ أصبحوا الآن حوالي ٣٠٠. وكان عدد الموظفين السوريين ٢٣٠ فأضحوا ٢٠. ونزل عدد الموظفين الإنكليز إلى حوالي مائة.

المستر هـ. ب. املي مدير عام سكك حديد السُّودان.

وللمعاش فئتان: فئة (أ) وفئة (ب). وفئة (أ) تشمل الموظفين السُّودانيين، وفئة (ب) تشمل الموظفين المصريين والإنكليز والأجانب، وسن معاشهم ٤٨ سنة، أي يجوز

للموظف منهم أن ينسحب من الخدمة عند بلوغ هذه السن. أما إذا بلغ سنه ٥٥ سنة فلا بد من إحالته إلى المعاش.

ولا يمكن أن يزيد المعاش على ثلثي المرتب مهما طالت مدة الخدمة، أي لا يوجد معاش كامل، وهذا بشرط أن لا يزيد المعاش على ٩٦٠ جنيهًا مصريًّا في السنة، ولأسرة الموظف الشاملة لأولاده نصف المعاش إذا توفي الزوج المتقاعد، وللزوجة ثلث المعاش فقط إذا لم يكن للزوج أولاد، على أن لا يزيد المبلغ على ٣٦٠ جنيهًا. وتستمر البنت تأخذ حصتها في المعاش حتَّى يبلغ سنها ٢١ سنة، وهذا على خلاف المتبع في مصر؛ إذ تستمر البنت في قبض المعاش حتَّى تتزوج.

أما الابن الذكر فيقطع المعاش عنه إذا بلغ سن ١٨ سنة.

وعندما كان منصب سردار الجيش المصري مندمجًا مع منصب الحاكم العام بالسُّودان كان الشاغل لهما يتناول ٣٠٠٠ جنيه بصفته سردارًا و١٥٠٠ جنيه، علاوة لقيامه بمهمة الحاكم العام، فضلًا عن علاوة الاستقبال.

وبعد فصل منصب الحاكم العام من منصب سردار الجيش المصري أصبح الحاكم العام يتناول مرتبًا أصليًّا قدره ٣٠٠٠ جنيه غير علاوة الاستقبال.

ويسكن الحاكم العام مجانًا في دار للحكومة معروفة باسم «السراي»، وخدمه على نفقة الحكومة إلَّا الطاهي. وقد كان للسيرلي ستاك. طاهٍ أوروبي «ألماني» يدفع له ٤٥ جنيهًا في الشهر، وكانت زوجه تخدم في السراي، ويدفع لها ١٥ جنيهًا. وكان ستاك[١] ينفق ألفي جنيه سنويًّا فوق مرتبه وعلاواته، فقد كان ثريًّا، وقد خلَّف ثروة تُقدَّر بمبلغ ١٢٠ ألف جنيه، وترك ابنة توفيت في سنة ١٩٣٢، وكانت مخطوبة، وذلك في حادث أليم؛ إذ كانت تتسلق أحد جبال الألب في سويسرا فسقطت وتوفيت.

ويتناول كلٌّ من القائد العام لقوة الدفاع السُّودانية والسكرتير المالي، والسكرتير الإداري، والسكرتير القضائي ومدير السكك الحديدية مرتبًا سنويًّا قدره ٢٠٠٠ جنيه، ويسكنون في دور الحكومة ويدفعون أجرتها.

وكان الذي يعين في السُّودان يُعطى مرتبًا أكبر من الذي يُعطى له في مصر، والحكومة المصريَّة في الغالب تجعل مرتبات موظفيها مرة ونصف مرة، وأحيانًا مرة و٦٠٪ أو ٤٠٪ حسب الوظائف الفنية والإدارية والمناخ الذي يعيش فيه الموظف إلخ.

ويتعلم الإنكليز العربية. ولهم ثلاث امتحانات، ورقيهم منوط بنجاحهم.

ويعقد الآونة بعد الأخرى امتحان اختياري لنيل درجة شرف في اللغة العربية للموظفين الإنكليز الذين يجدون في نفوسهم ميلًا لمواصلة دراسة اللغة العربية دراسةً

مُستفاضة تُمكِّنهم من قراءة العربية الفصحى وكتابتها وتفهمها ونقلها إلى لغتهم أو نقل لغتهم إليها. وآخر امتحان من هذا النوع عقد في منتصف شهر مايو الماضي، وكانت لجنة الامتحان مؤلَّفة من المستر ينى مدير الأمن العام رئيسًا، والشيخ عمر إسحاق المفتش بالمعارف والمستر إدورد عطية[٢] ضابط الأمن العام أعضاءً، والذين تقدموا للامتحان هم المستر «لي» المفتش بالمعارف، والمستر هزلدين نائب مساعد مدير الأمن العام، والمستر كني من السكة الحديد. وكانت مواد الامتحان ترجمة قطعتين من اللغة العربية إلى اللغة الإنكليزيَّة، وترجمة قطعتين من اللغة الإنكليزيَّة إلى العربية، ومحادثة. وكانت مواد الامتحان صعبة. وقد نجح المستر لي والمستر هزلدين نجاحًا باهرًا، بل فاقا الرقم القياسي الذي وضعه المستر كتشن في عام ١٩٢٢. أما المستر كني فلم ينجح. وبلغ عدد الموظفين البريطانيين الذين جازوا هذا الامتحان حتَّى الآن خمسة هم المستر آيلز والمستر نولدر والمستر كتشن والمستر لي والمستر هزلدين، ويعطى للناجح في هذا الامتحان مائة من الجنيهات، من الحاكم العام. وإليك مثالًا ممَّا يُعطى للإنكليز من الترجمة:

المستر ا. ج. سرسفيلد هول مدير مديرية الخرطوم.

There are two classes of people

A wise man should mark out people, in general, into two kinds and should adopt a certain attitude towards each. There are the masses with whom he has to be reserved, self-restrained, and wide awake in every word and action. There are the classes in whose presence he exchange his harshness and vigour for affability, benignity, bounty and deliberation. It is but one in a thousand who can dare take a place amonge these. All of them are distinguished for their sound judgment and trustworthiness, being confidential and of an unswerving idelity.

ترجمتها:

الناس طبقتان

على العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين، ويلبس لهم لباسين مختلفين، فطبقة من العامَّة يلبس لهم لباس انقباض وتحفُّظ في كلِّ كلمة وخطوة. وطبقة من الخاصَّة يخلع عندهم لباس التشديد ويلبس لباس الأنس واللطف والكرم والتبصر، ولا يدخل في هذه الطبقة إلَّا واحد من الألف، وكلهم ذو فضل في الرأي وثقة في المودة وأمانة في السرور ووفاء بالإخاء.

THE CALIPH'S SYMPATHY

Once Hatim Ibn El Nouman called upon the Commander of the Faithful, Omar lbn Abdel-Aziz, whom he found weeping, "What sets you weeping Prince of Believers?" asked Hatim. Liftiug up his head and sighing deeply, the Emir exclaimed,"I weep for the ignorant who are forsaken, the poor who are starving, the sick who are destitule, the naked who toil in vain, the oppressed who are stricken, the unfortunate who are held in captivity and the old father who has a long train of children and has but scanly means. I fear death will overtake me before I have sufficient time

to carry out my work and meet God with a pure conscience and a heart free of all responsibilities.

ترجمتها:

مؤاساة الخليفة[٣]

دخل مرة حاتم بن النعمان على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فوجده يبكي؛ فسأله: «ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟» فرفع الأمير رأسه متأوهًا وقال: «إني أبكي جاهلًا محرومًا. وفقيرًا جائعًا. ومريضًا ضائعًا. وعاريًا مجهودًا. ومظلومًا مقهورًا. وبائسًا أسيرًا وشيخًا كثُرت عياله وقلَّ ماله. وأخاف أن يأتي أجلي قبل أن أُوفي بالعهد وألقى الله بقلبٍ سليمٍ.»

(١) الأقباط في السُّودان

فضلًا عن الاتِّصال المعروف بين فراعنة مصر والسُّودان — النوبة وأثيوبيا — كالمبيَّن في الجزء الأول من هذا الكتاب — فلأقباط مصر صلات وثيقة بالسُّودان في العصر الحديث — من عهد محمد علي: فقد كان بين موظفي مديريات السُّودان منذ عهده موظفون وحاسبون من الأقباط، وكان لتجار أسيوط صلات تجارية بالسودان، بطريق الأربعين وعلى ظهور الإبل ومع القوافل.

وقد أكره المهدي من بقي من الأقباط عند الثَّورة على الدخول في الإسلام، كما أكره سائر المسيحيين، واضطروا لدخول الإسلام حفظًا لحياتهم. وعند استعادة السُّودان بقيادة كتشنر باشا كان مع الجيش موظفون من الأقباط، من الحاسبين والمترجمين، كما كان معه سوريون وأكثرهم لبنانيون مسيحيون، وقد جاء وقت كان أكثر موظفي الحكومة السُّودانية — من الكتَّاب والحاسبين — من الأقباط المصريين — ذلك أن نسبة المتعلمين فيهم كانت أكثر من المسلمين المصريين، وذلك أنَّ عدد الموظفين الأقباط في الحكومة المصريَّة كان كثيرًا جدًّا، وكانت هناك دواوين حكومية — كالسكك الحديدية والبريد — تكاد لا تعرف موظفًا مسلمًا. ويرجع هذا إلى نشاط الأقباط وصبرهم وجلدهم وسبقهم — في دخول مدارس الأمريكان والبعثات المسيحية الوافدة على مصر والمدارس الأميرية — إخوانهم المسلمين، وقبولهم العمل في البلاد السحيقة كالسودان،

والإفادة من علاوات السُّودان ومضاعفة سني المعاش، وقد اقتنى الكثير منهم ثروات، كما انتفعوا بالوقت فاشتغلوا بالتجارة.

المستر ج. ن. لوجن مدير مصلحة الأشغال العمومية.

ولا نغالي إذا قلنا: إن للأقباط فضلًا في نظام العمل في دواوين الحكومة السُّودانية. وقد أتقن أولئك الأقباط الصبورون المجتهدون اللغة الإنكليزية، ونجحوا في الوظائف والتجارة، وأُعجِب الرؤساء الإنكليز في السُّودان بهمتهم وصبرهم.

وقد اتجهت الحكومة السُّودانية أخيرًا إلى الاستغناء عن خدمة غير السُّودانيين من مصريين وسوريين ويونانيين ويهود وبعض الإنكليز ذاتهم؛ اقتصادًا في النفقات من جهة، ولإيجاد مناصب خالية للمتعلِّمين من السُّودانيين. وقد بقي من المصريين عدد قليل، يقل عامًا بعد عام، ولا يعين من يحل محله. على أن كثرة الموظفين المصريين الباقين من المصريين هم من الأقباط، وقد أنشأوا مدارس ناجحة في الخرطوم والعطبرة وأم درمان وأندية محترمة، ولهم كنائس، وقد أعلوا كلمة مصر في السُّودان، وإن كان قد وقع بين بعضهم وبعض الموظفين السُّودانيين منافسة عادية تحصل عادة في كلِّ الحكومات بسبب العلاوات والترقيات، وبسبب العاطلين المتعلمين الذين يرون أنَّهم أحق بالوظائف التي يشغلها سواهم. وليس لهذه المنافسة أثر عند العقلاء.

والخلاصة أنَّني أعتقد أن جهد أقباط مصر في السُّودان هو جهد جدير بالإعجاب والثناء والتشجيع، وأحثُّ وزارة المعارف المصريَّة على مساعدة المدارس القبطية في السُّودان؛ إذ هي تحمل اسم مصر وبرنامج تعليمها وتعلم أبناء المصريين من مسلمين وأقباط على السواء، وأعجب بكل مصري يضحِّي بوجوده في السُّودان الآن وسط ظروف غير صالحة من وجوه كثيرة.

(٢) الأجانب في السُّودان

نزح ألوف من السوريين إلى السُّودان عقب فتح محمد علي له، للتجارة أو للتوظف كمترجمين أو حاسبين أو أطباء. وكانت تجارتهم مع القوافل المسافرة من أسيوط إلى السُّودان في عهد محمد علي. وفي الثَّورة المَهديَّة اضطر السوريون المسيحيون، كما اضطر المسيحيون الأوروبيون إلى التظاهر بالإسلام حفظًا لحياتهم، وقد جعل لهم المهدي حيًّا خاصًّا في أم درمان أسمي «مسلماني»، وبعد استرداد السُّودان عاد أكثرهم إلى المسيحية، وظلت أقليتهم على الدين الإسلامي، ولا سيما من زُوِّج منهم من سيدات مسلمات.

ويبلغ عدد السوريين الآن ٤٥٠٠، وعدد اليونانيين ٦٠٠٠، والإيطاليين ٥٠٠، وكان بالسُّودان نحو أربعة من الفرنسيين، ولكنهم غادروه، وتوجد فئات قليلة من التُّجار الأرمن. واليهود يعدون على الأصابع.

ولكل جالية جمعيات ورؤساء ومدارس، ورئيس الجالية السورية الآن الخواجه عزيز كفوري، ورئيس الجالية اليونانية مسيو دميتا كسه، وكان مسيو دجراسيمو كونتوميخالوس، رئيسًا للجالية قبله. وتستأنس الحكومة السُّودانية برأي رؤساء الجاليات في بعض المسائل العامَّة كالتشريع الخاص بالغرف التجارية؛ لأنَّه لا يوجد بالسُّودان مجالس نيابية أو استشارية، بل الحكم فيه مطلق، كما يدعون إلى الحفلات الرَّسمية.

الملك جورج الخامس ملك الإنكليز.

(٣) الإجازات في السُّودان

العيد الصغير، العيد الكبير، يوم ١٧ يناير، حيث زار جلالة ملك الإنكليز السُّودان في ١٧ يناير سنة ١٩١٢، يوم ٢٦ مارس ميلاد جلالة الملك فؤاد. عيد رأس السنة الهجرية. عيد الإيستر في إبريل، يوم شم النسيم في إبريل، عيد جلوس جلالة الملك جورج الخامس، حيث جلس في ٢ مايو سنة ١٩١٠، ميلاد ملك الإنكليز ٣ يونية. مولد النبي ﷺ ١٣ يونية. عيد جلوس الملك فؤاد ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧، عيد الميلاد ٢٥ ديسمبر.

وقد ورد في التَّقرير المقدم من الفيكونت كتشنر إلى السير إدوارد جراي — وزير خارجية إنكلترا وقتئذ — عن المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر والسُّودان سنة ١٩١١ ما يلي:

> تفضل جلالة الملك والملكة بزيارة السُّودان في شهر يناير من السنة الحالية، ولما كانت هذه الزيارة عظيمة الشأن والقدر رأيت أن أسجلها في هذا التَّقرير.

تكرم جلالتهما بتأخير عودتهما من الهند إلى الوطن؛ لكي ينزلا إلى بورت سودان التي كان سمو الخديوي قد فتحها رسميًّا لتجارة السُّودان قبل ذلك بنحو سنتين، فاستقبلهما الحاكم العام وكبار موظفيه وجمهور من مشايخ البلاد وأعيانها جاءوا من جميع الأنحاء.

السير سعيد باشا شقير مدير حسابات حكومة السُّودان سابقًا.

وبعد الاستقبال الرَّسمي في بورت سودان ركب جلالتهما ومَنْ في معيتهما القطار إلى سنكات، حيث رحب بهم جمهور كبير من العرب المحليين. وتلا ذلك عرض فصائل من جميع الجنود السُّودانية، ورقص أهل تلك الجهة رقصهم الحربي الوطني. وقد أعرب لي جلالة الملك قبل عودته إلى بورت سودان عن ارتياحه إلى التدابير التي اتُّخذت لاستقباله وسروره العظيم

بالوقوف على أحوال السُّودانيين وعاداتهم بما شاهده في الجماهير العظيمة المؤلفة من الزعماء والمشايخ وسواهم الذين اجتمعوا احتفاءً بجلالته. ا.هـ.

(٤) سجون السُّودان

تشبه سجون السُّودان السجون المصريَّة، وقد أنشئت على أساسها ونظامها، ولكنَّ النظافة متوافرة والآداب محترمة. ولا يستطيع السجَّان أن يُهين سجينًا، وإذا حصل أقل اعتداء رُفع إلى مأمور السجن إذا كان كبيرًا، ويحقق في الحادث حالًا، ويطوف مدير المديرية بالسجون مرة في كلِّ أسبوع، ويسأل المساجين عن شكاويهم ويبت فيها.

مستر هـ. ا. تاس السكرتير المالي.

ويُلحَق بكل سجن عمومي فرع للأحداث القُصَّر وفرع آخر للأحداث البالغين، ولهم مدرسة تعلمهم بعض الصناعات.

سجن الانتظار: ويوضع المسجونون احتياطيًّا في سجن الانتظار، ويُباح لهم كلُّ شيء من مأكل وملبس ومفرش من المنزل وقراءة أي كتاب، ولا يمنعون إلَّا من الاختلاط بآخرين.

(٤-١) أشغال المحكوم عليهم

تمهيد طرق. إصلاح متنزهات عامة وحدائق. والعمل في ورشة السجن في إحدى الصناعات. ونقل فحم السكة الحديد. وإنشاء مصارف في الخريف ونقل أحجار.

هوامش

(١) من الغريب أن الكثيرين من الضباط والموظفين المصريين في حكومة السُّودان أبلغوني أن «ستاك» كان عطوفًا على المصريين، وكان شهمًا كريمًا عالي النفس متواضعًا، وكان من رأيه زيادة المصريين في المناصب الكبيرة في السُّودان.

(٢) شاب لبناني متجنس بالإنكليزية متخرج من إنجلترا.

(٣) تخيُّر قطع الترجمة يدل على العناية بانتخاب الفصول التي تعلم الإنكليز عقائد القوم وعاداتهم وشعارهم.

الفصل التاسع والعشرون

التَّعليم في السُّودان

كان التَّعليم في السُّودان في عهد محمد علي إسلاميًّا دينيًّا، كما كان الحال في مصر، فكان في جميع أنحاء السُّودان «الخلاوي»، وهي المكاتب التي يعلم فيها «الفقهاء والعرفاء[1] مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، على أنَّه كان في السُّودان منذ الفتح العربي وقيام المماليك والسلطنات الإسلامية في سنار ودارفور وغيرهما — علماء محترمون مطَّلعون على طائفة من كتب الفقه الإسلامي والحديث والأدب والمذاهب، وكانوا أهل ذكاء، وكانت أكثر كتبهم مأخوذة عن مؤلفات علماء المغرب الأقصى وتونس، إذ كان بين ممالك أفريقية الشمالية والسُّودان صلات تجارية، استتبعت هجرة نفر من العلماء والكُتَّاب، وقد كان للأزهر الشريف شهرة ذائعة في العالم الإسلامي، وطالما ساعد بعض ملوك السُّودان وأعيانهم طلبة العلم في تحصيله بالجامع الأزهر، وفي تكريم نفر من طلبته وعلمائه ممن قذفت بهم الأقدار إلى السُّودان. وكان للصوفية شأن وأيُّ شأن.

وكان علماء السُّودان يعطون الدروس في دورهم، وكان طلبتهم قليلين جدًّا ودراستهم غير منتظمة.

ولما فتح محمد علي السُّودان، ظهرت فيه المدنية، وبدأت بإنشاء المعسكرات ومدينة الخرطوم وبإقامة دور الحكومة، وبتجنيد العبيد، واستلزمت هذه المدنية التي أنشأها المصريون إنشاءً وابتدعوها ابتداعًا في أثناء حكمداري السُّودان. إنشاء المدرسة الابتدائية بالخرطوم، وكان ناظرها رفاعة رافع بك الطهطاوي،[2] فعرف السُّودان المدارس النظامية، وتلقَّى الكثير من أبنائه العلم في مدارس مصر، إلى أن قامت الثَّورة المَهديَّة فجعلت التَّعليم وقفًا على حفظ القرآن الكريم ورواتب المهدي، وأغفلت كتب الفقه وسواها.

ولمَّا استُعيد السُّودان، بدت الحاجة مُلحَّة وقوية إلى إعادة التَّعليم المدني، على أن الحكومة السُّودانية رأت أن يكون التَّعليم مقصورًا على تلبية حاجة السُّودان إلى صغار الموظفين من كتَبَة ومترجمين وصُنَّاع بمصالح السكك الحديدية. مع بقاء «الخلاوي» المنتشرة في جميع أنحاء السُّودان لتعليم مبادئ القراءة والكتابة والحساب.

منذ سنة ١٨٩٩ بدأت الحكومة السُّودانية الجديدة بفتح بضع مدارس أولية وابتدائية. وفي سنة ١٩٠٢ فتحت كلية غوردون في الخرطوم تخليدًا لذكرى غوردون، وكان ذلك تنفيذًا لفكرة اللُّورد كتشنر، وقد أريد منها أن تكون «مدرسة ثانوية متوسطة»، وهي نوع خاص من المدارس، فهي ليست كلية بالمعنى المعروف في نظام الكليات، وهي ليست مدرسة ثانوية إلى الحدِّ الذي نفهمه من الدراسة الثانوية. ثمَّ زادت الحكومة عدد المدارس الأولية والابتدائية في العواصم والمحافظات والمراكز.

ويبلغ عدد الخلاوي «كتاتيب السُّودان» ١٥٠٠، وعدد تلاميذها ٦٠٠٠٠، وهي ليست في مستوى واحد. ومنذ سنة ١٩٣٢ رُئي تزويد معلمي «الخلاوي» بتعليم أرقى، ومدهم بالمساعدات المالية.

وهناك «كتاتيب أميرية» عددها ٨٧، ويتراوح تلاميذها بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف. ويدخلها التلميذ إذا كان سنه يتراوح بين سنتين وثمانٍ، ويُعلَّم فيها القرآن ودروس دينية مع القراءة والكتابة والحساب ومبادئ في الجغرافيا والتاريخ والصحة والزراعة والأعمال اليدوية.

ويرى سير هارولد ماكميكل[٣] أن تظل الكتاتيب الأميرية أساسًا لنظام التَّعليم في السُّودان، وأنه يجب تطورها بحيث تلبِّي حاجات الحياة في القرى والمراكز بإدخال الدروس الزراعية والصناعات والحرف المحلية، مع رفع مستواها أيضًا لتخريج مستخدمين للإدارة الأهليَّة،[٤] وجعل المدارس الابتدائية والمعلمين لتخريج معلمي الكتاتيب، وتُسمَّى أيضًا «المدارس الأولية». وقد جعلت مدة الدراسة في مدرسة المعلمين الأولية أربع سنوات، ويرأسها ناظر إنكليزي.

وقد بلغ عدد المدارس الابتدائية حتَّى سنة ١٩٣٣ عشرة، وتلاميذها ١٠٩٤، وهي منشأة في أكبر مدن السُّودان الشمالي. ويدخلها التلاميذ الذين يتراوح سنهم بين ١٠ و١٣ سنة ممن تخرجوا من الكتاتيب الأميرية. ويُقبل تلاميذها مجانًا أو بأجور منخفضة أو بأجور كاملة على حسب الأحوال. والغرض الأساسي من إنشاء المدارس الابتدائية هو إعداد طلبة للالتحاق بكلية غوردون. ولكن زاد عدد المتخرِّجين على عدد

الكلية الجائز التحاقهم بالكلية؛ فاتجهت الفكرة إلى تغيير مناهج التَّعليم في المدارس الابتدائية. لكي يستطيع خريجوها الاستخدام في الوظائف المحلية الصغيرة أو الاحتراف بالتجارة. إلى جانب المهمة الأصلية في إعداد طلبة لكلية غوردون.

(١) كلية غوردون والمدارس الفنية

مدة الدراسة أربع سنوات: وفي السنتين الأخيرتين يتخصَّص الطلبة في أقسام: قسمٌ للمعلمين. وثانٍ للمترجمين، وثالث للمحاسبين، ورابع للمكتبة، وخامس للطلبة الذين يلتحقون بمدرسة كتشنر الطبية، وسادس قسم خاص للهندسة، وسابع قسم للقضاة، وقسم ثامن للتجارة.

وقد بلغ عدد الطلبة ٥٥٥ في سنة ١٩٣٠، و٤٧٦ في سنة ١٩٣٣، وثلاثة أخماسهم من أبناء مديريتي الخرطوم والنيل الأزرق. ويدفع بعضهم أجورًا كاملة، والبعض الآخر أجورًا مخفضة. ويتعلَّم فريق ثالث مجانًا.

والغرض الأساسي للتعليم بالكلية هو إعداد موظفين للحكومة في الأنواع المختلفة، وقد بقي هذا الغرض منذ إنشائها حتَّى ظهور تقرير ملنر. حيث أوصى بتغيير نظام التَّعليم وجعله لا مركزيًّا في السُّودان،[٥] أي بإنشاء مدارس فنية في كلِّ مديرية بحسب حاجتها. فتوجد مدرسة صناعية من سنة ١٩٠٧ في أم درمان، وقد أدمجت في سنة ١٩٢٢ في الورش الصِّناعيَّة لكلية غوردون، وفي سنة ١٩٣٣ كان عدد طلبتها ٢٠٦ تخرجوا من الكتاتيب الأميرية ثمَّ تعلموا في قسم الورش النجارة وصنع الطوب والبناء. ومدة الدراسة أربع سنوات، والغرض منها تلبية حاجة المدن والقرى من هذه الحرف. أما الورش التَّعليميَّة في عطبرة فقد أنشئت في سنة ١٩٢٤ على أثر إغلاق القسم الميكانيكي لورش كلية غوردون. ويتلقى التلاميذ في عطبرة البرادة والحدادة ليشتغلوا في الورش الهندسية الميكانيكية لمصلحة سكك حديد السُّودان التي تُشرف على المدرسة الصِّناعيَّة بعطبرة. وقد بلغ عدد تلاميذها ٧١ في سنة ١٩٣٣، وهم يتعلمون مجانًا.

أما تاريخ فتح كلية غوردون، فذلك أنَّه بعد استعادة السُّودان وعودة اللُّورد كتشنر أوف خرطوم إلى لندن دعا سعادته مواطنيه للاكتتاب لإنشاء كلية غوردون بالخرطوم. فبلغ الاكتتاب في إنكلترا وأستراليا وكندا ونيوزيلندا ورأس الرجا الصالح والهند ومصر ١٢٤ ألف جنيه تقريبًا. ووضع الحجر الأساسي للكلية في ٥ يناير سنة ١٨٩٩ بحفلة رسمية برياسة كتشنر باشا.

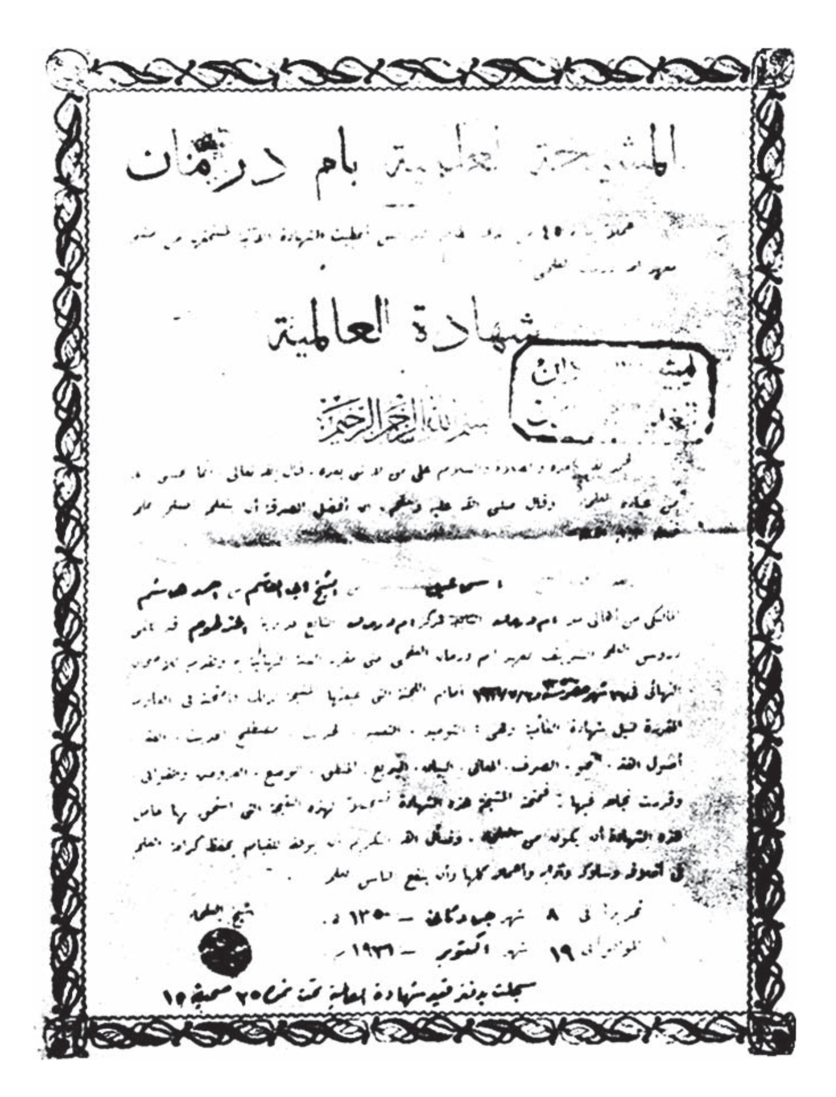

المشيخة العلمية بام درمان

شهادة العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

تحريراً في ٨ شهر جمادى الآخرة ١٣٥٠ هـ.

الموافق ١٩ شهر أكتوبر ١٩٣١ م

شيخ العلماء

سجلت بدفتر قيد شهادة العالمية تحت نمرة ٢٥ صحيفة ١٥

صورة شهادة العالمية في المعهد العلمي بأم درمان.

طالب خريج من كلية غوردون وبمدرسة كتشنر الطبية.

(٢) مدرسة حقوق الخرطوم المؤسسة سنة ١٩٣٥

أُسِّست هذه المدرسة في هذا العام — ١٩٣٥ — وهذه لائحتها:

لائحة (امتحان ومصاريف) مدرسة الحقوق سنة ١٩٣٥

«تشريع نمرة ١٧ سنة ١٩٣٥»

عملًا بالسلطات المخولة للجنة الدراسات القضائية بالمادة ٤ (٢) من أمر مدرسة حقوق الخرطوم سنة ١٩٣٥ قد وضعت اللائحة الآتية:

(١) تُسمَّى هذه اللائحة (امتحان ومصاريف) مدرسة الحقوق سنة ١٩٣٥، ويعمل بها على الفور.

(٢) تعقد لجنة الدراسات القضائية الامتحانات الآتية:

(أ) امتحان الدخول للحقوق.

(ب) الامتحان الوسط في القانون.
(جـ) الامتحان النهائي في القانون.
(د) الامتحان الإضافي.

(٣) يكون امتحان الدخول للحقوق بكيفية تظهر مقدرة الطلبة في اللغتين الإنكليزيَّة والعربية كتابةً وحديثًا، وفي المعلومات العمومية، ويعقد هذا الامتحان في شهر نوفمبر من كلِّ سنة كالمطلوب.

(٤-١) يعمل الامتحان الوسط على قسمين: القسم الأول يشتمل على امتحان كتابي وشفهي في الفقه المدني وقانون العقود، ويعقد هذا في شهر إبريل من كلِّ سنة، والقسم الثَّاني يشتمل على امتحان كتابي وشفهي في قانون الأخطاء (المسئولية المدنية)، والقانون الجنائي، ويعقد في شهر ديسمبر من كلِّ سنة.

(٤-٢) الطلبة الذين يلحقون في شهر نوفمبر من أية سنة يمتحنون في قسمي الامتحانات الوسطى في شهر إبريل وديسمبر على التوالي من السنة التَّالية، على أنه يجوز للجنة الدراسات القضائية بسبب مرض الطالب أو بسبب قهري أن تؤجل امتحانه في أحد القسمين أو فيهما معًا إلى سنة أخرى.

(٥-١) يعقد الامتحان النهائي في القانون في شهر ديسمبر من كلِّ سنة عند الطلب، ويشتمل على امتحان كتابي وشفهي في المواضع الآتية:

(أ) مواضع الامتحانات الوسطى.
(ب) قانون الأثبات.
(جـ) قانون التحقيق المدني والجنائي.
(د) قانون الأراضي.
(هـ) القانون التجاري.

(٥-٢) الطلبة الذين يلحقون في نوفمبر من أية سنة يمتحنون الامتحان النهائي في شهر ديسمبر من السنة التي تتلو السنة التَّالية لسنة دخولهم، على أنه يجوز للجنة بسبب مرض الطالب أو لسبب قهري أن تؤجل امتحانه النهائي لسنة أخرى.

(٦-١) يعقد الامتحان الإضافي في شهر إبريل من كلِّ سنة، ويشتمل هذا الامتحان على امتحان كتابي وشفهي بالعربي في قانون ونظام المحاكم الشرعية السُّودانية.

(٦-٢) لكل شخص اجتاز الامتحان النهائي أن يجلس في أي وقت للامتحان الإضافي.

(٧-١) لا يسمح لأي طالب أن يمتحن في أي قسم من قسمي الامتحان الوسط أو الامتحان النهائي أكثر من مرة واحدة.

(٧-٢) كلُّ طالب لا يؤدي أي قسم من قسمي الامتحان الوسط أو الامتحان النهائي في المدة المحدودة بهذه اللائحة يفصل من مدرسة الحقوق.

طالب ثانوي سوداني من طلبة كلية غوردون وهم يلبسون الجلاليب البيضاء والعمائم.

(٨) يدفع الطلبة الرسوم المبيَّنة في الخانة الثَّانية من الجدول الآتي بالنسبة إلى المسائل المبيَّنة في الخانة الأولى من الجدول المذكور، ويُستثنَى من ذلك الموظف في حكومة السُّودان المنتدب للالتحاق بمدرسة الحقوق؛ فإنَّه لا يلحق كطالب ولا يدفع مصاريف.

الجدول

الخانة الأولى	الخانة الثَّانية (جنيه)
الانضمام	١٠
الامتحان الوسط	١ عن كلِّ قسم
الامتحان النهائي	٢
الامتحان الإضافي	٢

(٢-١) أمر مدرسة حقوق الخرطوم سنة ١٩٣٥

أمر بتعيين لجنة الدراسات القضائية
(إعلان قانوني نمرة ٦٠ سنة ١٩٣٥)

عملًا بالسلطات المخوَّلة بالمادة ٣ (٢) من أمر مدرسة حقوق الخرطوم سنة ١٩٣٥ قد عيّن سعادة السكرتير القضائي بهذا جناب المستر س. س. ج. كمنجز ليكون مدير الدراسات القضائية والمذكورين بعد أعضاء لجنة الدراسات القضائية ابتداءً من اليوم الأول من شهر يونية سنة ١٩٣٥:

- جناب المستر ا. ج. ت. فلمنج ساندس نائب قاضي المحكمة العليا.
- صاحب الفضيلة الشيخ أحمد السيد الفيل مفتي السُّودان ونائب قاضي القضاة.
- جناب المستر ا. ج. كلاكستون المحامي (بارستر).

مذكرة إيضاحية

إنَّ الغرض من هذا التَّشريع هو فتح سبيل لعمل لم يكن مفتوحًا قبل عمليًّا للمتعلمين من أبناء السُّودان.

هناك حاجة محدودة لمحامين خبيرين بإجراءات المحاكم ومادة القانون. وبإنشاء هذه المدرسة ستكون فرصة للوطنيين السُّودانيين لسد هذه الحاجة.

إنَّ مقدار ومجال العمل الذي تسمح به محاكم السُّودان للمحترفين بالأعمال القضائية لمحدود جدًّا بحكم الضرورة. بينما قد يكون عدد الطامحين للاشتغال بها كبيرًا جدًّا؛ لذا فإنَّ مستوى امتحان الدخول لمدرسة الحقوق سيكون عاليًا. على أنَّ الناجحين فيه الذين يبرهنون بعد على ضعفهم أو عدم لياقتهم سوف يخرجون من المدرسة بلا تردُّد.

يُسند أمر إدارة المدرسة إلى لجنة يرأسها مدير الدراسات القضائية.

لأيِّ شخص يسكن السُّودان عادة أن يتقدم للسكرتير القضائي لترشيحه كطالب لمدرسة الحقوق، وللسكرتير القضائي أن يقبل الطلب أو يرفضه بالنسبة لأخلاق الطالب وعدد المحامين العاملين وعدد الطلبة المرشحين، وقراره في ذلك يكون بمحض اختياره ونهائيًّا لا يُستأنف.

مدَّة الدراسة سنتان وربع تقريبًا يعقد في خلالها ثلاثة امتحانات — امتحان دخول وامتحان وسط وامتحان نهائي. وبعد تأدية الامتحان النِّهائي يجوز عمل امتحان إضافي في القضاء الشرعي. لا يسمح لأي طالب بالامتحان في أي قسم من أقسام الامتحانين الوسط أو النهائي أكثر من مرة واحدة. كما أن عدم اجتيازها في المدة المقررة يوجب فصل الطالب من مدرسة الحقوق.

سيوضع نظام للدراسة تحت الملاحظة، ويعمل به داخل حجرة مطالعة ومكتبة في بناء المصلحة القضائية. وستُلقى محاضرات مخصوصة من وقت إلى آخر. وقبيل انتهاء الدراسة يحضر الطلبة جلسات المحاكم للاسترشاد.

تمنح لجنة الدراسات القضائية شهادات (دبلومات) للطلبة الملحقين الذين يمضون الامتحان النهائي.

مع مراعاة نصوص قانون المحاماة الذي سيصدر قريبًا، تخوِّل هذه الشهادة لحاملها المرافعة أمام المحاكم المدنية والجنائية المصرح للمحامي بالمرافعة أمامها قانونًا في السُّودان.

يسمح لحاملي الشهادة الذين يمضون الامتحان الإضافي بالمرافعة أمام المحاكم الشرعية.

الرسوم الواجب دفعها عند الالتحاق ١٠ جنيهات مصرية و٢ جنيه بالنسبة لكل من الامتحانات اللاحقة.

يُعقد أول امتحان دخول في نوفمبر سنة ١٩٣٥.

ويراد استعمال هذه المدرسة أيضًا كمحل لتدريب نخبة من موظفي الحكومة الذين برهنوا على أهليتهم لإعداد قضاة وطنيين مدرَّبين، ويكون انتخابهم بواسطة السكرتير القضائي.

(٢-٢) بيان رسمي عن مدرسة حقوق الخرطوم

أذيع البيان الرَّسمي التَّالي:

> إنَّ الاهتمام الذي أُبدِيَ لإعلان فتح مدرسة حقوق الخرطوم كان داعية لسرورنا، وإنَّا لنأمل أن تظل المدرسة موضع العناية الخالصة والانتقاد المثمر. وإجابة على ما يتساءلون عنه نقدم الإيضاحات الآتية:
>
> (١) إنَّ السنتين والربع ليستا بالمدة القصيرة إذا لوحظ أن الطلبة ستقتصر دروسهم أثناءها على دراسة القانون فقط. على أننا وإن كنا نعلم بأن مستوى الدروس سيكون عاليًا — ولكنا رغم ذلك نثق أن الطلبة الأكفاء لن يقتصر تحصيلهم بفضل المثابرة والاجتهاد على معرفة فرع القانون المعمول به في السُّودان فحسب، بل إنهم سيتأسَّسون في فهم المبادئ القانونية تأسيسًا يُعينهم إعانة موثوقًا بها على المضي في تفهُّم كلِّ فرع من فروع القوانين الأخرى.
>
> (٢) يقدم طالبو الجلوس في امتحان الدخول طلباتهم إلى سعادة السكرتير القضائي قبل أول يوم من شهر سبتمبر موضحًا بها العمر والجنسية والتعليم. ويحتمل أن يستعرض مقدمو الطلبات ويسألوا عن كلّ ما تبدو له أهمية. وعلى طالبي الالتحاق من موظفي الحكومة أن يوضحوا جليًّا عمَّا إذا كانوا يودون الالتحاق للإعداد للمحاماة أو ليكونوا موظفين ملحقين للتأهل للوظائف القضائية، وسيستولي الموظفون الملحقون للتأهل للوظائف القضائية على مرتباتهم الاعتيادية مدة الدراسة، ولكن الموظفين الذين يودون التَّأهل للمحاماة عليهم أن يستقيلوا من وظائفهم متعرضين بذلك لعدم استخدامهم مرة أخرى إذا ما فشلوا. على أن ذلك لن يثبِّط من همم ذوي الإقدام والجرأة الذين يعلمون أن كلَّ ما ينتج عن ذلك من مجازفة أو إنكار

للذات يهون أمام الفرصة التي ستتيح لهم الانضواء في سلك تلك المهنة الهامة الشريفة الحرة.

(٣) على كلِّ الطلبة أن يقوموا بإعداد مساكن لهم محليًّا مدة الدراسة، على أنه ستُعدُّ غرفة للدراسة وأخرى للمكتبة في بناء المصلحة القضائية. وعلى الطلبة الذين يدرسون للمحاماة أن يدفعوا المصاريف المبيَّنة باللائحة، والتي تشمل رسوم الدروس وحق استعمال المكتبة. ومن المرجح أن طلبة المدرسة بقسميها سيلزمهم شراء بعض الكتب من مواردهم الخاصة. ولن تتعدى قيمة تلك الكتب خمسة جنيهات سنويًّا.

أحمد السيد الفيل — س. س. ج. كمنجز
الخرطوم في ٣٠ يولية سنة ١٩٣٥.

(٢-٣) رأي مجلة الفجر

وجاء في مجلة الفجر ما يلي:

علَّقنا في العدد الحادي والعشرين من هذه المجلة على الإشاعة التي كانت تدور حول فتح قسم في المصلحة القضائية لتدريب وتعليم بعض العمال القضائيين ليكونوا قضاة جزئيين، وتمنينا على الحكومة أن تجعل منها نواة حسنة لمدرسة حقوق، ثمَّ كتبنا في افتتاحية العدد الثَّاني والعشرين عن التَّعليم وقلنا: إنَّ مدرسة للحقوق أصبح وجودها مهمًّا لمستقبل هذه البلاد، وما كاد العدد تتلقفه الأيدي إلَّا واطلعنا على ملحق التَّشريع لغازيتة الحكومة السُّودانية نمرة ٦١٤ بتاريخ ١٥ يونية سنة ١٩٣٥، وفيه مذكرة إيضاحية بأمر مدرسة حقوق الخرطوم سنة ١٩٣٥، وبعد قراءة الأمر ومراجعته مراجعة دقيقة خرجنا بهذه الفكرة التي نثبتها فيما يلي، ونلفت إليها نظر أصحاب الشأن:

أن دراسة الحقوق بلا شك تستوجب معرفة حسنة للغة الإنكليزيَّة التي سيُدرس بها القانون؛ ولهذا لن يتقدم لهذه المدرسة وينجح فيها

إلَّا الخريجون الذين اشتغلوا في الوظائف الحكومية زمنًا ليس بالقصير، واستفادوا من تجاربهم واطلاعهم الشخصي، ووسَّعوا دائرة معلوماتهم. وهؤلاء لن يكون في وسعهم أن يتركوا وظائفهم ليلتحقوا بهذه المدرسة والمستقبل غير مضمون. أمَّا الطالب الذي يتخرج من الكلية فلا يمكنه الالتحاق بهذه المدرسة لأول وهلة، وإذا التحق بها فلن ينجح نجاحًا يبشِّر باستمرار المدرسة. وأمَّا عن الذين تنتدبهم الحكومة ليدرسوا ويكونوا قضاة جزئيين أو جنائيين فهؤلاء — كما تدل الاتجاهات — سيكونون من العمال القضائيين، وهم لا تسمح لهم معرفتهم باللغة الإنكليزيَّة أن ينجحوا في هذه الدروس. وعندنا أن خير حل لذلك أن تختار الحكومة خيرة موظفيها من الشبان العارفين باللغة الإنكليزيَّة، والذين لهم ميل لدراسة القانون فتبتدئ بهم المدرسة وتُخرِّج بعضهم كمحامين ينفصلون عن خدمة الحكومة بعد انتهاء عهد الدراسة، والبعض الآخر كقضاة جزئيين أو جنائيين، وبعد دفعة أو دفعتين ترجع إلى هذا النِّظام الذي سنته في قانونها الحالي، حيث يكون الناس قد استعدت أذهانهم والشباب قد بدأ يعد نفسه لدخول مثل هذه المدرسة، والكلية قد حسَّنت برامجها وتخرَّج فيها شباب صالح. ا.هـ.

(٣) فكرة إنشاء جامعة سودانيَّة

والمقول: إنَّ إنشاء مدرسة كتشنر الطبية ومدرسة حقوق الخرطوم هو توطئة لإنشاء جامعة سودانية، تُضَمُّ إليها المدرستان، وتُرفع درجة بعض أقسام كلية غوردون — كالهندسة والزراعة — لتكون كليات عالية في الجامعة المنشودة.

(٤) المدرسة الحربية

كان بالسُّودان مدرسة حربية في الخرطوم ألغيت سنة ١٩٢٤. وفي هذا العام انتخب للمدرسة الحربية المتنقلة تسعة من خريجي كلية غوردون الذين قدموا للالتحاق بهذه المدرسة بعد أن اجتازوا امتحان الدخول، وهم حضرات الأفندية: محمد طلعت أفندي، فريد حسن أفندي، بشير نصر عمر أفندي، إبراهيم العوض عمر أفندي، محمد إبراهيم

محمد أفندي، نمر نصر أحمد، عبد الله حامد أحمد أفندي، عبد الوهاب خير الله أحمد أفندي، أبو بكر أحمد رضا أفندي فريد.

وقد التحقوا بقسم الحملة ابتداءً من ١٦ يونية سنة ١٩٣٥، وفيما بعد يوزعون على وحدات قوة دفاع السُّودان الأخرى للدرس والتمرين، ثمَّ يعينون ضباطًا في قوة دفاع السُّودان. وهي ليست مدرسة، ولكنَّه نوع من التَّعليم الحربي الوقتي الذي لم يوضع له نظام بعد.

(٥) تعليم البنات

أمَّا تعليم البنات فهو في بدايته. ويبلغ عدد المدارس الأولية للبنات ٢٢ مدرسة في المدن الكبيرة على النيل. ويبلغ عدد تلميذاتها ٢٠٥٩، وهن يتعلمن القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن والدروس الدينية، وقد جعل التَّعليم عمليًّا يبعث على الاعتماد على النفس ومعرفة التدبير المنزلي. والتعليم لهن مجانًا، وقد أُنشئت كلية للمعلمات في أم درمان، وبلغ عدد تلميذاتها ٥٧، وأكثر خريجاتها قد تزوجن، وقد أنشأ فضيلة الشيخ بابكر بدري — المفتش بمعارف السُّودان سابقًا — مدرسة الأحفاد بأم درمان. وهي أول مدرسة للبنات.

وكلما انتشر تعليم الذكور في بلد، بدت الرغبة ملحَّة في تعليم البنات والحاجة إلى مدارس أخرى.

وقد أنشئت في الماضي مدرسة لنواب المآمير ولضباط البوليس وللبوستة والتلغراف، وأقسام للصيدلة، وللمساعدين بالمعامل، وللمفتشين الصحيين، وأقسام صيفية للمسَّاحين والعدادين، ودروس للصبية في جراجات الحكومة وورشها.

(٦) بعثات علمية

وقد رأت مصلحة المعارف انتخاب بعض خريجي كلية غوردون وإرسالهم في بعثة إلى الجامعة الأمريكية ببيروت للحصول على دبلومتها بعد دراسة مدتها ثلاث سنوات أو أربع. وتعلم الشاب السُّوداني الغيور الأستاذ الدرديري أحمد إسماعيل في الجامعة المصريَّة وفي جامعة ليدز بإنكلترا، ونال شهادتها في القانون، وعاد في شهر أغسطس سنة ١٩٣٥، وأقيمت له حفلة تكريم بالنادي السُّوداني بميدان سليمان باشا رقم ٣.

(٧) في جنوب السُّودان

وفي جنوبي السُّودان، حيث يسكن الزنوج — وهم لا دين لهم — رغبت الحكومة السُّودانية في إنشاء مدارس لتعليمهم.

ولقد بدأت الإرساليات التبشيرية المسيحية بتعليمهم. وفي سنة ١٩٢٢ عينت الحكومة لها إعانات سنوية صغيرة لمساعدتها. وفي سنة ١٩٢٦ زادت مبالغ هذه الإعانات لمساعدة الإرساليات على توسيع التَّعليم وفي مهمتها الصحية. وقد رأت الحكومة أن تشرف على تعليم الإرساليات، وأن تتحقق من أنه يخدم الأغراض السياسية والإدارية التي تطلبها.[٦]

وقد كان تعدد اللغات واللهجات وعدم ضبطها وعدم سابق وجود قواعد لها مشكلة المشاكل في سبيل تعليم أبناء جنوبي السُّودان؛[٧] ولذلك عقد مؤتمر لغوي في «الرجاف» في إبريل سنة ١٩٢٨ تحت رعاية سكرتارية المعارف والصحة، وقد حضر المؤتمر ممثلون عن حكومات السُّودان وأوغندة والكونغو البلجيكية والجمعيات التبشيرية في هذه الأقطار. وقد كانت مهمة المؤتمر علاج مشكلة تعدد اللغات، وقد انتهى المؤتمر إلى اختيار مجموعة من اللغات الرئيسية، وتهذيبها وضبط تهجئتها وإملائها وتوحيدها، ووضع كتب بمتونها وأجروميتها. وقد عقدت مؤتمرات أخرى غير رسمية لتحقيق هذا الغرض والتقدم فيه بعد مؤتمر سنة ١٩٢٨.

وقد بلغ عدد الذين تلقَّوا التَّعليم العصري في الخرطوم وأم درمان وبعض المدن الرئيسية ١٢٠٠٠، منهم ١٣٠٠ من كلية غوردون، و٢٥٠٠ من المدارس الابتدائية، وعدد يتراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠ من ضباط حاليين وسابقين، وعدد يتراوح بين ٧٠٠٠ و٨٠٠٠ تاجر.

وقد جعلت اللغة الإنكليزيَّة أساسية وسائدة في كلية غوردون وفي المكاتبات الرَّسمية.

كلية المعلمين الأولية مركزها الآن في «كلية بخت الرضا» تابعة لمركز الدويم بمديرية النِّيل الأبيض.

(٨) المعهد العلمي بأم درمان

إلى سنة ١٩١٢ كان المرحوم العلامة أبو القاسم أحمد هاشم قاضيًا شرعيًّا لمديرية النِّيل الأزرق. وفي يناير سنة ١٩١٢ عُيِّن «شيخًا للعلماء» خلفًا للمرحوم الشيخ محمد البدوي الذي كان في عهده تدريس العلوم الدينية في منازل العلماء وعددهم عشرة.

رأى فضيلة الشيخ أبو القاسم أن يكون التدريس في معهد أم درمان، الذي كان مكانه عندئذ في الفضاء الواقع بين جامع أم درمان الحالي وبين مكاتب إدارة المعهد، وكان محل الجامع الحالي دكاكين. فطلب فضيلته من الحكومة أن تعطي أصحاب الدكاكين تعويضًا، وأن توقف الأرض لبناء الجامع، وأن يستعمل بناء الجامع القديم فناءً للمعهد ومكاتب.

وافقت الحكومة على رأي فضيلته، وفتح اكتتاب من أهالي السُّودان، وجمع نحو ١٦ ألف جنيه، وعاونت الحكومة في بناء الجامع بتخصيص جزء من عوائد الأسواق لبنائه. وسمِّي «المعهد العلمي بأم درمان»، وبدئ التدريس بالسنة الأولى طبقًا لبرنامج الجامع الأزهر، وتلقى فضيلته لوائح الأزهر من صاحبي الفضيلة الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر عندئذ وقاضي قضاة السُّودان سابقًا، والشيخ محمد هارون وكيل مشيخة الإسكندرية وقاضي قضاة السُّودان، وساعده فضيلة مفتي السُّودان يومئذ شقيقه الشيخ الطيب أحمد هاشم مفتي السُّودان، وهو أول مفتٍ في السُّودان سابقًا، وقبس منها لائحة للمعهد العلمي، وعرضاها على فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي قاضي قضاة السُّودان فوافق على إصدارها، وصدَّقت عليها الحكومة في سنة ١٩١٣.

وفي سنة ١٩٢٠ عُقد أول امتحان للشهادة الأهليَّة لمن أتموا السنة الرابعة الثانوية، وفي سنة ١٩٢٤ عقد أول امتحان لشهادة العالمية فنجح ثلاثة طلاب من تسعة، عين اثنان في وظيفة «عامل قضائي» التي تعادل في مصر وظيفة «موظف قضائي»، والثالث عين مدرسًا بالمعهد، ويبلغ عدد حاملي شهادة العالمية من خريجيه ٤٩ عالمًا.

في سنة ١٩٣٢ أحيل فضيلة الشيخ أبو القاسم إلى المعاش، وعيِّن فضيلة الشيخ أحمد محمد أبو دقن المفتش بالمحاكم الشرعية شيخًا لعلماء السُّودان ورئيسًا للمعهد.

وأذاع فضيلة الشيخ أبو القاسم سنة ١٩١٣ نداءً للتبرع لإنشاء مكتبة للمعهد العلمي، فلبى سمو الأمير محمد علي النداء وألَّف لجنة اشترت أكثر من ألفي مجلد في جميع العلوم الدينية والعربية وغيرها وأرسلتها إلى فضيلته، وكانت النواة الأولى للمكتبة.

وفي سنة ١٩٢٢ زار فضيلته الأزهر الشريف؛ فاطلع على نظام التدريس في إدارته ونظام الامتحان، وعدَّل اللائحة على مقتضى النِّظام الجديد، وزار دار الكتب المصرية. ومنذ ذلك توالي الدار إرسال هدايا من الكتب الجديدة المطبوعة في مطبعتها.

وستنشأ قريبًا دار يستخدم ريعها في مساعدة فقراء الطلبة. وقد تبرعت لجنة سمو الأمير عمر طوسون بألف جنيه في إقامة البناء.

ويدفع سموه ثلاثين جنيهًا سنويًّا إلى المعهد منذ سنة ١٩٢٩.

ويجلس الطلبة القرفصاء عند التدريس، وليس للمعهد أروقة ولا بيوت للطلبة، ويسكن طلبة أم درمان في منازل ذويهم، ويسكن الطلبة الغرباء، وهم فقراء عادة في منازل كبار العلماء والتجار والأعيان الذين خصصوا في منازلهم أماكن خاصة للضيافة.

وطلبة المعهد أكثرهم من سُكَّان أم درمان، ثمَّ من النِّيل الأبيض، ودنقلا، والنيل الأزرق، وكردفان، ومن مصوع وإريترية ونيجيريا والحبشة وسائر مديريات السُّودان.

(٩) أشهر العلماء قديمًا وحديثًا

هم أصحاب الفضيلة الشيوخ:

القاضي السلاوي عالم أزهري تولى القضاء في الفتح الأول،[8] ومحمد الجد شيخ المهدي وعالم جليل، وحسيب الأزهري عالم جليل تخرج على يده كثير، والأمين محمد الضرير مميز العلماء سابقًا وعالم جليل اشتهر بالتقوى، وإبراهيم عبد الدافع عالم شهير وله استغاثة مشهورة، وولد يفادي عالم أفاد كثير وتخرج على يده علماء قديمًا، وأحمد ولد عيسى حضر على الشيخ الدردير الشهير بمصر وأفاد كثيرًا، وإبراهيم أحمد ولد عيسى ابن المذكور قبله، وولد عدلان صاحب كتاب زبد العقائد، وإسماعيل الولي الكردفاني مؤسِّس الطريقة الإسماعيلية بالسودان، وسيد أحمد الأزهري أول سوداني درس بالأزهر الشريف، وهو ابن الشيخ إسماعيل الولي الكردفاني، والسيد البكري الولي إسماعيل والسيد الباقر الولي إسماعيل ولدا الشيخ إسماعيل مؤسِّس الطريقة الإسماعيلية، ومحمد عربي أحمد، وبشير النعمة عالم أزهري جليل، وأول من حضر على السيد جمال الدين الأفغاني، ومعه علي محمد البوشي الأزهري الحناوي، والشيخ الأستاذ الإمام محمد عبده، وعلي محمد البوشي الأزهري عالم جليل حضر على السيد جمال الدين الأفغاني مع صاحبيه المذكورين، وانفصل عنه لأنَّ الشيخ عليش كان ولي أمره، وطلب إليه التَّخصص في علوم الشريعة، فكان فذًّا في علم الميراث والحساب

والأصول بالسودان، وحسين الزهراء عالم أزهري، وقد اشتهر أمره في المهدية، والقاضي أحمد الأزرق عالم اشتهر أمره في المهدية، ومكي أبو حراز عالم اشتهر أمره في المهدية، والدرديري الدولابي، وإبراهيم شريف عالم وشاعر اشتهر بكردفان، وحسن دوليب، ومحمد عبد الماجد، والصاوي عبد الماجد، وأحمد وديدي، وأحمد عبد العاطي درس مع الشرنوبي بمصر، وعمر الأزهري عالم أزهري جليل، ومحمد البدوي عالم جليل وشيخ علماء السُّودان في أول هذه الحكومة، ومضوي الأزهري عالم جليل، والنذير خالد عالم جليل انتفع به العلماء بالمعهد العلمي، وكان أظهرهم في جامع أم درمان حتَّى توفاه الله، وأبو القاسم أحمد هاشم شيخ العلماء بالسُّودان، وقد كان مقربًا لدى الخليفة عبد الله بالمهدية، ثمَّ تولى القضاء في السُّودان في هذه الحكومة، ثمَّ اختير لوظيفة شيخ المعهد العلمي بأم درمان، والحاج أحمد المجذوب وحامد محمد أحمد، ودفع الله أحمد، والطيب أحمد هاشم مفتي السُّودان سابقًا، وكان مقربًا عند الخليفة عبد الله زمن المهدية، ومحمد البناء مفتش بالمحاكم الشرعية سابقًا، ومحمد الأمين الضرير عالم ورع كان مدرسًا بالمعهد بأم درمان، والظاهر المجذوب بالمعهد، ومحمد الجزولي بالمعهد، والعاقب الأزهري كان مدرسًا بالمعهد، والسيد محمد السيد الباقر الولي إسماعيل أحد كبار العلماء بالمعهد العلمي، وإبراهيم الإمام أحد كبار العلماء بالمعهد العلمي، وإبراهيم الإمام، وإبراهيم أبو النور، وعوض الكريم، والزين تناد، ومحيي الدين عيسى دوليب، وعثمان العمرابي، ومحمد الصالحي عنان، وموسى محمد الجزولي، وصالح علي، وعلي بخيت، ومجذوب مدثر بالمعهد بأم درمان، والحسن الأمين إمام جامع الخرطوم سابقًا، وأحمد سوركن رئيس مدارس الإرشاد بجاوة ومؤسسها ورئيس جمعية المسلمين، وأحمد العاقب ناظر مدرسة أم درمان الابتدائية الأهليَّة، وأحمد محمد أبو دقن شيخ العلماء بالسُّودان اليوم، ومفتش بالمحاكم الشرعية سابقًا، والحلي المريومابي، وعبد الرحيم العمرابي ناظر مدرسة ابتدائية بالمعارف سابقًا، والأمين أبو قرين، وإبراهيم يعقوب، وآدم علي مدرس بجامع ود مدني، ومحمد الطيب قمر الدين مدرس بكوستي، وعبد الرحمن دفع الله، وعمر الأمين مدرس بكوستي، وعلي الصالحي بالأبيض، وهاشم خوجلي بمكوار سنار، وعثمان محمد الخير قاضٍ شرعي سابقًا، وأبو زيد محمد الأمين بعطبرا، وعلي محمد، ومصطفى البكري.

(١٠) الثَّقافة في السُّودان

إذا جاز لنا أن نقول إن الإسلام دين يحمل رسالة العلم إلى الوجود ويجعل من العلوم والمعارف أداة يتوصل بها إلى توحيد الله تعالى وتمجيده والإحساس بما يحيط بالإنسان من الخلق — الذي هو دليل الصانع — إحساسًا يمتزج بالعواطف والمشاعر، ويسمو بالروح إلى مداركها العليا وعنصرها الذي تصبو إليه — جاز لنا أن نقول: إن الأمة التي تدين بهذا الدين لا بدَّ لها من آداب تتفرع عن توحيده وتشريعه، واكتناه أسراره، وفهم مصطلحاته، ونشر تعاليمه، وضبط معاملاته، وتعرف روحانيته السامية: فهو دين ناهض بذاته لا يتصور الخمول في جانبه إلَّا إذا كان عارضًا أو معارضًا. وإذا علمنا تلك اللغة المجيدة أعني لغة القرآن المعجز قد وسعت جميع ما تضمنه هذا الدين الحنيف الخالد، وترجمت جميع ما أوحاه العقل البشري إلى الأمم البائدة والمعاصرة لها ممَّا ضاقت عنه بعض لغاتها، فأملته درسًا واحدًا على الوجود، كان بمثابة النواة لمدنيتنا الحاضرة، وكان حلقة الاتِّصال بين الماضي والمستقبل كما يشهد بذلك التَّاريخ الذي لا يكذب. أقول: إذا علمنا ذلك تضاعف يقيننا بأن الأمة العربية المسلمة أينما وجدت وحيثما ارتحلت لا يمكن أن تتسفَّل أو تنحدر إلى مستوى الهمجية المرذولة، ولا يمكن أن تكون بغير آداب محترمة؛ ففي قانون الشرع وقاموس الكتاب الذي لا يأتيه الباطل أعظم ذخيرة لآدابها ومعارفها.

وإذا علمنا إلى جنب ذلك أيضًا أنَّ الإسلام بطبيعته المذكورة وحيويته المدهشة قد عهدت فيه القدرة التامة على نسخ كافة ما يعترضه واكتساحه وتحويل الجنسيات المتباينة إلى جنس واحد واللغات إلى لغة واحدة، لا سيما إذا كان وافدًا على البلاد التي يدخلها بأشخاصه العاربة أو المستعربة، سهل علينا أن نتصوَّر ذلك الفتح العظيم الذي جعل من السُّودان وطنًا له حين انحدرت سيوله بعد تكاثفها وتدافعها من أسافل النِّيل إلى أعاليه. هنالك يجد التَّاريخ والمؤرخ مجالًا فسيحًا لأنْ يقول كلمته في أن القبائل الضاربة في مصر هي أصول القبائل التي احتلت السُّودان حتَّى بلغت قبيل الثَّورة المَهديَّة نحو ١٢ مليون نفس، فنزلت في سهوله ووهاده وهضابه وشعابه حتَّى طغت على عناصره الأولى، فلم يبق منها إلَّا الأثر بعد العين، اللهم إلَّا في مناطق الاستواء، حيث لا يلائم العربي الجو ولا يطيق طبيعة البلاد ومستنقعاتها، وحيث لا تجد أنعامه الجفاف اللازم لحياتها، فإنَّه وقف هنالك حائرًا في وقت كان العالم فيه كله حائرًا متبلدًا. ولكن مع ذلك خرجت رسالة الدين واللغة من بين فكَّيه، وصارت تخترق

الغابات والكهوف وتصعد إلى القمم، فلا يكاد يجهل قاطنوها كلمة لا إله إلَّا الله محمد رسول الله — وهي كلُّ شيء في معناها ومبناها.

أقول: إذا استبقنا ذلك كله لم نشكَّ في أن السُّودان منذ الفتح الإسلامي تجاوبت في جهاته الأربع آداب الإسلام وعلوم الإسلام ولغة الإسلام، ولم يخل من العلماء والشعراء والكتاب، ولكن بعدت الشُّقة بينه وبين البلاد التي كانت تحفظ تاريخها وتاريخ من جاورها لتوفر أسباب الكتابة وأدواتها فيها، فحالت بينه وبينها هذه العقبة، والتواء النِّيل في الصحراء العظيمة، واعتراض الشلالات لمجراه، وصعوبة الترحل إلَّا على الدواب، وأخصها الجمال التي لا يحسن ركوبها سوى أعراب البادية؛ فمن هنا قضى تقادم العهد على بعض تاريخه العلمي، وصار شيئًا غامضًا نتلمَّسه في معاهد الصلاح وقبور الأولياء، فلا نجد منه إلَّا أثرًا غير حميد؛ فقد طغت نعرة الدين وغلبته أرباب الطرق على كثير من الآداب والمعارف، وإن كان في وجود آثار الصالحين دليل على أنهم إنَّما اقتطفوا تلك الثمار وتبلغوا بها إلى مجالس الأنس وحظيرة القدس، ولم يبق بين أيدينا إلَّا ما يُحكى أو يُروى. وفي الحكاية والرواية ما قد يمسخ أو يشوه جمال الحقائق حيث يكون للحظ والتَّخمين المرتبة الأولى في التزيين والتقبيح. على أن هناك حسنة ملموسة في طي هذه العزلة. فإنَّ في تفرد لغة قوية غنية بمفرداتها، زاخرة ببلاغتها — أصل استمدادها من الصحراء الواسعة والحياة الحرة والأجواء الطلقة أعظم عامل على بقاء جوهرها سليمًا من الدخيل في زمن كثُرت فيه الأخلاط، وتشعَّبت فيه اللغات، وانحطَّت فيه الأمم الإسلامية لاشتغالها عن العلوم بالقشور حتَّى صار الزجل شعرها والسجع المبتذل رسائلها ونثرها — فقد بقيت اللغة العربية في السُّودان حافظة لجوهرها ومادتها وإن دخل اللحن عليها، فإنَّه لا فرار من أمر لم تخل منه الجزيرة نفسها — أقول بقيت كذلك حتَّى حدثت النهضة المصريَّة المباركة وكان فتح محمد علي للسُّودان، فلم يلبث أن تشبَّث السُّودان بعلوم مصر وأخذ منها حظه؛ فدبَّت في اللغة روح الحياة، ونشطت من عقالها على يد أساتذة المدرسة الحديثة، وما زالت تنمو وتصفو حتَّى جاء الفتح الثَّاني بعد ثورة المَهديَّة التي كانت بمثابة فترة في عالم الآداب والعلوم؛ فأسَّست كلية غوردون بالخرطوم والمدارس الأولية التَّابعة لها في بعض جهات القطر السُّوداني، وسارت المعارف في نظام الدراسة على أحدث الأوضاع وفاقًا لما يجري في المعارف المصريَّة، وانتخب لذلك مدرسون أكْفاء من المصريين والإنكليز لتأسيس التَّعليم على قواعد صحيحة، فدرج التَّعليم على أكفِّهم وترعرع في أحضانهم حتَّى أينع وازدهر

ونبت نباتًا حسنًا في عقولٍ ظهر أنها من أخصب العقول وأقواها مداركَ وأسرعها إنتاجًا — وفي أثناء ذلك كان العلم الأزهري يتدرج في القطر ويسير إلى جنب التَّعليم المدرسي حتَّى انتظم بفضل وجود معهد أم درمان الذي كان الزمن العامل في تكوينه؛ فتوحدت صفوفه بمعونة الله وتوفيقه، وأمدَّته الحكومة بالمعونة التي لا تُنكر؛ فأخذ يحتذي مثال الأزهر الشريف ويترسَّم خطاه حتَّى أصبح — بحمد الله — معهدًا يصحُّ أن يُشار إليه، وتخرَّج منه عدد غير يسير من العلماء والمتعلمين — ومن هؤلاء وأولئك المتعلمين تكوَّنت ثروة البلاد العلمية والأدبية، وصار أبناؤها يقذونها بنفائس العلم وعرائس الفكر، وينادون بالإصلاح الذي شغل بال العالم والمتعلم عن التَّحبير والتَّصنيف، شأن كلِّ أمة لا تزال في مهد الطفولة، ولولا ذلك لسمع الناس عنهم ولقرؤوا لهم أطيب الخبر وأفضل الأثر — وهنا لا يفوتنا أن نقول: إن ما أخرجته المطابع المصريَّة من الكتب القديمة والحديثة وما كتبه الكتَّاب في المجلات والجرائد اليومية وغيرها كان بمثابة المنهل العذب لأبناء السُّودان جميعًا؛ حيث إنهم أولوها عنايتهم، وجعلوها رائدهم، ونظروا فيها نظرة ناقد غيور ومتعلم بصير؛ فلا تكاد تخفى عليهم منها خافية. وقد ساعدهم على ذلك لغة التخاطب التي هي بمنزلة لغة التَّاليف عند سواهم من غير أبناء هذا الوادي، حتَّى إنك تستطيع أن تقرأ الكتاب اللغوي بين الأميين؛ فتراهم يشاركونك في فهم مفرداتها وجملها وشواردها مشاركة دراية واسعة وإحاطة شاملة ونشوة من لذة البيان — وهنا نلمس السرَّ في أنَّ السُّوداني لا يعاني في تحصيل الثَّقافة إلَّا فهم المصطلحات وما هو من قبيل الفنِّ الخالص — هذا ولا يخفى أن دراسة اللغة الإنكليزيَّة في كلية غوردون والمدارس الابتدائية وبعض مدارس الإرساليات على يد أساتذة إنكليز وتلامذتهم قد أدخل على الثَّقافة السُّودانية مسحة من الآداب الغربية التي نرجو أن يكون نصيب البلاد منها واقفًا عند حدٍّ ما تستسيغه على يد أبنائها البررة، والزمن كفيلٌ وحده بتحقيق الأماني وإفشاء الحقائق وإظهار الدقائق.

(١١) الأزهر والسُّودان

أسلفنا الكلام على علاقة السُّودان بالأزهر، واهتمام ملوك الفونج ودارفور بعلماء الأزهر وطلبته وبعثاته. ولا يزال مواطنونا السُّودانيون ينهلون من الأزهر العلم الديني، ولهم أروقة. ومعهد أم درمان العلمي — كما قدمنا — قد جعل وفاقًا لمناهج الأزهر القديمة؛ لذا كان لزامًا علينا الكلام عن الأزهر تعريفًا لإخواننا السُّودانيين ولقرائنا.

جاء في «كتاب الأزهر تأليف محب الدين الخطيب سنة ١٣٤٥هـ»، قال في الفصل الثالث تحت عنوان «صفة الأزهر»:

الأزهر مسجد إسلامي قديم، ومعهد علمي عظيم، ما زال أعيان المسلمين وأمراؤهم — ولا يزالون — يتعهدونه بالعناية والتوسيع والإصلاح — منذ نحو ألف سنة — على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

وقال:

وهو في شكله الحاضر بناءٌ واسعٌ قائمٌ على أرض مساحتها ٢٦٣٢٣ ذراعًا (١٢ ألف متر مربع)، يحيط به سور مربع فيه ثمانية أبواب: في الجانب الغربي الخارج إلى ميدان الأزهر باب المزينين والباب العباسي. وفي الجانب الجنوبي باب المغاربة وباب الشوام وباب الصعايدة، وفي الجانب الشَّرقي باب الحرمين — وهو مقفل — وباب الشربة، وفي الجانب الشَّمالي باب الجوهرية. وتسمو فوق هذه الأسوار والأبواب خمس مآذن؛ ثلاث في داخل باب المزينين: أحدهما الأقبغاوية، والثانية مئذنة قايتباي، والثالثة مئذنة قانصوه الغوري. وواحدة بجانب باب الصعايدة، وأخرى بباب الشربة، وكلتاهما من إنشاء كتخدا. ولا يؤذِّن على تلك المآذن غالبًا إلَّا العميان تفاديًا من وقوع أنظار المؤذنين على المنازل، وهي عادة حسنة جارية في أكثر المدن المصرية. والغالب أن أذان الأزهر ينبني عليه أذان أكثر منارات القاهرة.

وقال تحت عنوان «أولية الأزهر»:

اختلَّ أمر مصر بعد موت كافور الإخشيدي (١٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ)، فكتب جماعة من أعيانها ورجال الدولة فيها إلى أبي تميم المعز لدين الله معد الفاطمي أمير المغرب، يطلبون منه عسكرًا ليسلموا إليه إدارة البلاد المصرية. فجهَّزَ المعز جيشًا سار من القيروان — يوم الجمعة ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ — بقيادة أبي الحسن جوهر بن عبد الله. وفي يوم ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ تم للقائد الفاطمي جوهر فتح مملكة مصر، وكانت قاعدتها «الفسطاط»،[٩] فأنشأ جوهر شمالها — حيث كانت مضروبة خيام جيشه — مدينة أخرى

دعاها «المنصورية»[١٠] وابتدأ البناء بمسجد المدينة الجديدة — وهو «الأزهر» — يوم السبت ٢٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ.

وتمَّ بناء الأزهر — وما حوله من قصور الخلافة وبيوت كبار رجال الدولة — في نحو ثلاثين شهرًا. وأول جمعة صلاها الفاطميون في مسجدهم الجديد «الأزهر» كانت يوم ٦ رمضان سنة ٣٦١هـ.

وفي زمن الحاكم بأمر الله زُيِّن الأزهر بقناديل من الفضة تعلق فيه في شهر رمضان. وكان الأزهر ومناراته ينار بالمصابيح أيام الخلفاء الفاطميين بزينة باهرة في المواسم. وفي قصر الخلافة منظرة مخصوصة تُطِلُّ على الأزهر، يشاهد منها الخليفة تلك الزينة واسمها «منظرة الجامع الأزهر».

وكان في محراب الأزهر منطقة فضة بقيت إلى زمن السُّلطان صلاح الدين، والمنبر الأصلي القديم الذي أُنشئ للأزهر في بداية تأسيسه نقل فيما بعد إلى الجامع الحاكمي.

وكان الخلفاء الفاطميون يخطبون بأنفسهم على منبر الجامع الأزهر.

وجدد الحاكم بأمر الله الأزهر، وهو أول من وقف الأوقاف عليه.

وفي سنة ٤٢٧هـ تولى الخلافة الفاطمية المستنصر بالله معد بن الظاهر لإعزاز دين الله، وفي مدة خلافته جدد الجامع الأزهر. ثمَّ اقتفى أثره حفيده المنصور أبو علي الآمر بأحكام الله الذي تولى الخلافة سنة ٤٩٥؛ فأحدث في الأزهر تجديدًا.

ثم تولى سنة ٥٢٤ أبو الميمون الحافظ لدين الله عبد المجيد؛ فجدد في الأزهر أبنية، وأنشأ فيه «مقصورة فاطمة الزهراء»، وهي مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربي الذي في مقدمة الجامع بداخل الرواقات.

وقال تحت عنوان «الأزهر بعد الفاطميين»:

وكان للأمير بدر الدين بيلبك الخازندار الظاهري يد محمودة في هذا التجديد.

وفي سنة ٧٠٢ داهمت الشَّرق الأدنى زلزلة عنيفة خرَّبَتْ قسمًا عظيمًا من بلاد مصر والشام، وأخرجت المياه من الآبار إلى سطح الأرض، وفاضت البحار إلى اليابسة فأغرقت خلقًا كثيرًا، وأصابت الزلزلة «الأزهر» وسائر مساجد القاهرة بأذاها، فتقاسم الأمراء عمارتها، وأخذ الأمير سلار — من رجال دولة المماليك البحرية — على نفسه عمارة الأزهر الشريف وتجديده.

وفي سنة ٧٠٩ انتهى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار — نقيب الجيوش — من إنشاء مدرسته التي هي مخزن «دار الكتب الأزهرية».

وفي سنة ٧٢٥ جدَّد الأزهر القاضي نجم الدين محمد بن حسين الأسعردي محتسب القاهرة.

وفي سنة ٧٤٠ انتهى الأمير آقغا علاء الدين الواحدي من إنشاء مدرسته المتصلة بالمدرسة الطيبرسية «مخزن المكتبة الأزهرية».

وفي سنة ٧٦١ جدده الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدار الناصري.

وفي سنة ٧٨٤ تولى النَّظر على الأزهر الأمير بهادر الطواشي.

وفي سنة ٨١٨ بلغ عدد المجاورين في الأزهر ٧٥٠ رجلًا.

وفي شوال سنة ٨٢٧ ابتُدئ بعمل الصهريج وسط الجامع، فوجد هناك آثار فَسقِيَّة ماء.

وفي مدة الملك الأشرف أبي الناصر قايتباي المحمودي «٨٧٢–٩٠١» أحدث الملك تجديدًا في الأزهر.

وفي سنة ٩٠٠ أنفق الخوجا مصطفى بن محمود بن رستم خمسة عشر ألف دينار من ماله على عمارة الجامع الأزهر.

وفي سنة ٩٠٤ رتب الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه — خال الناصر بن قايتباي — الخبز والخريزة[١١] في الأزهر أيام رمضان.

وفي عام ٩٢٣ زاره السُّلطان سليم العثماني، وصلى فيه الجمعة، وتصدق بمبلغ كبير.

وفي سنة ١٠٠٤ أحدث الشريف محمد باشا والي مصر تجديدًا في الأزهر، ورتب للطلبة طعامًا يطبخ لفقرائهم كلَّ يوم.

وفي سنة ١٠١٤ عمَّر حسن باشا والي مصر مقام الحنفية أحسن عمارة وبلَّطه.

وفي سنة ١١٠٥ وقف عليه محمد باي ابن مراد باي حاكم ولاية تونس أوقافًا، ثمَّ جدد سقف الجامع الأزهر الأمير إسماعيل بك القاسمي المتوفى سنة ١١٣٦.

وفي سنة ١١٤٨ أنشأ الأمير عثمان كتخدا زاوية العميان، وعمَّر رواق الأتراك ورحبته المسقوفة ورواق السليمانية «الأفغانيين»، وزاد في رواق الشوام، ورتب لذلك مرتبات من وقفه.

وفي سنة ١١٦١ تقلد ولاية مصر أحمد باشا كور، وتتلمذ للشيخ حسن الجبرتي «والد الشيخ عبد الرحمن صاحب التاريخ».

وفي سنة ١١٦٧ أنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا الزيادة التي زادها على الأزهر.» وقال «في صحيفة ٢٣ عن رواق السنارية ما يأتي»:

«وفي ١٢٢٠ أنشأ محمد علي باشا جدُّ الأسرة المالكة «رواق السنارية بالتماس الشيخ محمد وداعة السناري، فاشترى عزيز مصر ريعًا كان في مكان هذا الرواق، وبناه ووقف عليه.

ووقفت الأميرة زينب هانم كريمة العزيز محمد علي أوقافًا على الأزهر كان ريعها عشرين ألف جنيه، وهو الآن أعظم من ذلك.

(١١-١) أروقة الأزهر

وجاء في «كتاب «رسالة الأزهر سنة ١٣٢١» تأليف حضرة صاحب العزة مصطفى بيرم بك في صحيفة (١٧)» عن أروقة الأزهر ما يلي:

«ثانيًا أروقة الأقاليم الإسلامية الأجنبية عن مصر — وهاك بيانها:

رواق الحرمين الشريفين	لسكان الحجاز
رواق الشوام	لأهل الشام
رواق الجاوة	لأهل جزيرة جاوة وما جاورها
رواق السليمانية	لأهل أفغانستان
رواق المغاربة	وبه أقسام: قسم للمراكشيين، وآخر للجزائريين، وآخر للتونسيين، وآخر للطرابلسيين
رواق الأتراك	للترك
رواق اليمن	لأهل اليمن وحضرموت
رواق الأكراد	للأكراد
رواق الهنود	لأهل الهند
رواق البغدادية	لأهل بغداد وما جاورها

رواق الجبرت	وهو للأحباش المسلمين
رواق البرابرة	وهم سُكَّان أعالي الصعيد ما بين مصر والسُّودان
رواق السنارية	لأهل سنار من السُّودان
رواق الدكارنة البرناوية	لأهل برنو من السُّودان
رواق دكارنة صليح	لأهل صليح من السُّودان. ا.هـ.»

(١١-٢) رواق السنارية

في عام ١٢٥٣ هجرية حضر إلى الأزهر الشريف لطلب العلم سناري يدعى محمد علي وداعة. فوجد بالأزهر ستة من السنارية قد سبقوه إليه.

وفي سنة ١٢٥٧هـ قدم هؤلاء الطلبة إلى المغفور له محمد علي باشا الكبير طلبًا يطلبون منه ترتيب خبز لهم. فوافق على ذلك في سنة ١٢٥٨هـ.

وفي عام ١٢٦٦هـ. وافق المغفور له محمد علي باشا على بناء رواق خاص بالسنارية في الأزهر الشريف. وفعلًا تمَّ إنشاء ذلك الرواق الحالي.

وقد زاد الخديوي إسماعيل باشا الخبز الذي يأخذونه من الأزهر. ويوجد الآن من الطلبة السناريين ٣٧ طالبًا، والذين حصلوا على شهادة العالمية من هؤلاء ستة بعضهم يشتغل بالتدريس بالمعهد الأزهري والبعض الآخر يشتغل بالمحاماة الشرعية. وطلبة رواق السنارية ينتمون إلى سبع عواصم مديريات وهي: الأبيض والدويم والخرطوم والدامر وكسلا ومدني وسنجه. ويرجع أصلهم إلى عرب الحجاز؛ فمنهم من ينتمي إلى الأشراف، ومنهم العباسيون، ومنهم جهينة، والقسم الأخير يعد الأكثرية.

ويرجع الفضل إلى هذا الرواق في نشر العلم والعرفان بين أهالي السُّودان.

والشيخ الحالي لهذا الرواق هو الشيخ بشير أحمد عبد الجبار، ولأهل هذا الرواق بالجامع الأزهر الشريف حصة قدرها الربع من وقف المرحومة الست برلنته هانم حرم المرحوم محمد شريف باشا الكبير مشروط صرف ريعها في ثمن خبز، وقد بلغ ريع تلك الحصة عن سنة ١٩٣٣–١٩٣٤ المالية نحو ٢٨٥ جنيهًا مصريًّا.

ولهم أيضًا حصة من وقف المرحوم حيدر أغا الحبشي يصرف ريعها نقدًا لشيخ الرواق وطلبته، بلغ ريعها عن سنة ١٩٣٣–١٩٣٤ المالية نحو ١٥ جنيهًا.

وموقوف أيضًا على هذا الرواق دكان تبلغ أجرتها سنويًّا نحو ستة جنيهات.

رواق برنو: يبلغ عدد طلبة هذا الرواق نحو ١٦ طالبًا بينهم اثنان من العلماء الحاصلين على شهادة العالمية، وعلى رأسهم فضيلة الشيخ سعيد محمد مالك شيخ هذا الرواق.

رواق صليح: يبلغ عدد طلبة هذا الرواق نحو ١٢ طالبًا حسب إحصاء سنة ١٩٣٥م، وشيخ هذا الرواق هو الشيخ آدم بحر.

أوقاف هذين الرواقين: لطلاب رواقي (برنو وصليح) أوقاف خاصة بهم.

فقد وقف المرحوم محمد سرور أغا ١٥ فدانًا، على أن يصرف ريعها بعد وفاته في ثمن خبز لطلبة العلم السُّودانيين برواقي برنو وبرجو بالأزهر.

كما وقف المرحوم المذكور رواقين لسكنى طائفة من مجاوري الرواقين المذكورين ومنزلًا آخر يُصرف ريعه في ثمن خبز للطلاب القاطنين بالرواقين.

رواق الجبرت: يحتوي رواق الجبرت على أربعة أقسام من الطلبة: كلٌّ قسم تابع لدولة من الدول. فمنهم التابع للدولة الإيطالية وعددهم ٢٣ بينهم ٦ من العلماء، وقسم آخر تابع للإمبراطورية الحبشية يبلغ عدد طلبته ١٣ بينهم اثنان من العلماء. وقسم ثالث من الصوماليين التابعين للحكومة الإنكليزيَّة وعدد طلبته ٦. والقسم الرابع من الصوماليين التابعين للحكومة الإيطالية ويبلغ عددهم نحو ٩ منهم عالم. وعلى رأس هؤلاء الطلبة شيخ الرواق فضيلة الشيخ محمد نور بكر من العلماء. وهذا حسب إحصاء ١٩٣٥.

ولطلبة هذا الرواق حصة من وقف المرحوم حيدر أغا الحبشي يصرف ريعها لهم نقدًا، وقد بلغ هذا الريع عن سنة ١٩٣٣–١٩٣٤ المالية نحو خمسة عشر جنيهًا.

رواق البرابرة (دنقلة): يبلغ عدد طلبة هذا الرواق — حسب إحصاء سنة ١٩٣٥م — ٢٢ طالبًا على رأسهم شيخ الرواق، وهو الشيخ محمد وحش.

وليس لطلبة هذا الرواق أوقاف خاصة بهم.

رواق دارفور: يبلغ عدد طلبة هذا الرواق حسب إحصاء سنة ١٩٣٥: خمسة من الطلاب على رأسهم شيخ الرواق، وهو الشيخ سليمان إبراهيم.

وليس لطلبة هذا الرواق أوقاف خاصة بهم.

ولمشايخ الأروقة مرتبات شهرية تصرفها لهم المشيخة من ميزانيتها.

ولكل من هذه الأروقة مساكن خاصة بطلابها على حساب مشيخة الأزهر، وهي مجهَّزة بالماء والنور.

على أن هناك أوقافًا عامَّة تشمل جميع طلاب العلم بالأزهر الشريف.

(١١-٣) طلبة السُّودان بالقسم العام بالأزهر

- شيخ السنارية: الشيخ بشير أحمد عبد الجبار. عدد الطلبة حسب إحصاء سنة ١٩٣٥م: ٣٢.
- شيخ البرابرة (دنقلة): الشيخ محمد وحش. عدد الطلبة حسب إحصاء سنة ١٩٣٥م: ٢٢.
- شيخ دارفو: الشيخ سليمان إبراهيم. عدد الطلبة حسب إحصاء سنة ١٩٣٥م: ٥.
- شيخ صليح: الشيخ آدم بحر. عدد الطلبة حسب إحصاء سنة ١٩٣٥م: ١٢.
- الحاصلون على شهادة العالمية المصريَّة غير نظامية من سنة ١٣٤٩هـ سنة ١٩٣٠م إلى سنة ١٣٥٣هـ: عدد ٣.
- الحاصلون على شهادة العالمية الخاصَّة بالغرباء من سنة ١٣٤٩هـ إلى سنة ١٣٥٢هـ: عدد ٦.
- شيخ رواق البرناوية: الشيخ سعيد محمد مالك.
- شيخ رواق الجبرت: الشيخ محمد نور بكر. ولهؤلاء المشايخ مرتبات شهرية تصرفها لهم المشيخة من ميزانيتها.

(١١-٤) أوقاف أروقة السُّودان

فضلًا عمَّا بينَّا من الأوقاف فيما تقدم نذكر ما يلي:

رواق الجبرت: شيخ الرواق — الشيخ محمد نور بكر.

أوقاف الرواق: لأهل هذا الرواق حصة من وقف المرحوم حيدر أغا الحبشي، يصرف ريعها لهم نقدًا، وقد بلغ ريعها سنة ١٩٣٣–سنة ١٩٣٤ المالية نحو ١٥ جنيهًا.

ووقف للسيدة حفيظة الألفية حصة لم يصرف ريعها بعد. ووقف آخر لأحد السُّودانيين، وهو الحاج رفعت أغا السُّوداني، حصة من أطيانه تؤول إليهم من بعد وفاته.

أوقاف رواق السنارية بالجامع الأزهر: لأهل رواق السنارية بالجامع الأزهر حصة قدرها الربع من وقف المرحومة الست فاطمة برلنته هانم حرم المرحوم محمد شريف باشا الكبير مشروط صرف ريعها في ثمن خبز، وقد بلغ ريع تلك الحصة عن سنة ١٩٣٣م حوالي ٢٨٥ جنيهًا. ولرواق السنارية حصة من وقف المرحوم حيدر أغا الحبشي يصرف ريعها نقدًا لشيخ الرَّواق وطلبته، وبلغ ريعها سنة ١٩٣٣ نحو ١٥ جنيهًا.

وموقوف على هذا الرواق دكان تبلغ أجرته سنويًّا نحو ٨ جنيهات.

أوقاف رواقي برنو وبرجو (البرناوية وصليح) وقف المرحوم محمد سرور أغا خمسة عشر فدانًا على أن يصرف ريعها بعد وفاته في ثمن خبز لطلبة العلم السُّودانيين برواقي برنو وبرجو. كما وقف المرحوم المذكور رواقين لسكنى طائفة من مجاوري الرواقين المذكورين ومنزلًا آخر يصرف ريعه في ثمن خبز للطلاب الساكنين بالرواقين.

(١١-٥) شيوخ الأزهر

وقد أحصى فضيلة الشيخ محمد علي القاضي الطحاوي المراقب بالجامعة الأزهرية ٣٥ شيخًا للأزهر في ٣٥٤ عامًا.

كان الأزهر إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري يتولى أمره مُتَوَلٍّ من قبل حاكم مصر، وأول من تولى منصب المشيخة الجليلة:

(١) الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخراشي المشهور بالخراشي المالكي، وبقي فيها إلى أن انتقل إلى رحمة الله يوم الأحد ٢٧ ذي الحجة سنة ١١٠١هـ.

(٢) المغفور له الشيخ إبراهيم بن محمد البرماوي الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١١٠٦هـ.

(٣) المغفور له الشيخ محمد النشرتي المالكي. وبقي فيها إلى أن توفي أواخر ذي الحجة سنة ١١٤٠هـ.

(٤) المغفور له الشيخ عبد الباقي القلِّيني المالكي. وبقي فيها إلى أن توفي.

(٥) المغفور له الشيخ محمد شنن الجداوي المالكي. وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١١٤٣هـ.

(٦) المغفور له الشيخ إبراهيم بن موسى الفيومي المالكي. وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١١٤٧، وهو آخر من تولاها من السادة المالكية حتَّى عادت إليهم في العقد الثَّاني من القرن الرابع عشر.

(٧) المغفور له الشيخ عبد الله بن محمد الشبراوي الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي أواخر سنة ١١٧١هـ.

(٨) المغفور له الشيخ محمد بن سالم الحفني الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي أواخر ربيع الأول سنة ١١٨١هـ.

(٩) المغفور له الشيخ عبد الرؤوف بن محمد السجيني الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي في منتصف شوال سنة ١١٨٢هـ.

(١٠) المغفور له الشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري الحنفي المالكي الشافعي الحنبلي، وبقي فيها إلى أن توفي أوائل رجب سنة ١١٩٢هـ.

(١١) المغفور له الشيخ أبو الصلاح أحمد بن موسى العروسي الشافعي، وبقي فيها إلى أن توفي أواخر شعبان سنة ١٢٠٨هـ.

(١٢) المغفور له الشيخ عبد الله بن حجازي الشرقاوي الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي أوائل شوال ١٢٢٧هـ.

(١٣) المغفور له الشيخ محمد بن علي الشنواني الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي أواخر محرم سنة ١٢٣٣هـ.

(١٤) المغفور له الشيخ محمد العروسي الشافعي بن الشيخ أحمد العروسي (الحادي عشر)، وبقي فيها إلى أن توفي ١٢٤٥هـ.

(١٥) المغفور له الشيخ أحمد بن علي الدمهوجي الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي يوم عرفة سنة ١٢٤٦هـ.

(١٦) المغفور له الشيخ حسن بن محمد العطار الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي أواخر ذي الحجة سنة ١٢٥٠هـ.

(١٧) المغفور له الشيخ حسن القويسني الشافعي الضرير. وبقي فيها إلى أن توفي في ذي القعدة سنة ١٢٥٤هـ.

(١٨) المغفور له الشيخ أحمد بن عبد الجواد الصائم السفطي الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي في شعبان سنة ١٢٦٣هـ.

(١٩) المغفور له الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري الشافعي. وبقي فيها إلى أن توفي في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٧٧هـ (إلا أنه قبل وفاته ضعف عن القيام بأعمال المشيخة، فأجمع الأمر على إقامة أربعة من العلماء يقومون مقامه، وصدر الأمر بذلك من والي مصر المرحوم سعيد باشا في محرم سنة ١٢٧٥هـ بانتخاب الشيخ إسماعيل

الحلبي الحنفي، والشيخ مصطفى الصاوي الشافعي، والشيخ خليفة الفشني الشافعي، والشيخ أحمد كبوه العدوي المالكي. وبعد وفاة الشيخ الباجوري ظل المنصب شاغرًا يُديره من بقي من هؤلاء الوكلاء وهما: الشيخ خليفة الفشني المتوفى يوم السبت ١٧ محرم سنة ١٢٩٣هـ، والشيخ أحمد كبوه العدوي المتوفى في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٢١هـ، وبقي الأمر كذلك إلى سنة ١٢٨١هـ.

(٢٠) وتقلدها في سنة ١٢٨١هـ المغفور له الشيخ مصطفى العروسي الشافعي، كما تولاها أبوه وجده من قبل. وبقي فيها إلى أن أقيل في شوال سنة ١٢٨٧هـ.

(٢١) المغفور له الشيخ محمد المهدي العباسي الحنفي، وهو أول من تولاها من السادة الحنفية. وقد بقي فيها إلى أن أقيل منها في ١٣ محرم سنة ١٢٩٩هـ «نزولًا على إرادة العرابيين».

(٢٢) المغفور له الشيخ محمد الإنبابي الشافعي. وبقي فيها إلى أن استقال منها في ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ.

(٢٣) المغفور له الشيخ محمد المهدي العباسي الحنفي «مرة ثانية»، وبقي فيها إلى أن استقال منها موفور الكرامة عزيز النفس والجانب في أوائل ربيع الثَّاني سنة ١٣٠٤هـ.

(٢٤) المغفور له الشيخ محمد الإنبابي الشافعي «مرة ثانية». وبقي فيها إلى أن استقال منها في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣١٢، وقبلت استقالته في ٢ محرم سنة ١٣١٣هـ.

(٢٥) المغفور له الشيخ حسونة النواوي الحنفي، وقد بقي فيها إلى أن أقيل منها في أواخر محرم سنة ١٣١٧هـ «بسبب الزوبعة المعروفة في مجلس شورى القوانين؛ ممَّا يشهد للمغفور له بعزة النفس والمحافظة على الكرامة التي كان يرى — قدَّس الله روحه — أنَّها ليست ملكًا له، بل هي ملك لأهل العلم أجمع».

(٢٦) وتقلدها بعده ابن عمه المغفور له الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي الحنفي، وبقي فيها إلى أن انتقل إلى رضوان الله في ٢٥ صفر سنة ١٣١٧.

(٢٧) المغفور له الشيخ سليم البشري المالكي. وبقي فيها إلى أن أقيل منها في أوائل ذي الحجة سنة ١٣٢٠، بسبب «حادث مسجد السيدة نفيسة (رضي الله عنها) مع الخديوي السَّابق عباس حلمي».

(٢٨) المغفور له السيد علي محمد الببلاوي المالكي، وقد بقي فيها إلى أن استقال منها في أوائل محرم سنة ١٣٢٣هـ صيانةً لكرامته وضنًّا بها من أن تُمسَّ بسوء.

(٢٩) وتقلَّدها بعده في ١٣ محرم سنة ١٣٢٣هـ المغفور له الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي، وبقي فيها إلى أن استقال منها في ذي الحجة سنة ١٣٢٤هـ.

(٣٠) المغفور له الشيخ حسونة النواوي الحنفي «مرة ثانية»، وبقي فيها إلى أن استقال منها بشمم وإباء وعزة نفس في ربيع الأول سنة ١٣٢٧هـ.

(٣١) المغفور له الشيخ سليم البشري المالكي «مرَّة ثانية»، وقد بقي فيها إلى أن انتقل إلى رضوان الله في أوائل ذي الحجة سنة ١٣٣٥هـ.[١٢]

(٣٢) المغفور له الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي المالكي، وقد بقي فيها إلى أن انتقل إلى رضوان الله في منتصف محرم سنة ١٣٤٦هـ «وقد ظلت الوظيفة شاغرة أكثر من عشرة أشهر».

(٣٣) وتقلَّدها ابن مجدتها فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد مصطفى المراغي الحنفي في ذي القعدة سنة ١٣٤٦هـ، وبقي فيها إلى أن استقال منها مرفوع الرأس وافر الكرامة في نهاية ربيع الثَّاني سنة ١٣٤٨هـ.

(٣٤) وتقلدها بعده الشيخ محمد الأحمدي الظواهري الشافعي، وبقي على الأزهر مدة خمس سنين وسبعة أشهر إلَّا أيامًا، حيث استقال من المشيخة مساء الجمعة ٢٣ محرم سنة ١٣٥٤هـ كنتيجة لإضراب الأزهريين ومطالبتهم بإعادة فضيلة الشيخ المراغي شيخًا للجامع الأزهر. وقد أعيد فضيلته للمشيخة، ولا يزال بها.

(١٢) السودانيون بالجيش المصري

هذا بيان أسماء حضرات الضبَّاط السُّودانيين الذين عادوا من السُّودان بعد حوادثه سنة ١٩٢٤، وبعد نزول الجيش المصري من السُّودان، وهم الذين رفضوا حلف يمين الولاء لحاكم السُّودان العام، وتمسكوا بولائهم لحضرة صاحب الجلالة مليك البلاد — وهم الذين أعيدوا للخدمة بوزارة الداخلية في أغسطس سنة ١٩٢٧، وظلوا بها حتَّى الآن، وهم:

حضرات البكباشيين إبراهيم عبد الرحمن مفتش خفر مديرية أصوان، وخضر علي أُحيل للاستيداع في أول يونيو ١٩٣٥، ومحمد صالح جبريل مفتش خفر مديرية جرجا، وعبد الله النجومي أفندي، وهو نجل الزعيم الكبير بالسُّودان المرحوم عبد الرحمن ولد النجومي الذي حاول الوصول للقطر المصري في عهد عبد الله التَّعايشي ملك السُّودان وقتئذ، وقد قتل النجومي في بلدة توشكى بعد معركة مع قوات الجيش المصري — ضابط بسبورتات بالإسكندرية، وفرج الله محمد أفندي قومندان بلوك خفر الإسكندرية،

والصاغ زين العابدين عبد السلام أفندي قومندان هجَّانة بوليس المينا واليوزباشية: عبد الدايم محمد أفندي قومندان هجانة بوليس الجيزة، وسيف عبد الكريم أفندي ضابط مرور مديرية جرجا، وإبراهيم فرج علام أفندي ضابط مرور مديرية المنيا، واليوزباشي عبد العزيز عبد الحي أفندي ضابط مرور مديرية القليوبية، وعبد الله أفندي مرجان ببلوكات خفر الأقاليم بمصر، والملازمان الأولان عبد الحميد أفندي فرج الله ضابط خفر بالسكة الحديد بالمنيا، والسيد أفندي شحاته ضابط خفر بالأقاليم بمصر.

هوامش

(١) المقصود من فقيه ويدعى في السُّودان «فقي أو فكي»: هو الذي يعرف بالعامية المصرية «الفقي»، وهو معلم حفظ القرآن الكريم في «الكتاتيب».

(٢) راجع صورته وترجمة حياته في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٣) ص٢٦٠ من كتابه الإنكليزي المصري طبعة لندن.

(٤) المقصود بالإدارة الأهلية هو النظام الجديد المنشئ لمحاكم أهلية تشبه محاكم الأخطاط في مصر سابقًا، ويرأسها نظار القبائل.

(٥) راجع الباب الخاص بالسودان في تقرير ملنر سنة ١٩٢١

(٦) راجع ص٢٦٦ من كتاب السُّودان الإنجليزي المصري بالإنجليزية تأليف ماكميكل.

(٧) كان تعليم أبناء الجنوب في عهد الحكم المصري في الكتاتيب باللغة العربية، التي سرعان ما كانوا يتعلمونها ويدخلون الإسلام في غير إكراه، بل بمجرد اجتماعهم ببعض المسلمين ورؤيتهم وهم يصلون أو يتعلمون.

(٨) فتح محمد علي للسودان.

(٩) هي مصر القديمة الآن.

(١٠) ولما حضر المعز الفاطمي من المغرب إلى مصر بعد أربع سنوات سماها «القاهرة المعزية».

(١١) عصيدة باللحم.

(١٢) يلحظ أن شيوخ الأزهر كانوا يستمرون في المشيخة حتى وفاتهم. ولكن في العهد الأخير كثرت إقالتهم واستقالتهم. وإني أعلل ذلك بسبب تدخل السياسة بالأزهر في العهد الأخير.

الفصل الثلاثون

الأدب في السُّودان

كان للقبائل العربية النازحة إلى السُّودان في عصور التَّاريخ المختلفة ولطبيعة البداوة التي شاهدتها في مهابطها ومنتجعاتها أثر في إيجاد شعر أشبه موضوعًا بشعر الأقدمين، شعر ينزع إلى الحماسة، والفخر بالعشيرة، والأنفة، وإباء الضيم، والحب، والرثاء، وغير ذلك. وقول الشعر لديهم سهل ميسور بفضل روحهم العربية، وطبيعة بلادهم. غير أن هذا الشعر ليس فصيحًا متَّفقًا مع قواعد العربية وأوزان الشعر إلَّا إذا صدر عن الذين اتصلوا بلغة العرب اتصال تعلم وتثقُّف، ثمَّ هو يحتذي الشعر المصري في تطوره، وتغلب عليه النزعة الدينية وروح الإيمان. انظر إلى قول المرحوم الشيخ مكي الدقلاشي أحد شعرائهم من قصيدة:

الله لي عدةٌ في كلّ نائبةٍ أقول في كلِّ حال حسبي اللهُ
يا فاعلًا للمعاصي عند خلوتِهِ أما علمت بأن الشاهد اللهُ

وانظر إلى قول صاحب الفضيلة المرحوم الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم شيخ العلماء:

وسائل الناس عنَّا إنَّنا نجبٌ لنا التقى وسوانا اللهو واللعبُ
وفي المحامد لا يُلفَى لنا بدلٌ وما تعدى حمانا الظُّرف والأدبُ

وانظر إلى قول الشيخ الحسين الزهراء في المهدي مؤيدًا دعوته، ذاهبًا بها مذهب المتصوفة وأهل الطريق:

وإن كان علم العقل غير موصلٍ   إلى شرح علم السر إذا لم يزل قشرا
قديمًا أرتنا من وراء خبائها   ستور رسوم لم تزل للعلا سترا
بنفسي فتًى بالشمس راد الضحى أزري   ونورًا يفوق النور والنجم والبدرا

وانظر إلى قول الشيخ الأمين محمد الضرير المحسي الأنصاري في توفيق باشا خديوي مصر لما عيَّنه رئيسًا للشيوخ في مسجد أسَّسه للعلم:

أما حويتم بتوفيق العزيز حمًى   أبعد توفيق رب العز خذلانُ؟!

وبجانب هذا الشعر المجيد الذي غزته الروح العلمية المنتشرة حينًا بعد حين على يد مصر، تجد شعراء آخرين تغلب على ألسنتهم رطانة البدو.

انظر إلى قول أحد شعرائهم «أبو جروس» في عهد الأرباب يمدح الملك حمد ابن الشيخ إدريس الأرباب من قصيدة:

ولد القرشي ضيفانهماية وألفينْ   هيلك هيل أبوك يا جامع الشرفينْ

ومن شعرائهم المجيدين الذين أخذوا عن جمهرة من الأساتذة المصريين الذين قاموا بالتدريس بكلية غوردون الشيخ عبد الله البنا، ومن شعره يخاطب الهلال:

يا ذا الهلال عن الدنيا أو الدين   حدِّث فإنَّ حديثًا منك يشفيني
طلعت كالنون لا تنفك في صغرٍ   طفلًا وإنَّك قد شاهدت ذا النونِ
سايرت نوحًا ولم تركب سفينتهُ   وأنت أنت فتًى في عصر زبلينِ

أمَّا المحدثون من الشبَّان فنزعتهم إلى الشعر لا تقل عن سابقيهم، وهم يتتبَّعون بانتباه روح مصر في نزعاتها، ويكادون يلتهمون شعرها ونثرها وعلمها التهامًا، ومن أولئك الشبان الذين تقوى فيهم النزعة الشعرية زين العابدين أفندي إبراهيم طالب بمدرسة كتشنر الطبية، ومن شعره في الرثاء:

ناح هذا الطير في أفنانِهِ بافتتان في عبارات النحيبْ
غنِّنَا بالله ألحان الأسى فوداع المرء للروح قريبْ
إنَّما الدنيا خيال زائلٌ كل حي في زواياها غريبْ

أمَّا النثر فلم ينل الحظ الذي ناله الشعر لديهم؛ إذ لم يزل للسَّجع سلطان في الكتابة على كثرة الكاتبين، وكان المرحوم محمد عباس أبو الريش من الأدباء الذين امتازوا بحصافة الرأي، وقوة التعبير، وفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عثمان القاضي رئيس تحرير حضارة السُّودان من أرباب القلم القادرين على إبراز المعاني الدقيقة في عبارات خلَّابة طلية.

ويدخل في منطوق كلمة «النثر» أمثالٌ وحكمٌ سارت على لسانهم كما سارت الأمثال قديمًا على ألسنة العرب، وكما كانت الحكمة تُلقى من أفواههم فإذا هي نور وهدى.

ومن هذه الأمثال قولهم:

«الْبِتْسَوِّي تِلْقَى» يريدون: ما تعمل من عمل تجد جزاءه خيرًا أو شرًّا، و«الجعلي بعدي يودعه خنق» يضربونه للرجل الشجاع الذي لا يبالي بأحداث الأيام وهمومها، و«لا محمد في القراية ولا فاطمة في السقاية» يضربونه عندما يُعيِّرون رجلًا عقيمًا أو امرأة عقيمًا.

وممَّا يلفت النَّظر أن كثيرًا من ألفاظهم المتداولة عربية فصيحة، فمثلًا تقول المرأة عندما تريد أن تغتسل: أريد أن أتبرد بالماء «وكلمة أتبرَّد كلمة عربية فصيحة». قال عمر بن أبي ربيعة القرشي:

زعموها سألت جارتها وتعرت ذات يوم تبتردْ
أكما ينعتني تبصرنني عمركن الله أم لا يقتصدْ

ويقولون: «أنت يا زول» يعني يا إنسان، وهي عربية ولكن بفتح الزاي، وهو الظريف من كلِّ شيء، قال الحطيئة يصف ناقته:

همها الأعور الهجان مباري الريح للشريحية الأزوال

وخلاصة القول: إن الأدب اليوم يحمل في ثناياه طابعًا عربيًّا إسلاميًّا مصريًّا متأثرًا بلون من ألوان الثَّقافة الفرنجية. إذ الثَّقافة في السُّودان تتغذى من ينابيع كثيرة:

(١) فهي تتغذى من الينبوع العربي الأصيل الفياض؛ ولذا ففيها شجاعة، وفيها كرم، وفيها وفاء، وفيها حماسة، وفيها مروءة.

(٢) وتتغذى من الينبوع الإسلامي؛ ولذا فللدين فيها نصيب كبير، وللقرآن حظ عظيم، وللأحاديث النبوية سيادة واسعة، وللأخلاق الإسلامية سيطرة روحية نافذة، وحافظة واعية، لا سيَّما بوجود المعهد العلمي بأم درمان ودروس القرآن في المعاهد الصغيرة، واحترام المذاهب.

(٣) وتتغذى من الثَّقافة الأدبية المصريَّة بما يقرأه الشبان من كتب وجرائد ومجلات مصرية. وممَّا يحفظونه من قصائد الشعراء المصريين، وكلمات كبار الكتاب وأساطين الصحافة المصرية، وممَّا يتأثرونه من أساليبهم، التي أصبحت متجددة، وأضحت مبتكرة، متنافسة، متبارية، في الصيغ والجمال والروح والمعاني.

(٤) وأخيرًا وجدت الثَّقافة السُّودانية ينبوعًا جديدًا، في الثَّقافة الإنكليزيَّة — في التَّعليم في كلية غوردون، وفي تعليم بعض الشبان الأذكياء في مدارس القاهرة وجامعة بيروت الأمريكية وفي لندن، وفي وجود عدد كبير من الموظفين الإنكليز، وبينهم خريجو الجامعات وأبناء المدرسة الإنكليزية، وفيما توافرت عليه النخبة الفنية المتعلمة من مطالعة الكتب الإنكليزية.

ويلوح لي أن الثَّقافة السُّودانية ستتَّجه في المستقبل — إذا ظلَّت متجددة أو مُحبَّة للتَّجديد — إلى انتحاء الثَّقافة المصريَّة والأخذ بقليل من الثَّقافة — الإنكليزيَّة الخالصة؛ لأنَّ في الثَّقافة المصريَّة الجديدة نفسها مزيجًا من الثَّقافة الإسلامية والثَّقافة الإنكليزية.

على أنَّ حديث الثَّقافة السُّودانية يجب أن ينبِّه كلَّ متحدِّث عن الثَّقافة، إلى ذلك التَّطور العالمي البارز، فإنَّ الثقافات أصبحت متداخلة، ونحن نوشك أن نرى العالم كله تغمره ثقافة واحدة؛ لأنَّ العالم في سبيل أن يحيا حياة متماثلة، في التوافر على استعمال الآداب والطائرات وأساليب الدفاع، وصيغ المجاملات، والولائم، ولأنَّ المواصلات قد تعدَّدت، ولأنَّ

العارفين باللغات الأجنبية يكثرون، ولأنَّ الكثير من المنتجات الأدبية والتاريخية وما إليها يُترجم إلى اللغات الأخرى.

وهناك حقيقة أخرى — يجب أن يذكرها الذاكرون — ذلك أنَّ في البلد الواحد — ولا سيَّما ما كان في اتساع الأطراف كالسودان — تتنوع الثقافات، وذلك أنَّ الثَّقافة الجديدة، وإن بدا أنَّها وقف على قلة صغيرة، فهي التي بيدها المستقبل ولها الانتشار؛ لأنَّ الإنسان يملُّ القديم، ولأنَّ القديم نفسه يهرم ويبلى.

قال عطوفة الأمير شكيب أرسلان عن الشعر في السُّودان:

بيني وبين الشاعر «السوداني» عثمان حسن بدري في رثاء كلٍّ منا لأخيه فإنَّه هو يقول:

لو كان كلُّ الناس مثلك في التقى ... ما احتاج هذا الناس للتشريعِ

وأنا أقول في المرحوم أخي نسيب:

لو كانت الناس في الدنيا نظيرك لم ... تحتج لعمري لحكام وعمالِ

ولا شكَّ أنَّ كلًّا منَّا لم يطلع على بيت الآخر؛ فإنِّني أنا رثيت أخي «نسيبًا» سنة وفاته، أي من ثماني سنوات، ولم أنشر رثائي له بعد لأقول إنَّ هذا الشاعر اطَّلع عليه فبقي في ذهنه هذا المعنى، وسينشر هذا الرثاء قريبًا في ديواني الذي هو تحت الطبع بمطبعة المنار، كما أنه سينشر في ديوان أخي رحمه الله الذي هو اليوم أيضًا تحت الطبع في دمشق الشام. وأمَّا أنا فما اطلعت على هذه المرثية التي لعثمان حسن بدري إلَّا في عدد في محرم الجاري من جريدة «الجهاد»، ولم تكن هذه المرثية ممَّا أورده الأستاذ عثمان هاشم في جريدة السِّياسة من قبل. وقد رأيت ممَّا رأيته من العجب في نوادر الخاطرين أن أضع أمام أنظار القراء في وقت واحد رثاء السيد عثمان حسن لأخيه ورثاء كاتب هذه السطور لأخيه، فهو يقول:

هل تنطفي حرق الأسى بدموعي ... وتُعين صبري أو تُعيد هجوعي

وهذا المعنى لا شكَّ في أنَّه مطروق، ولكنني أنا منذ شهرين كنت أقول في مطلع رثائي للحاج عبد السلام بنونة فقيد المغرب رحمه الله ما يلي:

يا مدمعيَّ اكفياني نار أحزاني فقد عهدتكما من خير أعواني
نارٌ تأججُ في قلبي فهل لكما أن تطفئاها بتسكاب وتهتانِ

ثم يقول:

هيهات مات أخي وتلك رزيةٌ أفلت ببدر لم يعد لطلوعِ
هيهات مات أخي وتلك مصيبةٌ طاحت بكوكب معشري وربوعي
رحب الفؤاد فلا تراه معبسًا لنزول نائبة ولا بجزوعِ
ولهي عليه فلا أراه بمنقضٍ أبدًا ودمعي فيه غير منوعِ

وأنا أقول في أخي:

إن طالما كانت الأحزان زائلةً مع الزمان فحزني غير زيالِ

ثم يقول:

يرنو إليَّ بعينه ولسانِهِ عقد الضنى أطرافه بنسوعِ
حتى أناخ اليأس حول رجائِهِ وتسارعت آماله لنزوعِ
ألقى إليَّ يديه في ترجافها فمسكت كفًّا منه ذات صنيعِ

يصف احتضار أخيه رحمه الله، وكيف كان خروج نفسه الأخير. وأمَّا أنا فلم يكن لي — واحسرتاه — أن أودِّع أخي ولا أن ألقي عليه النظرة الأخيرة؛ لأنَّ المحتل لبلادي يمنعني من دخولها بجريمة أنِّي أدافع عن استقلالها.
ثم يقول:

قد كنت درعي في المكارِهِ كلها فالآن بعدك قد وهين دروعي

وهذا مثل قولي:

شعرت إذ ذاك أن لا أزر ينهض بي   وأنني رازح من تحت أثقالي

ثم يقول:

لله نفسك ما أشم صفاتها   وأبرّ في ضنك وفي توسيعِ
ويلم دائك لم يراع يتيمةً   أضحت تمني نفسها برجوعِ
ظنت مضيك كاغترابك قبل ذا   لبناء مجد أو لدفع شنيعِ
فتغمدتك من المهيمن رحمةٌ   وسقت ضريحك كلُّ ذات هموعِ

وأمَّا رثائي لأخي فهو هذا:

نسيب قد كان ساري الطيف أبدى لي   رؤيا تناهى بها ذعري وإجفالي
رأيت في دارنا الأفواج أشبه بالأ   مواج ما بين إدبار وإقبالِ
فقمت والبال مني كاسف قلقًا   مستقبلًا من حياتي كلَّ ذي بالِ
وما مضت ساعة إلَّا أذنت بها   مصيبة حقَّقَتْ خوفي وأوجالي

ومن قصيدة ألقاها الشيخ مدثر علي البوشي القاضي الشرعي بمناسة المولد النبوي سنة ١٣٤٢هـ، تليت بسرادق الحكومة بأم درمان عند زيارة الحاكم العام، وكان لها أثر شديد في النفوس وصدًى بعيد حتَّى ترجمت يومئذ مع النثر إلى اللغة الإنكليزيَّة، وسارت مسير الأمثال.

نأت بك عن ذات الحجال الرواسمُ   فقلبك مقسوم وبينك قاسمُ
مدامع تذريها من البين مثلما   همت من خلال المرسلات غمائمُ
جراح بأعماق النفوس نفرتها   وهيهات منها أن تفيد المراهمُ
أنين ولا كالثاكلات ومهجةٌ   براها حنين قلدته الحمائمُ
عيون ولا كالمرهفات تألبت   عليها جيوش الهم والهم لازمُ
ترفَّق فما يُجدي البكاء ولا أرى   من الخير ما يلقاه في الناس نائمُ

أرانا هجرنا الدين والدين معقل فما خير دين لم يؤيده قائمُ
أرى البدعة الحمقاء أرخت سدولها على السنة الغراء أين الصوارمُ

إلى أن قال:

إليك رسول الله والخطب فادحٌ تطل نفوس أرهقتها الأشائمُ
عنتها سهام المفسدين فأسبلت بليلتك الغرا دموع سواجمُ
فلا تبتئس يا من تريد جوارَهُ ستعلم بعد الغرم أنك غانمُ
ولي ذمة في الله لا أخفرنَّها وفي شأن قومي فلتلمني اللوائمُ
ومالي وللأيام أخشى نزالها (وأحمد) عون للضعيف وعاصمُ
فلا تلهيَنِّي بالزمان وأهلِهِ فإن فؤادي منه للغيظ كاظمُ

(١) أسماء الشعراء

هم الأساتذة والشيوخ والأفندية:

الحسين الزهراء عالم أزهري، والأمين محمد العزيز شيخ العلماء سابقًا، وإبراهيم شريف عالم، وأبو القاسم هاشم شيخ المعهد العلمي بأم درمان، وإسماعيل عبد القادر المفتي عالم أزهري، والطيب أحمد هاشم مفتي السُّودان سابقًا، وأحمد المرضي قاضٍ شرعي، وأحمد محمد صالح ناظر مدرسة ابتدائية، وإبراهيم محمد مدني قاضٍ شرعي، والطيب السراح مترجم بحكومة السُّودان، وأحمد يوسف نعمة، والسيد الباقر الشيخ إسماعيل عالم ومدرس جامع الخرطوم سابقًا، وتوفيق أحمد بالجامعة المصرية، وحسيب علي حسيب كاتب بالمحاكم الشرعية، وصالح عبد القادر موظف بالبوستة سابقًا، ومدثر علي باشا قاضٍ شرعي، وعبد الله محمد عمر البناء مدرس بالمعارف، وعبد الله عبد الرحمن، وعبد الله حسن كردي موظف بالحكومة سابقًا، وعبد الرحمن شوقي مهندس، وعبد الحميد وصفي موظف سابقًا، وعثمان هاشم، وعلي الشامي، وعمر الأزهري عالم أزهري، ومجذوب جلال الدين مدرس بالمعارف، ومحمد عمر البنَّاء عالم أزهري ومفتش المحاكم سابقًا، ومحمد سعيد العباسي خليفة سجادة، ومحمد الطاهر المجذوب، ومحمد حافظ الأمير موظف، ومحمد أنيس موظف، ويوسف نعمة عالم، ومحمد مضوي عالم أزهري جليل، ولد يفادي عالم، وإبراهيم عبد الدافع عالم،

القاضي السلاوي عالم وقاضٍ سابقًا، وتوفيق صالح جبريل مأمور، والصاوي عبد الماجد عالم، وحسن عمران زهري مدرس بالمعارف، ومكاري يعقوب مهندس سابقًا، ويوسف القاضي مدرس، وإبراهيم أبو النور عالم بمعهد أم درمان، والسيد البكري الشيخ إسماعيل صوفي. ومحمد عبد الوهاب القاضي طالب علم، محمد الأمين القرشي قاضٍ شرعي، التجابي أفندي يوسف بشير موظف وله ديوان شعر، محمد أحمد محجوب مهندس بالأشغال، يوسف مصطفى التني موظف، محمد كوبادي مهندس.

السير برسي لورين سفير إنكلترا بأنقره والمندوب السَّامي البريطاني في مصر سابقًا من سنة ١٩٢٩–١٩٣٣.

الفصل الحادي والثلاثون

الإسلام والأديان في السُّودان

السودان معقل من معاقل الإسلام، وقد وفد عليه العرب المسلمون من مصر، وبه قبائل عربية، تعتز بالإسلام، وقد تتعصب له تعصب المؤمن بدينه، العارف قدر غيره، المحترم للأديان الأخرى.

(١) البعثات التبشيرية

وقديمًا وفد على السُّودان بعثات تبشيرية، ولها مناطق تعمل فيها، ومدراس ومستشفيات تنشئها.

(١-١) لوائح بعثات التبشير المسيحية في السُّودان سنة ١٩٣٣

وضعت الحكومة لوائح لهذه البعثات، وهي تعمل في بلاد الزنوج وهي في الجنوب، ولا يجوز لها العمل في البلاد التي يسكنها مسلمون وتنال إعانات من الحكومة. ولا يجوز للمسلمين نشر دينهم في هذه المناطق.

(١-٢) البعثات — مناطق البعثات

لا يجوز إنشاء مراكز للتبشير في أي جهة من خط العرض الشَّمالي في أي نقطة من السُّودان ممَّا تعده الحكومة مسلمًا في جنوبي الخط العاشر من مناطق خط العرض الشمالي. وتمنح مناطق للعمل كما يلي:

جمعيات التبشير البريطانية: حدودها: غربًا من غابات العرب على بحر الغزال إلى بحر الغزال حتَّى جهة مشرع الرق، ثمَّ مباشرة إلى اتصال حدود الكونغو البلجيكية

تاتوج أو دوليب حيث توجد البعثة التبشيرية البروتستانتية الأمريكية على السوباط.

وأفريقيا الفرنسية الاستوائية والسُّودان. وشمالًا من غابات العرب «وإنكاني» إلى بحر الغزال والنيل الأبيض بين بحر الزراف وبحر الجبل، وجنوبًا إلى أجونج. وغربًا حتَّى حدود الحبشة. وجنوبًا من حدود الحبشة إلى النِّيل الأبيض.

منطقة البعثة الكاثوليكية: غربي منطقة البعثة البريطانية.

البعثة الأمريكية: في وادي السوباط وعلى حدود منطقة البعثة البريطانية.

منطقة خالية: بين منجلا وشمال أوغندا الجنوبية وغربي الحبشة.

مناطق بعثة السُّودان المتحدة: في بعض جهات كردفان مع استثناء البلاد الإسلامية.

مركز البعثة التبشيرية للكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

ويجب على كلِّ بعثة أن تكون تحت رقابة الرئيس الإداري، وأن يخضع أعضاؤها لقوانين السُّودان ولوائحه، وأن تحصل على تصريح من الحاكم العام للسُّودان للقيام بمهمتها، ولتأجير الأراضي.

الفصل الثاني والثلاثون

الحياة الاجتماعية والصحافة والعادات

(١) الأغاني السُّودانية

للأغاني السُّودانية نغمة غريبة بالنسبة لأذواق أهل مصر. ولكنَّها نغمة محبوبة ومعانيها خير من معاني الأغاني المصريَّة الخليعة الماجنة. وإليك مثال من الأغاني السُّودانية المتأثرة بالسليقة العربية.[1]

ويعد الحاج محمد أحمد سرور مطرب السُّودان الأول. وهو الآن بمصر يتلقى مع بعض زملائه دروسًا في الموسيقى بمعهد الموسيقى الشَّرقي وأقام حفلات.

ومن الأغاني السُّودانية:

شوف محاسن حسن الطبيعة   تلقى هيبة وروعة وجلالْ
صاح شاهد ها هي الطبيعة   زاهية زاهرة بزهور ربيعةْ
دور سواقي يسرف نبيعه   ما في شتله السايم يبيعهْ
ما في صيده انقادت تبيعه   ذوق محاسن حسن الطبيعةْ
لا تصنع وصبغة دلالْ
شوف نواحي الوادي الخديرة   والحمايم يشجيك هديرهْ
تلقى بدري التم في غديرهْ   هي المحاسن وأنا قلبي ديرهْ
صاح املأ عيناك وديرهْ   شاهد إيد الصانع القديرةْ
تملأ بهجة وعظمة وجلالْ
فوق هضاب الوادي الوثيرة   الزهور منظومة ونثيرةْ
عن جمال البدو نروي سيره   عن محاسن البادية الكثيرة

والجداول في حال مسيره في جبين التل زي مسيرهْ
والغدائر حول الهلالْ
شوف هداك الصيدلج شارف يرعى ناله الحول المسارفْ
اوع من الخور سيله جارفْ ميل شمالك وابري المصارفْ
عج على السيال ظله وارفْ داني بنت البدو وانت عارفْ
بل شفاي من دائي العضال
أهوى يا أخي السكنت براحهْ في هدؤها وعيشة انشراحهْ
في غدوها وساحة مراحهْ يهوى فيها الحيا والصراحةْ
ما يتجول بكرب[2] خاضه راحةْ يا أخي بهوى جاره مراحهْ
في ربوعه الخلف التلالْ
شوف جمال البدو ما مضارا شوف دي صفراء انفضحت نضارا
هاديه ناديه الفائق حضارا دون تجندر[3] ولهجة حضارا
شوف طبيعة البها والنضارا شيء يعيد الروح في احتضارا
الخضار والماء والجمالْ
دون فصاده سوَّاك إلهكْ والأبار ما لمست شفاهكْ
بي فظاظه ما فاه فاهكْ فطره أدبك وطبعه انتباهكْ

(٢) الصحافة في السُّودان

(١) أول جريدة أنشئت هي جريدة الغازيتة السُّودانية «الجريدة الرَّسمية»، ونشرت في أول أعدادها نص اتِّفاق ١٨٩٩. وكانت الغازيتة العسكرية للجيش المصري تطبع في الخرطوم عند وجود الجيش والسردار بها.

(٢) بعدها أنشئت جريدة «السودان»، وكانت تصدر مرتين في الأسبوع، وأصحاب امتيازها هم الدكاترة أصحاب المقطم، والذي تولى شؤونها إدارةً وتحريرًا هو حضرة صاحب العزة الأستاذ خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم الآن، وقد انتهى عهدها سنة ١٩٢٥. وكانت لها إعانة من الحكومة.

(٣) مجلة «غرفة التجارة السُّودانية»، وهي مجلة اقتصادية، ولا تزال قائمة إلى الآن.

(٤) جريدة «الخرطوم» ولدت في سنة ١٩٠٩ لصاحبها المرحوم أسعد يسي المساح الذي كان قد وصل الخرطوم مكاتبًا لجريدة «الظاهر» لصاحبها المرحوم محمد أبو شادي بك.

(٥) «كشكول المساّح»، وقد قام على أنقاض جريدة «الخرطوم» لصاحبه المرحوم أسعد يسي المساح المنوَّه عنه آنفًا. وكان دينيًّا مسيحيًّا.

(٦) جريدة «رائد السُّودان»، وأصحاب امتيازها هم أصحاب مطبعة فيكتوريا من رجال الجالية اليونانية، وقد تولى تحريرها الأستاذ عبد الرحيم قليلات السوري البيروتي الذي كان موظفًا بمصلحة البواخر بحكومة السُّودان إلى سنة ١٩١٥. وكان يشترك في تحريرها طائفة من كبار الكتاب والأدباء أذكر منهم حضرات الأستاذ محمد توفيق، وهو الموظف بوزارة الخارجية الآن، والأستاذ محمد توفيق بدري الذي كان موظفًا بمصلحة المراجع العام بالخرطوم، ويقيم الآن في السُّودان بعد أن تقاعد بالمعاش، والأستاذ حامد عوضين سعفان الموظف بالمالية المصريَّة الآن وصاحب الأبحاث الممتعة عن السُّودان وغيرهم من حملة الأقلام الوطنيين والمصريين. ولما اعتزل رئيس تحريرها خدمة حكومة السُّودان في سنة ١٩١٥ أسندت رياسة تحريرها إلى الأستاذ المرحوم «السيد حسين شريف» المتخرج من كلية غوردون، فتولاها إلى سنة ١٩١٩، حيث توفيت تلك الصحيفة إلى رحمة مولاها.

(٧) «حضارة السُّودان» (١): أخذ امتياز إحداها جماعة ساهموا في رأس مالها، وفي طليعتهم السر السيد عبد الرحمن المهدي، وهم الشيخ عثمان صالح التاجر المشهور بأم درمان، والشيخ محمد عكاشة خليل خيال، والشيخ عبد الرحمن جميل التاجر بكوستى، والشيخ محمد أحمد نقد التاجر بأم درمان، والشيخ حسن أبو الفاجر بالأبيض، والمرحوم السيد حسين شريف الذي تولى تحريرها، وقد شاركه في تحريرها فضيلة الشيخ أحمد عثمان القاضي، ولم تكد تسلخ عامها الأول حتَّى لحقت بالخالدات سنة ١٩١٩.

(٨) «حضارة السُّودان» (٢): قامت على أنقاض الحضارة الأولى وأصحاب امتيازها السادة علي الميرغني، والسيد عبد الرحمن المهدي، والشريف يوسف الهندي. وقد تولى تحريرها المرحوم السيد حسين شريف، وفي مدة مرضه كان ينوب عنه «الأستاذ عبد الرحمن أحمد»، فلما لحق بربه اختير لتحريرها «الأستاذ أحمد عثمان القاضي» رئيس تحريرها من إبريل سنة ١٩٢٩، وهي تصدر مرتين في الأسبوع، ولا تزال قائمة، وتنال إعانة من الحكومة وتنشر إعلاناتها.

(٩) الجريدة التِّجاريَّة، وكانت تُعنى بالمباحث الزراعية والصِّناعيَّة، صاحب امتيازها ومحررها هو سليمان أفندي داود منديل صاحب مطبعة منديل وناشر جريدة «حضارة السُّودان» الآن، قامت حوالي سنة ١٩٢٦، واستمرت إلى سنة ١٩٣١، ثمَّ تحولت إلى جريدة «ملتقى النهرين»، وأصبحت سياسية أدبية أيضًا.

(١٠) جريدة ملتقى النهرين، وسارت تحت هذا الاسم إلى أن اندمجت في سنة ١٩٣٤ من أول شهر مايو في جريدة حضارة السُّودان التي لا تزال محتفظة بهيئتها من امتياز وتحرير.

(١١) مجلة النهضة السُّودانية، صاحب امتيازها ورئيس تحريرها هو المرحوم محمد أفندي عباس أبو الريش أحد خريجي كلية غوردون، وقد ماتت هذه المجلة بوفاته في سنة ١٩٣٣.

(١٢) مجلة مرآة السُّودان لصاحبها ومحررها الشيخ سليمان أحمد كشة أحد خريجي المدارس الابتدائية، وقد اختفت منذ أواخر سنة ١٩٣٤ ولم تعد للظهور.

(١٣) مجلة الكشافة، وهي مجلة دورية تُعنى بأعمال الكشافة خاصة، ولا تزال قائمة.

(١٤) مجلة كلية غوردون، وهي مجلة خاصة بالطلبة ومباحث جمعياتهم المختلفة التي تأسست بدار الكلية مؤخرًا لتنمية مداركهم ودفعهم في نواحي الإنتاج الذهني المختلفة، وهي خطوة من دار الكلية حمدنا عقبة نتائجها كثيرًا، ولا تزال بحمد الله قائمة.

(١٥) مجلة «الفجر»، وهي مجلة أدبية أنشئت في سنة ١٩٣٤، وصاحب امتيازها ورئيس تحريرها هو «الأستاذ عرفات محمد عبد الله»، وهي نصف شهرية، ولا تزال قائمة. وهي تعد لسان حال أدباء السُّودان الشبان.

(١٦) «السودان» أخذ امتيازها في سنة ١٩٣٤ الشيخان الأستاذ «عبد الرحمن أحمد» وتولى تحريرها، و«محمد السيد السواكني» وتولى إدارتها، ولا تزال قائمة، وكانت أسبوعية، وتصدر الآن مرتين في الأسبوع.

(١٧) «جريدة النيل» أول جريدة يومية عربية مصورة بالسُّودان ألفتها شركة مساهمة اسمها «شركة الطباعة والنشر المساهمة — بالسودان»، رأس مالها خمسة آلاف جنيه، برياسة الوجيه السيد مصطفى أبو العلا التاجر المشهور، ومن المشاركين فيها الحسيب النسيب السير السيد عبد الرحمن المهدي، ومسيو كونتوميخلوس في أربع صفحات،

مديرها الصحفي المصري حضرة الأستاذ حسن صبحي، ومحررها فضيلة الشيخ الحاج الأمين عبد القادر. العدد الأول منها صدر في أول أغسطس سنة ١٩٣٥. وللجريدة عدد أسبوعي أدبي علمي خاص.

(١٨) وعدا هذه الجرائد العربية يوجد في الخرطوم جريدة يومية وصحيفة أسبوعية من ٨ صحائف إنكليزية اسمها «سودان هرالد»، ويحررها جناب «المستر كوكس»، وهو كاتب إنكليزي مهذب حلو الدعابة، وهو وكيل روتر بالخرطوم.

وهناك أيضًا ثلاث جرائد يونانية أسبوعية.

(٢-١) الطباعة في السُّودان

أول عهد السُّودان بالمطابع في عصر الحكومة المصريَّة السَّابقة بعد فتح محمد علي بقليل، فإنها أنشأت بالخرطوم فرعًا من المطبعة الأميرية من نوع الحجر، ومعملًا لصنع الورق، وعهدت بنظارتها إلى المرحوم إبراهيم أفندي أحمد وأعوانه، وكلهم جاءوا من مصر. وقد توفي هذا الناظر بالخرطوم وخلفه ابنه حسن بك المطبعجي، حتَّى مات قتيلًا يوم سقوط الخرطوم سنة ١٨٨٥، وقد استغنت الحكومة السُّودانية المصريَّة بهذه المطبعة ومعمل الورق عن جلب لوازمها من مصر، علاوة على طبع أوراق التَّمغة التي تعود على الخزانة بإيراد يذكر لتوقف سائر المعاملات المدنية والتِّجاريَّة على أن تحرر على أوراق التمغة كما تقضي به لوائح الحكومة.

ومن المعلوم أنَّ هذه المطبعة لم تطبع غير مطبوعات الحكومة. وفي أثناء حصار الخرطوم من مارس سنة ١٨٨٤ إلى يناير سنة ١٨٨٥ كان غردون باشا يوزع نشرات مذيلة بتوقيعه عن حوادث الحروب التي تدور رحاها بين القوات المدافعة عن المدينة وبين الأعداء وأخبار النجدات الزاحفة نجدة للخرطوم.

ولما سقطت الخرطوم استولى المهديون على هذه المطبعة، ونقلوها إلى أم درمان، واستعملوها في طبع «راتب المهدي» المحتم قراءته صباحًا ومساءً. وقد جمعت منشورات المهدي من أولها إلى آخرها وطبعت في مجلدين كبيرين، وكذا طبعت منشورات خليفته.

ولما استُرجع السُّودان في سنة ١٨٩٨ أُسست مطبعة السُّودان لأصحاب المقطم بعد قليل لطبع جريدة السُّودان ومطبوعات الحكومة، ثمَّ أنشأ الخواجات ساوولي وخرثانثو مطبعة فيكتوريا في سنة ١٩٠٨، وقد آلت إلى مسيو كونتو مخالوس في سنة ١٩١٦، ثمَّ آلت إلى شركة ماكوركوديل سنة ١٩٢٥.

وقد أنشئت مطبعة لطبع جريدة حضارة السُّودان، ولم يطل عمرها أكثر من ثلاثة أعوام. وأنشئت بعدها مطبعة شركة ماكوركوديل في سنة ١٩٢٤، فانضمت إليها بالشراء مطبعتا السُّودان والحضارة، وانتدبت مطبعة ماكوركوديل لإدارة قسمها التِّجاري حضرة الأستاذ سليمان أفندي داوود منديل.[٤] فاضطلع بهذه المهمة زهاء عامين حتَّى أدرك حاجة البلاد إلى مطبعة وطنية تقوم لمعونة النهضة الأدبية للبلاد؛ فأنشأ مطبعته في سنة ١٩٢٦، كان لها الشأن الأول من حيث الإتقان والاستيفاء، لم يسبقه فرد على الاضطلاع بمثل هذه؛ فقد طبعت العدد الكثير من المؤلفات الوطنية والمطبوعات القيِّمة، وإليها يرجع الفضل في نهضة الصحافة الوطنية، وما تزال مطبعة منديل قائمة بمجهود صاحبها الفرد الذي لم يشاركه في مجهوداته أحد، وقد عُنِيَ بتعليم عدد وفير من الوطنيين؛ إذ أحضر لهم معلمين مهرة من مصر لمختلف فروع المطبعة من صف وطبع وتجليد. وقد تخرج منها ما يربو على ٨٥ شخصًا يمتهنون هذه المهنة. وأنشأت شركة جريدة النِّيل مطبعة خاصة لطبع جريدتها ومطبوعاتها، وبها قسم للتصوير والزنكوغراف.

(٣) عادات المواطنين السُّودانيين

لمواطنينا السُّودانيين الكرام عادات كثيرة، أملى أكثرها حياة الفطرة والحياة الإسلامية الدينية، والظروف المحلية في السُّودان، والاختلاط بالزنوج وبالمصريين وبالإنكليز والوافدين، والتعليم.

ولاتساع ربوع السُّودان، تختلف العادات في مديرية عن الأخرى، ففي الشَّمال العادات أقرب إلى مصر، ولا سيَّما صعيدها إن لم تكن متوافقة معها، وفي الجنوب ترى عادات الزنوج.

ولا شكَّ أن السُّودان في تطور منذ فتح محمد علي — وهو ما يسمونه الفتح الأول، أو ما يُسمِّيه السُّودانيون العامَّة «الحكومة التُّركيَّة القديمة».

وقد أثَّرت العادات الإنكليزيَّة في المجتمع السُّوداني الراقي، فانتشر الهندام الإنكليزي وعادات حفلات الشاي والرياضة والنظام والأندية واللغة الإنكليزية.

ويحتفظ السُّودانيون إجمالًا بفضائل العرب والإسلام من شجاعة وكرم ووفاء والاعتزاز بالكرامة.

وقد وجدنا بين الشبيبة السُّودانية ميلًا ظاهرًا إلى ترك الانتماء إلى عصبيات القبائل، والاعتزاز بالنسبة إلى السُّودان فقط، وقد أسفنا إذ رأينا بعضهم لا يزال ينظر إلى السُّودان بأنه السُّودان العربي، ويستنكر تصوير السُّودان على أنَّ به زنوجًا.

ونحن نرى على العكس أن الزنوج لا ذنب لهم في بساطة حياتهم وسذاجتهم وكونهم لا دينيين، وأنَّهم حين يشهدون مسلمًا يصلي أو يحتفل بعرس أو بمولد، أو يذكر الله حاكوه، وسرعان ما اعتزوا بالإسلام. كما أنهم أبلوا بلاءً مشهورًا في الجيش المصري، في حرب المكسيك، وفي حروب محمد علي ومن بعده.

ولا ضير في نقلنا بعض العادات ونشرها في هذا الكتاب نقلًا عن المراجع والمؤلفات والمشاهدات. فلكل أمَّةٍ — مهما رقت — عاداتها وأخلاقها. والعادات أبدًا في تطور وتغيير وتنقيح. وهذا ظاهر في السُّودان ظهورًا بيِّنًا.

جاء في كتاب «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسُّودان»:

> ومن عادة ملوك الفور تجليد النحاس، وهي عادة لا توجد في غير دارفور، وتجليد النحاس هو تغير جلود الطبول المسماة في إقليم مصر بالنقاقير، وهذا التجليد يعظمونه ويجعلون له موسمًا في السنة، ومدته سبعة أيام، وكيفية ذلك أن السُّلطان يأمر بنزع جلود الطبول كلها في يوم واحد فتنزع، ثمَّ يؤتى بأثوار خضر اللون فيذبحونها ويأخذون من جلودها ويجلِّدون بها تلك الطبول. لكن أهل دارفور يقولون في ذلك كلامًا لا يقبله عقل العاقل ممارس الكتب، ولكنهم مطبقون على ذلك، فإنهم يزعمون أن هذه الأثوار من نوع بقر معروف عندهم، وأنها حين الذبح تنام وحدها بدون أن يمسكها أحد، ولا يذكرون اسم الله عند ذبحها، ويقولون إن الجن هو الذي يمسكها وينيمها، ثمَّ يأخذون لحومها ويجعل في خوابٍ، ويترك ستة أيام مع الملح، وفي اليوم السابع يأتون ببقر كثيرة وأغنام وتذبح كلها ويطبخون لحومها، وفي حال الطبخ يأخذون اللحم الذي في الخوابي ويقطعونه قطعًا صغيرة، ويجعلون في كل قدر منه قطعًا تخلط باللحم الجديد، ثمَّ تفرق الموائد للملوك وأولاد الملوك والوزراء على حسب طبقاتهم، ويقف على كلّ مائدة منها حارس من طرف السُّلطان ينظر من يأكل ومن لم يأكل، فإذا أخبر السُّلطان بأنَّ فلانًا

> لم يأكل أمر بالقبض عليه في الحال؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ من كان في قلبه خيانة للسلطان أو غدر لا يمكن أن يأكل من هذا اللحم. وإن تعلَّل أحد بأنه مريض أو لا يقدر على حضور أرسلت إليه أوانٍ منه مع حارس أمين ينظر هل يأكل أو لا؛ فإنَّ أبى يقبض عليه إلَّا إذا كان معذورًا بقوة مرضه. ا.هـ.

يدهن بعض عامة السُّودانيين رؤوسهم وآذانهم بالشحم والسيرج لتخفيف الحر. ويتطيَّبون بالروائح العطرية كالمسك والصندل والقرنفل.

الدلكة: عجين الذرة مخلوط بماء، ثمَّ يجمد فوق النار، ثمَّ يضعونه في قدر تحتها نار.

والعجين مؤلف من دقيق القرنفل والسحلب وخشب الصندل والظفر واللبان والمسك. ويدلكون به الأجسام. والدلكة مفيدة صحيًّا، ترطب الجسم وتخفِّف حرارته.

التدخين: نار في حفرة بها خشب طيب الرائحة، وتسد نوافذ الغرفة، وتجلس المرأة عارية على حافة الحفرة ورجلاها على عود فوق الحفرة، حتَّى تنطفئ النار، ويتحلَّب العرق، وتلبس شملة، وتدلكها جارية، وتفتح النوافذ تدريجيًّا.

التشليخ: تشليخ الوجوه بثلاثة خطوط للزينة — بين الجعليين والشايقية.

(٣-١) عادات الزواج

يتزوَّج السُّودانيون غالبًا بمجرد البلوغ أو بعد البلوغ بقليل. وكان المهر غاليًا. فجهد حاكمدارو السُّودان بعد فتح محمد علي وجاهد المهدي بتخفيضه. فجعله المهدي جنيهين للبكر وجنيهًا للثيِّب. ويُؤْثر السُّودانيون الزواج من ذوات الأنساب والأحساب على ذوات المال.

وللمرأة السُّودانية في الأسر المحترمة خدم. ولا تأكل مع زوجها أو بحضوره مطلقًا.

الترويج للزواج في السُّودان

جاء في جريدة حضارة السُّودان سنة ١٩٣٤ ما يلي:

> رأى حضرة صاحب السِّيادة الحسيب النَّسيب السر السيد عبد الرحمن المهدي منذ أكثر من سنة أن أزمة الزواج قد استحكمت بدرجة مخيفة من مغالاة

الآباء في مهور بناتهم ومن الأزمة المالية، حتَّى يكاد يقف الزواج وتقضي الأزمة على الفتيات بالبوار؛ فهدته بصيرته النَّيِّرة وحكمته العالية إلى أن يشرع لأهل السُّودان سُنَّة حسنة بتخفيض المهور إلى قسمين: الحد الشرعي الأدنى وهو ربع الدينار والحد الاختياري الأعلى وهو ثلاثة جنيهات، ونفَّذ ما سنَّه أولًا على أهله وعشيرته ومُريديه الكثيرين في ليلة ٢٧ رجب سنة ١٣٥٢، وهو الحفل الأول، ثمَّ أذاع نداءه في الشعب السُّوداني للاقتداء به والعمل بسُنَّته؛ فأجاب نداءه الكثيرون، وزوَّجوا بناتهم بالمهور القليلة، وتردَّد آخرون من الذين يتمسَّكون بالعادات القديمة الضَّارة.

ولمَّا دار الفلك، وأتى يوم ٢٧ رجب سنة ١٣٥٣ دعا سيادته كثيرين من الموظفين والأعيان إلى حضور حفل التزويج الثَّاني، وكنت ضمن المدعوين، وقد كان سروري عظيمًا حقًّا لحضور هذا الحفل، ومالي لا أفرح وقد جاهدت في سبيل هذه الأزمة وما زلت أجاهد وأنشر في هذه الجريدة كلَّ ما يمحو العادات العتيقة التي تئن منها!! وقصارى القول أنِّي قصدت إلى دار حضرة صاحب السِّيادة الحسيب النسيب السر السيد عبد الرحمن المهدي بحيى ود نوباوي بأم درمان في الميعاد المضروب، فوجدت سرادقًا عظيمًا منصوبًا في حظيرة داره الواسعة وقد امتلأت بالألوف من الناس، وبقي ألوف خارجه، ورجال السيد يقابلون المدعوين بالتَّرحيب، ويقدمون لهم المشروبات. وما كدتُ آخذ مجلسي حتَّى شرف السيد الزعيم الكبير يصحبه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكرم محمد نعمان الجارم قاضي قضاة السُّودان وجناب مفتش أم درمان، وبعد أن جلسوا ألقى حضرة السيد محمد الخليفة شريف خطبة وبيانًا بإحصائية الزواج بالمهور القليلة في بحر السنة الماضية، وهي منشورة فيما يلي. ثمَّ عقبه آخر وأنشد قصيدة، وفي أثناء ذلك تولى سيادته عقد الزواج بنفسه وعقبه حضرة صاحب الفضيلة قاضي قضاة السُّودان في عقد زواج واحد، ثمَّ عاد سيادته إلى تولي العقد في حين أن حضرة صاحب السِّيادة السيد علي المهدي يتولى عقد زواج الآخرين في ناحية أخرى، وبعد بُرهة ترك السيد أخاه السيد علي المهدي يتولى عقد الزواج ودخل في داره من ناحيتها الغربية ومع سيادته حضرة صاحب الفضيلة قاضي قضاة السُّودان، وجناب مفتش أم درمان، وبعض كبار الموظفين والأعيان. وهناك مُدَّت إليهم

المرطبات والشاي والكعك والبسكويت، وعند دخول المغرب غادره جناب مفتش أم درمان. وقام المدعوون يؤدون فريضة المغرب، وبعدما فرغوا منها عادوا إلى مكانهم الأول، وأخذوا يتحدثون في إكبار عمل السيد الاجتماعي المفيد للبلد، وقد غادرت دار السيد في نحو الساعة السابعة مساءً والسرور يطفح من قلبي ممَّا رأيت من هذا الإصلاح الاجتماعي الذي قام به السر السيد عبد الرحمن المهدي الزعيم الكبير بعد أن عجز عنه المصلحون في الشعوب الشرقية.

ونحن حين نصف هذا الحفل الكبير لا نريد أن نطري السيد فهو غني بعمله المجيد عن الإطراء. إنما الذي نريده هو ألَّا يقدِّر السُّودانيون عمله حقَّ قدره، وأن يعملوا به ويتخذوه دستورًا للزواج بين الأمير والحقير، والصغير والكبير في أنحاء السُّودان؛ صونًا للعروض وحرصًا على الفضيلة، ولينظروا إلى سيادته كيف زوَّج أهله بالمهور القليلة ليقتدوا به لا لقلة ماله، أثابه الله أجر سُنَّته الحسنة وأجر من عمل بها.

وقد علمت أن عقود الزواج بلغت ١٠٦ عقود في مساء الاثنين الماضي ٢٧ رجب سنة ١٣٥٣.

خطبة السيد محمد الخليفة شريف

باسمك اللهم افتح هذا الحفل الميمون، وبالنيابة عن إمامنا المفدى الزعيم الأوحد سيادة السير السيد عبد الرحمن المهدي أتقدم إلى حضراتكم بواجب الشكر على تشريفكم لهذا الحفل الذي أنتم واسطة عقده، وخصوصًا رجال حكومتنا العظام الذين دلَّ تشريفهم لهذا الاجتماع السَّنوي على اهتمامهم بشؤون الشعب الاجتماعية وتقديرهم لمصلحته التَّقديرَ الذي من شأنه أن يربط الحاكم بالمحكوم رباطًا وثيقًا.

إن سيادة السيد حفظه الله ما فتئ يعمل لمصلحة هذا البلد الأمين عملًا متواصلًا كلَّما دعا إليه داعٍ عمومي، وكلَّما رأى الفرصة سانحة للقيام بعمل خصوصي يسره أن يعلن اغتباطه بالنتيجة الثمينة التي وصل إليها مشروع تخفيض المهور؛ فإنَّه في مثل هذا اليوم من السنة المنصرمة وجَّه نداءً إلى الشعب يحثُّه فيه للعمل على تخفيض المهور وربط الشباب برباط الدين الحنيف؛ حتَّى لا تثور عليهم الطبيعة البشرية فيخرجوا على تعاليمه العظيمة، وكانت النتيجة كالآتي:

٥١٨	من جبل أولياء إلى الكوة نظارة الشيخ عبد القادر إدريس هباني
١٠٤	مديرية بربر
٣٨٠	مديرية الفونج
١٦٤	مديرية النِّيل الأزرق
٣٦٠	أم درمان
١٢٠	كوستي وضواحيها
٦٠	القضارف
٣٦	مديرية كسلا
٤٦٠	جزيرة أبا
٧٥٠	مديرية كردفان

إنَّ نظرة عادية إلى مثل هذه الأرقام تدلُّك دلالة واضحة على نجاح المشروع وانصياع البلاد من أقصاها إلى أقصاها لتلبية نداء السيد والسير على تعاليمه الحكيمة؛ إجابة لأوامر الشرع الشريف، وحبًّا أكيدًا لإخلاصه في عمران بلادهم.

سادتي: قبل أن أترك موقفي هذا أريد أن أختم كلمتي بتكرير شكري الجزيل لسيادة السيد ولرجال حكومتنا العظام في تشجيعهم لهذا العمل الجليل، ولكل من لبَّوْا هذا النداء وعملوا على أساسه. ا.هـ.

عادات الزواج عند الشلك

تسكن قبائل الشلك منطقة السدود في أعالي النيل. ولا تتزوج الفتاة عندهم قبل بلوغ سن الخامسة عشرة سنة. وللرجل أن يشتري من النساء كما يشاء، فهذا الشراء دليل الغنى والثروة والحاجة. وعندما يريد الشاب الزواج من فتاة فإنَّه يشبكها بالماعز والحراب وغيرها. ثمَّ تحضر الفتاة أمام ناظر القبيلة وتعترف بكل مبدأ حبها. وهؤلاء المحبون يجلبون، ويدفع كلٌّ منهم غرامة من الماشية للعريس، وتُقدَّم ترضية للعريس.

عادات الأفراح

للسودانيين في أفراحهم عادات، منها أن تظل الزوجة في بيت أهلها معه ردحًا من الزمن، وأن لا تقترب معه، ولهذا يضطر بعض الأزواج إلى زواج غير واحدة، والزوجة تأتمر بأمر أمها مكثرة الدلال على زوجها هاربة منه من غرفة إلى غرفة، ومن مكان إلى مكان، حياءً وخجلًا.

(٣-٢) في المآتم

أمَّا عاداتهم في مآتمهم فكثيرة: منها أن المعزِّي إذا زار المعزَّى قابله الأخير برفع يده فيقرآن الفاتحة للميت داعيَيْن له.

ومنها أن تتوارى الزوجة التي مات زوجها عن الناس حتَّى تنقضي العدة. ومنها أن تقدم القهوة مضافًا إليها شيء من السكر. كما تقدم الأطعمة للمعزِّين، ومنها أن تطول مدة التعزية، فربما ظلت الخيام المنصوبة للتعزية شهرًا كاملًا، وعلى قصر المدة وطولها تُقاسُ درجة الميت رفعة وضِعة، ومن العادات الآخذة في الزوال، النَّقر على آلات نحاسية عند وفاة أحد نقرًا مزعجًا، والسُّودانيون مع هذا ذوو إيمان ورضى يرحبون بقضاء الله ويطمئنون إلى قضائه.

ويوضع المتوفى في عنكريب.[٥] وفي البيوت المحترمة يمنع البكاء على الميت. ولا يغيِّر النساء ملابسهنَّ. بل يبقَيْنَ سبعة أيام بملابسهن التي كنَّ يلبسنها عند وفاة الميت، ثمَّ يبدأْنَ في تغييرها.

وفي أثناء الأيام السبعة يقوم أهل الميت بنحر الذبائح وإطعام المعزين والفقراء.

(٣-٣) الخرافات والأوهام

ويعتقد جمهور في السُّودان — كما في مصر — بالسحر والعفاريت والجن والمندل والزار والودع والأحجبة.

ويقال: إن الزار نقل إلى السُّودان من مصر — فانتشر في سواكن وبربر والخرطوم.

لون السُّودانيين أسود أو يميل إلى السواد. ومساكن الفقراء في أكواخ مستديرة هرمية كالرؤوس جنوبًا ومربعة مسطحة السقوف شمالًا.

(٣-٤) المرأة السُّودانية

المرأة السُّودانية العربية — محترمة جدًّا عند الزوج تدخل في الغرفة عقب الزواج تمتد على العنجريب أربعين يومًا لا تتكلم مع زوجها بعد الدخول، وربما لعدة شهور تُخدم «بضم التاء» ولا تخدم، والغنية لا تنتقل من العنجريب ومن غرفتها حتَّى تلد الولد الأول.

ولها نفوذ ورأي — والطلاق نادر بين العائلات الكبيرة، والزواج ببنت العم مشهور — والمقصود من الزواج النسل.

وتتعلَّم المرأة في الخلوات، وهي توجد في كلِّ قرية، حيث يوجد شيخ الخلوة ويعطي لهن دروسًا في حفظ القرآن ومبادئ القراءة والكتابة. وفي أكثر مساجد السُّودان يخصص الجزء الخلفي من صحن الجامع للنساء المصليات. وهن يؤدين الفرائض خلف المصلين وبينهن وبينهم حاجز خشبي.

وفضيلة الشيخ بابكر بدري مفتش المعارف سابقًا هو أول من أرسل بناته في مدرسة البنات التابعة لمصلحة المعارف التي تعلم البنات مجانًا ليكُنَّ معلمات وتخرج معلمات لمدارس الخرطوم، وأم درمان، وواد مدني، والعطبرة.

تشتد رغبة أهل السُّودان اليوم لتعليم فتياتهن، وقد قرأنا في أحد أعداد جريدة حضارة السُّودان في شهر أغسطس سنة ١٩٣٥ شكوى من قلة مدارس البنات. وقد كان يتبع انتشار تعليم الصبيان، رغبة في تعليم البنات.

والفتاة السُّودانية على جانب كبير من الذكاء والاستعداد للأخذ بأسباب التَّعليم الراقي والمدنية لو أتيحت لها الفرصة. ولكن الفرصة غير متاحة لها. ولذلك رسفت في قيود معينة.

وكان من نتائج كثرة المتعلمين تعلمًا عصريًّا وأوروبيًّا أن ظهرت عند نفر قليل من الشبَّان نزعة إلى الحثِّ على سفور المرأة السُّودانية ومسايرة النهضة النسوية المصريَّة والشرقية، ولكن جرائد السُّودان، ومنها مجلة الفجر وجريدة حضارة السُّودان، قد سلقت الداعين إلى السفور ومحاكاة المرأة المصريَّة بألسنة حداد، وقد احتجوا بآداب الدين الإسلامي والفضائل والأخلاق، التي ترى في اختلاط المرأة بالرجل عواقب غير حميدة وفسادًا، وقى الله السُّودان من شره.

على أن حجاب المرأة السُّودانية يشبه حجاب المرأة المصريَّة في انحصاره في المدن وبين الأسر الكبيرة والعصبيات المعروفة. أمَّا الطبقة الصغيرة، فقد رأينا نساءها وفتياتها

في الأسواق والحقول وورش تنظيف الصمغ. ومن السُّودانيين من ينكر أن هؤلاء من صميم أهل السُّودان، ويقول: إنهنَّ ينتمين إلى الفلاتة والهوسة وبرنو ومهاجري واداي والحبشة. ولكنَّني سألت بعض هؤلاء كما سألهن الدكتور محجوب وبعض زملائي في البعثة، فكان بعضهن يتكلم العربية الواضحة، وله مسحة تخالف مسحة القبائل المهاجرة، وكنَّ ينسبن أنفسهن إلى قبائل سودانية عربية.

وأعتقد أن هذا الموضوع في حاجة إلى بحث خاص، لا يتسع له هذا الكتاب.

المرأة الجميلة

المرأة الجميلة: في السُّودان هي من كانت ربعة القوام، طويلة الشعر وغزيرته، واسعة الجبين، زجاء الحاجبين، دعجاء العينين.

وقد تقدم أنه كانت تصاحب الأورط السُّودانية فرق من النساء، وكنَّ يقمن بتقديم الغذاء ويعاونَّ الرجال ويشجعنهم في الحرب ويفخرن ببطولتهم وينقمن على الجبناء منهم.

(٣-٥) ملجأ القرش

منذ أربع سنوات دعا السيد ميرغني حمزة إلى التبرع لملجأ القرش. وقد بلغت التبرعات حوالي ألفي جنيه، وقد وافقت الحكومة على تخصيص المباني المواجهة للمدرسة الأهليَّة من الجنوب التي كانت تشغلها الطوبجية المصريَّة سابقًا للملجأ بإيجار اسمي قدره: جنيه مصري لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد. وقد قبل البكباشي محمد نور وكيل مفتش أم درمان سابقًا رياسة اللَّجنة التنفيذية.

وقررت اللَّجنة التنفيذية إنشاء ملجأ يحتوي على صناعات يتعلمها اليتامى والفقراء.

(٣-٦) جمعية منع المسكرات

تألفت لجنة مندوبة من أفاضل سُكَّان الخرطوم وأم درمان للبحث في المسكرات بقصد التقليل منها إذا استحال منعها — وقد أطلق محرر الفجر الغراء على هذه الجماعة اسم «جمعية منع المسكرات» — من قسمين قسم لا يؤمن بالخمر ولا بفائدتها، ويرى وجوب محاربتها، فأخذوا على عاتقهم الوعظ ضد الخمر والإرشاد لتركها، فهذا القسم يسمى بحق (قسم الوعظ والإرشاد)، وقد اتصل بنا أن صاحب الفضيلة مفتي السُّودان يحمل لواء هذا القسم من الجمعية، يعضِّده جماعة من خيرة علمائنا الأفاضل، وهم يسعون لتحقيق غرضهم بالدعاية المنحصرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ورأى القسم الثَّاني من الجمعية أننا نُغالط الحقائق إذا دعونا لمنع الخمر؛ فهي موجودة يتعاطاها البعض رغم تحريمها دينيًّا وقانونيًّا، فمن العقل ومن الشجاعة أن نسلم بوجودها أولًا ثمَّ نسعى لمنعها أو التقليل من ضررها صحيًّا وماليًّا واجتماعيًّا، وطريقة هذا المنع أو التقليل عند هذا القسم تكون بطريق الوعظ والإرشاد وإلقاء المحاضرات التي تُبيِّن مضار السكر والإدمان في شرب الخمر.

قال الأستاذ مرغني في جريدة حضارة السُّودان بتاريخ ١٤ ربيع الأول:

> تحرم الحكومة تعاطي المشروبات الروحية على الوطنيين مع استثناء طائفة المآمير والضباط، وقد صرحتْ — أيضًا — بتعاطيها في بعض نوادي الموظفين مثل نادي الدامر ومدني، كما سمحت بها لكل أجنبي يسكن السُّودان من مصري وسوري وإيطالي ويوناني وغيرهم. وقد صرَّحت بيع هذه الخمور للأجانب الذين يحصلون على رخصة نظير دفع ما بين ٢٥ جنيهًا و٧٥ جنيهًا في السنة حسب أهمية المركز الذي يُفتح فيه المحل.
>
> يستورد السُّودان في كلِّ عام من المشروبات الروحية ما تقرب قيمته من الخمسين ألف جنيه؛ فإذا قدَّرنا أن بالسُّودان عشرة آلاف من الأجانب والوطنيين الذين يبيح لهم القانون شرب الخمر تجد أن متوسط ما يصرفه الواحد خمسة جنيهات في السنة، وهذه نسبة بسيطة إذا عرف القارئ أنها تساوي قيمة عشر زجاجات من الوسكي، ولكننا نعترف بأن جزءًا من الخمرة المستوردة يتسرب إلى أفواه أفراد لا يجوز لهم القانون شربها. ومهما تساهلنا في التَّقدير فلا يتجاوز قيمة هذا الجزء عشرة في المائة من مجموع

قيمة الوارد، وحينئذ يكون عندنا ألف شخص من سُكَّان السُّودان يتعاطون المشروبات الروحية رغم التحريم. وهذا عدد — حتَّى إذا ضاعفناه — بسيط جدًّا لا يذكر إذا قارناه بعدد الذين يستطيعون شربها ويمتنعون لأسباب أهمها رقابة البوليس. فهذا فوز عظيم للبوليس أو رجال الإدارة بالسُّودان في تنفيذ قانون منع المسكرات، ولا نظن أن هناك بلدًا آخر يستطيع أن يفاخر بنتيجة كهذه حتَّى في منع تعاطي المخدرات.

إذا صحَّ ما قدمت من الإحصائيات أمكننا القول بأن عندنا في السُّودان ألف شخص يتعاطون المشروبات الروحية في الخفاء، والبوليس يهددهم من وقت لآخر، والرأي العام يمقتهم. فهم يشربونها خلسة في أماكن وبحالة لا يرضون أن تعرف عنهم. فهل هذا العدد يستوجب وجود جمعية لمنع المسكرات؟ أو يجوز التحدث عن المسكرات في السُّودان؟

إنَّ وجود هذه الجمعية يُثير ضجة حول المسكرات تكون لها بمثابة دعاية تستميل البعض وتشجع آخرين على المطالبة بإباحتها قانونيًّا، والنتيجة النهائية ستكون وخيمة جدًّا لا يرضاها حتَّى الذين يتحمَّسون للإباحة الآن؛ لأنَّ هناك فريقًا ممَّا له منفعة مادِّية في الموضوع. وخطر عظيم في ترويجها، وهو تاجر الخمور الذي سيظهر على المسرح متى صدر القانون بالإباحة، ويستعمل أساليبه المتعددة لترويج بضاعته وزيادة مبيعاته.

تمر الآن في طول البلاد وعرضها فلا تقع عينك على إعلانات مهمة تستلفت نظرك عن شرب الخمر إلَّا راية المريسة. أمَّا إذا أُبيحت المشروبات الروحية فسوف لا يغيب عن نظرك منظر جوني وكر بخطوته الواسعة ومنظاره العجيب، ذلك الرجل الذي يقال عنه إنه ولد في أول التُّركيَّة السَّابقة ولا يزال قويًّا بفضل كأس الوسكي وغيره من أقطاب بنت الحان. وللإعلانات تأثيرها في انتشار البضائع مهما كانت قوة العوامل المضادة. وحينذاك تدخل الخمرة المنازل فيشربها الرجل وعقيلته والعياذ بالله كما يحصل الآن في مصر وفي غيرها من البلاد الشرقية.

لا نشكُّ أن هناك بعض الطبقات السُّودانية التي سبق لبعض أفرادها أخذ الكأس الأولى، بالرَّغم من التحريم الديني والقانوني. فهم يرون أنفسهم أحقَّ من غيرهم في الحصول على امتياز الإباحة القانونية. فكل ما نقوله لأمثال

هذه الطوائف أن تحاول إقناع أفرادها بترك الخمر، فإذا عجزت — وكان لا بد لها من أن تجاريهم — فلها أن تحاول الحصول على امتياز خاص أسوة بالمآمير والضباط مثلًا. أمَّا الإباحة العامة، فيجب أن لا يفكر فيها عاقل يهتم بمراعاة الدين أو الاحتفاظ بالمبادئ السُّودانية الاجتماعية؛ لأن الضَّرر الذي يعود على البلاد من الإباحة سيكون أبلغ من أي تقدير نتصوره الآن ونحن في عهد التحريم.

(٤) حفلات المولد النبوي

من المجمع عليه أن حفلات المولد النبوي في السُّودان يفوق الاهتمام بها في السُّودان اهتمام أهل مصر بها، وذلك لقوة العصبية الدينية والرابطة الإسلامية في السُّودان، ولأن العامل الديني يقوم بدور كبير في كثرة شؤون السُّودان وتاريخه وحفلاته.

وممَّا رواه الأديب الشيخ الوقور السيد محمود القباني عن حفلات المولد النبوي بين فتح محمد علي للسُّودان إلى ما قبل الثَّورة المَهديَّة عن السيد محمد شريف ابن الولي القطب الشيخ نور الدايم ابن القطب الأعظم الشيخ أحمد الطيب ناشر الطريقة السمانية في السُّودان ومصر قال: «شهدت بنفسي أنَّ السيد أحمد العقاد وزَّع في ليلة عيد على مائتي شخص من العلماء وأكابر طلبة العلم مائتي كسوة من شكل واحد، وقيمة واحدة قفطان وصديري من الشاهية «اسم للقطنية البلدي المصرية»، وثمنها في الخرطوم ثمانية جنيهات مصرية وجُبَّة من الجوخ أميريالة، وقميص طرابزوني، وسراويل دبلان، وحذاء أصفر «مركوب»، وجورب صوف، وعمامة بيضاء، وطربوش مغربي وطاقية دبلان، تلبس تحت الطربوش، وكنت أستمع له وكأنه اشتمَّ رائحة ارتياب بدت على وجوه السامعين، فأقسم يمينًا شرعية، وختمها بقوله: والله على ما أقول شهيد.

وإني لأقول بأني لم أسمع بمكرمة لقومنا سراة الخرطوم تتجاوز عُشر هذا القدر. وكان السيد أحمد العقاد مع غناه هذا متصفًا بأنه شيخ طريقة أحمدية بيومية تُقام الأذكار في داره العامرة، وينفرد في المولد بخيمة للوجاهة بجانب خيمة التُّجار، وأخرى للطريقة بجانب خيام الطريقة رحمة الله عليه.

وفرارًا من نقد الناقدين الذين يطلبون بيانًا لكل جملة، سيما إذا كانت بعيدة عن مدركاتهم، فقد لاح لي وأنا أكتب هذا أن بعضهم يجهل أن القطب الكامل الشيخ أحمد

الطيب ناشر الطريقة السمانية بالسُّودان ومصر له تلاميذ أعلام في الديار المصريَّة، وله رحلات متعددة إلى القاهرة، واتصال وثيق بأمراء مصر من المماليك قبل تملك محمد علي باشا عليها. ولعل كثيرين في مصر والسُّودان لا يعلمون أن في بلدة (بلصفورة) بمديرية جرجا زاوية كبرى تُقام بين جدرانها أذكار وأوراد الطريقة السمانية، وفي إحدى زواياها ضريح الولي الصالح (الشيخ شيخون) تلميذ الشيخ أحمد الطيب وخليفته في مصر العليا.

والشيخ شيخون هذا هو الجد الأعلى للمرحوم السيد علي يوسف صاحب جريدة المؤيد المعروفة، وشيخ السجادة الوفائية رحمة الله عليهم جميعًا.

ومنذ الليلة الثالثة عشرة تغمرنا أفراح متجددة في الدور فيوم غدٍ عندنا وبعد غدٍ عند العم فلان. ولسنا فرحين بالموائد الفاخرة، بل فرحنا الأكبر أن نجلس أو نقف خلف قرَّاء المولد الكبير المسمَّى «مولد المناوي» المشتمل على أجل وأحسن القصائد النبوية، ولا تنتهي تلاوته في أقل من ست ساعات تكاد تطير أرواحنا منا فنصيح ونتواجد حينما نسمع:

قف واستمع ذكر مَنْ أنوارُه سطعت في الكائنات كشمس في الضحى لمعتْ

وكبارنا يتمايلون وبعضهم يصيحون مثلنا، ونسمع من صفوف الجالسين والواقفين صيحات: «معاد»، وصلى الله على محمد حبيبي قرة عيني، الشفاعة يا رسول الله، والنساء الستور يصحن (أنا في حواك في جاهك يوم الناس حفايا وعرايا)، وهذا نصيب أمهاتنا وأخواتنا من ذكرى المولد الشريف في احتفالات المنازل؛ يسمعن سيرة سيد الأنبياء والمرسلين من وراء خدورهن، ويبكين من فرحهن، ويذكرن القيامة. ولله الحمد والمنة إذ صانهن عن التبذل ونزَّهَهنَّ عن غشيان ليالي المولد.

فإذا انتهت تلاوة مولد المناوي بعد ست ساعات أنشدت القصائد النبوية، وكلها في مدائح الذات المحمدية. وسمعتُ أن في منزل أحد الذوات لَمَّا فرغوا من تلاوة القصة أنشد أحد القراء مترنمًا بقول عياض رحمه الله:

ومما زادني شرفًا وتيها وكدت بأخمصي أطأ الثريَّا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيًّا

فتصايح السامعون: «معاد معاد»، وظلوا كذلك حتَّى صاح ديك الفجر ثلاثًا، وسمعوا أذان الصبح فأدوا الصلاة وانصرفوا. وقد شهدت ليلة ترنم فيها القارئ:

صفت الأملاك والبشرى لرسول الله أبي الزهرا

والقوم يصيحون: «معاد معاد»، صلى الله على محمد، أنا في جاهك، يا رسول الله الشفاعة إلخ. وقد غلبني النوم بين يدي ذوي فسمعت في الصباح أنهم ظلوا على «معاد» حتَّى أدوا فريضة الصبح.

ومن أشبه الأشياء بموالد الدور التي كانت في الخرطوم ما كان مواظبًا على المحافظة على رسمه المغفور له الوجيه الشيخ الحاج المرضي الخضر عمدة العاصمة «الخرطوم»، وعين أعيان سكانها الأقدمين الذي كان يُحتفل في داره بعد الحفل الرَّسمي بالمولد احتفالًا فاخرًا كأحسن ما كان يجري في دور أعيان الخرطوم القديمة ووجهائه، يدعو إليه أكابر وأعيان المدن الثلاث والضواحي، وتمد موائد حاوية لكل الأطعمة والألوان من أفخر أنواعها العديدة كما كان في الخرطوم، مع العلم بأنه — رحمة الله عليه — ينفق عليها أربعة أضعاف ما كان يبذله أولئك المحتفلون في أزمنة رخاء الأقوات في الخرطوم القديمة، والاحتفال بالمولد الشريف يعقبه حفلان هما الإسراء في رجب ونصف شعبان، فهذه الثلاثة كان المرحوم المرضي الخضر يحافظ عليها ويفرح بها ويبذل فيها، ولا ريب أنه كان محافظًا على قديمه وما وجد عليه قوميته في الخرطوم القديمة. وفي أم درمان يحتفظ حضرة مولانا صاحب الفضيلة السيد إسماعيل الأزهري المفتي السَّابق بهذه الاحتفالات الثلاثة في هذا الزمان وفي الأزمنة المخيفة أيضًا.

ولست أنسى احتفالات أعيان ضواحي الخرطوم وما كنا نتمتع فيها بالرحلات القصيرة مع ذوينا، وما ذلك كله إلَّا محبة وإجلالًا وتعظيمًا لمن تفضل الله علينا بجعلنا من أمته صلى الله عليه وآله وسلم.

فإذا قيل إنَّ الاحتفال بالمولد بدعة استحسنها البعض وخالفهم آخرون، فقد حُكي أنَّ واحدًا من أهل العلم والصلاح كان مترددًا أو متشكِّكًا بين الاستحسان والإساءة، فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام — ورؤيا المنام حق، كما جاء في الحديث الشريف — فقال: يا رسول الله، ما ترى فيما نأتيه في مولدك من هذه المناظر والأعمال؟ فقال: (من فرح بنا فرحنا به)، وعلى هذا إذا كانت الأغراض هي الفرح والذكرى وبذل البر شكرًا لله على حد قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾، فالله تبارك وتعالى لا

يضيع أجر من أحسن عملًا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله صلاةً تُدني بعيدنا من الحضرات الربَّانية، وتذهب بقريبنا إلى ما لا نهاية له من المقامات الإحسانية.

ليس في الخرطوم أنظمة الاكتتابات للمولد: فالتجار يقيمون احتفالهم في صيوانهم، ولهم عوائد أو نذور تقدم إلى صواوين الشيوخ لم أسمع بالنقد فيها، وأظن أنها موجودة قطعيًّا ولكنَّها سرية، فما كنَّا نسمع أو نرى غير صناديق الشمع والسكر والبن وبهار القرفة والزنجبيل والأرز والسمن والخراف والعجول، عدا الأطعمة الموفورة في الليالي كلها.

وممَّا تُوضِّح يَفهم القارئ أنَّ الاحتفال بالمولد الشريف يأخذ شكل العيد؛ ولهذا كنَّا نرى أجواق الطرب والأغاني والعزف بالدفوف والرق والمزمار يدخلون ساحة المولد وقوفًا أمام الصواوين عازفين مغنين، ويمنحهم أصحابها أعطية لا بأس بها. فإذا جاءوا أمام صواوين الذكر حولوا أغانيهم إلى مدائح نبوية أو صوفية ونادوا: مدد يا جيلاني، مدد يا بدوي، مدد يا ميرغني، مدد يا ود سحونة، وأخذوا يهتفون بذكر الأولياء فيتقدم نحوهم أصحاب الصيوان بالشربات والقهوة وهم وقوف، ثمَّ يصلونهم بالفواتح بدل النقود.

تتسامح الحكومة إلى موظفيها إكرامًا للمولد فيخرجون من مكاتبهم قبل المواعيد المقررة بنحو ساعتين، وفي اليوم الأخير بأربع ساعات، وفي صباح اليوم البطالة الرَّسمية، وهكذا شأن المدرسة؛ فقد كنا نترك المدرسة بعد أن نتناول طعام الغداء بساعتين إلى ساحة المولد للتمتع بمنظر «لعبة الجريد» التي يشترك فيها عدد غفير من فرسان الأجناد الأتراك والمغاربة والشايقية، وقلَّما تخلف الحكمدار والقناصل عن التمتع بشهودها الممثل للحروب القديمة قبل اختراع النيران؛ فهذا ينهزم بعد أن يصيبه السهم في النحر، وذاك يلتوي إلى باطن الفرس فيمر السهم في الهواء، فإذا غربت الشمس عُدنا إلى دورنا ريثما نبدل ملابسنا، فنعود إلى الصواوين لنتعشَّى مع ذوينا ونقضي السهرة.

ليس في موالدنا من الملاهي غير جوقات الطرب التي بينتها، ولا نعرف شيئًا من كشكوش ولا شختك بختك، ولا لبس تكسب، ولا بندقية. وغاية ما عندنا أن موالينا يدخلون بالتوزة أمام الصواوين ويصلهم أسيادها كالجوقات المطربة.

تختم الليلة الأخيرة بمظاهر من العظمة يعجز اليراع عن وصف لمحة منها، فضلًا عن كلها، وجلُّ النفقات من خزانة الحكومة ومقررات المولد كانت تقدَّر بنحو ألف جنيه في العام، ومنها الحفلات التي تقدم ذكرها في الذكريات السالفة كليالي القدر والمعراج

ونصف شعبان، وقد احتفظوا أيضًا بالاحتفال بقراءة القصة الشريفة كما يجري في مسجد الحسين عليه وعلى آله صلوات الله وسلامه، وإنما اختلف الوضع ففي القاهرة يحتفل صباح ١٢ ربيع أول بتلاوة القصة الشريفة باللغة التُّركيَّة، وهنا تُقرأ في سلاملك الحكمدارية باللغة العربية، وسمعت أن في أوقات سلفت كانت تقرأ باللغة التُّركيَّة تبعًا لوجود شخص يجيد هذه اللغة.

وخلاصة ما أدوِّنه أنَّ كلَّ شيء يجري في الخرطوم كانوا يتوخون فيه محاكاة وتمثيل ما يتبع إجراؤه في القاهرة حذو النعل بالنعل[٦] حتَّى في الملابس والأزياء، وإن وجدت اختلافات طفيفة لا مندوحة من وجودها، وصفوة ما استخلصته أن المولد النبوي الشريف من أكبر المواسم لرواج الأسواق في الخرطوم، ووسيلة لكسب المعدمين من الأنحاء المجاورة وبعض البعيدة يفد علينا ما لا يعد من المادحين بالطار وبغيره كضرب العصي، ويُحلِّق الناس عليهم حول ساحة المولد ليلًا ونهارًا، فيمطرون عليهم القروش حبًّا وتعظيمًا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتكريمًا لمن يترنم بمدائحه ﷺ وإني لأذكر وأنا صغير احتفاء قومنا وتكريمهم لشخص المادح الصالح الشيخ عبد القادر أبي كساوي الذي كنا نترنم بمدائحه ونحن أطفال؛ لأنَّه من آداب القومية عندنا أن التَّرنم بأغاني الحب والأرقاص المائلة لوسطنا الحاضر يعدُّ من أكبر العيوب، بل هو الدليل الناطق بفقدان رجولية الصغير والكبير؛ إذ الغناء لا يباشره في وسطنا غير الجواري، وليس في جماعتنا حرة تعرف الأغاني اللهمَّ إلَّا نوع مراثي العظماء والكبراء، ونحن إنَّما نترنم بالمدائح النبوية ليس إلا. سبحان من يغير ولا يتغيَّر جلَّ شأنه. ا.هـ

هذا وفي مولد هذا العام صدرت فتوى من فضيلة شيخ العلماء ونداءات منه ومن العلماء وفي الصحافة بتحريم البدع ومنع النساء الوافدات المستهترات من غشيان ساحات الموالد. وقد نُفِّذ ذلك كله.

هوامش

(١) اقرأ أمثلة أخرى من هذه الأغاني في الفصل العاشر من الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٢) الكرب نوع من الثياب الشفافة.

(٣) التجندر التواليت.

(٤) مصري الأصل، هاجر أبوه إلى السُّودان للتجارة واتخذه مقامًا، وقد ولد سليمان أفندي بالسودان وتخرج من كلية غوردون، وعين موظفًا بحكومة السُّودان، واستقال واشتغل بالتجارة والصحافة حتى الآن.

(٥) سرسر من الخشب.

(٦) يكثر السُّودانيون من التعبير بهذه العبارة عن المحاكاة والمشابهة.

الفصل الثالث والثلاثون

هجرة المصريين إلى السُّودان

يحملنا على الخوض في هذا الموضوع ما تردَّد على ألسنة الكتَّاب السِّاسيين وكبار الباحثين المصريين خاصة من أن السُّودان هو المنفذ الطَّبيعي الوحيد لمصر، التي يزداد عدد سكانها، وتجد في السُّودان الواسع القليل السُّكان — المجال الفسيح لنشاط العدد الزائد.

ونحن لا نشارك الباحثين أو المتفائلين آمالهم؛ لأن السُّودان عاش ونهض ومدن بفضل ملايين الجنيهات التي أنفقتها مصر عليه منذ الفتح حتَّى الآن. فهو غُرمٌ لا غُنمٌ. وهو لا يزال في حاجة إلى أموال مصر، وكان ظن بعض الإنكليز أن الأموال الإنكليزيَّة إذا تدفقت عليه واستغلت فيه؛ نهض، وآتت ثمارها أضعافًا مضاعفة. ولكن الأمل قد خاب.

والدليل على ذلك هو أن سُكَّان السُّودان أنفسهم في حاجة إلى الأموال، وأن إنتاج الأراضي ضعيف، وأن الزارع المصري لا يحفل بالهجرة. وقد رأينا عند عودتنا من السُّودان — سُكَّان مديرية أسوان الذين غمر الخزَّان أراضيهم، آثروا السُّكنى فوق الجبال والتلال على الانتقال إلى الأراضي الخصبة مع ما أخذوا من تعويض وافٍ. فكيف بفلاح المنوفية والشرقية إلخ؟!

ودون استغلال السُّودان أجيالٌ وملايين الجنيهات. وقبل هجرة المصريين إليه يجب كفالة حياة مستطاعة؛ لأنَّ السُّوداني العادي يعيش بدويًّا راعيًا للماشية وبائعًا للجمال وجالبًا للصمغ وجامعًا للسمسم. وهذا شيء لا يستطيعه الفلاح المصري، والفلاح السُّوداني لا يتعلَّق بالزراعة تعلُّق المصري، وهي لا تجود بخير كثير.

على أن من الممكن استغلال المصريين للسُّودان تدريجيًّا، كأن تشتري الجمعية الزراعية الملكية أطيانًا وتصلحها. لكن هذا شيء وهجرة المصريين وملايينهم إلى السُّودان ليحصِّلوا الرزق ويجدوا العيش شيء آخر.

وأعتقد أن هذه الهجرة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة. ومن قال غير ذلك فعليه أن يستقرئ التَّاريخ وأن يزور السُّودان.

هذا أقوله مخلصًا ومجردًا عن المسألة السياسية التي فيها أيضًا عقبة أخرى في سبيل هذه الهجرة حتَّى لو أبيحت. فمن الواجب حل مسألة السُّودان قبل التَّفكير في الاستغلال والهجرة.

نعم إنَّ المصريين كانوا في السُّودان — ولكن كانوا يعيشون كالموظفين على أموال حكومتهم أو تجارًا تعاونهم الحكومة المصريَّة بمالها ونفوذها. وكانت تجارتهم رابحة لاعتمادها على القوافل السُّودانية وريش النعام والأبنوس والمواشي.

أمَّا بعد السكك الحديدية فقد أضحى ذلك رخيصًا سهلًا، وأصبح في يد حفنة من التُّجار الأجانب والسُّودانيين والمصريين، مع بقائهم في العواصم وبغير هجرة مع أسرهم.

والمصريون الذين هاجروا قبل الفتح المصري الأخير وبعده قد اندمجوا في السُّودانيين، وكانت هجرتهم تدريجية وقليلة وممكنة مع معيشة المصريين نفسها الرخيصة. أما مع المدنية الحاضرة فهذا شيء صعب.

وينبغي التنبيه على أن المصريين في السُّودان يشملون منذ فتح محمد علي الكبير فروعًا هي بمثابة الأجزاء للكل تعرف بعنوان المولدين (هذه الكلمة عكس معناها في مصر)، ويندرج تحته المغاربة والعرب المصريون والمصريون الفلاحون والشركس والترك والأرنؤوط والأكراد والأقباط، بل من بينهم الشوام؛ فإنَّ الفاتحين الأولين كانوا من أعراب مصر ومغاربتها والأرنؤوط والترك — انظر تاريخ مصر الحديث — ثمَّ بعد تسريح هؤلاء وإعفاء عرب مصر من الخدمة العسكرية أصبح الجنود النظاميون يرسلون إلى السُّودان من الفلاحين وسواهم من المتمصِّرين، كما أصبح الذين يدخلون البلاد بالتجارة وسواها من الأعمال الحرة من المصريين ومن غير المصريين على السواء — والذي أريد إيضاحه هنا هو ما يختص بالمغاربة والعرب الذين قَدِموا إلى السُّودان ضمن الفاتحين الأُوَل، وصاروا فيما بعد يُعرفون بالمغاربة جميعهم؛ لانتمائهم إلى قبائل

مغربية أصلًا، واحتفاظهم بعصبيتهم وبدويتهم في ذلك الوقت، مع العلم بأنَّهم أصبحوا اليوم مصريين، وتُنوسِيت تلك الفوارق إن لم تكن في الواقع ففي نظر القانون؛ ممَّا جعل الحكومة المصريَّة في هذه الأيام تتشبَّث بتجنيدهم أُسوة بغيرهم، ويا حبذا لو وُفِّقت؛ لأنَّهم — كما يلوح لي — هم عنصر القوة في مصر.

فهم الذين افتتحوا السُّودان مع الترك، وهم الذين صدُّوا غارة الوهَّابيين وردُّوهم عن الحجاز إلى الرياض في المرة الأولى، وهم الذين هدَّدوا الباب العالي مع إبراهيم باشا ... إلى آخر ما فعلوه؛ ممَّا جعل والي مصر يمنحهم البراءة اعترافًا بالجميل وتقديرًا للولاء والإخلاص للوطن — فالمغاربة الذين هم في السُّودان هم مصريون بلا شك، وإنَّما احتفظوا بهذا اللقب؛ لأنَّهم نزحوا من مصر في وقت كانت الأعراب فيه والمغاربة الضاربون في مصر يحتفظون بأسماء قبائلهم وأنسابهم — ولقد كانت عَراضي[١] المغاربة والعرب نحو ثمانية على ما أتذكَّر. وهي: عُرْضي محمد أغا أبو مطر — عُرْضي أبو خضرة — عُرْضي الصهبي — عُرْضي البصيلي — عُرْضي الأدغم أبو حليمة — عُرْضي الأدغم أبو سليمان — عُرْضي؟ — عُرْضي؟

وهذان الأخيران لا أتذكرهما — وكانت القبائل التي تألفت منها هذه العراضي تكاد تنحصر في: بني عون — خويلد — الضعفة — النجمة — محارب — عمائم — الجهمة — أولاد علي — الربائع — الجوازيا — الهرازا — التراهنة — سملوس — وأصول. هؤلاء يقيمون كما علمنا ذلك من شيوخ السن بالفيوم والغربية والبحيرة والشرقية ومطروح والواحات والجيزة أيضًا، وباختصار فإنَّهم منتشرون في القُطر المصري كعادتهم، ولذلك فإنَّ مغاربة السُّودان هم مصريون قبل أن يكونوا مغاربة. وتعدادهم اليوم بعد حصد الحوادث والكوارث يزيد على الخمسين ألفًا، وأغلبهم في مدن السُّودان كواد مدني وأم درمان وبربر والقضارف والأبيض إلخ. وهم أنبل الأسر والقبائل وأشجعهم وأعظمهم حمية وغيرة وأقواهم بأسًا بعد كلِّ ما أصابهم — وتاريخهم في حوادث المَهديَّة وقيامهم في وجهها سجَّل لهم فخرًا لا يُمحى في الذَّود عن أعراضهم وضنِّهم بتعرض البلاد التي فتحها آباؤهم لغوغاء الفتنة. وهم العامل الوحيد في بقاء سنار بعد استيلاء الدراويش على السُّودان قاطبة (مصرية) حتَّى استسلمت أخيرًا من طول الحصار. وليست واقعة (أبو شوكة) بمجهولة؛ فقد استبسل فيها مغاربة عصار واستهانوا بالموت حتَّى صار ذكر اسمهم ممَّا تفزع له الجيوش الجرَّارة. فقومٌ هذا شأنهم ومكانهم من التَّاريخ لا ينبغي إغفالهم. فهم فخر مصر وأبناؤها الذين سجلوا لها حقَّها بدمائهم؛ ممَّا كان

يجوز عليهم هذا الإغفال لمجرد أنهم يُعرفون بالمغاربة وهم مصريون دمًا ولحمًا، ولقد زار أديب سوداني مصر في سنة ١٩٣٢ وقصد إلى بلدة بسيون بمديرية الغربية، وكان يعتقد أنه يجد اسم المغاربة هناك ضاربًا، وأن لهم طابعًا مخصوصًا؛ فما أدهشه إلَّا أنه وجد جميع القبائل تمصَّرت وصارت أمة واحدة في الأمصار وفي البوادي تُعرف باسم عرب مصر، وهنا تجد مثالًا ناطقًا بذلك.

وعندما استقبل فضيلة الشيخ مدثر علي البوشي القاضي الشرعي بواد مدني خليفة جده الشيخ البسيوني، وهو الأستاذ الشريف بدر بن مصطفى بن بدر بن مصطفى المقيم ببسيون قال: «إنِّي أنا مدثر بن علي محمد أبو النجا بن أحمد بن مصطفى، يرتقي نسبي إلى الشيخ أبي النجا الشهير، ومنه إلى سيدي أحمد بن عيسى عم الشيخ إسماعيل البسيوني مؤسِّس البلدة، ومن ثمَّ إلى الشريف إبراهيم العلواني التونسي، فنحن مغاربة، وينبغي أن نُعرف بذلك، فما لي لا أرى الحالة التي كان عليها آباؤنا الذين فتحوا السُّودان؟ فقال له الخليفة: هل ترى أن الذي يسكن في بلد نحو سبعمائة سنة ينكر وطنه ليضاف إلى وطن يرجع إليه نسبه قبل هذا التَّاريخ؟ ولماذا لا نقول: نحن حجازيون أو يمانيون مثلًا — فكان ذلك جوابًا مسكتًا بليغًا — فالحقيقة أن من سكن منهم الأمصار تمصَّر؛ أي إنَّه لا ينسب إلَّا إلى مصر، ومن سكن منهم البادية صار من أعراب مصر. هذا ولولا حادث المَهديَّة لكان تعداد هؤلاء المغاربة بالسُّودان يربو على مائة ألف نفس بلا شك — وأذكرُ أنَّ أغلب من شاهدتهم في واد مدني والقضارف وأم درمان من البيض في رحلتنا هم من هؤلاء — وبالنسبة لأنَّ الشيخ البسيوني من ذُرِّية الشيخ محمد أبو النجا البسيوني، وهم يعلمون ذلك؛ فقد صارت زعامتهم لدى تابعيهم من العهد الأول إلى اليوم — لأنَّ الزعامة عندهم تتبع الدين. وقد أحضروه معهم تيمنًا وتبرُّكًا، وحاولوا إخفاء اسمه تحت لقب البوشي — والبوشي هذا من ضئولته — حتَّى يُعموا على أهله الذين كانوا جادين في طلبه، ثمَّ صارت البوشي علمًا عليه.

ينبغي أن يعلم أن هناك قبيلتين إحداهما بدوية تسكن بين النِّيل الأزرق ونهر عطبرا، وعددها نحو أربعين ألفًا، والثانية تسكن في قرى كثيرة وسط الجزيرة بمركز المناقل وعدد أفرادها نحو خمس وعشرين ألفًا، وكلتا القبيلتين تعرفان باسم المغاربة، ولكن تاريخهما في السُّودان يرجع إلى خمسمائة عام، وهما كغيرهما لا يعرف من أين جاء للسُّودان هل من مصر أو طرابلس — وهاتان القبيلتان غير مَنْ عَنيْنا أولًا.

فقد شاهدت في الفلاحين قبلي وبحري مصر العرب، مثل الرواشدة والحمدة وبني هلبة وسليم وكنانة إلخ، وكلهم موجودون بالسُّودان اليوم ولا طريق لهم للهجرة،

ولنرجع إلى ما قلناه أولًا عن المصريين، أي نصف المليون، فكلهم يحتفظون بأسماء عوائلهم وبلادهم، ودماؤهم التي في عروقهم تنمُّ عن ذلك، وهم في الغالب سُكَّان الأمصار والقرى العامرة بالسُّودان، ونسبتهم فيها ما بين الثُّلث والثُّلثين على الدَّوام.

لقد مضى على مجيء السيد أحمد مصطفى أبو النجا (المعروف بالبوشي) نحو ١٢٠ سنة تقريبًا وذرَّيته الذين هم على قيد الحياة اليوم أكثر من ٣٠٠ نفس بعد كلِّ ما حصل لهم من نكبات في تطورات السُّودان التي يمكننا أن نقول: إنها انتهت اليوم — ولقد مضى على قدوم جد البوشي الأكبر إلى مصر من تونس نحو سبعمائة سنة ٧٠٠ عام تقريبًا وذرية أحد بناته ببلدة بسيون حتَّى سنة ١٩٣٢ ٣٠٠٠ نفس، كما عُلِم ذلك من خليفتهم.

(١) رأي سمو الأمير عمر طوسون

ما جاء في خاتمة كتاب (مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن)[٢] متعلقًا بمصر والسُّودان، تأليف حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون ما يلي:

> إنَّ مساحة الأراضي القابلة للزراعة في القطر المصري هي ٧١٠٠٠٠٠ فدان عدا ٢٠٠٠٠٠ فدان تُربى فيها الأسماك. والمقدار الأول قسمان:
>
> (١) ٥٦٠٠٠٠٠ فدان تُجبَى منها الضرائب باعتبار أنها مزروعة.
> (٢) ١٥٠٠٠٠٠ فدان غير مزروعة الآن وقابلة للزراعة في المستقبل.
>
> وجملة سُكَّان مصر حسب إحصاء سنة ١٩١٧م هي ١٢٧١٨٢٥٥ شخصًا، فيكون لكل فدان شخصان وربع. وأكثر المديريات سكانًا بالنسبة لمساحتها مديرية المنوفية؛ إذ يخص كلَّ ثلاثة من سكانها فدان واحد، وما زال عدد السُّكان منذ إحصاء سنة ١٩١٧م في ازدياد مطرد. فإذا تركنا سني الحرب الاستثنائية جانبًا نجد زيادة عدد المواليد على الوفيات في سنة ١٩٢١م حسب تقدير مصلحة الإحصاء بلغت ٢٢٤٤٥٩، وفي سنة ١٩٢٢ ٢٤٣٥٣٦ نسمة.
>
> وكلما زاد عدد السُّكان كثر ازدياد عدد المواليد على عدد الوفيات طبعًا. ولا ريب عندنا في أنَّ متوسط هذه الزيادة يبلغ سنويًّا ٢٥٠٠٠٠ بدون أدنى مبالغة.

وليس في مديرية المنوفية — وهي أخصب أرض مصر — قطعة لا تزرع، ومع ذلك فكثير من سكانها يهاجرون، لأنَّهم لا يجدون ما يقوم بمعيشتهم فيها. على أنَّنا مع هذا نُسلِّم بقاعدة كفاية الفدان الواحد من كلِّ أرض زراعية في مصر لمتوسط معيشة ثلاثة أشخاص، فنقول بناءً على هذه القاعدة:

إنَّ الأرض المزروعة في مصر ومقدارها ٥٦٠٠٠٠٠ فدان تكفي لمعيشة ١٦٨٠٠٠٠٠ نسمة. وبعد تعداد النفوس سنة ١٩١٧م بلغ مجموع زيادة المواليد على الوفيات ٨٧١٧٧٠ بتقدير مصلحة الإحصاء. فإذا أضفنا إلى ذلك زيادة سنة ١٩٢٣م ومقدارها ٢٥٠٠٠٠، وأضفنا المجموع إلى إحصاء سنة ١٩١٧م يكون عدد السُّكان في نهاية سنة ١٩٢٣م ١٣٨٠٠٠٠٠ نسمة. وبطرحه من ١٦٨٠٠٠٠٩ نسمات، وهو العدد اللازم لاستثمار المساحة المقرَّر عليها ضرائب يكون الباقي ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة، وهو عجز يسد بزيادة السُّكان السنوية. فإذا سلم لنا أنَّها ٣٥٠٠٠٠ سنويًّا يتلاشى هذا العجز بعد اثني عشرة سنة، على أننا نقول: إنَّ عشر سنوات فقط تكفي لذلك إذا جرت الأمور في مجراها الطبيعي.

وإذا أعدت المساحة غير المزروعة الآن للزراعة، وهي تشمل الجزء الشَّمالي وإقليم البحيرات للدلتا، ومقدارها كما مر ١٥٠٠٠٠٠ لزمها من السُّكان ٤٥٠٠٠٠٠، وهو مقدار يتلاشى بزيادة السُّكان في مدى ثماني عشرة سنة، فتكون السنوات اللازمة لملاشاة العجز كله ثلاثين سنة أو بالحري خمسًا وعشرين سنة، أي ربع قرن أو نصف العمر الغالب للإنسان. وعلى ذلك نجد أنفسنا أمام إحدى حالتين وهما:

الأولى: إذا لم تجفف مياه إقليم البحيرات ولم يعد للزراعة وصلنا إلى آخر حدٍّ لاستطاعة القطر تحمُّل سكانه في مدة اثنتي عشرة سنة على الأكثر.

الثانية: إذا جُفِّفت مياهه وأعد للزراعة وصلنا إلى الحد المذكور في مدة ثلاثين سنة على الأكثر.

وهاتان المدتان حتَّى أطولهما أقرب إلينا من حبل الوريد. ومعظم النسل الحاضر سيرى بعيني رأسه انقضاء هذه السنين. فماذا نصنع يومئذ والزيادة مستمرة في السُّكان.

لا ريب أنه يجب علينا منذ الآن التَّفكير في حل لهذه المعضلة الاجتماعية المتوقَّعة، وهو ما سنفرد له هذا البحث:

الجزء المَروِي أو الممكن ريُّه من القطر المصري على شكل شريط طويل دقيق ينتهي طرفه الشَّمالي بشكل مروحة عند البحر الأبيض المتوسط، وهذه هي التي تسمَّى الدلتا.

وهذا الجزء المروي يُحدُّ بصحراء العرب شرقًا وصحراء لوبية غربًا. وليس في الإمكان ريُّ أرض الصحراوين المذكورتين بماء النِّيل لارتفاعها وعدم استواء سطحها، فيستمر جدبها لهذا العائق الذي لا يمكن تذليله إلى ما شاء الله. ومن المستحيل في مصر الانتفاع بأرض لا يرويها النيل. فليس هناك احتمال لتوسع زراعي من هاتين الجهتين.

وفي الجهة الشمالية البحر. فإذا وجهنا زيادة عدد سكاننا إلى هذه الوجهة وافترضنا ارتحالها إلى ما وراء البحار، وتركنا جانبًا كراهة المصري الغربة، فإنَّنا لا نجد ما يُحقِّق لها أي رَغَد من العيش للبَوْن الشاسع بين البلدين مناخًا وطبيعةً وجنسيةً ولغةً وديانةً. فهذه الجهة في حكم المسدودة.

أمَّا المورد الصناعي للمعيشة، ففضلًا عن أن مصر تنقصها المواد الأولية لتكون الصناعة فيها زاهرة يانعة، فإنَّه مورد محدود من المستحيل أن ينتفع به عدد عظيم من السُّكان في مصر. ولنفرض أنهم نصف مليون فإنَّه يستغرق بزيادة السُّكان في مدى أربع سنوات فقط، ومتى انقضى هذا الأجل القصير نجد أنفسنا أمام المعضلة بعينها من جديد.

وحاشا أن نقصد تثبيط الهمم عن الصناعة بهذا الكلام، وإنَّما القصد فقط بيان عدم كفاية هذا المورد. وأنه لا يحل المشكل الذي نحن بإزائه.

فالمنفذ الوحيد المفتوح أمامنا هو جهة الجنوب، حيث يوجد إقليم واسع ذو سُكَّان قليلي العدد وأرض من طبيعة أرض مصر تروى بنفس النِّيل ولا يفصلها أي فاصل. بل هي ومصر جسم واحد.

وإقليم كهذا حالته المعيشية وثمار أرضه مماثلة لقطرنا المصريون وحدهم هم الذين في استطاعتهم جعله في حالة سعادة ورفاهية.

وبالاختصار هو بيئة مناسبة لأمزجة المصريين على قدر ما هم أنفسهم موافقون لهذه البيئة. وهو الذي يسع الزيادة المستمرة لسكان مصر مدى مائة عام بدون أدنى مضايقة.

فالسودان هو باب السلام الوحيد الذي ظلَّ مفتوحًا لمصر على مصراعيه منذ الأزمان الخالية، ويجب أن يبقى كذلك إلى الأبد لأنه لازم لها لزوم الروح للجسد.

وإلى هذا الغرض يجب أن تُصوَّب جميع جهود الذين في يدهم حظ مصر، وفي قلبهم يُضمرون لها النفع والمصلحة. ا.هـ.

(٢) رأي المؤلف

نشرت جريدة «السودان» الغراء حديثًا للمؤلف في هذا الصدد جاء فيه:

لقد تألفت لجنة من أعضاء البعثة المصريَّة في السُّودان ومن ذوي الأملاك به للسعي لتأليف شركة زراعية من المصريين وإخوانهم السُّودانيين لاستغلال الأراضي الزراعية الخصبة في السُّودان.

ولقد اطلعت على بحث لحضرة الفاضل المسيو عزيز كفوري يقترح فيه أن يكون رأس مال الشركة ٥٠٠٠٠٠ جنيه تدفع منها في البداية ٢٠٠٠٠٠ جينه، وأن تجعل نشاطها الزراعي في منطقة الخرطوم بحري تفضيلًا على مناطق شندي وبربر ودنقلة.

إن شراء المصريين أراضيَ في السُّودان واستغلالها يجب أن لا ينظر إليه فقط من الناحية المادية. وإنما يجب أن ينظر إليه من الوجهة الأدبية — وجهة توثيق العلاقات الودِّية بين مصر والسُّودان وتعاون سُكَّان القطرين في أسباب المنافع الحيوية.

وإنني أعتقد أنه يجب أن تشترك الجمعية الزراعية الملكية[٣] في كلِّ استغلال للأراضي السُّودانية. إذا ما انتهى الأمر إلى تأليف الشركة المصريَّة السُّودانية. وأن يكون عمل الجمعية الزراعية التمهيد لهذه الشركة وتجربة استغلال رؤوس الأموال المصريَّة، واستغلال الكفايات المصريَّة الفنية في السُّودان. وذلك بأن تُوفِد الجمعية نفرًا من خريجي المدارس الزراعية إلى حقول للتجارب تعد عدتها قبل سفرهم.

وبين المسائل التي تعترض استغلال المصريين أموالهم زراعيًّا في السُّودان، نوع الزراعة، لأنَّه ليس بالمصريين حاجة لزراعة القطن، فهي في مصر وافرة،

وقد تكون زراعة الحبوب هي أول ما يجب أن يتَّجه إليه بحث الباحث في استغلال الأموال والعقول المصرية.

وكيفما كان الرأي في هذا الصدد؛ فإنَّه ممَّا لا شك فيه أن هذه المسألة دقيقة وفي حاجة إلى بحوث إضافية. نرجو من ورائها خيرًا للمصريين وإخوانهم السُّودانيين.

هوامش

(١) عراضٍ بفتح العين جمع (عرضي) بضم العين وسكون الراء، وهو يقابل لفظة أورط، ولكن عدد العرضي ما بين الثلاثمائة والأربعمائة من بينهم السناجق — أي الضباط.

(٢) الكتاب وضع قبل تعداد النفوس سنة ١٩٢٧.

(٣) قررت الجمعية الزراعية الملكية أخيرًا ندب خبيرين زراعيين من قبلها لمعاينة أراضي السُّودان.

الفصل الرابع والثلاثون

مستقبل السُّودان

يهمُّ القارئ أن يتنبأ بما عسى أن يكون عليه السُّودان في المستقبل، أو ما هو المستقبل المنتظر للسُّودان. ويجب التفريق بين الأماني والوقائع الراهنة والحقائق الواقعة: فمن جهة الأماني، فإنها قد تتعدد؛ فلمصر أماني نحو السُّودان، وأمانيها معروفة، وهو بقاء السُّودان مع مصر؛ لأنَّ النِّيل قد جعل منهما بلادًا متماثلة وسكانًا متشابهين، وهذا يقع تحت شعار «الاستقلال التَّام لمصر والسُّودان»، وهو مطلب من مطالب الحركة الوطنية، وقد فشلت المفاوضات بين إنكلترا ومصر في سبيل السعي لتحقيقه جزئيًّا كان أم كليًّا.

وهناك أماني الإنكليز، وهي تفهم أو يحاول الإنسان أن يفهمها من سياسة الإنكليز في استعمار إفريقيا، وفي مواصلات الإمبراطُوريَّة وفي قناة السويس وفي مصر، وفي السيطرة على منابع النيل، وفي رغبتهم في التَّوسع الزراعي في مساحات القطن، وفي أحاديثهم في المفاوضات الرَّسمية وفي كشف منابع النِّيل وحكم بلاده، والإيعاز إلى الخديوي إسماعيل بتعيين غوردون حاكمًا مستقلًّا على خط الاستواء، فحكمدارًا لعموم السُّودان، فمنتدبًا لإخلائه، فاستعادة السُّودان بقيادة كتشنر باشا واشتراك الجنود الإنكليزيَّة مع الجيش المصري، فسياسة الحكم في السُّودان التي بدأت باتفاقية سنة ١٨٩٩، وانتهت في سنة ١٩٢٤ بإخراج الجيش المصري، وفي أقوال الصحف الإنكليزيَّة والمؤلفين الإنكليز عن السُّودان، وفي اهتمام إنكلترا بالحبشة ومنافستها لإيطاليا وفرنسا في الاستعمار.

على مكتشف نيات إنكلترا أن يدرس هذه العوامل مجتمعة. وإذا أخذنا بالواقع وحده، ألفينا إنكلترا منفردة فعلًا بحكم السُّودان، فالحاكم العام من كبار الإنكليز وأعضاء مجلس الحاكم وكبار الموظفين من مديري المديريات ومديري المصالح والمفتشين — جميعًا من الإنكليز — والحكم الثنائي في السُّودان — وهو اشتراك مصر مع إنكلترا

— ليس لمصر من مظاهره إلَّا تعيين الحاكم العام بمرسوم، ورفع العلم المصري إلى جانب العلم الإنكليزي على دواوين الحكومة في السُّودان. وحكومة السُّودان تسير على قوانين وقواعد وطرائق لا ترجع فيها إلى مصر، بينما ترجع إلى المندوب السَّامي البريطاني في مصر، وهو في الوقت ذاته مندوب سامٍ في السُّودان، ورئيس مباشر للحاكم العام، والمندوب السَّامي نفسه تابع لوزارة الخارجية البريطانية. وقد جاء في كتاب «السودان الإنكليزي المصري» تأليف سير هارولد ماكميكل السكرتير الإداري لحكومة السُّودان سابقًا، والحاكم العام لتنجانيقا حالًا، — قال في الفصل الثالث والعشرين ص٢٧١: «أحيانًا يوجه هذا السؤال: ما هي فائدة السُّودان لبريطانيا العُظمى؟ والجواب على ذلك هو أن بريطانيا العُظمى قد قبلت مسئوليات جسيمة بصفتها ضامنة للقروض التي عقدت في سبيل تقدم السُّودان، ولأنَّ هناك ملايين الجنيهات من رؤوس الأموال البريطانية موظَّفة فيه — هذا من الوجهة المادية، ومن الوجهة الحربية فإنَّ للسُّودان موقعًا مهمًّا، فله ٤٥٠ ميلًا على ساحل البحر الأحمر، وله ثغر قيِّم في الطريق إلى الهند، وحدُّه الشَّمالي متطابق مع الحدِّ الجنوبي لمصر. وما دامت بريطانيا العُظمى تحتفظ بمصلحة خاصة في رخاء مصر، فإنَّ جعلها آمنة من الاعتداء عليها وكافلة حسن إدارة ماء الرَّي التي تحيا به — فإنَّ رقابتنا على السُّودان «حُكْمنا له» مسألة أساسية. وإن عودة الفوضى إلى السُّودان أو عدم كفاءة الحكم فيه، لا بدَّ أن يكون لها من الوجهتين السياسية والحيوية «أي حياة البلاد» — نتائج عاجلة تحس بها البلاد المحيطة بالسودان، وتتعرَّض سعادتهم للخطر. ويتأخر تقدم مدنيتهم بسبب ترك منطقة مركزية واسعة للفوضى وتجارة الرقيق والأمراض.

ونصيب السُّودان في إنتاج المواد الخام والقطن المصري طويل الفتلة والصمغ والزيوت النباتية — يعدُّ قليلًا بالنسبة للإنتاج العالمي من ذلك. كما أن القوة الشرائية ليست كبيرة، على أنَّه بعودة الانتعاش التدريجي في التجارة العالمية فإنَّ السُّودان محكومًا ببريطانيا العُظمى سيتقدم — كبلد مستورد ومصدِّر — كلما زاد عدد سكانه وطرق مواصلاته.

ثم تساءل مستر ماكميكل عن: «إذا كانت بريطانيا لا تخسر ماديًّا بفقدها السُّودان — فهل لا يكون هناك سبب في مواصلتها احتلاله؟» وقد ردَّ على هذه النقطة بأنَّه عند هذا السؤال يقوم سؤال آخر وهو: هل يبرر لبريطانيا العُظمى، من الوجهة الأدبية، أن تتركه؟ وقال: «لا شك في أن هذا يتوقف على ما يؤول إليه أمر السُّودان بعد تركه،

سير مايلز ميسون المندوب السَّامي البريطاني في مصر سنة ١٩٢٤ — إلى الآن.

والفرصة التي تتاح لأهله ليتمتعوا بحكومة طيبة. إنَّه لا يزال بعيدًا ذلك اليوم الذي تتألَّف فيه أمة واحدة من أقوام السُّودان غير المتجانسة، وتحكمها حكومة وطنية واحدة، سواء أكانت أوتقراطية «أي حاكم مطلق مستبد بالحكم»، أم حكومة أعيان «الخاصة»، أم ديموقراطية. قد يكون من الممكن أن تتوحَّد المديريات المتعرِّبة الشمالية في وقت قريب، ولكن سكانها، إذا نظر إليهم كوحدة سياسية، فإنَّهم لا يزالون في بداية تألفهم، ولا بُدَّ من مضيٍّ بعض أجيال قبل عمل تجربة على هذا النحو واحتمال مسئوليتها. وفي الوقت ذاته قد أخذت بريطانيا العُظمى على عاتقها مسئولية العمل في سبيل سعادة السُّودانيين من عرب في الشَّمال ومتوحشين لا دينيين في الجنوب، وهي

لا تستطيع أن تتخلَّى عمَّا اؤتمنت عليه، ولا أن تسلمه لمن ليس صالحًا بسبب طبيعة جنسه وعدم اختباره العملي لكي يتولى أمره.

وقال مستر رامزي ماكدونالد في خطاب له نشرته جريدة التيمس في عددها الصَّادر في ٢٦ مايو سنة ١٩٣٠، عن حكم بريطانيا للمستعمرات ما يلي:

> لقد تعهدنا بأن نعنى بأمر أناس لم يستطيعوا أن يتولوا أمر أنفسهم، فقد كانوا هدفًا لحرب داخلية أو لأساليب من الحكم حرمتهم من منافع المدنية؛ ولذلك أُلقيت علينا واجباتٌ نحوهم.

ثم قال: «على أنَّ ذلك لا يعني انحرافنا عن تحقيق أمنية الحكم الذاتي.»

وقد علَّق مستر ماكميكل على هذه العبارة فقال: «إن ذلك يجرُّنا إلى ذلك السؤال — ماذا عسى أن يكون مستقبل السُّودان؟» فقال: «إنَّ أعظم الناس إيمانًا بالأنبياء والنبوءات لا بدَّ أن يتردَّد في إعطاء جواب صريح، على أنَّه ممكن أن يقال بشيء من التأكيد: إن مستقبل السُّودان سوف يتعيَّن — إلى حدٍّ كبير — بالاتجاه السياسي العام، بالسياسة التي توضع في إنكلترا أكثر ممَّا يتعين بحصول حوادث خاصة في السُّودان، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول: إنَّ الحكم الذاتي سيكون حقيقة عامة مقرَّرة مقبولة كشيء بديهي في وقت قريب؟ ليس من السهل أن نتنبَّأ بما عسى أن تُفضي إليه أساليب الحكم من مبادئ المحافظين والأحرار والاشتراكيين، فلكل حكم مبادئه ويومه، وليس نوع الحكم بشيء خالد. وفي كلِّ لحظة قد يحدث ما يدعو إلى اتخاذ قرار يُعدُّ انحرافًا عن الطريق المرسوم للسُّودان، كأن يكون اندماجًا له أو لجزء منه في الإمبراطُوريَّة أو مؤديًا به إلى الاستقلال أو إلى العبودية أو إلى الفوضى، ومعنى ذلك أنه غير ممكن التنبؤ بأي قرار يُتَّخذ في صدد السُّودان، ومتى يصدر هذا القرار.»

لقد قالت جريدة النيرابست والهند في عددها الصَّادر بتاريخ ٢٤ أغسطس سنة ١٩٣٣: «إنَّ علاقة بريطانيا العُظمى بالسُّودان يجب أن لا توزن بالموازين التجارية.» والحق أن الاعتبارات المادية هي ثانوية في الأهمية، ويجب أن لا تؤثر في الاعتبارات الأولية. إن السُّودان مدين بمبلغ محدود لمصر بسبب المبالغ التي اقترضها من وقت لآخر للقيام بمشروعات أوجبها تقدمه، فيجب تسوية هذا الدين وشروط تسديده. إنَّ مصر تمنح السُّودان سنويًّا إعانة قدرها ٧٥٠ ألف جنيه، وبدونها لا يستطيع أن يوازن ميزانيته. فيجب أن تُتَّخذ إجراءات من شأنها إما كفالة[1] استمرار هذه الإعانة، وإما

باتخاذ وسيلة لإيجاد المال. إنَّ على طرفي الحكم الثنائي — وهما مصر وإنكلترا — ضمان استمرار المساعدة التي يقدمانها للسُّودان حتَّى تصبح مالية السُّودان في غِنًى عن هذه المساعدة. وإذا كانت مصر لا تدفع نصيبها من هذه المساعدة فإنَّه سيقع على بريطانيا العُظمى عبءٌ غير عادل في هذا الصدد.

قال سير ماكمايكل:

> انتصرت القوات البريطانية المصريَّة على جيش الخليفة في (كرري)، ثمَّ أوقعت به وبالبقية الباقية من أنصاره في (جديد)، فتمَّ لها الفتح العسكري، وسلمت جميع مديريات السُّودان لقواد الجيش الفاتح باسم (الجناب العالي الخديوي). وكاد السردار يصطدم بقوة عسكرية فرنسية بقيادة الماجور مارشان في (فشودة)، ولكن حُلَّت المسألة دبلوماسيًّا، وعاد الفرنسيون أدراجهم. وهرب الأمير علي دينار بن الأمير زكريا بن السُّلطان محمد الفضل الفوراوي إلى الفاشر، فوضع يده على ملك أجداده، واعترفت له الحكومة الجديدة بهذا الملك لقاء جزية ليست ثقيلة يدفعها غير صاغر ويسوس ملكه كيف شاء داخل حدود بلاده.
>
> حلَّت بهذا العقدة العسكرية. ولكن بقيت العقدة السياسية الدولية ولم تكن بالهيِّنة، ولكن (كرومر) حلَّال المشكلات ما كان لتقعده مثلها.
>
> كان (السودان وسواحل البحر الأحمر) أعني السُّودان الحالي وأريتريه وهرر وزيلع وبربرة وما جاورها وجزءًا من أوغندا من أملاك (الجناب العالي الخديوي)، وكان هذا بدوره يدين بالسيادة ويؤدي الجزية (لسلطان البرين وخاقان البحرين أمير المؤمنين) السُّلطان العثماني، ولم يكن لخديوي مصر سيادة معدودة دوليًّا منفصلة عن سيادة (الباب العالي)، فلم يكن بمصر سفراء، ولم يكن لها مفوضيات في الخارج، ولكن مصر فقدت السُّودان بفوز الثوار من أهله على سلطانها، بل إن توفيق باشا أعطى غوردون باشا (فرمانًا) يعترف فيه بأنَّه قد أعاد السُّودان إلى أهله من أبناء البيوت المالكة القديمة. وهذا نزول على كلِّ حال. ثمَّ أعيد فتح السُّودان بجيش مصري جديد درَّبه البريطانيون مدة الثلاثة عشر عامًا التي تلت سقوط الخرطوم، وعاونته في ذلك جيوش بريطانية صرفة. هذا بعد أن عمَّت الفوضى

أرجاءه، وفشل بنوه في الاحتفاظ بملكهم الذي شادوه على الرماح يدفعهم حماس ديني وقومي عظيم. لكن تنقصهم الحنكة السياسية، وتنقصهم وحدة الكلمة، وغشي الجهل على عيونهم، وذهبت الحروب الداخلية والغزوات والأوبئة والمجاعات بسبعة أثمان سُكَّان السُّودان على أقل تقدير.

وبريطانيا العُظمى التي احتلت مصر احتلالًا عسكريًّا، وتولت إرشاد وليِّ الأمر فيها إلى أن أنقذتها من الإفلاس أولًا، ثمَّ خلفت لها جيشًا استعادت به مديريات السُّودان، سوى ما اقتطعته إيطاليا وسواها، والتي اشتركت بالرأي وبالمال وبالرجال. والتي حملت على عاتقها عبء الدفاع عن مصر في الداخل والخارج. بديهي أن تكون بريطانيا العُظمى هي المكلَّفة بحل العقدة ما دام بيدها الحل والعقد هنا وهناك. فكيف تفعل بين هذه القوى والحقوق المتضاربة؟ وكانت العقدة المثلَّثة تتلخَّص في:

(١) استحالة السماح لمصر بالتَّصرف المطلق في السُّودان «والعودة إلى سوء الإدارة القديمة».

(٢) استحالة السماح لدولة أجنبية بأن تسيطر على جزء من حوض النِّيل؛ حرصًا على «مصالح مصر وبريطانيا معًا».

(٣) عدم الرغبة في ضم السُّودان إلى الأملاك البريطانية اعترافًا بما لمصر من حق ودرءًا للمشاكل الدولية وخصوصًا مع فرنسا التي كانت ذكرى حادثة فاشودة لم تزل شجًى في حلقها.

ثم يقول المؤلف في ص٦٣:

لم يكن لبريطانيا العُظمى بدٌّ من أن تتكفَّل بالواجب المزدوج فتقضي على الخطر السُّوداني الذي يُهدِّد مصر، وأن تحول دون الدول الأخرى ودون امتلاك السُّودان فتهدِّد بذلك مصر. وكان هذا مسوغًا كافيًا لها بأن تستخدم في سبيل ذلك الجند المصري الذي درَّبته وأمدَّته بالضباط وموارد مصر المالية التي أعادت لها الحياة، كما استخدمت أيضًا رجالها ومالها هي. لقد كان سبب الاضطرابات من عمل مصر، وكانت مصر هي أكثر الناس استفادة من زوالها.

> لقد أنفقت الخزانة البريطانية من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٨٨٥ ثلاثة عشر مليونًا (من الجنيهات) على الحملات العسكرية في السُّودان، ومات أو قُتل نحو ألفي ضابط وجندي من البريطانيين، وأخرج من الخدمة لعدم اللياقة الطبية نحو ٧٠٠٠ من جراء الأعمال الحربية بمصر والسُّودان. وعندما سحبت الجنود البريطانية والهندية من سواكن عام ١٨٨٦ تولت الحكومة البريطانية نفقات الحامية المصريَّة التي تركت هناك. وقد بلغت جملة نفقات الحملة من عام ١٨٩٦ إلى عام ١٨٩٨ نحو مليونين ونصف مليون بذلت الخزانة البريطانية منها ٨٠٠ ألف.

فكان من المحتَّم لحل العقدة أن يكون لبريطانيا العُظمى نفوذ شرعي في البلاد، وأن يكون نفوذها هو الأعلى، وذلك بدون احتياج إلى ضم البلاد إلى أملاك التَّاج البريطاني للأسباب التي تقدمت. أو باختصار أرادت بريطانيا أن تكون الوصية على السُّودان وإن كانت لفظة «وصاية» لم تدخل في قاموس السِّياسة الدولية إلى ذلك الحين، فابتدعت المعاهدة الثنائية التي أوجدت سيادة جديدة في الفقه الدولي مستمدَّة من أكثر من سيد واحد وخارجة عن نطاق ملك السيدين جميعًا، وهو ما عرف باسم (كندومينيوم) Condominium أو ملك مشترك، ويقول أرل كرومر خالق هذا الشيء الجديد:

> بهذا الشكل ولد السُّودان الجديد، وقد رُزق قوة كافية للبقاء. على أنه كان بحكم الضرورة وليد مراعاة الظروف، فإذا مات (الطفل) في المستقبل وحلَّ محلَّه مخلوق سياسي أقوى منه بِنية بسبب كونه أقرب إلى عالم الحقائق، فليس لموجوديه أن يبكوا مصيره.

وهنا نتسائل نحن: هل ما زال هذا الطفل قويًّا؟ أم هو يحتضر ليخلي المكان للمخلوق الجديد القوي؟

ثم يقول ماكميكل: «ولا يتَّسع المجال لإيراد معاهدة ١٨٩٩ هنا بالحرف، ولا داعي لذلك، فهي موجودة في كثير من المراجع بالإنكليزية والعربية، ويكفي أن نمرَّ على موادها مرورًا يوضِّح لنا ما ذكرنا في هذا الباب. ففي ديباجة الاتِّفاقية:

اتفاق مبرم بين الحكومة البريطانية وحكومة خديوي مصر بشأن إدارة السُّودان في المستقبل» ... ثم:

حيث إنَّ بعض مديريات السُّودان كانت قد ثارت ضد سلطة الجناب العالي الخديوي وأُعيد الآن فتحها بجهود مشتركة حربيًّا وماليًّا بين حكومة صاحبة الجلالة البريطانية وحكومة الجناب العالي الخديوي.

وحيث إنَّه قد تحتَّم تقرير نظام لإدارة تلك المديريات المعاد افتتاحها ولسن القوانين لها، مع النَّظر إلى حالة التأخر وعدم الاستقرار التي تسود أجزاء كبيرة منها واختلاف حاجات الجهات المختلفة.

وحيث إنَّه يراد الاعتراف بالحقوق التي آلت لحكومة صاحبة الجلالة البريطانية بحق الفتح؛ حتَّى تشترك في وضع التسوية الحالية وسيرها وتطورها في المستقبل ...

لذلك قد حصل الاتِّفاق ... إلخ.

ومواد الاتِّفاقيَّة اثنتا عشرة تنص على:

(١) حدود السُّودان.

(٢) رفع العلمين البريطاني والمصري في جميع جهاته برًّا وبحرًا.

(٣) تمركز السلطتين المدنية والعسكرية في يد موظف واحد هو الحاكم العام للسُّودان الذي يعينه خديوي مصر بناءً على تزكية الحكومة البريطانية، ولا يمكن إقالته إلَّا بمرسوم خديوي بموافقة الحكومة البريطانية.

(٤) أن للحاكم حق التَّشريع المطلق.

(٥) ألَّا تسري أية قوانين مصرية على السُّودان.

(٦) ألَّا يعطى أي امتياز خاص لأي فئة من الأجانب دون غيرها بشأن الإقامة والإيجار إلخ ...

(٧) إعفاء الواردات المصريَّة من المكوس وتحديد رسوم الصَّادر والوارد.

(٨) ألَّا تسري أحكام المحاكم المختلطة ولا يعترف بها بأي وجه في السُّودان.

(٩) إلى أن يصدر إعلان بهذا الصدد يكون السُّودان تحت الحكم العسكري.

(١٠) ألَّا يُسمح بتعيين قناصل أو وكلاء للدول بالسُّودان بدون موافقة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية.

(١١) تحريم النخاسة.
(١٢) سريان اتِّفاقيَّة بروكسل بشأن حمل الأسلحة النارية وتجارة المشروبات الكحولية.

فأنت ترى أنَّ أرجحية السِّيادة البريطانية ضمنت بحقها في اختيار الحاكم العام والإشارة بعزله، ولمَّا كان الحاكم العام هو الذي يحكم البلاد ويسن القوانين أصبح منفذًا لوجهة نظرها بدون تقييده بذلك النص في صلب الاتِّفاقية. والموافقة على تعيين القناصل — وهي من شارات السِّيادة — لم تترك ولو ضمنًا للحاكم العام ولا لخديوي مصر، بل جُعلت رهنًا بموافقة الحكومة البريطانية. قولوا إنَّ الحاكم العام غير مقيد قانونًا باستشارة بريطانيا العُظمى أو مصر فيما يرى اتخاذه بصفته المشرف المباشر على أحوال البلاد، بل هو شرعًا صاحب سلطة غير محدودة على الأرواح والأموال، لكنه يُعيَّن ويُعزل بإرادة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية، فهو رهن سياستها في الواقع. وأذكر أنني قرأت أخذًا وردًا طريفًا للفقيد غوردون في مذكراته حول هذه النقطة، فقد كان هو ضابطًا في الجيش البريطاني، ولكنَّه مزوَّد بفرمان يطلق يده في التَّصرف من صاحب الحق الشرعي في البلاد … إلخ، فهو غير مقيد باتباع نصائح هذا أو ذاك، ولكن … إلخ. أما عن حقوق مصر فيقول المؤلف «ماكميكل» (ص١٧٠):

> إنَّ حقوق مصر الثابتة في النِّيل هي ضرورية جدًّا لأجل رفاهيتها، ومن الإنصاف أن نفترض أن وجود هذه الحقوق كان إلى حدٍّ ما عاملًا في التسليم لها بنصيب في السِّيادة على السُّودان، وهو قرار ما كان يسهل تسويغه اعتمادًا على الاعتبارات التاريخية دون سواها. ولم يحصل مطلقًا أن تُجوهلت أو أنكرت هذه الحقوق، بل على النقيض من ذلك اعترفت بها بريطانيا مرارًا تكرارًا.

وإليك الفقرة الآتية (ص١٧) من المذكرات المتبادلة بين الحكومتين البريطانية والمصرية في مايو ١٩٢٩ بشأن مياه النيل:

> … وبدون موافقة سابقة من الحكومة المصريَّة لا تقام أي مشاريع للرَّي أو منشآت على نهر النِّيل أو أحد فروعه أو على البحيرات التي يجري منها طالما كانت داخل حدود السُّودان أو أي قطر تحت الإدارة البريطانية إذا كان من شأن تلك المشاريع أو المنشآت التأثير على مصالح مصر، سواء بإنقاص كمية المياه التي تصل إلى مصر أو تغيير موعد وصولها أو تخفيض مستواها.

ورأي «ماكميكل» لا يخرج في كثير أو قليل عن رأي رجل اشترك بالفعل في تنفيذ السِّياسة البريطانية وإجراء العدل البريطاني في السُّودان، وكان من المتحمسين للتصغير من شأن الحقوق المصريَّة في السُّودان وتسفيه رأي القائلين بضرورة الاعتراف لحكومة مصر بالاشتراك في إدارة السُّودان.

عهد الإصلاح الأول (١٨٩٨–١٩٠٢) يقول المؤلف في مستهل هذا الفصل:

> لقد واجه اللُّورد كتشنر والشرذمة القليلون من الضبَّاط الذين تركوا ليعاونوه بعد واقعة أم درمان عملًا ضخمًا، وقد كان من حظهم وحظ خلفائهم أن يكون من ورائهم معينًا ومرشدًا وكابحًا في بعض الأحيان أحكم الساسة اللُّورد كرومر. فإذا أفردنا شخصًا بعينه من بين الكثيرين الذين وضعوا الأسس المدنية للسُّودان الجديد كان هو أحقهم بالفخر الأكبر. ولكن يقلل هذا التخصيص من عظم النجاح الذي أحرزه أولئك الرواد الأولون الذين وقع على عواتقهم واجب النهوض بالعمل في وجه صعاب كادت تبدو مستحيلة التذليل.
>
> نعم لقد كان واجبهم صعبًا عليهم؛ كانوا رجالًا ذوي حكمة وحزم ونزاهة قبل كلِّ شيء، مع لين في العريكة في الغالب وبطش عند اللزوم. وقد قال كتشنر لمعاونيه بحق: «… إننا إنما نعتمد على العمل الانفرادي الذي يقوم به الضبَّاط البريطانيون، حيث يشتغلون مستقلين، ولكن في سبيل غرض واحد، وما يتركونه من أثر على أفراد الأهالي الذين يحرزون ثقتهم، للوصول إلى الإصلاح المعنوي والصناعي للسُّودان …»

من أجل هذا كان الاعتماد في بادئ الأمر على كفاية المديرين والمفتشين البريطانيين، وعلى نشاطهم ونزاهتهم وعفتهم وحزمهم وما اتصفوا به من خلال تحبب الأهالي فيهم؛ وبالتَّالي في النِّظام الجديد الذي هم رواده والممثلون له. ولم تكن القوانين تصدر إلَّا بقدر الحاجة، وكانت دائمًا موجزة مجملة. بل إن اللُّورد كرومر، وكان يعلق على الميزانية، كتب في عام ١٩٠١ عن زيادة المنصرف على بند (أدوات كتابية) على المربوط بستمائة جنيه، وأن المطلوب عن عام ١٩٠٢ هو ألفان من الجنيهات، فقال:

> أخشى أن يكون معنى هذه الزيادة أن مقدار الوسائل الرَّسمية بالسُّودان في ازدياد، والأرجح أن هذا لا مناص منه إلى حدٍّ ما. ولكن على الرغم من هذا فإنَّني أجرؤ على إبداء أملي في أن تقوم مقاومة مستديمة في وجه الإفراط في كتابة الرسائل؛ فإنَّها تدل على الإفراط في (المركزية)، مع أن السُّودان قطر يجب أن تسير الإدارة فيه على قاعدة (اللامركزية) ما أمكن ذلك.

ولكن مع هذا بدأ التَّشريع بنشاط؛ فوضع قانون للعقوبات وقانون للتحقيقات الجنائية وقانون للدعاوى المدنية، وسُجِّلت الأراضي بقدر المستطاع لمالكيها الواضعين أيديهم عليها، ووضعت الميزانية (وإن بقيت مصر مدة طويلة تدفع عجزها)، ومن أمثلة ما تمَّ من الإصلاح في بضعة عشر عامًا نذكر أن (مستر بونهام كارتر) بدأ الخدمة في القسم القضائي عام ١٨٩٩ يساعده كاتب واحد في القسم المدني وسبعة قضاة «شرعيين» وعشرة كتَّاب لهم. وعندما غادر (السر إدجار بونهام كارتر) السُّودان عام ١٩١٧ ترك وراءه (مصلحة السكرتير القضائي، ومحكمة عليا، ومحاكم كلية وجزئية، ومحاكم شرعية إسلامية، ومكتبًا للمحامي العمومي ونظامًا لتسجيل الأراضي، ومصلحة لإدارة الأراضي الحكومية)، ولم يكن التَّقدُّم في جميع المصالح الأخرى دون هذا، ووضع نظام محكم لجباية الضرائب. وأُنشئت كلية (غوردون) والمدارس الابتدائية والأولية، وكان الحافز الأول على إنشائها إيجاد طبقة من (المعلمين) كانت الإدارة في أشد الحاجة إليها. ولا يفوتنا هنا أن نورد تفسير اللُّورد كرومر لهذه الكلمة:

> على أنَّني أودُّ أن أوضِّح ما أقصد بالفئة المتعلمة؛ فإنَّني لا أشير إلى التَّعليم العالي … بل إنَّ المطلوب مبدئيًّا تعليم القراءة والكتابة والحساب لعددٍ معيَّن من الشبان. بالقدر الذي يمكنهم من أن يفيدوا في ملء الوظائف الصغيرة في إدارة البلاد. فإنَّ الحاجة إلى مثل هذه الفئة جد ماسَّة.

ومد الخط الحديدي إلى شمالي الخرطوم (الحلفاية)، واتسع نطاق الأسلاك التلغرافية. وإنَّ الذين ينظرون إلى السُّودان الآن لا يمكنهم أن يتصوَّروا الصعاب التي كانت تكتنف أعمال التَّقدُّم منذ أكثر من ٣٠ عامًا.

فقد كان أهم هذه الصعوبات: (١) قلة السُّكان و(٢) قلة المال و(٣) صعوبة المواصلات. أمَّا الأولى فيكفي أن نورد ما جاءت به الإحصاءات الرَّسمية؛ فقد كان سُكَّان السُّودان قبيل الثَّورة المَهديَّة ثمانية ملايين ونصف مليون من النفوس، (والأرجح أنهم

كانوا أكثر من ذلك)، بقي منهم بعد الفتح الأخير مليون واحد وسبعمائة وخمسون ألفًا. ويقدر أن المجاعات والأوبئة أتت على نحو الثلاثة ملايين ونصف المليون وأنَّ الحروب والفتن الداخلية أتت على ثلاثة ملايين وربع مليون.

يقول سير ماكميكل: «لقد استغرقت مفاوضات النحاس — هندرسون ١٤ جلسة من ٣١ مارس إلى ١٧ إبريل، وإنَّ الوفد الرَّسمي المصري قد طلب أن تكون تفسير المادة ١٣ — الخاصَّة بالسُّودان — في مقترحات هندرسون — محمد محمود — كما يأتي:

> المادة ١٣: حالة السُّودان: هي التي تنشأ من هذه الاتِّفاقات «الاتفاق الثُّنائي ١٨٩٩» يجب تفسيرها بأن حالة السُّودان هي التي في نظرنا كان يجب أن تنشأ من اتِّفاقيَّة ١٨٩٩. أي التي تتضمَّن سيادة مصر على السُّودان ونصيبها في إدارته.

(١) رأي اللُّورد كرومر

«إنَّ الذين يخترقون الصحاري المحرقة بين وادي حلفا وبربر أو القفار بين النِّيل والبحر الأحمر التي مدَّت فيها سكة الحديد وهم يعلمون أن مثل هذه القفار الشاسعة التي قلَّما تنبت شيئًا أو يعيش فيها حيوان، كثيرة جدًّا في بلاد السُّودان، لا يُلامون إذا قالوا مع غوردون وستيورت أول شهيدي العمران في تلك البلاد إنَّها كانت وستبقى دائمًا سلكًا لا نفع منه. لكن لقد أخذ يثبت على مرِّ السنين أن هذا القول غير صحيح. وأهمية بلاد السُّودان فيما يتعلَّق بالقطر المصري لا تتوقَّف على قابليتها للارتقاء، بل على كون النِّيل يخترقها من طرف إلى طرف، وعلى أن التَّحكم فيه على طول مجراه مهمٌّ جدًّا للقطر المصري، ولولا هذا الأمر لكان إنقاذ السُّودان من حالة البربرية والهمجية غير جدير في رأيي بالنفقات الكثيرة التي تنفق عليه من الأموال المصريَّة والأرواح المصريَّة وغير المصريَّة المنوطة بخدمته. ولو كان هذا الإنقاذ حسنًا لذاته، ولكن رأت مصر وحكامها أن إنقاذ السُّودان أمرٌ لا بدَّ منه ماليًّا وسياسيًّا، وهذا الإنقاذ يؤول أيضًا إلى ترقية بلاد السُّودان فتصير له أهمية أخرى ذاتية من غير النفقات إلى الغرض الأول.»[٢]

(٢) رأي اللُّورد ملنر

«لا بدَّ من ترك السُّودان بكل سرعة ممكنة، وإن كلَّ وزير لا يوافق على هذا البرنامج لا بدَّ أن يترك منصبه، ولا شكَّ أن هذا القرار كان عادلًا. وإذا نحن ذكرنا هذا فلا يظن أحدٌ أنِّي أجادل في أن امتلاك السُّودان أو على الأقل جزء عظيم منه ليس بذي أهمية أو أنَّه لا يكون ضروريًّا في المستقبل لسعادة مصر. غير أن الحزم يقضي على الإنسان الذي حلَّ به أشد الضيق بأن ينزل على جزء مهم من ملكيته خير من وقوعه في هاوية الإفلاس، وأن الجند المضغوط عليه بشدة يجد أنَّ الضرورة قد تُوجب ترك النقط الأمامية المهمة محافظة على القلعة الرئيسية التي تحتمي بها، ولو أن مصر نزلت عن السُّودان وقت أن كان في غير مقدورها المحافظة عليه فإنَّ ذلك لا يعتبر سببًا يدعوها إلى الانصراف عن استرجاعه كله أو بعضه عندما يكون لديها القوة، كما أنَّه لا لوم على من يقومون بواجب وإن كان ممقوتًا غير أنه ضروري كما يضطر ربان سفينة أن يُلقي في اليم بضاعة ثمينة؛ في بقائها غرق السفينة.»[٣]

(٣) رأي المستشار المالي

يقول المستشار المالي الإنكليزي لدى الحكومة المصريَّة في تقريره الصَّادر في ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٤: «إنَّ السُّودان ضروري لمصر، بل هو ألزم لها من مدينة الإسكندرية.»

جاء في مذكرة الوفد المصري في المقدمة لمؤتمر الصلح سنة ١٩١٩: «إنَّنا بطلبنا إرجاع السُّودان إلى مصر نريد أن نجعله شريكًا له ما لنا وعليه ما علينا.»

(٤) رأي الأمير عمر طوسون

مقال عن (حقوق مصر في السُّودان). نشرته جريدة (المقطم) بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٩٣١، وها هو:

> استغلت الصحف زيارة مستر موري ومستر سبندر لمصر في هذه الآونة الأخيرة، وذهبت إلى أنَّ هذه الزيارة ليس لها من علة في الوقت الحاضر إلَّا أن تكون لمعالجة المسألة المصريَّة التي ما زالت معلقة بدون حل بين البلدين إنكلترا ومصر، وأنَّ أهم نقطة من نقط المسألة المصريَّة جاء هذان السياسيان

لدرسها وعلاجها هي السُّودان، الذي كان — وما زال — أكبر عقبة في سبيل أية مفاوضة تدور بيننا وبين البريطانيين ما داموا مُتشبِّثين به غير حافلين بما لنا من الحقوق فيه.

ولقد ذهبت تلك الصحف أيضًا إلى أن رحلة مستر موري ومستر سبندر إلى السُّودان في الوقت الذي يقيم فيه المندوب السَّامي هناك لم تكن على سبيل المصادفة، وإنَّما هو اجتماع في نفس البلد الواقع بشأنه النزاع يقصد منه بالاتِّفاق مع حاكمه البحث ومعرفة الحد الأقصى الذي تستطيع بريطانيا أن تذهب إليه في مسألة السُّودان ما دام قد ظهر أنه من غير الممكن عقد أي تسوية بين البلدين دون أن تُحل هذه العقدة المستعصية.

ولست أدري إن كان ما ذهبت إليه هذه الصحف صحيحًا أو غير صحيح. ولكن الذي أعلمه علم اليقين وأحب أن يعلمه أيضًا هذان الضيفان على وجه خاصٍّ والجمهور البريطاني على وجه عامٍّ أنَّه من غير الممكن أن يقبل مصري مهما كانت صفته السياسية أو نزعته الحزبية التَّخلي عن السُّودان، وأنَّه لا يمكن بأي وجه من الوجوه أن يوافق على تسويةٍ ما بشأن مصر تسوية لا ترد لنا فيها حقوقنا في السُّودان.

ولقد أقام جميع من فاوضوا الحكومة البريطانية من المصريين على اختلاف نزعاتهم الحزبية. الدليل على أن المسألة السُّودانية كانت دومًا السبب في حبوط المفاوضات وقطعها.

لذلك أرى بعد هذا أن يبدأ بحل مسألة السُّودان قبل حل مسألة مصر لأنَّ الأولى تفوق الثَّانية، وليس من المعقول حل المسألة الثَّانية في المرتبة وترك المسألة الأولى لآخر الأمر، حتَّى إذا فرغ المفاوضون أو كادوا جاءت مسألة السُّودان فأفضت إلى قطع المفاوضات.

فلو عُكس الوضع واتُّفق على مسألة السُّودان أولًا لوُجِد أن الاتِّفاق عليه يدعو حتمًا إلى سهولة الاتِّفاق على مصر. فقد يستطيع المصريون أن يتنازلوا عمَّا يُستطاع التنازل عنه في مصر. أمَّا السُّودان فتمسكهم بحقوقهم فيه أشدَّ التَّمسك أمرٌ واجبٌ لا هوادة فيه؛ لأنَّه فضلًا عن كونه جزءًا لا يتجزأ من مصر فمسألته في حقيقة أمرها مسألة حياة أو موت.

إنِّي أعنى بردِّ حقوقنا في السُّودان بالردِّ الفعلي لهذه الحقوق أي الذي يوضع موضع الإجراء على الفور، لا تلك التَّحفظات التي تتَّخذ لحفظ هذه الحقوق إلى أجلٍ مُعيَّن أو غير معين. فإنَّ هذا في نظري والتنازل عن حقوقنا في السُّودان سواء.

ولذلك نرى أن الإنكليز لا يهتمون باتِّفاقية السُّودان اهتمامهم باتِّفاقية مصر على عكس الأمر عندنا. فهم يودُّون بلهفٍ شديدٍ عقد تسوية معنا بشأن مصر فقط لجعل مركزهم فيها شرعيًّا، ولا يهتمون بمسألة الاتِّفاق على السُّودان أقل اهتمام.

فإذا رضينا أن نؤجِّل المسألة السُّودانية نكون بذلك قد اتَّبعنا خطة تفضي إلى الغاية التي يعمل لها الإنكليز، بل نكون كأنَّنا نعمل ليقضي الإنكليز لبانتهم فَتُقْبَر مسألةُ السُّودان ولا يمكننا بعثها من مرقدها بالتَّحفظات التي تكون في أيدينا مهما كانت قوية.

وإنِّي أحب أن يعلم الإنكليز أن شدَّة اشتياقنا لحل مسألة مصر، وأن التَّجارب التي مرت، تقضي علينا أن نأبى ونرفض رفضًا باتًّا أن ندخل معهم من جديد في مفاوضة بشأن مصر قبل أن يتَّفقوا معنا على مسألة السُّودان؛ لأنَّه خير لنا أن نظلَّ على الحالة التي نحن فيها من أن نعقد اتفاقًا لا ترد لنا حقوقنا في السُّودان فيه بالفعل.

(٥) رأي الجمعية التَّشريعيَّة

كانت الجمعية التَّشريعيَّة نوعًا من المجالس التمثيلية محدود الاختصاص، لم تتجاوز السنة الأولى من حياتها سنة ١٩١٤، ثمَّ عطلت بسبب الحرب الكبرى. وبعد قيام الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ نشط أعضاؤها. ورأوا أن يجتمعوا بالرَّغم من تعطيلها.

ولَمَّا كان اجتماعهم في مكانهم الرَّسمي غير ميسور كأمر السلطة العسكرية البريطانية، وجهت الدعوة إلى الأعضاء للاجتماع في بيت الأمة «دار سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري» يوم ٩ مارس سنة ١٩٢٠. فاجتمع منهم ٥١ عضوًا في الموعد والدار المحددين. بحثوا في الحالة السياسية من كلِّ وجوهها المختلفة. وننشر فيما يلي نص محضر هذه الجلسة:

في الساعة الرابعة والدقيقة عشرة من يوم الثلاثاء الموافق ١٨ جمادى الثَّانية سنة ١٣٣٨ الموافق ٩ مارس سنة ١٩٢٠.

انعقدت الجمعية التَّشريعيَّة بمنزل حضرة صاحب السعادة سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التَّشريعيَّة المنتخب ورئيس الوفد المصري، بحضور حضرات الآتية أسماؤهم: إبراهيم سعيد باشا، وحسين واصف باشا، وقليني فهمي باشا، وراغب عطية بك، وفتح الله بركات باشا، وحسين هلال بك، وحسن سيف أفندي، والدكتور محمد أمين بدر بك، ومحمود الأتربي باشا، والسعدي بشارة الطحاوي بك، وعمر مراد بك، ومتولي حزين بك، وعمر خلف الله بك، وإبراهيم علي بك، ومحمد محمود بك، وحنفي منصور بك، ومحمد علام بك، وعلي المنزلاوي بك، وسينوت حنا بك، ومحمد رشوان بك الزمر، وإسماعيل أباظه باشا، ومحمود أبو حسين باشا، وعبد اللطيف الصوفاني بك، والشيخ محمد شاكر، ومحمد السيد أبو علي باشا، وعبد الرحمن عوض بك، والشيخ عبد الفتاح الجمل، وعلي شعراوي باشا، وحافظ المنشاوي بك، وأمين سامي باشا، ومنصور يوسف باشا، ويوسف أصلان قطاوي باشا، وزكريا نامق بك، وعبد السلام العلايلي بك، ومحمد كمال أبو جازية بك، وعلوي الجزار بك، ومحمد أمين أبو شنب بك، ومحمود همام بك، ومحمد محفوظ باشا، وعبد الرحمن محمود بك، ومشيل لطف الله بك، ومحمد المنياوي بك، ومحمد علي سليمان بك، والمصري السعدي بك، ومصطفى بكير بك، ومحمد عزام بك، وكامل صدقي بك، وحسين الشريعي بك، ومحمد عبد الخالق مدكور باشا.

وقد انتخب لرياسة الجلسة حضرة صاحب السعادة إبراهيم سعيد باشا بصفته أكبر الأعضاء سنًّا ولأعمال السكرتارية حضرات فتح الله بركات باشا، وحسين هلال بك، ومحمد عبد الخالق مدكور باشا بالإجماع.

وبعد ذلك أعلن سعادة الرئيس افتتاح الجلسة، واقترح محمد عبد الخالق مدكور باشا إيقاف الجلسة خمس دقائق حدادًا على من انتقل إلى رحمة الله من أعضاء الجمعية في مدَّة عطلتها، فأُوقفت الجلسة خمس دقائق.

أعيدت الجلسة، وتلا سعادة فتح الله بركات باشا اعتذارات واردة من أصحاب السعادة والعزة أحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية على لسان

صاحبي السعادة إبراهيم سعيد باشا، وفتح الله بركات باشا، اللذين دعياه لحضور الجمعية، وطلبة سعودي باشا، ومحمد شريعي باشا، ومرقس سميكة باشا، ومحمد عثمان أباظة بك.

وكذلك تليت جملة تلغرافات واردة من جهات متعددة من أعيان ووجوه القطر بإظهار شعورهم نحو الجمعية وتضامنهم معًا، واحتجاجهم على المشروعات التي آلمت الأمة.

ثم تباحثت الجمعية فيما عُرِض عليها من اقتراحات حضرات الأعضاء، وقررت ما يأتي:

أولًا: أن الجمعية التَّشريعيَّة تعتبر الحماية التي أعلنتها إنكلترا، من تلقاء نفسها على مصر، عملًا باطلًا لا قيمة له من الوجهة القانونية.

ثانيًا: تقرر الجمعية أن البلاد المصرية، التي تشتمل مصر والسُّودان مستقلة استقلالًا تامًّا وفاقًا لقواعد الحق والعدل والقانون، وكل مظهر من مظاهر اعتداء القوة على هذا الاستقلال لا يؤثر وجوده من الوجهة القانونية، وليس من شأنه إلَّا أن يزيدنا تمسكًا به.

ثالثًا: تحتجُّ الجمعية على تعطيلها وعلى كلِّ القوانين والنظامات التي وضعت في أثناء تعطيلها لصدورها من غير عرضها عليها.

رابعًا: تحتج على كلِّ الاعتداءات التي أصابت البلاد وأبناءها، سواء كان الاعتداء واقعًا على النفس أم المال أم أي نوع من أنواع الحرية.

خامسًا: تحتجُّ على البدء في مشروعات ريِّ السُّودان، وتطلب وقف هذه المشروعات وقفًا تامًّا حتَّى يُبتَّ في المسألة المصريَّة ويُعرض الأمر على الهيئة النِّيابية التي تمثل البلاد بجميع أجزائها، وذلك للأسباب الآتية:

(أ) لأنَّ مصر والسُّودان كلٌّ لا يقبل التجزئة. وكل مشروع يتعلَّق بهما لا يجوز تنفيذه قبل أن توافق الأمة عليه.

(ب) لأنَّ هذه المشروعات لم تلاحظ فيها مصلحة السُّودان منفردًا ولا مصلحة مصر وحدها ولا مصلحة الاثنين معًا. وقد قامت عليها اعتراضات فنية واقتصادية وسياسية وصحية من كثيرين، ومنهم رجال من الإنكليز

ذوي المكانة الذين أثبتوا أن كلَّ هذه المشروعات ضارَّة بالبلاد وأنَّه لم يُقصد بها سوى مصلحة الأجنبي وفائدة أصحاب رؤوس الأموال والشركات من الإنكليز.

سادسًا: قرَّرت أن كلَّ عمل قامت أو تقوم به الهيئة الحاكمة، ويكون فيه مساس بالاستقلال التَّام لمصر أو السُّودان أو مصالحهما، يعدُّ لغوًا ولا يلزم الأمة في شيء ما؛ فالأمة وحدها صاحبة الشأن في تقرير كلِّ ما يتعلَّق بأمورها الحاضرة والمستقبلة.

سابعًا: تقرير الجمعية إبلاغ هذه القرارات إلى الجهات الآتية:

(١) الوفد المصري في باريس.

(٢) رياسة مجلس الوزراء.

(٣) قناصل الدول في مصر.

(٤) الصحف المصرية.

(٥) كبريات الصحف الأجنبية خارج القطر.

(٦) سكرتارية الجمعية التَّشريعيَّة لحفظه بسجلاتها.

ثامنًا: إرسال تلغراف لسعادة رئيس الوفد المصري بباريس لشكر الوفد على ما قام به من الأعمال.

تُلي المحضر وتصدق عليه.

وانتهت الجلسة حيث كانت الساعة السابعة والدقيقة ٤٥ مساءً. ويلي ذلك إمضاءات جميع الأعضاء الحاضرين. ا.هـ.

وكان هذا الاجتماع اجتماعًا تاريخيًّا هامًّا.

(٥-١) أمر عسكري من اللُّورد اللنبي

وقد أصدر اللُّورد اللنبي أمرًا عسكريًّا بمنع اجتماع النواب إلَّا بأمر رسمي منه.
وهذا هو نص الأمر العسكري الصَّادر في ١٦ مارس سنة ١٩٢٠.

أنا الموقع أدناه أدمند هنري هيمن فيكونت اللنبي، بمقتضى السلطة المخوَّلة لي بصفة كوني فيلد مرشال قائدًا عامًّا لقوات جلالة الملك في القطر المصري، أصرح وأعلن ما يأتي:

ممنوع كلّ اجتماع للجمعية التَّشريعيَّة أو لأي مجلس مديرية أو لأي هيئة منتخبة وكل اجتماع من أعضاء تلك الهيئات، بصفتهم أعضاءً فيها، ما لم يكن ذلك بمقتضى الشروط المنصوص عليها في القوانين واللوائح الخاصَّة بها.

ويشمل هذا المنع كلَّ اجتماع من هيئتين أو أكثر من الهيئات المنتخبة ومن أعضاء هيئتين أو أكثر من تلك الهيئات بصفتهم أعضاءً فيها ما لم يكن مرخصًا بهذا الاجتماع ترخيصًا صريحًا بمقتضى القانون.

وكل مخالفة للأحكام المتقدمة تقع تحت طائلة الأحكام العسكرية.

وكل قرار تأخذه، أو توافق عليه، إحدى الهيئات المنتخبة في أي موضوع خارج عن اختصاصها، يكون مُلغًى ولا يعمل به. وجميع الأعضاء الذين يكونون قد وافقوا على ذلك القرار يكونون عرضة للمحاكمة أمام مجلس عسكرى.

في ١٦ مارس سنة ١٩٢٠.

الإمضاء: اللنبي
«فيلد مرشال»

(٦) برقية سعد زغلول باشا

فيما يلي البرقية التي أرسلها (حضرة صاحب المعالي) سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري من باريس:

> إنَّ أعضاء الجمعية التَّشريعيَّة قد أدَّوا الواجب المقدس باعتبارهم الحماية باطلة قانونًا وإعلانهم استقلال مصر والسُّودان.

(٧) رأي مجلة الفجر

قالت مجلة الفجر عن مستقبل السُّودان ما يلي:

> إنَّ الجيل الذي ابتدأت حياته بالفتح الإنكليزي المصري للسُّودان، عقب الثَّورة المهدية، لهو الجيل الذي يمثل الكتلة الحية الناطقة في السُّودان الفتيِّ. وكلية غوردون التذكارية كانت المعمل الذي كُيِّفت فيه المادة البشرية لتسدَّ أولًا حاجة دواوين الحكومة، ولتتقلَّد ثانيًا القيادة في الحياة الاجتماعية والفكرية للبلاد.
>
> ولسنوات مضت، كان خريجو كلية غوردون التذكارية يعملون في دواوين الحكومة فقط ليكفوا حياة ذويهم وأنفسهم. لقد كان ذلك جميلًا وحسنًا؛ لأنَّ كسب العيش أول الواجبات في المجتمع وتأسيس الأسرة المنظمة ضمان لخير أساس تقوم عليه جماعة متمدينة. إن نظرتهم للحياة لم توجد، وإذا وجدت فلم تكن معروفة لهم جميعًا كأعضاء مجتمع واحد يعملون لخير أمتهم. ولم يقوموا بأية محاولة لكشف النقاب عن مستقبل بلادهم في الاجتماع والسياسة. بل لم يفكروا في تحسين مستواهم في حكومة البلاد ليس كموظفين فحسب، بل كشريك ثالث فعَّال في مثلث القوى المتعادل الذي ناتجه هذه الهيئة السياسية العامَّة المعروفة «بالسودان».
>
> وحكومة السُّودان أول تجربة من نوعها في السِّياسة الدولية. والحكومة الثنائية التي تسير حسب بنود الاتِّفاقيَّة الإنكليزيَّة المصريَّة لعام ١٨٩٩، والتي أعطت حكومة صاحبة الجلالة البريطانية حق الحكم في السُّودان على قاعدة استشارة سمو خديوي مصر، أما كان لها أن تعتبر حقوق الشريك

الثالث، أهل البلد: الطبقات العاملة الدافعة للضرائب، والذين يجب أن تكون لهم كلمة في تكييف مصيرهم.

إنَّ جيلنا هو الكتلة الحية الناطقة في السُّودان الفتيِّ. ونحن نطمح لنميز أنفسنا باتِّخاذ نظرة خاصة للحياة: سياسيًّا واجتماعيًّا وأدبيًّا. إنَّنا في مفترق الطرق. فإمَّا أن نسلك الطريق القويم وإما أن نضلَّ السبيل. ونحن لا نحمل عداءً للهيئة الحاكمة ولا للدخلاء ولا لأساطين مجتمعنا — في القبائل أو الدين — فرادى أو مجتمعين، ما داموا يعملون جميعهم في تجاوب ولخير هذا البلد. وسنكون دائمًا أصفياء متعاونين؛ ولننفِّذ هذا المبدأ ونحافظ عليه ينبغي أن نكون صريحين ومُفصحين. ينبغي أن نوضِّح نظرتنا، وليتأكد الجميع أنَّنا سنعمل بها.

قد يسأل سائل: لماذا نذيع نظرتنا في الصحافة؟ ولماذا لا نحتفظ بتجاربنا لأنفسنا؟

والجواب على ذلك أنَّه ممَّا يساعد غرضنا في الحياة أن نعرف كيف ينظر الآخرون إلى الحياة، وماذا ينتظرون منها، وماذا يجدون فيها وما الذي لا يجدون … وفي الناحية الأخرى لنوقفهم على مهمتنا. ولنتحدث إذًا بجلاء عن ماهيِّة نظرتنا ليساعدهم على أغراضهم.

لقد جاء الأوان الذي ينبغي أن تبدأ فيه الحكومة — بما لها من الوصاية — لتعطي الوطني الفرصة لكسب الصفات اللازمة للحكم الذاتي، إنَّنا ننظر للحكومة كهيئة نظامية جاءت لخلاصنا وإرشادنا. ونطلب منها المكانة الثَّانية في الدواوين مباشرة بعض كبار الموظفين البريطانيين لنتَّصل اتصالاً مباشرًا بمعضلات المسائل في حكم البلاد ولنشترك في تقرير مصيرنا. وسيكون واجبنا مشاطرة البريطانيين أعباء المسئولية في الحاضر وتأهيل أنفسنا للغد. ولربما نبدأ بالسؤال الآتي: «أليس في نظام الإدارة الأهليَّة الأساس الصحيح للحكم الذاتي؟» وجوابنا على ذلك أن الإدارة الأهليَّة محتمل فشلها ما دامت في أيدي الجهلاء، حيث لا نراها إلَّا ظلًّا زائفًا من العهد الإقطاعي. وإذا قُدِّر للإدارة الأهليَّة أن تبقى فينبغي أن تكون في أيدي الجيل المتعلم.

إنَّنا نرى أن الإدارة الأهليَّة قائمة على النَّعرة القبيلية والأرستقراطية الدينية، والنَّعرة القبيلية والأرستقراطية الدينية لسنا في حاجة لنقول إنَّهما

مصدر الكثير من مصائبنا. وإنهما بمثابة الطوائف في الهند، ولهذا السبب نحن لا نعمل على وفاق، والقوى دائمًا متوزعة في جهات متضادة. وإنَّنا لننظر للنعرة القبيلية والأرستقراطية الدينية بعين الوطني المخلص الذي يريد أن يتخلَّص من أخطاء الماضي وأن يُعبِّد الطريق لمستقبل زاهر.

وإنَّا لننتوي الانتفاع بتجارب الماضي والحاضر على ضوء العلم والبحث الحديثين. وسندرس بإمعان تقاليد الماضي وعادات الأهالي وأعمال الحكومة، وسنقدر ونساعد ما يتَّفق منها ومُثلنا العُليا، وسنودع ما نرى فيه نقصًا لمجتمعنا وما سيقعد بأغراضنا. ونظرتنا في الحياة أن نخلق عناصر جديدة من مخلفات الماضي. والتَّسامح والإخلاص والتَّجديد يتكون منها شعار جيلنا.

وجاء في مجلة الفجر أيضًا ما يلي:

قبل أعوام كانت تتَّجه سياسة الحكومة لتقسيم السُّودان إلى مقاطعات كبرى تحوي كلُّ واحدة منها اثنتين أو ثلاثًا من المديريات الحالية، غير أنَّ هذه السِّياسة لم يُبدأ بتنفيذها إلَّا قبل عام واحد، حيث أُدمِجت مديرية حلفا ومديرية دنقلا ومديرية بربر، وأسميت بالمديرية الشمالية، وقلنا: لعلَّ تلك خطوة لا ثانية لها، ولكن سرعان ما أُدمجت مديرية الفنج في مديرية النِّيل الأزرق، وأسميت بمديرية الجزيرة، فقلنا: لعلَّ مصالح الرَّي ونظامه وطبيعة البلاد دعت إلى هذا الاندماج، والآن وصل إلى أسماعنا خبر اندماج مديرية بحر الغزال ومديرية منجلا، وسميت بمديرية خط الاستواء، ومن هنا علمنا أنَّ سياسة الاندماج أخذت في التنفيذ الجدِّي، ولعل وراء هذه السِّياسة خطة جديدة للحكم نستطيع أن نتكهَّن عنها، فلربما في النِّية تقسيم السُّودان إلى خمسة أو ستة أقسام كبرى يكون لكل منها مدير إنكليزي وأمير من الوطنيين؛ فتنفَّذ بذلك السِّياسة المتَّبعة في الهند أو في نيجريا. وقد يتبع ذلك انفصال السِّياسة في كلِّ مقاطعة عن المقاطعة الأخرى بأن يكون نظام التَّعليم فيها غير متَّصل بنظام التَّعليم في المقاطعات الأخرى، وتكون ميزانيتها وماليتها غير مرتبطة بميزانيات وماليَّات المقاطعات الأخرى، وهذه السِّياسة قد تنتج نتاجًا حسنًا في بعض المقاطعات، ولكنَّها ستكون سيِّئة العواقب في بعضها، وستكون سبيلًا لتوتر الصلات بين أفراد القطر، فلا يشعر من في

هذه المقاطعة بما يحسُّه مَنْ في المقاطعات الأخرى. وأول بوادر هذه السِّياسة ما سمعناه عن أن مدير المديرية الشمالية طلب أن تكون في المديرية مدرسة وسطى واحدة كبيرة بدلًا من الثلاث مدارس التي في حلفا وبربر وعطبرة، وفي مثل هذا التصريف إضرار بالتَّعليم؛ لأنَّ من السهل أن يُعلِّم من في حلفا ابنه في مدرسة حلفا، ولكن إذا انتقلت المدرسة إلى بربر مثلًا فلن يكون من السهل تعليم ابنه في بربر.

ونحن نترك هذا الموضوع ليفصل فيه الزمن، ونرجو حكومتنا أن تفعل ما فيه خير الأمة كوحدة لا تتجزأ.

(٨) تقرير السير جيمس كري

ونشرت الجمعية الإفريقية البريطانية مؤخرًا تقريرًا هامًّا رفعه إليها السير جيمس كري — وهو الذي كان ناظرًا لكلية غوردون ومديرًا للتعليم بالسُّودان من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩١٤، والآن مدير النقابة الإمبراطُوريَّة لزراعة القطن — عن شؤون التَّعليم وإدارته في السُّودان في الحقبة الأخيرة، غير أنَّ السير جيمس — وهو من ذوي الخبرة العظيمة بأحوال السُّودان — تناول في تقريره الإدارة العامَّة في السُّودان، وأبدى ما عَنَّ له من الانتقادات والملاحظات في صراحة من شأنها أن تجلو الموقف الحاضر، وتدلَّ على فشل السِّياسة التي قضت بإقصاء المصريين عن السُّودان في السنوات الأخيرة، وقد رأيت أن أدوِّن هنا بعض الفقرات الواردة في هذا التَّقرير ممَّا له مساس بالتَّطور الأخير في السُّودان.

بعد أن أسهب السير جيمس كري في وصف نظام التَّعليم بالسُّودان حتَّى نشوب الحرب العالمية، انتقل إلى الكلام على الإدارة في السُّودان بعد سنة ١٩١٩ حين انتهت مدة خدمة السير ريجنالد ونجت المعتمد البريطاني في مصر، وذكر أنَّه بعد سنة ١٩٢٢ أصبح اهتمام الخزينة البريطانية باستغلال السُّودان عظيمًا. وأصبح مجموع الفوائد التي يدفعها السُّودان (بحسب آخر تقرير للسير جون مافي حاكم السُّودان السابق) ٩٧٦١٦٠ من الجنيهات، وهذا لا يدخل فيه حق الطَّرف المصري في المطالبة بفوائد الأموال التي قدمها ولم تُدفع عنها فوائد في يوم من الأيام، مع أنَّ فضل مصر العظيم لا يُنكر؛ فقد قامت بالمساعدة الجليلة، ولا تزال تقوم بها، بالأموال التي تدفعها إلى السُّودان.

وتكلَّم عن المدرسة الطبِّية في السُّودان فقال: «أنشئت مدرسة السُّودان الطبية في سنة ١٩٢٤، فكانت حجرًا جديدًا في بناء أمة السُّودان، وأحرزت هذه المدرسة — التي تخرج الأطباء السُّودانيين — نجاحًا باهرًا. غير أنَّ تطور السياسية البريطانية في مصر منذ سنة ١٩٢٢ كان له تأثيرٌ وردُّ فعل لا بدَّ منهما في السُّودان. ولمَّا قُتِل السير لي ستاك في أحد شوارع القاهرة اتَّخذت بريطانيا تدابير حكيمة أو غير حكيمة، ولكنَّها اشتملت على إخلاء الجيش المصري للسُّودان وإخراج جميع المصريين الموظفين في الوظائف المدنية، وياللأسف طغت هذه السِّياسة على شؤون التَّعليم في السُّودان، فأُقصِي عنها المصريون، وفقد السُّودان بذلك خير الأساتذة المهرة المدربين، ثمَّ يقول السير جيمس كري: «وأنا أقول عن علم ويقين إن الأساتذة المصريين لم تكن لهم جريرةٌ أو إثمٌ يبرِّر إخراجهم؛ فإنِّهم كانوا مخلصين في خدمة حكومة السُّودان التي يشتغلون في ظلِّها. وأريد في هذا المقام أن أُثني خير الثناء على العمل العظيم الذي قام به المصريون، وأسجِّل هنا اقتناعي بأنَّه لولا مساعدة المصريين لكانت نهضة التَّعليم — لا بل سائر الإدارات العامَّة في السُّودان — أمرًا مستحيلًا.»

«ثم أُلغيت مدرسة الخرطوم العسكرية التي كان يتعلم فيها الضبَّاط السُّودانيون ليلتحقوا بالجيش المصري بعد إتمام دراستهم في كلية غوردون، وبعد إلغائها غُيِّر نظام القوات العسكرية، وأصبح تعيين الضبَّاط من تحت السلاح، وهذا أعتبره خطوة إلى الوراء؛ لأنَّ ذلك النِّظام لا يتَّفق واستعدادات الأهالي العرب، وهو على الضدِّ من التَّقاليد السُّودانية، وكان الأجدر إبقاء مدرسة عسكرية لتدريب الضبَّاط من الشبان.»

ثم أنحى السير جيمس على بقاء أورطة ثانية إنكليزية في السُّودان فقال: «قد حضرت إلى السُّودان فرقة إضافية من الجنود البريطانيين استعدادًا للطوارئ عام ١٩٢٤، ولكنَّها بقيت وأضيفت إليها قوة من سلاح الطيران البريطاني، ومهما تكن مزايا الوحدات البريطانية فإنَّ النفقات الباهظة التي تصرف عليها لا شكَّ تُرهِق مالية السُّودان، «وما من أحد يريد الخير للسُّودان إلَّا ويتمنَّى من جميع الوجوه إزالة الأورطة الثَّانية البريطانية، فضلًا عن أن هناك حقيقة لا يمكن إغفالها؛ وهي أن السُّودان يستحيل أن يكون مركزًا صالحًا لإقامة الجيوش البريطانية».

ثم إنَّ تقدم السُّودان الاقتصادي بسبب ريِّ الجزيرة أدَّى إلى استحضار عدد من الموظفين البريطانيين من جميع الدرجات. وقد كانت وفاة السير لي ستاك — بلا ريب —

خسارة عظمى للسُّودان، ولو عاش لما حدثت الزيادة المطردة في الموظفين البريطانيين؛ لأنَّه كان أعلم الناس بضرر هذه السِّياسة في مصر.

ثم قال السير جيمس كري: «وقد لبَّيت دعوة حكومة السُّودان سنة ١٩٢٩ لحضور افتتاح خزَّان النِّيل الأزرق، ولاحظت تغيُّرًا في موقف كبار الموظفين الإنكليز في السُّودان بإزاء التَّعليم، وأن الاهتمام بشؤونه قد قلَّ. وتأكدت من ذلك لما زرت السُّودان لآخر مرة في سنة ١٩٣٢، ووجدت التَّعليم في تقهقر، وكنت قد تلقيت خطابًا من الدكتور ماكين ناظر مدرسة الهندسة بالسُّودان يشكو فيه إهمال حكومة السُّودان لهذه المدرسة، ويقول: إنَّ حكومة السُّودان عرضت نفسها لتهمة تأخير التَّعليم الفني الراقي في السُّودان.»

ثم ينادي السير جيمس كري في آخر تقريره بضرورة إحياء المدرسة الحربية وإنشاء مدرسة للحقوق ومدارس للزراعة، ثمَّ ضرورة تعمير جنوبي السُّودان؛ فإنَّ أمدَ إهماله طالَ إلى حدٍّ يعوق نهضة السُّودان الاقتصادية. ثمَّ يقول في النهاية: «ولعل جريدة «التيمس» لا تترجم إلى العربية في السُّودان، وإلَّا لكان السُّودانيون يطَّلعون فيها على آراء السَّاسة الإنكليز الواقفين على أحوال السُّودان، والذين ينادون بوجوب إجراء إصلاح واسع النِّطاق لإنعاش السُّودان، وإلَّا فإنَّ السُّودانيين، تحت ضغط آلامهم وما يقاسونه، يتنبَّهون وتقوى فيهم ملكة انتقاد السِّياسة التي تجرى عليهم، وإنَّ تطوُّر الحالة السياسية في السُّودان قد حرم السُّودان من المساعدة السَّخية التي كانت تقوم بها مصر في الزمن الماضى. ا.هـ.»

(٩) رأي المؤلف

والذي نعتقده بالرَّغم ممَّا حدث ولما تقدم، بأنَّ الارتباط بين مصر والسُّودان قد أصبح وثيقًا، بسبب إنشاء خزَّان جبل الأولياء، ومشروع وزارة الأشغال في إنشاء خزَّان أو حفر ترعة عند منطقة السدود، ولحملها على الاشتراك في إنشاء خزَّان تانا بالحبشة؛ لأنَّ ملايين الأفدنة المصريَّة ستعتمد على الرَّي بهذه المشروعات، ولأنَّ هناك ملايين المصريين الذين سيعولون عليها في حياتهم ورزقهم.

ومن جهة أخرى فإنَّ استتباب الأمن في السُّودان يهمُّ مصر جدًّا؛ لأنَّ اضطرابه يؤثر في أمن مصر ورخائها.

وقد علمت أنَّ سير «جون مافي» الحاكم العام للسُّودان سابقًا ووكيل وزارة المستعمرات البريطانية الآن قد بحث المسألة مع الموظفين الإنكليز بالخرطوم ومع الحكومة البريطانية ومع المولين الإنكليز — وانتهت بحوثه بأنه ليس هناك أمل في الوقت الحاضر في أن تشترك إنكلترا بأموالها في تعمير السُّودان أكثر ممَّا فعلت.

بالإنفاق على جيشها المحتل وعلى أراضي الجزيرة.

ومن ثَمَّ اتَّجهت أفكار وُلاةِ الأمور الإنكليز إلى فتح الباب للمصريين للمعاونة بأموالهم في تعمير السُّودان.

وأعتقد أن مسألة السُّودان قد أصبحت أقرب إلى الحل بالمفاوضات بين مصر وإنكلترا ممَّا كانت عليه سنة ١٩٣٠ وقبلها.

وأرى أن مسألة السُّودان يجب حلَّها في الخرطوم نفسها، وأدعو كلَّ سياسي مصري ليزور السُّودان وليبحث تاريخه وجغرافيته قبل المفاوضة، وأعتقد أن مسألة السُّودان قد صورت بصورة غير حقيقية في أثناء المفاوضات الماضية، وأنَّ الإنكليز قد غالوا في تصور أن السُّودان يستطيع أن يعيش مفصولًا عن مصر، وأن يتقدم مستقلًّا عنها، فلقد ثبت أخيرًا أن السُّودان لا يستطيع أن يحيا، فضلًا عن أن ينمو ويتقدَّم، بغير أموال مصر ورجالها، وأن السُّودان عبء على من يحكمه وليس من موارد الثروة.

على أنَّه إذا قُدِّر للسُّودان أن يعود إلى الحظيرة المصريَّة الخالصة، فقد يكون من الفائدة أن توضع له إدارة تختلف اختلافًا موضعيًّا عن الإدارة المصريَّة، وأن تكون جزءًا منها في المسائل العامَّة؛ لأنَّ للسُّودان ظروفًا خاصَّة، ولأنَّ في بُعده عن القاهرة ما يدعو إلى نظام اللا مركزية بين مصر والسُّودان.

على أنَّنا، نرجو للسُّودان ولإخواننا السُّودانيين حياة سعيدة ومستقبلًا زاهرًا.

(١٠) الوزارات المصرية من أول نشأتها إلى الآن

فيما يلى ننشر أسماء الوزارات التي تولَّت الحكم فى مصر منذ إنشاء الخديوي إسماعيل مجلس النُّظَّار فى سنة ١٨٧٨ حتَّى الآن:

	الوزارة	تاريخ تأليفها	مدة حكمها		
			يوم	شهر	سنة
في عصر الخديوي إسماعيل	نوبار باشا الأولى	٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨	١٣	٦	
	الأمير محمد توفيق باشا	١٠ مارس سنة ١٨٧٩	٢٨		
	محمد شريف باشا الأولى	٨ إبريل سنة ١٨٧٩	٢٥	٢	
في عصر الخديوي توفيق	شريف باشا الثَّانية	٣ يولية سنة ١٨٧٩	١٦	١	
	الخديوي توفيق	١٨ أغسطس سنة ١٨٧٩	١٤	١	
	رياض باشا الأولى	١١ سبتمبر سنة ١٨٧٩	١٨	١١	١
	شريف باشا الثالثة	١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١	٢٠	٤	
	محمود سامى باشا	٤ فبراير سنة ١٨٨٢	١١	٤	
	إسماعيل راغب باشا	٢٠ يونية سنة ١٨٨٢	١٢	٢	
	شريف باشا الرابعة	٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢	٠	٤	١
	نوبار باشا الثَّانية	١٠ يناير سنة ١٨٨٤		٥	٤
	رياض باشا الثَّانية	١٠ يونية سنة ١٨٨٨	٤	١١	٢
	مصطفى فهمي باشا الأولى	١٤ مايو سنة ١٨٩١	٤	٨	
في عصر الخديوي عباس حلمي	مصطفى فهمي باشا الثَّانية	١٧ يناير سنة ١٨٩٢	٢٨	١١	
	فخري باشا	١٥ يناير سنة ١٨٩٣	٢		
	رياض باشا الثالثة	١٩ يناير سنة ١٨٩٣	٢٧	٢	١

	الوزارة	تاريخ تأليفها	مدة حكمها		
			يوم	شهر	سنة
	نوبار باشا الثالثة	١٦ إبريل سنة ١٨٩٤	٢٦	٦	١
	مصطفى فهمي باشا الثالثة	١٢ نوفمبر سنة ١٨٩٥			١٣
	بطرس غالي باشا	١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨	١١	٣	١
	محمد سعيد باشا الأولى	٢٣ فبراير سنة ١٩١٠	١٠	١	٤
	حسين رشدي باشا الأولى	٥ إبريل سنة ١٩١٤	١٤	٨	
في عصر السُّلطان حسين كامل	حسين رشدي باشا الثَّانية	١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤	٢٢	٩	٢
في عصر السُّلطان فؤاد	حسين رشدي باشا الثالثة	١٠ أكتوبر سنة ١٩١٧		٦	١
	حسين رشدي باشا الرابعة	٩ إبريل سنة ١٩١٩	١٢		
	محمد سعيد باشا الثَّانية	٢١ مايو سنة ١٩١٩		٦	
	يوسف وهبة باشا	٢١ نوفمبر سنة ١٩١٩		٦	
	محمد توفيق نسيم باشا الأولى	٢٢ مايو سنة ١٩٢٠	٢٥	٩	
	عدلي يكن باشا الأولى	١٧ مارس سنة ١٩٢١	٩	٩	
في عصر الملك فؤاد الأول	عبد الخالق باشا ثروت الأولى	١ مارس سنة ١٩٢٢	٢٩	٨	
	محمد توفيق نسيم باشا الثَّانية	٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٢	١٥	٣	
	يحيى إبراهيم باشا	١٥ مارس سنة ١٩٢٣	١٣	١٠	
	سعد زغلول باشا	٢٨ يناير سنة ١٩٢٤	٢٧	٩	

الوزارة	تاريخ تأليفها	مدة حكمها		
		يوم	شهر	سنة
أحمد زيور باشا الأولى	٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤	١٩	٣	
أحمد زيور باشا الثَّانية	١٣ مارس سنة ١٩٢٥	٢٥	١٢	
عدلي يكن باشا الثَّانية	٧ يونية سنة ١٩٢٦	١١	١٠	
عبد الخالق ثروت باشا الثَّانية	٢٦ إبريل سنة ١٩٢٧	٢٠	١٠	
مصطفى النحاس باشا الأولى	١٧ مارس سنة ١٩٢٨	٨	٣	
محمد محمود باشا	٢٧ يونية سنة ١٩٢٨	٥	٣	١
عدلي يكن باشا الثالثة	٤ أكتوبر سنة ١٩٢٩	٢٧	٢	
مصطفى النحاس باشا الثَّانية	٢ يناير سنة ١٩٣٠	١٦	٦	
إسماعيل صدقي باشا الأولى	٢٠ يونية سنة ١٩٣٠	٤	٦	٢
إسماعيل صدقي باشا الثَّانية	٤ يناير سنة ١٩٣٣	١٩	٨	
عبد الفتاح يحيى باشا	٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٣	٩	١	١
محمد توفيق نسيم باشا الثالثة	١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٤			

هوامش

(١) لقد أثارت مناقشات البرلمان المصري والصحف حول الكف عن دفع هذا المبلغ قلق ولاة الأمور في السُّودان وإنجلترا خشية أن تقرر مصر يومًا ما الإمساك عن دفع هذا المبلغ فيستهدف السُّودان لخطر.

(٢) اللورد كرومر — من تقرير ١٩٠٥ ص١٧٣–١٧٤.

(٣) ملنر — من كتابه «إنكلترا في مصر» ص٧٣.

هنداوي